التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى سنة ٥١٤هـ

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققًا على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد الأول
الفاتحة - البقرة

دار اللباب

التيسير في التفسير

(١)

حُقُوق الطّبْع مَحفُوظَة

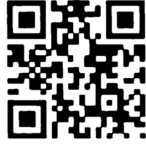
الطبعَة الأولىٰ

١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٢م

يُمنع طباعةُ هذا الكتاب أو ترجمته أو تصويرُه ورقياً أو إلكترونياً

إلا بإذن خطي من الدار الناشرة

تحت المُساءلة الدُّنيوية والأُخروية





9 789933 935047

دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

DAR-ALLOBAB

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

بيروت ـ لبنان
009615813966
0096170112990

دمشق ـ سوريا
00963993151546
info@allobab.com
Www.allobab.com

اسطنبول ـ تركيا
00902125255551
00905454729850



İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

التيسير في التفسير

تأليف الإمام المفسر العلامة

الإمام أبي نصر القشيري

أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القشيري

المتوفى سنة ٥١٤ هـ
رحمه الله تعالى

أول كتاب يبرز مطبوعًا للمؤلف
ويطبع محققاً على ثلاث نسخ خطية
إحداها مكتوبة سنة ٥٤٢ هـ بتحديث وقراءة الإمام أبي حفص
عمر بن أحمد الصفار النيسابوري زوج بنت المؤلف رحمه الله تعالى

حققه وقدم له
محمد خلوف العبد الله

المجلد الأول
الفاتحة - البقرة

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة التحقيق

إنَّ الحمدَ للهِ نَحمدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ التَّاريخَ الإسلاميَّ حافِلٌ بالإبداعاتِ التي دوَّنَها علماءُ أفذاذٌ وأئمةٌ عِظامٌ مُبتغين بها نَشْرَ هذا الدِّينِ لِينالوا بذلك ثوابَ ربِّ العالمينَ، وقد امتَلأتِ المكتباتُ الإسلاميَّةُ بكنوزِ العِلمِ والمعرفةِ التي سطَّرَها أولئك العُلَماءُ في مُختلَفِ الفُنونِ، ومع أنَّ كثيراً مِنها قد قيَّضَ اللهُ له مَن يُخرِجُه مِن ظُلُماتِ الخزائنِ ورُفوفِ المكتباتِ الأثريَّةِ إلى عالَمِ النَّشرِ والمطبوعاتِ، لكن لا زالَ الكثيرُ منها ينتظِرُ مَن ينفضُ عَنه غبارَ الإهمالِ.

ومِن المُصنَّفاتِ العَظيمةِ التي لم تمتدَّ لها يدُ التَّحقيقِ والنَّشرِ مُنذ عصورٍ وأزمانٍ هذا التَّفسيرُ الجليلُ الذي سمَّاه صاحِبُه: «التَّيسير في التَّفسير»، فكانَ اسماً على مسمًّى، فهو ميسَّرُ المَعاني والمَباني، حَسَنُ التَّحريرِ، جَمُّ الفوائدِ والعوائدِ،

ومُؤلِّفُـه: إمـامٌ عالم مُفسِّـر وهو عبـدُ الرَّحيمِ بـنُ عبدِ الكريمِ بـنِ هوازنَ القُشَـيْرِيُّ أبو نَصرٍ، أعلى أولادِ الأُسـتاذِ أبي القاسـمِ القُشَـيْرِيِّ في العِلْم محلًّا، وإن لم يَكُن أكبرَهُم وأعلَاهُـم سِـنًّا، وأحـدُ الجِلَّةِ المتقدِّمينَ مِـن أصحابِ الإمـامِ أبي المعالـي الجُوَيْنِيّ.

ويُعدُّ هذا التَّفسيرُ مِنَ الأهميَّةِ الكُبرى بمكانٍ، ذلك أنَّه يَنتمي إلى عصرٍ متقدِّمٍ هو أوائلُ القرنِ السَّادسِ الهجريِّ وقد سبقَ في التَّأليفِ جملةً مِن كتبِ التَّفسيرِ المهمَّةِ؛ كتفسيرِ البَغَويِّ والزَّمخشريِّ وأبي حَفصٍ النَّسفيِّ وابنِ عطيَّةَ وابنِ جُزَيٍّ والرَّازيِّ وغيرِها مِن كتبِ التَّفسيرِ المهمَّةِ. بل هو أولُ تأليفٍ يخرجُ للمؤلِّفِ إلى عالمِ الطِّباعةِ مِن جملةِ تآليفهِ الكثيرةِ المفقودةِ أو الَّتي لم يُعثرْ عليها حتَّى اليوم.

وفيه نقولٌ عزيزةٌ عن كتبٍ في التفسيرِ مَفقودةٍ؛ كتفسيرِ القفَّالِ الكبيرِ وأبي عليٍّ الجُرجانيِّ وغيرِهما.

ثمَّ إنَّ جَمعاً كبيراً مِن العلماءِ الَّذين صنَّفوا في التَّفسير بعدَه قد جعلُوه مَصدراً مهمًّا في كتاباتِهم، وأولُهم بل أكثرُهم أخذاً منه الإمامُ القُرطبيُّ في كتابهِ «الجامعِ لأحكامِ القرآن» حيثُ نَهلَ منه الكثيرَ وصرَّحَ بالنَّقلِ عنه في مئاتِ المواضعِ واعتمدَ ترجيحَه في كثيرٍ من مسائلِ التَّفسيرِ، عدا مئاتٍ أخرى أَغفلَ القُرطبيُّ ذكرَه في النَّقلِ عنه، فهو لذلكَ وغيرِه كتابٌ عَظيمُ الفَوائدِ جَليلُ العَوائِدِ.

وقـد توجَّهَـت عنايتُنـا منـذ زمـنٍ لخدمـةِ العُلـومِ الشَّـرعيَّةِ وإظهـارِ كُنوزِهـا، واسـتدراكِ مـا وقـعَ التَّقصيـرُ في حقِّهـا مِن تلـك المؤلَّفـاتِ، ونَهضنا في اسـتِخراجَ تلـك الكُنوزِ الدَّفينةِ، ليَسـتفيدَ مِنها أبناءُ الأمَّـةِ وتكونَ لهم عونًا لفَهْـمِ الدِّينِ والعَيْشِ فـي ظِلالـه الوارِفـةِ، وأيُّ علـمٍ أعظَمُ مِـن علمِ تَفسـيرِ القـرآنِ الكريم؟

وهكذا، فقَد بدأَ البحثُ والتَّنقيرُ عن نُسَخٍ لهذا التَّفسيرِ، حتَّى يسَّرَ المَوْلى الجليلُ لِمَا فيه التَّوفيقُ بالوقوف على ثلاثِ نسخٍ خطيةٍ منه بما يُمكنُ أنْ يكونَ إذنًا مِن المولى جلَّ وعلا ببدءِ تَحقيقِه والعِنايةِ به.

وقد كان مِن الصُّعوبات التي واجهتْنا أنَّ الكتابَ لم يُطبع قبلَ الآن، ولا يوجدُ له نسخٌ خطيَّةٌ كثيرةٌ، وما وُجِدَ منه ـ وهو الَّذي وقَفنا عليه وحَصَّلناهُ بحمدِ الله ـ فقد وصلَتْ نُسختانِ منه إلى (سورةِ المؤمنون)، وانفَردت الثَّالثةُ بتمامِ التَّفسيرِ حتَّى نهايتهِ، وكان العملُ فيها مِن الصُّعوبةِ الكبيرةِ بمكانٍ كما سيأتي في وصفِ النُّسخِ الخطيَّةِ.

هذا، وقد قدَّمنا للكتابِ بفصلَينِ؛ الأوَّل منهما: ترجمةٌ وافيَةٌ للمؤلِّفِ الإمامِ أبي نَصرٍ القُشيريِّ، نرى أنَّها أَوعَبُ ترجمةٍ كُتبتْ له قديماً وحديثاً، ولم يَسبِقْ أنْ قامَ أحدٌ مِن المتأخِّرينَ باستقصاءِ ترجمتِهِ أو كتابةِ شيءٍ عن حياتِه، فقُمنا لهذه الغايةِ بجمعِ كلِّ ما كُتبَ عنه عندَ المتقدِّمينَ في كتبِ التَّراجمِ والأَنسابِ وغيرِها، مع مُراعاةِ حُسْنِ السَّبكِ والتَّرتيبِ، فالحمدُ لله على توفيقهِ.

أمَّا الفصلُ الثَّاني: فاشتملَ على توثيقِ نسبةِ الكتابِ إلى مُؤلِّفهِ، وتحقيقِ اسمهِ، وخصائصِ هذا التَّفسيرِ وميِّزاتِه، ووصفِ النُّسخِ الخطيَّةِ المعتمدةِ في التَّحقيقِ، وختمتُها ببيانِ منهجِ التَّحقيقِ.

وفي الختامِ، نَحمَدُ اللهَ تعالى على جزيلِ عَطاياهُ بما امتنَّ علينا مِن إخراجِ هذا العملِ المبارَكِ الَّذي هو مِن أشرفِ الأعمالِ وأَعلاها، كيف لا؟! وهو تفسيرٌ لكتابِ الله عزَّ وجلَّ الَّذي لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يدَيهِ ولا مِن خلْفِه؛ تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ.

والشُّكرُ للإخوةِ والأساتذةِ الأفاضلِ الَّذين كانَ لهم عظيمُ الأثرِ في إخراجِ هذا العملِ وهمُ الأساتذةُ: ماهر أَديب حبُّوش، والدُّكتور عبد الرَّحمن الخطيب، ومحمَّد عبد الحليم بَعَّاج، وجمال عبد الرَّحيم الفارِس، وتوفيق محمود تُكْلة، وخالد محمَّد ياسين عُلوان، وفادي السَّيِّد، وهادي الهِنْدي، نسألُ اللهَ أنْ يجزيَ هؤلاءِ الإخوةَ الأفاضلَ خيرَ الجزاءِ، وأنْ يُثيبَهم خيرَ العطاء، وأنْ يوفِّقَهم لكلِّ خيرٍ وصوابٍ، إنَّه سبحانَه هو الكريمُ المنَّان.

ونسألُه سبحانَه الرِّضا والقبولَ لنا جميعاً، وأنْ يوفِّقنا لخدمةِ القرآنِ العظيمِ، فهو أعظمُ عملٍ للمُؤمنِ، وأكرمُه عندَ اللهِ تعالى، وأرجاهُ للقَبولِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتبه

محمد خَلُّوف العبد الله

٢١/ محرم/ ١٤٤٤هـ

١٩/ ٨/ ٢٠٢٢م

* * *

الفصلُ الأولُ
ترجمةُ الإمامِ
أبي نَصْرٍ القُشَيْرِيِّ[1]

ـ اسمُهُ ونسبُهُ:

هو زينُ الإسلامِ أبو نَصْرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ الأستاذِ أبي القاسمِ عبدِ الكريمِ بنِ هَوازنَ بنِ عبدِ الملكِ بن طلحةَ بن محمَّدٍ القُشيريُّ النَّيسابوريُّ الشَّافعيُّ، الإمامُ الفقيهُ المحدِّثُ النَّحويُّ المتكلِّمُ الواعظُ الأديبُ.

والقُشيريُّ: نسبةً لبني قُشير بن كعبٍ بن ربيعةَ بنِ عامر بنِ صعصعةَ، قبيلةٍ كبيرةٍ

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١١٩)، «المختصر من كتاب السياق لتاريخ نيسابور» (٢/ ٢١٥)، «تبيين كذب المفتري» (ص: ١٠٣)، «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٧/ ١٩٠)، «التدوين في أخبار قزوين» (٣/ ١٦٩)، «الكامل في التاريخ» (٨/ ٦٦٧)، «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٤٦)، «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٠٧)، «العبر في خبر من غبر» للذهبي (٢/ ٤٠٣)، «تاريخ الإسلام» (١١/ ٢٢١)، «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٢٤)، «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٢٠٠)، «مرآة الجنان» (٣/ ٢١٠)، «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٧/ ١٥٩)، «طبقات الشافعية» للإسنوي (٢/ ١٤٩). «البداية والنهاية» (١٦/ ٢٤٩)، «طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص: ٥٥٠)، «طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة (١/ ٢٥٨)، «طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٦٥)، «قلادة النحر» (٤/ ٢٦)، «طبقات المفسرين» للأدنه وي (ص: ١٥٦)، «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» (٢/ ٢٧١)، «الأعلام» (٣/ ٣٤٦).

من بني قيسِ عَيلانَ بنِ مُضرَ بن نزارِ بنِ مَعدِ بنِ عَدنان[١]، وأجدادُه من العربِ الذين صاروا إلى خُراسانَ وسكنوا نواحيَها.

والنَّيْسابوريُّ: نسبةً إلى نَيْسابور، قال ياقوتُ الحَمَويُّ: مدينةٌ عظيمةٌ ذاتُ فضائلَ جَسِيمة، مَعدِنُ الفُضلَاء، ومنبعُ العُلَماء، لم أرَ فيما طوَّفْتُ من البلادِ مَدينةً كانت مثلَها[٢].

مولدُه ونشأتُه:

ولدَ الإمامُ أبو نصرٍ القُشيريُّ في نيسابورَ بعيدَ سنةِ (٤٣٠هـ)[٣]، وهو الرابعُ من أولادِ الإمامِ أبي القاسمِ عبد الكريمِ بن هوازنَ القشيريِّ، وأعلاهم في العلمِ محلًّا، وأشبهُهم به خَلْقًا، حتى كأنَّما شُقَّ مِنه شقًّا[٤].

وقد نَشأَ الإمامُ القشيريُّ في بيتِ مليءٍ بالعلمِ والفضلِ والتَّربية والسُّلوكِ، وكلُّ أسرتِه من أعلامِ الفقهِ والحديثِ والتَّزكيةِ.

فوالدُه:

الإمامُ الأصوليُّ المتكلِّمُ المحدِّثُ المفسِّرُ الأديبُ زينُ الإسلام أبو القاسم عبدُ الكريم بنِ هوازنَ بنِ عبدِ الملك القشيريُّ (٣٧٦ - ٤٦٥هـ)، صاحبُ «الرسالة» و«لطائف الإشارات».

---

(١) انظر: «جمهرة أنساب العرب» (ص: ٢٧١).

(٢) انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٣٣١).

(٣) لم يذكر من ترجم له تاريخ مولده على التحديد، وإنما ذكروا أنه توفي في عشر الثمانين عام ٥١٤هـ، فيكون مولده قريبًا من هذا التاريخ، والله أعلم.

(٤) انظر: «المختصر من كتاب السياق لتاريخ نيسابور» (٢/ ٢١٥)، «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٤٦).

قال فيه سِبطُه عبدُ الغافرِ الفارسيُّ: (سيِّدُ وقتِه، وسرُّ الله بين خلقِه، شيخُ المشايخ وأستاذُ الجماعة، ومقدَّمُ الطَّائفة، ومقصودُ سالكي الطريقة، وبُندارُ الحقيقة، وعينُ السعادة، وقطبُ السيادة، وحقيقةُ الملاحة، لم يرَ مِثْلَ نفسِهِ، ولا رأى الرَّاؤونَ مثلَهُ في كمالِهِ وبراعتِهِ)[1].

وأمُّهُ:

السيِّدةُ الجليلةُ أمُّ البنينِ فاطمةُ بنتُ الأستاذِ أبي عليٍّ الدقَّاقِ (٣٩١ ـ ٤٨٠هـ)، الشَّيخةُ العابدةُ العالمةُ، فخرُ نِساء عَصرِها، نشأَتْ في تربيةِ أبيها وعنايتِه، فكانت حافظةً للقرآنِ عارِفةً بالكتابةِ، وعَقدَ لها أبوها مجالسَ التَّذكيرِ، وكانت مجتهدةً في العبادةِ والزُّهدِ، قانتةً، مُتهجِّدةً، كبيرةَ القدْرِ، سَمِعَت الحديثَ مِن مَشايخِ عَصرِها، وقُرِئَ عليها الكثيرُ[2].

وإخوتُه:

ـ **أبو سعد عبد الله (٤١٤ ـ ٤٧٧هـ)**، أكبرُ أولادِ الإمامِ أبي القاسمِ مِن الذُّكورِ، كان كبيرَ الشَّأنِ في السُّلوكِ، ذكيًّا أصوليًّا ذا حظٍّ وافرٍ في العربيَّةِ، سَمِعَ الكثيرَ في صِباه وأدركَ الأسانيدَ العاليةَ، وكان والدُه يُعامِلُه معاملةَ الأَقرانِ ويَحترمُه غايةَ الاحترامِ[3].

ـ **أبو سعيد عبدُ الواحد (٤١٨ ـ ٤٩٤هـ)**، محدِّثٌ فقيهٌ عابدٌ، اقتبسَ مِن فوائدِ والدِه واقتدى بحركاتِه وسَكَناتِه، سمعَ مِن شُيوخِ بَلدِهِ ومِن القاضيين

---

(١) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٣٦٥).

(٢) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٤٥٨)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٧٩).

(٣) انظر: «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ١٧٣)، «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٤٠٨).

أبـي الطَّيِّـبِ الطَّبريِّ وأبي الحسـنِ المـاورديِّ، خطبَ المسـلمينَ قريبًـا من خمسَ عشـرةَ سـنةً، وصـار فـي آخـرِ عمـرِه سـيِّدَ عَشـيرتِه، وصلَّـى عليـه أخوه أبـو نصرٍ القشيريُّ[١].

ـ **أبو منصور عبد الرَّحمن (٤٢٠ ـ ٤٨٢هـ)**، كانَ عالمًا عفيفَ النَّفسِ مُتورِّعًا، محتاطًا لنَفسِه في مَطعَمِه ومَشرَبِه ومَلبَسِه، سَمِعَ مِن شُيوخِ بلدِه، ومِن القاضي أبي الطَّيِّبِ الطَّبريِّ وأبي يعلى الفرَّاءِ وغيرِهم، وجاورَ بمكَّةَ وتوفيَ بها[٢].

ـ **أبو الفتح عبيد الله، (ت ٥٢١هـ)** كان عالِمًا فاضلًا كثيرَ العِبادةِ، وهو خامسُ إخوَتِه، وله مصنَّفاتٌ في علمِ الطَّريقةِ ومجموعاتٌ وأشعارٌ، سكنَ إسفرايينَ وحدَّث بها عَن والِده وشيوخِه[٣].

ـ **أبو المظفَّر عبدُ المنعم (٤٤٥ ـ ٥٣٢هـ)**، وهو أصغرُ أبناءِ الإمامِ أبي القاسمِ القُشيريِّ وآخرُهُم وفاةً، كان مُشتغِلًا بالزُّهدِ والعبادةِ، نشأَ في حِجْرِ أخيهِ أبي نصرٍ، وخرج للحجِّ معه، وخرَّج له أخوهُ أبو نصرٍ فوائدَ في عشرةِ أجزاءٍ عن أربعين شيخًا، وروى أبو المظفَّرِ كتبَ والِده، وبقي في نيسابورَ أكثرَ مِن عشرينَ سنةً يُحدِّثُ، وصلَّى على أخيه أبي نصرٍ بعدَ وَفاته[٤].

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (١٦/ ١٤٧)، «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٢٣٧)، «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٧٥٦).

(٢) انظر: «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٢٠٨)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ١٠٥).

(٣) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (١٧/ ٥٣)، «التحبير» (١/ ٣٨٧)، «تاريخ الإسلام» (١١/ ٣٧٠).

(٤) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (١٦/ ٩١)، «تاريخ الإسلام» (١١/ ٥٧٢)، «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٢٦٢)، «المنتظم» (١٧/ ٣٣٠).

وأخواتُه:

- **أَمَةُ الرَّحيم كريمةُ** (٤٢٢ ـ ٤٨٦هـ)، كانت مِن العالِمَاتِ العابداتِ الصَّالحاتِ، أخذَتْ طريقَ الزُّهدِ والعبادةِ عَن والدَتِها، وطريقَ المعرفةِ عن أبيها وإخوتِها وأخواتِها، وسمعَتْ مِن أبيها الكثيرَ، تزوَّجَها إسماعيلُ بنُ عبدِ الغافرِ الفارسيُّ، فولدَ لهما الحافظُ عبدُ الغافرِ صاحبُ «مَجْمَعِ الغرائب» و«السياق لتاريخ نيسابور»(١).
- **أمةُ اللهِ ماهك**(٢).

وقد كان لهذه الأسرةِ العلميَّةِ أثرٌ كبيرٌ في نشأةِ الإمامِ أبي نصرٍ، واختلافِه إلى دُروسِ العلمِ منذُ نعومةِ أَظفاره، فأدركَ الأكابرَ وروى عنهم.

طلبُه للعلمِ:

نَهلَ الإمامُ أبو نصرٍ مِن مَعينِ أبيه، فربَّاه أبوهُ أحسنَ تربيةٍ، وعلَّمه العربيَّةَ حتى تمكَّنَ ونبغَ فيها، وقرأ الأدبَ حتى صارَ يَنظمُ وينثرُ مِن عُقودِ المعاني سمطَ حسنِ المباني، واستوفى الحظَّ الأوفرَ مِن علمِ الأصولِ والتَّفسيرِ، وحصَّل فنونًا مِن العلمِ، ورُزِقَ من السُّرعةِ في الكتابةِ حتَّى كان يكتبُ كلَّ يومٍ مبلغًا كثيرًا لا يلحقهُ في ذلك مشقَّةٌ، فحصَّلَ أنواعًا من العلومِ الدَّقيقةِ والحسابِ الذي يُحتاجُ إليه في علمِ الشَّريعةِ.

---

(١) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٤٦٨).

(٢) ذكرها السمعاني في «التحبير» (ص: ٥٠٦) في ترجمة أبي يعلى الجزباري، قال: سمعَ أمة الله ماهك بنت عبد الكريم القشيري، اهـ. ولم أقف لها على ترجمة.
وفي ترجمة أحمد بن محمد بن الحسن الفوركي سبط أبي بكر بن فورك (ت ٤٧٨هـ) أنَّه تزوجَ ابنةَ أبي القاسم القشيري الوسطى، انظر: «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٤١٩)، «الوافي بالوفيات» (٧/ ٢٤٣)، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ لأبي نصر ثلاث أخوات: كبرى ووسطى وصغرى، وفي قول الفارسي في ترجمة أمه: «وأخواتها» إشارة إلى ذلك أيضًا، والله أعلم.

فصارَ قرَّةَ عينِ أبيهِ، وكانَ والدُه يشاهدُ ما هو فيه فيعتَدُّ بمكانِه ويقدِّمُه على أقرانِه، وقرأ أبو نصرٍ كذلك جُلَّ مصنفاتِ أبيه عليه، وحدَّثَ بها مِن بعده.

ثمّ بعدَ وَفاة والدِه، انتقلَ أبو نصرٍ إلى مجلسِ إمامِ الحرمينِ أبي المعالي الجُوَيني، وواظبَ على درسِه وصُحبَتِه ليلًا ونَهارًا، ولازمَهُ مُلازمةً تامَّةً، حتى حصَّلَ طريقتَه في المذهبِ والخلافِ والأُصولِ.

وكان الإمامُ يعتدُّ به ويستفرغُ أكثرَ أيَّامِه معهُ مُستفيدًا منه بعضَ مَسائلِ الحسابِ في الفرائضِ والوصايا، وبلغَ مِن مَنزلتِه عندَه أنَّ الجُوَينيَّ كان يُنشِدُ إذا دخلَ أبو نصرٍ عليه:

يَميسُ بِغُصنٍ إذا ما بدا ويبدو كشمسٍ ويَرنو كَريم

معاني النَّجابةِ مَجموعَةٌ لعبدِ الرَّحيمِ بنِ عَبدِ الكَريم

قال ابن السُّبكيِّ: (وأعظمُ ما عَظُمَ به أبو نصرٍ: أنَّ إمامَ الحرمينِ نقلَ عنه في كتابِ الوصيَّةِ مِن «النهاية»، وهذه مرتبةٌ رفيعةٌ)(١).

رحلاتُه ومجالسُه:

ثمَّ قصدَ الحجَّ، فمرَّ في طريقِه ببغدادَ ودخلَها، وجلَسَ في المدرسة النظاميَّةِ يعظُ الناس، ورأى أهلُ بغدادَ فضلَه وكمالَه وعاينوا خِصالَه، وبدا له مِن القَبولِ عندهم ما لم يُعهَدْ مثلُه لأحدٍ قبلَه، وحضرَ مجلِسَه الخاصُّ والعامُّ والأكابرُ والأئمَّةُ كالإمامِ أبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ وغيرِه، وكان قلَّما يخلو مجلسٌ مِن مَجالسِه عن إسلامِ ذِمِّيٍّ.

قال ابن السُّبكيِّ يصفُ مجلسَه: تُلتقطُ الدُّررُ من كلمِه، ويتناثرُ الجوهَرُ مِن

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٥٩)، وانظر: «نهاية المطلب» للجويني (١١/ ٢٠١).

حِكَمِه، ويؤوبُ المذنبُ عند وعظِه، ويتوبُ العاصي بمجرَّدِ سماعِ لَفظِه، يَنطبعُ في القلبِ مِن كلماتِه صُورة، ويحدُثُ للأَنفُسِ الزَّكيَّةِ مِنه عِظاتٌ إذا مدَّها لم تَكُن على أهلِ الطَّاعةِ مَقصورة، كم مِن فاسقٍ تابَ في مجلسِه ودخلَ في الطَّاعَة، وكم مِن كافرٍ آب إلى الحقِّ ساعةَ وَعظِه وآمنَ في السَّاعَةِ بمن بُعِثَ بين يَدي السَّاعَة ﷺ، لو استمعَ له الصَّخرُ لانفلَقْ، ولو فهمَ كلامَهُ الوحشُ لاستحسنَهُ وقال: صَدَق، يصدعُ القلبَ القاسي خِطابُه، ويكادُ يجمعُ عِظامَ ذوي الغفلةِ النَّخِرَةِ عِتابُه، ويُشتِّتُ شملَ الشَّياطينِ ما يقول، ويُفتِّتُ الأكبادَ ما يجمعُه مِن الحقِّ المقبول(١).

وحجَّ وعادَ إلى بغدادَ، ثمَّ جرى له فيها فتنةٌ، ثمَّ حجَّ مرةً أخرى في أكملِ حُرمَةٍ وترفُّهٍ في خدمةٍ مِن أميرِ الحاجِّ، ثـمَّ رجعَ ونارُ الفتنةِ ما زالت تضطرمُ في بغدادَ، فاستدعاهُ نظامُ المُلكِ بأصبهانَ وأكرمَه، ثم أمرَهُ بالرجوعِ إلى بلدِه، وتفصيلُ أمرِ هذه الفتنةِ يَطولُ(٢).

أسرته:

ابنه: **أبو القاسم فضل الله (ت ٥١٨هـ)**، قال عبدُ الغافرِ الفارسيُّ: شابٌّ نشأَ في تربيةِ والدِه، حملَه أبوه على التعلُّمِ فما كان يرغبُ إلا في التَّنزُّهِ والتَّفتِّي مُشتغلًا بنفسِه مُعرِضًا عن العلومِ(٣).

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٥٩).

(٢) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١٠/ ١٠٤)، «المنتظم» (١٦/ ١٨١)، «تاريخ الإسلام» (١١/ ٢٢١)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٦٢).

(٣) ذكره عبد الغافر الفارسي في «السياق»، انظر: «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٣٤٢).

وفيه يقولُ والدُه[١]:

كَمْ حسرةٍ لي في الحشَا ... مِن وَلَدِي حينَ نَشَا
كُنَّا نَشَا فلاحَهُ ... فَمَا نَشَا كَمَا نَشَا

بناتُه:

- **أَمَةُ اللهِ جَلِيلة (٤٧٢ ـ ٥٤١هـ).**
- **أَمَةُ الرَّحيمِ حُرَّة (٤٧٧ ـ ٥٣٤هـ).**
- **أَمَةُ الرَّحمنِ سارَة**، وكلُّهنَّ من الصَّالحاتِ العابداتِ[٢].

صهرُه: عصامُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمَرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ الصَّفَّارُ النَّيسابوريُّ (ت ٥٥٣هـ)، من أحفادِ الإمامِ أبي بكرِ بنِ فُورَك، والفقيهِ أبي بكرٍ الصفَّارِ، ومِن أسباطِ أبي القاسمِ القشيريِّ، وهو خَتَنُ الإمامِ أبي نصرٍ القُشيريِّ على ابنتيهِ، فقد تزوَّجَ أمةَ الرَّحيمِ حرَّةَ بنتَ الإمامِ أبي نصرٍ، وبعد وفاتِها تزوَّجَ أختَها أمةَ اللهِ جليلة، وأبو نصرٍ القشيريُّ أيضًا خالُ أمِّه[٣].

قال عنه ابنُ السَّمعانيِّ: إمامٌ، بارعٌ، مُبرِّزٌ، جامعٌ لأنواعِ الفضلِ مِن العلومِ الشَّرعيَّةِ، وكان سديدَ السِّيرةِ، مُكثرًا من الحديثِ.

وذكرَ ابنُ النَّجارِ في «ذيل تاريخ بغداد» أنه حدَّث ببغدادَ سنةَ اثنتينِ وأربعينَ

---

(١) انظر: «شذرات الذهب» (٦/ ٧٣).

(٢) ذكرهن السمعاني في «التحبير» (٢/ ٤٠٠، ٤٠٢، ٤١٢) وقد سمع منهنَّ.

(٣) ذكر ذلك في بداية هذا الكتاب «التيسير في التفسير»، قال: أخبرنا خال أمي الشيخ الإمام زين الإسلام أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري.

وخمس مئة بكتابِ «التَّيسير في التفسيرِ» للإمامِ أبي نصرِ القُشَيريِّ، وأجزاءٍ أُخَر[١].

وهو راوي إحدى النُّسخةِ الخطيَّةِ المعتمدةِ في هذه الطَّبعةِ وهي نسخةُ مكتبةِ فيضِ الله أفندي المرموزِ لها بـ(ف)، وهي مقروءةٌ عليه ببغدادَ، وتاريخُها هو المذكورُ في كلامِ ابن النَّجارِ كما سيأتي في وصفِ النسخِ المعتمدةِ.

شيوخُه:

أمَّا شيوخُه في **الفقهِ والعلومِ**، فوالدُه الإمامُ أبو القاسمِ عبدُ الكريمِ بن هوازن القُشيريُّ (٣٧٦ـ٤٦٥هـ)، وإمامُ الحرمينِ الإمامُ أبو المعالي عبدُ الملكِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ يوسفَ الجُوَيْنيُّ (٤١٩ـ٤٧٨هـ)، وهما أجلُّ شيوخِه، وعليهما تخرَّجَ[٢].

وأمَّا شيوخُه في الحديثِ فكثيرونَ، مِنهم[٣]:

١ ـ الإمامُ الحافظُ أبو بكرٍ أحمَدُ بن الحسينِ **البَيْهقِيُّ** (٣٨٤ـ٤٥٨هـ)، صاحبُ «السنن».

٢ ـ أبو حامدٍ أحمدُ بن عليِّ بنِ محمَّدِ **بنِ عبدوسَ** (٤١٨ـ٥٠٦هـ)، قرأ عليهِ سنةَ ٤٩٦هـ[٤].

٣ ـ أبو الحسينِ أحمدُ بن محمَّدِ بنِ أحمدَ **بنِ النَّقُّور** (٣٨١ـ٤٧٠هـ)، سمعَ منه ببغدادَ.

---

(١) انظر «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢٠/ ٢٢). «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٤٠٧)، «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٧٢).

(٢) مضى طرفٌ من ذلك في الحديث عن طلبه للعلم.

(٣) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١١٩)، «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٢١٦).

(٤) انظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٢٣).

٤ ـ أبو عثمانَ إسماعيلُ بن عبد الرَّحمنِ **الصَّابونيُّ** (ت ٤٤٩هـ)، سمعَ منه الحديثَ.

٥ ـ الحافظُ أبو القاسمِ سَعدُ بن عليٍّ **الزَّنْجَانيُّ** (ت ٤٧١هـ)[١].

٦ ـ أبو عثمانَ سعيدُ بن أحمدَ **النَّجَيْرَمِيُّ**.

٧ ـ أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ الحُسينِ **الناصِحيُّ**، قاضي القضاةِ وشيخُ الحنفيَّةِ.

٨ ـ **أبو الحُسَين عبدُ الغافرِ الفارسيُّ** (ت ٤٤٨هـ)، سمعَ منه «صحيحَ مسلم» و«غريب الحديث» للخطَّابيِّ[٢].

٩ ـ أبو القاسمِ عبدُ العزيزِ بن عليٍّ **الأنماطيُّ** (ت ٤٧١هـ)، سمعَ منه ببغدادَ.

١٠ ـ **أبو حفصٍ عُمَرُ بنُ مَسرورٍ** الزَّاهدُ.

١١ ـ أبو سعدٍ محمَّدُ بن عبدِ الرَّحمنِ **الكَنْجَرُوذِيُّ** (ت ٤٥٣هـ).

١٢ ـ يوسفُ بنُ محمَّدِ بنِ أحمدَ **المَهْرَوانيُّ** (ت ٤٦٨هـ)، سمعَ منه ببغدادَ.

وسَمِعَ أيضًا مِن والدتِه أمِّ البنينِ فاطمةَ بنتِ الأستاذِ أبي عليٍّ الدَّقَّاقِ. ومِن شيوخِ بلدِه مِن البَحيريَّةِ والصَّاعديةِ والسَّادةِ والنُّقباءِ[٣].

تَلامِذَتُه:

١ ـ أحمدُ بنُ عليِّ بن أحمدَ بن الحسينِ الفقيه الأديبُ[٤].

---

(١) انظر: «طبقات المفسرين» للسيوطي (ص: ٦٦).

(٢) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١١٩). «التدوين في أخبار قزوين» (٣/ ١٦٩).

(٣) البحيرية والصاعدية: نسبةً إلى البَحيريِّ والصاعدي، عائلات معروفة بالحديث والعدالة والتزكية.

(٤) انظر: «تاريخ بيهق» (ص: ٤٥١).

٢ ـ الأميرُ أبو الفتوحِ إسحاقُ بن فخرِ الملكِ أبي الفَتحِ المظفرِ بن نظامِ الملكِ، سمعَ من أبي نصرٍ «صحيحَ مسلم» وغيرَه[١].

٣ ـ أبو سالمٍ أحمدُ بن مَزيدَ بنِ نبهانَ الأسديُّ الأبهريُّ (ت ٥٧٩هـ)، أجازَ له روايةَ مَسموعاتِه سنةَ ٥١٠هـ[٢].

٤ ـ أبو عليٍّ الحسنُ بنُ عليٍّ المعروفُ بابنِ الفرَّاءِ الأنصاريُّ البَطَلْيَوْسيُّ الأندلسيُّ (ت ٥٦٨هـ)، أخذَ عنه الفقهَ وعلم الكلامِ[٣].

٥ ـ أبو محمَّدٍ الحسنُ بن عليِّ بن المؤيديِّ[٤].

٦ ـ أبو القاسمِ سَهلُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ السَّرَّاجُ النَّيسابوريُّ الزَّاهدُ (ت ٥٤٧هـ)، تفقَّه على أبي نصر القُشيريِّ[٥].

٧ ـ أبو الفضلِ عبدُ اللهِ بنُ أبي نصرٍ أحمدَ الخَطيبُ الطُّوسيُّ (٤٨٧ ـ ٥٧٨هـ)[٦].

٨ ـ مجدُ الدِّينِ أبو سعدٍ عبدُ اللهِ بن أبي حفصٍ عُمرَ بنِ أحمدَ بنِ منصورٍ الصفَّارُ (٥٠٨ ـ ٦٠٠هـ)، وهو سبطُ أبي نصرٍ القُشيريِّ، وآخرُ مَن حدَّثَ عنه[٧].

٩ ـ أبو طاهرٍ صاعدُ بنُ سعيدٍ العطَّاريُّ، روى عن أبي نصرٍ «غريبَ الحديث» للخطَّابيِّ[٨].

---

(١) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ١٦٨).

(٢) انظر: «التدوين في أخبار قزوين» (٢/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «الأنساب» (٢/ ٢٦٠)، «بغية الطلب» (٥/ ٢٥٠٦)، «الوافي بالوفيات» (١٢/ ٩٠).

(٤) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٢٠٤).

(٥) انظر: «تاريخ الإسلام» (١١/ ٩٠٦).

(٦) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١٠٢)، «مجمع الآداب في معجم الألقاب» (٤/ ٤٣٢)

(٧) انظر: «تاريخ الإسلام» (١٢/ ١١٩٩).

(٨) انظر: «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٣٤٤).

١٠ ـ أبو خلفٍ عبدُ الرَّحمنِ بنُ هبةِ الرَّحمنِ بن عبد الواحدِ بن عبدِ الكريمِ بن هوازنَ القُشَيريُّ، حفيدُ أخيهِ[١].

١١ ـ أبو نصرٍ عبدُ الرَّحمنِ بن محمَّدِ الخَرْجِرْدِيُّ الخَطِيبيُّ (٥٤٨هـ)[٢].

١٢ ـ أبو الفتوحِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ محمَّدٍ السَّلْمُويي اللبَّادُ (٤٧٧ ـ ٥٣٦هـ)، تفقَّه على أبي نصرٍ القُشَيريِّ[٣].

١٣ ـ عبد الرحمنِ بن عبد الصَّمدِ الأَكَّافُ (ت٥٤٩هـ)، تفقَّه على أبي نصرٍ القشيريِّ[٤].

١٤ ـ عبدُ الرَّحيمِ بنُ أحمدَ بنِ الإخوةِ البَغداديُّ (٥٠٦هـ)، وقد صلَّى عليه أبو نصرٍ القُشَيريُّ[٥].

١٥ ـ أبو المحاسنِ عبدُ الرَّزَّاقِ بنُ محمَّدِ بنِ أبي نَصرٍ الطَّبَسيُّ[٦].

١٦ ـ عبد الكريمِ بن محمَّدِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الشريكُ التَّميميُّ، تفقَّه على أبي نصرٍ القُشيريِّ[٧].

١٧ ـ الإمامُ أبو سعدٍ عبدُ الكريمِ بن محمَّدِ بنِ مَنصورٍ المعروفُ بابنِ السَّمعانيِّ، إجازةً[٨].

---

(١) انظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص: ١٠٢٣).

(٢) انظر: «المنتخب من شيوخ السمعاني» (ص: ٤٧٩)، «تاريخ الإسلام» (١١/ ٩٣١).

(٣) انظر: «تاريخ الإسلام» (١١/ ٦٥٦)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٥٧).

(٤) انظر: «الأنساب» (ص: ٣٣٥).

(٥) انظر: «المختصر من كتاب السياق» (٢/ ٢١٧)، «الأنساب» (٨/ ١٢٤).

(٦) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٣٩٢).

(٧) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٣٦٧).

(٨) انظر: «طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص: ٥٥٠).

١٨ ـ أبـو المعالي عبدُ المنعمِ بـنُ أبـي البركاتِ عبدِ اللهِ الصَّاعديُّ الفُراوِيُّ النَّيسابوريُّ (٤٩٧ ـ ٥٨٧هـ)(١).

١٩ ـ أبو الفتحِ عبدُ الواحدِ بنُ الحسنِ البَاقَرْحِيُّ الشَّافعيُّ (٤٨٢ ـ ٥٥٣هـ)(٢).

٢٠ ـ أبو القاسمِ عليُّ بن الحسنِ بنُ هبةِ اللهِ بن عَساكرَ (٥٧١هـ)، أجازَه أبو نصرٍ مُكاتبةً، **وروى ابنُ عساكرَ عَن أبي نَصْرٍ في «تاريخ دمشق» مِرارًا**.

٢١ ـ عصامُ الدِّينِ أبو حفصٍ عُمَرُ بنُ أحمدَ بن منصورٍ الصفَّارُ النَّيسابوريُّ (ت ٥٥٣هـ)، خَتَنُه على ابنتيهِ(٣).

٢٢ ـ أبو بكرٍ القاسمُ بنُ أحمدَ بنِ مَنصورٍ الصفَّارُ (ت ٥١٦هـ)، مِن أحفادِ أبي بكرِ بنِ فُوْرَك وأبي القاسمِ القُشيريِّ، تفقَّه على أبي نصرٍ، وهو أخو الذي قبلَه(٤).

٢٣ ـ أبو بكرٍ القاسمُ بنُ عليِّ بن منصورٍ البَاخَرْزِيُّ(٥).

٢٤ ـ أبو الفتحِ محمَّدُ بن الحسينِ بنِ أبي الفتحِ الهَمذانيُّ (قبل ٥٠٠ ـ ٥٤٨هـ)(٦).

٢٥ ـ أبو طاهرٍ محمَّدُ بنُ دَرَسْتويه بن محمَّدِ العصارِيُّ الهَمْدانيُّ (ت ٥٣٣هـ)، درسَ الكلامَ على أبي نصرٍ(٧).

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (١٦/ ٨٧، ٢١/ ١٣١). و«التكملة لوفيات النقلة» (١/ ١٥٨).

(٢) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (١٦/ ١٣١)، و«المنتخب من كتاب السياق» (ص٣٧٢).

(٣) مضى التعريف به في ذكر أسرته.

(٤) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ٢٦٥).

(٥) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٤٦٥).

(٦) ذكره السمعاني في «التحبير» (٢/ ١١٩).

(٧) انظر: «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٢٨٨).

٢٦ ـ أبو الفتحِ محمَّدُ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ أحمدَ الشَّهْرَسْتَانيُّ (ت ٥٤٨هـ)، صاحبُ «الملل والنحل» و«نهاية الإقدام»، قرأَ الكلامَ والأصولَ على أبي نصرٍ القُشيريُّ[١].

٢٧ ـ الشَّريفُ أبو حربٍ المظفَّرُ بن عليٍّ الهَمذانيُّ، صحبَ أبا نصرٍ القُشَيريَّ وكتبَ تصنيفَه في التَّفسيرِ[٢].

٢٨ ـ أبـو هارونَ مُوسى بنُ عبد الله الأَغْمَاتيُّ المغربيُّ (ت بعد ٥١٦هـ)، تفقَّه على أبي نصرٍ القُشَيريِّ[٣].

شعرُه:

كان أبـو نصـرٍ القُشـيريُّ عالِمًـا بالعربيَّـةِ، وكان لـه الخاطـرُ الحسـنُ والشِّـعرُ المليـحُ، وشِـعرُه مقطَّعـاتٌ تنـدرجُ تحـتَ مـا يُسـمِّيهِ الأدبـاءُ (شـعر الفقهـاء)، وقد ضمَّنَهـا معانـيَ مفيـدةً بألفـاظٍ رائقـةٍ، وأغلبُهـا فـي الزُّهـدِ والتَّزكيةِ والأخـلاقِ، وله (ديـوان)[٤]. ومِـن شِـعره:

قوله[٥]:

مات الكِرامُ ومرُّوا وانقضَوْا ومضَوْا ... ومـاتَ في إثرِهِـم تلـك الكرامَـاتُ

وخلَّفُـونيَ في قـومٍ ذَوِي سَـفَهٍ ... لو أبصَرُوا طَيفَ ضيفٍ في الكَرَى ماتُوا

---

(١) انظر: «الدر الثمين في أسماء المصنفين» لابن أنجب الساعي (ص: ١٨٧).

(٢) انظر: «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٥٠٣)، وفي «التدوين في تاريخ قزوين» (٤/ ٩٦): المطهر.

(٣) انظر: «الأنساب» (١/ ٣٢٠)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ٣٠٩).

(٤) سيأتي وصفهُ في مصنفاته.

(٥) انظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص: ٤٧٩).

وقوله[١]:

رَبَّ أَخٍ سُـمْتُهُ فِراقِـي ... وَكنتُ مِن قبلُ أَصطفِيهِ
ذَاكَ لِأَنِّـي ارتجَيْتُ رُشدَه ... فلاحَ أَنْ لَا فلاحَ فِيهِ

وخرجَ يومًا إلى تعزيةِ بعضِ النَّاس، وكانَ يومًا كثيرَ الوحلِ، فأصابَ ثيابَه، وتلوَّثَ، فلمَّا رجعَ إلى منزلِه أنشدَ:

لَهْفي علـى مَا كنتُ فِيهِ ... مِن الفراغَةِ والدَّعَهْ
قَدْ كانَ قلبِي سَالِيًا ... فقَلَى السُّلُوَّ ووَدَّعَهْ

قَالَ ابنُ الصَّلاحِ: الفراغَة، بِالْهَاءِ تستعملُها الْعَجمُ، وَلَا أصلَ لَهَا فِي اللُّغَة نعلمهُ، فَالله أعلم[٢].

وله في الغزلِ[٣]:

تقبيلُ خَدِّكِ أشتهي ... أملٌ إليه أنتَهِي
لو نِلتُ ذلكَ لَمْ أُبَلْ ... بالرُّوحِ مِني أنْ تَهِي
دُنيايَ لَذَّةُ ساعةٍ ... وعلى الحَقيقةِ أنتِ هِي

وَأَنْشد في الشَّيبِ[٤]:

دَعْنِي فَإِنَّ غَرِيمَ الشَّيبِ لازَمَني ... هَذَا زَمَانكَ فامرَحْ فِيهِ لَا زمَنِي

---

(١) انظر: «الأنساب» (٣/ ٤١٠)، «طبقات الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٢١٤).

(٢) انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٤٨).

(٣) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١١٩).

(٤) انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٥٤٩).

وكتبَ شابٌ إليهِ يستفتيه(١):

يَــا إِمَامًا حــوَى الفَضائــلَ طُرًّا ... طبــتَ أَصــلًا وزادكَ اللهُ قَــدرَا
مَا على عاشــقٍ رأى الحُبَّ مُحْــتا ... لَا كغصـــنِ الأَرَاكِ يحمِــلُ بــدرَا
فدنَــا نَحــوه يقبــلُ خَدَّيْــ ... ــه غرامًــا بِــهِ ويلثــمُ ثغــرَا
وَعَليــهِ مِــن العفــافِ رَقِيــبٌ ... لَا يُــداني فِي ســنةِ الحــبِّ غدرَا

فأجابَ رحمه اللهُ:

مــا عــلى مَــن يُقبِّــلُ الحِــبَّ حَــدٌّ ... غــيرَ أَنِّي أرَاهُ حــاولَ نُكْــرا
امتحــانُ الحبيــبِ باللَّثْــمِ حَيــفٌ ... لَــو تعفَّفْــتَ كانَ ذلــك أَحْــرَى
لا تــشرَّفْ للثــمِ خــدٍّ وثغــرٍ ... فتُلاقــي فِي لحــظِ نَفسِــكَ مُــرًّا
واخــشَ منــهُ إِذا تســامَحْتَ فِيــهِ ... غائــلاتٍ تجــرُّ إثــمًا ووِزْرَا
قَمْعُــكَ النَّفــسَ دَائِــمًا عَــن هَواهَــا ... لَــك خــيرٌ فَأَلْــزِمِ النَّفــسَ صَــبْرَا
مَــن بــلاهُ إلهــهُ بهــوى الخَلــ ... ــقِ فقَــدْ ســامَهُ هوانًــا وصغــرَا
فاجتنبهُــمْ وراقــبِ اللهَ سِرًّا ... فهــوَ أَوْلى بنــا وأعظــمُ أجــرَا
ذا جــوابٌ لابــنِ القُشَــيرِي فاسـمَعْ ... إن أردتَ السَّــدادَ سِرًّا وجَهْــرَا

وَمن شِعره(٢):

ليَــالِي وصــالٍ قَــد مَضــينَ كأَنَّهــا ... لآلِي عقــودٍ فِي نحــورِ الكواعــبِ
وَأَيَّــامُ هــجــرٍ أعقبَتْهــا كأَنَّهــا ... بيــاضُ مَشــيبٍ فِي سَــوادِ الذَّوائــبِ

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

(٢) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢١/ ١١٩)، «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٢٠١).

وجلسَ في المدرسةِ النّظامية للوعظِ فِي شهرِ رمضان، فَمُطِرُوا فَأَنْشدَ في ذلك:

رَمَضَـانُ أرمِضْنـي بعـاداتٍ عـلـى عــدِ الطَّبائـعِ والفُصـولِ الأَربعَـة
صَـوْمٍ وَصـوبٍ مَـا يغيـبُ سَـحابُه وصَبابةٍ وصُـدودِ مَـن قلبِـي مَعـه[١]

وكان يقولُ في دُعائِه:

هـا قـد مَـددتُ يَـدِي إليـكَ فرُدَّها بالفَضْـلِ لا بشَـماتةِ الأعـداءِ[٢]

ومن نثره توقيعٌ كتبَهُ على جملةِ أبياتٍ لأبي سعيدٍ مَنصورِ بن سهلٍ الجُوينيِّ، وهو: «هذه قلائدُ حُسْنٍ تسلبُ القلبَ صنعَتُها، وولائدُ فكرٍ يخلبُ الخلبَ واللّبَّ جودَتُها، صدَرَتْ عمَّنْ هو المرموقُ في بابِه، مِن بين أضرابِه، وكلُّ بيتٍ منها مِن أدلّ شيءٍ على فضلِ قائلِه، وإن كانَتْ أقلَّ فَضائلِه»[٣].

مصنَّفاتُه:

ـ «**التَّيسيرُ في التَّفسير**» وهو كتابُنا هذا، وسيأتي الحديثُ عنه مُفصَّلاً

ـ «**المختصر في التفسير**» اختصره من كتابِهِ السَّابق، له نسخةٌ خطيةٌ ـ هي قطعةٌ من أوَّلِ القرآنِ حتَّى سورةِ لُقمان تخلَّلها خَرمٌ كثيرٌ ـ في مكتبة خالص أفندي في جامعة اسطنبول، وسيأتي وصفُها في النسخِ الخطيةِ المعتمدةِ في التَّحقيقِ.

ـ «**المرشد**»، ذكرَه الزَّركشيُّ في «البرهان» ونقلَ منه، وتبعه السُّيوطيُّ في «الإتقان»، ونقل منه ابنُ حجر الهيتميُّ في مَواضعَ[٤].

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» (١٨/ ٢٠١).

(٢) انظر: «طبقات الشافعيين» لابن كثير (ص: ٥٥١).

(٣) ذكره الباخرزي في «دمية القصر» (٢/ ١٠٦٠).

(٤) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ١٧٧)، «الإتقان في علوم القرآن» (٦/ ٢٣١٧)، «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ٧، ٩، ٢/ ٢٣)

«**التذكرة الشرقية**»، والظَّاهرُ أنها في علم الكلامِ والعقائد، ذكرَها الزَّبيديُّ في «شرح الإحياء»، ونقل منها في مواضِعَ[١].

ـ «**الموضح في الفروع**»، نسبَه إليه حاجي خليفةَ، والبغدادي[٢].

ـ «**ديوان شعر**»، منه نسخةٌ في مكتبةِ برلين برقم: 1795 Wetzstein II، بعنوانِ: «ديوان العلامة القُشيري»، منسوخةٌ عامَ ٧٨٣هـ، و(الديوان) المذكورُ عبارةٌ عن قصيدةٍ لاميَّةٍ طويلةٍ في ذكرِ التَّصوفِ وأحوالِهِ والنَّهي فيه عن البِدعِ والمخالفاتِ، وهي مقسَّمةٌ على فصولٍ متعدِّدةٍ، وذكر د. قاسم السَّامُرائي في «أربع رسائل في التصوف» ضمنَ مجلةِ المجمعِ العلميِّ العراقيِّ (١٨/ ٢٤٤) أنَّها لأبي نصرٍ القشيريِّ لا أبيه، وفي الأبياتِ ما يدلُّ على ذلك، والله أعلم.

وفاتُه:

مَرِضَ الإمامُ أبو نصرٍ في آخرِ حياتِه، وأُصيبَ بفالجٍ فاعتُقِلَ لِسانُه إلا عن الذِّكرِ، فكانَ لا يتحدَّثُ إلا بذكرِ الله تعالى، وتوفِّي ضُحى يومِ الجمعةِ الثَّامنِ والعشرينَ مِن جُمادى الآخرةِ سنةَ أربعَ عشرةَ وخمس مئةٍ.

وحُمِلَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ إلى ميدانِ الحُسينِ، وصلَّى عليه أخوهُ الإمامُ أبو المظفَّرِ عبدُ المنعمِ، ودُفِنَ في المشهدِ المعروفِ بباب عرزةَ بجانبِ أبيه أبي القاسمِ القُشيريِّ وجدِّهِ أبي عليٍّ الدقَّاقِ وإخوتِه، وأُقيمَ له العزاءُ في رباطِ شيخِ الشُّيوخِ ببغدادَ.

---

(١) انظر: «إتحاف المتقين بشرح إحياء علوم الدين» (٢/ ١٥، ١٠٧، ١٤٠، وغيرها).

(٢) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٩٠٤) و«إيضاح المكنون» (٤/ ٦٠٦).

ما قيلَ في الإمامِ أبي نصرِ القُشيريِّ:

ـ قال ابنُ أختِه عبدُ الغافرِ الفارسيُّ في «السِّياق»:

إمامُ الأئمَّة، وحَبْرُ الأمَّة، وبحرُ العُلوم، وصَدْرُ القُرُوم، قرَّةُ عينِ زينِ الإسلامِ أبيه، وثمرةُ فُؤادِه، وهو الأوَّلُ بعد العصبةِ الدَّقَّاقيَّةِ مِن أولادِه، أشبَهُهم به خَلْقًا، حتّى كأنَّهُ شقَّ مِنه شقًّا، فربَّاه أحسنَ تربيةٍ، وزقَّه العربيَّةَ في صِباهُ زَقًّا، حتَّى تخرَّجَ به فبرعَ فيها وكمُلَ في النَّظْمِ والنَّثرِ، فحازَ فيهما قصبَ السَّبقِ، وكان يبثُّ السِّحرَ بأقلامِه على الرقِّ، وكما يَنفثُه ببيانِه يزيدُ على ما يشبهُه بلسانِه! مع تهذيبِ عبارتِه عمَّا عنه بدٌّ في الشَّرحِ وبلوغِ النِّهايةِ في التَّفهيمِ بأوجزِ الألفاظِ، مع استيعابِ المعاني على وَجهٍ لم يُشارِكْ فيهِ غيرَه[1].

ـ قال الذَّهبيُّ[2]:

الشَّيخُ، الإمامُ، المفسِّرُ، العلَّامةُ، أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ الإمامِ شيخِ الصُّوفيَّةِ أبي القاسمِ عبدِ الكريمِ بن هوازنَ القُشيريُّ، النَّيسابوريُّ، النَّحويُّ، المتكلِّمُ.

وقال في «العِبر»[3]:

وكان إمامًا مُناظِرًا مُفسِّرًا أديبًا علَّامةً مُتكلِّمًا.

ـ قال ابن السُّبكيِّ[4]:

الإمامُ العَلَمُ، بحرٌ مُغدِقٌ زَخَّار، وحَبْرٌ هو في زَمانهِ رأسُ الأحبارِ إذا قيلَ كَعبُ

---

(١) انظر: «المختصر من كتاب السياق لتاريخ نيسابور» (٢/ ٢١٥)

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٢٤).

(٣) انظر: «العبر في خبر من غبر» (٢/ ٤٠٢).

(٤) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ١٥٩).

الأَحبَار، وهمامٌ مقدَّم، وإمامٌ تَقتدِي به الهداةُ وتأتمُّ، نَما مِن تلكَ الأُصولِ الطَّاهرَةِ غُصنُه المورِق، وعلا على الأنجُمِ الزاهرةِ بَدرُه المشرِق، وَرِعٌ يأنَفُ أن يعدَّ غيرَ دارِ السَّلامِ دارًا، ويستقلُّ الجوزاءَ إذا هو جاوزَها أن يتَّخِذَ فيها قرارًا، مُجَلٍّ ما ادلهَمَّ ليلُ المشكلاتِ وأَمْسى، ومُصَلٍّ يَسمَعُ النَّاسُ لكَلامِه فلا تسمَعُ لهم إلَّا هَمْسًا».

ـ وقال الإسنويُّ[١]:

إمـامُ الأئمَّـةِ وحبرُ الأُمَّـة، حلَّ فيه مِن لَـدُنْ نفخِ الـرُّوحِ روحُ الفَضيلَـة، وامتزجَ لبـنُ رضاعتِـه بـكلِّ خصلـةٍ جميلَة، فنشـأَ والعِلـمُ له طِبـاع، وتأبـى الطِّباعُ اندفـاعَ ما اسـتقرَّ مِن الرَّضَاع.

رحمَه الله وجزاهُ عن الإسلامِ والمسلمينَ خيرَ الجزاءِ، بما قدَّمَ لهذه الأمةِ من علمٍ نافعٍ، وآثار صالحةٍ، وجعلَ ذلك ذُخرًا له يومَ المعاد.

* * *

(١) انظر: «طبقات الشافعية» للإسنوي (٢/ ١٤٩).

الفصل الثاني

دراسةُ الكتابِ

أولاً: تحقيقُ اسمِ الكتابِ ونِسبَتِهِ إلى المصنِّف

اختلَفَ بعضُ المصنِّفينَ في «التَّيسيرِ في التَّفسير» ونسبَتِه إلى مؤلِّفِه بين الإمامِ أبي نصرٍ عبد الرَّحيم بن عبد الكريمِ القُشيريِّ، وأبيه الإمامِ أبي القاسمِ عبدِ الكريم القُشَيريِّ.

وسببُ الاختلافِ راجعٌ إلى أنَّ لكلا الإمامَيْنِ تفسيرٌ مُختلِفٌ، فربما أُطلق اللقبُ فيقال: «تفسير القشيري» فلا يعرفُ للأبِ هو أو للابنِ، ويحتاجُ الأمرُ إلى تحريرٍ في التَّفريقِ بين كلا التَّفسيرينِ.

أوَّلًا: مَن نسبَ «التيسير» إلى الإمامِ أبي القاسمِ عبد الكريم القُشَيريِّ.

نسبَ بعضُ المصنِّفينَ «التيسيرَ في التَّفسيرِ» إلى الإمامِ أبي القاسمِ، وجعلوهُ «التَّفسيرَ الكبيرَ» الذي هو ثابتُ النِّسبةِ له.

وأولُ مـنَ رأيتُـه ذكـرَ ذلـك ياقـوتُ الحمَـويُّ فـي «معجـم الأدبـاء»، فقـالَ في ترجمـةِ الإمامِ أبي القاسـمِ: وله مِن الكتبِ:... و«التفسـيرُ الكبيرُ» المسـمَّى «التَّيسـير في علـم التفسـير»...، اهـ[1].

وتَبِعَه ابنُ خَلِّكان فقال: صنَّفَ «التَّفسيرَ الكبيرَ» قبلَ سنةِ عشرٍ وأربع مئةٍ،

---

(١) «معجم الأدباء» (٤/ ١٥٧١).

وسمَّاه «التَّيسيرَ في علمِ التَّفسير»، وهو مِن أجود التَّفاسير، اهـ[١]، وتَبِعَهما اليافعيُّ، والأَدنَهْ وِي، وحاجي خَليفَة، والزِّركليُّ[٢].

وهذا القولُ مرجوحٌ، لِمَا سيأتي بيانُه.

ثانيًا: مَن ذكرَ «التفسير الكبير» لأبي القاسمِ القشيريِّ، دون ذكرِ اسمِ «التَّيسير»:

سِبطُه عبدُ الغافرِ الفارسيُّ، حيث قال: (صنَّفَ «التفسير الكبير» قبل العشرِ وأربعِ مئة)[٣]، وذكر القفطيُّ، والدَّاوديُّ نحوَ عبارةِ الفارسيِّ[٤].

وممَّن ذكرَه أيضًا: ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»، وسِبطُه، وابنُ الملقِّنِ، وابن تَغْري بردِي، والسُّيوطيُّ، والطَّيِّبُ با مخرَمَة[٥].

ونقلَ الإمامُ الذهبيُّ كلامَ ابنِ خَلِّكان فقال: صنَّف أبو القاسمِ القشيريُّ «التَّفسيرَ الكبيرَ» وهو من أجودِ التَّفاسير[٦]. فلم يذكُرْ «التَّيسير» كما في عبارةِ ابن خَلِّكَان، **وفي ذلك إشارةٌ من الذهبيِّ إلى عدمِ صواب ما ذكره ابنُ خَلِّكان!**.

---

(١) «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٠٦).

(٢) انظر: «مرآة الجنان» لليافعي (٣/ ٧٠)، «طبقات المفسرين» للأدنه وي (ص: ١٢٦)، «كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٥١٩)، «الأعلام» للزركلي (٤/ ٥٧).

(٣) «المنتخب من كتاب السياق» (ص: ٣٦٥).

(٤) انظر: «إنباه الرواة» للقفطي (٢/ ١٩٣) و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٣٤٤).

(٥) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٦/ ١٤٨) و«مرآة الزمان في تواريخ الأعيان» لسبط ابن الجوزي (١٩/ ٢٦٥) و«العقد المذهب» لابن الملقن (ص: ٩٨) و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٥/ ٩١) و«طبقات المفسرين» للداودي (ص: ٦١) و«قلادة النحر» لبا مخرمة (٣/ ٤٥٠).

(٦) «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢١٧).

ثالثًا: مَن ذكرَ «التَّيسير في التَّفسير» مَنسوبًا للإمامِ أبي نصرِ القشيريِّ:

وممَّنْ نسبَ «التيسير» صريحًا بهذا الاسمِ لأبي نصرِ القُشَيريِّ:

ابنُ النَّجَّارِ في «ذيل تاريخ بغداد»، حيثُ ذكرَ في ترجمةِ أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مَنصورٍ الصَّفَّار، قال: «قدِمَ بغدادَ حاجًّا فِي سنةِ اثنتينِ وأربعينَ وخمس مئةٍ، وحدَّث بها بكتابِ «التيسير في التفسير» لأبي نَصرِ القُشيريِّ». ونقل كلامَه ابن السُّبكيِّ في «طبقات الشَّافعية الكبرى»[1].

وذكره الدَّاوديُّ أيضًا في «طبقات المفسِّرين»، حيثُ قالَ: «صنَّفَ التَّيسيرَ في التَّفسيرِ»[2].

وقد ذكرَه دونَ تسميةٍ:

ابنُ أُختِ المصنِّفِ عبدُ الغافرِ الفارسيِّ، في ترجمةِ أبي حربِ المظفَّرِ بن عليٍّ الهمذانيِّ قال: صحبَ أبا نصر القشيريَّ، وكتب تصنيفَه في التَّفسيرِ[3].

وذكره أيضًا دون تسميتِهِ مَن نقلَ عنه؛ كالقُرْطبيِّ وأبي حيَّانَ وأبي شامةَ وابنِ حجرٍ وغيرِهم.

رابعًا: بين التَّفسيرَيْنِ:

«التَّفسيرُ الكبيرُ» و«التَّيسيرُ في التَّفسيرِ» تفسيرانِ مُختلفانِ في الأُسلوبِ والحجمِ، ولكلٍّ منهما طريقتُه ومَنهجُه.

وقد وقفنا على نُسخةٍ مخطوطةٍ من «التَّفسيرِ الكبيرِ» للإمامِ أبي القاسمِ

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله» (٢٠/ ٢٢)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ٢٤١).

(٢) «طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٢٩٨).

(٣) «المنتخب من كتاب السياق» (ص٥٠٣).

عبد الكريمِ بن هوازنَ القُشَيريِّ، وهي نسخةٌ غيرُ تامَّةٍ، محفوظةٌ في مكتبةِ (لاله لي) في المكتبةِ السُّليمانيَّةِ تحتَ رقم (١٩٨)، وتقعُ في (٣١٣ ورقة)، تبدأُ مِن أوَّلِ الكتابِ إلى الآيةِ ٢٠ في سورةِ الأنعامِ.

جاء في بدايتِها: «بسم الله الرحمن الرحيم، قالَ الإمامُ الأستاذُ زينُ الإسلامِ أبو القاسم عبدُ الكريم بنُ هوازنَ القشيريُّ: الحمدُ للهِ ناصرِ الحقِّ بواضحِ أَعلامِه، وفاطرِ الخلقِ على ما أرادَ مِن أحكامِه، المبتدئِ لأوليائِه بجميعِ إنعامِه...».

إلى أنْ قال: «وكتابُنا هذا يشتملُ على جملٍ مِن تَفسيرِ القرآنِ وتأويلِه، وصدرٍ من إعرابِه، وما يتعلَّقُ بقَصَصه ونُزوله، سَلَكنا فيه طريقَ الإيجازِ والإقلالِ تجنُّبًا من الإطالةِ والإملالِ، وبالله نستعينُ في ذلك ونَستَوْفِقُهُ، ونبرأ إليه مِن الحولِ والقوةِ ونستعصِمُه، إنه قريبٌ مجيب»(١)(٢).

---

(١) وقد حُقق جزء منه إلى آخر سورة البقرة في رسالة علمية بجامعة أم القرى عام ٢٠٠٦م بالاعتماد على هذه النسخة، **ونُشر كذلك جزءٌ إلى آخر سورة الفاتحة** في مؤسسة ابن العربي عام ٢٠٢٢م، باعتناء فاطمة بنت محمد القاسمي، بالاعتماد على نسختين، وهي طبعةٌ سقيمةٌ!. وكلا النشرتين ذكرا أنَّ اسمه: «التيسير في التفسير»، وهو خطأ! وقد رأيتُ الإعلانَ عن طباعته من قريب في أربع مجلدات ووقعت التسمية فيه هكذا: «التفسير الكبير» أو: «التيسير في علم التفسير» والتسمية الأولى صحيحة والثانية خطأ كما أسلفنا، ولم أستطع الوصول إلى هذه الطبعة.

(٢) وقد وقفنا على نسخة عتيقةٍ كتبَ فيها على صفحةِ الغلافِ: (تفسير القشيري)، بخطٍّ مغايرٍ لخطِّ النسخةِ، محفوظةٍ بمكتبة ليدن تحت رقم (٨١١)، ـ وقد فُهرست خطأً تحت رقم ٣٥٨ ـ، تقعُ في (٢٩٤) ورقة، منسوخة سنة ٥٣٥هـ، تبدأ من تفسير الآية ٢١ من سورة الحديد، وتنتهي في تفسير آخر سورة التحريم.

قال الدكتور قاسم السامرائي [«مجلة المجمع العلمي العراقي» (١٨/ ٢٤٤)]: (وعندي صورة من نسخة لايدن وقد قرأتُها بإمعانٍ فوجدتُ أنَّ هذا التفسير لا يمكن أن يكون للقشيري أبي القاسمِ بل لابنه أبي نصرٍ عبد الرحيم)، اهـ. وفيما قاله الدكتور السامرائي نظرٌ!! =

ومما يدلُّ على الاختلافِ بين التَّفسيرينِ، ونسبةِ «التَّيسير» لأبي نصرٍ القُشيريِّ:

١ ـ الاختـلافُ فـي بدايةِ كلٍّ مِن التَّفسـيرينِ: «الكبيرِ» و«التَّيسـيرِ»، من النِّسـبةِ للمُؤلِّـفِ، وصيغة التَّحميـدِ وغيرِ ذلك.

٢ ـ الاختلافُ في المنهجِ، فمِنَ الاختلافاتِ البيِّنةِ بين التَّفسيرينِ: أنَّ الإمامَ أبا

= فالنسخةُ المذكورةُ عبارةٌ عن مجالسَ في التَّفسيرِ كانت تعقدُ يوم الثلاثاءِ من كل أسبوعٍ، وتبدأ النسخةُ مِن المجلسِ الواحدِ والستِّين بعد الأربع مئةِ، **عقده صاحبه أواخر ذي القعدة سنة ٤١٣هـ**، وتنتهي بالمجلس السابع والسبعين بعد الأربع مئة وتاريخه يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ربيع **الأول سنة ٤١٤هـ**.

وتضمُّ النُّسخةُ (١٧ مجلسًا)، يمثِّلُ المجلسُ (حوالي ١٦ـ١٨ ورقة)، فلو قدَّرنا أنَّ عدد المجالسِ إلى آخرِ القرآنِ الكريم بلغ (٥٠٠ مجلسٍ)، فيكون هذا التفسير في (حوالي ٩ آلافِ ورقة)، فهو تفسير كبير الحجمِ.

والذي نرجحه بعدَ الاطلاع على هذه النسخةِ أنَّ صاحبها أحد شيوخ المعتزلة، يدلُّ على ذلك كثرةُ نقلِهِ عن شيوخهم كأبي بكر الأصم، وأبي مسلم الأصبهاني، وأبي القاسم البلخي، وأبي علي الجُبَّائي، وهو يذكر الكنية دون اللقبِ، ونقلُه أقوالَهم في مسائل الأسماء والصفات قريب مما جاء في بعض تفاسير المعتزلةِ. وينقل أيضًا عن (قاضي القضاة) أحد شيوخهم، ولم أقدر على تعيينه!.

وفي النسخة نقول لغوية ونحوية متقدمة، عن الخليل وسيبويه والزجاج والأنباري، وفيه نقلٌ فريدٌ عن كتاب «ضياء القلوب» للمفضل بن سلمة، ونقَلَ مرة عن الواحديِّ، وهو غريب!.

والمؤلف أيضًا حنفيُّ المذهبِ، يدلُّ على ذلك تفصيله في مسائل الظهار على مذهب الحنفية، وهو يعبرُ عنهم في مواضع عدة من هذه النسخة بـ(أصحابنا). ويحتاجُ الأمرُ في دراسة هذه النسخة وتحديد مؤلفها إلى تفصيل.

وعلى كلِّ حالٍ، فلا تصحُّ نسبةُ هذه النسخة إلى أبي القاسم القشيريِّ ولا إلى ابنه، فهما من كبار أئمة الشافعية ومن رؤوس الأشاعرة، وأبو نصرٍ أيضًا ولدَ بعد سنة ٤٣٠هـ، فلا يمكنُ أن تنسب النسخة إليه، والله أعلم.

القاسمِ ذكرَ في «التفسيرِ الكبيرِ» مُقدِّمةً طويلةً في أصولِ التَّفسيرِ، ضمَّنَها مباحثَ كثيرةً، كالتَّفريقِ بينَ التَّفسيرِ والتَّأويلِ، وأسماءِ القُرآنِ، وكيفيَّةِ جمعِ القُرآنِ، ومَعنى الأحرُفِ السَّبعةِ، وشُروطِ المفسِّرِ، وغيرِ ذلك من المباحثِ، وليسَ ذلك في «التيسير» إذ بدأَهُ أبو نصرٍ بمقدمةٍ يسيرةٍ بيَّنَ فيها معنى التفسيرِ، ثمَّ شرعَ في تفسيرِ فاتحةِ الكِتابِ.

٣ ـ ومما يدلُّ دلالةً صريحةً أنَّ «التيسير في التفسير» غير «التفسير الكبير»، وأنَّ «التيسير» لأبي نصرٍ لا لأبيهِ: أنَّ أبا نصرٍ نقلَ عَن أبيهِ عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قال أبو نصرٍ القشيريُّ: وكان الإمامُ والدِي رحمَهُ اللهُ يقول: يُعلَمُ على الجملةِ أنَّها كانَتْ شجرةَ المِحْنَةِ، اهـ.(١) ونقلَ هذا الموضعَ القرطبيُّ في «تفسيره» عَن أبي نصرٍ(٢).

٤ ـ مطابقةُ بدايةِ النُّسخةِ (ف) التي اعتمدناها في التَّحقيقِ مِن «التيسير» لِمَا ذكره ابنُ النَّجَّارِ في «ذيل تاريخ بغداد»، إذ قالَ في ترجمةِ أبي حفصٍ عمرَ بنِ أحمدَ بن مَنصورٍ الصفَّارِ: «قَدِمَ بغدادَ حاجًّا فِي سنةِ اثنتينِ وأربعينَ وخمس مئةٍ، وحدَّثَ بها بكتابِ «التيسير في التفسير» لأبي نصرِ القُشيريِّ». ونقل كلامَه ابنُ السُّبكيِّ في «طبقات الشافعية الكبرى»(٣).

وأبو حفصٍ المذكورُ هو تلميذُ المؤلِّفِ وصِهرهُ زوجُ ابنته، والنُّسخةُ (ف) المعتمدةُ في هذه الطَّبعةِ منسوخةٌ ومقروءةٌ عليهِ ببغدادَ على النَّعتِ الذي ذكرَهُ ابنُ

---

(١) انظر: (١/ ١١٧) من هذا المجلد.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٣٠٥). وانظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٤٨٣).

(٣) انظر: «تاريخ بغداد وذيوله» (٢٠/ ٢٢)، «طبقات الشافعية الكبرى» (٧/ ٢٤١).

النجَّارِ، وعليها سماعاتٌ تدلُّ على صِحَّةِ ذلك، وسيأتي مزيدُ إيضاحٍ ووصفٍ لهذه النُّسخة.

ويعضُده كذلك ما جاءَ في آخر النُّسخةِ (ج) المعتمدةِ في هذه الطَّبعةِ من نسبةِ «التيسير» إلى الإمام أبي نصرٍ القشيريِّ. وهي نسخةٌ قديمةٌ قريبةُ العهدِ من المؤلِّفِ[1]، إلا أنه جاء فيها اسمُ الكتاب هكذا: «التيسير في علم التفسير».

٥ ـ النُّقولُ الموافِقَةُ لـ«التَّيسيرِ في التَّفسير»:

وقد نقلَ عن تفسيرِ أبي نصرٍ القُشيريِّ عددٌ مِن الأئمَّةِ، فيقولون: قال القُشيريُّ في «تفسيره»، و: قال ابنُ القُشيريِّ، و: قال أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ القُشَيريُّ، وهم في ذلك يَعْنُونَ الإمامَ أبا نصرٍ وتفسيرَه «التيسير»، وقلَّ أن يأتي غيرُ هذا، ومِن هؤلاء الأئمةِ:

أبو شامةَ المقدسيُّ، في كتابيه: «إبراز المعاني»[2] و«المرشد والوجيز»[3].

والقرطبيُّ في «تفسيره»، وقد أكثرَ مِن النَّقلِ منهُ في أكثرَ مِن ثلاث مئةٍ موضعٍ، وقد أشرنا في هوامشِ التَّحقيقِ إلى كثيرٍ مِن تلك النُّقولِ الَّتي أَودعها القرطبيُّ في تفسيرِهِ.

وأبو حيَّان في «البحرِ المحيط»، ونقلَ عنه في مَواضعَ كثيرةٍ.

والزَّركشيُّ في «البرهان في علومِ القرآن»[4].

والحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[5].

---

(١) انظر وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

(٢) انظر: «إبراز المعاني» (ص: ٤١٢، ٥٥٠، ٦٢٢، ٦٥٧، ٦٧٦، ٦٧٧، ٧١٣).

(٣) انظر: «المرشد الوجيز» (ص: ١٦).

(٤) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ١٥٠، ١٧٧، ٢٠٨، ٤/ ٤٣).

(٥) انظر: «فتح الباري» (٧/ ١٥١)، (٨/ ٣٦٨)، (١٠/ ٤٦٩).

والسُّيوطيُّ في «الإتقان»[1].

والنقولُ جاءَت موافقةً لِمَا في «التيسير في التفسير» دونَ اختلافٍ كبيرٍ.

فتبيَّنَ بذلك أنَّ «التيسير» إنَّما هو للإمامِ أبي نصرٍ القُشَيريِّ، وأنَّ نسبتَه لأبيه أبي القاسمِ وجعله اسمًا آخر لـ«التفسير الكبير» إنما هو وهمٌ ذكرَه ياقوتٌ، وتابعَه عليه ابنُ خلِّكان وغيرُه، والصوابُ ما قدَّمناه، وبالله التوفيق.

* * *

(١) انظر: «الإتقان» (٢/ ٥٣٤، ٥/ ١٨٩٧، ١٩٤٨، ٦/ ٢٢٦٤).

ثانياً: خصائصُ هذا التَّفسيرِ وميزاتُه

أوَّلُ ما يُطالِعُ مَن يُبحرُ في هذا التَّفسيرِ هو وضوحُ العِبارةِ وسُهولةُ الألفاظِ، مع مَتانةِ السَّبْك والبُعدِ عن الرَّكاكةِ، وهو بهذا يتميَّزُ عَن كثيرٍ من التَّفاسيرِ التي قد تَغمُضُ عبارَتُها أو تتعقَّدُ حتَّى تحتاجَ لتأمُّلٍ وتَفكُّرٍ، بل تحتاجُ أحيانًا لشارحٍ يبيِّنُ معاني الكلماتِ ويوضِّحُ ربطَ الجُمَلِ والعِباراتِ[1]، أمَّا هذا التَّفسيرُ فيفهَمُه قارئُه دونَ أيِّ صُعوبةٍ، مهما كانَ تحصيلُه في العِلم أو مُستواه في الفهمِ، أو ذخيرتُه مِن الدَّرسِ والاطِّلاع.

هذا مَع عنايَتِه الظَّاهرةِ بالمسائلِ اللُّغويَّةِ والنَّحْويَّةِ، وكثرةِ الفوائدِ التي تَضمَّنَها والمسائلِ التي بيَّنها، مع تَجنُّبِه التَّطويلَ أو الخروجَ عن الموضوعِ، فهو يُعطي خُلاصةَ المسألةِ بما يَكفي لفَهمِها ومَعرِفَتها بأُسلوبِه الواضحِ السَّهلِ[2].

ويُمكننا الوقوفُ على أهمِّ مَعالمِ هذا التَّفسيرِ وخصائصِهِ مِن خلالِ الآتي:

أولاً: العِنايةُ بمعاني كَلماتِ الآية ودلالاتِها: فهو يبدأُ بشرحِ مفرداتِ الآيةِ ويُبيِّنُ مَعانيها وتَصاريفَها[3]، وإذا ذُكِرَ في الكلمةِ عدَّةُ معانيَ فإنَّه يسوقُها ويُصدِّرُ ذلك بقولِهِ: (قيل،،، وقيل)، وقد يُبيِّنُ وجهَ الصوابِ وعدمَه إنْ وُجِد، وعُنِيَ كثيراً بالتَّمثيلِ وذِكرِ الأمثالِ والشَّواهِدِ[4]؛ وذلكَ كقولِهِ: (قولُه تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن

---

(١) ولا أدل على ذلك من تفاسير «الكشاف» و«الرازي» و«البيضاوي».

(٢) انظر مثالًا على ذلك عندما تكلم على آية ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ [المائدة: ١٠٧] حيث نقل أنها من أعضل ما في هذه السورة من أحكام، وأصعب ما في القرآن من الإعراب، فاختصر الكلام عن أحكامها وإعرابها اختصاراً بديعاً مفيداً دون تطويل يخرج عن مقصود الآية وروحها.

(٣) (١/ ٢٩٩، ٣٦٩)، (٢/ ١٣٣، ٤٢٢).

(٤) (٢/ ٥٥٦).

رَبِّهِۦ﴾؛ أي: استقبَلَ، تقولُ: خرَجْنا نتلَقَّى الحجيجَ؛ أي: نستقبلُهم، وكانَ عليه السَّلامُ يَتلقَّى الوحيَ؛ أي: يَستقبلُه ويأخذُه ويتلقَّفُه.

وقيلَ: (تَلَقَّى)؛ أي: تَلقَّنَ، وهذا في المعنى صحيحٌ، ولكن لا يجوزُ أن يكونَ التَّلَقِّي منَ التَّلقينِ في الأصلِ؛ لأنَّ أحدَ الحرفَينِ إنَّما يُقلَبُ ياءً إذا تجانَسا، مثل: «تظنَّى» من «تظنَّنَ»، و«تفضَّى» من «تفضَّضَ»، ولهذا لا يُقالُ: «تقبَّى» من «تقبَّلَ»)[1].

وكذلك فإنَّه لا ينقلُ إلا عن أئمَّةِ التَّفسيرِ والمعاني واللُّغةِ والنَّحْو كالخليلِ وسيبوَيْه والكِسائيِّ والفرَّاءِ وأبي عُبيدةَ والأخفَشِ والزَّجَّاجِ وغيرِهم ممَّنْ صنَّفَ الأمَّهاتِ والمراجعَ التي اعتمدَ عليها كلُّ مَن بعدَهُم، وهو يرجِّحُ بينَ أقوالهم، ويَستبعدُ بعضَها[2].

---

(١) انظر: (١/ ١٢٢). وكقوله (١/ ٦١٤): ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلاماتِهم، وهو كما تقولُ: «إذا نظرتَ إلى فلانٍ رأيتَ وجهًا حسَنًا»؛ أي: مَن نظرَ إليه رأى ذلك، فكذلك قولُه: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: مَن نظرَ إليهم وتأمَّلَهم رأى علاماتِ الفقراءِ والإسلامِ فيهم.

والسِّيما والسِّيماءُ والسِّيمِياءُ: العلامةُ، منَ السِّمةِ، قُلِبَتِ الواوُ إلى موضعِ العينِ، كقولك: «له جاهٌ في النَّاسِ»؛ أي: وجهٌ، و«أرضٌ خامةٌ»؛ أي: وخيمةٌ، واضْمَحَلَّ الشَّيءُ وامْضَحَلَّ.

وقيلَ: السِّيماءُ منَ السُّموِّ؛ لأنَّها علامةٌ رُفِعَتْ للظُّهورِ.

ثمَّ؛ قيلَ: أرادَ بالسِّيماءِ التَّواضُعَ والتَّخشُّعَ.

وقيلَ: آثارَ الفقرِ والضَّعفِ، فالذي لم يتأمَّلْهم جيِّدًا يظُنُّ أنَّهم أغنياءُ، والذي أنعمَ النَّظرَ فيهم عرفَ حالَهم.

وقيلَ: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: تعرِفُهم أنتَ يا محمَّدُ بالتَّوسُّمِ وفراسةِ القلبِ.

(٢) انظر مثلًا: (١/ ٥٩)، (١/ ١٠٤)، (٢/ ١٦١) وفيها ردُّه على أبي عبيدة في «مجاز القرآن»، و(١/ ١٦٧، ٢١٠)، و(٥/ ٢٧٦) وفيها رده على المبرد، و(١/ ٣٤٣) وفيه رده على قطرب، و(١/ ٣٨٣) وفيه رده على الكسائي، (١/ ٦٣٣)، و(٢/ ٤٥) وفيه رده على الفراء، و(٢/ ١٥٨) وفيه رده على الأخفش، و(٢/ ٣٤٨) و(٥/ ٦٦٢) و(٧/ ١٤٩) وفيها رده على الزجاج.

ثانياً: ذِكرُ الوجوهِ والأقوالِ الَّتي قِيلَتْ في الآيةِ والتَّرجيحِ بينَها[1]، والحرصُ على إظهارِ إجماعِ المفسِّرينَ أو جمهورِهم[2].

فقد امتازَ هذا التفسيرُ بعنايتِه بعرضِ الكثيرِ مِن الأقوالِ في كلِّ آيةٍ وتَقليبِ وُجوهِ التَّفسيرِ والمعاني، ويُلاحَظُ مِن خلالِ ذلكَ أنَّه ليسَ بمفسِّرٍ حاطبِ ليلٍ يجمَعُ ولا يميِّزُ، بل كثيرًا ما كان المصنِّفُ يتعقَّبُ الأقوالَ التي يذكرُها ويبيِّنُ ما فيها مِن نَظَرٍ قد يخفى إلَّا على العُلَماءِ المُتبصِّرين بدقائقِ العلمِ والمتبحِّرينَ فيه.

وقد يتفرَّدُ في كثيرٍ مِن الأحيانِ بأقوالٍ ووُجوهٍ لا توجَدُ في غيره مِن التَّفاسيرِ

---

(١) انظر مثلًا: (١/ ٤٥٨، ٤٩٧، ٥١٨، ٥٤٤، ٦٢١).

و(٢/ ٢٨) حيث رد الأقوال في قدر (القناطير) وأن جميع الأقوال التي قيلت هي تحكم إلا ما ورد فيها الخبر ثم ساق الخبر المرفوع في ذلك.

و(٢/ ٤٦، ١٢٠، ١٥٣، ١٥٧، ٣٣٤، ٤٣٩).

و(٢/ ٤٩٠) حيث رد قول أبان بن عثمان وأبي زيد وغيرهما في بيان تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

و(٣/ ٣٦٨) حيث رد كلام أبي عبيدة: أن ما كانَ منَ العذابِ يُقالُ فيه: «أمطَرَ»، وما كانَ منَ الرَّحمةِ يُقالُ فيه: «مَطَرَ»، فقال المصنف: وأمثالُ هذا منَ التَّحكُّمِ إلَّا أن يستَنِدَ إلى توقيفٍ، أو عُرفٍ مُطَّرِدٍ.

وعندما يستبعد قولاً يبين وجه الصواب كما في قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ كموتِ علمائِها وصُلَحائِها، وعلى هذا فالأطرافُ: الأشرافُ، وقد قال ابنُ الأعرابيِّ: الطَّرَفُ والطِّرْفُ: الرَّجلُ الكريمِ، ولكنَّ هذا القولَ بعيدٌ؛ لأنَّ مقصودَ الآيةِ: إنّا أريناهُم النُّقصانَ في أمرِهم ليعلموا أنَّ تأخيرَ العقابِ عنهم ليس عن عجزٍ، إلا أن يُحمَلَ قولُ ابنِ عبّاسٍ على موتِ أحبارِ اليهودِ والنَّصارَى. (٤/ ١٥٧).

وانظر: (٣/ ٤١، ٤٩، ٥٠، ٧٨، ١١٠، ١١٤، ١٩٨)، (٤/ ٤٥٨)، (٥/ ٨٧، ١٦٨، ١٩٩، ٥٧٥)، (٦/ ١٠، ٨٢، ١٩٤، ٢٨٢، ٤٧٥)، (٧/ ١٩٨، ٢٢٦).

(٢) انظر مثلًا: (١/ ١٨٥، ٢٥٣)، (٢/ ٦١)، (٥/ ٥٦٧).

المطبوعةِ، ولعلَّه يَجمعُ خُلاصةَ ما قيلَ في الآيةِ أو الجملةِ ممَّا كان مُتداولًا بين علماءِ عَصرِه ومشايخِه ومَن سبقَهُم ممَّا قد لا يكونُ مُدوَّنًا في كتابٍ في كثيرٍ من الأحيانِ، كما يجدُ المطالِعُ فيه نُقولاً عزيزةً كالنَّقلِ عن الإمامِ القَفَّالِ الكبيرِ الشَّافعيِّ في «تفسيره»[1]، وكذا عن الإمامِ الحسنِ بنِ يحيى الجُرجانيِّ في كتابِهِ «نَظمِ القُرآن»[2]، وكتابُهما في حكمِ المفقودِ فلم يُعثَرْ لهما على أثرٍ حتَّى يومِنا هذا.

ويكفيكَ دليلًا على ذلك أنَّ الإمامَ القُرطبيَّ الذي نقلَ عنه في مئاتِ المَواضعِ، كثيرًا ما كان يَكتَفِي بالعَزْوِ إليه في إشارةٍ إلى أنَّه لم يَجِد ذلك عندَ غيره، رغمَ كثرةِ مصادرِ الإمامِ القُرطبيِّ وسَعةِ اطِّلاعِه وذلكَ في مُختلَفِ المواضيعِ الحديثيَّة والفِقهيَّةِ واللُّغويَّةِ والنَّحْويَّةِ وغيرِها، كما نقلَ الكثيرَ مِن التَّعقُّباتِ والرُّدودِ التي أوردَها الإمامُ القُشَيريُّ على ما ينقلُه.

ثالثاً: بيانُ معنى الآياتِ في الجملةِ، ووجهِ النَّظمِ والمناسبةِ، والرَّبطِ بينَ الآياتِ ووجهِ الاتِّصالِ بينها.

وذلك كقوله: (قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: وجهُ النَّظمِ: أنَّه أخبرَ عن كتمانِ أهلِ الكتابِ صفةَ محمَّدٍ، وقولِهم: إنَّ المُشركينَ أهدَى سبيلًا، فكان ذلك خيانةً منهم، فانجرَّ الكلامُ إلى ذكرِ جميعِ الأماناتِ[3].

---

(١) وقد صرح بالنقل عنه في (٣٥) موضعاً من كتابه هذا، ويلحظ تعقب المصنف له في أكثر نقوله، كما يلحظ أنه نقل بواسطته بعض أقوال المعتزلة ورد عليها، مما يدل أن الإمام القفال كان له عناية بأقوال المعتزلة وشبهاتهم.

(٢) وقد صرح بالنقل عنه في (٣٦) موضعاً من كتابه هذا، وقد وجدت بعض هذه النقول في كتاب «البسيط» للواحدي، وبعضها ليست فيه.

(٣) انظر: (٢/ ٣٩٠). وانظر أمثلة أخرى على ذلك: (١/ ٣٤٦، ٥٤٣، ٥٩٣)، (٢/ ٤٣٥، ٤٢٠، ٤٦٢، ٦٠٤) و(٤/ ٦٠٨)، (٥/ ٣٣١).

رابعاً: عِنايتُه بجانبِ تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ[١]**، وسردِ النَّظائرِ القرآنيةِ**[٢]**، ثمَّ التَّفسيرِ بالمأثورِ** عَن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابةِ والتَّابعين، فهو لا يَتركُ تَقريبًا حديثاً أو أثرًا واردًا في آيةٍ مِن الآياتِ إلا ويُورِدُه، ثمَّ هو قد يَنسِبُه لقائلِه وقد يَذكرُه دون نِسبةٍ وهو الغالبُ ويصدِّرُه بقولِه: (قيل)، وقد تفرَّدَ بنقلِ كثيرٍ من الآثارِ التي لم يَذكُرْها غيرُه.

ولا بدَّ هنا مِن التَّنبيهِ على مَسألةٍ مُهمَّةٍ، وهي أنَّ المصنِّفَ قد تجنَّبَ إلى حدٍّ كبيرٍ ما وقعَ فيه عددٌ مِن المفسِّرينَ كالثَّعلبيِّ وغيرِه مِن الإكثارِ مِن إيرادِ الإسرائيليَّاتِ والأخبارِ التَّالفةِ الغَريبةِ المُتضمِّنةِ لِمُبالغاتٍ لا تقبَلُها العقولُ ولا تتَّسِعُ لها الأفهامُ حتى كادَ تَفسيرُه يخلو مِنها[٣].

خامساً: عنايتُه بأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ ويُنبِّهُ على فكرةٍ أنَّ ادِّعاءَ النَّسخِ مِن غيرِ تثبُّتٍ بعيدٌ في الاستدلالِ[٤].

سادساً: عنايتُه بالقراءاتِ: فهو يَذكرُ القراءاتِ المتواترةَ الَّتي قُرِئ بها في الآيةِ، ويُبيِّنُ وجوهَ إعرابِها، ويتكلَّمُ في الشَّاذِّ منها[٥]، وهو مِن أكثرِ المفسِّرينَ دفاعاً عن القراءاتِ المتواترةِ الَّتي ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ القراءةُ بها[٦]، ويُنبِّهُ أنَّ لغةَ القُرآنِ هي

---

(١) انظر الأمثلة على ذلك: (١/ ٢٩٧)، (٢/ ٤٨، ١٢١)، (٣/ ٦٨٦)، (٤/ ١٧٥، ٢٥٣، ٢٨٣)، (٧/ ٢٧٨).

(٢) انظر: (١/ ٥٦٧)، (٢/ ٣٠، ٥١، ٣٢٥، ٦٤٣)، (٧/ ٢٣٦، ٣٢٩).

(٣) «والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرَك، وأَصِمَّ عن سماعها أُذنَيك، فإنَّها لا تُعطي فكرَك إلا خيالًا، ولا تزيد فؤادَك إلا خبالًا» كما قال العلَّامة القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٠).

(٤) انظر: (١/ ٣٩٣، ٥٢٦، ٥٩٤)، (٢/ ٢٥٨، ٢٩٢، ٤٦٣، ٧٠٠)، (٣/ ٦٣، ٣٧١، ٤٦٧).

(٥) انظر: (١/ ٣١٦، ٦٢٤)، (٣/ ٢٠) وهو قليل التعرض للقراءة الشاذة مقارنة مع غيره من المفسرين.

(٦) انظر: (١/ ٤٤٧)، (٦/ ١٦٣). وعندما ضعف الزجاجُ قراءةَ حمزة في قوله تعالى: (واتقوا الله =

أفصحُ اللُّغاتِ، ثمَّ إنَّ في القرآن ما هو فصيحٌ وأفصحُ[١]، وأنَّه لا طريقَ إلى التَّخطئةِ فيما قرأ به مشاهيرُ الأئمَّةِ[٢]، ويُشيرُ إلى ما وقعَ مِن إيراداتٍ على بعضِ القِراءاتِ[٣].

سابعاً: عدمُ العُدولِ عن الظَّاهرِ إلَّا بنقلٍ صحيحٍ: فالمصنِّفُ رحمه الله قد تجنَّبَ في تفسيرهِ تلك المُغالاةَ التي وقعَ فيها بعضُ المفسِّرينَ، حيثُ يتركونَ الظَّاهرَ لا

= الذي تساءلون به والأرحامِ) بالجر، **قال المصنفُ**: ومثلُ هذا الكلامِ مردودٌ عندَ أئمَّةِ الدِّينِ؛ لأنَّ القراءاتِ التي قرأ بها أئمَّةُ القُرّاءِ ثبتَتْ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ تواترًا يعرِفُه أهلُ الصَّنعةِ، وإذا ثبتَ شيءٌ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ فمَن ردَّ ذلك فقد ردَّ على النَّبيِّ واستقبَحَ ما قرأ به، وهذا مقامٌ محذورٌ، ولا يُقلَّدُ فيها أئمَّةُ اللُّغةِ والنَّحوِ، ولعلَّهم أرادُوا أنَّه صحيحٌ فصيحٌ وإنْ كانَ غيرُه أفصحَ منه، فإنَّا لا ندَّعي أنَّ كلَّ ما في القرآنِ على أرفعِ الدَّرجاتِ في الفصاحةِ. (٢/ ٢٧٦).

وعندما قرأ ابن عامر: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَٰدَهُمْ شُرَكَآئِهِمْ﴾ وقال قوم: إنه قبيح، **ردَّ عليهم المصنف** بقوله: وهذا مُحالٌ؛ فإنَّه إذا ثبَتَ بالتَّواتُرِ عنِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ فهو الفصيحُ لا القبيحُ، وقد ورَدَ ذلك في كلامِ العربِ. (٣/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

وعندما تكلم عن قراءة حمزة: ﴿بِمُصْرِخِيِّ﴾ بكسرِ الياءِ، وأورد ردَّ بعضِ العلماء لها، **قال**: ما ثبتَ بالتَّواترِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ فلا يجوزُ أن يُقالَ: هو خطأٌ، أو قبيحٌ، أو رديءٌ، **بل في القرآنِ فصيحٌ، وفيه ما هو أفصحُ**، فلعلَّ هؤلاءِ أرادُوا أنَّ غيرَ هذا الذي قرأ به حمزةُ أفصَحُ. (٤/ ١٨١).

وكذا ذكر في (٦/ ٩٢): أنَّ ما ثبتَ بالاستفاضةِ والتَّواترِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأه، لا بدَّ مِن جوازِه، ولا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّه لحنٌ، ولعلَّ مرادَ مَن صارَ إلى التَّخطئةِ: أنَّ غيرَه أفصَحُ منه وإن كانَ هوَ فصيحاً.

(١) (١/ ٥٥٦)، (٥/ ٢٨٤).

(٢) (٥/ ٦٧).

(٣) انظر: (٢/ ٢٤٦) حيث وجَّه كلام الزجاج والفراء وأبي علي الفارسي في اختلافهم في إعراب قوله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم) تبعاً لاختلاف القراءة فيها.

و(٣/ ٤٦٥) حيث ذكر أن قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: قرئ بالرَّفعِ وبالنَّصبِ، فقال المصنف: والرَّفعُ أحسَنُ؛ إذ لا يُقالُ: «أعتَقَ أبوكَ غلامَ أبيك»، بل يُقالُ: «أعتَقَ أبوكَ غلامَه». وانظر: (١/ ٦٠٣، ٦٠٧).

لسَببٍ يوجِبُ التَّرك، ويُغالونَ في مسائلِ التَّأويلِ كما فعلَ الزَّمخشريُّ ومَن لفَّ لفَّه، فهو لا يرى اللُّجوءَ للتَّأويلِ إلَّا إذا استحالَ الحَمْلُ على الظَّاهرِ، وقد حَمَلَ بشدَّةٍ على المؤوِّلينَ للنُّصوصِ في مواضعَ لا حاجةَ فيها لذلك، كما في تفسيرِ آية الكُرسيِّ حيثُ قال: وأربابُ الإلحادِ يَحْمِلونَ هذه الأشياءَ على عِظَمِ الملكِ وجلالةِ السُّلطانِ، ويُنكِرونَ وجودَ العَرْشِ والكُرسيِّ، وأهلُ الحقِّ يُجْرُونَها على الظَّواهرِ؛ إذ في قدرةِ اللهِ مُتَّسعٌ.

فإذا وردَ الظاهرُ وكانَ مُمكِناً في العقلِ فيجبُ التَّصديقُ، ويجوزُ التَّأويلُ إذ لم يمنعْ منه إجماعٌ، والسَّلفُ ما كانُوا يُؤوِّلون هذا، فأمَّا الموضعُ الَّذي يستحيلُ في العقلِ الإجراءُ على الظَّاهرِ فيجبُ التَّأويلُ[1].

وعندما تكلَّمَ على قولِهِ تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾؛ أي: بلا واسطةٍ ﴿تَكۡلِيمًا﴾: هذا تأكيدٌ، والمَجازُ لا يُؤكَّدُ، فلا يُقالُ: «أرادَ الجدارُ إرادةً»، فلما أكَّدَها هنا بالمصدرِ عُلِمَ بُطلانُ مَن يقولُ: خلَقَ لنفسِه كلامًا في شجرةٍ فسمِعَه موسى، بل هو الكلامُ الحقيقيُّ الذي يكونُ المُتكلِّمُ به مُتكلِّما عندَ قيامِه به، وأصلُ هذا اللَّفظِ منَ التَّأثيرِ في الشَّيءِ، فمَن كلَّمتَه فقد أثَّر فيه ما قُلتَه لمَّا سمعَه، ومنه: «كلَمْتُه»؛ أي: جَرَحْتُه وأثَّرتُ فيه[2].

وعندما تكلَّمَ عن الميزانِ يومَ القيامةِ وحقيقتهِ ونقلَ قولَ مَنْ قالَ إنَّ الوزنَ والميزانَ بمعنى العدلِ والقَضاءِ، عقَّبهُ المصنفُ بقولِ الزَّجَّاجِ: هذا سائغٌ من حيثُ اللِّسانُ، والأَولَى أنْ يُتَّبَعَ ما جاء في الأسانيدِ الصِّحاحِ من ذكرِ الميزانِ. ثمَّ قالَ المصنفُ: فقد أحسنَ فيما قال؛ إذ لو حُمِلَ الميزانُ على هذا فليُحمَلِ الصِّراطُ على الدِّينِ الحقِّ، والجنّةُ والنّارُ على ما يَردُ على الأرواحِ دونَ الأجسادِ، والشَّياطينُ

(١) (٦/ ٣٧٥).

(٢) انظر: (٢/ ٥٣٢). وانظر أيضاً: (١/ ٥٥-٥٦، ٩٦).

والجنُّ على الأخلاقِ المذمومةِ، والملائكةُ على القِوَى المحمودةِ، وقد اجتمَعَتِ الأمّةُ في الصَّدرِ الأوَّلِ على الأخذِ بهذه الظَّواهرِ من غيرِ تأويلٍ، وإذا أجمعُوا على منعِ التَّأويلِ وجبَ الأخذُ بالظّاهرِ وصارَتْ هذه الظَّواهرُ نصوصًا[١].

والمصنفُ يُدندِنُ كثيراً حولَ فكرةِ أنَّ التَّفسيرَ والتَّأويلَ وإنْ كان مَقبولاً عقلاً فإنَّه يتوقَّفُ على النَّقلِ الصحيحِ[٢].

ثامناً: الردُّ على المعتزلةِ وغيرِهم من الفِرَقِ: فالمصنِّفُ عاشَ فترةَ أواخرِ القرنِ الخامسِ وأَوائلِ القَرنِ السَّادسِ مِن الهجرةِ، وفي تلك الفترةِ ظهرَتْ رُدودُ أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ على المعتزلَةِ وغيرِهم، وهذا يُلحَظُ في مَواطِنَ عدةٍ مِن هذا التَّفسير[٣]. ومِن أبلغِ الرُّدودِ عليهم وقد ورَّى المصنِّفُ بهم وبغيرِهم عندما شرحَ قولَه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ حيثُ قال: ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: وهم أصحابُ الأباطيلِ، ومنهم كلُّ مَن يَطلبُ للقيامةِ ولِمَا وردَ في القرآنِ من ذكرِها تأويلاتٍ فاسدةً[٤].

---

(١) انظر: (٣/ ١٦٣). وقد نقل القرطبي والشوكاني وغيرهما من المفسرين كلام المصنف هذا.

(٢) انظر: (١/ ١٠٧)، (٢/ ٢٣٧) حيث ذكر قولين في أرواح الشهداء في قبورهم، ثم قال: والقولان سائغان في العقل، فما صح به النقل فهو الواقع.
وانظر: (٢/ ٥٨٦) حيث نقل عن الكلبي قوله في المدة التي بين عيسى ونبينا عليهما السلام قال: ومثل هذا لا يُعلم إلا بخبرِ صدقٍ.

(٣) ردَّ المصنف على المعتزلة في (٢٣) موضعاً، وقد نقل أكثر كلامهم عن الإمام القفال الشافعي، وأحال في بعضها إلى تفاسيرهم، كما رد على القدرية في (٥) مواضع. وقد نقل عن علي بن عيسى أبي الحسن الرماني المعتزلي في موضعين من كتابه هذا (٤/ ٦٧٤)، و(٦/ ٥٤٣)، والنقلان في اللغة لا في الاعتقاد.

(٤) (٦/ ٥٥٢).

تاسعاً: الاقتصادُ في سَردِ المسائلِ الفقهيَّةِ والاختصارُ: فهو يَذكرُ فقهَ الإمامِ الشَّافعيِّ وأقوالَه[١]، ويَسُوقُ مذهبَ الشَّافعيَّةِ وأقوالَهم داخلَ المذهبِ[٢] وقد يتعقَّبُهم[٣]، أو يَذكرُ الصَّحيحَ مِن المذهبِ[٤]، وقلَّ أنْ يتعرَّضَ لمذهبِ غيرِه مِن الفُقهاءِ[٥]، وقد يتعقَّبُ بعضَ الأقوالِ الفقهيَّةِ ويُضعفُها[٦]. وقد يَذكرُ اختياراتِ الصَّحابةِ ومَذاهبَهُم[٧].

وهو في كلِّ ذلكَ لا يُفصِّلُ كثيراً في الأحكامِ الفقهيَّةِ بل يُحيلُ في أَمرِ تفصيلِها إلى كتبِ الفُقهاءِ[٨].

عاشراً وأخيراً: الإفادةُ من تفسيرِ الواحديِّ: استفادَ المصنِّفُ كثيرًا مِن أحدِ أهمِّ التَّفاسيرِ المدوَّنةِ وهو «البسيط» للإمامِ الواحديِّ، وهو تفسيرٌ واسِعٌ جدًّا، يتناوَلُ المسائلَ النَّحْويَّةَ واللُّغويَّةَ وغيرَها بمزيدٍ مِن الشَّرحِ مع نسبةِ الأقوالِ لقائليها، والتُّعرضِ لِمَا يقَعُ بين أصحابِ هذه الأقوالِ مِن الخلافِ والمناقشاتِ والأَخْذِ

---

(١) وقد يذكر القول القديم والجديد له، انظر مثلًا (١/ ٥٣٣).

(٢) (٢/ ٤٤٤، ٤٤٦).

(٣) (١/ ٤٢٤).

(٤) (٢/ ٣٦٦)

(٥) (١/ ٤٠٤، ٤٧٧).

(٦) (١/ ٤١٢) حيث تعقب قول الإمام أبي حنيفة، و(٢/ ٢٨٦)، و(٢/ ٣٣٠) حيث استبعد قول ابن عباس وسعيد بن جبير: أن الأَمَةَ لا تُحد إذا لم تكن متزوجة لقوله تعالى: (فإذا أحصن...) في سورة النساء. و(٢/ ٣٣٢) حيث نقل عن الحسن البصري قولاً واستبعده وذكر أنه لا أصل له.

(٧) (١/ ٤٤٣، ٥٣٦).

(٨) انظر أمثلة في إحالته إلى كتب الفقه طلباً للاختصار: (١/ ٤٢٦، ٥٤٠، ٦٠٦)، (٢/ ٤٤٤، ٤٦٦، ٧٠٥)، (٥/ ٢٧٨، ٢٨١).

والرَّدِّ، فكان الغالبُ عليه البَسْطُ والتَّطويلُ، ومن ثَمَّ فقد كانَ المصنِّفُ ينقلُ بوساطتِه كثيراً مِن أقوالِ أئمَّةِ اللُّغةِ والتَّفسيرِ والمعاني كالفرَّاءِ والأخفشِ والزَّجَّاجِ، بتعيينٍ أحيانًا ودونَ تعيينٍ في أكثرِ الأحيانِ، كما يتعرَّضُ لِمَا ذكرَه الواحديُّ مِن مَسائلِ التَّفسيرِ والنَّحوِ واللُّغةِ بنوعٍ من التَّهذيبِ، مع تجنُّبِ التَّطويلِ، والاختصارِ الحَسَنِ، ووضوحِ المَسألةِ، بحيثُ لا يشعرُ القارئُ أنَّ ما يقرؤه منقولٌ مِن مَصدرٍ آخرَ أو مختصَرٌ عنه.

ولا بدَّ مِنَ التَّنبيهِ على أنَّ الواحديَّ قد انفردَ بذكرِ الكثيرِ مِن أقوالِ ابنِ عبَّاسٍ المرويَّةِ عنه مِن طريقِ عطاءٍ والكَلبيِّ وجويبرٍ وعطيَّةَ العَوفيِّ، وهذه الرِّواياتُ وإن كانت ضعيفةً سندًا لكنَّها تُثْرِي التَّفسيرَ بما حوَتْه مِن وُجوهٍ، وقد نقلَ المصنِّفُ عنه جلَّ هذه الرواياتِ إن لم يكن جميعَها.

وختاماً هناكَ ثَمَّ ملاحظاتٌ يَقِفُ عندها مُطالعُ هذا التَّفسيرِ منها:

أولاً: قلةُ عنايةِ المصنِّفِ ببيانِ المكِّيِّ والمدنيِّ مِن السُّورِ والآياتِ كما فعلَ كثيرٌ من المفسِّرين، وإنْ كان يُرجِّحُ بينَ الأقوالِ أحياناً اعتماداً على المكِّيِّ منها والمدنيِّ[(١)]، وقد يذكرُ قليلاً أنَّ السُّورةَ مَكِّيَّةٌ أو مَدنيَّةٌ في آخرِ السُّورةِ[(٢)].

---

(١) كما في قول ابن عباس في رواية في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾: أرادَ ما رأى في المنامِ أنَّه يدخلُ مكّةَ، وكان أخبرَ به أصحابَه، فلما صُدَّ عن البيتِ عامَ الحُدَيبيةِ كان ذلك فتنةً لهم، فلمَّا كان العامُ المُقبِلُ دخلَها وأنزلَ الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. قال المصنف: وفي هذا ضعفٌ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيةٌ، وتلك الرُّؤيا كانت بالمدينةِ. (٤/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣).
وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ [القمر: ٥١] حيث نقل قول من قال: إنَّه أشارَ إلى بدرٍ. قال المصنف: ولكنَّ السُّورةَ مكيّةٌ، فلا يَحسنُ هذا التَّأويلُ. (٦/ ٨٣٦). وانظر: (٤/ ٣٩٤).

(٢) (٤/ ٢٥٠) في سورة الحجر، و(٤/ ٣٣٦) في سورة النحل.

ثانياً: قلّةُ الاستشهادِ بالشِّعرِ عند المصنف، على خلافِ جُملةٍ مِن كتبِ التَّفسيرِ، لكنَّه أَكْثَرَ في مُقابلِ ذلك مِن ذِكْرِ التَّمثيلِ والأَمثالِ كما تقدَّمَ.

ثالثاً: قلَّةُ التَّصريحِ عن المصنِّفينَ المفسِّرينَ الَّذين أخذَ عنهم في تصنيفهِ هذا، وأَكثرُ ما يُتعجَّبُ منه هنا عدمُ ذِكْرِ الإمامِ الواحديِّ إطلاقاً في هذا الكتابِ، وهو كان عِمادَه وأَساسَه الَّذي أقامَ عليه جُلَّ كتابهِ هذا، كما يُلحظُ أنَّ المصنفَ لم يَنقلْ عن والدهِ الإمامِ أبي القاسمِ القُشيريِّ صريحاً إلا مرةً واحدةً في كتابهِ، بل إنَّ شيخَ المفسِّرينَ الإمامَ الطَّبريَّ الَّذي نقلَ عنه جُلَّ الأقوالِ والآثارِ المرويَّةِ في التَّفسيرِ لم يَذكُرْهُ صريحاً إلا في (١٥) مَوضعاً مِن هذا الكتابِ.

وبعدُ: فهذا تفسيرُ الإمامِ أبي نصرٍ القُشيريِّ نُقدِّمُه اليومَ مَطبوعاً محققاً أولَ مرةٍ، وهو مِن التَّفاسيرِ المتقدِّمة التي أُلِّفتْ في أوائلِ القرنِ السَّادسِ الهجريِّ وقد سبقَتْ كثيرًا مِن التَّفاسيرِ كـ«الكشَّافِ» و«المحرَّرِ الوجيزِ» وما جاءَ بعدهما واتَّكلَ عليهما، ولذلك تجدُ فيه الكثيرَ مِن الإبداعاتِ التي استنبطَها بسعةِ علمِهِ ونظرِه ولم يَنقُلْها عن أحدٍ، أو نقلَها عَن مصادرَ مفقودةٍ لم تَصِلْ إلينا، كما أنَّ له آراءَ عدة تناقَلَها أهلُ العلمِ بعدَه واعتدُّوا بها في التقريرِ والاستدلالِ، فالحمدُ للهِ على توفيقهِ وتيسيرِهِ حمداً كثيراً.

* * *

ثالثاً: وصفُ النُّسخِ الخطِّية المُعتمدةِ في التَّحقيقِ

تمَّ بتوفيقِ الله وفضلِهِ الوقوفُ على ثلاثِ نسخٍ خطيَّةٍ نفيسةٍ للكتابِ؛ نفاسةُ ثنتَينِ منها لتقدُّمِها؛ فالأُولى مِن روايةِ أبي حفصٍ الصَّفَّارِ زوجِ بنتِ المؤلِّفِ رحمهما الله، والثَّانيةُ قريبةُ العهدِ بالمؤلفِ كُتبتْ سنةَ (٥٦٤هـ)، وتأتي قيمةُ النسخةِ الثَّالثةِ وأهميتُها أنَّها النُّسخةُ الوحيدةُ التامةُ مِن بينِ هذه النُّسخِ.

ثمَّ وقفنا على كتابِ المؤلِّف الآخَرِ وهو «مختصرُ تفسيرِهِ» هذا، فكانَ في ذلك عظيمُ الإفادةِ، فالحمدُ لله على ذلك كثيراً.

وهذا وصفٌ لكلِّ واحدةٍ منها:

١ ـ النُّسخةُ الأولى (ف): نسخةُ مَكتبةِ شيخِ الإسلامِ فيضِ الله أفندي.

من محفوظاتِ مكتبةِ (مِلَّت) بإسطنبول، وهي نسخةٌ نفيسةٌ عتيقةٌ، قريبةُ العهدِ بالمؤلفِ، متصلةٌ به، مقابلةٌ مسموعةٌ، حدَّثَ بها تلميذُه وصهرُهُ الإمامُ أبو حفصٍ عمرُ بن أحمدَ بن منصورٍ الصفَّارُ النَّيسابوريُّ.

وهي نسخةٌ غيرُ تامَّةٍ، نُسخت ببغداد سنة (٥٤٢هـ)، وناسخها: عبدُ العزيزِ بنُ عثمانَ بنِ أبي بكرٍ المغربيُّ الأشيريُّ.

وقد وقفنا منها على **مجلَّدينِ**:

الأول، محفوظٌ تحت رقم (٨٩)، **وهو مِن بداية الكتابِ إلى آخرِ سورةِ النِّساءِ**. ويقعُ في نحو (٢٣٢) ورقة، وفي الصَّفحةِ الواحدةِ نحو (٢٨) سطرًا، وفي كلِّ سطرٍ نحوُ (١٥) كلمةً.

وكتبَ على صفحة الغلافِ: «الجزءُ الأولُ مِن **التَّيسير في التَّفسير** تصنيف

الشَّـيخِ الإمـامِ زين الإسـلام أبي نصرٍ عبدِ الرَّحيـمِ بن عبد الكريمِ بنِ هوازنَ القُشَـيريِّ رحمـه الله تعالى».

وبجانبِ هذه العبارة تملُّكُ شيخ الإسلامِ فيضِ الله أفندي ونصُّه: «من كتب الفقير السيِّد فيض الله أفندي المفتي بدارِ القُسطنطينيَّةِ المحميَّةِ عُفي عنه»، وأسفلَ الصفحة كتابةٌ باللغةِ العُثمانيَّةِ تعرِّفُ بالكتابِ.

وجاءَ في أوَّلِ الصَّفحةِ الأولى: «أخبرَنا الشَّيخُ الإمامُ أبو حفصٍ عمرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ الصَّفّارُ النَّيسابوريُّ قدِمَ علينا حاجًّا بغدادَ قراءةً عليه وأنا أسمعُ، قال: أنا خالُ أمِّي الشَّيخُ الإمامُ زينُ الإسلامِ أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ القُشَيريُّ رحمَه الله، قال:

نحمدُ الله تعالى على الذي منَّ علينا بكتابِه الحقِّ الذي هو حجّةُ سيِّدِ البشرِ على كافّةِ الخلقِ، ونسألُه أن نُصلِّيَ عليه صلواتٍ يضيقُ عنها وُسعُ النُّطقِ، هذا وقد سبقَ منِّي إملاءُ مجموعٍ في التَّفسيرِ والتَّأويلِ، فيه بعضُ البسطِ والتَّطويلِ، فنشطَ بعضُ الأعزّةِ في فيضِ ما انبسطَ، ورأى خيرَ الأمورِ الوسَطَ، فاستوفَقْتُ الله تعالى فيه، وهو مُسهِّلُ كلِّ أمرٍ وكافيه...».

وجاء في آخرِ المجلدِ الأولِ: «فرغَ من نسخِ هذه المجلَّدةِ عبدُ العزيزِ بنُ عثمانَ بـنِ أبـي بكرٍ المغربيُّ الأشيريُّ بمدينة السَّلامِ بغداد حماها اللهُ تعالى، حامدًا الله تعالى ومصليًا على محمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّين وآله الطَّاهرينَ وأصحابِهِ المنتجبينَ في سنة اثنتينِ وأربعين وخمس مئةٍ، فرحمَ اللهُ مَن قرأَ فيه ودعا له ولوالديه ولجميعِ المسلمينَ بالرَّحمةِ والمغفرةِ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ».

وكُتب بعدَهُ قيدُ سَماعٍ:

«سَمِعَ جميعَ المجلَّداتِ مِن التَّفسيرِ المُسمَّى **بالتَّيسيرِ للإمامِ أبي نصرٍ القُشَيريِّ** رضيَ الله عنه عن الشَّيخِ الإمامِ العالمِ الأوحَدِ زينِ الإسلامِ شَرفِ الأئمَّةِ أبي حفصٍ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ مَنصورٍ الصَّفَّارِ النَّيسابوريِّ أدامَ اللهُ أيامَه بحقِّ روايتِه عن المصنِّفِ رحمَهُ الله صاحبُ النُّسخةِ الشَّيخُ الإمامُ.......[1] نفعَنا الله به، والشُّيوخُ السَّادةُ الأئمَّةُ:

أبو محمَّدٍ عبدُ العزيزِ بن عثمانَ بن أبي بكر الأشيري المالكيُّ، وأبو محمَّدٍ عبدُ اللهِ ابنُ موسى بن يعيش المالكيُّ، المغربيانِ، وأبو التُّقى عبدُ الرَّاغبِ بن مالكِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ الأَسديُّ الأَبهريُّ، والشَّريفُ أبو بكرٍ عبدُ الله بن أحمدَ بن حَسنويه الزُّبيريُّ[2]. وأبو حامدٍ عبدُ اللهِ بن أبي الفُتوحِ بن أبي عمرانَ[3]، وأبو القاسمِ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ البرِّ بنِ عبد العزيزِ الزَّاذانيُّ[4]، وأبو الفضائلِ زاذانُ بن إسماعيلَ بنِ عبدِ العزيزِ الزَّاذانيُّ[5]، وأبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ عبدِ العزيزِ السَّخاويُّ، وأبو طاهرٍ عليُّ بن أبي طاهرٍ[6]، القزوينيُّونَ، وأبو المهذَّبِ طاهرُ بنُ عبدِ الرَّحيمِ بنِ محمدٍ......،

---

(١) ضرب على اسم صاحبِ النسخة، وهي عادةٌ سيئةٌ من بعضِ ملاك المخطوطات قديمًا!!.

(٢) ذكره الرافعي في «التدوين في أخبار قزوين» (٣/ ٢١٧).

(٣) ذكره الرافعي في «التدوين» (٣/ ٢٣٣)، وقال: عبد الله بن أبي الفتوح بن عمران (كذا!) أبو حامد، من الأئمة المذكورين من أقرانه، توفي سنة ٥٨٥هـ.

(٤) ذكره الرافعي في «التدوين» (٣/ ١٩٠)، قال: عبد العزيز بن عبد البر بن عبد العزيز أبو القاسم الزاذاني سمع ببغداد: عمر بن أحمد بن منصور الصفار سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة.

(٥) ذكره الرافعي في «التدوين في أخبار قزوين» (٣/ ٢٢)، وقال: سمع ببغداد من عمر بن أحمد الصفار سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة.

(٦) قال الرافعي (٣/ ٤٤): سعيد بن علي بن أبي طاهر القزويني، فقيه أكثر مقامه بهمدان، سمع بمدينة =

وأبو القاسمِ سعدُ بنُ عليِّ بنِ أبي هريرةَ[1]، وأبو المحاسنِ الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ الصَّائغُ، الإسفرايِّيانِ، وأبو بكر أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ العبير النَّيسابوريُّ، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ سَحْكَان السَّلَمَاسِي، وأبو عمرو عثمانُ بنُ بُندارِ بـنِ إبراهيم......، وأبو الفَضلِ محمَّدُ بنُ المفرجِ بنِ محمَّدِ بن......، وأبو عبدِ اللهِ أحمدُ بن محمَّدِ بنِ سَعدٍ[2]، وأبو الرَّجاءِ فضلُ الدِّينِ بنُ عليِّ بنِ طاهرِ بنِ السريِّ، وأبو عبدِ اللهِ الحسينُ بنُ عبدِ الوهَّابِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين»

أما المجلَّد الثَّاني، فهو محفوظٌ تحت رقم (٨٧)، وهو مِن **بدايةِ سورةِ المائدةِ إلى آخرِ سورةِ الكهفِ**، ويقعُ في (٢٠٩) ورقة.

وجاءَ في آخرِه:

«فرغ من نسخِه ومقابلَتِه وسَماعِه يوم الجمعةِ في العشرِ الأَخيرِ مِن شهرِ ذي الحجَّةِ سنةَ اثنتينِ وأربعينَ وخمس مئةٍ بمدينةِ السَّلامِ بغداد حماها اللهُ تعالى، والحمدُ للهِ وحدَهُ وصَلَواتُه على سيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وسلَّمَ تسليمًا وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوَكيل».

وخُطَّـتْ النُّسـخةُ بمجلَّدَيْهـا بمِـدادٍ أسـوَدَ، وخطُّهـا نسـخيٌّ قديمٌ يقـرُبُ مِن المغربـيِّ، ويظهـرُ ذلك فـي المجلَّـدِ الأوَّلِ أكثـر؛ لأنَّ كاتبها مغربيٌّ كمـا نصَّ عليه فـي خاتمـةِ المجلَّـدِ الأوَّلِ، وقد زيدَ في كشـيدةِ لامِ كلمـةِ (قوله) دلالـةً على بدايةِ كلِّ آيـةٍ، وقـد يُكتـبُ رأسُ الآيةِ بخطٍّ أكبـرَ قليلًا.

= السلام أبا حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، اهـ.

(١) من شيوخ ابن عساكر، روى عنه في «تبيين كذب المفتري».

(٢) لعله الفقيه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعد البُرُوجِرْدي الفقيه الشافعي، ترجمته في «التكملة لوفيات النقلة» (٢/ ٣٣١) و«تاريخ الإسلام» (١٣/ ٣٣١).

وفي الهوامشِ تَصويباتٌ وإلحاقاتٌ مُصحَّحةٌ، وهي تدلُّ على صحَّةِ المقابلةِ، وتندُر الهوامشُ التي بها تعليقاتٌ أو قيدُ فَواتٍ ونحوِه.

وراوي هذه النُّسخةِ عن المصنِّف:

تلميذُه وصِهرُهُ زوجُ ابنتِهِ الإمامُ أبو حفصٍ عُمَرُ بن أحمدَ بنُ مَنصورٍ الصفَّارُ النَّيسابوريُّ (ت ٥٥٣هـ)(١).

وذكرَ ابنُ النجَّارِ في «ذيل تاريخ بغداد» أنَّه حدَّث ببغدادَ سنةَ اثنتينِ وأربعينَ وخمس مئةٍ بكتابِ «التيسير في التفسير» للإمام أبي نصرٍ القُشَيريِّ، وأجزاءٍ أُخَر(٢).

٢ ـ النُّسخَةُ الثَّانيةُ (أ): نسخةُ مكتبةِ السُّلطانِ أحمدَ الثَّالثِ.

وهي مِن محفوظاتِ مكتبةِ قصرِ طوب كابي في إسطنبولَ، تحتَ رقمِ: (A. ٩٣).

وهي نسخةٌ تامةٌ، تقع في نحو (٦٦٨) ورقة، وفي الصَّفحةِ الواحدةِ نحو (٣١) سطرًا، وفي كلِّ سطرٍ نحوُ (١٥) كلمةً.

جاءَ في صفحة الغلافِ: «تفسير قشيري المسمَّى بالمجموعِ في التفسير والتَّأويل»(٣). وهذه التسميةُ اجتهادٌ من النَّاسخِ أخذَها مِن قولِ أبي نصرٍ في أولِ الكتابِ: «قد سبقَ منِّي إملاءُ مجموعٍ في التَّفسيرِ والتَّأويلِ».

---

(١) مضى التعريفُ به في ذكر أسرة المصنف في ترجمته. وانظر: «المنتخب من كتاب السياق في تاريخ نيسابور» للصيرفيني (ص: ٤٠٧)، «تاريخ الإسلام» (١٢/ ٧٢)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٣٧)، «الوافي بالوفيات» (٢٢/ ٢٥٨)، «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكي (٧/ ٢٤٠)، «طبقات الشافعية» للإسنوي (٢/ ٤٧).

(٢) انظر «تاريخ بغداد وذيوله ـ العلمية» (٢٠/ ٢٢).

(٣) كتب بعده: «للإمام أبو القاسم القشيري...» ثم ضرب عليه وكتب بجانبه بقلم رصاص: «أبو النصر عبد الرحيم ابن عبد الكريم القشيري (٥١٣)».

وفي الصَّفحةِ بعدها ختمُ مكتبةِ السُّلطانِ أحمدَ الثَّالثِ ونصُّه: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله»، وكتب في الطغراء: «وقف أحمد بن محمد خان ثالث».

وجاءَ في أوَّلِ النُّسخةِ: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ربِّ يسِّرْ وأعِنْ برحمَتِك يا كريمُ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ وبالإجابةِ جَديرٌ، أخبرَنا الشَّيخُ الإمامُ أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ القُشيريُّ رحمَهُ اللهُ في كتابِهِ إلينا مِن نَيسابورَ قال: نحمَدُ اللهَ تعالى الذي منَّ علينا بكتابه الحق...».

وجاء في خاتمتِها: «تمَّ التفسيرُ المباركُ تفسيرُ الإمامِ الجَليلِ أبو القاسمِ القُشَيري نفعَ اللهُ به[1] وأعادَ علينا مِن بَركاتِه وأحيا قلوبَنا بكلماتِه في ثالثِ محرَّم الحرامِ افتتاحَ سنةِ ١٠٤٤».

وخُطَّتْ النُّسخةُ بمدادٍ أسوَدَ، وكتبَ: «قوله عز وجل» بمدادٍ أحمرَ دلالةً على بدايةِ كلِّ آيةٍ، وقد يُكتبُ بمدادٍ أخضرَ في أواخرِ النُّسخةِ.

وفي هامشِ النُّسخةِ تصويباتٌ وإلحاقاتٌ مُصحَّحةٌ، وهي تدلُّ على صحَّةِ المقابلةِ، وتندرُ الهوامشُ التي بها تعليقاتٌ، إلَّا من بعدِ سورةِ النَّبأِ، فقد كثرَتْ فيها الحواشي.

وقد وقعَ في هذه النسخةِ بعضُ الأسقاطِ هذه مواضعها:

السّقطُ الأولُ: وهو بمقدارِ (ورقة كاملة) في سورةِ الرَّعدِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾.

وهو يُقابلُ في مَطبوعتِنا (٤/ ١١٤).

(١) كذا، وهو سهوٌ من النَّاسخ مخالفٌ لما جاء في أول النسخة.

واستدركْنا هذا السقطَ من النُّسخةِ الخطيةِ (ف).

السّقط الثَّاني: وهو بمقدارِ (٣ ورقات) في سورةِ الفرقانِ الآية (٣٢) عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ حتى الآية (١٤) مِن سورةِ الشُّعراء عندَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾.

وهو يقابلُ في مطبوعتِنا من (٥/ ٣٦٩) حتى (٥/ ٤٠٩).

وقد استدركْنا هذا السقطَ من النُّسخةِ (م) الَّتي هي «مُختصرُ التفسيرِ» للمصنِّفِ رحمه الله.

السّقطُ الثَّالث: وهو بمقدارِ (ورقة واحدة) في سورةِ المُمتحنة الآية (٤) عندَ قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حتى بدايةِ الآيةِ العاشرةِ من السورةِ نفسِها.

وهو يُقابلُ في مطبوعتِنا من (٧/ ٧٣) حتى (٧/ ٧٨).

وقد اجتهدْنا في استدراكِ هذا السقطِ مِن «تفسيرِ القرطبيِّ» إذ إنَّه أحدُ أهمِّ المصادرِ الَّتي نَقلتْ عن هذا التفسيرِ وأَكثرَتْ منه.

السّقطُ الرَّابعُ: وهو بمقدارِ (ورقة واحدة) في سورةِ القلمِ الآية (١٣) عندَ قولِهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ حتى الآية (٢٥) منها وهو قولُه تعالى: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾.

وهو يقابلُ في مطبوعتِنا من (٧/ ٢٠٧) حتى (٧/ ٢١٦).

وقد استدركْناهُ مِن «تفسيرِ القرطبيِّ» بعد تهذيبِهِ بما يتناسبُ مع منهجِ المصنِّف.

السّقطُ الخامسُ: وهو عبارةٌ عن (طمس أربع ورقات) في سورةِ الغاشيةِ من الآية (١٨) حتى الآية (١٣) من سورةِ الفجر.

وهو يقابلُ في مطبوعتِنا (٧/ ٥٤٤).

ولم يُعرَف اسمُ النَّاسخِ، ولا مِن أيِّ أصلٍ نُقِلَت، لكن علاماتِ المقابلةِ فيها واضحةٌ، والنُّسخةُ على تأخُّرِ زمنِها منقولةٌ مِن طريقٍ غيرِ طريقِ النُّسخةِ الأولى (ف)، ويدلُّ على ذلك الفروقُ بين النسختينِ، وما جاءَ في بدايةِ كلٍّ منهما؛ فالنُّسخةُ الأولى مقروءةٌ ببغدادَ على صهرِ المصنِّفِ بحقِّ روايتِهِ عنه وفيها قيدُ السَّماع، والثانية أجاز بها المصنفُ بنيسابورَ مكاتبةً.

*** ملاحظةٌ مهمَّةٌ: وقعَ في آخرِ هذه النُّسخةِ لَحْقٌ هو ليسَ مِن تفسيرِ الإمامِ أبي نصرٍ القُشيريِّ، وذلك بدءاً مِن (سورةِ القيامةِ) حتَّى (سورةِ النَّاسِ)** حيثُ ظهرَ لنا أنَّ النَّاسخَ صارَ ينقلُ مِن تفاسيرَ متأخرةٍ ـ أو تفسيرٍ متأخِّرٍ على الرَّاجح ـ عن زمنِ المصنِّف، والَّذي رجَّحَ ذلك أمورٌ عدَّة:

١ـ **اختلافُ أسلوبِ التَّأليفِ**: حيثُ لم يَظهرْ ما كانَ عليه المصنِّفُ مِن سَردِ الأقوالِ في التَّفسيرِ والتَّرجيحِ بينها، وغابَ في هذا القسمِ النَّقلُ عن الواحديِّ أحدِ أهمِّ مصادرِ المصنِّفِ في الكتابِ، واختلفَ عزوُ القراءاتِ عمَّا كانَ مِن قبلُ كقولهِ: (قرأَ الحِرْميان)[1]، وذكرَ فيه روايةَ الوالِبيِّ عن ابنِ عبَّاس، ولم ينقلْ مِن طريقِ هذه الرِّوايةِ شيئاً مِن قبل.

كذلكَ وُجِدَ في هذه القطعةِ نقولٌ عن الجُنيدِ البغداديِّ[2] والخطَّابيِّ[3]، وفيها عزوُ أحاديثَ للتِّرمذيِّ والنَّسائيِّ وعبدِ بنِ حُميدٍ والطَّبرانيِّ[4]، ولم يُعْهَدْ النَّقلُ عنهم ولا العزوُ مِن قبلُ.

---

(١) (٧/ ٤٤٠).

(٢) (٧/ ٤٧٣، ٤٧٧، ٥٠٦).

(٣) (٧/ ٥٩٤).

(٤) (٧/ ٥١٠).

٢ـ النقلُ عن علماءَ متأخِّرينَ عن زمنِ المصنفِ: تقدَّمَ في ترجمةِ المصنِّفِ رحمه الله أنَّ وفاتَه كانت سنةَ (٥١٤هـ)، وفي هذه القطعةِ وجدنا نُقولاً مُصرَّحاً بها عن تفاسيرَ متأخرةٍ عن زمنِ المصنِّفِ؛ كالنَّقلِ عن البَغَويِّ (ت ٥١٦هـ)[١]، وابنِ عطيَّةَ (ت ٥٤٦هـ)[٢]، والرازي (ت ٦٠٦هـ)[٣]، حتى إنَّ الإمامَ القُرطبيَّ (ت ٦٧١هـ) الذي نقلَ بإسهابٍ عن المصنِّفِ وجدناهُ مُصرَّحاً بالنَّقلِ عنه في هذهِ القطعة؟!!

وهناكَ نقولٌ كثيرةٌ غيرُ مُصرَّحٍ بها مَنقولةٌ عن كتابِ «الكشَّافِ» للزَّمخشريِّ[٤].

٣ـ وقَفْنا على عشَراتِ المواضعِ الَّتي نقلَ عنها الإمامُ القُرطبيُّ في «تفسيرِهِ» عن الإمامِ أبي نصرٍ القُشيريِّ في تفسيرِهِ هذا، ولم نجدْها في هذه القطعةِ، وقد قُمنا بإثباتِ تلك المواضعِ في هوامشِ التَّحقيقِ تتميماً للفائدةِ[٥].

والَّذي ظهرَ لي: أنَّ النَّاسخَ لم يقُمْ بتلفيقِ هذه القطعةِ الأخيرةِ مِن كُتبِ التَّفاسيرِ وتجميعِها، بل إنَّه نقلَها مِن أحدِ التَّفاسيرِ المتأخِّرةِ الَّتي لم تصلْ إلينا، يدُلُّكَ على ذلكَ حُسْنُ السَّبْكِ والتَّرتيبِ، وجَوْدةُ اختيارِ النُّصوصِ، والتَّعبيرُ عن الألفاظِ والمعاني بلغةٍ علميَّةٍ قريبةٍ مِن نَفَسِ عالِمٍ مُفسِّرٍ لا ناسخٍ ناقلٍ، والله أعلم[٦].

---

(١) (٧/ ٥١٨، ٥٥٦، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٧٩).

(٢) (٧/ ٥٢٢).

(٣) (٧/ ٤٩٣، ٥١٣، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٦١، ٥٦٧).

(٤) انظر مثلًا: (٧/ ٤٠٠، ٤٦٨، ٤٩٢، ٥٤٣، ٥٤٨).

(٥) انظر مثلًا: (٧/ ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٢٨، ٤٣٧، ٤٦٥، ٤٧١، ٤٩٠، ٤٩٤، ٥٠٥، ٥٠٩، ٥٢١، ٥٣٥، ٥٤١، ٥٥٥، ٥٥٩، ٥٦٧، ٥٧٥، ٦١٠، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٧، ٦٣٨).

(٦) كما ظهر لي أنَّ ما دعا الناسخَ إلى ذلك هو تعرضُ الأصلِ الخطي الذي كان ينقل عنه لخرمٍ أو رطوبةٍ أو تلفٍ ما، يدلُّك على ذلك أن الناسخ في القسم الأخير من تفسير المصنف ـ قبل هذه القطعة التي نتكلم عنها ـ كثُر عنده التصحيف والتحريف والسقط في بعض الكلمات حتى إنه كان =

٢ ـ النُّسخَةُ الثَّالثةُ (ج): نسخةُ مكتبةِ جاريث في هولندا.

وهي محفوظة تحتَ رقمِ: (H. ٦٤٣) وعنها مصورة في مكتبة فهد الوطنية بالرياض.

وهي نسخةٌ غيرُ تامَّةٍ، تبدأ مِن سورةِ الإسراءِ إلى آخرِ سورةِ المؤمنون، وتقعُ في نحوِ (٢٠٧) ورقة، وفي الصَّفحةِ الواحدةِ نحو (١٨) سطرًا، وفي كلِّ سطرٍ نحوُ (١٥) كلمةً.

وقَد نُسِخَت سنةَ ٥٦٤هـ وقُوبلتْ عن أصلِها، وناسخُها: عبدُ الله بن عيسى بن عبيد الله بن عيسى المرادي الأندلسي الإشبيليُّ[١]. وهي تمثلُ الجزءَ الخامسَ من «التيسير في التفسير» كما في آخر النسخة.

جاءَ في رأسِ الصَّفحةِ الرَّابعةِ (صفحة الغلاف): «قطعةٌ مِن تفسيرِ القُشَيريِّ مِن سورةِ بني إسرائيلَ إلى آخرِ سورةِ قَد أفلحَ المؤمنونَ».

وجاءَ في أوَّل النُّسخةِ: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وصلى الله على محمد، تفسير سورة بني إسرائيل،...».

وجاء في خاتمتِها: «كَمَل الجزءُ الخامسُ مِن كتابِ التَّيسير في علمِ التَّفسير مُصنَّفِ الشَّيخِ الشَّهيدِ الإمامِ زينِ الدِّينِ ركنِ الإسلامِ: أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بن عبدِ الكريمِ بن هوازنَ القشيريُّ.

= يرسم بعض الكلمات رسماً دون تبين معناها وسياقها، وكأنه كان يعاني في قراءتها ومعرفتها، على خلافِ ما قبله حيث كانت نسخته مقدمةً في كثير من المواضع على النسخ الأخرى، والله أعلم.

(١) لم أقف له على ترجمة، وهو صاحبُ كتاب «المنتخب من نسب قريش خيار العرب»، ألَّفه بدمشق سنة ٥٨٢هـ، وجرَّد فيه كتاب نسب قريشٍ للزبير بن بكَّار. منه نسخةٌ منقولةٌ عن خطِّهِ في مكتبة وحيد باشا تحت رقم (٢٢٣٣)، وعنها طُبِعَ.

فرغَ مِنه صاحبُه الفقيرُ إلى رحمةِ اللهِ عبدُ اللهِ بنُ عِيسى بنِ عبيدِ اللهِ بنِ عيسى المراديُّ الأندلسيُّ الإشبيليُّ في الثَّالثِ مِن شعبانَ سنةَ أربعٍ وستِّينَ وخمس مئةٍ[1] حامدًا اللهَ تعالى مُصَلِّيًا على رسولِهِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وزوجِهِ».

وكتب تحته: «بلغ مقابلةً بالأصلِ على سبيلِ الاجتهادِ والتَّصحيحِ والحمدُ للهِ حقَّ حمدِه».

وخُطَّتْ النُّسخةُ بمدادٍ أسوَدَ، وخطُّها نسخيٌّ عتيقٌ، خالٍ من الضَّبطِ، والإعجامُ فيه قليل بل نادرٌ، وقد كتبت كلمةُ (قوله) بخطٍّ كوفيٍّ أكبرَ دلالةً على بدايةِ كلِّ آيةٍ.

وفي الهوامشِ تَصويباتٌ وإلحاقاتٌ مُصحَّحةٌ قليلة، وهي تدلُّ على صحَّةِ المقابلةِ.

النُّسخةُ الرابعةُ (م): نُسخةِ مَكتبةِ خالِصْ أفندي.

وهي مِن محفوظاتِ مكتبةِ جامعةِ إسطنبولَ، تحتَ رقمِ: (A ٣٣٢٨).

وهي عبارةٌ عن مختصرٍ لتَفسيرِ أبي نَصرٍ القُشَيريِّ، كما نُصَّ عليه في أوَّلِ النُّسخةِ، وما تدلُّ عليه عباراتُها الموجزةُ.

والنُّسخةُ ناقصةٌ، تبدأُ مِن أوَّلِ القُرآنِ وتنتهي آخرَ سُورةِ لُقمان، وتقعُ في نحوِ (٣٠٣) ورقة، وفي الصَّفحةِ الواحدةِ نحو (١٨) سطرًا، وفي كلِّ سطرٍ نحوُ (٩) كلمات.

جاءَ في على ظهرِ الغلافِ بخطِّ المُستشرقِ الألمانيِّ الشَّهيرِ هيلموت ريتر: «تفسيرُ أبي نَصرٍ عبدِ الرَّحيمِ بنِ عبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ القُشَيريِّ، هو ابنُ صاحبِ

---

(١) غير واضحةٍ في النسخة، واعتمدتُ في إثباتها على ما جاء في فهارس مكتبة جاريت بجامعة برنستون، وخطُّ النسخةِ ومعرفةُ الناسخِ تدلُّ على صحته.

«الرسالة»، توفيَ سنةَ ٥١٤، قلتُ: هذا الإسنادُ بمقابلةِ ما قالَ في تفسيرِ سورةِ مريمَ (ورقة ١٢٦ من هذه النسخة) بما ذكرَ السُّبكيُّ في «طبقاتِ الشافعية» ٤/ ٣٥٢-٣٥٣، كتبه الفقيرُ: هـ. ريتر».

وفي رأس صفحةِ الغلافِ: «تفسير قشيري ناقص ومَع هـذا إلى آخر سورةِ لُقمان»، وتحتَه تملُّكٌ نصُّه: «مما ساقَه المولى إليَّ وأدخلَه في يديَّ حرَّره الفقيرُ تقيُّ الدِّين محمَّدُ بنُ تقيِّ الدِّينِ الشَّاميُّ غفرَ له»، وتحتَه: «مِن منِّه سبحانَه على عبدِه الحَقيرِ رجَب حسَن الفقيرِ إلى اللهِ القديرِ».

وفيها تملُّكٌ مضروبٌ عليه، وختمُ مكتبةِ جامعةِ إسطنبول.

وجاءَ في أوَّلِ النُّسخةِ: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، قال الشَّيخُ الإمامُ محمَّدُ[1] بن هوازنَ القُشَيريُّ رحمَه اللهُ تعالى في تفسيرِه المُختصرِ مِن تَفسيرِه البَسيطِ: مَعنى التَّفسير...».

وجاءَ في خاتمتِها: «آخرُ الجزءِ الأوَّلِ مِن تَفسيرِ القرآنِ العَظيمِ للقُشَيريِّ رحمَه اللهُ تعالى، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمَّدٍ وآلِهِ وسلَّم، يَتلوهُ في الجزءِ الثَّاني سورةُ السَّجدةِ.

وفرغَ مِن تَعليقِه وقتَ الظُّهرِ نهارَ الأربعاءِ سادسَ عشرَ المحرَّمِ افتتاحَ عامِ ستٍّ وستِّينَ وثمان مئةٍ على يدِ الفَقيرِ إلى اللهِ تعالى عليِّ بنِ محمَّدِ بنِ عُثمانَ بنِ سُلطان بنِ عليِّ بنِ عُمرَ بنِ أحمدَ الحلاويِّ الشَّافعيِّ مَذهبًا الأشعريِّ اعتِقادًا الطَّرابلسيِّ سَكنًا غفرَ اللهُ لهُ وللمُسلمينَ ولِمَن قالَ آمين».

---

(١) كتب على الهامش بخط المستشرق هيلموت ريتر: «الصواب: عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري».

وخُطَّتْ النُّسخةُ بمدادٍ أسوَدَ، وكتبَ: «قوله عز وجل» بمدادٍ أحمرَ دلالةً على بدايةِ كلِّ آيةٍ، ومُيِّزَت الآياتُ كذلك بدوائرَ مَطموسةٍ بالحمرةِ قبلَها.

وعلى هامشِ النُّسخةِ تَعليقاتٌ قليلةٌ بخطِّ مالكِ النُّسخةِ حسَن رجَب، تتضمَّنُ شرحَ بعضِ الكلماتِ ونُقولًا مِن بَعضِ التَّفاسيرِ الأُخرى.

ولم نقابلْ هذه النسخةَ مقابلةً تامةً لأنَّها مختصرةٌ عن هذا الكتابِ «التَّيسير في التفسير»، وإنَّما استعنَّا بها في بعضِ المواضعِ مِن الكتابِ، وكان لها أثرٌ واضحٌ في حلِّ إشكالاتٍ كثيرةٍ مِن بعدِ (سورة المؤمنون) حتى (سورة لقمان)، فالحمدُ لله ربِّ العالمين.

* * *

رابعاً: بيانُ منهجِ التَّحقيق

حَرَصْتُ في هذا العملِ على إيلاءِ الكتابِ ما يَستحِقُّه من العنايَةِ، وأنْ أقدِّمَه لأهلِ العلمِ على الوجهِ المرضِيِّ بعدَ أن ظلَّ حبيسَ الخزائن قرونًا طوالًا، بصورةٍ صحيحةٍ تليقُ بمنزلةِ هذا التفسيرِ وصاحبِه.

فكان العملُ فيه على النَّحوِ التَّالي:

١ ـ حِرصًا على سَلامةِ النَّصِّ وتَجنُّباً للوقوعِ في أيِّ تحريفٍ أو سقطٍ، فقد تمَّ نسخُ نصِّ «التيسير» من إحدَى أهمِّ أصولِه الخطيَّة، وهي النسخةُ المرموزِ لها بـ(ف) المقروءة على صهرِ المصنفِ أبي حفصٍ عمرَ بنِ أحمدَ بنِ منصورٍ الصفَّار بروايته عنه، ثم مُعارَضتُه بالنسخِ الأخرى إلى آخرِ سورةِ الكهفِ، ثمَّ إكمالُ نَسْخِ بقيَّةِ الكتابِ مِن النُّسخةِ المرموزِ لها بـ(أ) ومعارضتُها بما وُجدَ في النسخة المرموزِ لها بـ(ج).

وقد جهدتُ في اعتمادِ الأصوَبِ في المتنِ، وإثباتِ أهمِّ الفروقِ في الحواشي وطرحِ ما لا حاجةَ إليه، مع الاستعانةِ في ذلك بالمصادر التي نَقلَ عنها المؤلِّفُ ككتابِ «البسيطِ» للواحديِّ، أو الَّتي نَقلَتْ عنه كـ«الجامع لأحكام القرآن» للقُرطبي و«البحر المحيط» لأبي حيَّان.

٢ ـ العنايةُ بضبطِ النصِّ وخصوصاً المشكِلُ والقِراءاتُ، وهذا بالاعْتِمادِ على كتبِ اللُّغةِ والغريبِ، وكتب «معاني القرآن» وقد أكثر المصنفُ من النَّقلِ عنها.

كما أنِّي ميَّزتُ ترجيحاتِ المصنِّفِ وتصحيحاتِهِ للأقوالِ والآراءِ بلونٍ غامقٍ لتَيسيرِ الوقوفِ عليها.

٣ ـ شرحُ ما غَمُضَ مِن كلامِ المؤلِّفِ، وبَسْطُ ما كان الإيجازُ مانعاً من فَهْمِه

على الوجهِ المطلوبِ، مع مراعاةِ الوُضوحِ التامِّ وعدمِ التَّعقيدِ، وتجنُّبِ الحشوِ والتَّطويلِ، والخروجِ عن النَّصِّ، والإسهابِ الذي لا يُفِيد.

٤ ـ تخريجُ الشَّواهدِ الشِّعريَّةِ من الدَّواوينِ إنْ توفَّرتْ، مضافاً إليها أمَّاتُ كتبِ اللُّغةِ والنَّحوِ والأدبِ والمعاني والتَّفسيرِ؛ كـ«الكتاب» لسيبويه، و«معاني القرآن» للفرَّاء، و«مَجاز القرآن» لأبي عُبيدةَ، و«الكامل» للمبرِّد، و«تفسير الطبريِّ»، و«معاني القرآن» للزَّجَّاج، وغيرِها.

٥ ـ العنايةُ بالقراءاتِ الواردةِ فيه ـ سواءٌ المتواترُ منها والشاذُّ ـ وذلك بضبطِها ضبطاً سليماً، وتخريجِها من أمَّات المراجعِ المختصَّة بهذا الشأن، مع نسبةِ كلِّ قراءةٍ لِمَن قرأ بها إن لم يَذكُرْها المؤلِّفُ.

كما أنِّي الْتَزمتُ من أجلِ تمييزِ المتواترِ مِن الشَّاذِّ بجَعْلِ كلِّ ما نُسِبَ للقرَّاء العشرةِ في المشهورِ عنهم ضِمْنَ أقواسٍ مُزَهَّرةٍ هكذا: ﴿ ﴾، وجعلِ القراءةِ الشَّاذَّةِ ضمنَ قوسينِ عاديَّينِ هكذا: ().

وجعلتُ العزوَ في القراءاتِ السَّبعةِ المتواترةِ مُختَصًّا بأهمِّ المراجعِ فيه على الإطلاقِ، وهما كتابُ «السبعة» لابن مجاهدٍ، وكتاب «التيسير»، لأبي عمرو الداني، فيكونُ العزوُ لهما مجتمعَيْنِ، إلَّا ما كان مِن خفاءِ شيءٍ في أحدِهما أو سقوطِهِ أو ما أشبهَ ذلك، فأكتفي بواحدٍ منهما عن الآخرِ.

وبالنِّسبةِ للعزوِ في القراءاتِ الشَّاذَّة فقد جعلتُ الأساسَ في ذلك: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه، و«المحتسب» لابن جِنِّي، مجتمعَينِ إن اجتمَعَا في ذكرِ القراءةِ، وإلَّا فأحدَهما إن انفردَ، فإن لم تُوجدْ فيهما القراءةُ فمِن أهمِّ المراجعِ المتقدِّمة نحو: «معاني القرآن» للفرَّاء، و«معاني القرآن» للزَّجَّاج.

كما عنيتُ في الشَّاذِّ أيضاً بذكرِ مَن قرأ بكلِّ قراءةٍ في حالِ ورودِ ذلك في المصادرِ، فإذا كَثُروا فقد أَكْتَفِي بالأهمِّ مع الإشارةِ أحياناً لكونِ القراءةِ نُسِبَت لجمعٍ غيرِهِم.

٦ ـ العنايةُ بالأحاديثِ النبويَّة الشَّريفةِ، وذلك بتخريجِها مِن دواوينِ السُّنَّةِ المعتمَدةِ، ومقابَلَتِها عليها، وذكرِ الفروقِ الوَجيهةِ بينَها، وسَوْقِ شواهِدِها إنْ وُجِدتْ، مع شرحِ غريبٍ وبيانِ عِلةٍ إنْ كانت. وأقتصرُ في العزوِ على الصَّحيحينِ أو أحدِهما إن وُجِدَ فيه الحديثُ، وإلا فمِن باقي الكتبِ السِّتَّةِ و«مسند الإمام أحمد»، فإنْ لم يُوجد الحديثُ فيها فمِن باقي كتبِ التَّخريجِ.

٧ ـ تخريجُ ما ذُكرَ فيه من آثارٍ عن السَّلَف من الصَّحابةِ والتابعينَ وتابِعِيهم.

٨ ـ عزوُ ما وردَ فيه مِن أقوالٍ للعُلَماءِ إلى كُتبهم إنْ وُجِدَتْ، أو إلى أهمِّ المراجعِ، مع مقابلةِ ما جاءَ عند المؤلِّفِ على ما في المصادرِ للتأكُّدِ مِن سَلامةِ النصِّ وخلوِّه من أيِّ سَقْطٍ أو تحريفٍ أو مخالَفةٍ وجيهةٍ لِمَا في المصدرِ، وكنت أشير كثيراً إلى توثيقِ ما أغفلَ المصنفُ عزوَه فلم يُصرِّحْ به.

٩ ـ وضعُ دراسةٍ تليقُ بأهميَّةِ الكتاب، وهي في فصلينِ:

الفصل الأول: ترجمة المؤلفِ: حياتِه وآثارِه ومنزلتِه بين العلماءِ.

الفصل الثَّاني: دراسةُ الكتابِ، وفيها الأمورُ التَّاليةُ:

أولاً: تحقيقُ اسمِ الكتابِ ونسبتهِ إلى مؤلِّفهِ.

ثانياً: بيانُ خصائصِ هذا التَّفسيرِ وميزاتُه.

ثالثاً: وصفُ النُّسخِ الخطيَّة المعتمدة في التَّحقيقِ.

١٠ ـ عملُ فهارسَ علميَّة تليقُ بمكانةِ هذا التَّفسيرِ حيث تناوَلنا فيها:

١ ـ فهرسَ الآيات القرآنية الكريمة التي استشهد بها المصنِّف.

٢ ـ فِهْرِسَ الآيات التي ذُكرت فيها وجوهُ القراءاتِ المتواترات.

٣ ـ فِهْرِسَ القراءاتِ الشَّواذ.

٤ ـ فِهْرِسَ أسبابِ النُّزول.

٥ ـ فهرسَ الأحاديثِ النبويَّةِ الشَّريفة.

٦ ـ فِهْرِسَ الآثارِ.

٧ ـ فِهْرِسَ الأشعارِ.

٨ ـ فهرسَ الأرجازِ.

٩ ـ فِهْرِسَ الأعلامِ.

والحمدُ لله الذي بنعمتهِ تتمُّ الصَّالحات، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

* * *

صور المخطوطات

صورة غلاف النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي (ف)

صورة الورقة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي (ف)

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي (ف)

صورة الورقة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة أحمد الثالث (أ)

تفسير سورة الناس

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة أحمد الثالث (أ)

صورة الورقة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة جاريت (ج)

صورة الورقة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة جاريت (ج)

(مختصر التفسير) صورة الورقة الأولى من النسخة الخطية لمكتبة خالص أفندي في جامعة اسطنبول (م)

(مختصر التفسير) صورة الورقة الأخيرة من النسخة الخطية لمكتبة خالص أفندي في جامعة اسطنبول (م)

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ

تأليف الإمام المُفسِّر العلَّامة
الإمام أبي نصر القُشَيْرِيّ
أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن القُشَيْرِيِّ
المتوفى سنة ٥١٤هـ
رحمه الله تعالى

بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ
ربِّ أنعَمْتَ فزِدْ

أخبرَنا الشَّيخُ الإمامُ أبو حفصٍ عمرُ بنُ أحمدَ بنِ منصورٍ الصَّفَّارُ النَّيسابوريُّ ـ قدِمَ علينا حاجًّا بغدادَ ـ قراءةً عليه وأنا أسمعُ، قال: أنا خالُ أمِّي الشَّيخُ الإمامُ زينُ الإسلامِ أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ القُشَيريُّ رحمه الله، قال(١):

نحمدُ الله تعالى على الذي منَّ علينا بكتابِه الحقِّ الذي هو حُجَّةُ سيِّدِ البشرِ على كافَّةِ الخلق، ونسألُه أن نُصلِّيَ عليه صلواتٍ يَضيقُ عنها وُسعُ النُّطق، هذا وقد سبقَ منِّي إملاءُ مجموعٍ في التَّفسيرِ والتَّأويلِ، فيه بعضُ البسطِ والتَّطويلِ، فنشطَ بعضُ الأعزَّةِ في فيضِ ما انبسطَ(٢)، ورأى خيرَ الأمورِ الوسَطَ، فاستوفَقْتُ الله تعالى فيه، وهو مُسهِّلُ كلِّ أمرٍ وكافيه.

معنى التَّفسيرِ يرجعُ إلى الإظهارِ، من قولِـهم: فَسَرَ الفرسَ وفسَّرَه؛ أي: ركَضَه لينطلقَ حُضْرُه.

وقيل: هو مقلوبُ (سَفَر)، يُقالُ: سَفَرتِ المرأةُ عن وجهِها، وأسفرَ الصُّبحُ، وسافرَ فلانٌ، وهو مثلُ جذَبَ وجبَذَ، فالتَّفسيرُ: كشفُ ما انغلَقَ منَ اللَّفظِ.

---

(١) في (أ): «بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ربِّ يسِّرْ وأعِنْ برحمتِك يا كريم، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابةِ جديرٌ، أخبرَنا الشَّيخُ الإمامُ أبو نصرٍ عبدُ الرَّحيمِ بنُ عبدِ الكريمِ بنِ هوازنَ القُشَيريُّ رحمَه الله في كتابِه إلينا من نيسابورَ قالَ».

(٢) في (أ): «في قبض ما انتشط».

ومعنى التَّأويلِ: ما يرجعُ إليه الأمرُ في آخرِه، من قولِ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي: تنكشفُ عاقبتُه، ويُقالُ: آلَ الأمرُ إلى كذا؛ أي: صارَ إليه.

وقيلَ: هو منَ الإيالةِ، فكأنَّ المُؤَوِّلَ يسوسُ الكلامَ ويضعُ المعنى فيه موضعَه، فالتَّأويلُ: كشفُ ما انغلَقَ منَ المعنى، ولهذا قال البَجَليُّ[1]: التَّفسيرُ ما يتعلَّقُ بالرِّوايةِ، والتَّأويلُ ما يتعلَّقُ بالدِّرايةِ، وهما راجعانِ إلى التِّلاوةِ والنَّظْمِ المُعجِزِ الدّالِّ على الكلامِ القديمِ القائمِ بذاتِ الرَّبِّ تعالى.

ويُعتبرُ في التَّفسيرِ الاتِّباعُ والسَّماعُ، وإنَّما الاستنباطُ فيما يتعلَّقُ بالتَّأويلِ، وما لا يحتمِلُ إلا معنًى واحدًا حُمِلَ عليه، وما احتمَلَ معنيَين أو أكثرَ؛ فإنْ وُضِعَ لأشياءَ مُتماثلةٍ كالسَّوادِ حُمِلَ على الجنسِ عند الإطلاقِ، وإنْ وُضِعَ لمعانٍ مختلفةٍ؛ فإنْ ظهرَ أحدُ المعنيَين حُمِلَ على الظّاهرِ، إلّا أن يقومَ الدَّليلُ، وإن استَويا سواءٌ كان الاستعمالُ فيهما حقيقةً أو مجازًا، أو في أحدِهما حقيقةٌ وفي الثّاني مجازٌ كلفظِ العَينِ والقُرْءِ واللِّينِ؛ فإنْ تَنافى الجمعُ بينَهما فهو مُجمَلٌ فيُطلَبُ البيانُ من غيرِه، وإنْ لم يتنافَ فقد مالَ قومٌ إلى الحملِ على المعنيينِ، **والوجهُ عندَنا التَّوقُّفُ فيه**؛ لأنَّه ما وُضِعَ للجمعِ، بل وُضِعَ لآحادِ مُسمَّياتٍ على البدلِ، وادِّعاءُ[2] إشعارِه بالجميعِ بعيدٌ.

نعم، يجوزُ أن يُريدَ المُتكلِّمُ به جميعَ المحاملِ، ولا يستحيلُ ذلك في العقلِ، وفي مثلِ هذا يُقالُ: يحتمِلُ أن يكونَ المُرادُ كذا، ويحتمِلُ أن يكونَ كذا.

***

---

(١) الحسين بن الفضل البجلي، مفسِّر معمَّر، كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، انتقل إلى نيسابور، توفي سنة (٢٨٢هـ) وهو ابن مئة وأربع سنين. انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤١٤).

(٢) في (أ): «فادعاء».

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سورةُ فاتحةِ الكتابِ

سبعُ آياتٍ، رَوى أُبيُّ بنُ كعبٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آياتٌ ما أنزَلَ اللهُ[1] في التَّوراةِ والإنجيلِ ولا الزَّبورِ مثلَهُنَّ، وهي فاتحةُ الكتابِ، وهي السَّبعُ المثاني وأمُّ الكتابِ»[2].

وروى أبو هُريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «هي أمُّ القرآنِ، وهي فاتحةُ الكتابِ، وهي السَّبعُ المثاني»[3].

فهذه السُّورةُ تُسمَّى: «الفاتحةَ»؛ لأنَّها في روايةِ عليٍّ وابنِ عبّاسٍ وقولِ قتادةَ: أوَّلُ ما نزَلَ منَ القرآنِ[4].

---

(١) لفظ الجلالة «الله»: ليس في (أ).

(٢) رواه بنحوه الترمذي (٣١٢٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٥٠١).

(٣) رواه البخاري (٤٧٠٤)، وأبو داود (١٤٥٧)، والترمذي (٣١٢٤)، ولفظ أبي داود والترمذي: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبْعُ المثاني»، ولفظ البخاري: «أُمُّ القرآن هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ».

(٤) لم أجده عنهم، وروي عن ابن عباس خلافه، فقد روى عنه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٧) قوله: وكان أولُ ما أُنزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ثم ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ثُم الفاتحةَ، ثم ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾...

وقال النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٨): وأما قول مَن قال من المفسرين: أول ما نزل (الفاتحة)؛ فبطلانُه أظهر من أن يُذكَر، والله أعلم. =

وهي مكِّيَّةٌ، ورَوى أبو مَيسرةَ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا برزَ سمعَ مُناديًا يُناديه: يا محمَّدُ، فينطلقُ هارِبًا، فقالَ له ورقةُ بنُ نوفلٍ: إذا سمعتَ النِّداءَ فاثبُتْ حتَّى تسمعَ ما يقولُ لك، فلما برزَ سمعَ النِّداءَ: يا محمَّدُ، فقالَ: لبَّيكَ، فقالَ: قُلْ: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ثمَّ قالَ: قُلْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ[1].

= قلت: ومعتمد من ذكر هذا القول هو خبر روي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، وهو من كبار التابعين، قال الباقلاني في «الانتصار» (١/ ٢٤١): فأما مَن قال: إن أولَ سورة أُنزلت الحمدُ لله رب العالمين، فإنّهم يروون ذلك من طريقِ إسرائيلَ بن أبي إسحاقَ عن أبي ميسرةَ. وانظر التعليق الآتي.

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ١٩)، ورواه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٥٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٥٨) وقال: فهذا منقطع، فإن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.
وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤/ ٢٤): وهو مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل.
قلت: وكون أول ما نزل سورة المدثر، فيه حديث مرفوع عن جابر رواه البخاري (٤٦٣٨)، وفي حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ما يدلُّ أن أول ما نزل هو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وهو الذي عليه أكثر العلماء، كما قال الثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣).
وكذا قال النووي في «شرح مسلم» (٢/ ٢٠٨): فالصواب أن أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.
وقال نحو هذا الباقلاني في «الانتصار» (١/ ٢٤١) ثم زاد: وليس في هذه الأخبار نصّ من الرسول لا يَحتملُ التأويل، ولا فيها ما يقتضي لفظهُ ومجيئُه أنّه قال ذلك للكافّةِ وألزمهم نقلَه واعتقادَه وحَظَرَ عليهم التخلف عن حفظِهِ ومعرفتهِ... وهذه الأخبارُ المرويةُ في هذا الباب وإن لم يكن متضَمّنُها من فروضِ الدين فهي مُحتمِلةٌ للتأويل أيضاً، لأن رسولَ الله ﷺ لم يقل في خبرِ عائشةَ وخبرِ جابرِ بنِ عبد الله وخبرِ أبي ميسرةَ:... ولم يُنزل عليّ شيئاً قبلَ ذلك... ولا قال في كل قصة: وكان ذلك أولَ شيء أُنزل علي من القرآن لم يتقدمه شيء، ولا نحوَ ذلك من الكلامِ الظاهرِ الجليّ الذي لا يحتمل =

وقال مُجاهدٌ: السُّورةُ مدَنيّةٌ[1]. فعلى هذا سُمِّيت «فاتحةَ الكتاب» لأنَّه يُفتَتَحُ قراءةُ هذا الكتابِ العزيزِ بها، ويُفتَتَحُ بها الكتابةُ، ويُفتَتَحُ بها الصَّلَواتُ.

وأمّا «أمُّ الكتابِ» فأمُّ الشَّيءِ: أصلُه، ويُقالُ لمكَّةَ: أمُّ القُرى؛ لأنَّها أوَّلُ ما خُلِقَ منَ الأرضِ، فهي كالمُتقدِّمةِ أمامَ جميعِها، وكالأصلِ لها، وأمُّ الدِّماغِ: الجلدةُ التي تجمَعُه، وتُسمَّى لواءُ الجيشِ أمًّا؛ لأنَّهم يجتمِعون تحتَها.

والكتابُ يُعنَى به القرآنُ، ويجوزُ أن يُرادَ جنسُ الكتبِ المنزَّلةِ؛ لأنَّ معانيَ الجميعِ مُودَعةٌ في هذه السُّورةِ؛ فإنَّ مقصودَ الجميعِ إثباتُ الرُّبوبيّةِ والعُبوديّةِ.

وتُسمَّى السُّورةُ: «أمَّ القرآنِ» أيضًا.

ومنعَ أنسٌ وابنُ سيرينَ تسميةَ الفاتحةِ بـ«أمِّ القرآنِ» و«أمِّ الكتابِ»، وقالا: أمُّ الكتابِ اسمُ اللَّوحِ المحفوظِ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤][2].

= غيرَ ما صَرّحَ به فيه.

وقد جمع البعض بين الأقاويل: بأن أول ما نزل من الآيات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نزل من أوامر التبليغ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة. انظر «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(١) رواه وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٦٧). ونقل ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ٦٥) هذا القول عن الزهري وعطاء بن يسار وسوادة بن زياد وعبد الله بن عبيد بن عمير، لكن المشهور بالقول به مجاهد، قال السيوطي في «الإتقان» (١/ ٤٦): اشتهر عن مجاهد القول بأنها مدنية، أخرجه الفريابي في «تفسيره» وأبو عبيد في «الفضائل» بسند صحيح عنه، قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد؛ لأن العلماء على خلاف قوله.

(٢) انظر: «جمال القراء» لعلم الدين السخاوي (ص: ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٧٢). ورواه عن ابن سيرين: ابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٤٩)، ولم أجده عن أنس مسنداً.

والخبرُ الذي رواه أُبيٌّ وأبو هريرةَ ردٌّ على أنسٍ وابنِ سيرينَ، **فلا يُمنَعُ إطلاقُ** أمِّ الكتابِ على اللَّوحِ المحفوظِ وعلى أمِّ القرآنِ.

وأمّا «السَّبعُ المثاني»: فسورةُ الفاتحةِ سبعُ آياتٍ بالإجماعِ، والخلافُ في التَّفصيلِ، فإذا عدَدْتَ التَّسميةَ آيةً فقولُه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ آيةٌ، ومَن عرَفَ نظمَ الكلامِ علِمَ أنَّ هذا أشبهُ بآيِ هذه السُّورةِ، وقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ عدَّ هذه السُّورةَ سبعَ آياتٍ، وعدَّ «بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ» آيةً منها[1].

وأمَّا المثاني فلأنَّها تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ، ولأنَّ الكلماتِ مُثنَّاةٌ فيها كـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿إِيَّاكَ .. وَإِيَّاكَ﴾، و﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ و﴿صِرَٰطَ﴾.

وقيلَ: لأنَّها نزلَتْ مرَّتينِ: مرَّةً بمكّةَ ومرَّةً بالمدينةِ.

وقيلَ: لأنَّ أهلَ السَّماءِ يُصلُّون بها كأهلِ الأرضِ.

وقيلَ: لأنَّها تشتملُ على ذكرِ الرُّبوبيّةِ والعُبوديّةِ.

وقيلَ: لأنَّها تُنبِّه على صفاتِ قُدرتِه وصفاتِ رحمتِه.

وقيلَ: لقولِه: «قسَمْتُ الصَّلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفَينِ»[2]، فالسُّورةُ نصفانِ اثنانِ.

وقيلَ: لأنَّ الله تعالى استثنَى هذه السُّورةَ عن الأُممِ وادَّخرَها لهذه الأمّةِ.

---

(١) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٤٩٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٦٦).

وفي كون البسملة آية من الفاتحة خلاف بين الأئمة فصله القرطبي في «تفسيره» (١/ ١٤٤).

(٢) رواه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد يُسمَّى ما يلي المئينَ مثانيَ، وهذا لا يمنعُ من تسميةِ الفاتحةِ أيضًا بالمثاني؛ إذ في الأسماءِ ما هو مُشتركٌ.

وقد روى واثلةُ بنُ الأسقعِ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ أنَّه قال: «أعطاني ربِّي مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، ومكانَ الإنجيلِ المثانيَ، ومكانَ الزَّبورِ المئينَ، وفضَّلَني ربِّي بالمُفصَّلِ»[1].

فالسَّبعُ الطِّوالُ عَنَى به: البقرةَ وآلَ عمرانَ والنِّساءَ والمائدةَ والأنعامَ والأعرافَ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ويونسَ[2]، والأمثَلُ أن يُقالَ: السَّابعةُ: ﴿بَرَآءَةٌ﴾[3].

وأمَّا المِئونَ: فما كانَ عددُ آيِها مئةً، أو تقرُبُ منَ المئةِ.

وأمَّا المثاني فقد قيلَ: هي السُّوَرُ التي ثَنَّى الله بها القصصَ والأمثالَ والأحكامَ.

وقيلَ: ما ثُنِّيَت المئةُ فيها، فبلَغَ عددُ آيِها مئتَي آيةٍ أو قرُبَ منها.

---

(١) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٠١٢)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٢٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١٦٩٨٢). وهو حديث حسن كما ذكر محققو «المسند»، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٦) وقال: رواه أحمد، وفيه عمران القطان، وثّقه ابن حبان وغيره، وضعّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٨١) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٩٧)، وابن أبي حاتم كما ذكر السيوطي في «الإتقان» (١/ ٢٢٠) وصححه، من قول سعيد بن جبير.

وروى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢١٢) بإسناد صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس تعداد هذه السبعة وهي: البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والأنعام والمائدة، ولم يذكر السابعة، ولعل بعض الرواة نسيها.

(٣) في (أ): «سورة براءة».

وقيلَ: عَنَى بالمثاني الفاتحةَ.

وأمّا المُفصَّلُ؛ فسُمِّي به لكثرةِ انفصالِ البعضِ عن البعضِ، ويُسمَّى المُفصَّلُ مُحكَمًا لأنَّه لم يُنسَخْ منه شيءٌ فيما قيلَ.

وأوَّلُ المُفصَّلِ سورةُ الحجُراتِ، وقيلَ: من سورةِ ق.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: من سورةِ الضُّحَى، وكان يَفْصِلُ منَ الضُّحَى بينَ كلِّ سورتَينِ بالتَّكبيرِ، وهذا رأيُ قُرَّاءِ أهلِ مكّةَ(١).

---

(١) ذكره عن ابن عباس: الماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٢٧). ولعل معتمد من نسب لابن عباس القول بأن أول المفصل سورة الضحى هو ما روي عنه من التكبير عقبها إلى آخر القرآن، ففي «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٤٥٢) قال: «وفيه قول ثالث وهو: أن أول المفصل سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ وذلك لأن القارئ يفصل بين هذه السور بالتكبير، وهو مذهب ابن عباس وقراء أهل مكة»، ثم أسند من طريق إبراهيم بن أبي حَيَّةَ عن حُميدٍ الأعرج عن مجاهد قال: قرأْتُ على ابن عباس فلمَّا بَلَغْتُ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قال: كَبِّرْ إذا خَتَمْتَ كلَّ سورةٍ حتى تَختِمَ.
قلت: إبراهيمُ بن أبي حَيَّةَ قال عنه البخاري ـ كما في «الميزان» ـ: منكر الحديث، وقال الدارقطني: متروك. لكن يشهد له ما أسنده الحافظ أبو العلاء الهمداني ـ كما ذكر أبو شامة في «إبراز المعاني» (ص: ٧٣٥) ـ عن حنظلة بن أبي سفيان قال: قرأت على عكرمة بن خالد المخزومي، فلما بلغت ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قال لي: هيها. قلت: وما تريد بهيها؟ قال: كبِّر؛ فإني رأيت مشايخنا ممن قرأ على ابن عباس فأمرهم ابن عباس أن يكبروا إذا بلغوا ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾.
وقد رفع بعض القراء المكيين هذا إلى النبي ﷺ، رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٧٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٣٢٥)، والداني في «التيسير» (ص: ٢٢٧)، وأبو شامة في «إبراز المعاني» (ص: ٧٣٥)، من طريق البزي قال: قَرأت على عكرمة بن سليمان قال: قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين فلمَّا بلغت ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قال: كبِّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فأمرني بذلك، وأخبرني ابن كثير أنه قَرأ على مجاهد فأمره بذلك، وأخبره مجاهد أنه قَرأ على عبد الله بن عباس فأمره بذلك، وأخبره ابن عباس أنه قَرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك، وأخبره أبيٌّ أنه قَرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك. =

(١) ـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيه إضمارُ الأمرِ؛ أي: ابدَؤُوا باسمِ الله، أو إضمارُ الخبرِ: أبدَأُ باسمِ الله، أو: بدأتُ باسمِ الله، وهو كما تقولُ: «سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ»؛ أي: وبحمدِكَ كانَ ذلك، وتقولُ في اليمينِ: «بالله كانَ كذا»؛ أي: حلفتُ بالله، وتقولُ: «بالرِّفاءِ والبنينَ»؛ أي: كان هذا التَّزوُّجُ موصولًا بالرِّفاءِ والبنينَ.

ثمَّ قيلَ: الاسمُ: التَّسميةُ، والمعنى: أبدأُ بتسميةِ الله تيمُّنًا، فالاسمُ بمعنى التَّسميةِ كقولك: «عجِبْتُ من طعامِكَ زيدًا»؛ أي: من إطعامِكَ.

وقيلَ: الاسمُ: المُسمَّى، فالمعنى: أبدأُ بالله تعالى، كما تقولُ: فعلتُ هذا بكَ؛ أي: بقُوَّتِكَ.

والاسمُ عندَ الكوفيِّين منَ السِّمةِ، وهي العلامةُ، يُقالُ: وَسَمَ وسِمَةً، ووَعَدَ وعِدَةً، ووَزَنَ وزِنَةً، فالاسمُ علامةُ المُسمَّى.

وعندَ البصريِّين منَ السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ، فالاسمُ يعلُو المُسمَّى، وكلُّ مَن سمَّيته فقد رفعتَه وميَّزتَه بتسميتِه، وأصلُه: سِمْوٌ، مثلُ: قِنْوٍ وحِنْوٍ، فحُذِفتِ الواوُ لكثرةِ الاستعمالِ، واجتُلِبت ألفُ الوصلِ بعد تسكينِ السِّينِ طلبًا للخِفَّةِ، ولـم يُرَ ألفُ

= قال ابن كثير في أول سورة الضحى من «تفسيره»: فهذه سُنَّة تَفَرَّد بها أبو الحسن أحمدُ بن محمد بن عبد الله البَزِّيُّ، من ولد القاسم بن أبي بَزَّةَ، وكان إمامًا في القراءات، فأمَّا في الحديثِ فقد ضَعَّفه أبو حاتمٍ الرازيُّ وقال: لا أُحَدِّثُ عنه، وكذلك أبو جعفرٍ العُقَيليُّ قال: هو مُنكَر الحديث. لكنْ حَكى الشيخُ شهابُ الدِّينِ أبو شامةَ في «شرحِ الشَّاطِبيَّة» عن الشافعيِّ أنه سَمع رجلًا يُكبِّرُ هذا التكبيرَ في الصلاة، فقال له: أحسنتَ وأَصَبْتَ السُّنَّة. وهذا يَقتضي صحة هذا الحديثِ. وانظر: «إبراز المعاني» (ص: ٧٣٦).

الوصلِ دخلَتْ فيما حُذِفَ، فالفعلُ منه نحوُ عِدَةٍ وزِنَةٍ، وأيضًا يُقالُ في التَّصغيرِ «سُمَيٌّ»، ولو كان منَ الوسمِ لقيلَ: وُسَيْمٌ.

﴿ٱللَّهِ﴾ قيل: اسمٌ غيرُ مُشتقٍّ يجري في وصفِ الله مَجرى أسماءِ الأعلامِ في حقِّ غيرِه، **ثمَّ الصَّحيحُ أنَّه عربيٌّ**.

وقيلَ: أُخِذَ منَ السُّريانيّةِ، وهو «إلـهًا»[1]، **وليس هذا بسديدٍ**.

وقيلَ: هو مُشتقٌّ، فعلى هذا قيلَ: هو من «أَلَهَ يأْلَهُ»؛ أي: عَبَدَ يعبدُ، فهو المعبودُ، وكان في الأوَّلِ إلـاهًا؛ أي: مُستحِقًّا لأَنْ يُعبَدَ.

وقيلَ: «أَلِهَ» بالمكانِ؛ أي: أقامَ، فهو الباقي الدّائمُ.

وقيلَ: «أَلِهَ»؛ أي: تحيَّرَ، فالعقولُ تتحيَّرُ في جلالِه.

وقيلَ: إنَّه مُشتقٌّ من: «لاهَ يلُوهُ»، ثمَّ قيلَ: معناه: عَلا، ولاهتِ الشَّمسُ؛ أي: علَتْ، فهو العالي.

وقيـلَ: «لاهَ» بمعنـى احتجَـبَ، فالأبصـارُ لا تُدرِكُـه، فأصـلُ الكلمـةِ: لاهَ، ثمَّ قيـلَ: الله، كمـا يُقـالُ: دارَ والـدّارُ، **وهذا قولٌ شـاذٌّ**.

وقيلَ: إنَّه منَ «الوَلَهِ»، وهو الطَّرَبُ، فالعقولُ تطرَبُ إليه.

وقيلَ: الولَهُ: الفزَعُ إلى الشَّيءِ، فهو الذي يُفزَعُ إليه في النَّوائبِ، وعلى هذا فأصلُ الكلمةِ: وِلَاه، فقُلبت الواوُ همزةً، كما يُقالُ: وِشاحٌ وإِشاحٌ، ويُقالُ للمُولَهِ إليه: إلهٌ، كما قيلَ للمُؤتَمِّ به: إمامٌ.

---

(١) كـذا فـي النسـختين، والـذي فـي المصـادر: «لاهـا». انظـر: «تفسـير الثعلبـي» (٢/ ٢٩٠)، و«لباب التفاسـير» للكرمانـي (١/ ١٠)، و«تفسـير البيضـاوي» (١/ ٢٦)، و«البحـر المحيـط» (١/ ٤١)، و«بصائـر ذوي التمييـز» للفيروزأبـادي (٢/ ١٢).

وعلى ما تقدَّمَ أصلُ الكلمةِ: إلهٌ، فأُدخِلَتِ الألفُ واللَّامُ فقيلَ: الإلهُ، ثمَّ حُذِفت الهمزةُ الثّانيةُ تخفيفًا وأُدغِمَتِ اللَّامُ في اللَّامِ فقيلَ: الله، وصارَ الألفُ واللَّامُ عِوَضًا من هذا الحذفِ(١) وصارتا كأنَّهما من أصلِ الكلمةِ فلزِمَتا.

وقد قيلَ: ليس الألفُ واللَّامُ للتَّعريفِ؛ إذ لو كانتا للتَّعريفِ لَـمَا قيلَ: «يا الله»، كما لا يُقالُ: يا الرجلُ، بل هذا(٢) بدلٌ منَ الهمزةِ المحذوفةِ.

وقيلَ: هما للتَّعريفِ وتمييزِ إلهِ الحقِّ منَ الأصنامِ وآلهةِ الباطلِ، ولكنَّ هذا التَّمييزَ لا يتبدَّلُ، فلم تتغيَّرْ هذه الألفُ واللَّامُ، ولزِمَتا هذا الاسمَ، بخلافِ المواضعِ الأُخرِ.

وقيلَ: الألفُ واللّامُ للتَّفخيمِ ها هُنا، كما يُقالُ في فضلٍ: الفضلُ، وفي عبّاسٍ: العبّاسُ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال قومٌ: «الرَّحمنُ» اسمٌ عِبرانيٌّ، وكانوا يقولونَ: رحمانا، وليس بعربيٍّ، ولهذا قالَ الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، **والصَّحيحُ: أنَّه اسمٌ عربيٌّ، وليس في القرآنِ ما ليس من لغةِ العربِ**، وإنَّما قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لجهلِهم بوصفِه لا لجهلِهم بمعنى اللَّفظِ، وقالوه على جهةِ تركِ التَّعظيمِ؛ أي: مَن هو حتَّى نسجُدَ له؟

ويُقالُ: رَحِمَ فهو راحِمٌ ورَحمانُ ورَحيمٌ، كما يُقالُ: نَدمانُ ونَديمٌ.

ومعنى الرَّحمةِ منَّا: الشَّفَقةُ ورِقَّةُ القلبِ، وأمَّا في وصفِ الرَّبِّ:

---

(١) في (ف): «الحرف».

(٢) في (أ): «بل هما».

فقد قيلَ: رحمتُه: إرادتُه أن يُنعِمَ على بعضِ عبيدِه، فهي صفةُ ذاتٍ.

وقيلَ: رحمتُه: نِعمتُه، فهي صِفةُ فعلٍ.

وكرَّرَ فقالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ للمُبالغةِ.

وقيلَ: «الرَّحمنُ» أبلَغُ منَ «الرَّحيمِ»؛ لأنَّ بناءَ «فَعْلانَ» يدلُّ على تـمكُّنِ الصِّفةِ منَ الموصوفِ حتَّى تكونَ كالشَّيءِ الذّاتيِّ له، و«الرَّحيمُ» صِفةٌ له موصولةٌ بذكرِ المرحومينَ، ولهذا يُقالُ: إنَّه رحيمٌ بالعبادِ، ولا يُقالُ: رَحمانُ بالعبادِ.

وقيلَ: وَجهُ المُبالغةِ أنَّه يُقالُ: هو رَحمانُ في حقِّ الجميعِ، فيرزُقُ البَرَّ والفاجِرَ، والرَّحيمُ يختصُّ بالمُؤمنينَ، قالَ الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولهذا يُقالُ: رَحمانُ الدُّنيا ورحيمُ الآخرةِ.

وقال وكيعٌ: «الرَّحيمُ» أبلَغُ؛ لأنَّه يُقالُ: إنَّه رحيمٌ بعبادِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، ورحمةُ الرَّحمانيَّةِ في الدُّنيا [دونَ الآخرة](١).

وهذه الآيةُ منَ الفاتحةِ ومن كلِّ سورةٍ أُنزِلَتْ فيها، ولهذا اجتمعَ أصحابُ رسولِ الله ﷺ على إثباتِها في المصاحفِ بخطِّ القرآنِ.

وحُكمُ هذه الآيةِ: أن تُخلَطَ بأوائلِ السُّورِ، ولا تُفرَدَ بسطرٍ على التَّمييزِ؛ لأنَّها آيةٌ من كلِّ سورةٍ.

ومَن قرأ: «باسمِ الله» ووقفَ فلا بدَّ من مدِّ الألفِ، وإنْ ورَدَ في بعضِ الأشعارِ بغيرِ ألفٍ؛ فلا يجوزُ الأخذُ به في القراءةِ.

***

(١) انظر: «البسيط» (١/ ٤٦٠)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُذكَرُ الحمدُ بمعنى الشُّكرِ على المعروفِ، ونقيضُه الكُفرانُ، ويُذكَرُ بمعنى الثَّناءِ من غيرِ سبقِ إحسانٍ، ونقيضُه الكُفرانُ.

ويُذكَرُ بمعنى الرِّضا، يُقالُ: بلَوتُه فحمِدتُه؛ أي: رَضِيْتُه، ويقرُبُ هذا من معنى الثَّناءِ، وفي الخبرِ: أَحْمَدُ إليكم غَسْلَ الإحليلِ(١)؛ أي: أرضَى لكم، و: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]؛ أي: مَرضِيًّا.

ويُذكَرُ بمعنى العاقبةِ، يُقالُ: حُمادَى أمرِكَ كذا؛ أي: عاقبتُه.

والشُّكرِ لله تعالى، والرِّضا له، والثَّناءِ له؛ لأنَّه يرضى عن العبدِ، ويجبُ على العبدِ الرِّضا بحُكمِه، وعاقبةُ الأمورِ إلى الله.

ثمَّ فيه أقوالٌ:

أحدُها: إضمارُ القولِ؛ أي: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، و﴿اهْدِنَا﴾، وإضمارُ القولِ كثيرٌ في القرآنِ كقولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي: يقولون: ما نعبُدُهم، وقولِه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: يقولون: سلامٌ عليكم.

والثَّاني: أنَّه خبرٌ بمعنَى الأمرِ، كقولِه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ أي: أمِّنُوه، وقولِه: ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ أي: تربَّصْنَ أيُّها المُطلَّقاتُ، فقولُه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: يجبُ عليكم حَمْدُه فاحمَدوه، ثمَّ يُضمَرُ القولُ عند قولِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهو من بابِ تلوينِ الخطابِ، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٩٥) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ إلى قولِه: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وقولِه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الإنسان: ٢١]، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ [الإنسان: ٢٢].

والثَّالثُ: أنَّه إخبارٌ عن الله بحمدِه لنفسِه، كأنَّ الله تعالى قالَ: الحمدُ لنا، وهو كما يكتبُ الخليفةُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ يأمرُكم بكذا وكذا.

ولامُ التَّعريفِ قد تكونُ للجنسِ كقولك: «العسلُ حلوٌ»، فعلى هذا معناه: جميعُ المحامدِ لله تعالى؛ لأنَّ حمدَ غيرِه يصغُرُ في جنبِ حمدِه؛ لأنَّ نعمتَه على العبدِ فوقَ نعمةِ الغيرِ، ونعمةُ الغيرِ أيضًا بتيسيرِه، وقد تكونُ اللَّامُ للعهدِ، تقولُ: وافَى الرَّجلُ؛ أي: الرَّجلُ الذي كنَّا في ذكرِه، فالمعنى على هذا: الحمدُ الذي حمدَ به نفسَه وحمدَه به أولياؤُه له؛ لأنَّه مُستحقٌّ لذلك.

ولفظُ «الحمدِ» أبلَغُ من لفظِ «الشُّكرِ»؛ لأنَّه يندرجُ فيه الثَّناءُ والمدحُ، ويندرجُ الثَّناءُ في الدُّعاءِ؛ إذ في الخبرِ: «أفضلُ الدُّعاءِ: سُبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، والله أكبرُ»(١)، وهذا لأنَّ الثَّناءَ يجلبُ الثَّوابَ كما يجلبُ الدُّعاءُ الإجابةَ.

وإنَّما يفي بالثَّناءِ على الله مَن لم يسلُبْه صفاتِ الكمالِ منَ العلمِ والقُدرةِ والحياةِ ونفوذِ الإرادةِ، ولم يصِفْه بالتَّحيُّزِ وقَبولِ الحوادثِ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (١/ ٤٦٧)، ورواه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣١)، من حديث جابر رضي الله عنهما بلفظ: «أفضلُ الذِّكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» وإسناده حسن، وصححه ابن حبان (٨٤٦).

وفي الباب ما رواه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٧) من حديث سَعْدٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوةُ ذي النُّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إلهَ إلَّا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين، فإنه لم يَدْعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلَّا استجاب اللهُ له».

وإنَّما يفي بالشُّكرِ مَن لـم يقُلْ: يجبُ عليه أن يفعلَ بالعبدِ ما فيه صلاحُه؛ لأنَّ مَن أدَّى واجبًا لـم يستحقَّ بأداءِ الواجبِ شكرًا، **وهذا تنبيهٌ على سلوكِ مثلِه في كلِّ حرفٍ منَ الكتابِ.**

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الرَّبُّ: المُصلِحُ، يُقالُ: ربَّه يرُبُّه فهو رابٌّ ورَبٌّ، مثلُ بارٍّ وبَرٍّ؛ أي: أصلَحَه، ورَبَّ فلانٌ نِحْيَه؛ أي: جعَلَ فيه الرُّبَّ ليُمَتِّنَه[1]، فهو مَربُوبٌ، فعلى هذا هو من صفاتِ الفعلِ.

وقيلَ: الرَّبُّ: السَّيِّدُ، ثمَّ السِّيادةُ: السِّياسةُ والإصلاحُ، فهو من صفاتِ الفعلِ.

وقيلَ: السِّيادةُ: التَّمكُّنُ منَ التَّصرُّفِ، فالرَّبُّ من صفاتِ الذّاتِ.

وقيلَ: الرَّبُّ: المالكُ، فهو من صفاتِ الذَّاتِ أيضًا؛ لأنَّ معنى كونِه مالكًا أنَّه قادرٌ على الاختراعِ.

وقيلَ: الرَّبُّ بمعنى الدائمِ، من قولِـهم: أرَبَّ بالمكانِ؛ أي: أقامَ به، وهذا إنَّما يصِحُّ لو سُمِعَ منهم بناءُ الرَّبِّ من أرَبَّ، فإنْ ثبتَ هذا فهو صفةُ ذاتٍ أيضًا.

ولا يُطلَقُ لفظُ الرَّبِّ على الإطلاقِ على أحدٍ سوى اللهِ تعالى؛ لمنعِ الشَّرعِ من ذلك، وكانَ أهلُ الجاهليَّةِ يُطلقونَه، نعم قد يُقالُ: ربُّ الدَّارِ، وربُّ الغلامِ، وقال عليه السَّلامُ: «أرَبُّ إبلٍ أنتَ أم رَبُّ غنَمٍ؟»[2].

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ١٢٨)، و«البسيط» للواحدي (١/ ٤٨٥)، و«اللسان» و«التاج» (مادة: ربب)، وعندهم جميعاً: «ومتنه به» بدل: «ليمتنه». والنِّحْيُ عند العرب: الزِّقُّ الذي يُجْعَل فيه السَّمْن خاصَّة. انظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ١٦٤).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٧٢٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٩٠)، من حديث مالك بن نضلة رضي الله عنه.

و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: جمعُ عالَـمٍ، **والصَّحيحُ** اشتقاقُه منَ العَلَمِ[1]، فالعالَمُ اسمٌ لجميعِ ما سِوى الله، وإذا قلنا: «العالَمُ مُحدَثٌ» عنَينا به ما سِوى الله، فكلُّ مخلوقٍ علامةٌ على أنَّ له خالقًا.

وقيلَ: اشتقاقُه منَ العِلْمِ، فعلى هذا قيلَ: هو اسمٌ للجنِّ والإنسِ؛ لقولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وإنَّما بُعِثَ إلى الجنِّ والإنسِ.

وقيلَ: هو اسمُ الجنِّ والإنسِ والشَّياطينِ والملائكةِ.

وقيلَ: اسمٌ لبني آدمَ؛ لقولِه[2]: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقيلَ: اسمٌ لأهلِ كلِّ[3] عصرٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ أي: عالَمي زمانِكم، فأهلُ الأعصارِ هم العالَـمونَ.

وقال أبو العاليةِ: العالَـمون: الجنُّ والإنسُ، وما سِوى ذلك وهو ثمانيةَ عشرَ ألفَ عالَمٍ كلُّهم ملائكةٌ[4].

وأمثالُ هذه الأقوالِ لا يرُدُّها العقلُ؛ إذ في قُدرةِ الله كلُّ موهومٍ، **ولكنَّ الصِّحّةَ موقوفةٌ على نقلٍ صحيحٍ من مُؤَيَّدٍ بالمُعجزةِ.**

والعالَـمُ جمعٌ لا واحدَ له من لفظِه، ويُقالُ في جمعِه: عوالِـمُ وعالَـمونَ،

---

(١) أي: من (العَلَم) و(العلامة)، وذلك أن كل مخلوق دلالة وعلامة على وجود صانعه. انظر: «البسيط» للواحدي (١/ ٤٨٩).

(٢) في (أ): «كقوله».

(٣) في (أ): «اسم لكل أهل».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧) و(٣/ ٧١٠) و(٤/ ١٢٩٣).

فيُجمَعُ على هِجاءَين، وإنْ كانَ يختصُّ هذا الجمعُ بما يَعقلُ لاشتمالِ لفظِ العالَـمِ على ما يعقِلُ وعلى ما لا يعقِلُ.

وقيلَ: تفخيمًا للعالَـمِ؛ لـمَّا كانَ اسمًا شاملًا لأجناسٍ كثيرةٍ.

***

(٣) ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أعادَ تأكيدًا وتنبيهًا على كمالِ وصفِه بالرَّحمةِ.

وقيلَ: لـمَّا أسفرَ قولُه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ترهيبًا؛ عقَّبَه بما يتضمَّنُ ترغيبًا.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: الحمدُ لله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ربِّ العالَمينَ.

***

(٤) ـ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قولـه تعالـى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مَـن خَـصَّ لفـظَ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ببعـضِ المخلوقـاتِ قـال: وصلَ بـه أنَّه مالكُ يـومِ القيامةِ[١] أيضًـا، وهو المالكُ فـي الدُّنيا والآخرةِ.

ومَن قال: «العالَـمُ اسمٌ لكلِّ مخلوقٍ» قال: يبتدِرُ بالوهمِ من ذكرِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ما يُشاهَدُ منَ الدُّنيا، فنبَّه على الآخرةِ وأنَّه مالكُها أيضًا.

والمالكُ: مَن له الملكُ، وهو قدرةُ الإيجادِ، والملكُ في حقِّ العبدِ جوازُ التَّصرُّفِ على الإطلاقِ، وفيه احترازٌ عن الوكيلِ.

ويرجعُ معنى الملكِ في اللُّغةِ إلى الشِّدَّةِ والرَّبطِ، فمالكُ الشَّيءِ: مَن ربطَه

(١) في (أ): «يوم الدين يوم القيامة».

لنفسِه، وملكُ القومِ: مَن كانَ القومُ تحتَ ربطِه وضبطِه، ومنه: مَلَكْتُ العجينَ؛ أي: أنعَمْتُ عَجْنَه.

وملاكُ الأمرِ: ما يُضبَطُ به الأمرُ.

وأبو مالكٍ كنيةُ كِبَرِ السِّنِّ؛ لأنَّه يضبطُ[1] الإنسانَ عن تصرُّفِ الشُّبَّانِ.

وملَكَ فلانٌ يملكُ ملكًا؛ أي: تزوَّجَ وشدَّ عقدَ النِّكاحِ، وأُمْلِكَ إملاكًا؛ أي: زُوِّجَ منه.

وقرئ: ﴿مَلِكِ يومِ الدِّين﴾[2].

واليومُ: عبارةٌ عن وقتِ طُلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشَّمسِ، فاستُعيرَ فيما بينَ مُبتدأ القيامةِ إلى وقتِ استقرارِ أهلِ الدّارَين فيهما.

والدِّينُ: الجزاءُ، يُقالُ: دِنتُه أَدِينُه؛ أي: جازَيتُه، ومنه: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أي: مجزِيُّون.

وقيلَ: الدِّينُ: الحسابُ، والجزاءُ والحسابُ بمعنًى واحدٍ، ومنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]؛ أي: حسابَهم، ومنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]؛ أي: الحسابُ المستقيمُ لا ما كانَ عليه أهلُ الجاهليَّةِ منَ النَّسيءِ.

ويُقالُ: «الكيِّسُ مَن دانَ نفسَه»[3]؛ أي: حاسبَها، ولعلَّ الدِّينَ بمعنَى الحسابِ

---

(١) في (أ): «ضبط».

(٢) قرأ عاصم والكسائي: ﴿مالك﴾، وباقي السبعة: ﴿ملك﴾. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٠٤)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص: ١٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والإمام أحمد في «المسند» (١٧١٢٣)، والحاكم =

والجزاءِ منَ الدَّينِ الذي هو القَرضُ؛ لأنَّه دفعُ شيءٍ وأخذُ مثلِه.

وقيلَ: الدِّينُ: الطّاعةُ، يُقالُ: دانَ النَّاسُ لفُلانٍ؛ أي: أطاعوه، فيومُ القيامةِ يومُ الطّاعةِ؛ لأنَّه إنَّما ينفَعُ ثَمَّ الطَّاعةُ.

وقيلَ: الدِّينُ: الحُكمُ، يُقالُ: في دِينِ الملكِ كذا؛ أي: في حُكمِه، ويرجعُ هذا إلى الطّاعةِ، ويُمكنُ أن يرجعَ إلى العادةِ؛ فإنَّ الدِّينَ يُذكَرُ بمعنى العادةِ، والحكمُ لله يومَ القيامةِ، وأصلُ الكلمةِ منَ الاستذلالِ ونُفوذِ الحكمِ، والعادةُ دَينٌ؛ لأنَّ مَن اعتادَ شيئًا فقد دانَ لذلك الأمرِ وذلَّ له وسلسَ[1].

وخُصَّ يومُ القيامةِ بالذِّكرِ ـ وإنْ كانَ الله مالكَ كلِّ يومٍ ـ لانقطاعِ دَعاوى الخلقِ يومَئذٍ، ولتعظيمِ شأنِ ذلك اليومِ، وهذا كقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١]، وهو خبيرٌ بهم في سائرِ الأيّامِ، وقولِه: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، وفي غيرِ ذلك اليومِ أيضًا لا يخفَى.

وقيلَ: خُصَّ ذلك اليومُ لأنَّ في تذكيرِ القيامةِ تذكيرَ الوعدِ والوعيدِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وقِوامُ الخلقِ في تذكيرِ القيامةِ حتَّى يكونَ خوفُ العقابِ وطمعُ الثَّوابِ داعيَيْنَ إلى اقتناءِ الطَّاعاتِ واجتنابِ الظُّلمِ والآفاتِ، وأيضًا إذا بيَّنَ أنَّه مالكُ ذلك اليومِ ـ وهو أعظَمُ الأيّامِ ـ نبَّه على أنَّه مالكُ ما دونَه منَ الأيّامِ.

***

= في «المستدرك» (١٩١)، من حديث شداد بن أوس. قال الترمذي: حديث حسن. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي بقوله: لا والله، أبو بكر واه. اهـ.

قلت: وهو ابن أبي مريم، وهو ضعيف كما قال.

(١) في (أ): «وسنبين».

(٥) ـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ أي: لك نخضَعُ.

ثـمَّ قـال الخليـلُ: «إيّـاكَ» اسـمٌ مُضمَـرٌ مُضافٌ إلـى الـكافِ، ويجـوزُ إضافتُه إلـى المُظهَـرِ كمـا قيـلَ: (إذا بلَغَ الرَّجـلُ السـتِّينَ فإيَّاه وإيّـا الشَّـوابِّ)[1]. **وهذا غيرُ سـديدٍ؛** لأنَّ المُضمَـرَ لا يُضـافُ؛ لأنَّ الإضافـةَ للتَّعريـفِ والتَّخصيـصِ، والمُضمَرُ علـى نهايـةِ الاختصاصِ فلا حاجـةَ به إلى الإضافةِ، ولـم يثبُتْ عنِ العـربِ إضافةُ «إيّا» إلـى المُظهَرِ.

وقال الزَّجَّاجُ: «إيّا» اسمٌ مُظهَرٌ خُصَّ بالإضافةِ إلى مُضمَرٍ، فالكافُ في ﴿إِيَّاكَ﴾ في موضعِ جرٍّ بإضافةِ «إيّا» إليها[2]. **وهذا أيضًا غيرُ سديدٍ؛** لأنَّ «إيّا» ليس بمُظهَرٍ؛ لأنَّهم اقتَصَروا به على ضربٍ واحدٍ منَ الإعرابِ، وهو النَّصبُ، ولا تجِدُ اسمًا مُظهَرًا اقتصروا به على النَّصبِ إلا ما كانَ ظرفًا، وليس «إيّا» ظرفًا.

وقال قومٌ: ﴿إِيَّاكَ﴾ بكمالِـها اسمٌ. **وهذا ليس بشيءٍ؛** لأنَّ ﴿إِيَّاكَ﴾ في أنَّ فتحةَ الكافِ تُفيدُ خطابَ المُذكَّرِ، وكسرتَها خطابَ المؤنَّثِ بمنزلةِ: «أنتَ وأنتِ» في أنَّ الاسمَ هو الهمزةُ والنُّونُ، فأمَّا[3] التَّاءُ فحرفُ خطابٍ.

وقالَ قومٌ: الكافُ في ﴿إِيَّاكَ﴾ هي الاسمُ، و«إيّا» عمادٌ لها؛ لأنَّها لا تقومُ بنفسِها. **وهذا باطلٌ؛** لأنَّ «إيّا» في أنَّه ضميرٌ مُنفصلٌ بمنزلةِ «أنتَ وأنا ونحنُ»، وليس

---

(١) حكاه الخليل عن أعرابي سمعه يقول ذلك. انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٤٨)، و«البسيط» للواحدي (١/ ٥٠٧).

(٣) في (أ): «فأما الفتحة التي قلبت وأما».

شيءٌ منها معمودًا به شيءٌ منَ الضَّميرِ المُتَّصلِ، بل هو قائمٌ بنفسِه، وكذلك «إيّا» مُضمَرٌ مُنفصلٌ ليس معمودًا به غيرُه، كما أنَّ التّاءَ في «أنتَ» وإنْ كانت كلفظِ التّاءِ في «قمتُ» فليس اسمًا مثلَها، بل الاسمُ قبلَها وهو «أنْ»، وهي بعدَه للخطابِ، فكذلك «إيا» هي الاسمُ وما بعدَها للخطابِ تارةً، وللغَيبةِ أُخرَى إذا قلتَ: «إيَّاه».

والصَّحيحُ[1] ما قالَه الكسائيُّ، وهو أنَّ «إيّا» اسمٌ مُضمَرٌ، والكافُ بعدَها ليست اسمًا بل هي للخطابِ بمنزلةِ كافِ «ذلك» و«أرأيتَك» و«أَبْصِرْكَ زيداً»[2]، ثمَّ بُنيَ «إيّا» وإنْ كانَ اسمًا على السُّكونِ لمُشابهةِ الحروفِ.

وقيلَ: «إيّا» للاختصاصِ، تقولُ: «إيّاكَ ضربتُ»؛ أي: اختَصَّ الضَّربُ بك وأردتُكَ به.

﴿نَعۡبُدُ﴾ أي: نتذَلَّلُ، والعبادةُ: الطَّاعةُ مع الخضوعِ، ومنه: طريقٌ مُعبَّدٌ؛ أي: مَوطوءٌ بالأقدامِ مُذَلَّلٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: إيّاكَ نُوحِّدُ[3]؛ لأنَّ التَّوحيدَ أصلُ العباداتِ.

قولُـه تعالـى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾؛ أي: نطلُبُ العونَ والتَّوفيـقَ، وكرَّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾ لئـلّا يُتوَهَّـمَ: إيّاكَ نعبدُ ونستعينُ غيـرَك، وأيضًـا ﴿إِيَّاكَ﴾ في ﴿نَعۡبُدُ﴾ بـدلُ الكافِ

---

(١) في (أ): «فالصحيح».

(٢) في النسختين: «زيد»، وهو خطأ، قال الأخفش: ومثل ذلك ـ أي: «أرأيتك» و«ذاك» و«رويدك» ونحوِها في كون الكاف فيها للخطاب ولا موضع لها ـ قولُ العرب: «أَبْصِرْكَ زَيْداً» يدخلون الكاف للمخاطبة وانما هي: أَبْصِرْ زيداً. انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٩)، وهذا القول الذي اختاره المصنف وعزاه للكسائي ذكره الواحدي عن الأخفش ورجحه على باقي الأقوال أيضاً. انظر: «البسيط» للواحدي (١/ ٥٠٥ ـ ٥١٠).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٥٩).

فـي «نعبُدُك»، وتقـولُ: «نعبدُك ونسـتعينُك» فتُكرِّرُ الـكافَ، فكذلك ﴿إِيَّاكَ﴾.

***

(٦) ـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدايةُ: الدَّلالةُ، وهَوادي الخيلِ والوحشِ: هي التي تتقدَّمُ للدَّلالةِ؛ أي: دُلَّنا على الصِّراطِ المُستقيمِ، أو: قدِّمْ قلوبَنا إلى ذلك.

وقيلَ: الأصلُ فيه الإمالةُ، ومنه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: مِلْنا، وخرجَ ـ عليه السَّلامُ ـ في مرضِه يتَهادَى بين اثنَين[١]؛ أي: يتمايلُ، ومنه: الهديَّةُ؛ لأنَّها تُمالُ مـن ملكٍ إلى ملكٍ، ومنه: الهدْيُ، للحيوانِ الذي يُساقُ إلى الحرمِ، والمعنى[٢]: مِلْ بقلوبِنا إلى الحقِّ.

والفعـلُ مـنَ الهدايـةِ قـد يتعـدَّى إلـى المفعـولِ الثّانـي مـن غيـرِ حـرفِ جرٍّ، مثـل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾، وقـد يتعدَّى بحرفِ الجـرِّ، كقولِه: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقولِـه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهدايةُ الله للعبدِ بخلقِ الإيمانِ في قلبِه، وقد ترِدُ الهدايةُ بمعنَى الدُّعاءِ، كقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: لتَدعُو.

وسـؤالُ الهدايـةِ قـد يكـونُ لابتـداءِ الهدايـةِ؛ أي: كمـا قـد هدَيْـتَ أوَّلًا فاهدِ فـي المُستقبلِ، وقد تكـونُ للاسـتدامةِ؛ أي: ثبِّتْنـا على مـا رزقتَنا مـنَ الهدايةِ، وقد تكـونُ للاسـتزادةِ؛ فـإنَّ العلـمَ النَّظـريَّ يقبـلُ الزِّيـادةَ بمعنـى تَوَاصُـلِ أوقاتِـه وقلّةِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٥٧٦١)، والبخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها. ولفظه عندهم: «يُهَادَى».

(٢) في (أ): «فالمعنى».

الفتـراتِ، وبمعنَـى زيـادةِ الأدلّـةِ، وليـس مـن عَلِـمَ بدليلٍ كمَـن عَلِـمَ بأدلّةٍ.

وأيضًا ما يخلقُه اليومَ للعبدِ زيادةً على ما خلقَه(١) أمسِ، ولو كانَ العبدُ يهتَدي بنفسِه ولا قُدرةَ للرَّبِّ على خلقِ الهدايةِ في قلبِه لَـما كانَ لسؤالِ الهدايةِ منه معنًى، وإنْ حُـمِلَ على سؤالِ اللُّطفِ والتَّوفيقِ فهو عند المُعتزلةِ مـمَّا يجبُ عليه فعلُه، فلا معنى للسُّؤالِ.

قال الحسينُ بنُ الفضلِ: لو كانتِ الهدايةُ إقامةَ الدَّليلِ فقد قالَ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، ثمَّ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ فليكُنِ النَّبيُّ مأمورًا بأن يقتديَ بثمودَ.

فإذًا قولُه: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ محمولٌ على أنَّه خلقَ الهدايةَ لقومٍ منهم فارتدُّوا.

والصِّراطُ: الطَّريقُ.

وقُرِئَ بالسِّينِ(٢) منَ الاستراطِ بمعنى الابتلاعِ، كأنَّ الطَّريقَ يشترطُ السَّابلةَ.

والصَّادُ أحسَنُ؛ فهي لغةٌ موضوعةٌ، ويجوزُ أن يكونَ الصّادُ بدلًا منَ السِّينِ.

و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: المُستَوي، يُقالُ: قامَ؛ أي: استَوى، وأقامَه؛ أي: سوَّاه، وقاوَمَه؛ أي: ساواه، وقيمةُ الشَّيءِ: ما يُساويه منَ الثَّمنِ.

وفي الخبرِ: «الصِّراطُ المُستقيمُ كتابُ الله عزَّ وجلَّ»(٣).

---

(١) في (أ): «خلفه».

(٢) قرأ بها قنبل ورويس، وبالإشمام حمزة على خلاف وتفصيل عن رواته، والباقون بالصاد. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٠٥ ـ ١٠٦)، و«التيسير في القراءات السبع» للداني (ص: ١٨)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١/ ٧٧)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٣) رواه بهذا اللفظ الطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٠)، من طريق ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ. =

وقيلَ: هو الإسلامُ، وهو(١) الطَّريقُ المُوصِلُ إلى رضا الله.

وقيلَ: معناه: اهدِنا الصِّراطَ الذي يسلكُه المؤمنون غدًا إلى الجنَّةِ، كقولِه: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨ - ١٦٩] في صفةِ الكفّارِ، وقولِه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

***

(٧) - ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿صِرَاطَ﴾ بدلٌ منَ الصِّراطِ الأوَّلِ، وهو بدلُ الشَّيءِ من نفسِه، كقولك: «جاء أبوكَ زيدٌ»، وهو من بابِ(٢) بدلِ المعرفةِ منَ المعرفةِ، وهذا كقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

و«الذين» منَ الأسماءِ الموصولةِ التي لا تتمُّ إلّا بصِلاتِها، والمعنى: صراطَ القومِ الذينَ أنعَمْتَ عليهم، والنَّعمةُ منَ النِّعمةِ، وهي اللِّينُ، والنَّعيمُ: لينُ العيشِ، ومنه: النَّعَمُ؛ لِلِينِ مشيتِها، ومنه: النَّعامةُ، ومنه: النُّعامَى لريحِ الجنوبِ؛ لِلِينِها.

= ورواه بمعناه من الطريق نفسه ضمن حديث طويل الترمذي (٢٩٠٦) وقال: حديثٌ غريبٌ لا نعرفُه إلَّا من هذا الوجه، وإسنادُه مجهولٌ، وفي الحارث مقالٌ. قلت: والحارث هو ابن عبد الله الأعور كذبه الشعبي، وفي حديثه ضعف، كما في «التقريب».

ورواه بلفظه أيضاً العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٢٩٣) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه عمرو بن واقد، قال عنه البخاري كما نقل العقيلي: منكر الحديث.

ورواه المروزي في «السنة» (٢٤)، والطبري في «تفسيره» (١/ ١٧٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً.

(١) في (أ): «فهو».

(٢) «من باب» من (أ).

وحقيقةُ النِّعمةِ: النَّفعُ واللَّذَّةُ عند مَن يرى لله على الكفَّارِ نِعمًا دُنيويَّةً، والنَّفعُ الخالصُ عن مشائبِ الضَّررِ عاجلًا وآجلًا عند مَن يقولُ: ليس لله على الكفَّارِ نِعمٌ دُنيويّةٌ، بل كلُّ ما هم فيه من صورةِ النِّعمِ استدراجٌ ومكرٌ.

وفي التَّفاسيرِ: الذين أنعَمَ عليهم قومُ موسى وعيسى قبلَ التَّحريفِ، قالَ الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]، يعني: أسلافَهم.

وقيلَ: هم المُؤمنون، قالَ الله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

وقيلَ: هم الأنبياءُ، قالَ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم: ٥٨].

ثمَّ مَن قال: (لا نعمةَ لله على الكافرِ)، فالمعنى: صراطَ الذينَ أنعَمْتَ عليهم بالتَّثبيتِ على الإيمانِ، والرَّغبةِ في هدايةٍ تبقَى ولا تزولُ.

ومَن قالَ: (لله على الكفَّارِ نِعمٌ دُنيويّةٌ) ففي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: صراطَ مَن أنعَمْتَ عليه[1] بالهدايةِ، وصراطُ مَن أُنعِمَ عليه بالهدايةِ هو الصِّراطُ المستقيمُ، فكُرِّرَ للتَّأكيدِ، فإنَّ طالِبَ الحاجةِ كلَّما كانَ أعرَفَ بعظيمِ موقِعِها كان نفسُ المطلوبِ منه أطيبَ بقضائِها، وكان الطلبُ أقربَ إلى النُّجحِ، وكان الإعطاءُ أجلَبَ للشُّكرِ، فأُمِرَ العبدُ بإظهارِ شدّةِ الرَّغبةِ.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ يجوزُ أن يكونَ ﴿غَيۡرِ﴾ بدلًا منَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والنَّكرةُ قد تكونُ بدلًا منَ المعرفةِ.

ويجوزُ أن تكونَ صفةً لـ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والنَّكرةُ لا تكونُ صفةً للمعرفةِ، ولكنْ لا تتمحَّضُ المعرفةُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ «الذين» ليس بمقصودٍ قصدُهم، وهو

---

(١) في (أ): «عليهم».

كقولِه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] عندَ مَن قرأ بالرَّفعِ، والتَّقديرُ: لا يستوي القاعدون من المؤمنين الأصحَّاءُ والمُجاهِدون، فكأنَّه وصفَ النَّكرةَ بالنَّكرةِ.

وقيلَ: ﴿غَيْرِ﴾ هاهُنا ليس بتمحُّضِ نكرةٍ؛ فإنَّ غيرَ المغضوبِ عليهم هم الذين أنعمَ عليهم، فهو كقولك: (عليكَ بالحركةِ غيرِ السُّكونِ) فـ(غيرِ السُّكونِ) معرفةٌ، وهو الحركةُ، فكأنَّك كرَّرْتَ الحركةَ تأكيدًا، فكأنَّه وصفَ المعرفةَ بالمعرفةِ.

والمغضوبُ عليهم والضّالُّونَ صفتانِ لجميعِ الكفّارِ.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهودُ، وأنَّ الضَّالِّينَ هم النَّصارَى[1].

ولمَّا قالَ رسولُ الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أُقاتلَ النّاسَ حتَّى يقولوا: لا إلهَ إلا الله»، قال رجلٌ: يا رسولَ الله، مَن هؤلاءِ الذين نُقاتِلُ؟ قالَ: «هؤلاءِ اليهودُ المغضوبُ عليهم، وهؤلاءِ النَّصارى الضَّالُّونَ»[2].

وقد قالَ الله في صفةِ اليهودِ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقالَ في صفةِ النَّصارَى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [المائدة: ٧٧].

والغضبُ في اللُّغةِ: الشِّدَّةُ، ورجلٌ غَضوبٌ؛ أي: شديدُ الخلُقِ.

---

(١) وصح هذا مرفوعاً، رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣٥١) من حديث رجل سمع النبي صلى الله عليه، وإسناده صحيح، ولا تضر جهالة صحابيه. ورواه الترمذي (٢٩٥٤) ـ وحسنه ـ من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) رواه المروزي في «السنة» (١٥٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٥٤٦)، من طريق عبد الله بن شَقيقٍ، عن رجلٍ من بلقين، عَنِ ابْنِ عَمٍّ لَهُ قَالَ: أَتَيتُ رسولَ الله ﷺ... الحديث. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن الصحابي.

والغَضوبُ: الحيَّةُ الخبيثةُ لشِدَّتها.

والغَضْبةُ: الدَّرَقةُ من جلدِ البعيرِ يُطوَى بعضُها على بعضٍ، سُمِّيت بها لشِدَّتِها.

ومعنى الغضبِ في صفةِ الله تعالى: إرادةُ العقوبةِ، فهو صفةُ ذاتٍ، أو: نفسُ العقوبةِ، ومنه: «إنَّ الدَّمعةَ لتُطفِئُ غضَبَ الرَّبِّ»(١)، فهو صفةُ فعلٍ.

ولـم يقُلْ: غيرِ المغضوبينَ؛ لأنَّ كلَّ فعلٍ تعدَّى بحرفِ الجرِّ فجمعُه وتثنيتُه وتأنيثُه تَبينُ في المُكنَّى المتَّصلِ بحرفِ الجرِّ، تقولُ: المأخوذُ منه، والمأخوذُ منهما، والمأخوذُ منهم؛ لأنَّ تمامَ الاسمِ عندَ ذكرِ المُكنَّى، وعلامةُ الجمعِ والتَّثنيةِ والتَّأنيثِ تلحقُ آخرَ الأسماءِ عند تمامِها.

وأمَّا الضَّلالُ: فهو الذَّهابُ عن الحقِّ، ومنه: ضلَّ اللَّبنُ في الماءِ؛ أي: غابَ، ومنه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أي: غِبْنا بالموتِ وصِرْنا تُرابًا، ويُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ وضلِلْنا وضلَلْنا، فالضّالُّ في الدِّينِ: هو الذّاهبُ عن الحقِّ.

وقيلَ: يعني: الذَّهابَ عن طريقِ الجنَّةِ.

* (آمين): يُسَنُّ لقارئِ هذه السُّورةِ أن يقولَ بعدَ الفراغِ منها مع سكتةٍ على نونِ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: (آمين) ليتميَّزَ ما هو قرآنٌ مـمَّا ليس بقرآنٍ.

و(آمين) ليسَ منَ القرآنِ، وفي الخبرِ: «لقَّنني جبريلُ عليه السَّلامُ آمين عندَ فَراغي من قراءةِ فاتحةِ الكتابِ وقال: إنَّه كالختمِ على الكتابِ»(٢).

---

(١) لم أجده.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٤) دون سند ولا راو، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٣): لم أجده هكذا، وفي «الدعاء» لابن أبي شيبة من رواية أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال: «أقرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ فاتحة الكتاب فلما قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال له: قل: آمين، فقال: آمين». =

ثمَّ فيه لغتانِ: المدُّ والقَصرُ.

ثمَّ قيل: (أمين) بالقصرِ اسمٌ من أسماءِ الله، فهو الأمينُ على الأشياءِ، وفي معناه: المُهَيمِنُ، وفيه إضمارُ «يا»؛ أي: اهدِنا يا أمين.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن معنى آمين؟ قال: «اسمٌ من أسماءِ الله»[1]. وفي روايةٍ: سألتُه عن معنى (آمين)، فقالَ: «ربِّ افعَلْ»[2].

ثمَّ فُتِحَتِ النُّونَ من «آمين» وهي كلمةُ نداءٍ لأنَّها جُعِلَتْ للنِّداءِ والشَّكوى، فخرجَتْ مخرَجَ النُّدبةِ كقولِهم: «واعُمَراه»، ثمَّ تُحذَفُ الهاءُ فيُقالُ: «يا عُمَرا».

ومَن قال: «آمين» على وزنِ «عامِين» قالَ: هو مدُّ الصَّوتِ بالدُّعاءِ، كما تقولُ: «أوَّهُ، وأوَّاه» مدًّا وقصرًا.

وقيلَ: معناه: «يا آمين» كقولِهم: «أَراكبُ»؛ أي: يا راكبُ.

= قلت: رواه عن أبي ميسرة: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩٦١).

وروى أبو داود (٩٣٨) من حديث أبي زهير النميري رضي الله عنه ـ واسمه: يحيى بن نفير ـ أنه كان إذا دعا الرجلُ بدُعاء قال: اختِمْه بآمين، فإن آمين مثلُ الطابَع على الصحيفة، وجاء في الحديث نفسه: أن النبي ﷺ قال في رجل كان يدعو ويلح في المسألة: «أَوْجَبَ إن خَتَم»، فقال رجل من القوم: بأي شيءٍ يَختِمُ؟ فقال: «بآمين، فإنه إن ختمَ بآمين فقد أَوْجَبَ».

(١) لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً، ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٦٥١) من قول أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٤٧٩) من قول مجاهد.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. وروي أيضا من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به، كما في «تفسير ابن كثير»، وكلاهما لا يصح، فإن الكلبي وجويبر متروكان.

وقيلَ: (آمين) حرفٌ موضوعٌ موضعَ اسمٍ للاستجابةِ[١]، مثل: «صَهْ» وُضِعَ موضعَ السُّكوتِ، وحقُّه الوقفُ، ففُتِحَتِ النُّونُ لالتقاءِ السّاكنَين.

وقيلَ: (آمين) كلمةٌ عِبريّةٌ أو سُريانيّةٌ.

وقال الحسنُ وجعفرٌ الصّادقُ: «آمِّين» بالتَّشديدِ، وهو قولُ الحسينِ بنِ الفضلِ[٢]، وهو منَ الأَمِّ، وهو القَصدُ؛ أي: قاصِدين نحوَكَ. وأمالَه حمزةُ والكسائيُّ[٣].

***

---

(١) في (أ): «الاستجابة».

(٢) ذكره عنهم النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص: ١٣٤) نقلاً عن الواحدي، ولم أجده في تفاسير الواحدي الثلاثة: «البسيط» و«الوسيط» و«الوجيز».

(٣) المصدر السابق نقلاً عن الواحدي أيضاً.

سُورَةُ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ

وهي مدَنيّةٌ.

وقيلَ: هي أوَّلُ سورةٍ نزلَتْ بالمدينةِ، إلا قولَه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ فإنَّها آخرُ آيةٍ نزلَتْ منَ السَّماءِ، وآياتُ الرِّبا من أواخرِ ما نزلَ منَ القرآنِ.

ورَوَى بُرَيدةُ الأسلَميُّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «تعلَّموا البقرةَ، فإنَّ أَخْذَها بركةٌ، وتَرْكَها حسرةٌ، ولن تستطيعَها البَطَلَةُ»(١).

ثمَّ قيلَ في الحروف المُقطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ: إنَّها منَ المُتشابهِ الذي لا يعلمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فعلينا الإيمانُ به كما يجبُ الإيمانُ بالملائكةِ وإن لـم نعرِفْ تفاصيلَهم، وبالسّاعةِ وإنْ لـم نعرِفْ وقتَها.

وحملَها قومٌ على حروفِ الجُمَّلِ، وقالوا: إنَّها أعلامٌ لمدَّةِ أجلِ(٢) هذه الأمّةِ.

وقد روى جابرٌ: أنَّ أبا ياسرِ بنَ أخطبَ سمعَ النَّبيَّ ﷺ يتلو سورةَ البقرةِ، فأخبرَ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٩٥٠). ورواه مسلم (٨٠٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٤٦) و(٢٢١٥٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. ولفظ مسلم والرواية الأولى عند أحمد: «اقرؤوا» بدل: «تعلموا»، في الموضعين. قال معاوية ـ أحد رواته ـ: بلغني أن البطلة السحرة.

(٢) في (أ): «أكل».

أخاه حُيَيَّ بنَ أخطبَ، فجاؤوا في جماعةٍ منَ اليهودِ، فقالَ حُيَيٌّ: الألفُ واحدةٌ، واللّامُ ثلاثونَ، والميمُ أربعونَ، أتدخُلونَ في دينِ نبيٍّ مُدَّةُ ملكِهِ إحدى وسبعونَ سنةً؟ قالَ: هل مع هذا غيرُه؟ فقالَ عليه السَّلامُ: «نعم، آلمص»، فقالَ: هذا أثقَلُ، هل مع هذا غيرُه؟ قال: «آلر»، قالَ: هذا أثقَلُ وأطوَلُ، هل مع هذا غيرُه؟ قالَ: «آلمر» فقال: قد لُبِّسَ علينا أمرُكَ فلا ندري أقليلًا أُعطيتَ أم كثيرًا.

فقالَ بعضُهم: لعلَّه جُمِعَ له جميعُ هذا، فقال عمرُ: ومن أينَ قُلتُم ما قُلتُم؟ قالوا: من حسابِ الجُمَّلِ، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ، ونزلَ: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧][(١)]. وهذا يدُلُّ على أنَّ هذه الحروفَ منَ المُتشابهِ، وضحِكُ رسولِ الله ﷺ يدُلُّ على جهلِهم.

وقالَ الشَّعبيُّ: لكلِّ كتابٍ سرٌّ، وسرُّ الله تعالى في القرآنِ هذه الحروفُ المُقطَّعةُ[(٢)].

ورُوِيَ هذا المذهبُ عن أبي بكرٍ وعليٍّ رضي الله عنهما[(٣)]، ومالَ إليه أقوامٌ.

ومالَ قومٌ[(٤)] إلى استنباطِ معانٍ:

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٢١)، والداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٣٣٠)، من طريق محمد بن إسحاق، قال: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله بن رئاب. وهو في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٤٥). والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه ابن المنذر وأبو الشيخ في تفسيريهما كما في «الدر المنثور» (١/ ٥٩).

(٣) ذكرهما الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٩)، والواحدي في «البسيط» (٢/ ١٤)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٥٩).

(٤) في (أ): «أقوام».

فقال القفَّالُ: هذه الحروفُ أسماءٌ للسُّورِ، فـ«ألم» اسمٌ لسورةِ البقرةِ(١).

وقيلَ: هي أسماءٌ للقرآنِ؛ أي: هذا الكتابُ ذلك الكتابُ الموعودُ، وقد سمَّتِ العربُ بالحروفِ المُقطَّعةِ، مثلَ: أوسِ بنِ حارثةَ بنِ لامٍ، وقالوا: جبلُ قافٍ، وقيلَ للنَّفسِ: عينٌ، وللسَّحابِ: عينٌ، وللحوتِ: نونٌ.

وإذا جازتِ التَّسميةُ بالجملِ كـ(تأبَّطَ شرًّا) و(ذرَّى حبًّا) جازتِ التَّسميةُ بالحروفِ أيضًا.

وإذا جعَلْنا هذه الحروفَ من أسماءِ القرآنِ أو أسماءِ السُّورِ فيجوزُ أن يكونَ المعنى القسَمَ؛ أي: وحقِّ القرآنِ، أو وحقِّ هذه السُّورةِ، هذا الكتابُ لا ريبَ فيه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أقسمَ بهذه الحروفِ لشرفِها وفضلِها ـ لأنَّها بسائطُ كتبِه المُنزَّلةِ ـ أنَّ هذا الكتابَ حقٌّ(٢).

وقال في روايةٍ: هي وإنْ تفرَّقَتْ أسماءٌ لله، ثمَّ قد يُهتَدى إلى تأليفِها وقد لا يُهتَدى، فـ«ا ل ر» «ح م» «ن» يتركَّبُ منها اسمُه الرَّحمنُ(٣).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢/ ٢٣) عن الحسن، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٦) عن زيد بن أسلم.

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٥٦)، والواحدي في «البسيط» (٢/ ١٥)، بلفظ: أقسم اللهُ بهذه الحروف أن هذا الكتاب الَّذي أنزل على محمد ـ ﷺ ـ هو الكتاب الذي عنده، عزَّ وجلَّ لا شك فيه.

وروى عنه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧) البقرة، و(١٠/ ٥٣) الأعراف، و(١٥/ ٤٥١) مريم، و(١٦/ ٧) طه، وهكذا في كل ما افتتح بهذه الحروف من السور، والنحاس في «معاني القرآن» (١/ ٧٤): أن ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ و﴿طسٓ﴾ و﴿طسٓمٓ﴾ و﴿يسٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ وأشباهَ هذا هو قسم أقسم الله به وهنَّ من أسماء الله.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٥٦)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ١٤)، ورواه ابن أبي حاتم في =

وقال في روايةٍ: «ألـم» أنا الله أعلَمُ، «ألر» أنا الله أرى، «ألمص» أنا الله أعلَمُ وأَفْصِلُ(١).

وقد تنطقُ العربُ بالحرفِ الواحدِ فتدلُّ به على الجملةِ التي هو منها؛ كقولِ القائلِ:

قُلـتُ لهـا قفـي فقالَـتْ قـاف(٢)

أي: وقَفْتُ.

وقيلَ: هو كما يُقالُ: فلانٌ في «أ ب ت ث» أو في «أبجد»، فيذكرُ البعضَ ويُنبِّهُ به على الكلِّ؛ أي: هذا الكتابُ مُركَّبٌ من هذه الحروفِ التي تتخاطَبونَ بها، فأْتُوا بمثلِه إنْ لـم يكُنْ من عندِ الله.

= «تفسيره» (١١٣١٣) بلفظ: (الر) حروف الرحمن مفرقة.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٨) بلفظ: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾: اسم مُقطَّع. وفي إسناده عباس بن زياد الباهلي، قال الشيخ أحمد شاكر: لم أجد له ترجمة قط.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٠٩٨) عن سعيد بن جبير، وفيه ﴿الٓر﴾ بدل: ﴿الٓمٓ﴾

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٥٦)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ١٦)، ورواه النحاس في «القطع والائتناف» (ص: ٣١)، ومفرقاً الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧)، و(١٠/ ٥٢)، و(١٢/ ١٠٣) و(١٣/ ٤٠٥ و٤٠٦).

(٢) بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٧٥)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٨٩)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢١٦)، و«معاني القرآن» للزَّجّاج (١/ ٦٢)، و«الخصائص» لابن جني (١/ ٣١ و٨١ و٢٤٧) و(٢/ ٣٦٣)، و«المحتسب» له (٢/ ٢٠٤ و٢٠٨ و٢٨١)، و«تفسير الثعلبي» (٣/ ٢٦). والرواية عند الطبري وابن جني والثعلبي:

قُلْنَـا لَهـا قِفِـي لَنـا قالَـتْ قَـافْ

وبعده:

لا تحسـبي أنـا نسـينا الإيجـاف

وقيلَ: إنَّهم قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فنزلَتْ هذه الحروفُ، فسمِعُوا شيئًا لـم يعتادُوه وأصغَوا إليه[١]، وكان ذلك سببًا إلى[٢] هُجومِ القرآنِ على أسماعِهم.

ثمَّ على هذا: إمَّا أن نقولَ: ليس تحتَها معانٍ، أو هي منَ المُتشابهِ، أو يُذكَرُ شيءٌ مـمّا تقدَّمَ منَ التَّأويلاتِ.

وقال أبو العاليةِ: ليس منها حرفٌ إلّا وهو مفتاحُ اسمٍ من أسماءِ الله، فالألفُ مفتاحُ الله، واللّامُ تدلُّ على لطيفٍ، والميمُ على مجيدٍ[٣].

وقيلَ: الألفُ آلاؤُه، واللّامُ لُطفُه، والميمُ مجدُه[٤].

وقيلَ: هذه الحروفُ لافتتاحِ الكلام كقولك: أَلَا إن فلانًا ذاهبٌ.

وقال ابن جريرٍ: هذه الحروف[٥] إشارةٌ إلى جميعِ هذه المعاني، فهي مُشتركةٌ كاشتراكِ لفظِ العينِ والدِّينِ والأمةِ، ويجوزُ أن يُطلَقَ اللَّفظُ المشتركُ ويُرادَ به جميعُ معانيه، كقولك: «العينُ مخلوقةٌ»، وتُريدُ الإخبارَ عن جميعِ محاملِ العينِ بأنَّها مخلوقةٌ، ولكنَّ هذا إنَّما يجوزُ عند قيامِ دليلٍ، فأمَّا من غيرِ دليلٍ فليس إلّا التَّوقُّف[٦].

---

(١) في (أ): «فأصغوا إليها».

(٢) في (أ): «سبيلاً على».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣) من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية، ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٩) عن الربيع بن أنس.

(٤) قطعة من الخبر السابق.

(٥) «لافتتاح الكلام كقولك إلا أن فلانًا ذاهب وقال ابن جرير: هذه الحروف» من (ت).

(٦) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٢٣).

وقولُ الصَّحابيِّ في تعيينِ بعضِ المحاملِ في مثلِ هذا الموضعِ مقبولٌ؛ لعلمِه بقرائنِ الأحوالِ، فأمَّا الألفاظُ العامَّةُ فتجري على التَّعميمِ إلا إذا قامَ دليلُ التَّخصيصِ.

وهذه الحروفُ لا محلَّ لها منَ الإعرابِ؛ لأنَّها ليست أسماءً مُتمكِّنةً، ولا أفعالًا مُضارعةً، ومَن قال: إنَّها أسماءُ السُّورِ فمحلُّها عندَه الرَّفعُ؛ أي: «هذه ألـم»، كما تقولُ: هذه سورةُ البقرةِ، أو يكونُ رفعًا على الابتداءِ، والخبرُ «ذلك الكتاب»، كقولك: «زيدٌ ذلك الرَّجلُ»، أو المعنى: «ذلك الكتابُ ألـم» فتقدَّمُ الخبرَ.

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما بَعُدَ، ولكنْ قد يُذكَرُ بمعنى «هذا»، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]؛ أي: هكذا.

وقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هاهنا مُبقًّى على أصلِه؛ أي: هذه السُّورةُ ذلك الكتابُ الذي قُلنا: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، أو ذلك الكتابُ الذي بشَّرَ به الأنبياءُ، أو ذلك الكتابُ الذي نزلَ بعضُه بمكَّةَ وبعضُه بالمدينة[١]، وبعضُ القرآنِ قد يُسمَّى قرآنًا.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: وحقِّ هذه الحروفِ ذلك الكتابُ الذي سبقَ؛ أي: التَّوراةُ والإنجيلُ لا ريبَ فيه، أو: الكتابُ الذي وَعَدْتُ في التَّوراةِ لا ريبَ فيه، أو: ما كُتِبَ[٢] في اللَّوحِ المحفوظِ لا ريبَ فيه.

﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ سُمِّي كتابًا لأنَّه مكتوبٌ، والكَتْبُ: الجمعُ بين الشَّيئينِ، ومنه: «كتبتُ حَياءَ البغلةِ» إذا ضمَمْتَ بينَ شفرَيها بحَلْقةٍ، ومنه: الكتيبةُ؛ لاجتماعِها.

---

(١) في (أ) زيادة: «وبعضه بالمدينة».

(٢) في (أ): «كتبت».

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شكَّ فيه، يُقالُ: «رابَني وأرابَني» بمعنًى.

وقيلَ: رابَني؛ أي: علمتُ منه الرِّيبةَ، وأرابَني؛ أي: أوهمَني الرِّيبةَ.

وقيلَ[1]: أرابَ الرَّجلُ؛ أي: صارَ ذا ريبةٍ، كما يُقالُ: ألامَ؛ أي: استحقَّ أن يُلامَ، ورابَني؛ أي: جعلَني في ريبةٍ.

و«لا» تعملُ فيما بعدَها بالنَّصبِ مثلَ «إنَّ»، غيرَ أنَّ «لا» تنصِبُ من غيرِ تنوينٍ؛ فرقًا بينَ «لا» وهو مشبَّهٌ بـ«لن» وبـ«إنَّ» وبَيْنَ المشبَّهِ به.

وقيلَ: «لا» مع ما بعدَها مثلُ: خمسةَ عشرَ.

ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أنَّه في نفسِه حقٌّ وإن ارتابَ فيه المُبطِلون، فالرَّيبُ في المُرتابِ لا في الكتابِ.

وقيلَ: معنى ذلك: لا ينبَغي أن يُرتابَ فيه.

وقيلَ: معناه النَّهيُ؛ أي: لا ترتابُوا فيه.

وقيلَ: لا ريبَ فيه أنَّه هُدًى للمُتَّقين؛ لأنَّهم اهتَدَوا به.

وقيلَ: الوقفُ عند قولِه: ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ أي: هذا هو الكتابُ الموعودُ، أو الكتابُ الذي نُعوِّلُ عليه بلا ريبٍ، ثمَّ قالَ: ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

والهدى: البيانُ، وهو اسمٌ أُجرِيَ مُجرَى المصادرِ.

والاتِّقاءُ منَ الحجزِ بين الشَّيئينِ، يُقالُ: اتَّقى فلانٌ بترسِه، والمُتَّقي: مَن يتحرَّزُ بطاعةِ الله عن عُقوبتِه، وأصلُ الكلمةِ منَ الوقايةِ، وهذا الكتابُ بيانٌ للكلِّ، ولكنَّه

---

(١) في (أ): «ويقال».

أضافَ إلى المتَّقين لانتفاعِهم به دونَ الكفَّارِ، وهو كقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وإنْ كانَ نذيرًا للكلِّ.

وقيلَ: أرادَ: هُدًى للمُتَّقي والكافرِ، فاكتفَى بذكرِ أحدِ[1] الفريقَينِ كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبردَ، ولهذا قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هو صفةُ (المتَّقين).

ويجوزُ أن يكونَ رفعًا؛ أي: هم الذين يُؤمنونَ، أو ابتداءً والخبرُ «أولئك»، فالمُتَّقي هو الذي اجتمعَ فيه تصديقُ القلبِ وعبادةُ البدنِ وعبادةُ المالِ.

والإيمانُ في اللُّغةِ: التَّصديقُ، وهو اعتقادُ صدقِ المُخبِرِ فيما يُخبِرُ، وقولُك لغيرِكَ: «صدقتَ» يُسمَّى تصديقاً تجوُّزًا.

ويُقالُ: أمِنَ يأمَنُ أمناً؛ أي: اطمأنَّ، وآمنتُ فلانًا؛ أي: سكَّنتُه.

وقيلَ: آمنَ؛ أي: جعلَ نفسَه في أمانِ الله بتصديقِه إيَّاه، فيُعبَّرُ عن الإيمانِ بالتَّصديقِ؛ لأنَّ التَّصديقَ سببٌ للأمنِ من عذابِ الله، وحُذِفَ النَّفسُ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ كما يُقالُ: حمَلَ على فُلانٍ؛ أي: حمَلَ سلاحَه أو نفسَه على فلانٍ.

وقيلَ: آمنَ؛ أي: صارَ ذا أمنٍ، مثل: أعاهَ؛ أي: صارَ ذا عاهةٍ في مالِه، وأسلَمَ؛ أي: صارَ ذا سِلْمٍ.

---

(١) في (أ): «فاكتفى بأحد».

قُرِئَ: «يُومِنون» بتحقيقِ الهمزةِ ومن غيرِ همزٍ[(١)].

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: هو كلُّ ما غابَ عن الحسِّ والضَّرورةِ مـمَّا يُدرَكُ بالدَّليلِ، ويُسمَّى المطمئنُّ منَ الأرضِ: الغيبَ؛ لأنَّه غابَ عن البصرِ.

ويدخلُ في الإيمانِ بالغيبِ: الإيمانُ باللهِ، وبجميعِ[(٢)] ما أخبرَ عنه النَّبيُّ عليه السَّلامُ منَ الحشرِ والجنَّةِ والنَّارِ والملائكةِ والرُّسلِ.

وقيلَ: الغيبُ: الوحيُ، ومنه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]؛ أي: ما هو على الوحيِ بمُتَّهَمٍ، ويرجعُ هذا إلى ما كانَ يُخبِرُ به النَّبيُّ عليه السَّلامُ مـمَّا لـم[(٣)] يُعلَمْ بالضَّرورةِ.

وقيلَ: أي: يُؤمنونَ إذا غابوا عنكم، ولـم يكونوا كالمُنافقين الذين يقولون إذا خلَوا إلى شياطينِهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤].

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يُؤدُّونَها بأركانِها وسُنَنِها وهيئاتِها، يُقالُ: قامَ الشَّيءُ: إذا دامَ وثبتَ، وأقامَهُ؛ أي: أدامَهُ.

والصَّلاةُ في اللُّغةِ: الدُّعاءُ، وفي الخبرِ: «إذا دُعِيَ أحدُكم إلى طعامٍ فليُجِبْ، فإنْ كانَ مُفطِراً فلْيَطْعَمْ، وإنْ كانَ صائمًا فليُصَلِّ»[(٤)]؛ أي: فليَدْعُ.

وقيلَ: الصَّـلاةُ مـنَ اللُّزومِ، ومنه: صَـلِيَ بالنَّارِ؛ أي: لزِمَها، ومنه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا

---

(١) قـرأ ورش عـن نافـع، وأبو عمـرو: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بغيـر همز، وبقية السـبعة يهمـزون. انظر: «السـبعة» (ص: ١٣٢ ـ ١٣٣)، و«التيسـير» (ص: ٣٦).

(٢) في (أ): «وجميع».

(٣) «لم» من (ف).

(٤) رواه مسلم (١٤٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]، والمُصَلِّي في الحَلْبةِ: الذي يجيءُ خلفَ السّابقِ منَ الخيلِ؛ لأنَّ رأسَه عند صَلَوَيْ السّابقِ، وهما العظمانِ اللَّذانِ في العجُزِ، سُمِّيا بها للُزومِ كلِّ واحدٍ منهما الآخرَ، والواحدُ: صَلًا، ومنه قولُ عليٍّ: (سبَقَ رسولُ الله ﷺ، وصَلَّى أبو بكرٍ رضيَ الله عنه)[1].

ثمَّ قيلَ: في الشَّرعِ أسماءٌ نُقِلَتْ منَ اللُّغةِ إليه كالصَّلاةِ والزَّكاةِ، **والصَّحيحُ** منعُ هذا؛ لأنَّ الشَّريعةَ ثبتَتْ بالعربيَّةِ، والقرآنُ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، ولكنْ لعُرفِ الشَّرعِ تحكُّمٌ في بعضِ الأسماءِ كالدّابَّةِ وُضِعَتْ لكلِّ ما يَدِبُّ، ثمَّ خصَّصَها العرفُ بالبهائمِ والحشراتِ، وكذلك لعُرفِ الشَّرعِ تحكُّمٌ في بعضِ الأسماءِ، وقد خُصِّصَ لفظُ الصَّلاةِ بدُعاءٍ مخصوصٍ يقعُ على هيئةٍ مخصوصةٍ ولزومٍ مخصوصٍ لموضعِ الحاجةِ.

وقيلَ: وُضِعَ لفظُ الصَّلاةِ في اللُّغةِ لهذه العبادةِ؛ فإنَّ الله لـم يُخْلِ زمانًا من شرعٍ، ولـم يخلُ شرعٌ من صلاةٍ.

ثمَّ قيل: عَنَى إقامةَ الفرائضِ، **والصَّحيحُ**: أنَّ المُرادَ أداءُ الفرائضِ والنَّوافلِ؛ لأنَّ المُتَّقي يأتي بهما.

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: مـمَّا أعطَيناهُم، والرِّزقُ: ما هُيِّئَ للانتفاعِ به، ثمَّ ينقسمُ إلى حلالٍ وحرامٍ، فلمَّا مدحَهم بالإنفاقِ ممَّا رُزِقُوا عُلمَ أنَّه أرادَ الإنفاقَ منَ الحلالِ، يُقالُ: رزَقَه رَزْقًا ورِزْقًا، فالرَّزقُ بالفتحِ المصدرُ، والرِّزقُ للاسمِ، ويجوزُ أن يُوضَعَ موضعَ المصدرِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٨٩٥) عن عَليٍّ رضي الله عنه قال: «سَبَقَ النبي ﷺ، وَصَلَّى أبو بَكْرٍ، وَثَلَّثَ عُمَرُ رضي الله عنه، ثُمَّ خَبَطَتْنَا ـ أو: أَصَابَتْنَا ـ فِتْنَةٌ يَعْفُو الله عَمَّنْ يَشَاءُ». وانظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٤/ ٣٥١)، و«الغريبين» (مادة: صلا).

والإنفاقُ: إخراجُ المالِ منَ اليدِ، ومنه: نفَقَ المبيعُ؛ أي: خرَجَ من يدِ البائعِ إلى المُشتَري، ونفَقَتِ الدَّابَّةُ؛ أي: خرَجَتْ رُوحُها، ومنه: النَّافقاءُ، لـجُحْرِ اليربوعِ الذي يخرجُ منه إذا أخذَ من جهةٍ أُخرَى، والنَّفَقُ: السَّرَبُ الذي له مخلصٌ من جوانبَ، والمُنافقُ: الذي يخرُجُ[1] عن الإيمانِ بقلبِه وإنْ أظهرَه بلسانِه.

ثمَّ قيلَ: أرادَ الزَّكاةَ المفروضةَ.

وقيلَ: هو عامٌّ في الفرضِ والنَّفلِ، ومنه: نفقةُ الرَّجلِ على أهلِه، وقد قالَ بعضُ المُتقدِّمين: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: مـما علَّمناهُم يُعلِّمونَ.

* * *

(٤) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قيلَ: الآياتُ الأربعُ في مُفتتحِ هذه السُّورةِ في جميعِ المُؤمنينَ، والواوُ في: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾[2] لتعديدِ خصالِ الخيرِ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

وقيلَ: نزلَتِ الآياتُ الأربعُ في مُؤمني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم الذين آمَنُوا بما أُنزِلَ على محمَّدٍ وما أُنزلَ قبلَه.

وقيلَ: نزلَتِ الآيتانِ الأُوليانِ في مُؤمني العربِ؛ لأنَّهم آمَنُوا بالغيبِ، والآيتانِ بعدَهما في مُؤمني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم المُؤمنونَ بما أُنزِلَ من قبلِ محمَّدٍ ﷺ، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما[3]، واختارَه ابنُ جريرٍ، وقالَ: جَنَّسَ الكفَّارَ بعد هذا إلى

(١) في (أ): «خرج».

(٢) في النسختين: «والذين يؤمنون بالغيب».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٤٤ و٢٥١ و٢٥٤) عن ابن عباس وابن مسعود.

مَن أظهرَ الكفرَ، وإلى مُنافقٍ أسرَّ الكفرَ، كذلك جَنَّسَ المؤمنينَ إلى مُؤمِني العربِ ومُؤمني أهلِ الكتابِ(١).

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ أي: بالقرآنِ، والقرآنُ مُنزَلٌ ومُنَزَّلٌ ومنزولٌ به، على معنى أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ كانَ في السَّماءِ، فأسمَعَه الله كلامَه فنزلَ وأدَّى ما سمعَ، **وليُحذَرْ هاهنا** خيالُ التَّحيُّزِ في حقِّ الرَّبِّ، وخيالُ انفصالِ كلامِه القديمِ عنه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ أي: التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكتبِ المُنزلةِ، و«قَبْلُ» نقيضُ «بَعْدُ»، و«قِبَلٌ»: منَ الاستقبالِ، يُقالُ: كلَّمتُه من ذي قِبَلٍ؛ أي: استقبلتُ له الكلامَ(٢)، و«بعدَ» منَ البُعدِ.

قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: وبالدَّارِ الآخـرةِ، أو بالنَّشأةِ(٣) الآخرةِ، فحذَفَ الموصوفَ واكتفَى بالصِّفةِ، وقد قالَ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِـرَةُ﴾ [القصص: ٨٣].

وسُمِّيتِ الآخرةُ آخرةً لتأخُّرِها، والدُّنيا لدُنوِّها.

وقيلَ: سُمِّيتِ الآخرةُ آخرةً لمصيرِها آخرةً لأُولى كانت قبلَها.

﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ ﴿هُمۡ﴾ دخلَتْ للتَّوكيدِ، يُسمِّيه الكوفيُّونَ عمادًا، والبصريُّونَ فصلًا.

واليقينُ: العلمُ الذي يحصلُ بعد نظرٍ واستدلالٍ، ولهذا لا يُوصَفُ الرَّبُّ باليقينِ وإن وُصِفَ بالعلمِ، يُقالُ: يقِنَ يَيْقَنَ يَقَنًا فهو يَقِنٌ، وأيقَنَ يُوقِنُ، والإيمانُ بالآخرةِ يندرجُ تحتَ الإيمانِ بالغيبِ؛ فإنَّه مـمَّا غابَ عن الحسِّ، وإنَّما أعادَ ليُبيِّنَ

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (١/ ٢٤٦).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ٤٥)، وفيه عن الفراء: لَقيته من ذي قِبَلٍ وقَبَلٍ، ومن ذي عِوَض وعَوَض، أي: فيما يستقبل.

(٣) في (أ): «وبالنشأة».

شدَّةَ الاعتناءِ بالإيمانِ بالآخرةِ، وهذا كقولِه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فأفردَهما بالذِّكرِ وإنْ شَمِلَهما اسمُ الملائكةِ تنويهًا بذكرِهما.

وقيلَ: هذا تخصيصٌ بعد تعميمٍ، فتبيَّنَ أنَّ المُرادَ بالإيمانِ بالغيبِ هو الإيمانُ بالآخرةِ كقولِه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٣].

وقيلَ: بيَّنَ أنَّ إيمانَهم بالآخرةِ يقينٌ لا تقليدٌ.

* * *

(٥) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: هؤلاءِ الذين جرى ذِكرُهم على هُدًى[1]، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما بَعُدَ، وإنَّما قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ لانقِضاءِ ذِكرِهم، وما انقضَى فهو بعيدٌ وإنْ قَرُبَ.

﴿عَلَىٰ هُدًى﴾؛ أي: بيانٍ وبصيرةٍ.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿هُمُ﴾ فصلٌ عند قومٍ، وعمادٌ عند قومٍ.

والفلاحُ: البقاءُ، وقيلَ: الفوزُ بالنِّعمةِ؛ أي: هم الذين ينالونَ البقاءَ في النَّعيمِ السَّرمديِّ، ويَظْفَرونَ ببُغيتِهم.

وقيلَ: الفلاحُ منَ القطعِ، ومنه: «الحديدُ بالحديدِ يُفلَحُ»[2]؛ أي: يُقطَعُ ويُشَقُّ،

---

(١) في (أ) زيادة: «من ربهم».

(٢) ذُكر على أنه مثل كما في «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٩٦)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٤٥)، و«مجمع الأمثال» (١/ ١١)، و«المستقصى» (١/ ٤٠٣). وذكره الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٧٦) شعراً:

=

ومنه: الفلَّاحُ، للأكَّارِ؛ لأنَّه يشُقُّ الأرضَ، والفلَّاحُ للمُكاري؛ لأنَّه يقطعُ الأرضَ، فالمُفلِحُ مَن يقطعُ زمانَه إلى الظَّفَرِ بحاجتِه، فجعَلَ الموعودَ المُستيقَنَ كالحاصلِ فقال: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقيلَ: أرادَ: هم على هُدًى في الحالِ، وهم المُفلِحونَ في المآلِ.

***

(٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ لـمَّا أخبرَ عن المُؤمنين بأنَّهم على هُدًى أخبرَ عن الكفَّارِ أيضًا، وأنَّهم مُصِرُّونَ على كُفرِهم.

نزلَتْ في رُؤساءِ اليهودِ[1].

وقيلَ: في قادةِ المُشركين الذين قُتلوا ببدرٍ[2].

وقيلَ: في قومٍ منَ الأوسِ والخزرجِ نافَقُوا[3].

ثمَّ قيلَ: الآيةُ في قومٍ علمَ اللهُ أنَّهم لا يُؤمنون، ولم يعنِ مَن علِمَ أنَّه سيُؤمِنُ.

= قد علمت خيلك أنِّي الصَّحْصَحُ إن الحَدِيد بالحديد يُفْلَح

(١) روي هذا القول مع القول الأخير عن ابن عباس في خبر واحد. وسيأتي لفظه وتخريجه لاحقاً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٧٣) عن الربيع بن أنس.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٥٨) من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن صَدر سورة البقرة إلى المئة منها، نزل في رجال سَمَّاهم بأعيانهم وأنْسَابهم من أحبار يهود، من المنافقين من الأوس والخزرج. وإسناده ضعيف لجهالة محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت.

وقيلَ: أرادَ جملةَ الكافرين، فأخبرَ أنَّهم بأجمعِهم لا يُؤمنون[١] وإنْ كانَ يُؤمنُ أقوامٌ منهم.

وقولُه: ﴿كَفَرُوا﴾ منَ الكفرِ، وهو السَّتْرُ؛ أي: ستَروا نِعَمَ الله عليهم بالجحدِ، ومنه يُقالُ للَّيلِ: كافرٌ، وكذلك للزَّرَّاعِ.

وقيلَ: الكافرُ: ذو الكفرِ، والتَّغطيةُ لقلبِه، كما يُقالُ: رجلٌ كاسٍ؛ أي: ذو كسوةٍ، وباعلٌ؛ أي: ذو بعلٍ.

والكفرُ أقسامٌ:

كفرُ إنكارٍ؛ كالذي يكفرُ بقلبِه ولسانِه.

وكفرُ جحودٍ؛ كالذي يعرِفُ بقلبِه ولا يُقرُّ بلسانِه، مثلَ إبليسَ وأميَّةَ بنِ أبي الصَّلتِ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩].

وكفرُ عنادٍ؛ وهو أن يعرِفَ بقلبِه ويُقِرَّ بلسانِه ويأبى أن يقبَلَ، كالذي قال: لولا أن تُعيِّرَني قُريشٌ لأقرَرْتُ بها عينَكَ[٢].

وكفرُ نفاقٍ؛ كالذي يُقِرُّ بلسانِه ويكفُرُ بقلبِه.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: مُعتدلٌ مُتساوٍ، وهو منَ التَّساوي، وسواءُ الجحيمِ: وسطُه؛ لاستواءِ مقاديرِ نواحيه إليه، ويُقالُ: «سواءٌ» و«سواسيةٌ» في الجمعِ، ولا يُثنَّى، ويُقالُ: يُثنَّى، وفي التَّثنيةِ: «سِيَّانِ»، ويُقالُ في الجمعِ: «أسواءٌ»، فيجوزُ أن يكونَ جمعَ «سواءٍ»، مثلَ: جَوادٍ وأجوادٍ، ويجوزُ أن يكونَ جمعَ «سيٍّ»، مثلَ: مَثَلٍ وأمثالٍ.

---

(١) في (أ): «أنهم لا يؤمنون بأجمعهم».

(٢) رواه مسلم (٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والقائل أبو طالب لما دعاه النبي ﷺ وهو على فراش الموت.

قولُه تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الإنذارُ: الإعلامُ بموضعِ المخافةِ، وأنذَرتُه فنَذِرَ؛ أي: أعلَمْتُه فعلمَ.

وهذا الاستفهامُ بمعنى الخبرِ[1]؛ أي: يستَوي عندَهم الإنذارُ وعدَمُ الإنذارِ، ونظيرُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، و: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، و: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

و«أم» للتَّسويةِ بين شيئَينِ، ولا يجوزُ هاهنا «أو»؛ لأنَّ «أو» لأحدِ شيئينِ.

و«أم» مع الألفِ بمعنى «أيّ»، تقولُ: أزيدٌ عندَك أم عمرٌو؟ أي: أيُّهما عندكَ؟ وتقولُ: أزيدٌ عندَكَ أو عمرٌو؟ وليس معناه: أيُّهما عندكَ؛ لأنَّ جوابَ الأوَّلِ أن تقولَ: زيدٌ، أو تقولَ: عَمرٌو، وجوابُ الثَّاني أن تقولَ: «نعم»، أو تقولَ: «لا». ويجوزُ أن تقولَ: سواءٌ عليَّ هذانِ، ولا يجوزُ: سواءٌ عليَّ أحدُهما.

ثمَّ؛ قال البجليُّ[2]: أعطى الله نبيَّه أجرَ الإنذارِ فقالَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، ولم يقُلْ: «سواءٌ عليكَ»، بل أمرَه بالإنذارِ، ثمَّ أخبرَه أنَّ إنذارَه إيّاهم لا ينفعُهم.

***

(٧) ـ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: فهُم لا يؤمنون لأنَّ الله ختَمَ على قلوبِهم.

---

(١) في (أ): «بمعنى الطلب بمعنى الخبر».

(٢) هو الحسين بن الفضل، تقدمت ترجمته.

والختمُ: الطَّبعُ، ومنه: ختمتُ الكتابَ، و﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ أي: آخرُه.

وأصلُ الختمِ: من آخرِ الشَّيءِ، وختمُ الكتابِ يقعُ بعد الفراغِ منه، ومنه: ﴿خَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ أي: آخرُهم، وخاتمةُ السُّورةِ.

وقيلَ: الختمُ: التَّغطيةُ، يقالُ: ختمَ البذرَ في الأرضِ؛ أي: غطَّاه.

والختمُ على قلبِ الكافرِ بخَلْقِ الكفرِ فيه على التَّوالي، وهكذا الرَّينُ والطَّبعُ، والختمُ على الظَّرفِ بمنعِ ما فيه أن يخرجَ، وما ليس فيه أن يدخلَ، فالختمُ على قلبِ الكافرِ يمنعُ خروجَ الكفرِ ودخولَ الإيمانِ، وهو كما قالَ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وعندَ المُجْبِرةِ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: أجبرَهم على الكفرِ واضطرَّهم إليه. **والقولُ بالجبرِ باطلٌ**.

وقالتِ البكريَّةُ(١): هو شيءٌ بفعلِ الله ليَحولَ بين العبدِ وبينَ الإخلاصِ، فلا يُخلصُ أبدًا.

فإنْ عَنَوا به الإجبارَ **فهو باطلٌ**، وإنْ عَنَوا أنَّ الله خالقُ الكفرِ وإنْ كانَ العبدُ يكتسبُه **فهو حقٌّ**.

---

(١) هم أصحاب بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد، وكان يذهب في الكبائر التي تكون من أهل القبلة أنها نفاق كلها، وأن مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة عابد للشيطان مكذب لله سبحانه جاحد له منافق في الدرك الأسفل من النار مخلد فيها أبداً إن مات مُصرًّا، وكان يزعم أن الإنسان إذا طبع الله سبحانه على قلبه لم يكن مخلصاً أبداً، وحكي عنه أن الإنسان مأمور بالإخلاص مع الطبع، وأن الطبع الحائل بينه وبين الإخلاص عقوبة له، وأنه مأمور بالإيمان مع الطبع الحائل بينه وبين الإيمان... إلى غير ذلك من الأقوال. انظر: «مقالات الإسلاميين» (ص: ٢٨٦).

وللقدريَّةِ في أمثالِ هذه الآيةِ مُراوَغاتٌ:

قال قومٌ: هذا ضربُ مثَلٍ؛ أي: لـمَّا عانَدوا وأصرُّوا على الكفرِ صاروا كمَن خُتِمَ على قلبِه فلا يجدُ الحقُّ إليه سبيلًا، ولذلك صاروا كأنَّ عيونَهم مسدودةٌ وآذانَهم صُمٌّ، وأُضيفَ هذا الختمُ إلى الله على معنى: أنَّهم إذا فعلوا ذلك الإصرارَ بعد إيرادِ الله الحجَجَ عليهم، فهو[1] كقولِه: ﴿زَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]؛ أي: ازدادُوا بها كفرًا إلى كُفرِهم، وهكذا ذكروه في كلِّ موضعٍ أضافَ الله الإضلالَ إلى نفسِه.

وهذا باطلٌ؛ لأنَّه صرفُ الكلامِ من ظاهرِه بغير دليلٍ.

وقال آخَرونَ: معنى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: شهِدَ عليها بالكفرِ، أو حكَمَ لها[2] بالكفرِ، كما تقولُ: أراكَ تختمُ على ما يقولُه فلانٌ؛ أي: تُصدِّقُه وتشهدُ بأنَّه حقٌّ، وتحكمُ عليه بذلك، فلما أخبرَ أنَّهم لا يُؤمنونَ أخبرَ أنَّ الله تعالى شهدَ عليهم بذلك.

وهذا باطلٌ؛ لأنَّ أحدَنا يشهدُ بكفرِ الكافرِ ويحكمُ بذلك، ولا يُقالُ: ختَمَ على قلبِه.

وقال قومٌ: هذا يقعُ في وقتِ البأسِ عقوبةً للكافرِ على ما أسلَفَ.

وهذا أيضًا عدولٌ عن الظَّاهرِ، وقد نطقَ القرآنُ بضِدِّه، قال الله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، فكيف يُقالُ: يَضطرُّه في ذلك الوقتِ إلى الكفرِ، مع إخبارِه عنهم بالإيمانِ في ذلك الوقتِ وإنْ كانَ لا ينفعُهم؟

---

(١) في (أ): «وهو».

(٢) في (أ): «عليها».

وقال قومٌ: هذا الختمُ سِمةٌ يُثبِتُها الله في قلبِ الكافرِ ليُفرِّقَ بها الملائكةُ بين قلوبِ الكفَرةِ وقلوبِ المؤمنين، ويلعَنُوا الكفرةَ ويُبغِضُوهم.

وهذا يُخالفُ اللُّغةَ والظاهرَ، ولا يُقالُ: ختمتُ على الشَّيءِ بمعنى: أعلَمْتُ ووسَمْتُ، وكيف ينتظمُ هذا في قولِه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]؟

وقال قومٌ: وردَتْ هذه الآيُ في حقِّ قومٍ مخصوصين يفعلُ الله بهم هذا عقوبةً لهم في الدُّنيا كما عاقبَ أقوامًا في الدُّنيا كأصحابِ السَّبتِ وغيرِهم، ولكنَّهم إذا صاروا بذلك الختمِ والطَّبعِ والإقفالِ والرَّينِ وجَعْلِ قلوبِهم في أكنَّةٍ إلى أن لا يفقَهُوا، سقطَ عنهم التَّكليفُ كسُقوطِه عمَّن مُسِخَ وعن المُناهزِ للبلوغِ ولـمَّا يبلُغْ بعدُ وإنْ كانَ له[1] بعضُ الفعلِ.

وهذا أيضًا باطلٌ؛ لأنَّه لو تعيَّن لنا المعنيُّ بهذه الآيةِ منَ الكفرةِ لكنَّا لا نتمارَى في كونِه مُكلَّفًا مُتمكِّنًا من الإيمانِ لو أرادَه، وعندَهم: لا يفعلُ الرَّبُّ بالعبدِ إلا ما فيه صلاحُه، فكيف يُتوَهَّمُ أنَّ الأصلحَ لهذا العبدِ أن يسلُبَه قدرةَ الإيمانِ حتَّى يصيرَ ذلك سببًا لمنعِه من دخولِ الجنَّةِ وسببًا لتخليدِه في النَّارِ؟

وقال قومٌ: هذا الختمُ شبهُ بلادةٍ يجدُها الكافرُ في قلبِه، وهو كالقَذَى في العينِ وكالطَّنينِ في الأُذنِ، فتُورِثُهم هذه الأشياءُ كَرْبًا وضِيقَ صدرٍ وإنْ لـم يُمنَعوا عن الإيمانِ، وهذا كما فُعِلَ ببني إسرائيلَ حين تاهوا.

قالوا: ويجوزُ أن يُفعَلَ هذا بهم في الآخرةِ كقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وكقولِه: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]،

---

(١) في (أ): «إليه».

وقولِه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، وقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥].

وهذا أيضًا عدولٌ عن الظَّاهرِ بغيرِ دليلٍ.

وقال مُجاهدٌ: هذا القلبُ في مثلِ هذا ـ يعني: الكفَّ ـ فإذا أذنبَ العبدُ ذنبًا ضُمَّ منه ـ وقال بإصبعِه الخنصرِ هكذا ـ وإذا أذنبَ ضُمَّ ـ وقال بإصبعِه هكذا حتى ضمَّ أصابعَه كلَّها ـ فيطبعُ الله عليه بطابعٍ، قال مجاهدٌ: وكانوا يرَون أنَّ ذلك الرَّينُ[1].

وقيلَ: الطَّبعُ فوقَ الرَّينِ، والإقفالُ فوقَ الطَّبعِ، وفي الخبرِ: «إذا أذنبَ المؤمنُ ذنبًا كانت نكتةٌ سوداءُ في قلبِه، فإنْ تابَ ونزَعَ واستغفرَ صُقِلَ قلبُه، وإنْ زادَ وأذنبَ حتَّى يُغلَقَ قلبُه، فذلك الرَّينُ الذي قال الله: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[2].

وقال عليه السَّلامُ: «مَن تركَ جمعةً اسودَّ ثلثُ قلبِه، فإنْ تركَ جمعتَين اسودَّ ثُلثا قلبِه، فإنْ تركَ ثلاثَ جمعٍ طُبِعَ على قلبِه»[3]، وأشارَ إلى أنَّ هذا الطَّبعَ سوادُ كلِّ القلبِ.

والقلبُ: الفؤادُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٦٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤) وصححه، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩٠٨).

(٣) لم أجده هكذا، وروى الإمام أحمد في «المسند» (١٥٤٩٨)، وأبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠) وحسنه، والنسائي (١٣٦٩)، عن أبي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ وَكَانَتْ له صُحْبَةٌ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَن تَرَكَ ثلاثَ جُمَعٍ تَهَاونًا بها طَبَع الله على قلبِهِ».

وقيلَ: بَضْعةٌ[١] في الفؤادِ مُعلَّقةٌ بالنِّياطِ، وكأنَّه أخصُّ منَ الفؤادِ، وسُمِّي به لتقلُّبِه، ومنه: «القَليبُ» للبئرِ؛ لانقلابِ الماءِ إليها، ومآبه: قلبُه؛ أي: انقلابٌ عن حالِ الصِّحَّةِ.

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ أي: وختَمَ على سمعِهم، وهو مصدرٌ ولهذا وُحِّدَ؛ إذ المصدرُ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، تقولُ: أعجبَني ضربُكم زيدًا.

وقيلَ: أي: وعلى مواضعِ سمعِهم، فحُذِفَ المُضافُ، كما يُقالُ: تكلَّم المجلسُ؛ أي: أهلُ المجلسِ.

وقيلَ: قد يُكتفَى منَ الجمعِ بالواحدِ، كقولِه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ والبصرُ: العينُ، وتبصَّرْتُ الشَّيءَ؛ أي: رمَقْتُه، والغِشاوةُ: الغِطاءُ، ومنه: غُشِيَ على المريضِ، وغاشيةُ السَّرجِ.

والكسرُ أفصَحُ في الغِشاوةِ منَ الضَّمِّ والفتحِ؛ لأنَّ ما كان مُشتمِلًا على شيءٍ فهو مبنيٌّ على «فِعالة» كالقِلادةِ والعِمامةِ والخِياطةِ المُشتملةِ على تلك الصِّفةِ[٢] وكالقِصارةِ.

وقُرِئَ: (غَشْوَةً) من غيرِ ألفٍ وبالفتحِ[٣]؛ أي: وختَمَ عليها بغَشْوةٍ، فحُذِفتِ الباءُ فانتصبَ الاسمُ، أو معناه: وجعلَ على أبصارِهم غَشْوةً.

---

(١) في (أ): «مضغة».

(٢) في (أ): «الصيغة».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١٠)، و«البحر المحيط» (١/ ١٤٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولـم يقُلْ: وعليهم، وهو كقولِه: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [غافر: ٥٢]، فهذه اللّامُ تقتَضي النِّسبةَ[١] فقط.

والعذابُ: ما يَشُقُّ علـى الإنسانِ، وأصلُه: الاستمرارُ، فالعذابُ المرُّ دائـمٌ، وعَذُبَ الماءُ؛ أي: استمرَّ في الحلقِ.

وقيلَ: أصلُه المنعُ، وماءٌ عَذْبٌ؛ أي: يمنعُ العطشَ، وفـرسٌ عَذوبٌ وعاذِبٌ: إذا بقيَ على المعلفِ وامتنعَ عنِ[٢] العلفِ، فالعذابُ يمنَعُ المُعاقَبَ عن مُعاودةِ ما عُوقِبَ عليه.

﴿عَظِيمٌ﴾ لتواصلِ أجزائِه من غيرِ فترةٍ، أو لأنَّ الله تعالى يُحدِثُ في كلِّ جزءٍ ألَـمًا، وهو «فَعيلٌ» منَ العِظَمِ، وهو كثرةُ الأجزاءِ[٣]، ومنه العظمُ، ثمَّ استُعيرَ في الصِّفاتِ فقيلَ: كلامٌ عظيمٌ، وألَـمٌ عظيمٌ. وفيه تنبيهٌ على أنَّ المُؤمِنَ إن عُذِّبَ فليس ذلك عظيمًا.

❊ ❊ ❊

(٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُـه عزَّ وجـلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لـمَّا ذكرَ المؤمنيـن منَ العربِ ومـن أهلِ الكتـابِ، وذكرَ مَـن يُجاهِرُ بالكفـرِ، ذكـرَ المُنافقين أيضًا، و(مِـنْ) هاهُنا للتَّبعيضِ.

و(النّاس) أصلُه: أُناسٌ، فأُدخِلَ عليه لامُ التَّعريفِ فقيلَ: الأُناسُ، فاجتمَعَتْ

---

(١) في (ف): «السببية».

(٢) في (أ): «من».

(٣) في (أ): «الأشياء».

همزتانِ بينَهما ساكنٌ، ولا تحجزُ[1] حجزًا حصينًا، فحُذِفَتِ الثّانيةُ لكثرةِ الاستعمالِ، وأُدغِمَتِ اللّامُ في النُّونِ فقيلَ: النّاسُ.

وقيلَ: الأُناسُ لغةٌ، والنَّاسُ لغةٌ أُخرى، وتصغيرُ أُناسٍ: أُنيسٌ، وتصغيرُ ناسٍ: نُوَيسٌ، فالنَّاسُ منَ النَّوْسِ، وهو الحركةُ، يُقالُ: ناسَ ينُوسُ؛ أي: تحرَّكَ، ومنه: «أَناسَ من حُليٍّ أُذُنيَّ»[2]؛ أي: حرَّكَ، وسُمِّيَ النّاسُ به لحركاتِهم الفِكريَّةِ.

وواحدُ النَّاسِ: إنسانٌ لا من لفظِه، وأصله: إِنسِيانٌ كالحِذْرِيانِ للحَذِرِ، ولهذا يُقالُ في التَّصغيرِ: أُنَيسِيانِ.

وقيلَ: أصلُ الكلمةِ من: آنِسَ يُؤنَسُ؛ أي: أبصرَ؛ لأنَّهم يُؤنَسُونَ بخلافِ الجنِّ المُختَفينَ.

والصَّحيحُ: أنَّ النّاسَ والأُناسَ والإنسَ والأنسَ والإنسِيَّ والأناسيَّ من أصلٍ واحدٍ وإنْ سقطَتِ الهمزةُ في البعضِ، كما أنَّ العِدَةَ والوَعْدَ من أصلٍ واحدٍ وإنْ سقطَتِ الواوُ من أحدِهما.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: نسيَ آدمُ عهدَ الله فسُمِّيَ إنسانًا[3]، وعلى هذا فالهمزةُ زائدةٌ.

﴿مَن يَقُولُ﴾ **﴿مَن﴾** تصلُحُ للواحدِ، ولهذا قالَ: **﴿يَقُولُ﴾**، وتصلُحُ للجمعِ، ولهذا قال: **﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾**.

---

(١) في (أ): «ولا حجز».

(٢) قطعة من حديث أم زرع وأبي زرع، رواه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٤٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥٧).

قوله عز وجل: ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: القيامةِ، سُمِّي آخِرًا لأنَّه آخِرُ يومٍ ليسَ بعدَه ليلةٌ، ولهذا وصفَه بأنَّه عقيمٌ؛ أي: لا ليلَ بعدَه.

وقيلَ: لأنَّه أوَّلُ يومٍ من أيامِ الآخرةِ.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الباءُ مُؤكِّدةٌ، بيَّنَ أنَّ المُنافقَ ليس بمُؤمنٍ على التَّحقيقِ وإنْ أُجرِيَ عليه في الظَّاهرِ أحكامُ المؤمنينَ، وكانَ المُنافقونَ يُظهِرونَ الإيمانَ ليأمَنُوا سيفَ المسلمين، وليطَّلعوا على أسرارِهم وينقُلوها إلى الكفَّارِ، وليغنَمُوا، وسيقَ إلى قلوبِهم أنَّ إتيانَ هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ أصلحُ لهم للجمعِ بينَ الفريقَين، فأطْلَعَ الله نبيَّه عليهم وحذَّرَ المؤمنينَ شرَّهُم.

* * *

(٩) ـ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ الخدْعُ منَ الإخفاءِ، وخَدَعُ الضَّبُّ؛ أي: توارَى، وفي أثرٍ: «خدَعَتِ[١] الضِّبابُ وجاعَتِ الأعرابُ»[٢]؛ أي: قُحِطَ النَّاسُ.

وأخدَعْتُ الشَّيءَ؛ أي: أخفيتُه، ومنه: المِخْدَعُ والأخْدَعانِ، و: «الحربُ خَدْعةٌ»[٣].

---

(١) في (أ): «خادعت».

(٢) قطعة من قصة بين عمر رضي الله عنه وأعرابي ذكرها السيوطي في «جامع الأحاديث» (٢٨٥٠) وعزاها لابن جرير والمحاملي. وانظر: «تهذيب اللغة» (١/ ١١١)، و«المجموع المغيث» (مادة: خدع)، و«النهاية» (مادة: خدع).

(٣) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)، وأبو داود (٤٧٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٣٥٥١)، والإمام أحمد في «المسند» (٦١٦)، من حديث علي. وقد روي عن غير واحد من الصحابة أيضاً.

ومعنى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: يعملونَ عمَلَ المُخادِعِ، لا أنَّ اللهَ يخفَى عليه شيءٌ.

وقيلَ: في ظنِّهم أنَّهم يستُرونَ حالَـهم عنِ الله.

وقيـلَ: أي يستُرونَ عـن المؤمنيـنَ حالَــهم، فذُكِـرَ اللهُ تعظيمًا للأمـرِ كقولِه: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائـدة: ٣٣]؛ أي: أوليـاءَه، وقولِـه: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقـرة: ٢٧٩].

وقيـلَ: أي: يُخادِعـونَ الرَّسـولَ كقولِـه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النسـاء: ٨٠].

وقيلَ: الخَدْعُ مـنَ الفسادِ، ويُقالُ: السُّوقُ خادِعةٌ؛ أي: فاسِدةٌ، والمعنى: يُفسِدونَ بكُفرِهم ما أظهَروا منَ الإيمانِ.

والمُخادَعةُ تقتَضي اثنَين، وكانَ منهم إظهارُ الإيمانِ وإضمارُ الكفرِ، ومِنَ الله معهم إدرارُ النِّعمِ ثمَّ التَّعريضُ للنَّارِ والنِّقمِ، أو كانَ منهم إفسادُ دينِهم، ومِنَ الله تعالى إفسادُ الأمرِ عليهم بالتَّعذيبِ.

وقيلَ: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾؛ أي: يخدَعون، كما يُقالُ: قاتلَه الله؛ أي: قتلَه الله، وباعَدْتَ فُلانًا وإنْ كانَ هو يُريدُ قُربَكَ، كقولِه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ أي: أقسمَ، وفي بابِ المُفاعلةِ ما لا يقتَضي اثنَينِ، كعاقَبْتُ اللِّصَّ، وظاهَرْتُ المرأةَ، وطارَقْتُ النَّعلَ.

﴿وما يُخَادِعُونَ إلا أنفسَهم﴾؛ أي: ما يخدَعُونَ، فأخرَجَه على طريقِ مُطابقةِ اللَّفظِ كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقيلَ: أي: يرجعُ وَبالُ خِداعِهم إليهم.

وقيلَ: يُخادِعُونَ أنفُسَهم بالتَّسويفِ والتَّشكيكِ، والخاطرانِ في القلبِ إذا

تعارَضا جُعِلَت تلك النَّفْسُ كنَفْسَين، ومثلُه قالَ: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ أي: قال لنفسِه: أعلَمْ.

وقُرِئَ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾[1].

﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ نفسُ الشَّيءِ: عينُه وذاتُه.

وقيلَ: سُمِّيتِ النَّفْسُ نفسًا لتولُّدِ النَّفَسِ، كما سُمِّيتِ الرُّوحُ رُوحًا لأنَّ الرَّوحَ منها.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ أي: وما يدرونَ أنَّهم يخدعونَ أنفُسَهم، وأنَّ وبالَه يعودُ إليهم.

وفي الآيةِ ردٌّ على مَن يقولُ: لا كافرَ إلَّا وهو مُعانِدٌ.

والشِّعرُ: العِلمُ، وأصلُه: الشِّعرةُ، كالدِّريةِ والفِطنةِ، فحذَفُوا التّاءَ لكثرةِ الاستعمالِ، وهو كما يُقالُ: هو أبو عُذْرِها؛ أي: عُذْرَتِها، فالشِّعرُ: العلمُ الذي يستنِدُ إلى الحسِّ، وهو منَ الشِّعارِ، وهو ما يلي الجسدَ، ولهذا لا يُطلَقُ في وصفِ الرَّبِّ.

وقيلَ: الشِّعرُ العلمُ الخفيُّ الذي يُستَنبَطُ، من شعارِ القلبِ، ومنه: الشَّاعرُ؛ لدِقَّةِ كلامِه.

***

(١٠) - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ المرَضُ: الظُّلمةُ، فهو إظلامُ الطَّبيعةِ واضطِرابُها.

وقيلَ: المرضُ: الفَسادُ.

---

(١) هذه قراءة عاصم والكسائي وحمزة وابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ١٣٩)، و«التيسير» (ص: ٧٢).

وقيلَ: الضَّعفُ.

وقيلَ: النُّقصانُ.

وهذه المعاني مُتقاربةٌ.

قالَ[١] ابنُ عبَّاسٍ: أي: في قُلوبهم كفرٌ[٢].

وقالَ ابنُ جريرٍ: أي: في اعتقاداتِ قلوبِهم شكٌّ، فحُذِفَ اكتفاءً بذكرِ القلبِ لأنَّه محلُّ الشَّكِّ، كقولِه: «يا خيلَ الله اركَبي»[٣].

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أخبرَ أنَّه يزيدُهم في كفرِهم؛ لأنَّ كفرَ الحالِ إذا انضَمَّ إلى ما سبقَ كان زيادةً، وأيضًا كفرُهم اليومَ بما نزلَ منَ القرآنِ إذا انضمَّ إلى كُفرِهم بما سبقَ كان زيادةً.

وفيه دليلٌ على أنَّ كُفرَهم مخلوقٌ لله تعالى؛ لأنَّ الزِّيادةَ تكونُ ممَّن منه الأصلُ.

وقيلَ: أي: ازدادُوا شكًّا عند نُزولِ القرآنِ، لا أنَّ الله زادَهم، وهذا كقولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]؛ أي:

---

(١) في (أ): «وقال».

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٨٨ و٢٩٠) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شكٌّ، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: شكًّا. ومن طريق الضحاك عنه: المرض: النفاق.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧). وقوله: «يا خيل الله اركبي» رواه هناد في «الزهد» (٢٥)، والكلاباذي في «بحر الفوائد» (١/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٠٦)، من حديث أنس بن مالك. ورواه ابن المبارك في «الجهاد» (١٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٦) من حديث أسير بن جابر.

ازدادُوا، وقولِـه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نـوح: ٦]؛ أي: ازدادوا فِـرارًا عنـد دُعائـي، وتقـولُ: (وعظتُـكَ فمـا زادتـكَ موعِظَتـي إلا شـرًّا).

وقيلَ: مرَضُ قلوبِهم بما كان يتجدَّدُ فيها منَ الغمِّ بانتظامِ أمرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: هذا دعاءٌ عليهم، كما يُقالُ: قاتلَه الله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مُؤلِـمٌ، كالحكيـمِ بمعنـى المُحكـمِ ﴿**بِمَـا كَانُـوا يُكَذِّبُـون**﴾ بالتَّشـديدِ؛ أي: بتكذيبِهـم، ثـمَّ يجوزُ أن يكـونَ (كانَ) صلـةً، ويجوزُ أن لا يكـونَ زيـادةً وصلةً.

والتَّكذيبُ: اعتقادُ كذبِ المُخبِرِ فيما يُخبِرُ.

وقُـرِئَ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ بالتَّخفيـفِ[1]، والكـذبُ: الإخبـارُ عـن الشَّـيءِ بخـلافِ مـا هـو به.

***

(١١) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (إذا) محلُّه النَّصبُ؛ أي: ويومَ قيلَ لهم. والفسادُ: التَّغيُّرُ عن استقامةِ الحالِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: لا تُفسِدُوا أنفُسَكم والخلقَ بالكفرِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ أي: يتوهَّمون أنَّهم مُصلِحون، كما قالوا: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

وقيلَ: قالوا: إنَّما نرتادُ الإصلاحَ بينكم وبينَ اليهودِ.

***

---

(١) هـذه قـراءة عاصـم وحمـزة والكسـائي، وباقي السـبعة بالتشـديد. انظـر: «السـبعة» (ص: ١٤٣)، و«التيسـير» (ص: ٧٢).

(١٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ كلمةُ تنبيهٍ يُستَفتَحُ بها الخطابُ، وأصلُها: (لا)، دخلَتْ عليها ألفُ الاستفهامِ، والألفُ إذا دخلَتْ على النَّفيِ أخرجَتْه إلى معنى التَّقريرِ كقولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠].

﴿هُمُ﴾ تأكيدٌ ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾؛ أي: كلُّ فسادٍ دونَ فسادِهم، فهم المُفسِدونَ.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (لكنْ) استدراكٌ بإيجابٍ بعد نفيٍ، أو نفيٍ بعد إيجابٍ، بيَّنَ أنَّهم غيرُ مُعانِدين.

وقيلَ: أي: ولكنْ لا يشعرونَ ما ينزلُ بهم منَ العقابِ.

***

(١٣) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: صدِّقُوا كما صدَّقَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ، وإنَّما سمَّاهم: النَّاسَ؛ لقِلَّةِ عددِ المُنافقين بالنِّسبةِ إلى مَن آمنَ منَ الأوسِ والخزرجِ، وهو كقولِه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]؛ لأنَّ مَن كانَ لا يُفيضُ من عرفاتٍ قُريشٌ، وكانَ الباقونَ ـ وهم المُعظَمُ ـ يُفيضونَ.

وقيلَ: المؤمنونَ وإنْ قَلُّوا فهم النّاسُ على الحقيقةِ؛ لأنَّهم الذين أعطَوا الإنسانيّةَ حقَّها بالتَّدبُّرِ وتأمُّلِ العواقبِ.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ﴾ هذا استفهامٌ بمعنى الإنكارِ؛ أي: لا نُؤمِنُ ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: الجُهَّالُ.

والسَّفَهُ: نقيضُ الحِلْمِ.

وقيلَ: إضاعةُ العقلِ، فأصلُه الخِفَّةُ، وتسفَّهَتِ[1] الرِّياحُ الشَّيءَ؛ أي: استخَفَّتْه.

وكان الكفَّارُ يقولون: أنُؤمِنُ كما آمنَ سفيهُ بني فُلانٍ؟

وقيلَ: أرادوا بالسُّفهاءِ الأحداثَ، كما قال قومُ نوحٍ: ﴿ما نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لفرطِ جهلِهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم السُّفهاءُ، ودلَّ هذا على أنَّهم ما كانوا مُعانِدين.

وقيلَ: ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ما ينزلُ بهم منَ العقابِ، وتصريحُهم بقولِهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يُنافي المُخادَعةَ والنِّفاقَ، ولكنَّهم قالوا هذا فيما بينَهم، وفهِمَ المؤمنون منهم ذلك بقرائنِ الحالِ، أو أطْلَعَ الله نبيَّه عليه السَّلامُ على ذلك.

وقيلَ: كانوا يُلقونَ ضمائرَهم إلى بعضِ مَن يظنُّونَه منهم، ويكونُ ذلك السّامعُ مُسلِمًا، فكانَ يبلِّغُ النَّبيَّ ﷺ، وكان المُنافقون يُنكِرونَ حينَئذٍ.

* * *

---

(١) في (ف): «وسفهت»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في كتب اللغة والتفسير. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٦٢)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٨٤٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٣١٥)، و«الصحاح» و«اللسان» و«التاج» (مادة: سفه)، و«مجمل اللغة» (١/ ٤٦٣)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (١/ ٩١٩)، و«المحكم» (٤/ ٢٢٢)، و«زاد المسير» (١/ ٣٣). لكن وقع في «الفائق» (٢/ ١٨٢)، و«تفسير الرازي» (٢/ ٣٠٨): «سفَّهت»، ولعله خطأ من الناسخ.

(١٤) ـ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ هذا من تمامِ وصفِهم، ونزلتِ الآيةُ في ابنِ أُبيٍّ وأصحابِه، وذلك أنَّهم لقُوا يومًا أبا بكرٍ وعمرَ وعليًّا رضي الله عنهم، فقال[١]: انظُروا كيفَ أرُدُّ هؤلاءِ السُّفهاءَ عنكم، فأخذَ بيدِ أبي بكرٍ وقالَ: مرحبًا بسيِّدِ بني تيمٍ، الباذلِ نفسَه ومالَه لرسولِ الله، وثانيَ اثنَين في الغارِ، وشيخِ الإسلامِ، ثمَّ أخذَ بيدِ عمرَ فقالَ: مرحبًا بسيِّدِ بني عديِّ بنِ كعبٍ، الفاروقِ القويِّ في دينِ الله، الشَّديدِ الغضبِ لله، الباذلِ نفسَه ومالَه لرسولِ الله، ثمَّ أخذَ بيدِ عليٍّ وقالَ: مرحبًا بسيِّدِ بني هاشمٍ ما خلا رسولَ الله، السّابقِ إلى الهجرةِ، الباذِلِ دمَه ونفسَه لرسولِ الله، ختَنِ رسولِ الله وأخيه، فقالوا: اتَّقِ الله يا عبدَ الله، فقالَ: والله إنِّي لمُؤمنٌ بالله ورسولِه كإيمانِكم، ثمَّ افترقوا، فقال لأصحابِه: كيف رأيتُم؟ فقالوا: لا تزالُ بخيرٍ ما عشتَ، فقال لهم: إذا رأيتُموهم فافعَلوا كما فعلتُ، فرجعَ[٢] المسلمون إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأخبَروه، فنزلَتِ الآيةُ[٣].

﴿لَقُوا﴾؛ أي: رأَوا، يُقالُ: لقيتُه لقاءً ولُقًى ولُقِيًّا ولُقيانًا.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: مع شياطينِهم، يُقالُ: خلَوتُ به، وخلَوتُ إليه، وخلَوتُ معه.

---

(١) في (أ): «فقال عبد الله».

(٢) في (أ): «ورجع».

(٣) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢) من طريق محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٥): محمد بن مروان متروك متهم بالوضع، وسياقه في غاية النكارة.

وقيلَ: ﴿إِلَىٰ﴾ هاهُنا بمعنى «مع»، كقولِه ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ أي: معَ الله.

وقيلَ: أي: إذا انصرَفُوا منَ المُؤمنين إلى شياطينِهم.

وقيلَ: أي: خلَوا لشياطينِهم؛ كما قالَ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧]؛ أي: ليومِ القيامةِ.

﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾؛ أي: إلى مرَدَتِهم وقادَتِهم.

وقيلَ: همُ الكهَنةُ.

والشَّيطانُ: فَيْعالٌ من شطَنَ يشطُنُ؛ أي: بَعُدَ.

وقيلَ: فَعْلان، من شاطَ يشيطُ؛ أي: هلَكَ واحترَقَ، مثلُ: هَيْمان، من هامَ يهيمُ.

والصَّحيحُ الأوَّلُ، تقولُ: نَوًى شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدَّارُ؛ أي: بَعُدَتْ، وشَيْطَنَ مثلُ بَيْطَرَ منَ البَيْطارِ، ومعناه: صارَ كالشَّيطانِ، وكذلك تَشَيْطَنَ، والشَّيطانُ: البعيدُ من مُوافقةِ أمرِ الله.

﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: على ما تعتَقِدونَ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ منَ الهُزْءِ، وهو السُّخريةُ وإظهارُ خلافِ ما يُضمِرُ على جهةِ الاستحقارِ.

قالَ البَجَليُّ: أسوأُ حالًا من هؤلاءِ وأقبحُ مقالًا مَن يقولُ: المُنافقُ مُؤمنٌ، وهم يقولونَ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ لا مُؤمنونَ، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

***

(١٥) ـ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾؛ أي: ضررُ استهزائِهم عائدٌ إليهم.

وقيلَ: يُجازيهم على استهزائِهم، وجزاءُ الشَّيءِ يُسمَّى باسمِ ذلك الشَّيءِ، قالَ الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وفي الخبرِ: «إنَّ الله لا يمَلُّ حتَّى تـمَلُّوا»[1].

واللَّفظُ قد يُقابَلُ باللَّفظِ، والمقصودُ مُقابلةُ الفعلِ بمثلِه في الصُّورةِ والهيئةِ، وعلى هذا يخرجُ قولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقولُه: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقولُه: ﴿فَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقد يكثُرُ اصطِحابُ الشَّيئَينِ فيُسمَّى أحدُهما باسمِ الآخرِ؛ كالعُمَرَين والقمَرَين والأسوَدَين.

وقيلَ: الاستهزاءُ: إظهارُ شيءٍ وإضمارُ غيرِه، والله أظهرَ لهم رفعَ السَّيفِ في الدُّنيا ويُعاقِبُهم في الآخرةِ.

وقيلَ: يُفتَحُ لهم بابٌ منَ الجنَّةِ وهم في النّارِ، فيُدعَونَ إليها، فإذا اقترَبُوا منها بعد مُقاساةِ شدائدَ رُدَّ البابُ في وجوهِهم، وضحِكَ المؤمنونَ منهم، قال الله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤][2]، والمعنى: يستهزِئُ بهم الملائكةُ والمؤمنون.

---

(١) رواه البخاري (٤٣)، ومسلم (٢١٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه بنحوه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠١٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

وقيلَ: من استهزائِه بهم ما يُقالُ لأبي جهلٍ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

ويُقالُ لقومٍ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

وقيلَ: يُحسِّنُ في أعينِهم قبيحَ أفعالِـهم.

وقيلَ: كلَّما أحدَثُوا خطيئةً جدَّدَ الله لهم نقمةً.

وقيلَ: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ أي: يَعيبُهم ويُجهِّلُهم.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾؛ أي: يزيدُهم. والمدُّ: الجذبُ، وهو سببُ الزِّيادةِ، ودجلةُ تمدُّ تيَّارَنا؛ أي: تزيدُ فيها، والمُدَّةُ: الأوقاتُ المُتَزايدةُ إلى غايةٍ؛ أي: نُمهلِهم ونُرجي طولَـهم في الكفرِ؛ ليتضاعَفَ عذابُهم.

والطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحدِّ، يُقالُ: طغَوتُ وطغَيتُ وطُغْوانٌ وطُغْيانٌ، ومنه: ﴿أُهْلِكُوا بالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]؛ أي: بالصَّيحةِ التي طغَتْ على ثمودَ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيَّرون، والعَمِهُ والعامِهُ: المُتحيِّرُ، يقالُ: عمِهَ يعمَهُ عَمَهًا، فالعَمَهُ في الرَّأيِ، والعمَى في البصرِ.

* * *

(١٦) - ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

قولُـه تعالـى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾؛ أي: هـؤلاءِ الذيـن مضـى ذِكرُهـم وهـم المُنافقونَ.

وظاهرُ هذه الآيةِ يدُلُّ على أنَّه كان لهم إيمانٌ فترَكوه:

فقال قومٌ: هذا في قومٍ آمنُوا ثمَّ كفرُوا، ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

وقال قومٌ: كانوا بحيثُ لو أرادوا أن يُؤمِنُوا أمكنَهم ذلك، فلمَّا لـم يفعلوه كانوا

كمَن اشتَرَى الكفرَ بالإيمانِ، والاشتراءُ بمعنى الاستبدالِ، كما قالَ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقد يُقالُ لِـمَن يذكرُ شيئًا وتمسَّكَ بغيرِه: قد اشتَراه.

وقيلَ: الاشتراءُ: الاختيارُ؛ أي: اختاروا الضَّلالةَ على الهدى، والباءُ بمعنى «على» كما يُقالُ: مرَرْتُ بـه وعليه، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ أي: عـلى المِرصادِ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾(١) [آل عمران: ٧٥]؛ أي: على قِنْطارٍ.

وقيلَ: الآيةُ في أهلِ الكتابِ؛ أي: تركوا ما كانُوا فيه منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ قبلَ مبعَثِه، فكفَرُوا بعد المَبعثِ فباعُوا الإيمانَ بالكفرِ.

وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ الآياتِ المُتقدِّمةَ في المنافقين، إلا أن يُقالَ: كانَ في أهلِ الكتاب أقوامٌ نافقُوا أيضًا.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾؛ أي: ما رِبحوا في تجارتِهم، وأُضيفَ الرِّبحُ إلى التِّجارةِ لأنَّ الرِّبحَ يكونُ فيها، وهو كما يُقالُ: رَبِحَ بَيْعُك، وخابَ سعيُكَ، ونامَ ليلي، وقالَ الله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ أي: مكرُكم فيهما، وإنما يُطلَق هذا إذا لـم يُؤدِّ إلى إشكالٍ، ولا يُقالُ: «خسرَ عبدُك» بمعنى خسرتَ في عبدِكَ؛ لأنَّه يُمكِنُ أن يكونَ العبدُ تاجرًا يربحُ بنفسِه.

التَّجـارةُ: التَّصـرُّفُ، يُقـالُ: تَجَـرَ الرَّجـلُ يَتْجُـرُ فهـو تاجـرٌ؛ أي: قلَّـبَ المـالَ لطلـبِ الرِّبـحِ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾؛ أي: التّاجرُ قد يُعذَرُ إذا خسِرَ ولـم يكُنْ مُقَصِّرًا، وهؤلاءِ غيرُ معذورينَ.

* * *

---

(١) في النسختين: «ومنهم من إن تأمنه بقنطار»، وهو خطأ.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ ثمَّ ضربَ مَثَلًا للمُنافقِ، وضربُ المَثَل لتأكيدِ البيانِ، والمَثَلُ والمِثْلُ بمعنًى، كالشَّبَهِ والشِّبْهِ.

﴿اسْتَوْقَدَ﴾ بمعنى: أوقَدَ، مثل «استجابَ» بمعنى: أجابَ.

وقيلَ: ﴿اسْتَوْقَدَ﴾ بمعنى: طلبَ الوَقُودَ، والوَقُودُ: النَّارُ؛ أي: طلَبَ الضِّياءَ بالنّارِ.

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ يُقالُ: أضاءَ الشَّيءُ بنفسِه، وأضاءَه غيرَه، وضاءَتِ النّارُ وأضاءَتْ بمعنًى.

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ نصبٌ؛ أي: أصابَ النَّارُ جوانبَه، و(حولَ): نصبٌ على الظَّرفِ، تقولُ: رأيتُ النّاسَ حولَه وحَوالَيه وحَوالَه، وهو منَ الحولِ الذي هو الانقلابُ.

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ النُّورُ ضدُّ الظُّلمةِ، ونارَ الشَّيءُ وأنارَ واستنارَ بمعنًى، ويُقالُ أيضًا: أنارَ الشَّيءَ؛ أي: أوضَحَه.

أي: مثَلُ المُنافقينَ كمثَلِ الذي أوقدَ نارًا في ليلةٍ مُظلمةٍ، فاستَضاءَ بها، ورأى ما ينبَغي أن يتَّقيَه، وأمِنَ، فانطفأَتْ نارُه فبقيَ مُتحيِّرًا، فهم لـمَّا آمنُوا اعتزُّوا بكلمةِ الإيمانِ وثبتَ لهم أحكامُ المسلمين منَ المناكحِ والتَّوارُثِ والغنائمِ والأمنِ على أنفُسِهم وأولادِهم وأموالِهم، ولكنَّهم يصيرونَ بعد الموتِ إلى العذابِ ويذهبُ نورُهم، ولهذا يقولون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

ثم[1]؛ قيلَ: مثَّل إيمانَهم بالنَّارِ.

---

(١) «ثم» من (أ).

وقيلَ: مثَّل استضاءَتَهم بكلمةِ الإيمانِ باستضاءةِ المُستوقدِ، وحُذِفَ الاستضاءةُ إقامةً للمُضافِ إليه مُقامَه.

وإنَّما قُلنا: هو تشبيهُ الفعلِ بالفعلِ؛ لقولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾، و«الذي» للواحدِ، وقالَ: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ وهو للجمعِ.

وقيلَ: ذَهابُ نورِهم: هتكُ سترِهم، وإطْلاعُ الله المؤمنينَ على سرِّهم، ونظيرُ هذه الآيةِ: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ أي: كدَورانِ أعيُنِ[1] الذي يُغشَى عليه من الموتِ، وقد يقولُ القائلُ: «ما فِعلُكَ إلا كالكلبِ»؛ أي: كفعلِ الكلبِ، وفي الكلامِ إضمارٌ آخرُ؛ أي: فلمَّا أضاءَتْ ما حولَه أطفأَ الله نارَه فذهبَ بنورِه، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه.

وقيلَ: مثَلُهم كمَثَلِ أتباعِ الذي استوقدَ نارًا، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها.

وقيلَ: أي: مثَلُ كلِّ واحدٍ منهم كالذي استوقدَ.

وقيلَ: أرادَ بـ﴿ٱلَّذِى﴾ الجماعةَ.

قالَ القتبيُّ: واحدُه: «اللَّذ»، والتَّثنيةُ: «اللَّذانِ»، والجمعُ: «الّذي»[2]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

---

(١) كذا في النسختين بالجمع، والصواب: «عينا» بالمثنى، أو «عين» بالمفرد للجنس.

(٢) كذا نقل عن ابن قتيبة، والذي نقل غيره عنه قوله: في قولهم: «الذي» لغة أخرى: «اللّذ» بلا ياء فمَن ثنَّى على هذه اللغة قال: «اللَّذا» في الرفع، و«اللَّذَي» في النصب والخفض، و«اللَّذِي» في الجمع. انظر: «شرح أمالي القالي» للبكري (١/ ٣٥).

وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّه لـم يقُلْ: كمثَلِ الذي استوقَدُوا نارًا، إلّا أن يقولَ: وحَّدَ اللَّفظَ لأنَّ «الذي» وإنْ أُريدَ به الجمعُ يُشبهُ الواحدَ.

وقالَ قومٌ: الذي واحدٌ في معنى الجمعِ وليس واحدُه «اللَّذ»؛ لأنَّه لغةٌ شاذّةٌ، بل يجوزُ أن يرِدَ «الذي» بمعنى «الذين»؛ لأنَّه مُبهَمٌ يحتملُ الوجوهَ، وهو كقولِ القائلِ: «أوصَيْتُ[1] بمالي للَّذي غزا وحجَّ»؛ أي: للغازينَ، وعلى هذا قالَ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾؛ لأنَّ لفظَ ﴿ٱلَّذِى﴾ للواحدِ وإنْ أُريدَ به الجمعُ.

﴿بِنُورِهِمْ﴾؛ أي: بنورِ المُستَوقدين.

وقيلَ: إنَّما وحَّدَ «الذي» و«استوقَدَ»؛ لأنَّ المُستَوقِدَ كان واحدًا من جماعةٍ تولَّى الاستيقادَ لهم، فلما ذهبَ الضَّوءُ رجعَ ذهابُه عليهم جميعًا، فقالَ: ﴿بِنُورِهِمْ﴾.

وقيلَ: الآيةُ في قومٍ أسلَمُوا مَقدَمَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ المدينةَ، ثمَّ نافَقُوا كما ذكَرْنا في قولِه: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾.

وقيلَ: نزلَتْ في اليهودِ، اجتمَعُوا بالمدينةِ في انتظارِ خروجِ محمَّدٍ ﷺ، فكانَ إيمانُهم به كالاستضاءةِ بالنَّارِ، فلمَّا بعثَ الله محمَّدًا ﷺ حسَدوه فذَهَبَ نورُهم[2].

وهذا إذا حُمِلَتِ الآيةُ على مُنافقي أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ واردةٌ في المُنافقينَ.

---

(١) في (أ): «أوهبت».

(٢) أورده بنحوه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٣٠) من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ١٣٥ - ١٣٦) عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب وعطاء ويمان بن رئاب.

والظُّلمةُ بعدَ النُّورِ أوحَشُ، وكذلك الكفرُ بعدَ الإيمانِ أفحَشُ، والحسرةُ على المُنافقِ أكثَرُ.

﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡىٌ ﴾ الأصَمُّ: الذي به صَمَمٌ، والجمعُ: الصُّمُّ، والصَّمَمُ: انسِدادُ الأذنِ، ومنه: رمحٌ أصمُّ؛ أي: ليس بأجوفَ، وصخرةٌ صمَّاءُ، والصِّمَامُ: ما يُشَدُّ به رأسُ القارورةِ.

أي: هؤلاءِ الذين خُصَّ ذِكرُهم[١] صُمٌّ؛ أي: ترَكُوا قَبولَ ما يسمَعونَ، ويُقالُ لمَن يسمعُ ولا يعملُ بما يسمعُه[٢]: إنَّه أصمُّ.

والبُكمُ: جمعُ الأبكَمِ، وهو الذي وُلِدَ أخرسَ؛ أي: لا ينطِقُونَ بالحقِّ، والمُرادُ تصامُـمُهم عن الحقِّ، وتعاميهم عن الحقِّ، وعدمُ نُطقِهم بالحقِّ، أو أرادَ نفيَ سمعِ[٣] القلوبِ الذي هو قَبولُ الحقِّ وعدمُ بصيرةِ القلبِ، وفي قراءةِ عبدِ الله: (صُمًّا بُكمًا عُميًا)[٤] على الذَّمِّ، أو على الحالِ؛ أي: تركَهم في ظلماتٍ صُمًّا بُكمًا.

وقالَ ابنُ جريرٍ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡىٌ..﴾ ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ ﴿أو كـ﴾ [مَثَلِ] ﴿صَيِّبٍ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ يُريدُ في الآخرةِ، وقولَه: ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡىٌ ﴾ يرجعُ إلى الدُّنيا[٥].

---

(١) في (أ): «هؤلاء مضى ذكرهم».

(٢) في (أ): «ما يستمعونَ، ويُقالُ لمَن يستمعُ ولا يعملُ بما يستمعه».

(٣) في (أ): «تسمع».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠ ـ ١١).

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٤٥)، وما بين معكوفتين منه.

والباقونَ يقولونَ: لا حاجةَ إلى التَّقديمِ والتَّأخيرِ، ولكن اعترَضَ بينَ المثَلَين قولُه: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾، وهو سائغٌ(١).

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾؛ أي: عن الكُفرِ إلى الإسلامِ.

ثمَّ؛ قيلَ: هذا في قومٍ علِمَ الله أنَّهم لا يُؤمنونَ قطُّ.

وقيلَ: أي: إنَّهم لا يرجعون ما داموا على هذه الصِّفةِ.

* * *

(١٩) ـ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ ﴿ أَوْ ﴾ للإباحةِ؛ أي: مثِّلوهُم إنْ شئتُم بالذي استوقَدَ نارًا، وإنْ شئتُم بالصَّيِّبِ، وإنْ شئتُم بهما، كما يُقالُ: «جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرينَ»، ونظيرُه: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقيلَ: ﴿ أَوْ ﴾ بمعنَى الواوِ، وصارَ إليه ابنُ جريرٍ(٢)، وهو كقولِه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧].

وقالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿ أَوْ ﴾ هاهُنا للفصلِ والتَّمييزِ؛ أي: بعضُهم يُشبِهونَ الذي استَوقَدَ نارًا، وبعضُهم يُشبِهونَ أصحابَ الصَّيِّبِ، ونظيرُه: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ أي: قالَ اليهودُ: كونُوا هودًا، وقالَ النَّصارى: كونُوا نصارى، ومثلُه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤]؛

---

(١) في (أ): «شائع».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٥٤).

أي: جاء بعضَهم بياتًا وبعضَهم وقتَ القيلولةِ[١].

وفيه إضمارٌ؛ أي: كأصحابِ صيِّبٍ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه، وهي قولُه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، والصَّيِّبُ: المطرُ الجَوْدُ، من: صابَ يصُوبُ صَوْبًا.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو اسمٌ لكلِّ ما علا وارتفعَ، وهو من: سَما يسمُو، ويُقالُ للسَّقفِ والسَّحابِ: سماءٌ، وهو جمعُ سماةٍ، وأصلُها: سَماوَةٌ، ولهذا تُؤَنَّثُ، ويجوزُ التَّذكيرُ نظرًا إلى اللَّفظِ.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾؛ أي: في الصَّيِّبِ، أو: في اللَّيلِ، وقد مضى ذكرُ اللَّيلِ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ استيقادَ النَّارِ يكونُ باللَّيلِ، أو: في السَّحابِ، أو: في السَّماءِ، وهو بمعنى السَّحابِ عند مَن يُذكِّرُها.

والظُّلماتُ: جمعُ ظُلمةٍ، وضمَّةُ اللَّامِ على الإتباعِ، ويجوزُ فتحُ اللَّامِ تحريكًا إلى أخفِّ الحركاتِ.

﴿وَرَعْدٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو ملَكٌ يزجُرُ السَّحابَ[٢]، ثمَّ يُسمَّى الصَّوتُ

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٢/ ١٩٩) عن ابن الأنباري، وذكره دون نسبة المرتضى في «الأمالي» (٢/ ٥٤ ـ ٥٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٣٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٩٤) من رواية عكرمة عن ابن عباس وزاد: كَمَا يَنْعِقُ الرَّاعِي بِالْغَنَمِ. ورواه ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (١٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٨)، وابن أبي الدنيا في «العظمة» (٤/ ١٢٨٥)، من رواية أبي مالك عنه وزاد: بالتسبيح والتكبير. ورواه الطبراني في «الدعاء» (٩٩١) من طريق الضحاك عنه وزاد: بصوته. وهكذا رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٦٣)، وابن الجعد في «مسنده» (٢٥٢)، والإمام أحمد في «مسائله» برواية ابنه صالح (٥٨٤)، ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (١٠٦)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٥٧)، عن مجاهد قوله. وهكذا رواه الإمام أحمد في «مسائله» برواية ابنه صالح (٥٨٣) من قول عكرمة. =

الـذي يُوجَـدُ منـه عند السَّـوقِ باسـمِه، فالمعنـى: فيه ظُلُمـاتٌ وصـوتُ الرَّعدِ.

وقيلَ: الرَّعدُ صوتُ اصطِكاكِ أجرامِ السَّحابِ.

وقال أبو الجلدِ: هو ريحٌ تختنقُ تحتَ السَّماءِ وفوقَ السَّحابِ، وهو رجلٌ من أهلِ هَجَرَ، سألَه ابنُ عبّاسٍ عن الرَّعدِ فكتَبَ في جوابِه هذا (١).

﴿وَبَرْقٌ﴾ قـال علـيٌّ: الرَّعـدُ ملَـكٌ، والبَـرقُ مخاريـقُ بأيـدي الملائكـةِ مـن حديـدٍ (٢).

وقال ابنُ عبّاسٍ: البرقُ سوطٌ من نورٍ يضرِبُ به الملَكُ السَّحابَ (٣).

= وقد روي هذا عن ابن عباس مرفوعاً، رواه الترمذي (٣١١٧) وحسنه، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٤)، من طريق سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، قال: أَقبلتْ يهودُ إلى النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أَخبِرنا عن الرعدِ ما هو؟ قال: «مَلَكٌ من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب معه مخاريقُ من نارٍ يَسوقُ بها السحابَ حيث شاء الله» فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسمعُ؟ قال: «زَجْرُه بالسحاب إذا زجره حتى يَنتهيَ إلى حيث أُمر» قالوا: صَدَقْتَ.

قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٨/ ٥٨٨): جمهور أهل العلم من أهل الفقه والحديث يقولون: الرعدُ ملكٌ يزجرُ السحاب، وقد يجوزُ أن يكون زجرُه لها تسبيحًا لقول الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرَّعْدِ: ١٣].

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١)، و«زاد المسير» (١/ ٨٢). وقول أبي الجلد مقتصر على: الرعد ريح، واللفظ بتمامه هو للطبري قدم به لرواية أبي الجعد. وقال ابن الجوزي: واسم أبي الجلد: جيلان بن أبي فروة البصري، وقد روى عنه قتادة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «العلل» (٥٦٣٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣)، كلاهما بلفظ: «الرعد ملك والبرق ضربه السحاب بمخراق من حديد».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣) بلفظ:... يَزُجُّ به المَلَكُ السَّحابَ.

وقال مُجاهدٌ: مَصْعُ مَلَكٍ[1]، المَصْعُ والمِصاعُ: المُجالَدةُ بالسُّيوفِ، وهذه الألفاظُ مُتَقاربةٌ.

وقيلَ: هو ما ينقدحُ من اصطِكاكِ أجرامِ السَّحابِ.

وقيلَ: ما ينقدِحُ منَ الماءِ عندَ نُزولِه منَ السَّحابِ.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ هي جمعُ صاعقةٍ، والصَّاعقةُ والصَّعقةُ: الصَّيحةُ يُغشَى منها على مَن يسمَعُها أو يموتُ، ومنه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ١٣]، وأصْعَقَتْه الصَّيحةُ؛ أي: قتَلَتْه.

وعُنِيَ بالصَّواعقِ هاهُنا: صوتُ الرَّعدِ، ولهذا جعلوا الأصابعَ في الآذانِ.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: لحذرِ الموتِ، وانتصَبَ لأنَّه مفعولٌ له.

وقيلَ: نُصبَ على المصدرِ[2]؛ أي: يحذَرُونَ حذَرًا.

وقيلَ: على التَّفسيرِ، كقولِه: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي الآيةِ وصفُ المُنافقينَ بالجُبْنِ، كالذي يجعلُ إصبعَه في أُذُنِه[3] من خوفِ الرَّعدِ، فهم لخوفِ المسلمينَ يأتونَهم من وجهٍ، ومن خوفِ[4] المشركينَ يأتونَهم من وجهٍ، وهو كقولِه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مُهلِكُهم، وأُحيطَ بفُلانٍ؛ أي: قرُبَ هلاكُه.

وقيلَ: عالِـمٌ بهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٥).

(٢) في (أ): «المصدرية».

(٣) في (أ): «أصابعه في آذانه».

(٤) في (أ): «ولخوف».

وقيلَ: جامِعُهم في النّارِ، كقولِه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، والمعنى على هذا إنْ قدَّرتَه: مُحيطةٌ بهم، شُبِّه القرآنُ بالمطرِ لِـمَا فيه من حياةِ القلوبِ، وشُبِّه ما فيه منَ الوعيدِ بما في المطرِ منَ الظُّلماتِ، وما خُوِّفوا به منَ العذابِ بالرَّعدِ، وحُجَجُ القرآنِ بالبرقِ، وجَعْلُ المُنافقينَ أصابعَهم في آذانِهم لئَلّا يسمَعُوا القرآنَ خوفًا من مَيلِهم إليه، أو خَوْفًا من افتِضاحِهم، بجَعْلِ الإصبعِ في الأذُنِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ «كادَ»: قرُبَ منَ الفعلِ ولـم يفعَلْ، و«ما كادَ»: قَرُبَ من تركِ الفعلِ وقد فعَلَ.

﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ أي: يختَلِسُ، يُقالُ: خطِفَ يخطَفُ خَطْفًا، مثلَ: سمِعَ يسمَعُ سمْعًا، وخطَفَ يخطِفُ، مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾؛ أي: أضاءَ لهم الطَّريقَ، ويجوزُ أن يكونَ لازِمًا؛ أي: كلَّما ظهرَ لهم الضَّوءُ.

﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أرادَ بالسَّمعِ المصدرَ فوحَّدَ.

وقيلَ: أرادَ به الجمعَ فاكتَفَى منه بالواحدِ، وهو كقولِه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ أي: لو شاءَ أذهَبَ سمعَهم[١] وبصرَهُم بالبرقِ كما أذهَبَ سمعَهم وبصرَهم الباطنَينِ حتَّى صاروا صُمًّا بُكْماً[٢] عُمْيًا.

---

(١) في (أ): «لو شاء لذهب بسمعهم».

(٢) «بكماً» من (أ).

والمُرادُ: تكادُ حُجَجُ القرآنِ تخطَفُ قلوبَهم، أو تدخُلُ صدورَهم، أو: إذا قُرِئَ عليهم شيءٌ مـمَّا يُحبُّونَ صدَّقُوا، وإن سمِعُوا شيئًا مـما يكرَهُونَ وقَفُوا عنه، أو: إذا أصابُوا مغنَمًا رغِبُوا في الإسلامِ، وإنْ أصابَتْهم نائبةٌ تحيَّروا.

وقيلَ: شبَّهَ الإيمانَ بالصَّيِّبِ وفيه النَّفعُ، وشبَّهَ كُفرَهم بما في الصَّيِّبِ منَ الظُّلماتِ، وما في الإيمانِ من الزَّجرِ عن الكُفرِ بالرَّعدِ، ودلائلَ القرآنِ بالبرقِ.

قال[1] ابنُ مسعودٍ وابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما: هرَبَ رجُلانِ من أهلِ المدينةِ من رسولِ الله ﷺ إلى المشركينَ، فأصابَهما هذا المطرُ في الطَّريقِ ليلةً، فقالا: إنْ أصبَحْنا أتَيْنا محمَّدًا فنضَعُ أيدِيَنا في يدِه، فأصبَحا فأتَيا وأسلَما، وضرَبَ الله شأنَهما مثلًا لمُنافقي المدينةِ[2].

---

(١) في (أ): «وقال».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٨) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة. وقد قال الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٧٥) عن هذا الإسناد: ولست أعلمه صحيحًا، إذ كنت بإسناده مرتابًا.
قال الشيخ أحمد محمد شاكر في حاشية الطبري: وحق لأبي جعفر رحمه الله أن يرتاب في إسناده، فإن هذا الإسناد فيه تساهل كثير من جهة جمعِ مفرَّق التفاسير عن الصحابة في سياق واحد تجمعه هذه الأسانيد، فإذا كان الأمر في تفسير معنى آية كان سهلًا ميسورًا قبوله، إذ يكون رأيًا أو آراء لبعض الصحابة في معنى الآية، وما في ذلك بأس. أما إذا ارتفع الخبر إلى درجة الحديث، بالإخبار عن واقعة معينة أو وقائع كانت على عهد رسول الله ﷺ، من أسباب لنزول بعض الآيات، أو نحو ذلك مما يلحق بالحديث المرفوع لفظًا أو حكمًا، كان قبول هذا الإسناد ـ إسناد تفسير السدي ـ محل نظر وارتياب، إذ هو روايةٌ غير معروف مصدرها معرفة محددة: أيُّ هؤلاء الذي قال هذا، وأيهم الذي عبر عنه باللفظ الذي جاء به؟ نعم، إن ظاهره أنه عن الصحابة: إما ابن عباس، وإما ابن مسعود، وإما ناس من أصحاب النبي ﷺ، فقد يقول قائل: إن مرجع الرواية فيه إلى الصحابة، وسواء =

(٢١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وجهُ النَّظمِ: أنَّه ذكرَ أصنافَ الكفَّارِ ثمَّ خاطبَ جميعَ المُكلَّفين بدُعائِهم إلى عبادةِ الله.

وقيلَ: خاطبَ المُشركينَ فدَعاهُم إلى تركِ عبادةِ الأوثانِ، وبيَّنَ أنَّ عبادةَ مَن يعتَرفونَ بأنَّه خالقُ السَّماواتِ والأرضِ أولى، وكان قومٌ منهم يعتَرفون بأنَّ خالقَ السَّماواتِ والأرضِ هو الله.

ويجوزُ أن يكونَ هذا خطابًا لمَن لا يُؤمِنُ بذلك، ولكنَّه يُريدُ: اعبُدوا الله الذي لو تأمَّلْتُم أدنَى تأمُّلٍ لعرَفتُم أنَّه خالقُكم.

قال علقمةُ: كلُّ آيةٍ أوَّلُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنَّما نزلَتْ بمكَّةَ، وكلُّ آيةٍ أوَّلُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنَّما نزلَتْ بالمدينةِ[1].

= أعرف الصحابي الراوي أم أبهم اسمه، فإن ذلك لا يخرجه عن رواية الصحابة، وجهالة الصحابي لا تضر؟ ولكن سياق هذه الروايات المطولة المفصلة في التفسير وفي الحوادث المتعلقة بأسباب النزول، مثل الرواية التي هنا في هذا الموضع، مع إعراض أئمة الحديث الذين خرجوا الروايات الصحيحة والروايات المقبولة مما هو دون الصحيح عن إخراج هذه الرواية ونحوها، وإعراض مؤرخي السيرة عن روايتها أيضًا، كل أولئك يوجب الريبة في اتصال مثل هذه الرواية، وفي الجزم بنسبتها إلى الصحابة، إذ لعلها مما أدرج في الرواية أثناء الحديث بها، والاحتياط في نسبة الحديث المرفوع وما في حكمه واجب.

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٦٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢)، عن علقمة، وصحح إسناده الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٢٤٠) وقال: علقمة هو ابن قيس أحد كبار التابعين.

وهذا يُنافي ما قدَّمْنا من أنَّ هذه السُّورةَ كلَّها مدنيّةٌ.

و«يا» حرفُ نداءٍ، و«أيُّ» اسمٌ مُبهَمٌ مبنيٌّ على الضَّمِّ لأنَّه مُنادًى مُفردٌ، ولا يكونُ «أيُّ» إلا مُضافًا، فعُوِّضَ عن الإضافةِ «ها» فقيلَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ أي: اخضَعُوا له بالطّاعةِ، وفي قولِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنه: وحِّدوه[1]؛ أي: أفرِدُوا الطّاعةَ له دونَ الأوثانِ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾؛ أي: أوجَدَكم، والخلقُ في اللُّغةِ: التَّقديرُ، ومنه يُقالُ للإسكافِ: خالقٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وخلَقَ الذينَ من قبلِكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلَّ» كلمةُ ترجيةٍ وتطميعٍ؛ أي: كونُوا على رجاءٍ أن تتَّقوا بعبادتِكم عقوبةَ الله، وهذا كقولِه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وقيلَ: «لعلَّ» بمعنى «كي»، تقولُ: أعِرْني هذه الدّابّةَ لعلِّي أركبُها؛ أي: كي أركبَها.

وقيلَ: معنى الآيةِ: اعبُدوا ربَّكم فلا تُشرِكُوا به؛ فإنَّ مَن تجنَّبَ الشِّركَ كان حرِيًّا أن يتَّقيَ المعاصيَ الأُخرَ، فيرجعُ قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إلى اتِّقاءِ المُحرَّماتِ.

وقيلَ: معناها: خلَقَكُم لتتَّقوا؛ أي: ليأمُرَكم بالتَّقوى، كقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

***

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٨٥).

(٢٢) - ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ذكَّرهم عظيمَ نِعَمِه إذ جَعَل لهم الأرضَ فراشاً، والأرضُ: مُستقَرُّ الحيوانِ، ويُقالُ لقوائمِ البعيرِ: الأرضُ.

﴿فِرَٰشًا﴾: بساطًا، والفَرْشُ: البَسْطُ، ومنه: الفَراشُ الذي يطيرُ؛ لانبِساطِه في الهواءِ، والفَرْشُ: صِغارُ الغنمِ[١]؛ لانبِساطِها على الأرضِ.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ أي: سَقْفًا.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قيل: أرادَ بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هاهُنا: السَّحابَ، وقيلَ: أي: من نحوِ السَّماءِ، فحُذِفَ المُضافُ، وعنَى بالماءِ: المطرَ.

وأصلُ الماءِ: «ماه» فثقُلَت الهاءُ مع السّاكنِ قبلَها فقُلبت مَدَّةً، ولهذا تقولُ: مُوَيهٌ ومياهٌ وأمواهٌ، ومنه: ماهَتِ البئرُ وأماهَتْ تَماهُ وتَمُوه مَوْهًا؛ أي: ظهرَ ماؤُها.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماءِ على حكمِ العادةِ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ هي جمعُ «الثَّمرةِ»، وهي حملُ الشَّجرةِ، والمُرادُ هاهُنا: كلُّ ما تُنبتُه الأرضُ ممّا يُنتَفَعُ به.

﴿رِزْقًا﴾ مضى معنى الرِّزقِ.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هي جمعُ «النِّدِّ»، وهو المِثْلُ، من قولِهم: نَدَّ؛ أي: نفَرَ، ويُطلَقُ على الضِّدِّ، وفي التَّفاسيرِ: فلا تجعلُوا لله أكْفاءً منَ الرِّجالِ تُطيعُونَهم في معصيةِ الله.

وقال عكرمةُ: هو كقولِك: لولا الكلبُ لدخَلَ اللِّصُّ دارَنا[٢].

---

(١) في (أ): «النعم».

(٢) ذكره الراغب الأصفهاني في «تفسيره» (١/ ١١٤)، وابن رجب في «فتح الباري» (١/ ١٣٤) عن =

وقيلَ: عنَى بالأندادِ: الآلهةَ التي عبَدُوها من دونِ الله.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ خالقَكم هو الله، وهو خطابٌ لمَن اعترفَ بذلك.

وقيلَ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو تأمَّلْتُم أدنى تأمُّلٍ أنَّ هذه الأصنامَ لم تخلُقِ السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما.

وقيلَ: أي: ﴿وَأَنتُمْ﴾ عُقَلاءُ ألِبّاءُ، ﴿تَعْلَمُونَ﴾ مصالحَ أمورِكم، فكيفَ تعبُدون ما لا يضرُّ ولا ينفعُ؟!

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ وجهُ النَّظمِ: أنَّه احتَجَّ عليهم في إثباتِ التَّوحيدِ أوَّلًا، ثمَّ احتجَّ في إثباتِ النُّبوَّةِ أيضًا بهذه الآيةِ، ثمَّ قولُه: (إنْ كنتُم كذا) لا يدُلُّ على أنَّه تعالى لـم يكُنْ عالِـمًا بأنَّهم في ريبٍ أم لا، لكنَّه كما تقولُ: إن كنتَ إنسانًا فافعَلْ كذا.

وقيلَ: ﴿إنْ﴾ بمعنى «إذ» كقولِه: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: إذ كنتُم مُؤمنينَ، فهو خطابٌ للمُشركينَ المُتحيِّرين في أمرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، والذينَ[(١)] أخبرَ عنهم بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وهؤلاءِ قومٌ ما كانوا يقطَعون بكذبِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، بل كانوا مُتحيِّرينَ.

= ابن عباس رضي الله عنهما.

(١) في (أ): «الذين».

ويجـوزُ أن يكـونَ خطابًـا للقاطِعيـن بكذبِـه؛ أي: لا ينبَغـي أن تقطَعُـوا بـه مع المُعجِزاتِ.

ويجـوزُ أن يكـونَ خطابًـا للمُعانديـن؛ أي: لا ينبَغـي أن تُعانِـدُوا لعجزِكم عن مُعارضتِـه فـي القرآنِ.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ قيـلَ: مـن سُـوْرِ البنـاءِ، وهـو حائـطُ المدينـةِ، يُقالُ: السـورُ، والواحـدةُ[1]: سُـورةٌ، كما يُقـالُ: التَّمرُ، والواحـدةُ[2]: التَّمرةُ، والأصلُ فيـه الرِّفعةُ؛ لأنَّ الجـدارَ يُرفَـعُ شـيئًا فشـيئًا، ويُقـالُ فـي الجمـعِ أيضًـا: «سُـوَرٌ» مثـل: صُـورةٍ وصُـوْرٍ وصُوَرٍ.

فقَدْرُ السُّورةِ منَ القرآنِ شرَفٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، أو رِفعةٌ[3]؛ لوقوعِ التَّحدِّي به، وكونِه مُعجزةً، وهو شرفٌ لمَن حفِظَه وقرأه. هذا قولُ البصريِّينَ.

وقالَ الكوفيُّونَ: ليس هذا من سورِ البناءِ، بل هو من سُؤْرةِ الشَّرابِ، وهي بَقيَّتُه، فتُركتِ الهمزةُ لكثرةِ الجرَيانِ في الكلامِ، يُقالُ: أسْأَرْتُ الماءَ في الإناءِ.

وسُمِّيتِ السُّورةُ سورةً لأنَّها أقلُّ ما وقعَ به التَّحدِّي.

وإنَّما فُصِّلَ القرآنُ على السُّورِ ليكونَ أنشطَ للقارئِ إذا خرجَ من سورةٍ إلى سورةٍ، ولتختَصَّ كلُّ سورةٍ بنَظْمٍ مخصوصٍ.

﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ قيلَ: «مثل» زائدٌ؛ أي: بسورةٍ منَ القرآنِ.

---

(١) في (ف): «يُقالُ للواحدِ: سورٌ، وللواحدةِ».

(٢) في (ف): «وللواحدة».

(٣) في (أ): «ورفعة».

وقيلَ: من مثلِ محمَّدٍ؛ لأنَّه جرَى ذِكرُه في قولِه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، أي: من رجلٍ أمِّيٍّ لم يتوسَّط العلماءَ، ولم يقرأ الكتُبَ.

وقيلَ: أي: من مثلِ القُرآنِ، فـ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ التَّحدِّيَ وقعَ ببعضِ القرآنِ.

وقيلَ: ﴿مِن﴾ للجنسِ، كقولِه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقيلَ: ﴿مِن﴾ صلةٌ كقولِه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ أي: أبصارَهم، فيكونُ ﴿مِن﴾ للتَّأكيدِ، وهذا كما قالَ: ﴿فأتوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ أي: لا يقدرونَ على الإتيانِ بمثلِ هذا الكلامِ في نظمِه العجيبِ وفصاحتِه وإخبارِه عن الغيبِ، فليس للقرآنِ مثلٌ في مقدورِ البشرِ.

وقال قومٌ: في قدرةِ البشرِ ذلك، ولكن صُرِفَتِ الدَّواعي عنه، وهو وجهُ الإعجازِ، والرَّدُّ على هؤلاءِ يُذكَرُ في فنٍّ[١] آخرَ منَ العلمِ.

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾؛ أي: استعينُوا[٢] بهم، يُقالُ: دَعوتُه؛ أي: استغثْتُ[٣] به.

والشُّهداءُ: جمعُ شهيدٍ، وهو المُشاهدُ، كالجليسِ بمعنى المُجالسِ.

وقيلَ: الشَّهيدُ بمعنى الشّاهدِ، كالعليمِ بمعنى العالمِ؛ أي: ادعوا أُناسًا يشهدونَ لكم على[٤] أنَّ ما أتيتُم به مثلُ القرآنِ، وقد صُرِفَتِ الدَّواعي عن هذه

---

(١) في (أ): «قول».

(٢) في (أ): «استغيثوا».

(٣) في (أ): «أستغيث».

(٤) «على» من (ف).

الشَّهادةِ؛ لأنَّه لم يُؤتَ بمُعارضةٍ إلّا وشهدَ المُخالِفُ والمُؤالِفُ أنَّه ركيكٌ.

وقيلَ: الشَّهيدُ بمعنى المشهودِ، و«فعيلٌ» بمعنى «مفعولٍ» كثيرٌ؛ أي: استَعينُوا بآلهتِكم، وآلهتُهم كانت مشهودةً لهم؛ لأنَّهم كانوا يَشهَدونَها ويَحضُرونَها، أو أرادَ: واستَعينُوا بأعوانِكُم في تكذيبِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا يُشهِدُونَهم ويرجعونَ إليهم في المُهمَّاتِ.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غيرِ الله، كقولِه: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]؛ أي: غيرَ العرضِ منَ الثَّناءِ وغيرِه.

وقال صاحبُ «النَّظمِ»[(١)]: معنى الآيةِ: فأتُوا بسورةٍ منَ القرآنِ[(٢)] من غيرِ الله، واستَعينُوا بمَن شئتُم، ونظيرُه: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣]؛ أي: وأتوا بعشرِ سُورٍ[(٣)] من دونِ الله وادعُوا مَن استطعتُم، وفيه بيانُ أنَّ محمَّداً يأتي بالقرآنِ من عندِ الله.

* * *

(٢٤) ـ ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾؛ أي: فإنْ عجزتُم ـ ونحنُ نعلَمُ أنَّكم عاجزونَ ـ

---

(١) «نظم القرآن» لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني الجماجمي، كان يسكن بجرجان بباب الخندق في سكة تعرف بجماجمو. انظر: «تاريخ جرجان» (ص: ١٨٧)، و«الأنساب» للسمعاني (٢/ ٨٠). قلت: وهذا الكتاب قد نقل منه جمع من أئمة التفسير منهم الثعلبي والواحدي والبغوي وأبو حفص النسفي والرازي والقرطبي وأبو حيان وغيرهم.

(٢) في (أ): «من مثله أي».

(٣) بعدها في (أ): «من مثله مفتريات».

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ كلامٌ مُعترضٌ، وهو إخبارٌ عن الغيبِ فكانَ كما أخبرَ، وإذا بانَ عجزُهم عن المُعارضةِ ولزمَت الحجَّةُ فليس بعد لزومِ الحجَّةِ إنْ أصرَّ المُنكرُ على الإنكارِ إلا العذابُ، فلهذا قال:

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ والوَقودُ: الحطبُ، والحجارةُ: جمعُ حجرٍ، قالَ ابنُ عبّاسٍ يعني: حجارةَ الكبريتِ؛ لأنَّها أشدُّ اتِّقادًا[1].

﴿أُعِدَّتْ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الجنّةَ والنّارَ مخلوقتانِ الآنَ؛ لأنَّ المُعَدَّ ينبغي أن يكونَ موجودًا، ثمَّ هي الآنَ مُتَّقدةٌ بغيرِ النّاسِ، وغدًا تتَّقِدُ بالكفّارِ، والإعدادُ: الادِّخارُ.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ هو كما يُقالُ: هذه الدّارُ أُعِدَّتْ للأميرِ، وإنْ كانَ يدخلُها حشمُه أيضًا، فالإضافةُ للكفَّارِ[2] بمعنى: أنَّه الذي يخلدُ فيها، أو إشارةٌ إلى دركةٍ مخصوصةٍ بالكافرينَ، ولا وقوعَ لقولِ المُرجئةِ: أنَّ المؤمنَ لا يدخلُ النّارَ؛ لنصوصٍ وردَتْ في دخولِ العصاةِ النَّارَ، ولم يقُلْ: أُعِدَّتْ لكم؛ لعلمِه بأنَّ قومًا منهم يُؤمنون.

* * *

(٢٥) - ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لـمَّا ذكرَ جزاءَ الكافرينَ ذكرَ جزاءَ المُؤمنين أيضًا فقالَ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، والتَّبشيرُ: الإخبارُ بما يظهرُ أثرُه على البشرةِ، ثمَّ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) عن ابن عباس وابن مسعود وابن جريج.

(٢) في (أ): «إلى الكفار».

الغالبُ أن يُستعملَ في السُّرورِ، وقد يُستعملُ في الغمّ كقولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الأعمالَ الصّالحاتِ، فحُذِفَ الموصوفُ.

والجنّةُ: الحديقةُ، سُمِّيت بها لاجتنانِ أرضِها بالأشجارِ، ومنه: جَنَّ عليه اللَّيلُ، وأجنَّه، وجنَّتِ الرِّياضُ؛ أي: كثُرَ نبتُها والتَفَّ، ومنه: المِجَنُّ والجنونُ والجَنانُ والجَنينُ، والـجَنَنُ: القبرُ.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: تجري من تحتِ أشجارِها؛ إذ لا نزهةَ في الماءِ المُستترِ بالأرضِ، وفي الخبرِ: أنهارُ الجنَّةِ تجري في غيرِ أُخدود[1].

ثمَّ النَّهرُ لا يجري، والماءُ فـي النَّهرِ يجري، وقولُه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ توسُّعٌ.

وقيلَ: تجري الأنهارُ غدًا على خلافِ العادةِ.

والأنهارُ: جمعُ النَّهرِ، يُقالُ: نَهْرٌ ونَهَرٌ، وسُمِّي به لسعتِه، ومنه: النَّهارُ؛ لضيائِه وانشراحِ البصرِ فيه، ومنه: أنهرَتِ العينُ.

﴿كُلَّمَا﴾ هي أداةٌ للتَّكرارِ ﴿رُزِقُوا مِنْهَا﴾؛ أي: منَ الجنّةِ، أو من أشجارِ الجنّةِ.

﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ ﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ. وقيلَ: صلةٌ؛ أي: ثمرةً.

﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: أوَهـذا الـذي رُزِقْنـا مـن قبـلُ؟ كقولِـه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أي: أوَتلكَ نعمةٌ؟

---

(١) رواه الثوري في «تفسيره» (ص: ٢٨٠)، ومن طريقه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٦٧)، وهناد في «الزهد» (١٠٤)، من قول مسروق.

وقيلَ: قالوا ذلك في ظنِّهم؛ أي: هذا الذي رُزِقْنا من قبلُ في الدُّنيا؛ أي: من قبلِ هذه المدَّةِ في الجنّةِ؛ لأنَّ ثمارَ الجنَّةِ كلَّما نُزِعَ منها شيءٌ عادَ كما كانَ.

وقيلَ: أي: هذا الذي وُعِدْنا في الدنيا أنَّه رِزقُنا في الجنّةِ.

وقيلَ: هذا من فضلِ الله كما أنَّ الأوَّلَ من فضلِ الله.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: يُشبِهُ البعضُ البعضَ في أنَّ الجميعَ من فضلِ الله.

وقيلَ: مُتشابهًا في اللَّونِ والصُّورةِ، فيقولُ العبدُ: هو الذي أُتيتُ به من قبلُ، فيقولُ الملَكُ: كُلْ فاللَّونُ واحدٌ والطَّعمُ مُختلفٌ[1].

وقيلَ: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾؛ أي: يُشبِهُ ثمرةَ الدُّنيا ولكنّه أجوَدُ، أو يُشبِهُ ثمرَ الدُّنيا في الاسمِ والجنسِ، حتَّى قال ابنُ عبّاسٍ: لا يُشبِهُ ما في الجنّةِ ما في الدُّنيا إلا في الاسمِ فقط[2].

وقيلَ: ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾ أي: خيارًا لا رَذْلَ فيه.

وقيلَ: أي: يُؤتَونَ به على الدَّوامِ لا يُرَدُّون منَ الأعلى إلى الأدنَى.

وقيلَ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وأُتوا به مُتشابهًا، فقالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قبلُ.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ هي جمعُ «زَوجٍ» و«زَوجةٍ»، وشكلُ كلِّ شيءٍ زَوجُه.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: منَ الأذَى والقذَرِ، ومساوئِ الأخلاقِ، وآفاتِ الشَّيبِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٧)، من قول يحيى بن أبي كثير.

(٢) رواه هناد في «الزهد» (٣ و٨)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٦) (٢٦٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢).

ثمَّ قيلَ: أرادَ زوجاتِهم منَ الآدميّاتِ. وقيلَ: منَ الحورِ العينِ.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: دائمونَ؛ لأنَّ تمامَ النِّعمةِ بالدَّوامِ.

* * *

(٢٦) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ لمَّا ضربَ للمُنافقينَ المثَلَينِ بيَّنَ أنَّ الله تعالى يُبالغُ في تقريرِ الحججِ بما يكونُ أوقعَ في القلوبِ ولو بضربِ الأمثالِ.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ وابنُ مسعودٍ: سببُ نزولِ[1] الآيةِ أنَّ الله لِـمَّا ضرَبَ المثَلَين قالوا: إنَّ الله أجَلُّ من أن يضربَ هذه الأمثالَ[2].

وقيلَ: لمَّا ذكرَ الله الذُّبابَ والعنكبوتَ قالتِ اليهودُ: لا يُشبِهُ هذا كلامَ الله، فنزلَتْ هذه الآيةُ[3].

والاستِحياءُ منَ الحياةِ، وحياءُ المرءِ من قوَّةِ حيائِه لشِدَّةِ علمِه بمواقعِ العيبِ؛ أي: لا يحلُّ ضَرْبُ المثَلِ بالبعوضةِ محلَّ ما يُستَحيَى منه.

وقيلَ: إنَّهم قالوا: إنَّ الله ليَستَحيي أن يضربَ المثَلَ بالذُّبابِ والعنكبوتِ،

---

(١) بعدها في (أ): «هذه».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٢٣) عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٤٢٤) عن قتادة، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٨ ـ ٦٩) عن السدي وقتادة، ثم قال: ورُوي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحوُ قول السدي وقتادة.

فخرجَ الكلامُ على وجهِ المُقابلةِ، كما قالَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، لـمَّا قالوا: إنه ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]، وقيلَ: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾؛ لأنَّ الحياءَ منَ القبيحِ، وضربُ المثَلِ ليس بقبيحٍ، وإنَّما تستَحيي من مُخالفةِ أمرِ مَن هو فوقَكَ، فلا يجوزُ الحياءُ في صفةِ الله تعالى.

وقيلَ: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾؛ أي: لا يتركُ؛ لأنَّ مَن استحيى من شيءٍ تركَه.

وقيلَ: ﴿لَا يَسْتَحْىِۦٓ﴾؛ أي: لا يخشى؛ فإنَّ الاستِحياءَ والخشيةَ بمعنًى، كقولِه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ أي: تستَحيي منهم.

﴿مَّا بَعُوضَةً﴾ ﴿ما﴾ زائدةٌ، كقولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ أي: يضربَ مثلًا بعوضةً.

وقيلَ: ﴿ما﴾ نكرةٌ بمنزلةِ «شيء»؛ أي: أن يضرِبَ مثلًا شيئًا منَ الأشياءِ، ثمَّ أبدلَ ﴿بَعُوضَةً﴾ منَ «شيئًا»، وهذا قولُ الفرَّاءِ[1].

ورُدَّ عليه بأنَّ «مَن» و«ما» تلزَمُهما الصِّفةُ في النَّكرةِ كما تلزمُهما الصِّلةُ في المعرفةِ، تقولُ: «مررتُ بما حسُنَ»؛ أي: بشيءٍ حسَنٍ، فكيفَ يَجعَلُ ﴿ما﴾ هاهُنا اسمًا والبعوضةُ ليست بصفةٍ؟!

وقالَ الكسائيُّ: أي: يضربَ مثلًا ما بينَ بعوضةٍ إلى ما فوقَها، ثمَّ حُذِفَ «بين»

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢١ ـ ٢٢)، وقد ذكر ثلاثة وجوه: السابق، والآتي عن الكسائي وهو أحب الوجوه إليه كما قال، والآتي بعده عن الطبري. أما هذا الوجه الذي نسبه المؤلف إليه فقد ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ١٠٤)، لكنه اختار الذي قبله وهو كون ﴿مَّا﴾ زائدة بغرض التأكيد.

و«إلى»، ونُصِبَ ﴿بَعُوضَةً﴾ بإسقاطِ الخافضِ، كقولِهم: «مُطِرْنا ما زُبالةَ فالثَّعلبيّةَ»؛ أي: ما بينَهما[1].

وقالَ ابنُ جريرٍ: ﴿ما﴾ بمعنى «الذي»؛ أي: أن يضربَ مثلًا الذي هو بعوضةٌ، وقد قُرِئَ في الشَّواذِّ: (بعوضةٌ) بالرَّفعِ[2]، ويجوزُ النَّصبُ؛ لأنَّ محلَّ «الذي» نصبٌ بـ﴿يَضْرِبَ﴾، والبعوضةُ صِلةٌ فأُعرِبَتِ الصِّلةُ بإعرابِها[3].

والبعوضةُ من أصغرِ البقِّ، فكأنَّها بعضُ بقَّةٍ في الصِّغرِ.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ أي: ما هو أكبرُ منها، يعني: الذُّبابَ والعنكبوتَ.

وقيلَ: الفيلُ، وللبعوضِ منَ الأعضاءِ ما للفيلِ بزيادةِ جناحَين، ففي ضربِ المثَلِ به أعظمُ عبرةٍ.

وقيلَ: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصِّغرِ.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ﴾ معنى المثَلِ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيُنكِرونَه ويقولونَ:

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾: ﴿مَاذَا﴾ اسمٌ واحدٌ؛ أي: أيَّ شيءٍ أرادَ الله بهذا؟ فموضِعُه النَّصبُ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢٢)، وهو أحب الوجوه إليه كما ذكرنا. وزبالة والثعلبية: موضعان بطريق مكة من الكوفة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٧٨) و(٣/ ١٢٩).

(٢) قرأ بها جماعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١٢)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٦٤).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٢١).

وقيلَ: «ذا» بمعنى «الذي»؛ أي: ما الذي أرادَه الله؟ فـ«ما» رفعٌ بالابتداءِ، و«ذا» خبرُه، والجوابُ البيانُ بالرَّفعِ كقولِه: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]؛ أي: ما الذي أنزلَ ربُّكم؟ وعلى الأوَّلِ الجوابُ البيانُ بالنَّصبِ كقولِه: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]؛ لأنَّ «ما» و«ذا» جُعِلا اسمًا واحدًا.

﴿مَثَلًا﴾ نصبٌ على الحالِ، وقيلَ: على التَّمييزِ.

وقيلَ: على القطعِ؛ أي: ماذا أرادَ الله بهذا المثَلِ؟ فلمَّا جاءَ نكرةً نُصِبَ على القطعِ عن إتباعِ المعرفةِ.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ قيل: هو من تمامِ قولِ الكفَّارِ، فقالَ الله: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

وقيلَ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ابتداءُ كلامٍ منَ الله في جوابِهم.

والإضلالُ ضدُّ الهدايةِ، وحقيقتُه: خلقُ الضَّلالِ في قلبِ مَن شاءَ، وأورَدَ القفَّالُ تأويلاتِ الإضلالِ على مُعتقَدِ مُنتَحِلي الاعتزالِ، فقالَ: يرِدُ الإضلالُ بمعنى الدُّعاءِ إلى الضَّلالِ، كقولِه لإبليسَ: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، وقولِه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ [طه: ٧٩]، وهذا لا يجوزُ في وصفِ الرَّبِّ.

قال: ويرِدُ بمعنى الإهلاكِ، كقولِه: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١]؛ أي: أهلَكَها، والله تعالى يُحبِطُ غدًا أعمالَ الكفرةِ.

قالَ: وقد يُقالُ: أضَلَّ فلانٌ بغيرِه؛ أي: ضلَّ عنه، والضَّلالُ منَ الكافرِ، ويُضافُ إلى الله على هذا الوجهِ، وقالَ الله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

[إبراهيم: ٣٦]؛ أي: ضَلُّوا بسببِهنَّ، ويُقالُ: أهمَّني الشَّيءُ؛ أي: اهتَمَمْتُ به.

قالَ: ويجوزُ أن يكونَ إضلالُه إضلالًا عن سبيلِ الجنَّةِ غدًا.

ويجوزُ أن يُقالَ: أضَلَّه؛ أي: سمَّاه ضالًّا، أو حكَمَ عليه به، كما يُقالُ: أكفَرَه؛ أي: سمَّاه كافِرًا، ويجوزُ أن يُقالَ: أضلَّه؛ أي: وجدَه ضالًّا، كقولكَ: أجْبَنْتُه؛ أي: وجَدْتُه جبانًا، وهو كقولِه: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

ويجوزُ أن يُقالَ: أضَلَّه؛ أي: خلَّاه والضَّلالَ، ومنعَ منه اللُّطفَ، فيكونُ ذلك عقابًا لبعضِهم: إمَّا في الدُّنيا، أو في آخرِ نفَسٍ من حياتِه، كما يُقالُ: أفسَدَ فلانٌ ابنَه؛ أي: لم يتعاهَدْه بالتَّأديبِ.

قال: ويجوزُ أن يرِدَ الضَّلالُ بمعنى العذابِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، قيلَ: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾؛ أي: في عذابٍ.

وذكرَ أيضًا معاني الهُدَى فقالَ: يَرِدُ بمعنى الإرشادِ والبيانِ والدُّعاءِ، وبمعنَى التَّوفيقِ والإلطافِ جزاءً على الإيمانِ، وبمعنَى الهدايةِ إلى طريقِ الجنَّةِ، وبمعنَى التَّقديمِ، من هوادي الخيلِ، وبمعنى الإلهامِ، ويُقالُ: هداه؛ أي: سمَّاه مُهتَديًا وحكَمَ له به.

وكلُّ هذا عدولٌ عن الظّاهرِ فلا يُسمَعُ من غيرِ دليلٍ.

﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: التّارِكينَ لأمرِ الله، والفِسقُ: الجَورُ، وفسَقَ؛ أي: جارَ.

وقيلَ: خرَجَ عن الطَّاعةِ، من فسَقَتِ الرُّطَبَةُ من قشرِها.

وأرادَ بالفاسقِ: الكافرَ هاهُنا.

وقالَ الحسَينُ بنُ الفضلِ: ما يُضِلُّ به إلا مَن عَلِمَ أنَّه سيحصُلُ منه الفِسقُ؛ كما

سمَّى آدمَ خليفةً قبلَ خلقِه، وهو ردٌّ لقولِ مَن[1] يقولُ: إضلالُ الله بمعنى تسميةِ الكافرِ ضالًّا، أو بمعنى الجزاءِ على الضَّلالِ بدليلِ قولِه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، فدَلَّ على سبقِ الفسقِ الضَّلالَ.

* * *

(٢٧) - ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفةِ الفاسقينَ، والنَّقضُ: إفسادُ ما أبرَمْتَه من بناءٍ أو حبلٍ.

﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أمرَ الله، ومنه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [يس: ٦٠]؛ أي: ألَـم آمُرْكُم؟

وقيلَ: هذا العهدُ ما ضمِنُوه لله تعالى يومَ الميثاقِ، ونحنُ وإنْ لـم نذكُرْ ذلك العهدَ فقد ثبتَ بخبرِ الصَّادقِ، فيجبُ الإيمانُ به.

ويجوزُ أن يكونَ هذا العهدُ ما أُخِذَ على الأنبياءِ والأُممِ في سائرِ الكتبِ، قالَ الله تعالـى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقـالَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٤٢]، وقـد يكونُ العهدُ مـع الائـتلافِ، ونقضُ العهدِ مـنَ الإخـلافِ، فيُضـافُ العهدُ إليهـم؛ لأنَّ ما وجَبَ على أسـلافِهم وجـبَ عليهم أيضًا.

وعندَ القَدرِيَّةِ: عهدُ الله: ما أوجبَ عليهم في عقولِـهم.

---

(١) في (أ): «رد لمن».

﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾؛ أي: بعدَ ميثاقِه، و﴿مِن﴾ للتَّوكيدِ.

والميثاقُ: مِفْعالٌ مِنَ الوثيقةِ، والجمعُ: مَيَاثِقُ ومَوَاثِقُ، يعني: من بعدِ توثيقِ ذلك العهدِ.

وقيلَ: من بعدِ ميثاقِ الله ذلك العهدَ.

وقيلَ: من بعدِ توثيقِهم ذلك العهدَ.

﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾؛ أي: ما أُمِروا به منَ الإيمانِ بالله ورسولِه والانضمامِ مع المؤمنين، والإيمانِ بجميعِ الأنبياءِ.

وقيلَ: أرادَ به صلةَ الأرحامِ، والقومُ قطَعُوا الرَّحِمَ، قالَ الله: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٢٢]، وقد قطعَتْ قُريشٌ رحِمَ النَّبيِّ ﷺ.

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يَدْعونَ إلى الكفرِ ويعملونَ بالمعاصي.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ منَ الخسرِ والخسارةِ، والخاسرُ: نقيضُ الرَّابحِ، ثمَّ يُستَعملُ في كلِّ مكروهٍ.

وقيلَ: ما من عبدٍ إلا وله في الجنَّةِ أهلٌ ومنزلٌ وخدَمٌ؛ فإنْ أطاعَ الله آتاهُ الله إيّاه، وإنْ عصاه وكفَرَ ورِثَه المؤمنونَ مع منازلِهم المُعدَّةِ لهم في الجنّةِ، فذلك الخسرانُ المذكورُ في القرآنِ، قالَ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

وقيلَ: خسِرُوا حسناتِهم فلم يكُنْ لهم عليها ثوابٌ لكُفْرِهم.

* * *

(٢٨) ـ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ سؤالٌ عن الحالِ، وهذا استفهامٌ فيه تعجيبٌ؛ أي: عجبًا لكم كيفَ تكفُرونَ؟ أو لتعجُّبِ الخلقِ من كُفرِكُم باللهِ وهو خالقُكم؟

وقيلَ: هذا الخطابُ مع اليهودِ؛ لأنَّه قال عقيبَ هذا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ثمَّ انجرَّ الكلامُ إلى قصّةِ آدمَ عليه السَّلامُ؛ أي: أتُنكِرونَ محمَّدًا وقد أقرَرْتُم بأنَّ اللهَ خلَقَ آدمَ وأكرَمَه، وبعثَ موسى، وبشَّرَ في كتابِه بمحمَّدٍ عليهما السلام؟

وقيلَ: هو خطابٌ لجميعِ الكفَّارِ؛ أي: كيف تكفُرون باللهِ وهو خالقُكم؟ فمَن اعترَفَ بأنَّ له خالقًا قَدِرَ على الابتداءِ، لزمَتْه الحجّةُ في أنَّه قادرٌ على البعثِ، ومَن لم يعترِفْ بأنَّه خالقُ السَّماواتِ والأرضِ فالحجَّةُ قائمةٌ عليه أيضًا؛ فإنَّه يَعلمُ بأدنى فكرٍ أنَّ اللهَ تعالى خلقَه وأحياه، وأنَّه لم يُوجَدْ من غيرِ صانعٍ، وأنَّه لم يصنَعْ نفسَه.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ «كان» فعلٌ ناقصٌ، تقولُ: «كانَ زيدٌ قائمًا»، ومصدرُه: الكَوْنُ والكَيْنُونةُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: كيفَ تكفُرون وقد كنتُم أمواتًا، كقولِه: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ [يوسف: ٢٧]؛ أي: فقد كذَبَتْ.

﴿أَمْوَاتًا﴾؛ أي: لم تكونُوا شيئًا فخلَقَكم كقولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

وقيلَ: أي: كنتُم خاملي الذِّكرِ فأدرَجَكُم في الذِّكرِ، يُقالُ: هذا شيءٌ حيٌّ؛ أي: له ذِكرٌ، وهذا ميِّتٌ؛ أي: لا ذِكرَ له.

وقيلَ: أي: كنتُم تُرابًا، ردَّهُم إلى أبيهم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾؛ أي: ركَّبَ فيكم الحياةَ.

وقيلَ: أي: كنتُم نُطَفًا في أصلابِ آبائِكم فأحياكُم وأخرَجَكُم من بطونِ أمَّهاتِكُم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ قيل: في القيامةِ. وقيلَ: في القبرِ.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تُرَدُّونَ إلى الموضعِ الذي لا أمرَ فيه لأحدٍ غيرِ الله.

وقيلَ: ثمَّ تُرجَعونُ إلى حُكمِه فيفعلُ بكم ما يشاءُ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عجَّبَ من إنكارِهم البعثَ، ثمَّ زادَ في البيانِ وقالَ: الذي قَدِرَ على إحيائِكُم وخلقِكُم وخلقِ السَّماواتِ والأرضِ لا يبعُدُ منه القدرةُ على الإعادةِ.

﴿خَلَقَ لَكُم﴾؛ أي: لتنتَفِعُوا بجميعِ ما خلقَه في الأرضِ، ومنَ الانتفاعِ: الاعتبارُ بما ليس فيه نفعٌ ناجزٌ كالعقاربِ والحيَّاتِ.

وأيضًا: ما من شيءٍ إلا وفيه مُنتَفَعٌ ما، وقد يتذكَّرُ الإنسانُ ببعضِ ما يرى

منَ المُؤذِياتِ ما أُعِدَّ للكفَّارِ في النَّارِ منَ العقوباتِ، فيكونُ سببًا للإيمانِ وتركِ المعاصي، وفيه أعظمُ الانتفاعِ(١).

ولا تدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّ الأصلَ في الأشياءِ الإباحةُ؛ إذ ورَدَتْ آيٌ كثيرةٌ تدلُّ على الحظرِ في أشياءَ كقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثمَّ الباطلُ قولُ مَن يقولُ: «العقلُ يدُلُّ على أنَّ الأشياءَ على الإباحةِ»، فأمَّا تلقِّي شيءٍ منَ الإباحاتِ منَ الشَّرعِ وآيِ الكتابِ فليس بمُستَنكَرٍ.

وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يدُلُّ على أنَّه خلقَ أوَّلًا دُخانًا للسَّماءِ، ثمَّ خلقَ الأرضَ في أربعةِ أيَّامٍ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ وهي دخانٌ فسوَّاها، وبهذا نطقَتِ الأخبارُ، ومعنى ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: قصدَ إلى السَّماءِ فسوَّاها، كما يُقالُ: كانَ الأميرُ ينظرُ في أمرِ بني فلانٍ، ثمَّ تحوَّلَ إلى بني فلانٍ فأعطاهُم؛ أي: قصدَ هؤلاء أيضًا بعدَ أولئكَ وأقبلَ عليهم.

والاستواءُ: الاستقامةُ، فيُسمَّى القصدُ إلى الشَّيءِ استواءً كما يُسمَّى الاستواءُ قصدًا، فيُقالُ: أمرٌ قاصِدٌ؛ أي: مُستَوٍ.

وقيلَ: استِواؤُه: علوُّ الأمرِ وارتفاعُ الذِّكرِ.

وقيلَ: أي: صَعِدَ أمرُه إلى السَّماءُ، فهو استواءٌ بمعنى نُفوذِ الأمرِ كما يُقالُ: استَويتُ فوقَ الدَّابَّةِ، واستَوى فلانٌ على المُلْكِ، ومثلُ هذا قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقيلَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: ثـمَّ صـارَ السَّماءُ مُستَويًا عليه، كقولِه:

---

(١) في (أ) زيادة: «وأعظمه».

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١]؛ أي: حتَّى يصيروا مُجاهدينَ معلومينَ لنا على ذلك الوصفِ، لا أنَّه يستفيدُ في حالِ جهادِهم علمًا[١].

وقيلَ: فعَلَ فعلًا فسمَّاه استواءً، كما يُقالُ: كانَ الأميرُ يُدبِّرُ أهلَ الشّامِ ثمَّ استوى إلى العراقِ؛ أي: تحوَّلَ فِعلُه إليهم.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؛ أي: قوَّمَهُنَّ، وأرادَ بلفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ جميعَ السَّماواتِ، فلهذا قالَ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾، وقد يرِدُ الواحدُ ويُرادُ به الجمعُ، كقولِه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧].

وقيلَ: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ اسمُ الجنسِ، فهو للجميعِ، كما يُقالُ: كثُرَ الدِّينارُ والدِّرهمُ في أيدي النّاسِ.

وقيلَ: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: جمعُ سماءَةٍ وسماوَةٍ.

وقيلَ: يرجعُ قولُه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ إلى أجزاءِ السَّماءِ ونواحيها، كما يُقالُ: «ثوبٌ أسمالٌ، وأخلاقٌ»، و: «بُرْمةٌ أعشارٌ»، و: «أرضٌ سباسِبُ، وأغفالٌ»؛ أي: كلُّ جانبٍ منها كذلك.

ثمَّ سمَّى السَّماءَ سماءً قَبْلَ أن جعَلَ الدُّخانَ المُرتفعَ سماواتٍ، كما تقولُ لمَن تدفعُ إليه غَزْلًا: اعمَلْ هذا الثَّوبَ، فيُسمِّيه ثوبًا قبلَ النَّسجِ.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ثمَّ قصدَ إلى خلقِ هذه السَّماءِ التي ترونَها، فيكونُ الخبرُ واقعًا بعد تمامِ الفعلِ.

---

(١) وهذا القيلُ فيه إغراق في التأويل مع البعد عن روح النص القرآني وعن معناه وتذوقه، وكل هذه المعاني التي ذكرت هي من باب التأويل على مذهب المتأخرين.

﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾ السَّبعُ للمُؤنَّثِ، والسَّبعةُ للمُذكَّرِ، على خلافِ الأصلِ في قائمٍ وقائمةٍ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ قُرِئَ بسكونِ الهاءِ معَ الواوِ والفاءِ واللَّامِ، كأنَّ هذه الحروفَ من نفسِ الكلمةِ، والتَّخفيفُ كالتَّخفيفِ في: سبْعٍ وعضْدٍ، من سبُعٍ وعضُدٍ، وقُرِئَ: ﴿وَهُوَ﴾ بضمِّ الهاءِ[1].

والمعنى: هو بكلِّ شيءٍ من كُفرِهم وإيمانِهم عليمٌ، فدلَّ بالآيةِ على كمالِ قُدرتِه، وعلى كمالِ علمِه.

* * *

(٣٠) ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ﴾ لمَّا قالَ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ بيَّنَ ابتداءَ خلقِ آدمَ وأولادِه.

أو: لمَّا بيَّنَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ بيَّنَ ما خلَقَ بعد ذلك، وهم سكَّانُ الأرضِ من ذُرِّيةِ آدمَ.

و«إذ» حرفُ توقيتٍ للماضي، و«إذا» للمُستقبلِ.

ثمَّ قيلَ: فيه إضمارُ «اذكر»؛ أي: واذكُرْ يا محمَّدُ إذ قالَ ربُّكَ، ويدلُّ عليه أنَّه أظهرَ هذا في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾

---

(١) قرأ بسكون الهاء الكسائي وأبو عمرو وقالون، والباقون بضم الهاء. انظر: «السبعة» (ص: ١٥١)، و«التيسير» (ص: ٧٢).

[ص: ١٧]، والقرآنُ كالشَّيءِ الواحدِ، فكأنَّه قال: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، ﴿و﴾اذكُرْ ﴿إذ قالَ ربُّكَ للملائكةِ﴾.

وقال أبو عُبيدةَ في كلِّ ما كانَ من هذا القبيلِ: «إذ» زائدةٌ؛ أي: وقالَ ربُّكَ(١).

وفيه بُعدٌ؛ لأنَّه ادِّعاءُ إلغاءِ شيءٍ منَ القرآنِ من غيرِ ضرورةٍ.

وقال الزَّجَّاجُ: أي: ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أو: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾(٢)، وإنَّما ذكرَ الواوَ فقال: ﴿وَإِذْ﴾ على نيَّةِ إعادةِ ما تقدَّمَ ذِكرُه، ونظيرُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] أرَيْناه ذلك، والمعنى هاهُنا: وإذ قالَ ربُّك للملائكةِ: خلَقَ لكم ما في الأرضِ جميعًا.

وقيلَ: هو عطفٌ على المعنى؛ أي: لِمَ تكفُرونَ بالله ولِمَ لا تذكُرونَ نِعَمَه إذ أحياكُم وخلَقَ لكم ما في الأرضِ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾ ونظيرُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ثمَّ قالَ: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وكانَ عطفًا على المعنى؛ أي: هل رأيتَ كالذي حاجَّ أو كالذي مرَّ.

وقال البَجَليُّ: «إذ» يتعلَّقُ بما بعدَه؛ أي: إذ قالَ ربُّك للملائكةِ إنِّي جاعلٌ كذا قالتِ الملائكةُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٦ - ٣٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٠٨)، ورده الزجاج بنحو ما سيأتي. وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١/ ١١٦): وكذلك رد عليه جميع المفسرين.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٠٨)، وفيه: «والحجة في (إذ): أنَّ اللَّه تعالى ذكر خلق الناس وغيرهم، فكأنَّه قال: ابتدأ خلقكم إذ قال ربك للملائكة». وهكذا نقله عنه من بعده. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ٤٢)، و«البسيط» (٢/ ٣٠٨)، و«زاد المسير» (١/ ٤٩).

والملائكةُ: جمعُ ملَكٍ، قال سيبويه: أصلُ ملَكٍ: «مَلْأَكٌ» مهموزٌ(١)، فحُذِفَ الهمزةُ لكثرةِ الاستعمالِ، وعلى هذا قال البصريُّون: هو مقلوبُ «مَأْلَك»، كما يُقالُ: «شَمْأَلٌ وشَأْمَلٌ»، والمألَكةُ: الرِّسالةُ، وكذلك: الألُوكُ، ويُقالُ: ألِكْنِي إليها؛ أي: كُنْ رسولي، وأَلَكَ بمعنَى: عَلَكَ ومضَغَ، فالذي يُؤدِّي الرِّسالةَ كأنَّه يُدِيرُ الكلامَ في فيه، والجمعُ: مآلِكُ، فقُلِبَ فقيل: ملائكُ وملائكةٌ.

وقيلَ: المَلَكُ منَ الملكِ، وهو بمعنى المملوكِ، كالنِّقضِ بمعنى المنقوضِ، وكلُّ مخلوقٍ فهو مملوكٌ لله، ولكنْ يجوزُ تخصيصُ البعضِ بالذِّكرِ، مثلُ: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، ووجهُ التَّخصيصِ: أنَّهم لا يعصونَ الله ما أمرَهم، ويُقالُ لملَكِ الموتِ: مالكُ الموتِ، ويُقالُ في الجمعِ: ملائكُ، مثل: الجملِ والجمائلِ، والملَكُ اسمُ الجنسِ يقعُ على [الواحد و] الجمعِ، قالَ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧](٢).

﴿خَلِيفَةً﴾ هو الذي يخلُفُ الذَّاهبَ؛ أي: يجيءُ خلفه، وأصلُه: خليفٌ بمعنى خالفٍ، والهاء للمُبالغةِ مثلَ قولك: رجلٌ راويةٌ وعلَّامةٌ.

والمعنيُّ بالخليفةِ: آدمُ في قولِ ابنِ عبّاسٍ وابنِ مسعودٍ(٣)، فهو خليفةٌ لله في

---

(١) انظر: «الكتاب» (٤/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، و«البسيط» (٢/ ٣٠٨) والكلام منه، واستشهد سيبويه بقول الشاعر:

فَلَسْتَ لإنسي ولكنْ لملأكٍ   تنزَّلَ من جَوِّ السماء يَصُوبُ

(٢) انظر: «البسيط» (٢/ ٣١٠ ـ ٣١٢)، وما بين معكوفتين منه، ونَسَب هذا القولَ لبعض المتأخرين من أصحاب أبي علي الفارسي، وهو أبو القاسم الزجاجيُّ كما قال، وفيه تفصيل أكثر من المصنف فليراجع ثمة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٧٩) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن مسعود وابن عباس. وفي إسناده مقال تقدم ذكره عند تفسير الآية (٢٠) من هذه السورة.

إمضاءِ أحكامِه، وهو كقولِه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

وقيلَ: كانَ خلفًا عن الجنِّ الذين أخرَجوا الجانَّ من وجهِ الأرضِ، وأسكنَ الله تعالى الجنَّ ـ وهم جيلٌ منَ الملائكةِ خُلِقُوا منَ النّارِ ـ بدلَ الجانِّ، ورأسُهم إبليسُ، وسُمُّوا بالجنِّ لأنَّهم كانوا خُزَّانَ الجنانِ.

وقيلَ: كانَ خلفًا عن الجانِّ الذين أفسدوا في الأرضِ.

وقيلَ: ﴿جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إنَّما[1] يخلُفُ بعضُهم بعضًا، فيجيءُ قرنٌ بعد قرنٍ إلى قيامِ السّاعةِ، وهم ولدُ آدمَ، وهذا إخبارٌ منَ الله كما أخبرَ منَ الأنبياءِ قبلَ مبعثِهم[2].

﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ دلَّ كلامُ ابنِ عبّاسٍ على أنَّ الله خاطبَ بقولِه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ جيلًا منَ الملائكةِ على التَّخصيصِ[3].

ثمَّ قيلَ: هم ملائكةُ السَّماءِ الدُّنيا.

وقيلَ: هم الملائكةُ الذين نزَلُوا الأرضَ من خُزَّانِ الجنَّةِ، ولقَّبَهم الجنَّ لإخراجِ

---

(١) في (أ): «مما».

(٢) في (أ): «سعيهم».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٨٢) من طريق الضحاك عن ابن عباس في خبر طويل، وفيه: «فأوّل من سكن الأرضَ الجنُّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ـ وهم هذا الحي الذين يقال لهم الجِن ـ فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه وقال: قد صنعتُ شيئًا لم يصنعه أحد! قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه، فقال الله للملائكة الذين معه: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بُعثنا عليهم لذلك» الخبرَ.

الجانِّ من وجهِ الأرضِ إلى الجزائرِ، فكانَ إبليسُ رأسَ أولئك الملائكةِ، فهم الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾[١].

وقيلَ: لمَّا قالوا هذا نزلَتْ نارٌ منَ السَّماءِ فأحرقَتْهم، وهم عشرةُ آلافِ ملَكٍ[٢].

ومثلُ هذا لا يستبعِدُه العقلُ، ولكنَّه يتوقَّفُ على النَّقلِ الصَّحيحِ.

وقيلَ: قَبِلَ توبتَهم لمَّا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾، ووجهُ خطابِهم: أنَّهم حكمُوا بذلك رجمًا بالغيبِ، فبيَّنَ أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ فتابُوا.

وقيلَ: وجهُ خطابِهم: اعتِراضُهم على الله.

وقيلَ: قالوا ذلك لأنَّه شَقَّ[٣] عليهم الصُّعودُ إلى السَّماءِ؛ لأنَّ عبادةَ أهلِ السَّماءِ أشقُّ وأثقَلُ، وفي هذا نوعُ اعتراضٍ على الله أيضًا.

وقيلَ: ما قالوا هذا اعتراضًا، ولكن استفهَمُوا؛ أي: أتجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ أم مَن لا يُفسِدُ؟

وقيلَ: أشكَلَ عليهم الجنسُ؛ أي: أتجعلُ مَن يشبهُ بني الجانِّ، أم تجعلُ مَن يُشبِهُ الملائكةَ؟

وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ الخطابُ لجميعِ الملائكةِ، والجوابُ منَ الجميعِ، وعليه مُعظَمُ المُفسِّرينَ، وعلى هذا ففي الآيةِ اختصارٌ كقولِه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩]؛ أي: كمَنْ هو غيرُ قانتٍ.

---

(١) وهذا هو الظاهر من الخبر السابق.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٧٨) (٣٢٨) عن يحيى بن أبي كثير عن أبيه، وقال عنها ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: إسرائيلي منكر.

(٣) في (أ): «سبق».

وقيلَ: إنَّ الملائكةَ عرَفُوا ما يفعلُه أولادُ آدمَ بإطْلاعِ الله إيَّاهُم على ذلك، إمَّا منَ اللَّوحِ المحفوظِ أو غيرِه، فقالوا ذلك تعجُّبًا من بني آدمَ؛ أي: أتجعَلُ فيها مَن يعصيكَ، وإنَّما ينبَغي لهم أن يُسبِّحُوا بحمدِكَ بعدَما عرَفُوا أنَّك خالقُهم؟ وكانَ الله عزَّ وجلَّ أذِنَ لهم في هذا القولِ لأنَّهم يفعلون ما يُؤمَرون. ذكرَه الأصمُّ.

وقيلَ: عرَفُوا أنَّ في بني آدمَ مَن يُفسِدُ، ولكنَّ وجهَ الخطأ أنَّهم عمَّمُوا الحكمَ على الجميعِ بالمعصيةِ، فبيَّنَ الرَّبُّ أنَّ فيهم مَن يُفسِدُ وفيهم مَن لا يُفسِدُ.

وقيلَ: وجهُ خطابِهم اغترارُهم بطاعتِهم وعُجْبُهم، فبيَّنَ أنَّ فيهم أيضًا مَن يَعصي إذا رُكِّبَتْ فيه الشَّهوةُ، وفي بني آدمَ مَن لا يَعْصي، وكانوا قالوا: ليَخْلُقْ ربُّنا ما شاءَ فلن يخلقَ خلقًا أشرَفَ منَّا ولا أكرَمَ[١].

وقيلَ: لم يكُنْ هذا منهم اعتراضًا ولا استفهامًا، بل أخبرَهم الله أنَّ في بني آدمَ مَن يُفسِدُ، فذكَرُوا ذلك كما ذكرَه الله فقالوا: الأمرُ كما أخبرتَ، وأمَّا نحنُ فلا نعصيكَ، فقالَ الله تطييبًا لقلوبِهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وحقَّقَ ذلك بأنْ علَّمَ آدمَ الأسماءَ وكشفَ لهم عن مكنونِ علمِه[٢].

وقيلَ: ما قالوا ما قالوه اعتِراضًا، ولكنْ سألوا الله أن يبعثَهم في الأرضِ، فبيَّنَ أنَّه أعلَمُ بمصالحِ عبادِه.

ومَيلُ أقوامٍ[٣] إلى تفضيلِ الملائكةِ وتنزيهِهم عن الاعتراضِ ومُقارفةِ الذَّنبِ، **والقولُ الحقُّ**: أنَّ التَّفضيلَ بكثرةِ إحسانِ الله إلى العبدِ لا بالجنسِ والجوهرِ فإنَّ

---

(١) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٩٢) عن الحسن وقتادة.

(٢) في (أ): «مكنون ما علمه».

(٣) في (أ): «ومثل قوم».

الجواهرَ مُتماثلةٌ، ولا بكثرةِ الطّاعاتِ، فلا يستحيلُ في العقلِ أن يُفضِّلَ آدميًّا على الملائكةِ، وليس فيه خبرٌ قطعيٌّ، بل ظاهرُ هذه الآيةِ يدلُّ على تفضيلِ بني آدمَ، ويعلمُ أنَّ المُرادَ به تفضيلُ خيارِهم.

وللعلماءِ اختلافٌ في إبليسَ، فقيلَ: كانَ منَ القبيلةِ الذينَ هم خُزَّانُ الجنَّةِ، ولقبُهم الجنُّ، وكانَ رأسَهم، بيَّنَ الرَّبُّ أنَّه عالـمُ الغيبِ، وأنَّه كما يَظهرُ الفسادُ من بني آدمَ يظهرُ أيضًا من بعضِ سكَّانِ السَّماءِ كإبليسَ.

وقيلَ: كانَ منَ الجنِّ؛ أي: منَ الجانِّ الذين أفسَدُوا في الأرضِ فأُخرِجُوا إلى الجزائرِ، فاستوهبَه ملكٌ منَ الله، وارتفعَ به إلى السَّماءِ، فصارَ من أشدِّهم عبادةً، ثمَّ لـمَّا رأى من آدمَ جسدَه حسدَه وأضمرَ الإباءَ عليه، وكان يقولُ: «إنَّه أجوفُ» فلا يخافُ منه.

واستدلَّ هؤلاءِ بقولِه: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وبـأنَّ الملائكةَ لا نـسلَ لهم وإبليسُ أبو الجنِّ كما أنَّ آدمَ أبو الإنسِ، قالَه الحسنُ(١)، وأيضًا الملائكةُ خُلِقُوا من نورٍ، وقالَ إبليسُ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقالَ الله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ التَّسبيحُ: تقديسُ الله وتنزيهُه من كلِّ سوءٍ، وأصلُه: التَّبعيدُ، يُقالُ: سَبَحَ في الأرضِ؛ أي: تباعَدَ فيها.

وقيلَ: كأنَّ المُسبِّحَ يَجري في ثيابِه كما يَسْبَحُ السَّابحُ في الماءِ، والسَّبْحُ على هذا منَ السُّرعةِ.

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (١/ ١٠٢) عن الحسن وقتادة وابن زيد. ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٤١) عن ابن زيد، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦٦) عن ابن شهاب.

وقيلَ: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ أي: نقولُ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، أو نقولُ: سُبحانَكَ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ أي: نعتقدُ طهارتَكَ، والقُدْسُ: الطَّهارةُ، والقَدَسُ: السَّطلُ الذي يُتطَهَّرُ منه، والقُدَاسُ: الجُمانُ منَ الفِضَّةِ؛ لأنَّه أبيضُ، واللّامُ زائدةٌ؛ أي: نُقدِّسُكَ.

وقال الزَّجَّاجُ: أي: نُطهِّرُ أنفُسَنا لأجلِكَ[1]، فاللَّامُ لامُ «أَجْل»؛ أي: لأَجْلِكَ نُطهِّرُ قلوبَنا منَ الشِّركِ وأبدانَنا منَ المعصيةِ.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: من إضمارِ إبليسَ الكِبْرَ والمعصيةَ، ومن أنَّه يكونُ في بني آدمَ مَن يُطيعُ، وأعلَمُ من تفضيلِ آدمَ عليكم وما أتعبَّدُكم به منَ السُّجودِ له، وما أعلِّمُه[2] منَ الأسماءِ ومن مغفِرَتي لذُنوبِهم، ما لا تعلمونَه.

***

(٣١) - ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: فخلقَ آدمَ وعلَّمَه الأسماءَ كلَّها، وهذا التَّعليمُ بأنْ خلقَ له علمًا.

وسُمِّيَ آدمَ لأنَّه خُلِقَ من أديمِ الأرضِ، وهو وجهُها.

والأُدْمةُ: لونٌ مُشبَّهٌ بلونِ التُّرابِ.

وقيلَ: سُمِّيَ آدمَ لبياضِه، يُقالُ: ناقةٌ أَدْماءُ؛ أي: بيضاءُ، ثمَّ قيلَ: علَّمَه أسماءَ ذُرِّيتِه.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١١٠).

(٢) في (أ): «أعلمت».

وقيلَ: أسماءَ الملائكةِ كلِّهم.

وقيلَ: اسمَ كلِّ شيءٍ، حتَّى القصعةَ والمغرفةَ، وعلَّمَه جميعَ اللُّغاتِ، فتكلَّمَ كلُّ قومٍ من أولادِه بلغةٍ منها.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ والعَرْضُ: الإظهارُ، وعرَضْتُ الشَّيءَ فأعـرَضَ؛ أي: أظهرتُه فظهَرَ، وأعرَضَ بوجهِه؛ أي: أزالَه عن جهةِ الظُّهورِ، والكنايةُ في عرضِهم ترجعُ إلى المُسمَّياتِ، فكأنَّه مثَّلَ لهم الجواهرَ والأعراضَ، ولهذا أشارَ فقالَ: ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: أخبِرُوني، فهو أمرُ تعجيزٍ.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فـي ادِّعـاءِ الخيريَّـةِ، وفـي الحكـمِ علـى جميـعِ بنـي آدمَ بالمعصيـةِ.

وقيلَ: هو كقولك: إنْ كنتَ ابني فافعل كذا؛ أي: إنَّك ابني فافعَلْ كذا؛ أي: قد صدَقْتُم بأنَّهم يُفسِدونَ، ولكنْ مع هذا فأنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ.

* * *

(٣٢) ـ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾؛ أي: تنزيهًا لك عن أن يعلمَ الغيبَ أحدٌ سواكَ، وهو نصبٌ على المصدرِ، والسُّبْحانُ بمعنَى التَّسبيحِ؛ أي: نُسبِّحُك تسبيحًا، كما تقولُ: كفَّرْتُ عن يميني كُفْرانًا؛ أي: تكفيرًا، ثمَّ قيلَ: السُّبحانُ اسمٌ وُضِعَ موضعَ المصدرِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]؛ أي: تسريحًا.

وقيلَ: السُّبحانُ مصدرٌ كالتَّسبيحِ.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾؛ أي: ليس هذا مـمَّا علَّمتَنا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ قيل: أي: العالـمُ الذي لا يُعلَّمُ.

وقيلَ: أي: أنتَ المُعلِّمُ لمَن شئتَ منَ الخلقِ أن تُعلِّمَه.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: المُحكِمُ، كالسَّميعِ بمعنى المُسمِعِ.

وقيلَ: العالـمُ؛ لأنَّ الحكمَ هو العلمُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]؛ أي: العلمَ.

وقيلَ: الحكمُ: القضاءُ بالحكمِ، بمعنى: الحاكمِ.

وقيـلَ: أصـلُ الكلمةِ مـنَ المنـعِ، ومنه حَكَمَـةُ اللِّجامِ؛ لأنَّهـا تمنـعُ الدّابَّةَ عن التَّصـرُّفِ علـى هواهـا، والحاكمُ يمنعُ مـنَ الظُّلـمِ، والحكيمُ مَن يمتنعُ عـن الظُّلمِ.

***

(٣٣) ـ ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾؛ أي: أخبِرْهم.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ علِمُوا أنَّ الله يعلَمُ منَ العواقبِ ما لا يعلمونَ فقالَ الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ فلا بدَّ من هذا الإضمارِ، وفي ﴿أَلَمْ﴾ معنى التَّوبيخِ والتَّقريرِ.

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مـا غابَ عنكم فيهما ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ أي: تُظهِرُونَ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ أي: تُسِرُّونَ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ من قولِكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من إضمارِ إبليسَ الكفرَ، فذكرَ بلفظِ الجمعِ لأنَّ إبليسَ كانَ منهم؛ أي: مَن لـم تَخْفَ عليه الغائباتُ لا يُعترَضُ عليه فيما يفعلُ.

وقيلَ: محلُّ التَّعجُّبِ: أنَّ كلَّ فريقٍ منهم كانَ يعرِفُ لغةً، فاجتمعَتِ اللُّغاتُ كلُّها لآدمَ.

***

(٣٤) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ هذا عطفٌ على قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ أي: لـمَّا أظهرَ مزيَّةَ آدمَ بالعلمِ أمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ له، وقولُه: ﴿قُلْنَا﴾ خطابُ الأكابرِ، يقولُ قائلُهم: نحنُ فعَلْنا كذا، وإنَّما يحسُنُ هذا للعلمِ بأنَّ أتباعَه يفعلون كفعلِه، وعلى هذا خُرِّجَ الجوابُ في قولِه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] للملائكةِ.

قيل: هم الذين كانوا مع إبليسَ في الأرضِ، وهم الجنُّ بغاةُ الجانِّ، والظَّاهرُ أنَّه خطابٌ لجميعِ الملائكةِ، قالَ الله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ السُّجودُ: الخضوعُ، وعينٌ ساجدةٌ؛ أي: فاترةٌ.

ثمَّ قيلَ: كانَ هذا أمرًا للملائكةِ بوضعِ الجِباهِ على الأرضِ لآدمَ كالسُّجودِ المُعتادِ اليومَ في الصَّلاةِ، وعلى هذا قيلَ: كان ذلك السُّجودُ تكريمًا لآدمَ وطاعةً لله تعالى، وكان ذلك كالمُصافحةِ لنا، وقد يُعتادُ اليومَ السُّجودُ من بعضِ النَّاسِ لبعضٍ في غيرِ المسلمينَ، وقد ينحَني البعضُ للبعضِ عند التَّحيَّةِ، قالَ الله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فقيلَ: كان هذا تحيةً في عادتِهم.

ولمَّا قدِمَ معاذٌ منَ اليمنِ سجَدَ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ فقالَ: «ما هذا؟» قالَ: إنَّ اليهودَ تسجُدُ لعُظَمائِها، ورأيتُ النَّصارَى يسجُدونَ لرُهبانِها وبطارِقتِها، ويقولونَ: هذا تحيَّةُ الأنبياءِ، فقالَ عليه السَّلامُ: «إنَّهم كذَبُوا على أنبيائِهم»[1]. ونهى عن السُّجودِ للبشرِ وأمرَ بالمُصافحةِ.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٢٩٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣١٠): وفيه النهاس بن قهم وهو ضعيف.

وقالَ قومٌ: كانَ ذلك منَ الملائكةِ سُجودًا على الحقيقةِ، ولكنْ لله لا لآدمَ، وكانَ آدمُ قبلةً لهم كالكعبةِ اليومَ صارَتْ قبلةً للصَّلاةِ، فقولُه: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾؛ أي: إلى آدمَ، كما يُقالُ: صلِّ للقِبلةِ؛ أي: إلى القِبلةِ.

وقالَ قومٌ: لـم يكُنْ هذا السُّجودَ المُعتادَ اليومَ الذي هو وضعُ الجبهةِ على الأرضِ، ولكنَّه مُبقًّى على أصلِ اللُّغةِ، فهو منَ التَّذلُّلِ والانقيادِ؛ أي: اخضَعُوا لآدمَ وأقِرُّوا له بالفضلِ.

﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾؛ أي: امتثَلُوا ما أُمِرُوا به.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قيلَ: هو مُشتَقٌّ منَ الإبلاسِ، سُمِّيَ به لأنَّه أبلَسَ من رحمةِ الله؛ أي: أَيِسَ، أو لأنَّ الله أبلَسَه من رحمتِه؛ أي: آيسَه، فهو لازمٌ ومُتعَدٍّ، وهو على وزنِ: إِجْفيل للظَّليمِ.

وقيلَ: ليس مُشتَقًّا؛ إذ لو كان مُشتَقًّا لجرَى مثلَ إكليلٍ، فلما تُرِكَ صرفُه عُلِمَ أنَّه أعجميٌّ معرفةٌ، فلاجتماعِ العلَّتَين تُرِكَ صرفُه.

أُجيبَ عن هذا: بأنَّ تركَ الصَّرفِ للاستثقالِ؛ لأنَّه قلَّ نظيرُه فصارَ كإسحاقَ وأيُّوبَ لـم يُصرَفا، وإنْ كانا من أسحَقَه اللهُ، ومن آبَ يؤوبُ.

وأُجيبَ عن هذا أيضًا: بأنَّ في النّاسِ مَن يصرِفُ إسحاقَ وأيوبَ، ومَن لـم يصرِفْهما لـم يرَهما مُشتَقَّين.

ثمَّ عند ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه: هذا استثناءُ الشَّيءِ من جنسِه؛ فإنَّه يقولُ: كانَ إبليسُ من الملائكةِ، منَ القبيلةِ الذين سُمُّوا الجنَّ، فلما عصى جعلَه الله شيطانًا.

وعندَ آخَرينَ: كان منَ الجانِّ الضَّالِّينَ، فأسرَه بعضُ الملائكةِ وتعبَّدَ معهم، فهو استثناءٌ من غيرِ الجنسِ، كقولِكَ: سارَ القومُ إلا الخيامَ، وكقولِ الله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]؛ أي: لكنَّهم يسمَعُونَ سلامًا.

وقولُ الله عز وجل: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ يدُلُّ على أنَّه كانَ مأمورًا بالسُّجودِ، وقد قالَ اللهُ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿أَبَىٰ﴾؛ أي: امْتَنَعَ مِنَ السُّجودِ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؛ أي: تعظَّمَ في نفسِه، وقالَ: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وقيلَ: امتنَعَ بظاهرِه واستكبرَ بقلبِه.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: صارَ منهم، كقولِه: ﴿وكان مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقيلَ: أي: وكانَ في علمِ الله منَ الكافرينَ.

وقيلَ: أي: كانَ منَ الجنِّ الكفّارِ على قولِ مَن قالَ: ما كانَ منَ الملائكةِ.

ثمَّ؛ يحتمِلُ أنَّه كانَ في ذلك الوقتِ قومٌ كفَّارٌ، فصارَ إبليسُ من جُملتِهم.

ويحتمِلُ: صارَ من هؤلاءِ الكافرينَ الذين تُشاهِدُونَهم اليومَ.

ويحتمِلُ: صارَ من جملةِ مَن إذا فعلَ فاعلٌ منهم مثلَ فعلِه كانَ كافرًا؛ كما تقولُ: لا تُخالِفْني فتكونَ منَ العاصينَ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ ساقَ الكلامَ إلى أنَّ إبليسَ لـمَّا أبى استَذَلَّ آدمَ وأخرجَه منَ الجنَّةِ.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ أي: اتَّخِذْها مسكَنًا، وهو محلُّ السُّكونِ، ومنه:

السِّكِّينُ، للآلةِ التي تُسَكِّنُ حركةَ الحيوانِ، ومنه: المسكينُ، لعلَّةِ تصرُّفِه وحركتِه.

﴿أَنتَ﴾: تأكيدٌ للضَّميرِ الذي في الفعلِ، ولا يجوزُ: اسكُنْ وزَوجُكَ، إلّا في الضَّرورةِ، ومثلُه: ﴿اذهب أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤].

﴿وَزَوْجُكَ﴾ يعني: حـوَّاءَ، **والاختيارُ** حذفُ الهاءِ؛ لأنَّ الإضـافةَ لازمـةٌ لهذا الاسمِ، فاكتَفَى بالإضافةِ عن الهاءِ، وعند الكسائيِّ: «الزَّوجةُ» أفصحُ منَ «الزَّوجِ»[(١)].

ثمَّ قيلَ: خُلِقَتْ حوَّاءُ قبلَ إدخالِ آدمَ الجنّةَ، بدليلِ قولِه: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وعلى هذا يجوزُ أن يُقالَ: جرَى هذا الخطابُ قبلَ دُخولِ الجنّةِ، ويجوزُ أن يُقالَ: جرَى بعد دخولِ الجنّةِ.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ وابنُ مسعودٍ رضيَ الله تعالى عنهما: خُلِقَتْ حوَّاءُ في الجنّةِ، وذلك أنَّ الله تعالى ألقَى النَّومَ على آدمَ، وأخرَجَ منه ضِلعَه القُصْرَى منَ الجانبِ الأيسرِ، وخلَقَ منها حوّاءَ، فلما انتبَه سألَتْه الملائكةُ عن اسمِها امتحانًا له، فقالَ: حوَّاءُ؛ لأنَّها خُلِقَتْ من شيءٍ حيٍّ[(٢)]. وعلى هذا يجوزُ أن يُقالَ: جرى الخطابُ بهذا في الجنَّةِ بعد خلقِ حوَّاءَ أم قبلَها[(٣)]، ويجوزُ أن يُقالَ: جرَى قبلَ إسكانِه الجنّةَ، كما تقولُ: اسكُنْ أنتَ وزَوجُكَ دارَ كذا، لمَن يُريدُ أن يتزوَّجَ ولـم يتزوَّجْ بعدُ، على معنى أنَّها ستصيرُ زوجَه.

---

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٢/ ٣٧٨)، ونقل حذف الهاء عن الأصمعي، وقال: والاختيار ما قاله الأصمعي، لأن القرآن كله عليه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٤٨) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود، وفي إسناده مقال تقدم.

(٣) في (أ): «أم قبل خلقها».

﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ قالَ قومٌ: ليست هذه الجنَّةُ جنَّةَ الخلدِ، بل كانت بُستانًا من بساتينِ الدُّنيا، ولو كانت جنَّةَ الخلدِ لعلمَ آدمُ ذلك، ولَـمَا طمعَ في جنَّةِ الخلدِ وهو فيها، ولَـمَا وصلَ إليه إبليسُ، وهذا قولُ المُعتزلةِ، **وهو تحكُّمٌ**.

والذي عليه المسلمونَ: أنَّ هذه جنَّةُ الخلدِ؛ لأنَّ الله عرَّفَها بالألفِ واللّامِ، ومَن قالَ: «أسألُ الله الجنّةَ» لـم يُفهَمْ في تعارُفِ الخلقِ إلا[1] طلبُ جنَّةِ الخلدِ، ولا يستحيلُ في العقلِ دخولُ إبليسَ جنَّةَ الخلدِ لتغريرِ آدَمَ، وقد قيلَ: كانَ آدمُ خرَجَ إلى بابِ الجنَّةِ فوَسْوَسَ إليه إبليسُ.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الرَّغَدُ: سَعةُ العيشِ، يُقالُ: عَيْشٌ رَغْدٌ ورَغَدٌ ورَغيدٌ.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ «حيثُ» مبنيٌّ على الضَّمِّ تشبيهًا بالغايةِ، نحو: قبلُ وبعدُ.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ أي: لا تأكُلا منها، يُقالُ: قَرِبَه يَقْرَبُه من بابِ حَـمِدَ يَحْمَدُ، وقَرُبَه يَقْرُبُه قُرْبانًا وقُرْبًا، من بابِ عَظُمَ يعظُمُ.

والشَّجرةُ: ما له ساقٌ يبقى في الشِّتاءِ.

ثمَّ قيلَ: كانت تلك الشَّجرةُ الكَرْمَ. وقيلَ: التِّينَ. وقيلَ: الأُترُجَّ.

وقالَ الأكثَرون: السُّنبلةَ.

قال وَهبٌ: كانتِ الحبَّةُ منها ككِلْيةِ البقرِ، أحلى منَ العسلِ، وألْيَنَ من الزُّبدِ[2].

وقيلَ: أعلَمَنا أنَّه نهاه عن أكلِ شجرةٍ مُعيَّنةٍ ولم يُعيِّنْها لنا.

وكانَ الإمـامُ والـدي رحمَـه الله يقـولُ: يُعلَـمُ علـى الجملـةِ أنَّها كانَتْ شـجرةَ المِحْـنةِ.

---

(١) في (أ): «إلا في».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٥٣).

ويُسمَّى الشَّجرُ شجرًا لتشابُكِ الأغصانِ، يُقالُ: شجَرَ بينَهم شيءٌ.

وقالَ البجليُّ: نُهِيَ عن الأكلِ فعصَى بالذَّوقِ، فمَن نُهِيَ عن المُسكرِ يعصي بشُربِ اليسيرِ.

ثمَّ للعلماءِ هاهُنا اضطِرابٌ، فقال قومٌ: لم يكُنْ ذلك معصيةً من آدمَ، وعلى هذا قال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ: سقَتْه حوَّاءُ الخمرَ فسَكِرَ، فأكلَ منَ الشَّجرةِ، وكانَ يحلِفُ بالله إنَّه ما أكلَ منَ الشَّجرةِ وهو يعقلُ[1].

وقالَ قومٌ: كانَ تركَ الأولى، وكانَ النَّهيُ نهيَ تنزيهٍ.

وقالَ قومٌ: نُهِيَ عن جنسِ تلك الشَّجرةِ، فحَمَلَ النَّهيَ على واحدةٍ بعينِها، فكانَ خطؤُه بالتَّأويلِ.

وقيلَ: نسيَ الخطابَ.

وقالَ قومٌ: كانَ ذلك منه معصيةً مُحقَّقةً.

ثمَّ على هذا قيلَ: كانَ ذلك قبلَ النُّبوّةِ.

وقيلَ: بعد النُّبوّةِ، ويجوزُ على الأنبياءِ الصَّغائرُ فيما لا يتعلَّقُ بالتَّبليغِ.

وإخراجُ آدمَ منَ الجنّةِ بسببِ أكلِ الشَّجرةِ علامةٌ ظاهرةٌ على أنَّ ما جرَى منه كانَ ذنبًا، وقولُه: ﴿فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨] معناه: ترَكَ أمرَ الله، أو نسيَ الوعيدَ مع ذكرِ النَّهيِ؛ إذ يبعُدُ النِّسيانُ مع قولِ إبليسَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَتَكُونَا﴾ نصبٌ؛ لأنَّه جوابُ النَّهيِ بالفاءِ، ويجوزُ أن يكونَ جزمًا عطفًا على قولِه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٦٦).

﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظُّلمُ: وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه، و(مَن أشبَهَ أباه فما ظلَمَ)؛ أي: ما وضعَ الشَّبهَ غيرَ موضعِه.

وقيلَ: الظُّلمُ: البَخْسُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]؛ أي: لـم تبخَسْ.

***

(٣٦) ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾؛ أي: استزَلَّـهما، مثلُ: أجابَ واستَجابَ، فمعنى أزلَّـهما؛ أي: حـمَلَهما على الزَّلّةِ بالوسوسةِ، وقولُه: ﴿عَنْهَا﴾ أي: عليها، وإن لـم يجرِ للولدِ ذكرٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أزلَّـهما﴾ يدُلُّ على الزَّلَّةِ، و«على» يُعبَّرُ عنه بـ«عن»، تقولُ: «إذا رضِيَتْ عليَّ بنو فلانٍ»؛ أي: عنِّي.

وقولُه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ منَ الحملِ على الزَّلَّةِ، يُقالُ: زَلَّ بنفسِه؛ أي: أخطأ، وأزَلَّه غيرُه.

وقيلَ: ﴿أَزلَّهما﴾ من زَلَّ عن المكانِ؛ أي: زالَ وعَثَرَ زَلَلًا وزَليلًا.

وقرأ حمزةُ: ﴿فأزالَـهما﴾[1] ليقعَ في مُقابَلةِ قولِه: ﴿ٱسْكُنْ﴾؛ لأنَّه يشيرُ إلى الثَّباتِ، وعلى هذا فقولُه: ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجنَّةِ، وقد جرَى ذِكرُها في قولِه: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ أي: منَ الطّاعةِ إلى المعصيةِ، أو من طِيْبِ العيشِ إلى محنةِ الدُّنيا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٥٣)، و«التيسير» (ص: ٧٣).

ثمَّ؛ قيلَ: دخلَ إبليسُ الجنَّةَ وإنْ كانَ أُخرِجَ منها؛ فإنَّه ما كانَ مُنِعَ منَ السَّماءِ بعدُ، فاحتالَ وتلطَّفَ للحيَّةِ حتَّى دخلَ بينَ لَـحْيَيْها، واختَفَى عن الخَزَنةِ، وأدخلَتْه الحيَّةُ الجنَّةَ واستعلَمَ منَ الطَّاووسِ الشَّجرةَ التي نُهِيَ عنها آدمُ، ثمَّ قربَ منهما وقالَ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [طه: ٤٠]، ذكرَه ابنُ عبَّاسٍ(١).

وقالَ قومٌ: ما دخَلَ إبليسُ الجنَّةَ بعد أن أُخرِجَ منها، فعلى هذا قيلَ: رآه إبليسُ على بابِ الجنَّةِ.

وقيلَ: لا، بل كان إبليسُ في الأرضِ، فأوصَلَ الله تعالى وسوَسَتَه إلى آدمَ كما تجري وسوَسَتُه الآنَ بينَ الآدَميِّين مَجرى الدَّمِ.

ثمَّ؛ مَن قالَ: ما جرى من أكلِ الشَّجرةِ كان معصيةً، قالَ: كانَ الإخراجُ عقوبةً، ومَن لـم يرَ ذلك ذنبًا قالَ: إخراجُهما منَ الجنَّةِ امتحانٌ على طريقِ الابتلاءِ، وهو كما جرَى منَ الشَّدائدِ على الأنبياءِ.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾؛ أي: مـنَ الجنَّـةِ، أو مـنَ السَّـماءِ، أو مـنَ الحـالِ العاليـةِ التـي أنتمـا فيها.

والهبوطُ: النُّزولُ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ(٢).

والدّاخلُ في هذا الخطابِ آدمُ وحوَّاءُ، فأمَّا إبليسُ فهل دخَلَ فيه؟ قالَ قومٌ: بلى، وهو على قولِ مَن يقولُ: دخَلَ الجنَّةَ مع الحيَّةِ.

وقيلَ: لا، بل أُهبِطَ قبلَ آدمَ بمُدَّةٍ، ولكنْ جمعَ الله الجميعَ في الهبوطِ في

---

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٦٣ و٥٦٦) بإسنادين ضعيفين دون ذكر الطاووس.

(٢) في (أ): «أسفل».

الإخبارِ لمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، وعلى هذا فالجنّةُ داخلةٌ في الخطابِ أيضاً، وكذلك الطاووسُ.

وقيلَ: الخِطابُ لآدمَ وحوَّاءَ وذُرِّيَّتِهما.

وقيلَ: قد يُخاطَبُ الاثنانِ بلفظِ الجمعِ؛ لأنَّه أوَّلُ الجمعِ، قالَ الله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]؛ يعني: داودَ عليه السَّلامُ وسُلَيمانَ.

وقيلَ: الخطابُ لآدمَ وحوَّاءَ والحيَّةِ.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ البعضُ منَ الشَّيءِ: طائفةٌ منه، ولـم يُجوِّزِ الأصمعيُّ دخولَ الألفِ واللَّامِ في «بعضٍ» و«كلٍّ»؛ لأنَّهما معروفانِ من غيرِ ألفٍ ولامٍ، وجوَّزَ المُعظَمُ إدخالَ الألفِ واللّامِ في «بعضٍ» و«كلٍّ».

والعدوُّ يصلُحُ للواحدِ والجمعِ، والذَّكرِ والأُنثَى، إذا ذكَرْتَه بمعنى الاسمِ والمصدرِ، وهذه العداوةُ بينَ آدمَ وحوَّاءَ وبينَ إبليسَ؛ فإنَّه امتنعَ منَ السُّجودِ ووسوَسَ بالمعاصي.

وفي الخبرِ أنَّه قال في الحيَّةِ: «ما سالَـمْناهُنَّ منذُ حارَبْناهُنَّ، فمَن ترَكَ شيئًا منهنَّ خيفةً فليس منَّا»(١).

ومَن قال: الخطابُ لآدمَ وحوَّاءَ وذُرِّيتِهما فهذه العداوةُ بين أولادِ آدمَ؛ منَ التَّحاسُدِ، والتَّنافُسِ، واختلافِ الأديانِ، ولا يبعُدُ وقوعُ عداوةٍ ومُنازَعةٍ بينَ آدمَ وحوَّاءَ لـمَّا تناوَلَتْ حوَّاءُ الحَبَّ واغترَّ بها آدمُ.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: موضعُ قرارٍ في الحياةِ والمماتِ.

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٥٢٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيلَ: المُستَقَرُّ بمعنى: الاستقرارِ، كقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]؛ أي: الاستقرارُ.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: هو ما تمتَّعْتَ به، والتَّمتُّعُ: التَّلذُّذُ؛ أي: لكم التَّمتُّعُ بما في الأرضِ منَ الثِّمارِ والنَّباتِ وغيرِها ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقتِ الموتِ، وقيلَ: إلى قيامِ السّاعةِ.

***

(٣٧) ـ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: استقبَلَ، تقولُ: خرَجْنا نتلَقَّى الحجيجَ؛ أي: نستقبلُهم، وكانَ عليه السَّلامُ يتلقَّى الوحيَ؛ أي: يستقبلُه ويأخذُه ويتلقَّفُه.

وقيلَ: (تَلَقَّى)؛ أي: تَلقَّنَ، **وهذا في المعنى صحيحٌ، ولكن لا يجوزُ أن يكونَ** التَّلَقِّي منَ التَّلقينِ في الأصلِ؛ لأنَّ أحدَ الحرفَينِ إنَّما يُقلَبُ ياءً إذا تجانَسا، مثل: «تظنَّى» من «تظنَّنَ»، و«تفضَّى» من «تفضَّضَ»، ولهذا لا يُقالُ: «تقبَّى» من «تقبَّلَ».

والكلماتُ: جمعُ الكلمة، والكلمةُ تقعُ على الكثيرِ كقولِكَ: «كلمةٌ شاعرةٌ»؛ أي: قصيدةٌ، وعلى القليلِ؛ فإنَّ سيبويهِ أوقعَ لفظَ الكلمةِ على الاسمِ المُفردِ، والفعلِ المُفردِ، والحرفِ المُفردِ، واستعملَ لفظَ الكلامِ فيما يُؤلَّفُ من هذه الكَلِمِ الثَّلاثِ.

ثمَّ؛ قُرِئَ: ﴿ءَادَمُ﴾ بالرَّفعِ ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ كقولِه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥].

وقُرِئَ: ﴿آدمَ﴾ بالنَّصبِ ﴿كلماتٌ﴾ بالرَّفعِ[1]، والمعنى واحدٌ؛ لأنَّ ما تلقَّيتَه فقد تلقَّاكَ، ومثلُه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] و: (الظَّالمون)[2].

والمعنَى: أنَّ الله ألهمَ آدمَ كلماتٍ فقالَها، وكانت كلماتِ التَّوبةِ.

---

(١) هي قراءة ابن كثير من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٣)، و«التيسير» (ص: ٧٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قـال ابـنُ عبّـاسٍ: ألهمَـه حتّـى قـالَ: ألـم تخلُقْني بيـدِك؟ ألـم تنفُخْ فـيَّ من رُوحـك؟ ألـم تسـبِقْ رحمتُـك غضبَـك؟ قال: بلـى، قال: فـإنْ تُبْـتُ أراجِعِـيْ أنتَ إلـى الجنَّـةِ؟ [قال: نعـم](١).

وقيلَ: ألهمَه حتّى قالَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقيلَ: ألهمَه حتّى قالَ: بحقِّ محمَّدٍ عليك إلّا قَبِلْتَ توبتي، وكان رأى اسمَه مكتوبًا على ساقِ العرشِ مقرونًا باسمِ الله(٢).

وقيلَ: هي قولُه: أينَ تلك الرَّحمةُ الموعودةُ؟ يعني قولَه: «يرحمُكَ ربُّك» لـمَّا عطَسَ(٣).

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: علَّمه المناسكَ حتّى حجَّ، وفيها أذكارٌ(٤).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٥٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٠٢)، من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. وما بين معكوفتين منهما.

(٢) رواه الآجري في «الشريعة» (٩٥٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٩). قال الحاكم: صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب. وتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع. وقال البيهقي: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٩٠) (٤٠٧) من طريق السدي عمَّن حدَّثه عن ابن عَبَّاسٍ بنحو الخبر السابق من رواية سعيد بن جبير عنه، وزاد فيه: «وعطسْتُ فقلتَ: يرحمك الله». وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس.

وروى الترمذي (٣٣٦٨) من حديث أبي هريرةَ، مرفوعاً: «لما خَلَق الله آدم ونَفخ فيه الروح عطس فقال: الحمدُ لِلَّه، فحَمِدَ الله بإذنه، فقال له ربُّه: رَحِمَك الله يا آدمُ، اذهبْ إلى أولئك الملائكة، إلى ملإٍ منهم جلوس، فقُل: السلامُ عليكم... » الحديث.

(٤) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وليس فيه قصة =

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: رجَعَ عليه بالعفوِ، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ، يُقالُ: تابَ العبدُ إلى الله، وتابَ الله على العبدِ، فتختلفُ الصِّلةُ، وهو كقولِكَ: عادَ فلانٌ إلى الأميرِ، وعادَ الأميرُ عليه بالإحسانِ.

وقيلَ: تابَ عليه؛ أي: وفَّقَه للتَّوبةِ.

وقيلَ: أي: قبِلَ توبتَه.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾؛ أي: العائدُ على العبدِ بالإحسانِ ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: لسَعةِ رحمتِه قبِلَ التَّوبةَ، ولم يقُلْ: فتابَ عليهما؛ إذ في الكلامِ ما يدُلُّ على التَّوبةِ عليهما؛ لأنَّهما قالا: ظلَمْنا أنفُسَنا، وهو كقولِه: ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]؛ أي: إليهما، وقولِه: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]؛ أي: يرضوهُما.

وقيلَ: إنَّما أفردَ «آدمَ» بالذِّكرِ؛ لأنَّه اختصَّ بالإلهامِ والوحيِ وإلقاءِ الكلماتِ إليه.

***

(٣٨) - ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرَّرَ للتَّأكيدِ.

وقيلَ: نزلَتْ إحدى الآيتَينِ بعد الأُخرَى بزمانٍ، فلذلك كُرِّرَ كما كُرِّرَ كثيرٌ من قصصِ القرآنِ.

وقيلَ: الهبوطُ الأوَّلُ منَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لقولِه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾، والثَّاني: من الجنَّةِ إلى السَّماءِ.

= تعليمه المناسك من جبريل، وهذه رواها البيهقي في «الشعب» (٣٩٨٩) عن وهب بن منبه.

وقيلَ: الهبوطُ الأوَّلُ لآدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ والحيّةِ، والثّاني: لآدمَ وذُرِّيّتِه؛ فإنَّهم المُخاطَبون بقولِه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ «إمَّا» حرفُ شرطٍ وجزاءٍ، وأصلُها «إِنْ» التي للشَّرطِ لحِقَها «ما» للتَّأكيدِ؛ أي: فإنْ يأتِكُم ﴿مِّنِّي هُدًى﴾؛ أي: بيانٌ وشرعٌ.

وقيلَ: يعني: الهدايةَ التي يخلُقُها في قلبِ العبدِ.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ قيلَ: أمري ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والحُزنُ غِلَظُ الهمِّ، منَ الأرضِ الحَزْنةِ؛ أي: الغليظةِ.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: مَن أطاعَ فلا خوفٌ عليه، ومَن كفرَ فله الخوفُ والحزنُ في النَّارِ.

والآياتُ: جمعُ الآيةِ، فيحتمِلُ أن يُرادَ بها المُعجِزاتُ، ويحتمِلُ أن يُرادَ بها الآياتُ الدَّالّةُ على وحدانيَّةِ الله ووجودِه، ويحتمِلُ أن يُرادَ بها آياتُ القرآنِ.

والآيةُ في اللُّغةِ: العلامةُ، ومنه: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤]؛ أي: علامةً لإجابتِكَ دُعاءَنا، وكلُّ آيةٍ منَ القرآنِ علامةٌ على مضمونِها، وعلى انقطاعِ التي قبلَها وانقطاعِها عمَّا بعدَها.

وقيلَ: الآيةُ: الجماعةُ، يُقالُ: خرجَ القومُ بآيَتِهم؛ أي: جماعتِهم، فالآيةُ منَ القرآنِ حروفٌ مُجتمعةٌ دالَّةٌ على معنًى مخصوصٍ، وفي مقاديرِ الآياتِ توقيفٌ منَ الشَّارعِ.

وقيلَ: الآيةُ من قولِك: فلانٌ آيةٌ؛ أي: عجَبٌ منَ العجائبِ، فكلُّ آيةٍ مُعجِبةٍ مُعجزةٌ في نفسِها.

﴿وَكَذَّبُوا﴾ عقَّبَ ذكرَ الكفرِ بالتَّكذيبِ تأكيدًا، كما تقولُ: أحسَنَ فلانٌ وأجمَلَ.

وقيلَ: بيَّنَ أنَّ هذا الكفرَ ليس كُفرانَ النِّعمةِ، بل هو الجهلُ بالله.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: تطولُ صُحبتُهم للنَّارِ[1]، فلهذا قالَ: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

* * *

(٤٠) - ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لـمَّا ذكرَ النِّعمَ التي عمَّتِ الخلقَ من ابتداءِ الفطرةِ - كخلقِ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما - ذكرَ ما خُصَّ به بنو إسرائيلَ.

وإسرائيلُ: يعقوبُ، ولا ينصرفُ لاجتماعِ العُجمةِ والتَّعريفِ.

وقيلَ: «إسرَا» بالعبرانيَّةِ بمعنى: إنسانٍ، و«إيل» هو اللهُ، فمعناه: رجُلُ اللهِ، أو: عبدُ اللهِ.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يجوزُ أن يكونَ هذا ذكرَ اللِّسانِ، **والأظهرُ** أنَّه ذكرُ القلبِ. والنِّعمةُ: لفظُ جنسٍ؛ أي: اذكُروا نِعَمي.

وقيلَ: أرادَ بالنِّعمةِ: ما أنعمَ به عليهم من بعثةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، فهي نعمةٌ مُتَّخذةٌ.

---

(١) في (ف): «بطول صحبتهم النار».

وقيلَ: أي: لا تكتُموا ما أنزلتُ عليكم في التَّوراةِ من وُجوبِ تصديقِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ أي: اذكُروه لأتباعِكُم، فهو ذِكرُ اللِّسانِ، وفي الخبرِ: «لو آمَنَ بي عشرةٌ من أحبارِ اليهودِ لآمنَ كلُّهم»[١]، وبنو إسرائيلَ وإنْ ذكروا نِعَمَه كانوا كالنَّاسينَ لـها لـمَّا لـم يمتَثِلُوا أمرَه.

﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: على آبائِكم؛ لأنَّ النِّعمةَ على آبائِهم نعمةٌ عليهم، وهو[٢] كما يُقالُ: هزَمْناكُم يومَ كذا؛ أي: آباؤُنا هزَمُوا آباءَكُم.

قُرِئَ: «نعمتيْ» من غيرِ فتحِ الياءِ، وقُرِئَ بفتحِ الياء[٣].

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ يُقالُ: أوفَيْتُ ووَفَيْتُ بمعنًى.

وقيلَ: وَفَى؛ أي: تمَّ، تقولُ: وفَى هذا الطَّعامُ صاعًا، وأوفاه؛ أي: أتَـمَّه.

وهذا العهدُ هو ما أُخِذَ عليهم في التَّوراةِ منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، وما أمرَهم به على ألسنةِ الرُّسلِ، وعهدُهم عند الله: إدخالُ الجنَّةِ.

ومذهبُ المُعتزلةِ: أنَّ عهدَ الله عليهم ما دلَّتْ عليه العقولُ، وعهدَهم: ما يجبُ لهم منَ الثَّوابِ عقلاً.

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (إياي) نصبٌ بفعلٍ مُضمرٍ؛ أي: إيَّايَ ارهَبُوا فارهَبُون[٤].

---

(١) لم أجده.

(٢) في (أ): «وهذا».

(٣) بفتح الياء قراءة العشرة، وبسكونها رواه المفضل عن عاصم «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢).

(٤) في (ف): «إياي فارهبوا وارهبون»، وفي (أ): «إياي فارهبون». والصواب المثبت. انظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (١/ ٩٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٣٤)، و«الفريد في إعراب القرآن المجيد» (١/ ٢٤٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/)، و«فتوح الغيب» للطيبي (١٠/ ٢٧١)، =

ولا يعملُ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ في ﴿إِيَّايَ﴾؛ لأنَّه مشغولٌ بالضَّميرِ، **ولا يجوزُ**: «إيّايَ فاضرِبْني»، بل تقولُ: «إيَّايَ فاضرِبْ»، وحُذِفَ الياءُ من ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ لأنَّه رأسُ آيةٍ.

* * *

(٤١) - ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ ذكرَ بعضَ ما عهِدَ إليهم؛ أي: آمِنُوا بالقرآنِ ﴿مُصَدِّقٗا﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: بما أنزلتُه مُصدِّقًا ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ من التَّوراةِ؛ أي: مُوافقًا في التَّوحيدِ والنُّبوّةِ.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾؛ أي: أوَّلَ فريقٍ كافرٍ به، فحُذِفَ الموصوفُ.

وقالَ الفرَّاءُ: أي: أوَّلَ مَن يكفُرُ به، فحُذِفَ «مَن» وأُقيمَ الاسمُ المُشتقُّ منَ الفعلِ مُقامَه، وهو الكافرُ، وإنَّما يجوزُ هذا في الاسمِ المشتقِّ كالفاعلِ والمفعولِ، تقولُ: «أنتم أكرمُ جالسٍ»، ولا يجوزُ: «أنتم أكرمُ رجلٍ»، وهو كما يُقالُ: «الجيشُ مُقبلٌ»، فإذا صُرِفَ إلى الاسمِ قيل: «الجيشُ رجالٌ»(١).

﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بما أنزلتُ، أو: بما معَكُم منَ التَّوراةِ إذ كتَمْتُم أمرَ محمَّدٍ، أو: بمحمَّدٍ؛ لأنَّ الكتابَ أُنزِلَ عليه فكأنَّه ذُكِرَ، وعلى هذا يعني: أوَّلَ كافرٍ به من أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ كفَّارَ قُريشٍ كفرُوا قبلَهم، ثمَّ كما لا يجوزُ أن يكونَ العبدُ أوَّلًا في الكفرِ

= و«البحر المحيط» (١/ ٤٧٩)، و«الدر المصون» (١/ ٣١٤). وقدروا الفعل بَعْدَهُ لِانْفِصَالِ الضَّمِيرِ، قال أبو حيان: وتقديرُه قبله وهمٌ من السَّجاونديِّ إذ قَدَّره: وارهبوا إياي.

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٢ - ٣٣)، وفيه: «فإذا صرت» مكان: «فإذا صرف».

لا يجوزُ أن يكونَ ثانيًا فيه أيضًا، ولكنَّه فخَّمَ الأمرَ؛ فإنَّ مَن كفرَ أوَّلًا فعليه وِزرُه ووِزْرُ الأتباعِ أيضًا.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: ذا ثمنٍ؛ لأنَّ الثَّمنَ لا يُشتَرى، بل يُشتَرى ذو الثَّمنِ، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: الاشتراءُ: الاستبدالُ؛ أي: لا تستبدِلُوا بآياتي ثمنًا قليلًا؛ لأنَّ الأحبارَ كانوا يأخُذونَ منَ السَّفلِ شيئًا نَزْرًا، ويكتُمونَ أمرَ محمَّدٍ ﷺ ليبقَى لهم التَّرؤُّسُ، **وهذا لا يدُلُّ** على أنَّه لا[1] يجوزُ أخذُ الثَّمنِ الكثيرِ على الكفرِ؛ لأنَّ متاعَ الدُّنيا قليلٌ بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ.

***

(٤٢) ـ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لبَسْتُ الأمرَ ألبِسُه؛ أي: خلَطْتُه، والباطلُ: الزّائلُ، يُقالُ: بطَلَ يبطُلُ بطولًا وبُطلانًا.

والخطابُ لليهودِ الذين كتبُوا في التَّوراةِ ما ليسَ منها، وغيَّروا نعتَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، فألحقَ إيمانَهم بموسى وقومٍ منَ الأنبياءِ، والباطلُ: إنكارُهم محمَّدًا عليه السَّلامُ، وإنَّما كانَ هذا من قومٍ من رُؤسائِهم يجوزُ عليهم المُواطأةُ على التَّحريفِ.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: لا تلبِسُوا ولا تكتُمُوا، ويجوزُ أن يكونَ نصبًا بإضمارِ «أنْ»، أي: لا يكُنْ منكم لَبسٌ للحقِّ وأن تكتُموه.

وقال الفرَّاءُ: هو نصبٌ على الصَّرفِ، كقولِك:

---

(١) «لا» من (ف).

لا تنـهَ عـن خُلُـقٍ وتأتـيَ مثلَـه[١]

وهكذا قولُه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقولُه: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧][٢].

أي: أنَّ محمَّدًا حقٌّ، فكفرُهم كانَ كفرَ عنادٍ.

وقيلَ: وأنتُم تعلَمُونَ لو نظَرْتُم، وقد يتَّفِقُ من أقوامٍ لا يُحصَونَ الإعراضُ عن الاستدلالِ والإطباقُ على الكفرِ؛ كتوافُقِ الرُّومِ على التَّثليثِ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي الدُّعاءُ. وقيلَ: هي منَ اللُّزومِ[٣].

(١) عجز بيت نسبه سيبويه في «الكتاب» (٣/ ٤١ ـ ٤٢) للأخطل، والزمخشري في «المستقصى» (٢/ ٢٦٠) للمتوكل بن عبد الله الليثي، ونسب أيضاً لسابق البربري وللطرماح كما ذكر البغدادي في «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٨) وقال: والمشهور أنه من قصيدة لأبي الأسود الدؤلي. ودون نسبة في «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤ و١١٥ و٤٠٨)، وعجزه:

عـارٌ عليـك إذا فعلـتَ عظيـم

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣٤ و١١٥ و٤٠٨).

(٣) ومنه: صَلِيَ بالنار: إذا لزمها، ومنه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]، وقال الحارثُ بن عُبَاد:

لَـمْ أَكُـنْ مِـن جُنَاتِهـا علـم اللَّـ ـهُ وإنِّـي بحرِّهـا اليـومَ صـالِ

أي: ملازمٌ لحرِّها، وكأنَّ المعنى على هذا ملازمةُ العبادة على الحدِّ الذي أَمر اللهُ تعالى به. انظر: «تفسير القرطبي» (١/ ٢٦٠).

واختار هذا المعنى الزجاج حيث قال: يقال: صَلِيَ وأَصْلَى واصْطَلَى: إِذَا لَزِم. ومن هذا من يُصْلى في النار، أي: يلزَم. قال: والقول عندي هذا؛ لأن الصلاة من أعظم الفرض الذي أمر بلزومه، وألزم ما أمر به من العبادات.

قال الواحدي: ومن اختار هذه الطريقة قال: معنى قولهم للداعي إذا دعا: «صلى» معناه: أنه لزم الدعاء =

وقيلَ: أصلُها: الانتصابُ، يُقالُ: صلَّى الحِرْباءُ؛ أي: انتصَبَ نصفَ النَّهارِ.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الزَّكاةُ: إصلاحُ المالِ وتطهيرُه وتنميتُه وتثميرُه، وأصلُها الزِّيادةُ، يُقالُ: زَكا الزَّرعُ زكاءً؛ أي: زادَ، ورجلٌ زكيٌّ؛ أي: زائدُ الخيرِ، فالزَّكاةُ تزيدُ في المالِ.

وقيلَ: أصلُها الطَّهارةُ، فالزَّكاةُ تُطهِّرُ المالَ.

وقيلَ: أصلُها الثَّناءُ الجميلُ، ومنه: زكَّى القاضي الشّاهدَ، وكأنَّ مَن يُخرِجُ الزَّكاةَ يحصِّلُ لنفسِه الثَّناءَ الجميلَ.

﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ الرُّكوعُ: الانحِناءُ؛ أي: صلُّوا معَ أصحابِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، فعبَّرَ عن الصَّلاةِ بالرُّكوعِ لأنَّه ركنٌ منها.

وقيلَ: لأنَّه أوَّلُ ما يُخالِفُ من أفعالِ المُصلِّي أفعالَ العادةِ، وأعادَ هذا مع قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تحريضًا على الصَّلاةِ في الجماعةِ.

وقيلَ: لأنَّه لـم يكُنْ في دينِ اليهودِ ركوعٌ.

وقيلَ: ﴿وَٱرْكَعُواْ﴾؛ أي: تذلَّلُوا لله بالطّاعةِ.

* * *

(٤٤) ـ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ هو استفهامُ توبيخٍ، والبرُّ: أعمالُ الخيرِ، والبرُّ[1]: الصِّدقُ، ومنه: بَرَّ في يمينِه؛ أي: صدَقَ؛ أي: أنتم معشرَ اليهودِ تأمرونَ النّاسَ بالتَّمسُّكِ بالتَّوراةِ، ثمَّ تُحرِّفون التَّوراةَ.

= لشدة حاجته إلى الإجابة. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٣٢)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ٧٥).

(١) في (أ): «وقيل البر».

وقيلَ: أي: كنتُم تأمرونَ النّاسَ بالإيمانِ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ قبلَ مبعثِه، فلما بُعِثَ كفرتُم به.

وقيلَ: أشارَ إلى أنَّهم كانوا يقولونَ لأقاربِهم الذين أسلَمُوا: اثبُتوا على ما أنتم عليه، فقيلَ لهم: تأمُرونَهم بالإسلامِ ولا تُسلِمون أنتم[1].

﴿وَتَنسَوْنَ﴾؛ أي: تترُكونَ، ومنه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أي: تركَهم.

﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: تقرؤُونَ التَّوراةَ وفيها صفةُ محمَّدٍ، والتِّلاوةُ من إتباعِ الحروفِ، يُقالُ: تلاه يتلوه؛ أي: تبعَه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ألا تعلَمونَ أنَّ من أمرَ بالبرِّ فعليه فعلُه؟ أفلا تعلمونَ أنَّ محمَّدًا حقٌّ حتَّى تتَّبعوه؟ وأصلُ العقلِ المنعُ، ومنه: عِقالُ البعيرِ؛ لأنَّه يمنعُه عن الحركةِ، ومنه: العقلُ، للدِّيةِ؛ لأنَّه يمنعُ وليَّ المقتولِ عن قتلِ الجاني، ومنه اعتقالُ[2] البطنِ واللِّسانِ، ومنه يُقالُ للوعلِ: عاقلٌ، وللحصنِ: مَعْقِلٌ، فالعقلُ يمنعُ الآدميَّ عن التَّورُّطِ في المهالكِ.

والتَّوبيخُ في هذه الآيةِ سببُ تركِ فعلِ البرِّ، لا سببُ الأمرِ[3] بالبرِّ.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

قولـه تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ الصَّبرُ: الحبسُ في اللُّغةِ، وقُتِلَ فلانٌ

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٤) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) في (أ): «اعتقل».

(٣) في (أ): «بسبب الأمر».

صبرًا؛ أي: أُمسِكَ فأُتلِفَ، وصبَرْتُ نفسي على الشَّيءِ؛ أي: حبَسْتُ؛ أي: استعينوا بالصَّبرِ على الطَّاعةِ وعن المُخالفةِ، وخصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ تنويهًا بذكرِها، كقولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقولِه: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨].

وقيلَ: الصَّبرُ: الصَّومُ، ويُقالُ لشهرِ رمضانَ: شهرُ الصَّبرِ؛ لأنَّ الصّائمَ يحبسُ نفسَه عن المُفطِّراتِ، فهذا أمرٌ بالصَّومِ والصَّلاةِ، وكانت الأحبارُ كتَمُوا أمرَ محمَّدٍ ﷺ لحبِّ التَّرؤُّسِ في الدُّنيا، فقيلَ لهم: استَعينُوا بالصَّومِ الذي هو تركُ الشَّهواتِ، وبالصَّلاةِ التي تنهى عن الفحشاءِ والمُنكرِ ليزولَ عنكم طلَبُ الرِّئاسةِ في الدُّنيا.

وقال الحسنُ: أي: استعينُوا بالصَّبرِ على الصَّلاةِ[1]، وأرادَ جميعَ الدِّينِ، فخصَّ الصَّلاةَ لعِظَمِ مكانِها منَ الدِّينِ.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: إنَّهما، ولكنْ كنَى عن الأغلبِ وهو الصَّلاةُ، كقولِه: ﴿الذين يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١].

وقيلَ: أي: وإنَّ كلَّ خصلةٍ منهما لكبيرةٌ، كقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقيلَ: أي: وإنَّ الصَّلاةَ لثقيلةٌ على الكفّارِ.

وقيلَ: أي: والاستعانةُ بهما ثقيلةٌ عليهم، وقولُه: ﴿اسْتَعِينُوا﴾ يدلُّ على المصدرِ.

---

(١) ذكره إلى هنا الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٣) دون نسبة وزاد: كقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقيلَ: العربُ قد تذكرُ شيئَينِ ثمَّ تُخبِرُ عن أيِّهما شاءَتْ إذا كانَ في المذكورِ دلالةٌ على الآخرِ، قالَ الله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقالَ: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ١١٢].

وقيلَ: يعني: وإنَّ الكعبةَ والتَّوجُّهَ إليها لثقيلةٌ على اليهودِ والنَّصارى، كما قالَ: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذلك أنَّهم أُمِرُوا بالصَّلاةِ مع المُسلمين والتَّوجُّهِ إلى الكعبةِ.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾؛ أي: ثقيلةٌ، وهو كقولِه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ الخشوعُ: السُّكونُ، ومنه: ﴿خَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ﴾ [طه: ١٠٨]؛ أي: سكنَتْ، وجدارٌ خاشعٌ؛ أي: ساقطٌ، والمُطيعُ خاشعٌ لسكونِه إلى الطَّاعةِ.

***

(٤٦) - ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ هذا صفةُ الخاشعِ، والظَّنُّ بمعنى اليقينِ هاهُنا، كقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١٠]؛ أي: تيقَّنُوا؛ لأنَّ هذا هو الذي يليقُ باليأسِ، وقولِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠]؛ أي: تيقَّنْتُ، وقولِه: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

وقيلَ: إنَّما قالَ: ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنَّ المؤمنَ وإنْ آمنَ بالآخرةِ فمستَنَدُ الإيمانِ النَّظرُ اليومَ، فيَقرُبُ الحالُ منَ التَّردُّدِ ونوازعِ النَّفسِ، وكأنَّ العلمَ اليومَ بالنِّسبةِ إلى العلمِ الضَّروريِّ غدًا ظنٌّ.

وقيلَ: معنى الكلام: أمرُ اليهودِ بالصَّلاةِ والصَّبرِ، ثمَّ قالَ: وإنَّها لكبيرةٌ على

المُشركينَ الذين لا يُؤمنونَ بالبعثِ، فأمَّا أنتم أيُّها اليهودُ فقد خشعتُم وقبِلتُم الشَّرائعَ، فإنْ لـم يكُنْ معكم علمٌ بالقيامةِ فمعكم ظنٌّ، فأنتم أقربُ إلى امتثالِ أوامرِ الله.

وعلى هذا: فمع المُؤمنِ يقينُ العلمِ بالحشرِ، ومـع أهلِ الكتابِ ظنٌّ لأنَّهم حرَّفُوا وبدَّلُوا وطالَتْ عهودُهم بأنبيائِهم.

وقيلَ: أي: يظنُّونَ أنَّهم مُلاقو ربِّهم بذنوبِهم، فرجعَ الظَّنُّ إلى هذا لا إلى اعتقادِ الحشرِ.

﴿مُلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: مُلاقـو حسابِ ربِّهم، واللِّقاءُ والمُلاقاةُ بمعنى العيانِ، فعلى هذا معناه: ترجُونَ لقاءَ الله، فيرجعُ الظَّنُّ إلى هذا.

ومُعظَمُ المُفسِّرين يحملونَ اللِّقاءَ في القرآنِ على البعثِ والمصيرِ إلى الله، ورُؤيةِ الثَّوابِ والعقابِ، والأصلُ: مُلاقونَ ربَّهم، كما تقولُ: «زيدٌ ضاربٌ عمرًا غدًا»، فحُذِفَ النُّونِ كقولِه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقولِه: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ [الدخان: ١٥]، و: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وتقولُ في الماضي: «هو ضاربُ زيدٍ أمسِ»، فيجبُ حذفُ النُّونِ؛ لأنَّ الماضيَ لا يُضارِعُ الاسمَ، والاسمُ الذي يُذكَرُ بمعنى الماضي لا يُزالُ عن أصلِه، فلم يجُزْ إلا الجرُّ، فأمَّا المُستقبلُ فيُضارعُ الاسمَ، فالاسمُ الذي يُذكَرُ للحالِ أو الاستقبالِ يجوزُ الجرُّ به لأنَّه اسمٌ، ويجوزُ النَّصبُ به لأنَّه يُشبهُ الفعلَ المُضارعَ.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ أي: يُصدِّقونَ بالبعثِ إليه؛ أي: إلى أمرِه، أو إلى المكانِ الذي لا ينفذُ فيه غيرُ حكمِه.

وقيلَ: ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يرقُبونَ الموتَ والرُّجوعَ إلى الله تعالى في كلِّ لحظةٍ.

* * *

(٤٧) - ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أعادَ تأكيدًا للحجّةِ عليهم.

﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ التَّفضيلُ: الزِّيادةُ على التَّسويةِ، ويُقالُ: فضَّلتُه؛ أي: حكَمْتُ له بزيادةِ الفضلِ؛ أي: فضَّلتُكم على عالَمي زمانِكم، والخطابُ للموجودينَ في وقتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والمُرادُ سلَفُهم؛ لأنَّهم الذين جعلَ فيهم الأنبياءَ، ثمَّ في[1] تفضيلِ الآباءِ شرفُ الأبناءِ.

وقيلَ: فضَّلتُكم على البهائمِ في الخلقةِ دونَ النَّاسِ.

وقيلَ: فضَّلتُكم في كثرةِ الأنبياءِ منكم، فهو مُقيَّدٌ كما تقولُ: «زيدٌ أفضلُ من عمرٍو في الشَّجاعةِ»، ثمَّ قد يكونُ عمرٌو أفضلَ منه في خصالٍ أُخرَ، فلا بدَّ منَ التَّخصيصِ كقولِه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثمَّ كما فضَّلَ بني إسرائيلَ بكثرةِ الأنبياءِ فضَّلَ هذه الأمّةَ بمحمّدٍ عليه السّلامُ، فهم مأمورونَ بشُكرِ النِّعمةِ.

قالَ عمرُ: قد مضى واللهِ بنو إسرائيلَ، وما يُعنَى بما تستمِعُون غيرَكم[2].

وفائدةُ الأقاصيصِ: التَّنبيهُ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

(٤٨) - ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ ثمَّ توعَّدَهم على تركِ الشُّكرِ فقالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾؛

---

(١) «في» من (أ). وفي «البسيط» للواحدي (٢/ ٤٦٧): «لكن في».

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣/ ٤٩٣)، وفيه: «... وما يُغْني ما تَسمعون عن غيركم».

أي: عذابَ يومِ القيامةِ ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا تقضي ولا تُغني منَ الجزاءِ، وهو المُكافأةُ، يُقالُ: «جَزَى يجزي» من غيرِ همزٍ، و«أجزَأَ» بالهمزِ «يُجزِئُ»، وفي الخبرِ: «البقرةُ تُجزِئُ عن سبعةٍ»، ويجوزُ: «تُجزِي»، ويُقالُ: «جزَيتُ فلانًا»؛ أي: كافَيتُه، و: «جزَيتُ عن فلانٍ» كما تقولُ: «هذه أُضحيةٌ تُجزِئُ عن فلانٍ»، وفي حديثِ أبي بردةَ: «تُجزِئُك ولا تُجزِئُ أحدًا بعدَكَ»[1]؛ أي: تنوبُ عن أُضحيتِك.

ثمَّ؛ قالَ الفرَّاءُ: أي: لا تُجزِي نفسٌ عن نفسٍ فيه شيئًا، فحُذِفَ «فيه»[2]، كقولِه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [غافر: ١٨]؛ أي: ما للظالمينَ فيه من حميمٍ[3].

وقال الكسائيُّ: المحذوفُ الهاءُ؛ أي: اتَّقُوا يومًا لا تجزيهِ نفسٌ عن نفسٍ شيئًا،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٨١) و(١٨٦٩١) و(١٨٦٩٣)، والبخاري (٩٥٥) وأطرافه، ومسلم (١٩٦١)، وأبو داود (٢٨٠٠)، من حديث أنس رضي الله عنه. وكل رواياته صحيحة الإسناد لكن روايات الصحيحين جميعها وقع فيها الفعل بالياء وفتح التاء. قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ١٤): قوله: «تجزي» بفتح أوله غير مهموز؛ أي: تقضي، يقال: «جزى عني فلانٌ كذا»؛ أي: قضى، ومنه ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ أي لا تقضي عنها، قال ابن بري: الفقهاء يقولون: «لا تُجزئ» بالضم والهمز في موضعِ: لا تقضي، والصواب بالفتح وترك الهمز، قال: لكن يجوز الضم والهمز بمعنى الكفاية، يقال: أجزأ عنك. وقال صاحب «الأساس»: بنو تميم يقولون: «البدنة تُجزِئُ عن سبعة» بضم أوله، وأهل الحجاز: «تَجْزي» بفتح أوله، وبهما قرئ ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾. وفي هذا تعقب على من نقل الاتفاق على منع ضم أوله.
قلت: كلام الزمخشري في «أساس البلاغة» (مادة: جزأ)، وقراءة ﴿تَجْزِى﴾ هي قراءة الجمهور، والأخرى شاذة نسبت لأبي السمال العدوي كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢ـ١٣)، وقول الحافظ: « وفي هذا تعقب على من نقل الاتفاق على منع ضم أوله» لعله يريد النووي الذي قال في «شرح مسلم» (١٣/ ١١٢): هو بفتح التاء، هكذا الرواية فيه في جميع الطرق والكتب.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٣١ ـ ٣٢)، و«البسيط» للواحدي (٢/ ٤٧٠).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٢/ ٤٧٠).

فجُعِلَ اليومُ مفعولًا على التَّوسُّعِ، ثمَّ حُذِفَ الهاءُ كما تقولُ: «رأيتُ رجلًا أُحِبُّ»؛ أي: أُحِبُّه، وحذفُ الهاءِ أهونُ من حذفِ «فيه»، تقولُ: «الذي ضربتُ زيدًا»؛ أي: الذي ضربتُه، ولا تقولُ: «الذي رغبتُ بزيدٍ» بمعنى: الذي رغبتُ فيه، ولا يُقالُ: «الذي مررتُ زيدًا»؛ أي: الذي مررتُ به زيدٌ[1].

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يقالُ: قبِلَه قُبولًا وقَبولًا، بالضَّمِّ والفتحِ.

وقُرِئَ: ﴿تُقبَلُ﴾ بالتَّاءِ لتدُلَّ التَّاءُ على الشَّفاعةِ، وقُرِئَ بالياءِ[2]؛ لأنَّ التَّأنيثَ في الشفاعة ليس بحقيقيٍّ، والشَّفعُ والشَّفاعةُ بمعنًى، كالموعظةِ والوعظِ، وكالصَّيحةِ والصَّوتِ، ولهذا قالَ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وأيضًا يحسُنُ التَّذكيرُ مع الفصلِ بين الاسمِ والفعلِ بشيءٍ، كقولك: «حضرَ القاضيَ اليومَ امرأةٌ»، وفي أثرِ ابنِ مسعود: ذكِّروا القرآنَ، وإذا اختلَفْتُم في الياءِ والتَّاءِ فاجعلوها ياءً[3].

والشَّفاعةُ: أن تطلُبَ لصاحبِكَ حاجةً، والشَّفعُ: ضِدُّ الوترِ، فكأنَّ صاحبَ الحاجةِ كان فردًا فصارَ بالشَّفيعِ شفعًا؛ أي: زوجًا، ونزلتِ الآيةُ في اليهودِ لـمَّا قالت: يشفعُ لنا آباؤُنا الأنبياءُ، فردَّ عليهم، والآيةُ عامَّةٌ، فيخصُّها بأخبارِ الشَّفاعةِ؛ أي: لا تُقبَلُ الشَّفاعةُ إلّا لمن أذِنَ له في الشَّفاعةِ، أو أرادَ: لا شفاعةَ لمَن ماتَ على الكفرِ، ومعنى الآيةِ: لا يكونُ ثَمَّ شفاعةٌ للكفَّارِ حتَّى يُفرضَ قَبولٌ، كقولِه: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]؛ أي: ليس منهم سؤالٌ فيكونَ إلحافٌ.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتاء وباقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٤)، و«التيسير» (ص: ٧٣).

(٣) رواه ابن وهب في «الجامع» (٨٦ ـ تفسير)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٦٣ ـ تفسير)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٢٧٧).

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ عَدْلُ الشَّيءِ وعِدْلُه: مِثلُه؛ أي: لا يُؤخَذُ منها فداءٌ، يُقالُ: ما يعدِلُكَ عندَنا شيءٌ؛ أي: لا يُماثِلُكَ.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ النَّصرُ: حُسنُ المعونةِ.

* * *

(٤٩) - ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ هذا وما بعدَه تذكيرُ بعضِ النِّعمِ التي كانَتْ له عليهم؛ أي: اذكُروا نعمَتي بتكثيرِ عددِكُم وجَعْلِ الأنبياءِ فيكم، ونعمتي ﴿إذ نَجَّيْنَاكُم﴾ يعني: أنجَيْنا آباءَكُم كما قالَ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي: حمَلْنا آباءَكُم.

وقيلَ: إنَّما قالَ: ﴿نَجَّيْنَاكُم﴾[1] لأنَّ نجاةَ الآباءِ كانَ سببًا لنجاةِ هؤلاء الموجودين.

وقيلَ: لأنَّ مفاخرَ الآباءِ مفاخرُ الأبناءِ.

﴿نَجَّيْنَاكُم﴾: ألقَيناكُم على نَجْوةٍ من الأرضِ؛ وهي: ما ارتفعَ منَ الأرضِ، والنّاجي: مَن خرَجَ من ضيقٍ إلى سعةٍ.

﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: من قومِه، منَ الأَوْلِ؛ وهو الرُّجوعُ، فآلُ الرَّجلِ: مَن يرجعُ إليهم ويرجِعونَ إليه، ومنه: الآلُ، للسَّرابِ؛ لأنَّه يرجعُ بعضُه إلى بعضٍ كالماءِ، وآلُ الرَّجلِ: شخصُه؛ لأنَّه لا يُفارِقُه، فهو مرجعُه، والأصلُ: «أأْل»، فأُبدِلَتْ من إحداهما مَدَّة.

---

(١) في النسختين: ﴿أَنجَيْنَاكُم﴾ وهي في الأعراف (١٤١)، والتي هنا: ﴿نَجَّيْنَاكُم﴾.

وقيلَ: ﴿ءَالِ﴾؛ أي: أهلِ، فأُبدِلَت الهاءُ همزةً مثل: إيّاكَ وهيَّاكَ، فصارَ «أأْل» ثمَّ أُبدِلت الهمزةُ الثّانيةُ ألفًا، كما قالوا: «آدم وآخر»، فالألفُ في «آل» بدلٌ من بدلٍ، كالتّاءِ في القَسَمِ بدلٌ من بدلٍ، ولهذا لا يُستَعملُ الآلُ في كلِّ موضعٍ يُستَعملُ فيه الأهلُ، تقولُ: «انصرِفْ إلى أهلِكَ»، ولا تقولُ: «إلى آلِكَ»، وإنَّما يُذكَرُ الآلُ في الأخصِّ، يُقالُ: آلُ الله، وآلُ رسولِه، وهذا كما أنَّ التّاءَ في القسمِ بدلٌ منَ البدلِ، واختصَّتْ بأشهَرِ الأسماءِ وهو «الله»، والتَّصغيرُ على هذا القولِ: «أُهَيْلٌ»، وعلى القولِ الأوَّلِ: «أُوَيلٌ».

﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو اسمٌ لملوكِ العمالقةِ، مثلُ: «قيصَر» لملوكِ الرُّومِ، و«كِسرى» لملكِ الفُرسِ، و«خاقان» لملكِ التُّركِ.

وقيلَ: «فرعون» بلغةِ القبطِ: التِّمساحُ، واسمُ فرعونِ موسى: الوليدُ بنُ مصعبٍ.

وقيلَ: اسمُه: مصعبُ بنُ الرَّيانِ.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾؛ أي: يُجشِّمُونَكم المشقَّةَ، يُقالُ: سُمتُه الخسفَ.

وقيلَ: أي: يحكُمونَ عليكم بذلك، يُقالُ: هو مسومٌ فيما بينَه وبينَ نفسِه؛ أي: مُحكَّمٌ.

وقيلَ: السَّومُ: عرضُ السِّلعةِ على المبيعِ، والمعنى: يعرِضُونكم على سوءِ العذابِ، وسوءُ العذابِ: أشقُّه، وإنْ كانَ العذابُ كلُّه سيِّئًا.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ يجوزُ أن يكونَ هذا تفسيرَ سوءِ العذابِ، ويجوزُ أن يكونَ شيئًا آخرَ، كما تقولُ: قد أكرمتُكَ، قد وهَبْتُ لكَ، قد ولَّيْتُكَ الولاياتِ، فتُعدِّدُ المِنَنَ عليه من غيرِ حرفِ النَّسقِ، وقد قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فجاء بحرفِ العطفِ فيه.

والعذابُ: أنَّه استخدَمَهم في البناءِ والزَّرعِ والأعمالِ الشَّاقَّةِ، وضرَبَ عليهم الجِزيةَ والخراجَ جميعًا.

والذَّبحُ: الشَّقُّ، والذُّبَاحُ ـ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ ـ: تشقُّقٌ في الرِّجلِ، ومنه: سعدٌ الذَّابحِ؛ لأنَّه يَطْلَعُ في وقتٍ يَحدثُ فيه الشّقاقُ في الرِّجلِ للبردِ، ومنه قولُهم: إذا طلعَ الذَّابحُ انحجزَ النّابحُ.

والأبناءُ: جمعُ الابنِ.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ أي: يستَبْقُونَ، وهو منَ الحياةِ، وفي الخبرِ: «اقتُلوا شيوخَ المُشركينَ واستَحْيُوا شَرْخَهم»[١]، واستحياءُ النِّساءِ لسببِ الاستخدامِ، والإذلالُ عذابٌ.

وقيلَ: يستحيُونَ؛ أي: يُفتِّشونَ حياءَ المرأةِ ليُنظَرَ هل بها حملٌ؟

ومَن قالَ: (أرادَ استبقاءَ البناتِ) قالَ: لفظُ النِّساءِ يتناوَلُ الصِّغارَ كما يتناولُ الكبارَ.

وقيلَ: سمَّى البناتِ نساءً على تقديرِ أنَّهن يصِرْنَ نساءً، وإنَّما كانوا يذبحونَ الذُّكورَ منَ الصِّبيانِ؛ لأنَّ الكهنةَ أو المُنجِّمينَ[٢] أخبروهم أنَّ زوالَ أمرِ القِبْطِ على يدِ صبيٍّ يُولَدُ في ذلك الزَّمانِ من بني إسرائيلَ، ثمَّ لمَّا أسرعَ في بني إسرائيلَ القتلُ قالتِ القِبْطُ: إذا لم يبقَ منهم رجلٌ وقعتِ الأعمالُ الشَّاقَّةُ علينا، فأمرَ بذبحِ ذكورِ الأولادِ سنةً وتركِهم سنةً[٣]، فوُلِدَ هارونُ عليه السَّلامُ عامَ تركِ الذَّبحِ، وموسى عليه السَّلامُ عامَ الذَّبحِ.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ هو منَ البَلْوِ، وهو التَّجرِبةُ، ويُستعملُ في الشِّدَّةِ والنِّعمةِ،

---

(١) رواه الترمذي (١٥٨٣) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه وزاد: «والشَّرْخُ: الغلمانُ الذين لم يُنْبِتوا»، وقال: حسن صحيح.

(٢) في (أ): «والمنجمين».

(٣) ذكره مكي في «الهداية» (١/ ٢٦١) عن السدي.

قالَ الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فيحتمِلُ هاهنا أنَّه أرادَ: وفي ذَبحِ الأبناءِ واستحياءِ النِّساءِ بلاءٌ ومحنةٌ، ويحتمِلُ: وفي تَنجِيَتِنا إيَّاكم من هذه المِحَنِ بلاءٌ.

***

(٥٠) - ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: فصَلْنا بعضَ البحرِ عن بعضٍ حتَّى تتوسَّطُوه، وذلك أنَّ الله فرَقَ البحرَ اثني عشرَ طريقًا حتَّى خاضَ فيه بنو إسرائيلَ.

وقيلَ: أي: فرَقْنا بينكم وبينَ الماءِ، وحجَزْنا الماءَ عنكم ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ حتَّى لـم تغرَقُوا، والأوَّلُ أصحُّ.

وسُمِّيَ البحرُ بحرًا لاستبحارِه وسَعتِه، واستبحرَ فلانٌ في العلمِ؛ أي: اتَّسَعَ، وتبحَّرَ فلانٌ في المالِ والعلمِ.

وقيلَ: سُمِّيَ البحرُ بحرًا لأنَّه شُقَّ في الأرضِ، والبحرُ: الشَّقُّ، ومنه: البَحِيرةُ.

وقيلَ: أبحرَ الماءُ؛ أي: صارَ ملحًا، والماءُ البحرُ: هو الماءُ الملحُ.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾؛ أي: خلَّصْناكم وألقيناكم على نَجْوةٍ لئلَّا تَهْلِكُوا.

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ لم يذكُر هاهنا فرعونَ، ولكن ذكرَ تغريقَه في مواضعَ أُخرَ.

وقيلَ: أرادَ بآلِ فرعونَ نفسَه.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى انفراقِ البحرِ لكم، وإلى إهلاكِ الله قومَ فرعونَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لـم ينظُروا إليهم حينَ غرقوا، ولكن أُخرِجُوا فنظروا إليهم، والقومُ في وقتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ ما نظَروا إلى هذا الذي أخبرَ به، ولكنْ سلَفُهم.

وقيلَ: وأنتم بحيثُ لو نظَرتُم إليهم لرأيتُموهُم.

وقيلَ: شُغِلَ بنو إسرائيلَ بهَولِ البحرِ عن أن يرَوهم، ولكنْ يعني رُؤيةَ القلبِ؛ أي: أنتم منهم بحيثُ لا يخفَى أمرُهم عليكم.

ولمَّا قالَ قومُ فرعونَ لفرعونَ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] همَّ باستِئصالِـهم، فأمرَ الله تعالى موسى أن يخرُجَ ببني إسرائيلَ، فأمرَهم موسى بالخروجِ، واستَعاروا حليَّ القبطِ وأوهَمُوهم أنَّ لهم عرسًا أو عيدًا، وأمرَهُم أن يُسرِجُوا في بيوتِهم حتَّى يُظَنَّ أنَّهم فيها، وأنْ لا ينادي أحدٌ أحدًا، وجعَلُوا علامةَ مَن خرجَ أن يُلطِّخَ بابَه بكفٍّ من دمٍ، فخرجَ موسى عليه السَّلامُ، وألقَى الله على القِبْطِ الموتَ، فماتَ كلُّ بكرٍ منهم تلك الليلةَ، فاشتَغَلُوا بدفنِهم حتَّى طلعَتِ الشَّمسُ[(١)].

وقيلَ: علِمَ فرعونُ في جُنْحِ اللَّيلِ خُروجَهم فقال: لا تتَّبعوهُم حتَّى يصيحَ الدِّيكُ، فما صاحَ الدِّيكُ تلك الليلةَ، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، واجتمعَ مع فرعونَ ستُّ مئةِ ألفٍ من القبطِ[(٢)].

وقيلَ: بل كانَ معه ألفُ ألفٍ ومئتا ألفِ حصانٍ، وكانت[(٣)] بنو إسرائيلَ ستَّ مئةِ ألفٍ وسبعينَ ألفًا، وقال فرعونُ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤][(٤)].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٦٨) عن السدي.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٢)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٦٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٠٦) (٥٠٨) عن عمرو بن ميمون الأودي.

(٣) في (أ): «وكان».

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٧١)، من طريق سفيان عن أبي سعد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس. وأبو سعد البقال الكوفي الأعور: هو سعيد بن المرزبان العبسي مولاهم، قال عنه في «التقريب»: ضعيف مدلس.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٥٨) من طريق سفيان به، ووقع فيه بدل (عن أبي سعد الأعور): (عن أبي سعيد)، ولعله تصحيف. وعلى كل فأمثال هذا الخبر على الغالب من الإسرائيليات، ولا يلزم من وصف فرعون لهم بالشرذمة القليلين كل هذه المبالغات في وصف جيش فرعون وكثرته، =

وكان هارونُ في المُقدِّمةِ وموسى على السَّاقةِ، وقال يوشعُ: يا نبيَّ الله، بمَ أُمِرْتَ؟ قال: البحر، فلما قرُبَ فرعونُ منهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، البحرُ قُدَّامَنا والعدوُّ وراءَنا، فقال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فتقدَّمَ هارونُ وضربَ البحرَ فلم ينفلِقْ، فأتاه موسى وضربَه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ودخلَتْ بنو إسرائيلَ في اثنَي عشرَ طريقًا لكلِّ سبطٍ طريقٌ، فقال كلُّ قومٍ: قد هلَكَ أصحابُنا، فجعلَ الله البحرَ قناطرَ.

وقيلَ: جعلَ الماءَ بينَهم شبابيكَ حتَّى أبصرَ البعضُ البعضَ، حتَّى خرجُوا، واقتحمَ فرعونُ البحرَ وقالَ: إنَّما انفرقَ لهيبَتي، فلما تكامَلُوا في البحرِ التطمَ البحرُ وغرَّقهم[1]، ولَفَظَهم البحرُ إلى تلٍّ حتَّى شاهدَهم بنو إسرائيلَ موتَى.

❊ ❊ ❊

(٥١) ـ ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ذكَّرهم نعمةً أُخرَى، وهي أنَّه وعدَ موسى حضورَ الطُّورِ ليُؤتيَه التَّوراةَ، فعبدَ أكثرُهم العجلَ في غيبتِه، ونبَّه بهذا على أنَّ كفرَهم بمحمَّدٍ ليس بأعجَبَ من عبادتِهم العجلَ بعد رُؤيةِ تلك الآياتِ العظيمةِ.

قُرِئَ: ﴿وَعَدْنا﴾ و﴿وَٰعَدْنَا﴾[2] فكانَ منَ الله الوعدُ بأن يُكلِّمَه، ومن موسى

= فلعل استهانته بهم لم تكن لذلك الفارق الكبير بينهم وبين جيشه الذي تصوره الإسرائيليات المولعة بذكر الأعداد وتضخيمها، بل لأنهم مع كثرتهم لا يغنون شيئاً كما سيأتي. وقد قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآيات من الشعراء بعد ذكره لبعض الأقوال في تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون: والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل ـ والله أعلم ـ والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

(١) في (ف): «وغرقوا».

(٢) قرأ أبو عمرو بالأولى، وباقي السبعة بالثانية. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٤)، و«التيسير» (ص: ٧٣).

الوعـدُ بحضورِ الطُّـورِ، وكانَ مـن الله الوعدُ ومن موسـى القَبولُ.

وقيلَ: قد تقعُ المُفاعلةُ من واحدٍ، مثل: سافرَ، وعافاه الله.

والمعنى: قد[1] وعَدْنا موسى انقضاءَ أربعينَ، أو تتمَّةَ أربعين، وفيه إضمارٌ آخرُ؛ أي: وعَدْناه انقضاءَ أربعينَ ليلةً للتَّكلُّمِ معه، فالتَّكلُّم وقعَ مع الأربعين، وقيلَ: في آخرِ الأربعينَ، وهو ليلةُ الأربعينَ.

ثمَّ؛ قيلَ: حضَرَ الجبلَ فمضى أربعونَ يومًا بعد الحضورِ، ثمَّ أنزلَ عليه التَّوراةَ.

وقيلَ: مضى بعضُ الأيّامِ قبلَ حُضورِه الجبلَ.

(موسى) بلغةِ القبطِ: ماءٌ وشجرٌ؛ لأنَّ تابوتَه وُجِدَ في موضعٍ فيه ماءٌ وشجرٌ، فسُمِّيَ باسمِ ذلك المكان.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لـم يقُلْ: أربعينَ يومًا؛ لأنَّ شهورَ العربِ تُفتَتَحُ منَ اللَّيلِ عند الاستهلالِ.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: اتَّخذتُـموه إلـهًا معبودًا، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه، وقد قال في موضعٍ: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وأصلُ الاتِّخاذِ: اِئْتِخاذٌ، فلُيِّنَتِ[2] الهمزةُ فصارتْ ياءً لانكسارِ ما قبلَها، فأُدغِمَتْ في تاء الافتعالِ كقولِـهم: اتَّسِرُوا الجزورَ.

وقيـلَ: أصـلُ الاتِّخـاذِ الـواوُ، كالاتِّـزارِ والاتِّقـاءِ، يُقـالُ: أخَـذَ ووخَـذَ، مثلُ: أكَّدَ ووكَّـدَ.

---

(١) «قد» من (أ).

(٢) في (أ): «قلبت».

ثمَّ؛ قُرِئَ: ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾ بإظهارِ الذَّالِ؛ لأنَّ الذَّالَ ليس من مخرجِ التَّاءِ، وقُرِئَ بالإدغامِ[1]؛ لأنَّ الحرفَينِ من طرفِ اللِّسانِ وأصولِ الثَّنايا، فحَسُنَ الإدغامُ.

﴿ٱلْعِجْلَ﴾ قال أبو العاليةِ: سُمِّي به لأنَّهم تعجَّلوه قبلَ رجوعِ موسى[2].

أو يُقالُ: هو اسمٌ موضوعٌ مشتَقٌّ، واختاروا صورةَ العجلِ لكثرةِ منافعِ البقرِ مِنَ الزَّرعِ والضَّرعِ.

وقيلَ: كانَ السَّامريُّ من قومٍ يعبُدونَ البقرَ.

وقيلَ: لـمَّا قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] كانَ أولئك القومُ يعبُدونَ عجلًا، فعلمَ السَّامريُّ أنَّه عَلِقَ بقُلوبِهم.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ أي: من بعدِ الوعدِ ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ أي: وضعتُم العبادةَ في غيرِ موضعِها.

وقيلَ: ظالِمونَ لأنفُسِكم؛ لأنَّ مَن عصَى فقد ظلَمَ نفسَه.

وقيلَ: المُخاطبةُ بقولِه: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ مع أهلِ عصرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: أنتُم الآنَ ظالمونَ بجَحْدِ نُبوَّةِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وكانَ وعدُ موسى ثلاثين ليلةً من ذي القعدةِ وعشرًا من ذي الحجَّةِ بعد إغراقِ فرعونَ، ورُجوعِ موسى إلى مصرَ، فخرجَ إلى الطُّورِ ليُؤتيَه الله التَّوراةَ، فعبدَ أكثرُ قومِه العجلَ.

ثمَّ قيلَ: إنَّ السَّامريَّ قال للقومِ: إنَّه وَعَدَ أن يعودَ بعد أربعينَ، فعَدُّوا اليومَ واحدًا واللَّيلَ واحدًا، فلمَّا مضى عشرونَ ليلةً قالوا: أَخْلَفَ الموعدَ[3]، وهذا تعبُّدٌ؛ لأنَّ الله

---

(١) أظهر ابن كثير وحفص وأدغم الباقون. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٥)، و«التيسير» (ص: ٤٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٠٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٦٧٠) عن السدي.

أمرَه أن يصومَ ثلاثينَ يومًا وِصالًا[١]، فصامَها ولـم يطعَمْ شيئًا، فتغيَّرَتْ رائحةُ فمِه، فعمدَ إلى لِـحاءِ شجرةٍ فمضَغَها فأوحى الله إليه: أمَا علمتَ أنَّ خَلُوفَ فمِ الصّائمِ أطيبُ عندي من رائحةِ المسكِ؟ فأمرَه أن يزيدَ عشرةَ أيّامٍ، فما كانَ في أوَّلِ الخروجِ عالِـمًا بأنَّ المدّةَ تبلغُ أربعينَ يومًا، ولكنَّهم اغتَنَمُوا غيبتَه فعبَدوا العجلَ[٢].

ثمَّ قيلَ: اتَّخذوا العجلَ منَ الحليِّ الذي استعاروه منَ القبطِ.

وقيلَ: مـمّا أخذوه من قومِ فرعونَ لـمّا لفظَهم البحرُ.

وقيلَ: جمَعُوا تلك الحليَّ في حفرةٍ ليرجعَ موسى.

وقيلَ: لتأكلَها النّارُ، وما كانت تحلُّ لهم الغنائمُ.

فأخذَ السّامريُّ تلك الحليَّ في خفيةٍ، وكانَ صائغًا، فاتَّخذَ منها عجلًا، وكان السّامريُّ مـمَّن أخفَتْه أمُّه أيامَ أمرِ فرعونَ بقتلِ الصِّبيانِ، فكانَ جبريلُ يُربِّيه، فلما نزلَ جبريلُ يومَ إغراقِ فرعونَ على رَمَكةٍ وديقٍ[٣] عرَفَه السّامريُّ، فقبَضَ قبضةً من ترابِ حافرِ الرَّمَكةِ، ووقعَ في قلبِه أنَّه لا يُلقيه على شيءٍ إلّا صارَ كما يُريدُ، فألقاه على العجلِ.

ثمَّ؛ قيلَ: انقلَبَ لـحمًا ودمًا.

وقيلَ: بقيَ ذهبًا، ولكنْ كان له خُوارٌ.

وقيلَ: افتُتِنَ بالعجلِ ثمانيةُ آلافٍ منهم.

---

(١) في (أ): «وصلًا».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٥٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الرمكة: الفرس. ودوق ووديق: إذا أرادت الفحل. انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٦٧٧).

وقيلَ: لا، بل المُمتَنِعُونَ من[1] عبادةِ العجلِ كانوا ثمانيةَ آلافٍ، وعَبَد مُعظَمُهم العجلَ.

***

(٥٢) - ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا﴾ العفوُ: المَحوُ، ومنه: عفَتِ الرِّياحُ الآثارَ عفوًا فعفَتْ بنفسِها عُفُوًّا.

وقيلَ: العفوُ: ما فضلَ عن الكفايةِ، وسهُلَتِ النَّفسُ ببذلِه، ومنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ أي: ما فضَلَ عن القوتِ.

وقيلَ: العفوُ: التركُ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ أي: تُرِك، والمراد بالعفو هاهنا: قبولُ توبةِ عَبَدةِ العِجْل[2].

وقيل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا﴾؛ أي: لـم نُعاجِلْكُم بالإهلاكِ حتَّى عادَ إليكم موسى فأخبرَكم بكفَّارةِ ذنبِكم.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعدِ ما عبدتُم العجلَ، ولـم يقُلْ: ذلكم، وإنْ كانَ الخطابُ للجميعِ[3]؛ لاتِّصالِ الخطابِ بذا، وهو مُبهَمٌ، فتارةً يُجمَعُ على الأصلِ في مُخاطبةِ الجمعِ، وتارةً يُؤخَذُ على اللَّفظِ؛ لأنَّ اللَّفظَ المُبهَمَ على الواحدِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ليس فيه تردُّدٌ، ولكنْ ذكرَه على ما يتخاطَبُ به العبادُ؛ أي: هذا مما يُرجَى به الشُّكرُ فيما بين العبادِ.

---

(١) في (أ): «عن».

(٢) قوله: «وقيل: العفو الترك... » إلى هنا ليس في (ف).

(٣) في (أ): «للجمع».

وقيلَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لكي تشكُروا، وأرادَ به المؤمنينَ الذين شكَروا هذه النِّعمةَ.

وقيلَ: أي: ليكونَ المؤمنون على رجاءٍ من شُكرِكم، وأصلُ «لعلَّ» من تكرُّرِ الشَّيءِ، من قولِهم: شرِبَ عَلَلًا بعدَ نَهَلٍ، واللّامُ للتَّأكيدِ مثلَ «قد ولقد»، يُقالُ: علَّكَ أن تفعلَ كذا؛ أي: لعلَّكَ، وإذا قُلتَ: افعَلْ كذا لعلَّكَ تظفَرُ بحاجتِكَ، معناه: افعَلْه، فإنَّ فعلَه يُؤكِّدُ طلبَكَ ويُقوِّيك عليه، والشُّكرُ: الاعترافُ بنعمةِ المُنعمِ.

وقيلَ: الثَّناءُ على المُحسِنِ بذكرِ إحسانِه.

وقيلَ: أنْ لا يستعينَ بنعمِ الله على معاصيه.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ الفُرقانُ مصدرُ: فرَقَ يفرُقُ فَرْقًا وفُرْقانًا كالرُّجحانِ والنُّقصانِ، ثمَّ يُسمَّى الفارقُ فُرقانًا تسميةً للفاعلِ باسمِ المصدرِ، فكتابُ الله فرقانٌ لأنَّه فارقٌ بحُجَّتِه بينَ المُحِقِّ والمُبطِلِ.

ويعني بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التَّوراةَ، و﴿الفُرقانَ﴾ هو التوراة[1]، وكُرِّرَ لاختلافِ اللَّفظِ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقيلَ: الفرقانُ اسمٌ لِمَا في التَّوراةِ من بيانِ الأحكامِ؛ أي: آتَيْنا موسى التَّوراةَ وآتيناه فيها الفرقانَ؛ أي: بيانَ الحقِّ منَ الباطلِ.

وقيلَ: ﴿الفُرقَانَ﴾ نعتٌ لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: آتَيْنا موسى الكتابَ الفرقانَ؛ أي:

(١) «والفرقان هو التوراة» ليس في (ف).

الفارقَ بين الحلالِ والحرامِ، فزيدَتِ الواوُ كما تُزادُ في النُّعوتِ، من قولِكَ: فلانٌ حسَنٌ وعالِـمٌ وطويلٌ.

وقيلَ: أرادَ بالفرقانِ: انفِراقَ البحرِ، ويجوزُ التَّكريرُ تأكيدًا وإنْ سبقَ ذكرُ هذه النِّعمةِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أرادَ بالفُرقانِ: النَّصرَ على الأعداءِ[١].

وقيلَ: آتينا موسى الكتابَ ومحمَّدًا الفرقانَ، فالفرقانُ اسمُ القرآنِ، فلما ذُكِرَ الفرقانُ دلَّ على محمَّدٍ ﷺ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه.

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ بيَّنَ ما آلَ إليه أمرُهم في عبادةِ العجلِ، وفيه تذكيرُ النِّعمةِ أيضًا إذ قبِلَ توبتَهم، وفيه بيانُ أنَّ هؤلاءِ في عصرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ إنْ أصرُّوا على الكفرِ استوجَبُوا القتلَ.

ولَمَّا رجعَ موسى إلى قومِه منَ الميقاتِ ورآهم عبَدُوا العجلَ قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يخاطبُ عبَدَةَ العجلِ، ويجوزُ حذفُ ياءِ الإضافةِ في النِّداءِ، تقولُ: يا قومِ، ويجوزُ إثباتُ الياءِ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، ويجوزُ الفتحُ كقولِه: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] على قراءةِ مَن فتحَ الياءَ[٢].

---

(١) ذكره دون سند الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٦)، والواحدي في «البسيط» (٢/ ٥٢٦).

(٢) هي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم، والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٧٤ و١٩٠).

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾؛ أي: نقَصْتُم حظَّ أنفُسِكم بعبادةِ العجلِ.

وقيلَ: أي: ظلمتُم على أنفسِكم.

﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: باتِّخاذِكُم العجلَ معبودًا.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: خالقِكم، مِنْ بَرَأَ الله الخلقَ؛ أي: خلقَهُم، وقرأ أبو عمرٍو: ﴿بَارِئْكُمْ﴾ باختلاسِ حركةِ الهمزةِ كأنَّه خفَّفَ الحركةَ وقرَّبَها منَ الجزمِ[1].

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: قيلَ لهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، قالوا: كيفَ؟ فقالَ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، والقتلُ: إماتةُ الحركةِ، وقُتِلَتِ الخمرُ؛ أي: كُسِرَتْ شِدَّتُها بالماءِ، وقتَلْتُه علمًا؛ أي: أزَلْتُ اضطرابَه في نفسي.

﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ليقتُلْ بعضُكم بعضًا، ثمَّ قيلَ: ليقتُل البريءُ المُجرِمَ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: إخوانَكم.

وقيلَ: مَن قتلَ أباه أو أخاه أو ابنَه فكأنَّه قتلَ نفسَه.

وقيلَ: أي: استسلِمُوا للقتلِ، فجعلَ ذلك قتلًا منهم لأنفُسِهم توسُّعًا، وأجمَعُوا على أنَّه لـم يُؤمرْ[2] كلُّ واحدٍ من عبَدةِ العجلِ بأن يقتُلَ نفسَه بيدِه.

وقيلَ: أمرَ عبَدةَ العجلِ بأن يقتُلَ بعضُهم بعضًا.

وقالَ الكلبيُّ: الذين لم يعبُدوا العجلَ اثنا عشرَ ألفًا، والمقتولون سبعونَ ألفًا.

وقيلَ: أُمِرَ السَّبعونَ الذين خرَجُوا مع موسى بقتلِ الباقين.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٧٣)، وفيه: أن أبا عَمْرو قرأ ﴿بَارِئْكُمْ﴾ في الحرفين باختلاس الحركة في ذلك كله من طريق البغداديين وهو اختيار سيبويه، ومن طريق الرقيين وغيرهم بالإسكان.

(٢) في (أ): «لم يوكل»، وكتب تحتها كالمثبت.

وقيلَ: اكتَنَفَتْهُم سحابةٌ وقتلوهم إلى المساءِ.

وقيلَ: ثلاثةَ أيّامٍ، وكانوا قد تواصَوا فيما بينَهم بأن لا يتحرَّكُوا حتَّى يُقتَلُوا، فلما انكشَفَتِ السَّحابةُ عنهم بدعاءِ موسى اشتَدَّ عليهم ذلك القتلُ العظيمُ، فقالَ الله تعالى لموسى: أما يُرضيكَ أنَّ القاتلَ والمقتولَ في الجنّةِ، فقالَ: بلى يا ربّ.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ أي: توبتُكم خيرٌ لكم.

وقيلَ: لـم يُرِدِ المُبالغةَ، بل قال: توبتُكم فعلُ خيرٍ لكم؛ لأنَّه سببُ الثَّوابِ.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: ففعلتُم ما أُمِرْتُم به فتابَ عليكم.

وقيلَ: فتُوبُوا فإنَّكم إنْ فعلتُم ذلك تابَ عليكم.

***

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ﴾ ثمَّ ذكرَ شيئًا آخرَ من جهلِهم ومن نعمتِه عليهم بإحيائِهم بعد الصّاعقةِ.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: لن نُصدِّقَك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾؛ أي: عِيانًا، بخلافِ رُؤيةِ القلبِ، والرُّؤيةِ في النَّومِ.

والجهرُ: الكشفُ، ومنه: جَهَرْتُ إليه؛ أي: كشَفْتُ الطِّينَ عن الماءِ ليظهرَ، وجَهَرْتُ بالقولِ؛ أي: أعلَنْتُ.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾؛ أي: ما تُصعقُونَ به؛ أي: تموتُونَ؛ لأنَّه قالَ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

ثمَّ؛ قيلَ: كانت هذه الصّاعقةُ صوتًا يُزيلُ العقلَ والفهمَ والحياةَ.

وقيلَ: كانت نارًا.

وقيلَ: كانت رجفةً، قالَ الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾[1] [الأعراف: ١٥٥].

وقيلَ: أرسلَ الله جنودًا، فلمَّا سمعوا حسَّها ماتُوا.

ثمَّ؛ قيلَ: هؤلاءِ هم الذين اختارَهم موسى للميقاتِ، وهم سبعونَ رجلًا، قالوا لموسى: نحنُ لـم نعبُدِ العجلَ، ولـم نُخالِفْكَ في شيءٍ، فأرِنا الله جهرةً.

وقيلَ: هم عشرةُ آلافٍ طلَبُوا ذلك، وخرَجُوا إلى صعيدٍ منَ الأرضِ، واتَّبعَهم عددٌ كثيرٌ حتَّى صاروا أربعينَ ألفًا، وإنَّما أخذتهم الصَّاعقةُ لأنَّهم اقترحُوا مُعجزةً بعد أن رأوا مُعجزاتٍ، وأمَّا موسى فلم يُعاقَبْ لمَّا سألَ الرُّؤيةَ؛ لأنَّه سألَ إيمانًا وتصديقًا لا شكًّا وتعنُّتًا.

وقيلَ: علَّقوا إيمانَهم على شيءٍ اعتَقَدوه مُحالًا، وغرضُهم: لن نُؤمنَ لك قطُّ، فلهذا عاقبَهم.

ومالَ القفَّالُ[2] إلى أنَّهم عُوقِبُوا لأنَّهم سألوا ما يستحيلُ في حقِّ الصّانعِ، وأمَّا

---

(١) في (ف): «فأخذتهم الرجفة»، وهي في الأعراف الآية (٧٨) في قصة صالح، و(٩١) في قصة شعيب، وكذلك في العنكبوت الآية (٣٧) في قصة شعيب أيضاً.

(٢) هو محمد بن علي بن إسماعيل، أبو بكر الشاشي الفقيه الشافعي المعروف بالقفال الكبير، وُلد سنة (٢٩١هـ)، كان إمام عصره بما وراء النهر، فقيهاً، محدِّثاً، مفسِّراً، أصولياً، لغوياً، شاعراً، لم يكن للشافعية بما وراء النهر مثله في وقته، صنَّف في التفسير والأصول والفقه، وقال النووي: القفّال الكبير، يتكرَّر ذكره في التفسير والحديث والأصول والكلام، بخلاف القفّال الصغير المروزي، فإنه يتكرر في الفقه خاصة. انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٢/ ٢٨١)، و«طبقات المفسرين» للسيوطي (١/ ١٠٩)، و«طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٩٨).

موسى فإنَّما طلبَ الرُّؤيةَ لقومِه، ولهذا قالَ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، قال: فالسُّفهاءُ هم الذين سألوا الرُّؤيةَ، وعند أهلِ الحقِّ فِعلُ السُّفهاءِ عبادةُ العِجلِ.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ أي: إلى آثارِ الموتِ وعلاماتِه، ثمَّ متُّم، كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقيلَ: معناه: نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ عند نزولِ الصَّعقةِ؛ لأنَّه تقدَّمَ موتُ البعضِ وتأخَّرَ موتُ البعضِ؛ أي: بعضُكم ينظرُ إلى بعضٍ.

وقيلَ: هو خطابٌ لأهلِ عصرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والنَّظرُ: الانتظارُ؛ أي: وأنتُم تنتَظرونَ عقوبةَ الله إنْ لم تُؤمِنُوا.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾؛ أي: نشرناكُم، قالَ ابنُ الأنباريِّ: كلُّ موتٍ حصلَ البعثُ عنه في الدُّنيا فحُكمُه حكمُ النَّومِ؛ لأنَّ الله تعالى أثبتَ للخلقِ الإماتةَ في دارِ الدُّنيا مرَّةً واحدةً، قالَ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦][(١)].

وقيلَ: بعثَهم أنبياءَ كما[(٢)] بعثَ اللهُ محمَّدًا إلى الخلقِ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: نعمةَ البعثِ.

وقيلَ: لكي تُؤمِنُوا؛ لأنَّ الشُّكرَ من صفاتِ المُؤمنينَ.

* * *

(١) انظر: «البسيط» للواحدي (٢/ ٥٤٣).

(٢) في (أ): «كما يقال».

(٥٧) ـ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ بيَّنَ أنَّه أنعمَ عليهم بعد الذُّنوبِ وبعد اتِّخاذِ العجلِ فظلَّلَ عليهم الغمامَ؛ أي: ستَرناكُم عن الشَّمسِ بالغمامِ، والظِّلُّ: السَّترُ، والظُّلَّةُ: ما ستركَ من فوقُ، والغمامُ: جمعُ غمامةٍ، وهي السَّحابُ؛ لأنَّها تغُمُّ السَّماءَ؛ أي: تستُرُها، وكلُّ مُغطًّى مغمومٌ.

وقيلَ: سُمِّيَ الغمامُ غمامًا لتغمُّمِها، وهو صوتُها.

وقيلَ: لأنَّها تغُمُّ الماءَ في جوفِها؛ أي: تستُرُه.

وقيلَ: الغمامُ: السَّحابُ الأبيضُ.

ثـمَّ؛ قيـلَ: جرى هذا فـي التِّيه لمَّـا امتَنَعُوا مـن دخولِ بلقـاءَ مدينـةِ الجبَّارين، ثـمَّ ندِمُـوا علـى ذلـك، فرَفَـقَ الله بهـم فـي التِّيهِ، فـكانَ يسـقطُ عليهـم الغمـامُ مثلَ القِبـابِ والأبنيةِ.

وقيلَ: كان يمشي أمامَهم بالنَّهارِ عمودُ الغمامِ، وباللَّيلِ عمودُ النّارِ.

وقيلَ: كان هذا في البرِّيَّةِ قبلَ أن يُضرَبَ عليهم التِّيهُ، فلمَّا خالَفُوا موسى ظلَمُوا أنفُسَهم، فهذا معنى قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ قيلَ: التَّرَنْجَبينُ، وكانَ كالعسلِ حلاوةً، فكان يقعُ على الأشجارِ بالأسحارِ عفوًا بلا علاجٍ، ومنه: «الكَمْأَةُ منَ المنِّ»[1]؛ أي: لا مُؤنةَ فيها ببذرٍ وسقيٍ.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

وقيلَ: هو الخبزُ الرُّقاقُ الحُوَّارَى[١].

وقيلَ: كانُوا يخبِزونَ منه مثلَ القُرْصةِ، فيكونُ طَعمُها كالشَّهدِ المعجونِ بالسَّمنِ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: المَنُّ ما منَّ الله عليهم به منَ الكفايةِ ممَّا لا تعبَ فيه، وإنْ لم يتعيَّنْ لنا ما وقعَتْ به الكفايةُ[٢].

ثمَّ طلَبُوا اللَّحمَ، وقالُوا: قبِلْنا هذا المنَّ، فأنزلَ الله عليهم السَّلوَى، قيلَ: هي طائرٌ كالسُّمَانَى، والواحدةُ سَلواةٌ.

وقيلَ: السَّلْوَى وصفٌ للواحدِ والجمعِ.

وقيل: السَّلْوَى: العسلُ بلُغةِ كنانةَ. وهذا على قولِ مَن يقولُ: المنُّ: الخبز.

وقيل السَّلوى[٣]: ما أسلاهُم عن غيرِه لطيبِه.

ثمَّ؛ قيلَ: كان ينزلُ لكلِّ واحدٍ كلَّ ليلةٍ قَدْرُ صاعٍ، ونُهوا عن الادِّخارِ للغدِ إلا يومَ الجمعةِ؛ فإنَّهم كانوا يأخُذونَ ليومِ السَّبتِ، وما كان ينزلُ عليهم شيءٌ يومَ السَّبتِ، فادَّخَروا وقدَّدُوا ففسَدَ عليهم وتدَوَّدَ، فكانَ هذا من ظُلمِهم أيضًا.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ أي: وقُلنا لهم: ﴿كُلُوا﴾.

والطيِّبُ: الحلالُ. وقيلَ: الطَّاهرُ.

---

(١) قوله: «الحُوَّارى»؛ أي: دقيقاً نُخِلَ مرَّةً بعد أخرى، قال الجوهري: الحُوَّارَى بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء: ما حُوِّرَ من الطعام؛ أي: بُيِّضَ، وهذا دقيقٌ حُوَّارَى، وحوَّرتُه فاحوَرَّ؛ أي: ابيَضَّ. انظر: «الصحاح» (مادة: حور).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٣٨).

(٣) من قوله: «وصف للواحد والجمع... » إلى هنا ليس في (ف).

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ أي: فكفَرُوا هذه النِّعَمَ، ولكنْ عادَ الضَّررُ إليهم ولم يضُرُّونا.

وقيلَ: وما ظلَمُونا بادِّخارِ المنِّ والسَّلوى، بل ظلَمُوا أنفُسَهم إذ خالَفُوا أمرَ الله تعالى، والظُّلمُ: النُّقصانُ؛ أي: بخَسُوا حقوقَ[1] أنفسِهم.

وقيلَ: يعني: إنَّ الذين كفَروا الآنَ بمُحمَّدٍ إنَّما ظلمُوا أنفُسَهم.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيَّنَ نعمةً أُخرَى، وهو أنَّه أباحَ لهم دخولَ البلدةِ وأزالَ عنهم التِّيهَ.

القَريةُ: بفتحِ القافِ، والجمعُ: قُرًى، والقُرْيةُ لغةٌ مثلُ كُسوةٍ وكُسًى، وهي من قرَيْتُ؛ أي: جمَعْتُ، ومنه: المِقْراةُ للحوضِ، والقرى للمسيلِ[2] يجتمعُ الماءُ إليه، والقَرَا: الظَّهرُ؛ لأنَّه مجمعُ القرى.

ثمَّ؛ قيلَ: هذه القريةُ أريحا. وقيلَ: بيتُ المقدسِ. وقيلَ: الشَّامُ.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: توسَّعوا في المعيشةِ، والرَّغَدُ: العيشُ الواسعُ.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ قيل: هو بابٌ معروفٌ يُقالُ له: بابُ حِطَّةٍ.

---

(١) في (ف): «بحقوق».

(٢) بعدها في (أ): «الذي».

وقيلَ: عنَى بالبابِ وجهًا من وجوهِ القريةِ، كما يُقالُ: هذا بابُ الأميرِ؛ أي: وجهُه.

﴿سُجَّدًا﴾؛ أي: اسجُدوا لله تعالى، فهو سجودٌ حقيقيٌّ.

وقيلَ: أي: تواضَعُوا لله.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ هي فِعْلةٌ منَ الحطِّ، وهو وَضعُ الشَّيءِ من أعلى إلى أسفلَ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ أي: مغفرةٌ[1]؛ أي: قولوا: مسألتُنا حِطَّةٌ؛ أي: أن تحطَّ عنَّا ذنوبَنا.

وقيلَ: أي: قولوا ما هو حِطَّةٌ لذنوبِكم، وهو «لا إلهَ إلا الله»؛ أي: قولوا: ليكُنْ منكم حِطَّةٌ لذنوبِنا.

ثمَّ؛ قيلَ: تعبَّدوا بلغةٍ مخصوصةٍ فخالَفُوا.

وقيلَ: لم يُعيَّنْ لهم لفظٌ، بل أُمروا بالاعتذارِ على الجملةِ.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ الغَفْرُ: السَّترُ، ومنه المِغْفَرُ للحَلَقِ أسفلَ البيضةِ منَ الحديدِ تُسبَغُ على العُنُقِ فتسترُه، والغِفارةُ: خِرقةٌ تسترُ رأسَ المرأةِ تقي بها الخمارَ منَ الدُّهنِ.

ثمَّ مُعظمُ القرّاءِ على إظهارِ الرَّاءِ، وقرأ أبو عمرٍو بإدغامِ الرّاءِ في اللامِ في جميع القرآنِ نحو: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾، و﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، و﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وقُرِئَ: ﴿يُغفَرْ لكم﴾ بالياءِ مع الضَّمِّ، و: ﴿تُغْفَرْ﴾ بالتَّاءِ مع الضَّمِّ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٧١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٤٠).

(٢) قرأ نافع: ﴿يُغفَرْ﴾، وابن عامر: ﴿تُغْفَرْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٦)، و«التيسير» (ص: ٧٣).

﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ هـي جمـعُ «خطيئـةٍ» وهـي الـذمُّ، يقـال: «خَطِـئ»: فيمـا صنعـه عمـدًا، و«أخطـأ»: فيمـا صنـعَ خطـأً غيـرَ عمـدٍ، وأصـل الكلمـة بالهمـز، وقـال ابنُ جريـر: «الخطايـا» جمـع «خطيَّـةٍ»[1] بغيـرِ همـزٍ، كالمطايـا جمـعُ «مطيّـةٍ».

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مَن لـم يكُنْ صاحبَ خطيَّةٍ نزيدُه ثوابًا وإحسانًا.

وقيلَ: وسنزيدُ مَن أحسنَ بهذا الاعتذارِ إحسانًا فنُمكِّنُه من قِرًى آخرَ، ونزيدُكم على المغفرةِ إحسانًا، كما قالَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

* * *

(٥٩) ـ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: لـم يعتَذِرُوا، بل اشتغَلُوا بغيرِ ذلك، فهو التَّبديلُ.

وقيلَ: قالوا: حبَّةٌ في شعيرةٍ.

وقيلَ: قالوا: هطا سُمْقَاثا؛ أي: «حِنطةٌ حمراءُ» بلغةِ القبطِ.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا﴾ أعـادَ ﴿ظَلَمُوا۟﴾ تأكيـدًا، والرِّجـزُ: العـذابُ، وسُـمِّيَ كيـدُ الشَّـيطانِ رجـزًا لأنَّه سـببُ العـذابِ، قـالَ الله تعالـى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]؛ أي: عبـادةَ الأوثانِ، وأصلُ الكلمـةِ: تتابعُ الحركاتِ، وناقـةٌ رَجْزاءُ: إذا كانَـتْ ترتعِدُ قوائِمُها عنـد قيامِها.

والرَّجَزُ: ضربٌ منَ الشِّعرِ لقِصَرِ أبياتِه وسُرعةِ الخروجِ من بيتٍ إلى بيتٍ،

---

(١) من قوله: «وهي الذم...» إلى هنا ليس في (ف).

فالرِّجزُ: العذابُ المُقلقلُ لشِدَّتِه، وفي التَّفاسيرِ: أرسلَ الله عليهم ظُلمةً وطاعونًا، فهلَكَ منهم في ساعةٍ واحدةٍ سبعونَ ألفًا.

وقيلَ: بقُوا فيه أربعينَ يومًا.

وقيلَ: نزلَتْ نارٌ فأحرقَتْهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: يخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وقد شاعَ لفظُ الفِسْقِ في الشَّرعِ فاستَغْنَى عنِ الصِّلةِ، وهي أن تقولَ: بما كانُوا يخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وهي كقولك: فلانٌ مُؤمنٌ، فتستَغني عن أن تقولَ: بكذا وكذا.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ ذكَّرهم نعمةً أُخرَى:

قيلَ: كانَ هذا في التِّيهِ.

وقيلَ: لمَّا خرَجُوا منَ البحرِ، وأمُّوا الأرضَ المُقدَّسةَ.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ قيلَ: كان ذلك حجرًا خفيفًا مثلَ رأسِ الإنسانِ.

وقيلَ: كانُوا يحمِلُونَه على حمارٍ، وحيثُما نزلوا ألقاه موسى فخرجَ منه الماءُ.

وقيلَ: ما كانَ حجرًا مُعيَّنًا، بل كانَ موسى يضربُ أقربَ حجرٍ يجدُه بعصاه، فقالوا: إنْ فقَدَ موسى عصاهُ مِتْنا عطشًا، فأمرَ الله موسى ألَّا يضربَ الحجرَ بل يُكلِّمَه، فقالوا: لو وقَعْنا في الرَّملِ فمن أين لنا الحجرُ، فأمرَ موسى بأن يحملَ حجرًا في مِخْلاتِه.

وقيلَ: إنَّه كانَ الحجرَ الذي وضعَ موسى عليه ثوبَه ففرَّ بثوبِه لمَّا قالوا: إنَّه آدَرُ، فأمرَه الله أن يحملَه، وقال: إنَّ لك فيه آيةً(١).

﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾؛ أي: فضرَبَه فانفجَرَتْ، والانفِجارُ: الانشِقاقُ، والفَجْرُ: الشَّقُّ، ويُسمَّى الفاسقُ فاجرًا(٢)؛ لأنَّه شقَّ أمرَ الله بخُروجِه إلى المعصيةِ.

﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ اثنانِ منَ الثَّنْي، وهو ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ(٣)، ومنه: ثِنْيُ الثَّوبِ لِمَا لُفَّ من أطرافِه، ويُقالُ: «اثنَتا عشْرةَ» في المُؤنَّثِ بسكونِ الشِّينِ، ويجوزُ كسرُها، ويجوزُ فتحُها عند المُعظَمِ، وقال في الأعرافِ: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، والانفِجارُ والانبِجاسُ بمعنًى.

وقيلَ: الانبِجاسُ دونَ الانفِجارِ، وكانَ في الابتداءِ ينبَجِسُ ثمَّ يسيلُ.

وقيلَ: إنْ قلَّتْ حاجتُهم وأرادوا اليسيرَ من الماءِ خرجَ بقَدْرِ الحاجةِ، وإن احتاجُوا إلى الكثيرِ انفجَرَتْ، فكانَ ينفجرُ منَ الحجرِ اثنَتا عشرةَ عينًا لكلِّ سبطٍ عينٌ، وكان سعةُ عسكرِهم اثنَي عشرَ ميلًا، وكان يستَقي من ذلك الماءِ ستُّ مئةِ ألفٍ.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ كان إذا ضرَبَ موسى الحجرَ جاءَ كلُّ سبطٍ إلى الجانبِ المعهودِ(٤)، ويحفرون النَّهرَ ويسيلُ الماءُ إليهم. ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم، فحُذِفَ للعلمِ به. و(المَشرَبُ) يجوزُ أن يكونَ مصدرًا، ويجوزُ أن يكونَ موضعًا.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣١) عن سعيد بن جبير، وأبو حيان في «البحر» (٢/ ١١٢) عن ابن عباس. وحديث فرار الحجر بثوبه عند اغتساله رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والأدرة نفخة في الخصية. انظر: «اللسان» (مادة: أدر).

(٢) في (أ): «وسمي الفاجر فاسقاً».

(٣) في (أ): «شيء إلى شيء».

(٤) بعدها في (أ): «له».

﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: قُلنا لهم ذلك.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ من عَثَى يَعثِي؛ أي: أفسَدَ، ويُقال أيضًا: عَثا يَعثُو، أو عاثَ يعيثُ، وقولُه: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيدٌ.

وقيلَ: العَثْيُ: الخلطُ؛ أي: لا تخلِّطُوا في أمرِكُم مُفسِدينَ.

* * *

(٦١) - ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ ثمَّ بيَّنَ نوعًا آخرَ من عُتُوِّهم واعتراضِهم على أنبيائِهم، وهو أنَّهم قالوا: لن نصبِرَ على المنِّ والسَّلوى، وكانوا يأكُلونَ أحدَهما بالآخرِ، فلذلك قالَ: ﴿طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾.

وقيلَ: كان ذلك غذاءَهم كلَّ يومٍ، فصَحَّ قولُهم: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، كما تقولُ لمَن يُداوِمُ على الصَّومِ والصَّلاةِ والقراءةِ: «هو على أمرٍ واحدٍ» لمُلازمتِه لذلك.

قال الحسَنُ: كانوا نَتَانَى أهلَ كُرَّاثٍ وأبصالٍ، فنَزَعُوا إلى عِكْرِهم[١] عِكْرِ السُّوءِ[٢]؛ أي: مالَتْ طِباعُهم إلى ما اعتادُوه.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾؛ أي: سَلْه وقُلْ له: أخرِجْ يُخرِجْ، كقولِه تعالى: ﴿وَقُل

---

(١) أي: أصلِهم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٢٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٣٦) واللفظ له.

﴿لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]؛ أي: قُلْ لهم: قولوا التي هي أحسَنُ يقولوا، فلا بدَّ من هذه الإضماراتِ، والبَقْلُ: كلُّ نباتٍ ليس له ساقٌ، والقِثَّاءُ معروفٌ، والفومُ: الثُّومُ؛ لأنَّه المُشاكِلُ للبصلِ، والفاءُ والثَّاءُ يقرُبانِ، يُقالُ: «جَدَثٌ» و«جَدَفٌ» للقبرِ، و«المعاثيرِ» و«المعافيرِ»، و«وقعَ في عاثُورِ شرٍّ» و«عافُورِ».

وقيلَ: الفومُ: الحِنطةُ والخبزُ، يُقالُ: فوِّموا لنا؛ أي: اخْبِزوا لنا.

وقال قومٌ: الفومُ والثُّومُ: الحِنطةُ، وقرأ ابنُ مسعودٍ: (وثُومِها)(١)؛ أي: الحنطة، والمعنى: يُخرِجْ لنا شيئًا ممَّا تُنبِتُ الأرضُ، فمفعولُ ﴿يُخْرِجْ﴾ محذوفٌ.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ هذا من قولِ موسى، ويجوزُ أن يكونَ من قولِ الله تعالى؛ أي: فاستجَبْنا له وقُلْنا كذا.

﴿أَدْنَىٰ﴾ منَ الدُّنوِّ؛ أي: أتطلُبونَ الذي هو أسهلُ مُنتِنًا ولا يُشارِكُكم فيه كلُّ أحدٍ بدلًا عن الطَّعامِ الذي خصَّكم به الله على جميعِ النّاسِ؟

وقيلَ: ﴿أَدْنَىٰ﴾: «أفعل» منَ الدَّناءةِ، فتُرِكَ الهمزةُ، وقد قُرِئَ في الشَّواذِّ: (أدنأ)(٢).

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤)، و«المحتسب» (١/ ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٥٣)، و«البحر المحيط» (٢/ ١٢٧)

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤)، و«المحتسب» (١/ ٨٨)، و«البحر المحيط» (٢/ ١٢٩)، عن زهير الفرقبي: نحوي كان في زمن عاصم، وله اختيار في القراءة. انظر: «طبقات القراء» لابن الجزري (١/ ٢٩٥). ويقال له أيضاً: زهير الكسائي. قاله أبو حيان، ونبه على أن بعض من جمع في التفسير وهم فنسب القراءة لزهير والكسائي، وإنما هو واحد يعرف بالفرقبي وبالكسائي.

وقيلَ: ﴿أَدْنَىٰ﴾؛ أي: أدوَنُ وأخَسُّ، فقُدِّمتِ النُّونُ وحُوِّلتِ الواوُ ألفًا، **وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنَّه لا يُشتقُّ فعلٌ من «دون» إذا كانَ بمعنى «أخس»**.

﴿اَهْبِطُواْ مِصْرًا﴾؛ أي: انزِلُوا مصرًا منَ الأمصارِ؛ فإنَّ الذي سألتُم لا يكونُ إلّا في الأمصارِ والقُرى.

وقيلَ: أرادَ مصرَ بعينِها، فصرَفَها لخِفَّتِها وقلَّةِ حروفِها، وهو مثلُ دَعدٍ وجُملٍ وهِندٍ، وقُرِئَ: «اهبِطُوا مصرَ» بلا تنوينٍ[1]، وهي قراءةٌ مهجورةٌ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّهم أُعطُوا ما طلَبُوا.

وقيلَ: أعلَمَهم الله تعالى أنَّهم إذا نزَلُوا مصرًا منَ الأمصارِ وصلُوا إلى المُرادِ، فأمَّا الآنَ فلا سبيلَ إليه؛ لأنَّهم كانوا في التِّيهِ، وهذا عقوبةٌ لهم، فالمعنى: اهبِطُوا بعد انقضاءِ مدَّةِ التِّيهِ مِصرًا، وعلى هذا فقولُه: ﴿اَهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ يُمكنُ أن يكونَ أمرَ تعجيزٍ.

وقيلَ: كانَ في طريقِهم في التِّيهِ قُرًى، فكأنَّهم أُجيبُوا إلى ما طلَبُوا.

ثمَّ؛ يُمكِنُ أن يكونَ ذلك عقوبةً لهم، كقولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، والمِصرُ: عبارةٌ عن العمارةِ التي تنتَهي إليها البريةُ، وهو في اللُّغةِ: الحاجِزُ بين الشَّيئَينِ، ومُصُوْرُ الدَّارِ: حدودُها.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾؛ أي: أُلزِمُوها، يُقالُ: ضربَ القاضي عليه كذا؛ أي: ألزمَه، كما يُضرَبُ المسمارُ على الشَّيءِ فيَلزمُه، والذِّلَّةُ: الجِزْيةُ، وهي منَ الذُّلِّ،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٣) عن ابن مسعود، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٤) عن الأعمش.

وفرسٌ ذَلولٌ بيِّنُ الذُّلِّ، وهو ضدُّ الصُّعوبةِ، ورجلٌ ذليلٌ بيِّنُ الذِّلَّةِ، والذُّلُّ بمعنى: أنَّهم كانوا في نِعَمٍ فلم يزالوا يُخالفونَ حتَّى سلَّطَ عليهم الشَّتاتَ وحربَ بيتِ المقدسِ وصاروا مقهورين.

وقيلَ: ضَربُ الذُّلِّ حصَلَ على مَن كانَ في عصرِ نبيِّنا محمَّدٍ عليه السَّلامُ من بني إسرائيلَ.

﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مَفعلٌ منَ السُّكونِ، فهي الأمورُ التي تُسكِنُ صاحبَها وتمنعُه منَ الحركةِ، ويُقالُ: سكَنَ الرَّجلُ وتمسكَنَ؛ أي: ظهرَ عليه مخايلُ المساكينِ ويُشبَّهُ بهم، كما يُقالُ: تدرَّعَ وتمَدْرَعَ؛ أي: لبسَ المِدْرعةَ.

وقيلَ: عنى بالذُّلِّ والمسكنةِ: ذلَّةَ وشرَهَ نفوسِهم؛ أي: البقلَ والكُرَّاثَ والبصلَ، والشَّرَهُ ذلٌّ ناجزٌ.

وقيلَ: عنى بالذُّلِّ والمسكنةِ: أنَّ هذه الأشياءَ إنَّما يُتَوصَّلُ إليها بالزِّراعةِ وكدِّ النَّفسِ، فامتَهَنُوا في الأعمالِ الشَّاقَّةِ.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: رجعُوا، وقيلَ: احتَمَلُوا، يُقالُ: بُؤْتُ بكذا؛ أي: احتَمَلْتُه.

والمَباءةُ: منزلُ القومِ، يُقالُ: باءَ بالذَّنبِ؛ أي: نزَلَ منزلةَ المُذنِبين، فقولُه تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نزَلُوا منزلةَ من غَضِبَ الله عليه، ويُقالُ: أبأْتُ فُلانًا بفلانٍ؛ أي: قبِلتُه به وجعلتُه في منزلتِه.

وقيلَ: أصلُ الكلمةِ منَ التَّسويةِ، و: «هم في هذا الأمرِ بَواءٌ»؛ أي: سواءٌ، وباءَتْ دماءُ القومِ؛ أي: استوَتْ، فقولُه تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: استوَى عليهم الغضبُ منَ الله.

والغضبُ: إحلالُ العقوبةِ بهم، أو إرادةُ العقوبةِ لهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: فعَلْنا بهم ضربَ الذُّلِّ والمسكنةِ وإحلالَ الغضبِ لكُفرِهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بمُعجِزاتِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وصفتِه المذكورةِ في التَّوراةِ، أو: لكُفرِهم بما أنزَلْنا على موسى منَ الآياتِ.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ أي: منهم مَن قتَلَ، ومنهم مَن رضيَ به وتولَّى القتَلةَ، قالَ الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالظُّلمِ من غيرِ جُرْمٍ، فقولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيدٌ؛ لأنَّ قتلَ النَّبيِّ لا يكونُ إلّا بغيرِ حقٍّ، وهو كقولِه تعالى: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وهؤلاءِ الذين قتَلُوا زكريَّا ويحيى وشُعيبًا وغيرَهم ما كانُوا يعترِفُونَ أنَّهم[1] أنبياءُ، فوجهُ الذَّمِّ أنَّهم لم يُنعِمُوا النَّظرَ حتَّى يعرِفُوا صدقَهم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾؛ أي: ذلك الكفرُ والقتلُ بعصيانِهم، والكفرُ والعصيانُ هاهنا واحدٌ.

وقيلَ: أي: ذلك الكفرُ والقتلُ بشُؤمِ[2] عصيانِهم في السَّبتِ واعتِدائِهم وغيرِ ذلك.

وقيلَ: أي: ضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ والمسكنةُ لكُفرِهم ولعصيانِهم[3]، كما تقولُ:

---

(١) في (أ): «بأنهم».

(٢) في (أ) زيادة: «أفعالهم و».

(٣) في (أ): «وعصيانهم».

إنَّما ضربتُكَ لأنَّك كفرتَ نعمَتي، لأنَّك عصيتَني، لأنَّك أعرَضْتَ عن أمري.

واشتقاقُ النَّبيِّ منَ النَّبأ، وهو الخبرُ، ثمَّ تُرِكَ همزُهُ[(١)] لكثرةِ الاستعمالِ.

قال أبو عبيدةَ: اجتمعَتِ العربُ على حذفِ الهمزةِ من أربعةِ أحرفٍ؛ منَ النَّبيِّ والذُّرِّيَّةِ والبَرِيَّةِ والخابيةِ[(٢)].

ومَن همزَ «النَّبيَّ»[(٣)] بعد مرورِ الألسنةِ على التَّخفيفِ كانَ كمَن ردَّ الشَّيءَ إلى الأصلِ المرفوضِ، مثل: وَذَرَ ووَدَعَ، وفي الخبرِ: «لستُ بنبيء الله، ولكنِّي نبيُّ الله»[(٤)].

وقيلَ: اشتقاقُ النَّبيِّ منَ النَّبوةِ والنَّباوةِ، وهي الارتفاعُ منَ الأرضِ، فالنَّبيُّ أرفعُ الخليقةِ.

والأوَّلُ أظهرُ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: «تنبَّأ مسيلمةُ» بالهمزةِ، ويقولون: «كانت نبوةُ

---

(١) في (ف): «الهمزة».

(٢) انظر قول أبي عبيدة في «إصلاح المنطق» (ص: ١٢١)، و«جمهرة اللغة» (٣/ ١٢٨٤)، و«شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (ص: ٤٥٨)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٩١)، و«البسيط» (٢/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠) وعنه نقل المصنف. وجعله ابن السكيت من نقل أبي عبيدة عن يونس.

(٣) همز نافع: ﴿ٱلنَّبِيِّـِٔنَ﴾، ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾، ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ في القرآن كلِّه، وترك قالون الهمز في موضعين من سورة الأحزاب وصلًا، وباقي السبعة لا يهمزون من ذلك شيئًا. انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص: ١٥٧)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٣).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٩٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وقال صحيح الإسناد، فتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر لم يصح.

ورواه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٨١) من طريق عبد الرحيم بن حماد الثقفي عن الأعمش عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: ولعبد الرحيم بن حماد عن الأعمش مناكير وما لا أصل له من حديث الأعمش.

مسيلمةَ نُبيِّئةَ سوءٍ» بالهمزِ[١]، وقد يُقالُ في الجمع: نُبآءُ، مثلَ: بَرِيءٍ وبُرآءُ، وإنَّما قيلَ: أنبياءُ الله؛ لأنَّه غُلِّبَ التَّخفيفُ.

* * *

(٦٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ لمَّا ذكَرَ بني إسرائيلَ ذكَرَ حُكمَ مَن انتسبَ إلى دينٍ منَ الأديانِ وذكرَ عاقبتَه.

قالَ ابنُ عبّاسٍ وغيرُه: نزلَتْ في سلمانَ وأصحابِه، وكانَ من أهلِ جُنْدَيْسابورَ[٢]، ولـمَّا قدِمَ على النَّبيِّ عليه السَّلامُ جعلَ يُخبِرُ عن عبادةِ قومٍ منَ النَّصارى كانَ سلمانُ مالَ إلى دينِهم عن التَّحمُّسِ، وجعلَ يُخبِرُ عن اجتهادِهم وصومِهم وصلاتِهم وشهادتِهم بأنَّ محمَّدًا يُبعَثُ نبيًا، فقال عليه السَّلامُ: «يا سلمانُ هم في النّارِ[٣]»، قال سلمانُ: فأظلَمَتْ عليَّ الأرضُ، فنزلَتْ هذه الآيةُ فكأنَّما كُشِفُ عنِّي جبلٌ[٤].

---

(١) قولـه: «نُبَيِّئَـة» بتشـديد الياء للتصغيـر. انظر: «الكتـاب» (٣/ ٤٦٠)، و«شـرح الكتاب» للسـيرافي (٤/ ٢٠١)، و«الحجـة» للفارسـي (٢/ ٨٩)، و«الصحـاح» (مـادة: نبـأ)، و«البسـيط» للواحـدي (٢/ ٦٠١ ـ ٦٠٢).

(٢) جُنْدَيْسابُور: مدينة بخوزستان، والنسبة إليها: الجنديسابوري، بناها سابور بن أردشير فنُسبت إليه، وأسكنها سبيَ الروم وطائفة من جنده، افتتحها المسلمون أيام عمر رضي الله عنه صلحًا. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٢).

(٣) في (أ): «هم من أهل النار».

(٤) رواه ابن منده في «التوحيد» (١٥١) من طريق السدي عن أشياخه عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ. وهذا إسناد فيه كلام تقدم. =

﴿هَادُواْ﴾؛ أي: مالُوا، ومنه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ أي: مِلْنا، وقيلَ: سكنَّا إلى أمرِكَ، وما سكَنْتَ إليه فقد ملتَ إليه، والهوادةُ منَ هذا، وهي المُوادَعةُ، وسُمِّيَ اليهودُ يهودًا لأنَّهم مالُوا[1] عن عبادةِ العجلِ، فلزِمَهم هذا الاسمُ من ذلك الوقتِ.

وقيلَ: لأنَّهم مالُوا عن دينِ موسى وعن الإسلامِ؛ لأنَّهم حرَّفُوا، فكأنَّ هذا الاسمَ لزِمَهم بعد أنبيائِهم.

وقيلَ: لكثرةِ انتقالاتِهم من[2] مذاهبِهم.

وقيلَ: لأنَّهم يتحرَّكونَ عند قراءةِ التَّوراةِ؛ فإنَّهم يقولون: لمَّا نزلَتِ التَّوراةُ تحرَّكت السَّماواتُ والأرضونَ[3]، فالتَّهوُّدُ تَفَعُّلٌ منَ الهَيْدِ، وهو الحركةُ والميلُ، وهِدْتُه أهيدُه؛ أي: حرَّكتُه.

وقيلَ: هو مُعرَّبٌ من يهوذا بنِ يعقوبَ، نُسِبَ إليه الواحدُ فقيلَ: يهوديٌّ، وفي الجمعِ يهودٌ، كما يُقالُ: زِنْجيٌّ، وفي الجمعِ زِنجٌ، ويُقالُ لمَن دخلَ في اليهوديّةِ:

= ورواه مطولاً جدًّا الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٠) وما بعدها، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٢٧) (٦٣٦) مختصرًا بهذه القصة، عن السدي. قال ابن أبي خاتم: وروي عن سعيد ابن جبير نحو هذا. ورواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٤) عن مجاهد، وصحح إسناده ابن حجر في «العجاب» (١/ ٢٥٥).

(١) أي: تابوا، لأن من تاب عن شيء مال عنه. انظر: «البسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٨).

(٢) في (ف): «في». والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في «البسيط» للواحدي (٢/ ٦٠٩)، ونقله عن ابن الأعرابي.

(٣) في (أ): «والأرض».

هادَ وتهوَّدَ، ويُقالُ: هوَّدَ؛ أي: دَعا إلى اليهوديَّةِ، ومنه: «حتَّى يكونَ أبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه»(١).

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ قيلَ: سُمُّوا به لقولِ الحواريِّينَ: نحنُ أنصارُ الله، فهو منَ النُّصرةِ، والواحدُ: نَصرانٌ، مثلُ: نَدامى ونَدْمانٌ، ويُقالُ: نَصرانٌ وناصِرٌ، مثلَ: صَدْيانَ وصادٍ للعطشانِ، والياءُ في «نصرانيٌّ» ياءُ النِّسبةِ.

وقيلَ: النَّصارَى: جمعُ نَصْريٍّ، مثلَ: بعيرٌ مَهرِيٌّ، وإبلٌ مَهارَى، ثمَّ على هذا قيلَ: سُمُّوا به لاعتزائِهم إلى قريةٍ يُقالُ لها: نَصْرةُ أو ناصرةُ، وكانَ عيسى يُسمَّى: النّاصرِيَّ.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قُرِئَ بالهمزِ من صبأَ الرَّجلُ في دينِه يصبأُ صُبوءًا فهو صابئٌ؛ أي: خرَجَ من دينٍ إلى دينٍ، ومنه: صبأَ النَّجمُ؛ أي: طلَعَ، وكذلك أَصْبَأَ؛ أي: طلَعَ، وصبأَ نابُه؛ أي: خرَجَ، وصَبَأْتُ النَّبتةَ؛ أي: قلَعْتُها، فالصَّابئُ هو الذي خرجَ منَ التَّوحيدِ إلى عبادةِ النُّجوم.

وقُرِئَ بغيرِ همزٍ(٢)، فيحتمِلُ أن يكونَ من صبأَ بالهمزِ، فتُرِكَ الهمزُ تخفيفًا، ويحتملُ أن يكونَ من صبَا يصبُو؛ أي: مال(٣).

ثمَّ؛ قيلَ: هم قومٌ منَ اليهودِ والنَّصارَى لا دينَ لهم، كانوا انتقَلُوا عن أصلِ دينِهم في الابتداءِ.

وقيلَ: هم قومٌ يعبُدونَ الملائكةَ.

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها نافع، وقرأ الباقون بالهمز. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٨)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٣) «مال» ليست في (ف)، وفي (أ): «مال ثم مال»، والصواب المثبت.

وقيلَ: يعبُدونَ النُّجومَ ويُقِرُّونَ بالصّانعِ والمعادِ وبعضِ الأنبياءِ.

وقيلَ: هم قومٌ يُشبِهُ دينُهم دينَ النَّصارَى، إلّا أنَّ قبلتَهم نحوَ مهَبِّ الجنوبِ، ويزعُمونَ أنَّهم على دينِ نوحٍ وهم كاذِبون.

وقيلَ: هم قومٌ منَ النَّصارى أليَنُ منهم قلوبًا، وهم السّائحون، تقولُ النَّصارَى لهم: صبأَتْ قلوبُهم، **والأظهرُ أنَّهم** بادُوا وانقرَضُوا فلا يوجَدُونَ الآنَ.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: مَن آمنَ بكَ يا محمَّدُ في عصرِكَ، ومَن آمنَ منَ اليهودِ والنَّصارَى والصَّابئينَ بالله وبما دعاهُم إليه، ثمَّ ماتَ على ذلك من غيرِ تغييرٍ قبلَ أن يُنسَخُ ذلك الشَّرعُ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقولُه: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يرجعُ إلى استدامةِ الإيمانِ إلى الوفاةِ، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقيلَ: أي: مَن آمنَ بكَ يا محمَّدُ ومَن آمنَ منَ اليهودِ والنَّصارَى الآنَ بالله، وإنَّما يتمُّ إيمانُهم بأنْ يُؤمِنُوا بك يا محمَّدُ، فلا خوفٌ عليهم، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: مَن آمنَ منهم؛ إذ لا بدَّ من عائدٍ إلى اسمِ ﴿إِنَّ﴾.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الآيةُ منسوخةٌ؛ لأنَّها تقتَضي أنَّ مَن ماتَ على اليهودِ أو التَّنصُّرِ عاملًا مجتهدًا فله الجنَّةُ، وإنَّما نُسِخَتْ بقولِه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥][1].

والنَّسخُ قد يجري في الأخبارِ على الصَّحيحِ كما تبيَّنَ في أصولِ الفقهِ، على أنَّ هذا خبرٌ يرجعِ إلى الأمرِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٢٦).

وقيلَ: أي: ومَن آمنَ من بعدكَ يا محمَّدُ إلى يومِ القيامةِ فلا خوفٌ عليهم، فالواوُ مُقدَّرةٌ في الكلامِ.

و«مَنْ» يصلُحُ للواحدِ والجمعِ، فلهذا قالَ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ويعني بالأجرِ: الثَّوابَ[1] الموعودَ في الجنّةِ.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أنَّ مَن دخلَ الجنّةَ نسيَ ما لقيَ من مخاوفِ القيامةِ.

وقد قيلَ: أهوالُ القيامةِ إنَّما تعُمُّ الضّالِّينَ لا المُؤمنين، لأنَّهم يعلمون أنهم يتخلَّصون.

وقيلَ: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبِلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفُوا منَ الدُّنيا.

* * *

(٦٣) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ ثمَّ أخبرَ عن نوعٍ آخرَ من تمرُّدِهم، ومن رحمتِه ونعمتِه عليهم، ولفظُ الأخذِ هاهنا لتوثيقِ العهدِ وتوكيدِ العهدِ[2]، والميثاقُ: مِفْعالٌ منَ الوثيقةِ.

ثمَّ؛ قيلَ: أرادَ أخذَ الميثاقِ يومَ استخراجِ الذَّرِّ من صُلبِ آدمَ.

وقيلَ: أرادَ ما كان يأخذُ كلُّ نبيٍّ على قومِه من الوثيقة[3].

---

(١) في (أ): «يعني الأجر والثواب».

(٢) في (أ): «لتوفيق العقد وبتوكيد العقد».

(٣) «من الوثيقة» من (أ).

ثم؛ يحتمِلُ أنَّه أخذَ ميثاقَهم فنقَضُوا، فرفعَ فوقَهم الطُّورَ، ويحتمِلُ أنَّ أَخْذَ الميثاقِ كانَ في حالةِ رفعِ الطُّورِ؛ فإنَّهم لمَّا رأوا ما في التَّوراةِ منَ التَّغليظِ أَبَوا قبولَها، وقالوا: عبادةُ العجلِ أحبُّ إلينا، فانقطعَ جبلٌ من جبالِ فلسطينَ فرسخٌ في فرسخٍ على قَدْرِ عسكرِ موسى وأظلَّ عليهم، وقيلَ لهم: إنْ قبلتُم التَّوراةَ وإلّا رُضِخْتُم، فقبِلُوا وسجَدُوا على أنصافِ وجوهِهم يُلاحِظُونَ الجبلَ، فصارَ ذلك عادةً لهم.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: رفعَ الله فوقَهم الطُّورَ، وبعَثَ نارًا من قِبَلِ وُجوهِهم، وأتاهُم البحرُ المالحُ من خلفِهم، فقبِلُوا التَّوراةَ كارِهين[1].

وقالَ: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ ولـم يقُلْ: مواثيقَكم؛ لأنَّ الواحدَ في مثلِ هذا الموضعِ يُؤدِّي معنى الجمعِ؛ أي: وإذ أخَذْنا من كلِّ واحدٍ ميثاقَه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي: كلَّ واحدٍ منكم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبلُ.

وقيلَ: هو اسمٌ سُريانيٌّ للجبلِ، فإنْ صحَّ هذا فهو وِفاقٌ بينَ اللُّغتَينِ.

وقيلَ: الطُّورُ: اسمُ جبلٍ بالشَّامِ بعينِه، وهو الذي كلَّمَ الله عليه موسى، وهو بمدينَ.

ومَن قالَ: «الطُّورُ اسمٌ لكلِّ جبلٍ» قالَ: هو منَ الطَّورِ[2] وهو النَّاحيةُ، «فلانٌ يعدُو طَورَه»؛ أي: يجاوزُ حدَّه، ويتعدَّى ناحيتَه.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٦٢) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «الطوار». والطَّور والطُّور والطَّوار: ما كان على حَدِّ الشيءِ أو بحذائه؛ أي: مُقابَلتِه وطُوله، ويقال: رأيتُ حَبْلاً بطَوَارِ هذا الحائط؛ أي: بطُوله، وكلُّ شيءٍ ساوَى شيئاً فهو طَوْرُه وطُوارُه. انظر: «التاج» (مادة: طور).

وقيلَ: تخصيصُ اسمِ الطُّورِ بجبلٍ مُعيَّنٍ من قصَّةِ العُرفِ، وهو كلفظِ الدَّابَّةِ في تخصُّصِه ببعضِ ما يَدِبُّ.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾؛ أي: وقلنا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ واعلموا ما أُمِرْتُم به ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بجدٍّ وعزمٍ صحيحٍ على طاعةِ الله، والقوَّةُ: الشِّدَّةُ، ومنه: قُوَى الحَبْلِ[1].

وقيلَ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ فقد أعطيناكم القوَّةَ عليه، ولم نُكلِّفْكم ما لا تُطيقون.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾؛ أي: في التَّوراةِ، وقيلَ: في الميثاقِ، وما في نقضِه منَ العقوبةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصيَ والعقابَ.

* * *

(٦٤) ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾؛ أي: أعرَضْتُم، بيَّنَ أنَّهم قبِلُوا لـمَّا رفعَ فوقَهم الجبلَ، ثمَّ أعرضُوا عنه وحرَّفوا وقتلُوا الأنبياءَ، وقد خالفُوا موسى في التِّيهِ مع مُشاهدةِ الآياتِ البديعةِ، حتَّى خُسِفَ ببعضِهم، وضُرِبَ بعضُهم بالبرصِ والجُذام[2]، وعُوقِبُوا بالطّاعونِ، ثمَّ كفرَ المُتأخِّرونَ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ حتَّى سلَّطَ عليهم السَّبْيَ والجلاءَ عن الوطنِ.

وكلُّ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، أي: مَن كانَ هذا صنيعُه فلا تَعجَبْ من كُفرِه بك يا محمَّدُ.

---

(١) وهي طاقاتُ الحَبْلِ، جمعُ قُوَّة للطاقةِ من طاقات الحَبْلِ أو الوَتَر، ويقالُ في جمعه: القِوَى ـ بالكسر ـ أيضاً. انظر: «التاج» (مادة: قوي).

(٢) «والجذام» من (أ).

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعدِ أخذِ الميثاقِ، أو: من بعدِ ما عفَونا عنكم.

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بتأخيرِ العقابِ عنكم.

وقيلَ: ببعثةِ محمَّدٍ فيكم، أو برفعِ الجبلِ عنكم.

والخسرانُ: ذهابُ رأسِ المالِ، وهو هاهنا: هلاكُ النَّفسِ؛ لأنَّها[1] بمنزلةِ رأسِ المالِ.

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؛ أي: لولا فضلُ الله عليكم لكنتُم منَ الخاسرينَ كالذين اعتَدَوا.

﴿عَلِمۡتُمُ﴾؛ أي: عرَفتُم، ولهذا لم يقتضِ مفعولًا ثانيًا؛ لأنَّك تقولُ: «علمْتُ زيدًا ظريفًا»، وإذا قلتَ: «عرفتُ زيدًا ظريفًا»؛ فهو حالٌ لا مفعولٌ ثانٍ.

﴿ٱعۡتَدَوۡاْ﴾؛ أي: جاوَزُوا ما أُمِروا به، وكانوا أُمِروا بتركِ صيدِ الحيتانِ يومَ السَّبتِ.

قيلَ: هم أهلُ أيلةَ، أرضٌ على ساحلِ البحرِ بينَ المدينةِ والشّامِ، وكانوا في زمنِ داودَ، وكان ذلك مكانًا يجتمعُ إليه[2] حيتانُ البحرِ في كلِّ يومِ سبتٍ، فحفَروا حظائرَ يحبِسُونَ الحيتانَ فيها ليأخُذوها يومَ الأحدِ فكثَّروا أموالَهم[3].

---

(١) في (ف): «لأنه».

(٢) في (أ): «يجتمع فيه».

(٣) روى قصتهم مطولة الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦١ ـ ٦٢) من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيلَ: اصطادُوا يومَ السَّبتِ ومشى إليهم قومٌ من أهلِ الموضعِ، نحو اثني عشرَ ألفًا، وكانوا نحوًا من سبعينَ ألفًا، وقالوا: إنَّ الله تعالى يُنزِلُ بكم عذابَه، قالوا: فلِمَ تعظُوننا إذًا؟ فقالوا: معذرةً إلى ربِّكم، فأصبحَ الذين استحلُّوا ما زجرَ الله عنه قِردةً خاسئين(١).

وبقُوا ثلاثةَ أيامٍ، ثمَّ هلكُوا ولم يمكُثْ مسخٌ فوقَ ثلاثةِ أيّامٍ فيما ذُكِرَ.

وقيلَ: كانوا يصطادُونَ يومَ السَّبتِ ويُعلِّقُونَه بخيطٍ في الماءِ ثمَّ يأخُذونَه يومَ الأحدِ.

والسَّبتُ: القَطعُ، يُقالُ: سُبِتَ رأسُه؛ أي: حُلِقَ شعرُه، ومنه: السُّباتُ؛ لأنَّه يَقطعُ الحركةَ، والسَّبتُ: قِطعةٌ منَ الدَّهرِ، ومنه: غنيتُ سبتًا، أي: عشتُ دهرًا.

وسُمِّيَ اليومُ سبتًا لأنَّ الله تعالى ابتدأ فيه الخلقَ يومَ السَّبتِ.

وقيلَ: سُمِّيَ سبتًا لأنَّه يقطعُ عددَ الأيّامِ فيُستأنَفُ العددُ بذكرِ الأحدِ والإثنينِ.

والنِّعالُ السَّبتيّةُ: هي المدبوغةُ بالقَرَظِ؛ لأنَّه يقطعُ رائحتَها.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ هذا أمرُ تسخيرٍ؛ أي: جعلناهُم كذلك، والقِرَدةُ: جمعُ قردٍ، وأصلُ الكلمةِ منَ اللُّصوقِ، ومنه: القَرَدُ، وهو ما تلاصقَ منَ الوَبَرِ وتعَقَّدَ، ومنه: القُرادُ؛ للُصوقِه بالموضعِ الذي يَعْلَقُ به، والقرودُ(٢) تتلاصَقُ إذا اجتمَعَتْ فإنَّها من أجبَنِ الحيواناتِ.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾؛ أي: مطرودينَ، يُقالُ: خَسَأْتُه خَسْئًا، فخَسَأَ خُسوءًا، فهو لازمٌ

---

(١) ذكره بنحوه الواحدي في «البسيط» (٩/ ٤١٥) عن الكلبي، وصيدهم يوم السبت رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦١ ـ ٦٢) من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ف): «والقرد».

ومتعدٍّ، والمعنى: كونوا خاسئينَ قِرَدةً[١]، ولهذا لـم يقُلْ: قِرَدةً خاسئةً.

ويُروَى عن مجاهدٍ أنَّه قالَ: ما كانَ هذا مسخَ البدنِ، وإنَّما كانَ مسخَ القلبِ[٢]، وهو كقولِه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وتقولُ للبليدِ: اذهَبْ فكُنْ حمارًا؛ أي: مُشبَّهًا بحمارٍ.

وهذا[٣] **تركُ الظَّاهرِ من غيرِ دليلٍ**، وقد نطقتِ الأخبارُ بأنَّ الله تعالى جعلَهم قِردةً، وقدرةُ الله[٤] مُتعلِّقةٌ بكلِّ موهومٍ، فليس إلا القَبولُ، وقد قالَ عليه السَّلامُ ليهودِ بني قُريظةَ لـمَّا نزَلَ بساحتِهم: «يا إخوةَ القِردةِ والخنازيرِ»[٥].

***

(٦٦) ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قولـه عـز وجـل: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا﴾ ترجـعُ الكنايـةُ إلـى المسـخةِ؛ لأنَّ معنـى قولِـه تعالـى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾: مسَـخْناهُم.

أو: جعَلْنا تلك العقوبةَ نكالًا لـها وللَّذين مُسِخُوا، ودلَّ عـلى العقوبةِ قولُه تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً﴾.

---

(١) في (ف): «قِردًا».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٣).

(٣) في (ف): «وهو».

(٤) في (أ): «وقدرته».

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٣٣٢)، وعنه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٨) من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة بني قريظة.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٢) عن الزهري في القصة نفسها أيضاً.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥٠)، عن مجاهد.

وقيـلَ: أي: جعَلْنـا الأمَّـةَ الذين اعتَـدَوا؛ لأنَّ الآيـةَ دلَّتْ على أنَّهـم كانوا فرقةً مـنَ النّـاسِ، أو: جعَلْنا هـذه الفعلـةَ عبـرةً، أو: جعَلْنا القريةَ نـكالًا، وجعَلْنـا القِرَدةَ نكالًا(١).

والنَّكالُ: العِبرةُ؛ أي: عبرةً لأنفُسِهم ولغيرِهم، وأصلُ النَّكالِ: العقوبةُ التي إذا حلَّتْ بشخصٍ انزَجَرَ النّاسُ عن مثلِ الفعلِ الذي أوجبَها، ومنه: نكَلَ عن الأمرِ نُكولًا؛ أي: جبُنَ وامتنَعَ، ومنه: النِّكْلُ للقيدِ؛ لأنَّه يَمنعُ الجَرْيَ.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قيـلَ: (مـا بيـن يديهـا): الأمـمُ التـي تراهـا، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: مـا بعدَهـا، ويسـمعُ أمرَهـا.

وقيلَ: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾؛ أي: لِـمَا مضى منَ الذُّنوبِ وما يُعملُ بعدَها، فـ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن الذُّنوبِ.

وقيلَ: تقديرُه: فجعَلْناها وما خلفَها مـمَّا أُعدَّ لهم من العذابِ في الآخرةِ عقوبةً ونكالًا؛ لِـمَا سبقَ من ذُنوبِهم في اعتدائِهم يومَ السَّبتِ.

وقيلَ: جعَلْناها عبرةً لِـمَا بينَ يدَي تلك القريةِ منَ القُرى وما خلفَها.

وقيلَ: أي: جعَلْناهم عبرةً لِـمَن مضى ومَن بقيَ، على تقديرِ أنَّ مَن مضى لو عرَفَ ذلك لاعتبرَ به أيضًا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: للمُؤمنينَ الذين يتَّقونَ عقابَ الله.

***

---

(١) «وجعلنا القردة نكالاً»: ليس في (أ).

(٦٧) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ ذكَّرَهم شيئًا آخرَ منِ اعتراضِهم على أنبيائِهم، وما أظهرَ فيه منَ الآياتِ التي تُقوِّي إيمانَهم.

﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ القومُ إنَّما ينطلقُ على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] يدخلُ فيه الذُّكورُ والإناثُ، لأنَّ النِّسوةَ تبعُ الرِّجالِ في الغالبِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ وذلك أنَّهم وجدوا قتيلًا بينَ أظهُرِهم واشتبهَ أمرُ قاتلِه، فأُمِرُوا بذبحِ بقرةٍ ليُضرَبَ القتيلُ ببعضِها ليَحيَى ويُخبِرَ بقاتلِه.

والبقرةُ: واحدُ البقرِ، وأصلُه من قولك: بقَرَ بطنَه؛ أي: شقَّه بَقْرًا، ومنه: الباقرُ؛ لأنَّه بقَرَ العلمَ، وعرَفَ أصلَه؛ أي: شقَّه، والبَقيرةُ: ثوبٌ يُشَقُّ فتُلقيه المرأةُ في عنُقِها من غيرِ كُمَّينِ ولا جَيبٍ، فالبقرُ يُشَقُّ بها الأرضُ في التُّرابِ.

﴿قالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا﴾؛ أي: فـ﴿قالوا أتتَّخِذُنا هُزُوًا﴾ فـ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾، فحُذِفَ الفاءُ في الموضعَينِ، وحسُنَ ذلك لأنَّه جوابٌ يستَغني أوَّلُه عن آخرِه بالوقفِ عليه، ومثلُه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ [الحجر: ٥٧ ـ ٥٨]، ولا يجوزُ: «قُمْتُ فَعَلْتُ» وأنتَ تُريدُ: «قُمْتُ ففعَلْتُ»؛ لأنَّه لا يحسنُ الوقفُ على قولِك: «قُمْتُ» إذا أردتَ أن تصلَ به «ففعلْتُ».

﴿أَتَتَّخِذُنَا﴾ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ.

وقيلَ: ظنُّوا أنَّ موسى يُداعِبُهم؛ لأنَّهم سألوه عن قاتلِ قتيلٍ، فقالَ: اذبَحُوا بقرةً، ولـم يُبيِّنْ لهم ما يفعلون بعد الذَّبحِ.

قُـرِئَ: ﴿هُزُوًا﴾ بالتَّثقيـلِ، و: ﴿هُـزْوًا﴾ بالتَّخفيـفِ[١]، ومـا كانَ منَ الأسـماءِ علـى ثلاثـةِ أحـرُفٍ وأوَّلُـه مضمومٌ فيجـوزُ فيـه التَّثقيـلُ والتَّخفيـفُ، مثـل: الحلمِ والعسرِ واليسرِ، وكذلـك مـا كانَ على فُعُلٍ مـنَ الجمـوعِ كالكتُبِ والرُّسُـلِ، وأمَّا «فُعْـلٌ» فـي جمـعِ «أفعلَ» نحـو: «أَحْـمَرَ وحُـمْرٍ»، فيلـزمُ السُّكونُ فيه فرقًـا بينَ الجمعَينِ.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: أتتَّخِذُنا أصحابَ هُزُؤٍ.

وقيلَ: الهزؤُ بمعنى المهزُوءِ به، كما تقولُ: كانَ هذا في علمِ الله؛ أي: معلومِه، و: الله رجاؤُنا؛ أي: مَرجُوُّنا.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: أمتَنِعُ به، وألجأُ إليه، منَ العَوْذِ والعياذِ.

﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بيَّنَ أنَّ هذا الهازِئَ جاهلٌ، والجهلُ نقيضُ العلمِ.

***

(٦٨) - ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ الأصلُ أنَّ «ما» سؤالٌ عن الجنسِ، تقولُ[٢]: ما هذا؟ فيقولُ: إنسانٌ، أو: فرسٌ، و«كيفَ» سؤالٌ عن الحالِ والصِّفةِ، والقومُ عرَفُوا الجنسَ، وإنَّما سألُوا عن صفةِ البقرةِ، ولهذا كان الجوابُ:

---

(١) قرأ حفص: ﴿هُزُوًا﴾ بضم الزاي - وهو المراد بالتثقيل - من غير همز، وحمزة بإسكان الزاي وبالهمز في الوصل، فإذا وقف أبدل الهمزة واوًا اتباعًا للخط وتقديرًا لضمة الحرف المسكن، وباقي السبعة بالضم والهمز. انظر: «السبعة» (ص: ١٥٨)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٤).

(٢) في (ف): «يقال».

﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ وإنَّما جازَ هذا لأنَّ «ما» يُذكَرُ بمعنى «كيفَ» تجوزاً وكذلك «كيفَ» يُذكَرُ بمعنَى «ما».

وقيلَ: سألوا عن نوعِ البقرةِ؛ أي: أيُّ نوعٍ هي؟ لأنَّهم لـم يعلَمُوا أنَّ بقرةً يحيَى بضربِ بعضِها ميِّتٌ، وكذا قولُهم[1]: ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ سألُوا عن نوعِ اللَّونِ[2].

وهذا الدُّعاءُ بمعنَى السُّؤالِ؛ أي: سَلْ لنا ربَّكَ: ما هي؟

ثمَّ قالَ العلماءُ: لو ذبَحُوا أيَّ بقرةٍ كانت لحصَلَ المقصودُ، لكنَّهم شدَّدُوا على أنفُسِهم فشدَّدَ الله عليهم، وهذا لأنَّه لو عنَى البقرةَ المخصوصةَ لَـمَا اقتصرَ في الابتداءِ على قولِه: (اذبحوا بقرة)، ولَـمَا أكَّدَه بقولِه: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾؛ لأنَّ تأخيرَ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ لا يجوزُ.

وإنَّما بحثَ القومُ: إمَّا للعنادِ، وإمَّا لظنِّهم أنَّها بقرةٌ مخصوصةٌ جُعِلَتْ فيها الآيةُ، كعصا موسى المخصوصةِ من بينِ العصيِّ، وهذا أشبهُ؛ إذ لو كانَ ثَمَّ عنادٌ لبقيَ للعنادِ موضعٌ بعد ذكرِ هذه الأوصافِ، وفي هذا ما يُوجِبُ العملَ[3] بالظَّواهرِ، ويدُلُّ على أنَّ الحكمَ يتعلَّقُ بأقلِّ الاسمِ.

﴿يُبَيِّن﴾؛ أي: يُظهِرْ، والبيانُ: إزالةُ الإشكالِ.

﴿مَا﴾ رفعٌ بالابتداءِ؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه.

﴿لَّا فَارِضٌ﴾ ارتفعَ بإضمارِ «هي»؛ أي: هي لا فارِضٌ، والوصفُ بالنَّفيِ صحيحٌ؛

---

(١) في (ف): «وهذا قوله تعالى».

(٢) في (أ): «عن لون البقرة».

(٣) في (ف): «العلم».

أي: تختصُّ بما يُنافي ذلك الوصفَ، تقول: مررتُ برجلٍ لا قائمٍ ولا قاعدٍ؛ أي: برجلٍ مختصٍّ بصفةٍ تُنافي القيامَ والقعودَ.

والفارِضُ: الـهَرِمةُ، يُقالُ: فَرَضَتْ وفَرُضَتْ تَفرِضُ فُروضًا.

وقيلَ: ﴿فَارِضٌ﴾؛ أي: عظيمةٌ سمينةٌ، والجمعُ: فوارِضُ.

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ البِكرُ منَ النِّساءِ: التي لـم تُـمَسَّ، ومنَ الرِّجالِ: الذي لـم يَقربِ النِّساءَ بعدُ، والبِكرُ: أوَّلُ ولدِ الرَّجلِ، وبقرةٌ بكرٌ؛ أي: فتِيَّةٌ لـم تحمِلْ، ومنه: الباكورةُ، لأوَّلِ ما يُدرَكُ منَ الثِّمارِ، والبُكرةُ: أوَّلُ النَّهارِ.

أي: إنَّها بقرةٌ ليست بكبيرةٍ ولا صغيرةٍ، بل هي مُتوسِّطةٌ.

﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ العَوانُ: النِّصفُ المتوسِّطُ، يُقالُ: عَوَّنَتْ تُعَوِّنُ تَعْوينًا، وعانَتْ تعُونُ عَوْنًا.

وقيلَ: العَوانُ: التي نُتِجَتْ مِرارًا، والجمعُ: عُوْنٌ.

﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لو قالَ: «بينَ ذَينِكَ» جاز، و«بيَن ذلك» أيضًا حسَنٌ سائغٌ؛ لأنَّ «ذلك» مُبهَمٌ يجوزُ أن يُرادَ به الواحدُ مرَّةً، وأكثرَ منَ الواحدِ مرَّةً، وهو مثلُ «مَنْ» و«ما» و«الذي»، فيجوزُ أن يُرادَ بكلِّ واحدٍ الواحدُ والجمعُ.

وقيلَ: «عَوانٌ بينَ ما ذكَرْنا منَ البِكرِ والفارضِ»، و«بينَ» اسمٌ يُستعمَلُ مصدرًا وظرفًا، وأصلُه منَ الافتراقِ والانكشافِ، ومنه: بانَ الخليطُ؛ أي: فارَقَ، وبانَ الأمرُ وأبانَ؛ أي: انكشَفَ، والبَيُونُ: البئرُ الواسعةُ الرَّأسِ الضَّيقةُ الأسفلِ؛ لأنَّ أعلى البئرِ فارَقَ أسفلَها، لانهيارِه لورودِ السَّابلةِ عليها.

* * *

(٦٩) - ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ لونُها؟

و﴿مَا﴾ مبتدأٌ، و﴿لَوْنُهَا﴾ خبرٌ، وإذا كانَ المقصودُ الاستفهامَ فإنَّما يَعملُ في الاستفهامِ ما بعدَه لا ما قبلَه، تقولُ: سلْ أيُّهم قامَ؟ فلو قُلتَ: سل أيَّهم قامَ بالنصب[1]؛ خرَجَ الكلامُ عن الاستفهامِ، فمعناه: سلِ الذي قامَ.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ ما بعدَ القولِ من بابِ «إنَّ» مكسورٌ أبدًا حملًا على الحكايةِ، تقولُ: «قلتُ: إنَّ زيدًا مُنطلقٌ»؛ أي: «أحكي: إنَّ زيدًا مُنطلقٌ»، فلا يعملُ القولُ في «إنَّ» إذا كانَ حكايةً، وجوَّزَ قومٌ من بني سُلَيم: «قلتُ أنَّ زيدًا مُنطَلَقٌ»، ولا يُؤخَذُ في القرآنِ به.

﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾؛ أي: شديدُ[2] الصُّفرةِ، من: فَقَعَ يَفْقَعُ ويَفْقُعُ.

وقيلَ: عَنَى بالصَّفراءِ: السَّوداءَ، قالَ الله تعالى: ﴿كأنَّه جِمَالاتٌ صُفْرٌ﴾[3] [المرسلات: ٣٣]؛ أي: سودٌ.

وهذا بعيدٌ، وإنَّما يُطلَقُ في الإبلِ لأنَّ سوادَها يشوبُه صُفرةٌ، ولا يُقالُ: أسودُ فاقعٌ، بل يُقالُ: أسودُ حالكٌ.

﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾؛ أي: تُعجِبُهم بحُسنِها[4].

***

---

(١) «بالنصب» من (أ).

(٢) في (أ): «شديدة».

(٣) هذه قراءة سبعية وستأتي في مكانها. انظر: «السبعة» (ص: ٦٦٦)، و«التيسير» (ص: ٢١٨).

(٤) في (أ): «يعجبهم حسنها».

(٧٠) - ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ طلَبوا زيادةً في البيانِ؛ أي: يُبيِّن أسائمةٌ هي أم عاملةٌ؟ أهليَّةٌ أم وحشيّةٌ؟ إلى غيرِها منَ الأوصافِ.

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ ذُكِّرَ لتذكيرِ اللَّفظِ، وكلُّ جمعٍ حروفُه أقلُّ من حروفِ واحدِه جازَ تذكيرُه ـ مثلَ: «بقر» و«سحاب» ـ نظرًا إلى لفظِ الجمعِ، وجازَ تأنيثُه نظرًا إلى لفظِ الجماعةِ، قالَ الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وقيلَ: أي: جنسُ البقرِ تشابهَ علينا.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾؛ أي: إلى البقرةِ التي أُمِرْنا بذبحِها؛ وقيلَ: إلى القاتلِ.

وقيلَ: لمُهتَدون في هذا الاستقصاءِ في السُّؤالِ عن البقرةِ، وفي الخبرِ: «وايمُ الله، لو لم يستَثْنُوا لَما تبيَّنَتْ لهم آخرَ الأبدِ»[1].

* * *

(٧١) - ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾؛ أي: هي بقرةٌ صعبةٌ غيرُ ريِّضةٍ لم تُذَلَّلْ بالعملِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٠٠) عن قتادة عن النبي ﷺ مرسلًا.

﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: تَقْلِبُها للزِّراعةِ. والإثارةُ: تفريقُ الشَّيءِ، تقولُ: أثَرْتُ الشَّيءَ واستثَرْتُه، وثارَ الغبارُ، وثارَ الدَّمُ في وجهِ فلانٍ، ومنه: الثَّورُ؛ لأنَّه يُثيرُ الأرضَ.

والمقصودُ: نفيُ الإثارةِ، تقولُ: ليس فلانٌ بالذي يُكرِمُني، فتنفي الإكرامَ بهذا.

وقرأ أبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ بالوقفِ عندَ قولِه: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾، ثمَّ ابتدأ ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فيكون هذا للإثبات وفيه نوع أعجوبةٍ؛ أي: ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾، بخلافِ ما يُشاهَدُ من بقرِنا[1].

وهذا خلافُ إجماعِ المُفسِّرين، وأيضًا لو كانَتْ تُثيرُ الأرضَ لكانت الإثارةُ قد ذلَّلَتْها.

﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ هذا عطفُ الفعلِ على الاسمِ، ويجوزُ ذلك إذا كان الاسمُ مبنيًّا على الفعلِ، تقولُ: «زيدٌ صائمٌ ويُصلِّي»، والحرثُ: كلُّ موضعٍ هيَّأْتَه لتزرعَ فيه.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾؛ أي: منَ العيوبِ، أو من أثرِ العملِ، أو منَ الشِّيةِ، وقد قال الحسنُ: كانت تلك البقرةُ وحشيَّةً[2]، ولهذا وصفَها الله عزَّ وجلَّ بأنَّها لا تُثيرُ الأرضَ ولا تسقي الحرثَ.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: لا لونَ فيها يُخالفُ لونَها، بل هي صفراءُ لا يُخالطُ صُفرتَها لونٌ آخرُ، فكانت صفراءَ الأظلافِ والقُرونِ، والوشيُ: خَلطُ لونٍ بلونٍ، والشِّيةُ من وشَيْتُ الثَّوبَ، كالدِّيةِ مِنْ وَدَيْتُ، والعِدَةِ مِنْ وعَدْتُ.

---

(١) انظر: «إيضاح الوقف والابتداء» لابن الأنباري (١/ ٥٢١)، و«البسيط» للواحدي (٣/ ٣٩)، وكلاهما تعقباه فيما ذهب إليه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٣٨)، وفيه جويبر بن سعيد وهو متروك.

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: تَبيَّنَ لنا البقرةُ التي أُمِرْنا بذبحِها، وهي البقرةُ التي عند فلانٍ، فاشتَرَوها بثمنٍ غالٍ، و«الآنُ»: هو الوقتُ الذي أنتَ فيه.

و﴿جِئْتَ﴾ من جاءَ يجيءُ مجيئًا وجَيئةً، ومنه: الجِئةُ؛ لأنَّه يجيئُها الماءُ ويجتمعُ فيها.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾؛ أي: فطلَبُوها فوجَدُوها فذبَحُوها.

﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاءِ ثمنِها، أو لمخافةِ الافتضاحِ، أو لكثرةِ السُّؤالِ.

وقيلَ: أوَّلُ مَن راجعَ موسى البحثَ عن البقرةِ القاتلُ خوفَ أن يُفتَضَحَ.

وقيلَ: وُجِدَتْ تلك البقرةُ عندَه.

* * *

(٧٢) - ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ قيلَ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وإذ قتلتُم نفسًا فادَّارَأتُم فيها، فقالَ موسى: إنَّ الله يأمُركم بكذا؛ لأنَّ ذبحَ البقرةِ إنَّما كان بسببِ[1] القتيلِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١ - ٢]؛ أي: أنزلَ على عبدِه الكتابَ قيِّمًا، ولـم يجعَلْ له عِوَجًا.

وقيلَ: لمَّا أُمِرُوا بذبحِ البقرةِ - وكانَ قد وقعَ القتلُ - علِمُوا أنَّ هذا الذَّبحَ بسببِ البيِّنةِ[2] على القاتلِ، ثمَّ قالَ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ على جهةِ التَّوكيدِ.

وقيلَ: أي: إنَّ الله يأمُركم أن تذبَحُوا بقرةً للقتيلِ الذي وقعَ بينكم.

---

(١) في (أ): «كان لأجل».

(٢) في (أ): «التنبيه».

وقيلَ: أي: واذكُروا إذ أمَرْناكُم بذبحِ البقرةِ ففعَلْتُم ذلك، واذكروا إذ كانَ الأمرُ بذبحِ تلك البقرةِ لكذا وكذا.

وأيضًا: يجوزُ أن يُسألَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عن ذبحِ بقرةِ بني إسرائيلَ، فتنزلَ آيةٌ، ثمَّ يُسألَ عن سببِ ذلك الذَّبحِ فتنزلَ في بيانِه آيةٌ أُخرَى.

﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾؛ أي: تدافَعْتُم، منَ الدَّرءِ، وهو الدَّفعُ؛ أي: دافعَ كلُّ واحدٍ منكم ذلك القتلَ عن نفسِه، وأصلُ (ادَّارَأْتُم): تدارَأْتُم، فأُدغِمَت التَّاءُ في الدَّالِ، وأُدخِلَت الألفُ ليَسْلَمَ سكونُ الحرفِ الأوَّلِ، ومثلُه: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النمل: ٤٧]، و﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ [التوبة: ٣٨]، و﴿ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ﴾ [النمل: ٦٦]، و﴿تظَّاهرون﴾[1] [البقرة: ٨٥]، و﴿ٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: ٢٤]، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النَّفسِ، أو في القِتْلةِ؛ لأنَّ ﴿قَتَلۡتُمۡ﴾ يدُلُّ على المصدرِ.

﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: مُظهرٌ ما كتمتُموه مـن أمرِ القتيلِ، فالخطابُ لمَن كان في عصرِ موسى.

وقيلَ: الخطابُ لأهلِ وقتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ منَ اليهودِ، وكانوا يكتُمونَ هذا الخبرَ لِمَا فيه منَ التَّشنيعِ على أسلافِهم.

وقيلَ: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ﴾ في الآخرةِ ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ في الدُّنيا.

* * *

---

(١) هي قراءة ابن عامر ونافع وابن كثير وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة: ﴿تظاهَرون﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٧٣) - ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قيل: هو بعضٌ غيرُ معيَّنٍ، وكانت الخِيَرةُ إليهم.

وقيلَ: كانَ هذا بعضًا مُعيَّنًا لهم، وإنْ لم يُبيَّنْ لنا، وقد نقلَ قومٌ أنَّه أرادَ: بفَخِذِها.

وقيلَ: بعَجْبِ ذنَبِها الذي يُركَّبُ عليه الخلْقُ ولا تأكلُه الأرضُ.

وقيلَ: بالبَضْعةِ التي بين كتِفَيها.

وقيلَ: بلسانِها.

وقيلَ: بأُذُنِها.

﴿اضْرِبُوهُ﴾؛ أي: القتيلَ، أو النَّفْسَ المقتولَ، والنَّفسُ تُذكَّرُ وتُؤنَّثُ.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾؛ أي: قُلنا: اضرِبُوه ببعضِها ليَحيَى، فضُرِبَ فحَيِيَ، كذلك يُحيي اللهُ الموتَى؛ أي: كما أحيا هذا القتيلَ، وهو كقولِه تعالى: ﴿أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فهذا احتجاجٌ على مُنكري البعثِ في زمانِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ لأنَّهم كانوا يرجعونَ إلى قولِ اليهودِ، واليهودُ كانُوا معترفينَ بهذه القِصَّةِ.

وقيلَ: المُرادُ بنو إسرائيلَ؛ لأنَّهم وإن اعترَفُوا بالبعثِ؛ فهذه القِصَّةُ كانت تُوجِبُ لهم زيادةَ إيمانٍ حتَّى يتحقَّقُوا ما اعتَقَدوه؛ إذ ليس المُخبَرُ كالمُعايِنِ، وكانَ اللهُ تعالى قادرًا على إحياءِ ذلك القتيلِ من غيرِ توسُّطِ الضَّربِ ببعضِ أعضاءِ البقرةِ، ولكنْ لو فعلَ ذلك لظَنَّ ظانٌّ أنَّه سحرٌ، فوَكَلَ إلى فعلِهم ليضربُوا بجزءٍ ميتٍ ذلك القتيلَ، فيكونَ أبلغَ في الأُعجوبةِ، على أنَّه لا يُعترَضُ على الله تعالى فيما يَفعلُ.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يُقالُ: «أرَيتُه الشَّيءَ إرايةً» بغيرِ همزٍ، و: «أريتُه إراءةً» بالهمزِ، و: «أَرَى آياتِه»؛ أي: آياتِ قُدرتِه.

ثمَّ؛ قيلَ: اسمُ ذلك القتيلِ عاقيل، قتلَه ابنُ أخيه لينكحَ ابنتَه، أو ليرِثَ مالَه.

وقيلَ: اسمُ القتيلِ ركازٌ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: قتَلَ هذا الرَّجلُ عمَّه ليرِثَه، وكانَ في بني إسرائيلَ رجلٌ صالحٌ له ابنٌ وله عجلٌ، فأتى بالعجلِ إلى غيضةٍ وقالَ: اللَّهمَّ إنِّي استودَعْتُك[1] هذا العجلَ لابني حتَّى يكبَرَ، وماتَ وسيَّبَ العجلةَ، وكانت تمتنعُ من كلِّ مَن رامَها حتَّى كبِرَ الصَّبيُّ فأذعَنَتْ له، وقالت أمُّه: لا تبِعْها حتَّى تُشاورَني، فما زالوا يزيدون في ثمنِها حتَّى بلغَ ملءَ مَسْكِها ذهبًا، وكانَ ثمنُ البقرة إذ ذاك ثلاثةَ دنانيرَ، فقال موسى: اشترُوها بأيِّ ثمنٍ كانَ، فاشترَوُها[2].

وقيلَ: أَعْطَوا بوزنِها عشرَ مرَّاتٍ ذهَبًا.

* * *

(٧٤) ـ ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القَسوةُ: الصَّلابةُ والشِّدَّةُ واليَبَسُ، يُقالُ: قَسا قلبُه يقسُو قَسْوةً وقَساوةً وقَسْوًا وقُسِيًّا، والعربُ قد تقلبُ

---

(١) في (أ): «أستودعك».

(٢) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (١/ ١٧٩).

الفُعولَ في المصدرِ إلى الياءِ، مثل: طَغَى يَطْغَى طُغِيًّا، وعتا عُتِيًّا.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعدِ إحياءِ هذا القتيلِ.

قيلَ: لأنَّ ذلك القاتلَ أنكرَ ذلك القتلَ بعد ما رأى هذه الآيةَ العجيبةَ، وكذلك قومُه، فلم يكونُوا قطُّ أعمَى قلبًا ولا أشدَّ تكذيبًا لنبيِّهم منهم عندَ ذلك.

وقيلَ: أرادَ غيرَ القاتلِ؛ أي: قسَتْ قلوبُكم بعد هذه القِصّةِ وارتكبتُم المعاصيَ.

وقيلَ: أشارَ بقولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ إلى جميعِ ما شاهَدُوا منَ الآياتِ في التِّيهِ، وانفجارِ الماءِ منَ الحجرِ، ونَتْقِ الجبلِ فوقَهم، فإنَّ كلمةَ «ذلك» تصلُحُ للجماعةِ والواحدِ.

وقيلَ: هذا خطابٌ[1] لمَن في عصرِ نبيِّنا عليه السَّلامُ؛ أي: ثمَّ بعدَما رأى أسلافُكم هذه الآياتِ قسَتْ قلوبُكم فأنكَرْتُم محمدًا عليه السَّلامُ.

﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ هي جمعُ الحَجَرِ، كالمِهَارةِ في جمعُ المُهْرِ، والبِكارةُ في جمعِ البَكْرِ[2]، وهو جمعٌ غريبٌ، والمشهورُ الأحجارُ.

وقيلَ: العربُ قد تُدخِلُ الهاءَ في كلِّ جمعٍ على فِعالٍ أو فُعولٍ، مثلَ: عِظامٌ وعِظامةٌ، وجِمالٌ وجِمالةٌ، وفُحولةٌ وعُمومةٌ؛ لأنَّه لو سكتَ عنه اجتمعَ عند السَّكتِ ساكنانِ.

وإنَّما شبَّهَ قلوبَهم بالحجرِ دونَ الحديدِ؛ لأنَّ الحديدَ يُليَّنُ بالنّارِ، وفي الحديدِ

---

(١) في (أ): «الخطاب».

(٢) البَكْر: ولد الناقة.

منافعُ، فشبَّه قلوبَهم بالحجارةِ لقسوتِها وقلَّةِ المنفعةِ فيها، وقد قالَ الله تعالى في صفةِ المُؤمنينَ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فيه إضمارٌ، أي: أو هي أشدُّ قسوةً.

قال ابن عباس: إنما قال: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ لأنَّ الحجارةَ ليس لها ثوابٌ ولا عليها عقابٌ، وهي تخافُ الله تعالى؛ فإنَّ عيسى عليه السَّلامُ مرَّ بجبلٍ فسمعَ منه أنينًا، فقالَ: يا ربّ، ائذَنْ لهذا الذي يئِنُّ حتَّى يُكلِّمَني، فأذِنَ الله تعالى للجبلِ، فسألَه عيسى، فقال الجبلُ: إنِّي سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، فخِفْتُ أن أكونَ من تلك الحجارةِ[1].

وقيلَ: أي: أشدُّ قسوةً؛ لأنَّ الحجارةَ لو عقَلَتْ لقبِلَتْ هذه الآياتِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١].

وقيلَ: لأنَّ الحجارةَ ليس فيها امتناعٌ من أمرِ الله، وهؤلاءِ يمتَنِعُونَ.

وقيلَ: أي: منَ الحجارةِ ما فيه رُطوبةٌ ونَداوةٌ، فقلوبُهم أقسى منَ الحجرِ، وقولُه تعالى: ﴿أَوْ﴾ ليس للشَّكِّ، فمعنى ﴿أَوْ﴾: بل؛ أي: بل هي أشدُّ قسوةً.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواوِ؛ أي: وأشدُّ قسوةً.

وقيلَ: هذا ترديدُ العبادِ؛ لأنَّ الرَّبَّ لا يتردَّدُ.

وقيلَ: هو كقولِك: لا آكلُ[2] إلا حُلوًا أو حامضًا؛ أي: طعامي لا يخرجُ عن

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٧١).

(٢) في (أ): «لا آكل حلواً بمعنى: لا آكل».

هذَين فالمعنى: قلوبُ جماعتِهم إمَّا كالحجارةِ أو أشدُّ قسوةً منها، فليس فيها ما يَخرجُ عن هذينِ(١).

وقيلَ: هو كقولِك: جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرينَ؛ أي: إنْ شئتَ جالسْ هذا، وإنْ شئتَ ذاك، وإنْ شئتَ فجالِسْهما؛ أي: مَن شَبَّهَ قلوبَهم بواحدٍ من هذَين أو بهما فقد أصابَ.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يرجعُ إلى (ما)، وهو مُبهَمٌ يجوزُ تذكيرُه وتأنيثُه. الأنهارُ: جمعُ نَـهْرٍ ونَـهَرٍ، وقد قدَّمْنا أنَّه منَ السَّعةِ.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾؛ أي: منَ الحجرِ ما ينصدعُ ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ فيكونُ عينًا لا نهرًا جاريًا؛ أي: الأحجارُ تختلفُ، وهؤلاءِ قلوبُهم لا تَنْدَى(٢) بقَبولِ شيءٍ منَ الوعظِ.

﴿يَشَّقَّقُ﴾؛ أي: يتشقَّقُ، فأُدغِمَ، مثلُ: يزَّمَّلُ ويدَّثَّرُ ويذَّكَّرُ.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: أرادَ جبلَ موسى لمَّا تجلَّى ربُّه له جعلَه دكًّا.

ثمَّ قيلَ: هذا بتقديرِ خلقِ الحياةِ والعقلِ للجبلِ، كما خلقَ لحراءَ لمَّا قالَ الرَّسولُ عليه السَّلامُ: «اسكُنْ جبلُ»(٣)، وكذلك ما ورَدَ من تسبيحِ الحصا في يدِه عليه السَّلامُ(٤)، وكذلك: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، وفي الخبرِ:

---

(١) من قوله: «فالمعنى قلوب جماعتهم...» إلى هنا ليس في (ف).

(٢) في (ف): «تتندى».

(٣) رواه مسلم (٢٤١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «اسكن حراء».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٢٠)، وابن الجوزي في «العلل» (٣٢٧)، وقال: =

«إنِّي لأعرِفُ حجَرًا بمكَّةَ كانَ يُسلِّمُ عليَّ كلَّما مرَرْتُ به»(١)، وهذا قولُ مجاهدٍ(٢).

وتباهَى قومٌ(٣) في هذا وقالوا: «في الجماداتِ حياةٌ وإنْ كنَّا لا نُدرِكُ تلكَ الحياةَ»، وهذا داخلٌ في جوازِ العقلِ، ولكنْ لا يُقطَعُ به.

وقيلَ: وإنَّ منَ الحجارةِ لَـمَا يتردَّى من رأسِ الجبلِ إلى أسفلِه انقيادًا لأمرِ الله تعالى، فجعَلَ الهبوطَ من عُلوٍ إلى سُفلٍ مثَلًا للانقيادِ، كما تقولُ: نزلْتُ على حكمِ فلانٍ؛ أي: انقَدْتُ له، وجَعلُ ذلك خشيةً على معنى: أنَّه لو وُجِدَ من عاقلٍ قد كانَ به خاشيًا، كقولِه تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ أي: ظهرَ فيه من أثرِ السُّقوطِ ما لو ظهرَ مثلُه في حيٍّ مختارٍ لكانَ مُريدًا للانقِضاض.

وعلى هذا يُخرَّجُ قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقيلَ: أضافَ الخشيةَ إلى الحجرِ، وأرادَ النّاظرَ إلى الحجرِ؛ أي: أنَّ الله تعالى يُهبِطُ الحجارةَ دلالةً للنّاظرِ على قدرةِ الله تعالى فيحملُه ذلك على الخشيةِ؛ كما

= هذا حديث لا يصح. وفيه أنهن سبحن في كف عمر وعثمان أيضاً. وروى ابن الجوزي نحوه في «العلل» (٣٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ونقل عن النسائي قوله: هذا حديث باطل منكر.

(١) رواه مسلم (٢٢٧٧) من حديث أبي جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٤٧)، بلفظ: كلُّ حجرٍ يتفجَّرَ منه الماءُ أو يتشقَّقَ عن ماءٍ أو يتردَّى عن رأسِ جبلٍ فهو من خشيةِ اللهِ، نزلَ به القرآنِ.

(٣) في (أ): «أقوام».

تقول: لفلانٍ ناقةٌ ناجزةٌ؛ أي: سَمينةٌ تُنْفِقُ نفسَها، فالحجارةُ خاشيةٌ[1]؛ أي: داعيةٌ إلى الخشيةِ، ثمَّ على هذا قيلَ: أرادَ به البرَدَ يهبطُ منَ السَّحابِ تخويفًا للعبادِ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بالتَّاءِ، لقولِه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، وبالياءِ[2]؛ أي: عمَّا يعملُ هؤلاءِ الذين ذكَرْناهُم؛ أي: ليس الإمهالُ عن[3] غفلةٍ عنهم، بل يُؤاخِذُهم في الوقتِ المضروبِ للعقوبةِ.

* * *

(٧٥) ـ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قولـه عـز وجـل: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ هـذا تسـليةٌ للنَّبـيِّ عليـه السَّـلامُ وللمُؤمنيـنَ؛ أي: إنَّهـم لا يُؤمنـون بجُملتِهـم، والطَّمـعُ: تعليـقُ النَّفسِ بمـا يُرجَى، والاستفهامُ استفهامُ إنـكارٍ.

﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: أن يُقِرُّوا لكم فيما تَدْعُونَهم إليه.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: جماعةٌ، وهو منَ الفَرْقِ؛ أي: طائفةٌ فرقَتْ منَ الجملةِ.

ثمَّ قيلَ: عنَى بالفريقِ: الذين غيَّروا حكمَ التَّوراةِ وآيةَ الرَّجمِ وصفةَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

---

(١) قوله: «كما تقول لفلان ناقة ناجزة... » إلى هنا ليس في (ف).

(٢) بالياء هي قراءة ابن كثير وحده من العشرة في المشهور عنهم، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٠)، و«التيسير» (ص: ٧٤)، «النشر» (٢/ ٢١٧).

(٣) في (ف): «على».

﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ ثم يُغيِّرونَه، وإنَّما سمِعُوا من موسى وأحبارِهم.

ويجوزُ أن يكونَ هذا سَمْعَ عِلْمٍ وفَهْمٍ.

وقيلَ: نزلَتْ في السَّبعينَ الذينَ خرجَ بهم موسى إلى الميقاتِ، سمعُوا كلامَ الله فلمّا عادوا إلى قومِهم قالَ قومٌ منهم: سمِعْنا الله في آخرِ كلامِه يقولُ: إن استطعتُم أن تفعلوا هذه الأشياءَ فافعلُوا، وإنْ شئتُم ألّا تفعلُوا فلا تفعلُوا، فلا بأسَ[1]، فكان هذا تحريفَهم.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾؛ أي: يُميلونَه ويُغيِّرونَه، وهو منَ الحرفِ، وحرفُ الشَّيءِ: حدُّه وحدَّتُه، ومنه: طعامٌ حِرِّيفٌ، وقلمٌ مُحَرَّفٌ؛ أي: قُطَّ رأسُه مائلًا غيرَ مُستقيمٍ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أنَّهم يتعمَّدونَ التَّحريفَ، فهم مُعانِدونَ.

وقيلَ: وهم يعلمون أنَّ التَّحريفَ يُكسِبُهم الوزرَ.

وقيلَ: تحريفُهم: تغييرُ أحكامِ التَّوراةِ بعد ما فهموها على ممرِّ الدَّهرِ.

* * *

(٧٦) - ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾ ثمَّ أخبرَ أنَّ فيهم مُنافقينَ يقولونَ للمُؤمنينَ: قد آمنَّا، وإذا عادوا إلى الكفَّارِ قالَ لهم رُؤساؤُهم: لِـمَ تُخبِرونَ المسلمينَ بأسرارِكم؟

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٣٩٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧)، عن ابن عباس ومقاتل. ورواه بنحوه مختصراً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٤٨) (٧٧٠) عن ابن عباس، وفيه محمد بن أبي محمد وهو مجهول.

قيلَ: منعَ رسولُ الله ﷺ اليهودَ من دُخولِ المدينةِ، فكانوا يدخُلونَ بُكرةً ويقولونَ: نحنُ مُؤمِنونَ، ثمَّ يعودونَ العصرَ إلى منازلِـهم ويكفُرون، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقيلَ: إنَّهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، وعَنَوا: آمنَّا بأنبيائِنا، فـأوهَمُوا المسلمينَ أنَّهم آمنوا، فنزلَتْ هذه الآيةُ.

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾؛ أي: أتخبرونهم ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الفتحُ نقيضُ الإغلاقِ؛ أي: بما وصفَ الله به محمَّدًا عليه السَّلامُ في التَّوراةِ حتَّى يحتجُّوا عليكم بذلك، وبما حكمَ الله عليكم منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، أو بما حكمَ عليكم منَ العذابِ لـمَّا خالفتُم؛ فإنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قال لـمَّا حاصرَ يهودَ قُريظةَ: «يا إخوةَ القِردةِ والخنازيرِ، ويا عبدةَ الطَّاغوتِ»، فقالوا: مَن أخبرَ بهذا محمَّدًا، ما خرجَ هذا إلّا منكم، أتُحدِّثونَهم بأمثالِ هذا ليحتجُّوا بها عليكم[١].

والفتحُ بمعنى الحكمِ، والحاكمُ يُسمَّى فتَّاحاً.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾؛ أي: ليُجادِلُوكم، والحجُّ: القَصدُ، والحُجَّةُ: النُّكتةُ التي هي المقصودُ[٢] في تصحيحِ الحادثةِ، والمَحَجَّةُ: الطَّريقُ القاصدُ.

﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قيلَ: في الآخرةِ؛ لأنَّهم يقولونَ غدًا: آمنَّا بمُحمَّدٍ عليه السَّلامُ ولـم نقرأ صفتَه في كتابٍ، وكفرتُم أنتم بعد أن عرفتُم صفتَه في التَّوراةِ، فكأنَّهم

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٤٨) عن مجاهد، وروي هذا دون عبارة: «ويا عبدة الطاغوت»، وقد تقدم.

(٢) في (أ): «المقصودة».

اعتقَدوا أنَّهم إذا لـم يُقِرُّوا للمُؤمنينَ لـم تكُنْ للمؤمنينَ عليهم حجّةٌ في الآخرةِ.

وقيـلَ: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: فـي الدُّنيـا، أي: فـي حُكـمِ ربِّكم، وهـو كقولِك: «فـلانٌ عنـدي عالـمٌ»؛ أي: فـي علمي وحُكمـي. و: «هذا عنـد الشّـافعيِّ حلالٌ»؛ أي: فـي حُكمِـه، وهـو كقولِـه تعالـى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النـور: ١٣]، قيـلَ: في حكـمِ الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذا من كلامِ بعضِهم لبعضٍ.

وقيلَ: هذا عطفٌ على قولِه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾؛ أي: أتطمَعُونَ في إيمانِ أمثالِ هؤلاءِ، أفلا تعقِلونَ أنَّه لا يُطمَعُ في إيمانِهم لشِدّةِ كُفرِهم؟

* * *

(٧٧) ـ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾؛ أي: منَ التَّكذيبِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منَ التَّصديقِ فيُخبِرُ المؤمنين بذلك إنْ شاءَ، بيَّنَ بهذا أنَّ المُنافقينَ من أهلِ الكتابِ ليسوا كالمُنافقين منَ المُشركين؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ يعلَمونَ أنَّ الله يعلَمُ السِّرَّ والعَلَنَ، فنفاقُهم أعجَبُ.

وقيـلَ: هـذا لا يـدُلُّ علـى علمِهـم، ولكنَّـه تحريـكٌ لهـم علـى أن يُفكِّـروا ليعلَمُـوا أنَّ اللهَ عـزَّ وجـلَّ يعلمُ السـرَّ والعَلَـن[1] كما تقـولُ: ألا تفعلُ كـذا؛ أي: ألَا يحصـلُ فعلُه.

* * *

(١) «أن الله عز وجل يعلم السر والعلن» من (أ).

(٧٨) - ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾؛ أي: من هؤلاءِ اليهودِ قومٌ ليسوا بعلماءَ، بل هم مُقلِّدونَ يقبلونَ الأحاديثَ المُحرَّفةَ من رُؤسائِهم ويظُنُّونَ أنَّها حقٌّ، والأمِّيُّ منسوبٌ إلى الأمّةِ؛ أي: هو في أنّه لا يكتُبُ على ما عليه مُعظَمُ الخلقِ في الجِبِلّةِ، أو هو منسوبٌ إلى أمَّةِ العربِ؛ إذ كانت الكتابةُ نادرةً فيهم.

وقيلَ: هو منسوبٌ إلى الأمِّ؛ إذ النِّساءُ في غالبِ الأمرِ لا يكتُبْنَ؛ أي: تربَّى مع أمِّه ولـم يُفارِقْها ليتعلَّمَ، فالأمِّيُّ: الذي لا يكتُبُ.

وقيل[1]: الذي لا يكتُبُ ولا يقرأُ، وكانَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ أمِّيًّا، قالَ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾، الأمانيُّ: جمعُ الأُمنيَّةِ، والأصلُ: أُمنُوْيَةٌ، فقُلِبت الواو ياءً لسكونِها، ثمَّ أُدغِمَتْ، ويجوزُ في الجمعِ: الأمانيُّ بالتَّشديدِ، والأماني بالتَّخفيفِ.

والتَّمنِّي: أن يُحدِّثَ المرءُ نفسَه، فقولُه تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾؛ أي: إلا أحاديثَ مُختلَقةً، ويُقالُ: تمنَّى كلامَ كذا؛ أي: اختلَقَه.

وقيلَ: التَّمنِّي: التِّلاوةُ، وأصلُ الكلمةِ على هذا منَ التَّقديرِ، فالتَّمنِّي: تقديرُ شيءٍ تودُّه، والمَنِيَّةُ[2]: ما قُدِّرَ على العبادِ منَ الموتِ، ومنه: المَنا؛ لأنَّه مقدارٌ معروفٌ يُوزَنُ به، ومنه: المنيُّ؛ لأنَّه يُقدَّرُ منه الولدُ، والتِّلاوةُ تُسمَّى تمنِّيًا لأنَّها حكايةٌ على مقدارِ المحكيِّ، فالمعنى: لا يعلمُونَ الكتابَ إلّا تلاوةً، ولا يعملُونَ به.

---

(١) في (أ): «والقروي».

(٢) في (ف): «تقدير شيء يرد المنية».

وقيلَ: سُمِّيتِ التِّلاوةُ أمنيةً لأنَّ التَّاليَ إذا مرَّ بآيةِ رحمةٍ تمنَّاها، وإذا مرَّ بآيةِ عذابٍ تمنَّى الخلاصَ منه.

وقيلَ: معنى الآيةِ: لا يعلَمُونَ الكتابَ، وليس عندَهم شيءٌ إلا الأمانيّ، فيتمَنَّونَ على الله الباطلَ، كقولِهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، و: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، و: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨].

وقيلَ: أشارَ إلى ما كانَ يُمنِّيهم رُؤساؤُهم بأنَّكم تُسلِمُونَ في الآخرةِ، فبيَّنَ[1] أنَّهم مُنقَسمونَ: منهم الرُّؤساءُ المُعانِدون، ومنهم الرؤساء المتكبرون[2]، ومنهم الضُّعفاءُ المُقلِّدون.

فمَن قالَ: «المعنى: لا يعلَمُونَ الكتابَ إلا تلاوةً»؛ فالاستثناءُ مُتَّصلٌ، ومَن قالَ: «المعنى: لا يعلَمُونَ الكتابَ إلّا أكاذيبَ، ولا يعلَمُونَ شيئًا إلَّا أنَّهم يتمَنَّونَ ما لا حقيقةَ له»؛ فالاستثناءُ مُنقطعٌ؛ أي: لكنْ أمانيَّ، كقولِه تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]؛ أي: لكن اتِّباعَ الظَّنِّ.

﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يجحَدُونَ نُبوَّةَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ بالظَّنِّ، أو يظُنُّونَ أنَّ لهم خيرًا عندَ الله سُبحانَه وتعالى.

* * *

(١) في (أ): «فتبين».

(٢) «ومنهم الرؤساء المتكبرون» من (أ).

(٧٩) - ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ لـمَّا ذكـرَ الفريقَين، الرُّؤساءَ المُعانِدينَ والأتباعَ المُقلِّدينَ؛ أخبرَ بشدَّةِ عذابِ الرُّؤساءِ والأحبارِ الذين يُغيِّرونَ التَّوراةَ ويُوهِمُونَ عوامَّهم أنَّ ما حرَّفوه وكتَبُوه بأيديهم مُنزَّلٌ من عندِ الله تعالى.

نزلَتْ في الذينَ غيَّروا صفةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ على غيرِ ما في كتابِهم، فجعَلُوه آدمَ سَبْطًا طويلًا، وكانَ رَبْعةً أسمَرَ، وكانُوا يكتُبونَ صفةَ النبيِّ ﷺ على غيرِ ما نزلتْ في التوراة، ويدفعون ما يكتبون منَ الرِّقاعِ إلى العربِ والأتباعِ، ويأخُذونَ على ذلك قَدْرًا نَزْرًا منَ المالِ[(١)].

وقيلَ: نزلَتْ في عبدِ الله بن سعد بنِ أبي سَرْحٍ، وكان يكتُبُ للنَّبيِّ عليه

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٦)، و«الوسيط» (١/ ١٦٣)، من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، والإسناد ساقط.

وذكره الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٢٧١) عن الواحدي ثم قال: الكلبي تقدم وصفه، وقد وجدت هذا من وجه آخر قوي أخرجه ابن أبي حاتم [«تفسيره» (١/ ١٥٤) (٨٠٥)] من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس، وفيه مغايرة لسياق الكلبي، ولفظ شبيب بن بشر هذا ـ وقد وثقه ابن معين ـ قال: هم أحبار يهود وجدوا نعت النبي ﷺ محمد مكتوباً في التوراة: أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه، فمحوه حسداً وبغياً، فأتاهم نفر من قريش من أهل مكة فقالوا: أتجدون في التوراة نبيًّا أميًّا؟ قالوا: نعم، نجده طويلاً أزرقَ سَبطَ الشعرِ، فقالت قريش: ما هذه صفة صاحبنا.

السَّلامُ فيُملي عليه: غفورًا رحيمًا، فيكتُبُ: عليمًا حكيمًا، ويقولُ: أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إلى محمَّدٍ[1].

---

(١) في (أ): «ولم يوح إليه شيء». وهذا الخبر لم أجده ذُكِرَ في هذه الآية، بل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، كذا ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٣٤٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ١٤٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ١٤٤)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ١٦٩)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٨٦)، وغيرهم.

وقد صرح بعض من ذكرنا أنها من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وآخرون أنها من رواية الكلبي عن ابن عباس، فتكون من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، فالخبر ساقط لا يحتج به.

وقد روي نحوه عن عكرمة والسدي، رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥) عن عكرمة، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤٦) من طريق أسباط عن السدي، وكلاهما ضعيف للإرسال، وأسباط هو ابن نصر قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الخطأ يغرب. وخبر عكرمة في إسناده الحسين بن داود المصيصي المعروف بسنيد، وهو ضعيف. انظر: «تقريب التهذيب» ترجمة سنيد بن داود.

كما أن في متنه نكارة فكيف يعقل أن يترك النبي ﷺ ما يحرفه ابن أبي سرح ولا ينزل عليه جبريل بالبيان؟! لكن وردت هذه القصة بسياق آخر ليس فيه ما تقدم من النكارة، فقد ذكرها أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٧٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٢٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٦٦)، بألفاظ متقاربة، وفيها: أن ابن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات للنبي ﷺ، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، عجب من ذلك فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبيّ ﷺ: «اكتب هكذا أُنْزِلَتْ» فشك عند ذلك... إلخ.

فهذا ليس فيه ذلك المحذور الذي قدمناه، ومع ذلك فقد رده بعض العلماء، فقال أبو الليث عقبه: وقد قيل: إن الحكاية غير صحيحة، لأن ارتداد عبد الله بن أبي سرح كان بالمدينة، وهذه الآية مكية. =

وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ الآيَةَ نزلَتْ في شأنِ اليهودِ في خللِ[1] أقاصيصِهم.

والوَيلُ: شِدَّةُ العذابِ، قيلَ: أصلُ «ويلَه»: «وَيْ له»، ومعنى «وَيْ»: حزنٌ، ومنه: «وَيْهِ»، أي: حُزْنٌ، فأُخرِجَ مُخرَجَ النُّدبةِ[2].

قال الفرَّاءُ: «وَيْ لفُلانٍ» حكايةُ صوتِ المُصابِ: «وَيْ وَيْ»، فلما كثُرَ استعمالُه مع اللَّامِ [يعني: وي لفلان] جُعِلَ مع اللَّامِ حرفًا واحدًا، ثمَّ أُخبِرَ عن «ويل» بلامٍ أُخرَى، فقيلَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3].

ويُقالُ: «وَيَّلْتُ فلانًا»؛ أي: أكثَرْتُ وَيْلَه، و: «حَلَّ به ويلٌ وأيلٌ»، كما يُقالُ: شُغْلٌ شاغلٌ، وجمعُ الويلِ: ويْلاتٌ، وفي الخبرِ: الويلُ وادٍ في جهنَّمَ لو سُيِّرَتْ فيه جبالُ الدُّنيا لذابَتْ من شدَّة حرِّه[4].

= قلت: وأصل القصة رواها أبو داود (٤٣٥٨)، والنسائي (٤٠٦٩)، ولفظها: عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ، فأزلَّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ.

وقد قال الطبري (٩/ ٤٠٧): ولا تمانُع بين علماء الأمة أن ابن أبي سرح كان ممن قال: إني قد قلت مثل ما قال محمد، وأنه ارتدَّ عن إسلامه ولحق بالمشركين.

(١) في النسختين: «حلل» ولا معنى لها.

(٢) رواه الأزهري عن المُنذريّ عن أبي طالبٍ النَّحوي. انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٢٧)، و«البسيط» للواحدي (٣/ ٩١).

(٣) حكاه عن الفراء ابن الأنباري كما في «البسيط» للواحدي (٣/ ٩١).

(٤) رواه ابن وهب في «جامعه» (٢٤ ـ تفسير) من قول عطاء بن يسار، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٠٨) من قول سعيد بن المسيب.

وقيلَ: «الويلُ وادٍ في جهنَّمَ يهوي فيه الكافرُ أربعين خريفاً لا يَصِلُ إلى قَعْرِه»[١].

وقيل: جبلٌ من قيحٍ ودمٍ.

وقيلَ: صهريجٌ في جهنَّمَ يسيلُ إليه صديدُ أهلِ النَّارِ وقَيحُهم[٢].

و﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تأكيدٌ، كقولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وتقولُ: «نظَرتُ بعيني»، و«مشَيتُ برِجلي»، وأيضًا فيه قطعُ وهمِ مَن يظُنُّ أنَّهم أُمِرُوا بالكتابةِ كما يُقالُ: كتَبَ الأميرُ، و: ضرَبَ السُّلطانُ؛ أي: أَمَرَ بالكتابةِ والضَّربِ، فبيَّنَ أنَّهم كتَبُوا بأنفُسِهم.

وقيلَ: ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: من تلقاءِ أنفُسِهم من غيرِ أن يكونَ أُنزِلَ عليهم.

﴿بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ﴾؛ أي: مُنزَّلٌ من جهةِ الله ﴿ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا﴾ يعني: ما يأخُذونَه منَ الأتباعِ والسَّفَلِ.

﴿قَلِيلًا فَوَيْلٌ﴾ أكَّدَ الإخبارَ عن عذابِهم.

﴿أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: يجمَعُونَ منَ المالِ.

وقيلَ: أي: ما يُحصِّلونَ منَ الآثامِ، فبيَّنَ أنَّهم استحَقُّوا الويلَ بشيئَينِ: بما كتَبُوا، وبما كسَبُوا، فقرَنَ بكلِّ واحدٍ ذكرَ الويلِ.

---

(١) «وقيل الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا لا يصل إلى قعره وقيل» ليس في (ف).
وقد ورد هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ، رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٢)، والترمذي (٣١٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٦٣) من قول أبي عياض.

(٨٠) - ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ لـمَّا أخبرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بأنَّهم يُعذَّبون قالوا: إنْ مسَّتْنا النّارُ ففي أيَّامٍ معدودةٍ، لا أنَّهم صدَّقُوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ فيما أخبرَ من عقابِهم، ولكنَّهم لمَّا سمِعُوا العذابَ قالوا: إنْ أصابَتْنا النَّارُ فهو في أيَّامٍ معدودةٍ عَبَدَ أسلافُنا فيها العجلَ، فهوَّنُوا على أنفُسِهم أمرَ التَّخويفِ وتكذيبِ الأنبياءِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنه: قالوا: ما بينَ طرفَي جهنَّمَ مسيرةُ أربعينَ، فقالوا: لا نُعذَّبُ إلّا هذا المقدارَ[١]. فيحتملُ أنَّهم أرادُوا أربعينَ عامًا، ويحتملُ أنَّهم أرادوا أربعينَ يومًا.

ووردَ في الخبرِ: أنَّهم إذا مضَتْ عليهم هذه المدَّةُ في النّارِ قالت لهم خزنةُ النّارِ: قد مضى الأجلُ الذي قلتُم، فأبشِرُوا بالخلودِ[٢].

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ لمَّا قدِمَ المدينةَ سمعَ اليهودَ يقولونَ: مدَّةُ الدُّنيا سبعةُ آلافِ سنةٍ، وإنَّما يُعذَّبُ النّاسُ في النَّارِ بكلِّ ألفِ سنةٍ من أيَّامِ الدُّنيا يومًا واحدًا في النَّارِ من أيامِ الآخرةِ، وكلُّ يومٍ من أيَّامِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٧٢) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥٦) من طريقين عن الضحاك عن ابن عباس. وجاء في رواية الطبري وإحدى روايتي ابن أبي حاتم: «أربعين سنة».

(٢) قطعة من الخبر السابق عند ابن أبي حاتم والطبري.

الآخـرةِ ألفُ سـنةٍ، ثـمَّ ينقطـعُ العـذابُ، فنزلَتْ هـذه الآيةُ[١].

وقيلَ: قالوا: إنَّما يُعذِّبُنا اللهُ سبعةَ أيَّامٍ فقط[٢].

وقيلَ: أرادوا أنَّه لا يُعذِّبُنا إلا تحلَّةَ القسمِ[٣]، وقالوا[٤]: إنَّ اللهَ غضِبَ علينا في أمرٍ فأقسَمَ أنَّه يُعذِّبُنا عددَ تيكَ الأيامِ، ثمَّ يُخرِجُنا منَ النّارِ[٥].

وقيلَ: قالوا: يُعذِّبُنا أيَّامًا يسيرةً، ثمَّ يشفعُ فينا آباؤُنا الأنبياءُ، ثمَّ يخلُفُنا في العذابِ أقوامٌ آخرونَ، وعرَّضُوا بالمسلمينَ، فقالَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «بل أنتم الخالدونَ المُخلَّدونَ لا نلحقُكم ولا نخلُفُكم»[٦].

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾؛ أي: أخذتُم بما تقولونَ منَ الله ميثاقًا فالله تعالى لا ينقُضُ ميثاقَه ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الباطلَ جهلًا منكم، فالألفُ في قولِه: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ ألفُ الاستفهامِ، وألفُ الوصلِ محذوفةٌ، كقولِه تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣]، ومعنى هذا الاستفهامُ التَّوبيخُ؛ أي: ليس الأمرُ كما تقولونَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٥٥)، من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٩٦) من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحسَّنَ إسنادَه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٤٦).
ولفظه عندهم: «... فإنَّما هي سبعةُ أيام ثُم يَنقطعُ العذابُ.. »، ليس فيه: « من أيامِ الآخرةِ وكلُّ يومٍ من أيَّامِ الآخرةِ ألفُ سنةٍ».

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٧١ و١٧٦) عن ابن عباس وقتادة.

(٤) في (أ): «وقيل قالوا».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٧٢) عن أبي العالية.

(٦) رواه الطبـري فـي «تفسيره» (٢/ ١٧٤)، وابـن أبـي حاتم فـي «تفسيره» (١/ ١٥٦)، عن عكرمة مرسلاً.

و﴿أَمْ﴾ يحتمِلُ أن تكونَ متَّصلةً على المُعادَلةِ لألفِ الاستفهامِ؛ أي: على أيِّ الحالتَين أنتم: على اتِّخاذِ العهدِ أم القولِ بما لا تعلمونَ؟

ويحتملُ أن تكونَ مُنقطعةً، كأنَّه تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾، ثمَّ استأنفت بـ﴿أَمْ﴾ ومعناه: «بل»، أي: بل أتقُولونَ على الله.

* * *

(٨١) - ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ لـمَّا قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، قالَ الله: ﴿بَلَىٰ﴾ أُعذِّبُ ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾.

قالَ الفرَّاءُ والكسائيُّ وغيرُهما: «بلى» جوابُ الكلامِ الذي فيه الجحدُ، فإذا قالَ: «ألستَ تقولُ؟» فالجوابُ: «بلى»، فأمَّا «نعم» فالجوابُ؛ أي: جوابُ الكلامِ الذي لا جحدَ فيه، تقولُ: «هل تقومُ»، فالجوابُ «نعم»، قالَ الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقالَ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨-٩] وقالَ عزَّ وجل: ﴿هَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وقالوا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٨].

قالوا: أصلُ «بلى»: «بل»، ولهذا صارَتْ تتَّصِلُ بالجحدِ؛ لأنَّها رجوعٌ عن الجحدِ إلى الإثباتِ، كما أنَّ «بل» سبيلُها أن تأتيَ بعدَ الجحدِ، تقولُ: «ما قامَ أخوك بل أبوكَ»، فإذا[1] قلتَ للرَّجلِ: «ألا تقوم؟» فقال: «بلى»، فكأنَّه يُريدُ: بل أقومُ، فزيدَتِ الياء على «بل» ليحسُنَ السُّكوتُ عليها.

---

(١) في (أ): «وإذا».

إذ لـو قالَ: «بل» لـكانَ يُتوَقَّعُ بعده كلامٌ، ولـم يصلُحْ هاهُنا «نعـم»؛ لأنَّ «نعم» إقـرارٌ، فلـو قـالَ: «نعـم» لكانَ إقـرارًا بالجحـدِ وبالفعـلِ الذي بعـدَه، فإذا قيـلَ: «ألا تقـومُ؟» فقـال: «نعم»، فمعنـاه: «لا أقومُ»، وإذا قـالَ: «أما لك مـالٌ؟» فقلتَ: «نعم»، فمعنـاه «نعـم ما لـي مـالٌ»، وكأنَّك تُقِـرُّ بالكلمةِ بطـرحِ الاسـتفهامِ وحدَه، فـإذا كان المقصـودُ الرُّجـوعَ عـن الجحـدِ والإقـرارَ بمـا بعـدَه اختـاروا «بلـى»؛ لأنَّ أصلَهـا الرُّجـوعُ عن الجحـدِ[1].

وقالَ قومٌ منَ البصريِّينَ: لا يجوزُ أن يكونَ أصلُ «بلى»: «بل»؛ إذ لا يُحكَمُ على الحرفِ بالزِّيادةِ بعد تمامِ ثلاثةِ أحرُفٍ من أصلِه؛ لأنَّ «بلى» تقومُ مقامَ الخبرِ وتدلُّ على الجوابِ، فله معنًى ينفردُ به عن معنى «بل»، فعُلِمَ أنَّهما شيئانِ مُختلفانِ، فعلى هذا «بلى» جوابٌ عن جحدٍ سبقَ كما تقدَّمَ، فالمعنى خارجٌ على ما تقدَّمَ، وهذا الاختلافُ في أنَّ: أصلَ «بلى» «بل»، أم ليس أصلُه «بل».

﴿مَن كَسَبَ﴾ ﴿مَن﴾ بمعنى «الذي».

﴿سَيِّئَةً﴾ هي «فَيْعِلةٌ» منَ السُّوءِ عند قومٍ، و«فَعْيِلة» عند الفرَّاءِ[2]، يُقالُ: ساءَ الشَّيءُ يسوءُ فهو سيِّئٌ، وساءَتْ فهي سيِّئةٌ.

ثمَّ عمَّمَ التَّخليدَ في النَّارِ لكلِّ مَن كسبَ سيِّئةً، وهو مخصوصٌ إجماعًا بآيِ الوعدِ، **وقد أجمعَ المُفسِّرون** على أنَّ السَّيِّئةَ هاهُنا: الشِّركُ والكفرُ، وأنَّ الآيةَ وردَتْ في اليهودِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٥٢ ـ ٥٣)، و«البسيط» للواحدي (٣/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ٩٧).

﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ أي: غلَبَتْ عليه، وإنما تحيطُ به لكثرتها.

وقيل: أهلكَتْه خطيئتُه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

قُرِئَ: ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، وقرأ نافعٌ: ﴿خطيئاتُه﴾[1].

ثمَّ قيلَ: الخطيئةُ والسَّيِّئةُ بمعنًى، والمقصودُ منهما هاهنا: الشِّركُ.

وقيلَ: السَّيِّئةُ: الشِّركُ، والخطيئةُ: الكبيرةُ منَ الكبائرِ دونَ الشِّركِ، والتَّخليدُ في النّارِ بسببِ الكبائرِ محمولٌ على مَن كان مُستحِلًّا لها.

ويُقالُ: المؤمنُ لا تُحيطُ به الخطيئةُ قطُّ؛ لأنَّه مع الخطيئةِ يستَحيي منَ الله، ويرجو ثوابَه، ويخشى عقابَه، فهذه إذًا كبائرُ تصدُرُ عن الكفّارِ، ولا يُشتَرطُ اجتماعُ الأمرَين في استيجابِ النّارِ، ولكنْ خرجَ الكلامُ جوابًا لقولِهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾.

ويحتمِلُ أن يكونَ هذا كقولِكَ: «مَن تهوَّدَ وتنصَّرَ فله النّارُ، مَن أتى بأحدِ هذَين فله النّارُ»، فمعنى الآيةِ: مَن كسبَ سيِّئةً فهو في النّارِ، ومَن أحاطَتْ به خطيئتُه فهو في النّارِ، ومَن جمعَ بينَهما فأولى أن يكونَ في النّارِ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الفاءُ قد تدخلُ في خبرِ المبتدأ إذا كانَ موصولًا، مثل: «مَن» و«ما» و«الذي»، تقولُ: «الذي في الدّارِ فله درهمٌ»، وأمَّا غيرُ الموصولِ فلا يُقالُ: «زيدٌ فقائمٌ».

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٦٢)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٨٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الطّاعاتِ ﴿فأولئك أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على التَّخليدِ، دلَّ هذا على أنَّ صاحبَ الكبيرةِ مع الإيمانِ لا يُخلَّدُ في النّارِ، ولا دليلَ على أنَّ الكبيرةَ تُحبِطُ الإيمانَ، بل الحسناتُ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ.

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عادَ الكلامُ إلى ذكرِ بني إسرائيلَ؛ أي: واذكُرْ[1] إذ أخَذْنا؛ أي: ألزَمْناهم الوفاءَ بالعهدِ، يُقالُ: أخَذْتُ عليه الموعدَ؛ أي: ألزَمْتُه، وأخَذْتُ عليه القرآنَ؛ أي: صحَّحتُه عليه؛ يعني: ما كلَّفَهم في التَّوراةِ والإنجيلِ، وعلى ألسنةِ أنبيائِهم.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ذكرَ ما أخذَ به الميثاقَ؛ أي: أخَذْنا ميثاقَهم بأنْ لا تعبدوا[2] إلّا اللهَ، ولا تسفِكُوا الدِّماءَ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، فلما حُذِفَ (أنْ) ارتفعَ الفعلُ كقولِه تعالى:

---

(١) في (أ): «اذكروا».

(٢) في (ف): «تعبدون».

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ [الزمر: ٦٤]، هذا قولُ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ وجماعةٍ[1].

وقالَ المُبرِّدُ: هو خطأٌ؛ لأنَّ كلَّ ما أُضمِرَ في العربيَّةِ فهو يعملُ عملَه مُظهَرًا، تقولُ: «وبلدٍ قطعْتُ»؛ أي: رُبَّ بلدٍ، وقولُه تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣]؛ أي: احذَرُوا ناقةَ الله، وقولُه تعالى: ﴿مَعْذِرَةٌ﴾[2] [الأعراف: ١٦٤]؛ أي: موعِظَتُنا معذرةٌ[3].

وهذا مردودٌ؛ لأنَّ ما يُضمَرُ قسمانِ: منه ما يعملُ عملَه مُظهَرًا على ما ذُكِرَ منَ الأمثلةِ، ومنه ما ليس كذلك، كحروفِ الجرِّ إذا حُذِفَتْ وهي مُرادةٌ؛ كقولك: «أمرتُكَ الخيرَ»؛ أي: بالخيرِ، وكقولِ الله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ أي: من قومِه، فكذلك فيما نحنُ فيه.

وقيلَ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ جوابُ القسمِ؛ لأنَّ أخذَ الميثاقِ بمنزلةِ القسمِ؛ أي: استحلَفْناهم وقُلنا لهم: والله لا تعبُدونَ.

وقيلَ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: أخَذْنا ميثاقَهم مُوحِّدينَ، أي: غيرَ عابِدين ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهو جزمٌ على النَّهيِ إلّا أنَّه خرجَ مخرجَ الخبرِ، كقولِه تعالى:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٥٣)، و«معاني القرآن» للزَّجَّاج (١/ ١٦٤). وأجازه أيضاً الأخفش انظر: «معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٤٠). وكذا الكسائي. انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤٢١)، و«البسيط» للواحدي (٣/ ١٠٣)، و«تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٢٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٥٨٥).

(٢) بالرفع قراءة السبعة عدا حفصاً فإنه قرأ بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٦)، و«التيسير» (ص: ١١٤).

(٣) انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

﴿لا تضارُّ والدةٌ بولدها﴾ بالرَّفعِ[1]، ومعناه النَّهيُ، ولهذا وصلَ بالكلامِ الأمرَ فقالَ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

قُرِئَ: ﴿لا يَعْبُدونَ﴾ بالياءِ[2] على الخبرِ؛ لأنَّه قالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فاللَّفظُ على الغيبةِ، وقُرِئَ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالتَّاءِ، وهو كقولِكَ: «قلتُ لزيدٍ: لا يفعلُ كذا»، و«قلتُ لزيدٍ: لا تفعلُ كذا»، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤] فلا يجوزُ إلا بالتَّاءِ لقولِه: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾، وقد قالَ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ [آل عمران: ٨١]، فهذا حجَّةُ مَن قرأ بالتَّاءِ، كذلك قولُه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ أي: أخَذْنا ميثاقَهم بأنْ لا تعبُدوا غيرَ الله، ولهذا قالَ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولو أرادَ جميعَ العباداتِ لَمَا كانَ لإعادةِ ذكرِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ معنًى.

وقيلَ: هو على التَّعميمِ؛ أي: أمَرْناهُم بعبادةِ الله، فيدخلُ فيه جميعُ العباداتِ، ثمَّ أعادَ ذكرَ الصَّلاةِ تشريفًا، وكذلك ذكرُ الزَّكاةِ، كقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: أخَذْنا ميثاقَهم وقُلنا لهم: أحسِنُوا بالوالدَينِ إحسانًا.

وقيل: أي: ووصَّيناهم بالوالدَين إحساناً[3]؛ لأنَّه لم يقُلْ: إلى الوالدَين، وإنَّما

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، وباقي السبعة بفتح الراء المشددة. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٣)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) قرأ بها حمزة وابن كثير والكسائي، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٢)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٣) «وقيل أي ووصيناهم بالوالدين إحساناً» من (أ).

يُقالُ: أحسنْتُ إليه، ولا يُقالُ: به. **وفي هذا نظرٌ**؛ لأنَّه يُقالُ: أحسِنْ إليه، وأحسِنْ به، قالَ الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ويُقالُ أيضًا: أسأتُ إليه، وأسأتُ به.

وإنَّما قرَنَ حقَّ الوالدَينِ بالتَّوحيدِ؛ لأنَّ النُّشوءَ الأوَّلَ من جهةِ الله، والنُّشوءَ الثّانيَ وهو القرينةُ من جهةِ الوالدَين، فقرَنَ الشُّكرَ لـهما بالشُّكرِ لله في مواضعَ كثيرةٍ.

والإحسانُ إلى الوالدَين: مُعاشرتُهما بالمعروفِ، والتَّواضعُ لهما، والدُّعاءُ بالخيرِ لهما.

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: وأمَرْناهُم بالإحسانِ إلى القراباتِ بصلةِ أرحامِهم.

و﴿اليَتَامَى﴾: جمعُ يتيمٍ، مثلُ: نَدامَى ونَديمٍ، واليُتْمُ في بني آدمَ بفقدِ الأبِ، وفي غيرِ الإنسانِ من قِبَلِ الأمِّ، وأصلُه: الانفِرادُ، يقالُ: صبيٌّ يتيمٌ؛ أي: مُنفردٌ من أبيه، وبيتٌ يتيمٌ؛ أي: ليس بعدَه وقبلَه شيءٌ منَ الشِّعرِ، ودُرَّةٌ يتيمةٌ؛ أي: ليس لها نظيرٌ، واليتيمةُ: الرَّملةُ المُنفردةُ.

وقيلَ: أصلُ اليُتْم: الغفلةُ، وسمِّي اليتيمُ لأنه يُتغافَلُ عن برِّه[1].

وقيلَ: اليُتْم: الإبطاءُ، يُقالُ: ما في سيرِه إثمٌ ويُتمٌ؛ أي: إبطاءٌ، فاليتيمُ سُمِّيَ به لأنَّ السَّيرَ يُبطِئُ عنه، ويُقالُ: يتِمَ ييتَمُ يُتْمًا ويَتْمًا، ذكرَه الفرَّاءُ، وهو من بابِ سمِعَ يسمَعُ، وحُكِيَ أيضًا: ما كانَ يتيمًا، ولقد يَتُمَ يَيْتُمُ مثلَ: عَظُمَ يعظُمُ، وقد أيتَمَه اللهُ[2].

---

(١) «وقيل أصل اليتم الغفلة، وسمي اليتيم لأنه يتغافل عن بره» من (أ).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤١)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٤١)، و«البسيط» للواحدي (٣/ ١٠٨)، وعنه نقل المصنف. وعندهم جميعاً بدل «وحكي أيضاً»: «وحكي لي».

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ أي: وبالإحسانِ إلى المساكينِ الذين أسكنَتْهم الحاجةُ وذلَّتْهم.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ أي: حَسَنًا، مثل البُخْلِ والبَخَلِ، والرُّشْدِ والرَّشَدِ، وقد جاءَ مثلُ هذا في الصِّفةِ، كما جاءَ في الاسمِ، كقولِهم: العَرَبُ والعُرْبُ، ويدُلُّ على أنَّه صفةٌ قولُك: قومٌ عُرْبٌ، فالحُسْنُ على هذا صفةٌ.

وقيلَ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾؛ أي: خيرًا.

وقُرِئَ: ﴿وقولوا للنَّاسِ حَسَنًا﴾[1]؛ أي: قولًا حَسَنًا، فحُذِفَ الموصوفُ.

وقيلَ: أرادَ به الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكرِ.

وقيلَ: قولوا للنَّاسِ صدقًا في أمرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ ولا تُغيِّروا نعتَه.

وقيلَ: أرادَ بـ(النّاسِ) محمَّدًا عليه السَّلامُ، كقولِه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، فكأنَّه قالَ: قولوا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ حُسْنًا.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيلَ: ما من شرعٍ إلَّا وكان فيه صلاةٌ وزكاةٌ وإنْ كانت تختلفُ بالهيئاتِ.

وقيلَ: هذا أمرٌ لبني إسرائيلَ بالإيمانِ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ والأخذِ بشريعتِه وقتَ خروجِه؛ أي: التزِمُوا الآنَ ذلك لتعملوا به في وقتِه، كقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، لم يُرِدْ: حتَّى يُؤدُّوا ذلك في الحالِ، بل المعنى: حتَّى يلتزِمُوا ذلك فيُؤدُّوا[2] في وقتِها.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: أوائلَهم الذين أُخِذَ عليهم الميثاقُ.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٢) في (أ): «ليؤدوا».

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: تولَّيتُم مُعرِضين عن العملِ بما أَخَذْنا عليكم إلّا قليلًا.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يرجعُ إلى أسلافِهم، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ خطابٌ للموجودينَ في وقتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾؛ أي: تولَّيتُم عمَّا أُخِذَ على أسلافِكم، إلّا قليلًا منكم كعبدِ الله بنِ سلامٍ والنَّجاشيِّ، ومَن أسلَمَ من أهلِ الكتابينِ.

والإعراضُ: الذَّهابُ عن المُواجهةِ إلى جهةِ العَرْضِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناءٌ عن إيجابٍ، وإنَّما نُصِبَ لأنَّه مشبَّهٌ بالمفعولِ(١)، وقيلَ: مشبَّهٌ بالتَّمييزِ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ هذه الآيةُ في الابتداءِ، ثمَّ نسخَتْها آيةُ السَّيفِ(٢).

فقولُه تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أمرٌ في حقِّ المسلمِ والكافرِ؛ أي: لا تُقاتلوا الكفَّارَ، ثمَّ أمرَ بالقتالِ. وهذا بعيدٌ.

* * *

---

(١) في (أ): «بالمفعول به».

(٢) ذكره الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٤٦) عن ابن عباس وقتادة، والمهدوي كما في «المحرر الوجيز» (١/ ١٧٣) عن قتادة، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٦٢) (٨٤٧) عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ قال: هذه الآيةُ أُمِر بها قبل أنْ يُؤمَرَ بالجهاد. وذكره القرطبي في «تفسيره» (٢/ ٢٣٤) عن ابن عباس نقلاً عن المصنف.

قال ابن عطية: وهذا على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه.

(٨٤) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ ثمَّ بيَّنَ تناقُضَ أفعالِهم.

وسببُ النُّزولِ: أنَّ طائفةً منهم ـ وهم قُريظةُ ـ كانوا حلفاءَ الأوسِ، وطائفةٌ وهم النَّضيرُ حُلَفاءَ الخزرجِ ـ وقيل: كانت قريظةُ والنَّضيرُ حلفاءَ الأوسِ، وبنو قَيْنُقاع حلفاءَ الخزرج ـ وكانت اليهودُ يَقتُلُ بعضُهم بعضاً في مظاهرةِ الأوس والخزرج، ويُخرجُ بعضُهم البعضَ من ديارِهم، وإنْ أُسرَ واحدٌ منهم بذَلوا فداءه واستَردُّوه، فبيَّنَ أن هذا مُتناقضٌ، تفدُونَ الأسيرَ وترحمُونَه، ولو قُتلَ أهدَرْتُم دمَه، فإمَّا أن تقتُلوه وتُهدِرُوه ولا تَفْدُوه، وإمَّا أنْ تمتَنِعُوا عن قتلِه كما تَرونَ افتداءَه[1].

﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تُريقُونَ، يُقالُ: «سفَكَ يسفِكُ» مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ، و«سفَك يسفُك» مثلَ: نصَرَ ينصُرُ.

والدِّماءُ: جمعُ دمٍ؛ أي: لا يَسفكُ بعضُكم دمَ بعضٍ، وكلُّ أهلِ ملَّةٍ فكأنَّهم شخصٌ واحدٌ، فدمُ المسلمِ دمُ أخيه المسلمِ، فمَن سفكَ دمَ غيرِه فكأنَّه سفَكَ دمَ نفسِه، ولهذا قالَ عليه السَّلامُ: «مثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم مثلُ الجسدِ الواحدِ، إذا اشتكى بعضُه تَداعَى له سائرُه بالحمَّى والسَّهرِ»[2]، وقالَ الله تعالى:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤). عن ابن عباس والسدي، وقوله: «وقيل: كانت قريظةُ والنَّضيرُ حلفاءَ الأوسِ، وبنو قَيْنُقاع حلفاءَ الخزرج» هذا في خبر ابن عباس، وما قبله في خبر السدي.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: إخوانكم منَ المسلمينَ، وقالَ تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]؛ أي: على أهليكُم.

وقيلَ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تَقْتُلوا، فإنَّ مَن قَتَل قُتِلَ[1] قصاصًا، فكأنَّه بقتلِ الغيرِ قتَلَ نفسَه، ففي النَّهيِ عن قتلِ نفسِه نهيٌ عن قتلِ غيرِه.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أي: لا يُخرِجْ بعضُكم بعضًا من دارِه.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ أي: قبِلْتُم ذلك وأقرَرْتُم به.

قيلَ: يرجعُ هذا إلى أسلافِهم؛ أي: وأنتم أيُّها الأخلافُ تشهَدُون بأنَّهم أقَرُّوا وقتَلُوا.

وقيلَ: أي: أقرَّ أسلافُهم وشهِدُوا على أنفُسِهم به.

وقيلَ: يرجعُ الأمرُ إلى الأسلافِ والأخلافِ؛ أي: أقرَّ أسلافُكم وأنتُم بذلك، وشهِدُوا هم وأنتُم بأنَّ ذلك حقٌّ، ومثلُ هذا قولُك: «أنتَ وزيدٌ فعلتُما كذا»، وإنْ كانَ زيدٌ غائبًا في الحالِ، فعلى هذا إقرارُ الأسلافِ بالقبولِ من أنبيائهم، وإقرارُ الأخلافِ بالخبرِ أنَّ هذا في كتابِهم، وكذلك شهادةُ الأسلافِ[2] أنَّ ذلك حقٌّ من عندِ الله تعالى، وشهادةُ الأخلافِ مثلُ ذلك، ولفظُ الشَّهادةِ للتَّأكيدِ.

* * *

---

(١) «قتل» من (أ).

(٢) من قوله: «بالقبول من أنبيائهم وإقرار الأخلاف... » إلى هنا ليس في (ف).

(٨٥) ـ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: [يا] هؤلاء، وقيل: هو تأكيدٌ لـ﴿أَنتُمْ﴾؛ أي: ثم أنتم الذين[1] ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

وصحَّ في الآثارِ أنَّهم أُمِرُوا بالفداءِ، فقيلَ: لا يحلُّ لكم أن تجدوا عبدًا أو أمةً من بني إسرائيلَ إلّا فديتُموه.

وقيلَ: دلَّ على أنَّه كانَ[2] يجبُ عليهم الفِديةُ قولُه: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ لأنَّه إذا استبقَى الأسيرَ في يدِ العدوِّ قتلَه، فيكونُ ذلك سفكَ الدَّمِ.

﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ إدغامًا للتّاءِ في الظّاءِ لمُقاربتِهما، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ بحذفِ التَّاءِ التي أدغمَها الأوّلونَ[3]، والإعلالُ بالحذفِ كالإعلالِ بالإدغامِ[4].

---

(١) قوله: «أي هؤلاء وقيل هو تأكيد لأنتم أي ثم أنتم الذين» من (أ)، وما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق. وهو قول علي بن عيسى الرماني كما في «لباب التفاسير» للكرماني (١/ ١٧٨)، وذكر هذا الوجه أيضاً الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٠٥)، والسمرقندي في «تفسيره» (١/ ٧٠)، ، والواحدي في «البسيط» (٣/ ١١٧) وعنه نقل المصنف.

(٢) «كان» من (ف).

(٣) التشديد قراءة ابن عامر ونافع وابن كثير وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٤) قوله: «والإعلالُ بالحذفِ كالإعلالِ بالإدغامِ» يعني: كل وَاحِد من الفريقين كره اجتماع الأمثال =

والمُظاهرةُ: الإعانةُ، والظَّهرُ: العَونُ؛ لاستنادِ ظهرِه إلى ظهرِ صاحبِه.

والظُّهورُ: البُروزُ، ومنه: ظهرُ الإنسانِ. والظَّهيرةُ أظهَرُ ما تكونُ الشَّمسُ لانبِساطِ شُعاعِها، وقرأ القرآنَ من ظهرِ قلبِه؛ أي: ظهرَ له من غيرِ كتابٍ.

﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾؛ أي: يُعينُونَ مُشركي العربِ على المسلمينَ بالمعصيةِ والظُّلمِ، والعُدوانُ: الإفراطُ في الظُّلمِ، يُقالُ: عَدا عَدْوًا وعُدْوانًا وعُدُوًّا وعَداءً.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ قُرِئَ: ﴿أُسَـٰرَىٰ﴾ و﴿أَسْرَى﴾[1] وهما جمعُ «أسير»، والأسيرُ بمعنَى المأسورِ، يُقالُ: أسيرٌ وأسرى، مثلَ: لَديغٍ ولَدْغَى، وقتيلٍ وقَتْلَى، ويُقالُ: الأُسراءُ، مثلَ: الظَّريفِ والظُّرَفاءِ، ويُقالُ: الأُسارَى مثلَ الكُسالى؛ لأنَّ الكسلانَ محتبِسٌ عن التَّصرُّفاتِ لعادتِه في الكسلِ، والأسيرُ يحتبسُ عن كثيرٍ منَ التَّصرُّفاتِ للأسرِ، والأصلُ: الأسرى، وإنَّما يكثُرُ «فُعالى» فيما كانَ على «فَعْلان»، نحو: سَكْران وكَسْلان.

والأسرُ: الشَّدُّ، يُقالُ: ما أحسَنَ ما أسَرَ قتَبَه! أي: ما أحسَنَ ما شدَّه بالقِدِّ! وسُمِّيَ الأسيرُ أسيرًا لأنَّ آخِذَه يَستوثِقُ منه بالإسارِ، والإسارُ اسمٌ للقِدِّ الذي يُؤسَرُ به القتَبُ.

﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ منَ المُفاداةِ، وقُرِئَ: ﴿تفدُوهم﴾ منَ الفِداءِ[2]، ثمَّ منَ الآسرِ دفعُ الأسيرِ، ومنَ المأسورِ عنهم دفعُ المالِ، فصحَّ لفظُ المُفاداةِ، ولا فرقَ بين فادَيْتُ الأسيرَ وفدَيتُ الأسيرَ.

= والمقاربة، فبعضهم خفف بالحذف، وبعضهم بالإدغام، والمحذوفة هي التي تدغم، والمدغمة هي التي تحذف، وذلك أنها لما أُعِلّت بالإدغام أُعِلّت بالحذف. انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ١١٨).

(١) قرأ حمزة: ﴿أَسْرَى﴾، والباقون: ﴿أُسَارَى﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٤)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٢) قرأ عاصم ونافع والكسائي: ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ بألف وضم التاء، والباقون بغير ألف وفتح التَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٤)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

وقيلَ: المُفاداةُ: أن تدفعَ رجلًا وتأخُذَ رجلًا، والفِداءُ: أن تشتريَه بمالٍ، وقد ذكَرْنا أنَّ معنى الآيةِ: بيانُ تناقُضِ أفعالِهم، فيقتُلونَ أهلَ دينِهم، ثمَّ إذا أُسِرُوا يفتَدُونَهم.

وقيلَ: أرادَ ذمَّ اليهودِ؛ أي: أنتم تقتُلون أهلَ دينِكم وتُخرِجُونَهم من ديارِهم وإن وقعوا أسارَى في أيديكم لم تردُّوهم على عشائرِهم إلّا بفداءٍ كما تفعلون هذا بالأسيرِ من غيرِ أهلِ دينِكم، وقد يُقالُ لمَن باعَ أسيرًا: فداه؛ أي: أخذَ فِداءَه، كما يُقالُ لمن اشترَى أسيرًا: فداه؛ أي: أعطى فِداءَه، ويدُلُّ على هذا التَّأويلِ أنَّه وبَّخَهم على فكاكِ الأسيرِ، وإنَّما يقعُ التَّوبيخُ إذا حصلَ ذلك على ما ذكَرْنا.

وعلى هذا فقولُه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ لا يرجعُ إلى فداءِ الأسارى، ولكن يرجعُ إلى أشياءَ أُخرَ؛ أي: وافقتُم التَّوراةَ في بعضِ الأشياءِ وخالفتُم في البعضِ، وآمنتُم بموسى وكفرتُم بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، فأنتم تُؤمنون ببعضِ كتابِكم فما جزاؤُكم إلّا النّارُ.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ﴿هو﴾ إشارةٌ إلى قولِه: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا﴾، ثمَّ قالَ: ذلك الذي حرِّمَ عليكم الإخراجُ، ولو لم يذكُرِ الإخراجَ لأشبهَ أن يرجعَ قولُه: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ إلى الفداءِ، فالمعنى: وإخراجُهم محرَّمٌ عليكم، فهو مبتدأٌ مُؤخَّرٌ عن خبرِه.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿هو﴾ بمعنى الشَّأنِ والقِصّةِ؛ أي: والقِصَّةُ محرَّمٌ عليكم إخراجُهم، كقولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: قل: الحديثُ الذي هو الحقُّ اللهُ أحدٌ[1].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٦٧).

وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وتُخرِجُونَ فريقًا منكم من ديارِهم وهو محرَّمٌ عليكم إخراجُهم، وإن يأتوكُم أُسارَى تفدُوهُم.

والمُحرَّمُ: الممنوعُ، ومنه: الحرامُ، لكلِّ ما مُنِعْتَ مِن فِعْلِه، ومنه: البيتُ الحرامُ، والمُحْرِم والمحرومُ(١).

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ استفهامُ توبيخٍ.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾ الخِزْيُ: ما يُستحيَى منه ويُفتضحُ، أرادَ ما أصابَ قُريظةَ والنَّضيرَ منَ القتلِ والجلاءِ والسَّبيِ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في جهنَّمَ، ردَّه إلى كذا؛ أي: رَجعه إليه، ومنه الردَّادُ للمُجبِّرِ؛ لأنَّه يرُدُّ العضوَ إلى ما كانَ.

﴿أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾: ما لم يَعْهَدُوا مِثْلَه في الدُّنيا.

وقيلَ: هو ما يتواصلُ ولا يتخلَّلهُ فتراتٌ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ليس يَنْسَى كُفرَهم، وهذا وعيدٌ لهم وتسليةٌ للمُؤمنينَ.

* * *

(٨٦) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: أخذوا الدُّنيا

---

(١) قوله: «والمحرم والمحروم» يقال: رَجل مُحْرِم وحرام: إذا مَنَع نفسه ممّا يحظره الإحرام، والمحروم: الممنوع مما ناله سواه. انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ١٢٦).

بـدلًا مـنَ الآخـرةِ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: لا ينقـصُ، والخِفَّـةُ: نُقصـانُ الوزنِ.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ناصرَ لهم غدًا.

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أعطَيْناه التَّوراةَ، والكتابُ: اسمٌ لِـمَا دُوِّنَ حتَّى يُدرَسَ.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾؛ أي: أرسَلْنا رسولًا يتلو رسولًا، يُقالُ: جاء فلانٌ في قَفا فُلانٍ، ورُدَّ فُلانٌ على قفاه؛ أي: هُزِمَ، والقَفا: مُؤَخَّرُ العُنُقِ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: الحُجَجَ، وعيسى ومريمُ اسمانِ أعجميَّانِ.

وقيلَ: مريمُ بالسُّريانيَّةِ: الخادمةُ.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾؛ أي: قوَّيناه، والأَيْدُ والآدُ: القوَّةُ، وآدَ يَئِيدُ أَيْدًا؛ أي: قوِيَ، وأَيَّدَه وآيَدَه؛ أي: قوَّاه.

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني: روحَ عيسى؛ أي: بالـرُّوحِ القُـدُسِ؛ أي: المُقـدَّسِ، فأضافَ الاسمَ إلى الصِّفةِ، وسمَّى روحَه قُدسًا لأنَّه لم يتضَمَّنْه أصلابُ الفُحولةِ وأرحامُ الطَّوامثِ.

وفي الخبرِ: أنَّه لمَّا أخرجَ الذُّرِّيَةَ من صُلبِ آدمَ ردَّها إليه إلَّا روحَ عيسى؛ فإنَّه

أمسكَها إلى وقتِ خلقِه[1]، وعلى هذا قيلَ: أضافَ رُوحَ عيسى إلى نفسِه، كما قالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، ويُقالُ: شهرُ الله، والقُدسُ: الطَّهارةُ.

وقيلَ: عنَى بالرُّوحِ هاهُنا جبريلَ؛ أي: أرسَلْنا إليه جبريلَ بآياتِنا ووحيِنا، كقولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، وسُمِّيَ جبريلُ رُوحًا لأنَّ الله يُحيي مَن شاءَ[2] بما يأتي به جبريلُ منَ البيانِ، أو لأنَّ الغالبَ على جسمِه الرُّوحانيَّةُ، وكذلك سائرُ الملائكةِ.

وقيلَ: سُمِّيَ جبريلُ رُوحًا لأنَّه كانَ بتكوينِ الله إيَّاه من غيرِ ولادةِ والدٍ، وكذلك عيسى سُمِّيَ رُوحَ الله لهذا، ثمَّ أضافَ جبريلَ إلى الطَّهارةِ؛ أي: أنَّه ممَّن لا يقترفُ الذُّنوبَ، أو يُطهِّرُ الله بما ينزلُ معَه عبادَه عن دَنَسِ الكفرِ والمعاصي.

قُرِئَ: ﴿بِرُوحِ القُدْسِ﴾ مُخفَّفًا، وقرأ المُعظَمُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالتَّثقيلِ[3]، وهما لُغتانِ، كالشُّغْلِ والشُّغُلِ، والحُلْمِ والحُلُمِ.

﴿أَفَكُلَّمَا﴾ قيلَ: الفاءُ زيادةٌ[4]، وقيلَ: بل هي للإتْباعِ؛ لتعلُّقِ ما قبلَها بما بعدَها

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ١٣١) دون راو ولا سند. وروى الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٩٠)، والطبري في «تفسيره» (٧/ ٧٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٥٥) عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: أخذهم فجعلهم أرواحا ثم صورهم ثم استنطقهم فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد والميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم فدخل في فيها فحملت الذي خاطبها وهو روح عيسى عليه السلام.

(٢) في (أ): «يشاء».

(٣) بالتخفيف ابن كثير، والباقون بالتثقيل. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٣)، و«التيسير» (ص: ٧٤).

(٤) في (أ): «زائدة».

كما في الخبرِ: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»(١)، فالفاءُ مُتْبِعةٌ لا زائدةٌ، ذكرَه أبو عليٍّ(٢).

﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾؛ أي: بأمرٍ لا تهوَوْنَه، أو بآيةٍ غيرِ ما تقترِحون ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظَّمْتُم عن الإيمانِ به ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ مثلَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما السَّلامُ ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مثلَ يحيى وزكريّا.

والفريقُ: الطَّائفةُ. وجوابُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ في قولِه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ كأنَّه قال: فما استقَمْتُم.

* * *

(٨٨) ـ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ الغُلْفُ بسكونِ اللَّامِ جمعُ «أغلَف»، مثلَ: أحمَرَ وحُمْرٍ، والأغلَفُ: كلُّ شيءٍ في غلافٍ، ورجلٌ أغلَفُ؛ أي: لم يُختَنْ، ونظيرُه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، ثمَّ قيلَ: إنَّما قالوا هذا استهزاءً.

وقيلَ: عابُوا القرآنَ؛ أي: لَسْنا نجِدُ له حلاوةً في قلوبِنا.

وقيلَ: عنَوا: إنَّ الله منَعَنا عن فهمِ قولِك، فنحنُ معذورونَ في تركِ تدبُّرِه، وهو كما أخبرَ عن قومٍ قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

ولا يجوزُ في «فُعْلٍ» في جمعِ «أفعَل» التَّثقيلُ.

---

(١) رواه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. ومحل الشاهد في الحديث بيان أن ما قبل الفاء متعلق بما بعدها، حيث قيل له ﷺ لما جهد نفسه بالعبادة: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون...».

(٢) انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ١٣٢).

وقيلَ: ﴿غُلُفٌ﴾: جمعُ غـلافٍ، فيجـوزُ فيه التَّثقيلُ والتَّخفيفُ، مثلُ: كتابٍ وكُتْبٍ وكتُبٍ، ومثالٍ ومُثُلٍ، وحِـمارٍ وحُـمُرٌ، كأَنَّهم قالوا: قلوبُنا أوعيةٌ للعلمِ فلا حاجةَ بنا إلى مَن يُعلِّمُنا ويُفهِّمُنا، بل منَّا يُؤخَذُ العلمُ، أو: قلوبُنا معدنُ العلمِ، ولسنا نجدُ فيما عندَنا وفي كتُبِنا ما تقولُ.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: لا حُجَّةَ لهم فيما قالوه، بـل أبعدَهم الله مـن رحمتِه، واللَّعنُ: الإبعادُ، و«بل» إنَّما يُذكَرُ بعدَ الجحدِ، والجحدُ هاهنا في المعنى؛ أي: قالوا: قلوبُنا غلفٌ، وليس الأمرُ كذلك، بل لعنَهم الله ولـم يجعَلْ لهم سبيلًا إلى فهمِ ما تقولون، ولم يخلُقْ لهم الهدايةَ، وإلّا فقد وجَدُوا في كتُبِهم وصفَكَ، وعرَفُوا بالمُعجزاتِ صِدْقَكَ.

وقيلَ: قلوبُنا غلفٌ؛ أي: فارغةٌ ليس فيها ما يشغلُها، فما بالُنا لا نفهمُ ما تقولُ؟

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: فما يُؤمنون قليلًا ولا كثيرًا.

وقيلَ: أي: لا يُؤمنون إلّا بقليلٍ ممَّا في أيديهم، فانتصَبَ قولُه: ﴿فَقَلِيلًا﴾ بنزعِ الخافضِ.

وقيلَ: أي: لا يُؤمِنُ منهم إلّا قليلٌ؛ لأنَّ مَن آمنَ منَ المُشركين أكثرُ ممَّن آمنَ منَ اليهودِ، و﴿ما﴾ صلةٌ، وقولُه: (قليلًا) نصبٌ على الحالِ؛ أي: فيُؤمنونَ قليلًا، كعبدِ الله بنِ سلامٍ.

وقيلَ: فيُؤمنون إيمانًا قليلًا؛ لأنَّهم آمَنُوا بأنَّ الله خالقُهم، وكفَرُوا بمحمَّدٍ ﷺ، قالَ الله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ أي: يعترِفُونَ بأنَّ الله خالقُهم ويكفُرونَ بمحمَّدٍ، وعلى هذا انتصبَ قولُه: ﴿فَقَلِيلًا﴾ لأنَّه نعتُ

مصدرٍ محذوفٍ، أو يُؤمنونَ ببعضِ الأنبياءِ دونَ بعضٍ، أو يُؤمنونَ ظاهرًا ويُسِرُّونَ الكفرَ، أو يُؤمنونَ ببعضِ كتابِهم دونَ بعضٍ.

وقيلَ: فيُؤمنونَ قليلًا منَ الزَّمانِ، ويكفُرونَ أكثرَه، كما قالَ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: ٧٢]، فانتَصَبَ ﴿قليلًا﴾ لأنَّه أُقيمَ مُقامَ الظَّرفِ، و﴿ما﴾ صِلةٌ.

ويُمكِنُ أن يكونَ ﴿ما﴾ مع الفعلِ بمعنى المصدرِ؛ أي: فقليلًا إيمانُهم، كما تقولُ: راكبًا لقائِيْك[١].

* * *

(٨٩) - ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضًا في ذكرِ اليهودِ، قال ابنُ عبّاسٍ: كانت يهودُ خيبرَ تُقاتلُ غطَفانَ، فكلَّما التَقَوا انهزَمَتِ اليهودُ، فقالوا: اللَّهمَّ إنّا نسألُك بحقِّ النَّبيِّ الأمِّيِّ الذي وعَدْتَنا في آخرِ الزَّمانِ أن تنصُرَنا على غطَفانَ، فانهَزَمَتْ غطَفانُ، فكانوا يعتادُونَ هذا الدُّعاءَ في كلِّ قتالٍ لهم فينهزِمُ عدوُّهم[٢].

---

(١) وعلى هذا فالمصدر مرتفع بـ(قليلًا). انظر: «البسيط» للواحدي (٣/ ١٣٢)، وفيه: «راكبًا لَقائِيك ومُجَرَّدًا ضَرْبِيكَ».

(٢) رواه الآجري في «الشريعة» (٩٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٤٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٧٦)، من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده، عن سعيد بن جبير، عن بن عباس رضي الله عنهما. قال الحاكم: «أدَّت الضروة إلى إخراجه في التفسير، وهو غريب جدًّا»، وعلَّق الذهبي قائلًا: «لا ضرورة في ذلك؛ فعبدُ الملك متروك هالك».

وقيلَ: كانتِ العربُ تُؤذي اليهودَ، وكانتِ اليهودُ وجَدوا نعتَ محمَّدٍ في كتُبِهم، فيسألونَ الله أن يبعثَه ليُقاتلوا معَه العربَ فيُنصَروا معه عليهم، فلما جاءَهم محمَّدٌ كفَروا به حسدًا.

﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: ولـمَّا جاءَهم القرآنُ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وذلك لأنَّ القرآنَ يُصدِّقُ التَّوراةَ والإنجيلَ، ولا يُخالِفُهما في الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ والإيمانِ بالبعثِ.

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلِ أنْ جاءَهم القرآنُ، أو جاءَهم محمَّدٌ عليه السَّلامُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: قولَـهم: اللَّهمَّ انصُرْنا بالنَّبيِّ المبعوثِ في آخرِ الزَّمانِ، والاستفتاحُ بمعنى الاستِنصارِ.

وقيلَ: بمعنى الاستحكامِ، والقاضي يُسمَّى: الفتَّاحَ، ومنه: ﴿فافتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ أي: فاحكُمْ.

وقيلَ: هو من استفتاحِ المُتعلِّمَ مُعلِّمَه، كأنَّهم كانوا يقولونَ: نحنُ نعلمُ أنَّه يُبعَثُ في آخرِ الزَّمانِ نبيٌّ، فهل عندَكم خبرٌ عن وقتِ خُروجِه؟ وفيه إضمارٌ؛ أي: كانوا يستفتِحُونَ به؛ أي: بمحمَّدٍ، أو بذاك الكتابِ، ومثلُه: السَّمنُ مَنَوانِ بدرهمٍ؛ أي: مَنَوانِ منه بدرهمٍ(١).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾؛ أي: فحينَ جاءَهم ما عرَفُوا وآمَنُوا به من قبلُ وانتَظَروه ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وقولُه: ﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ، أو الكتابِ، أو بالله الذي

---

(١) «السمن» مبتدأ أول، و«منوان» مبتدأ ثان، وسوَّغ الابتداء به الوصف المحذوف وهو «منه»، و«بدرهم» خبر المبتدأ الثاني، وهو وخبره خبرُ المبتدأ الأول.

والمَنا: كيل أو ميزان يساوي رطلين، ويثنى على منوان ومنيان، ويجمع على: أَمْنَاءِ، وأَمْنٍ، ومُنِيٍّ ومِنِيٍّ. انظر: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٣٨٠)، و«القاموس» (مادة: منا).

أنزَلَ ذلك الكتابَ، أو كفَرُوا بالكتابِ الذي معَهم الذي فيه ذِكرُ محمَّدٍ، وهو التَّوراةُ.

ثمَّ قيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: ولـمَّا جاءَهم كتابٌ من عندِ الله مُصدِّقٌ لِـمَا معَهم جحَدُوه، فلمَّا جاءَهم ما عرَفُوا كفَرُوا به.

وقيـلَ: جـوابُ قولِـه: ﴿ولما جَآءَهُم﴾ فـي الفاءِ في قولِـه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾، وفيـه أيضًـا معنـى الابتـداءِ، وقولُـه: ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ جـوابٌ لهما، وهـو كقولِك: «مـا هـو إلّا أنْ جاءَنـي زيـدٌ فلمَّـا قعـدَ أكرمتُـه»، ويدلُّ علـى أنَّ الفـاءَ جـوابٌ: أنَّ الـواوَ لا تقومُ مَقامَها، ونظيـرُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طـه: ١٢٣].

وقيلَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ تكريرُ قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾؛ لأنَّ الكلامَ طالَ بتخلُّلِ قولِه: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾، والجوابُ: ﴿كَفَرُواْ﴾، ونظيرُه: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، أعادَ ﴿أَنَّكُمۡ﴾ لمَّا طالَ الكلامُ.

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ، أو بالقرآنِ، أو بالله، أو بالتَّوراةِ؛ أي: أنَّهم مُعانِدونَ.

* * *

(٩٠) ـ ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

قولُه: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ أصلُ: نعمَ وبئسَ: نَعِمَ ينعَمُ وبَئِسَ يبأَسُ، مثلَ: حَـمِدَ يحمَدُ، ولكنَّهم أرادُوا لفظًا يخصُّ المحمودَ، ولفظًا يخصُّ المذمومَ، فجعلوا «نِعْمَ» للممدوحِ و«بِئْسَ» للمذمومِ، وأزالُوا التَّصرُّفَ عن اللَّفظِ حتَّى لا يُستعمَلَ منه المستقبلُ، فلا يُقالُ والمُرادُ المدحُ أو الذَّمُّ: «ينعُمُ ويبأَسُ»، وخفَّفُوا

أيضًا فقالوا: «نِعْمَ وبِئْسَ»، وهذا كما أنَّ التَّعجُّبَ لـمَّا كانَ خبرًا كسائرِ الأخبارِ وزادَ عليها بمعنى التَّعجُّبِ تُرِكَ تصرُّفُه ليدُلَّ على زيادةِ المعنى.

وأصلُ «بئسَ» منَ الشِّدّةِ، ومنه: ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ للحربِ والمشقَّةِ، ومنه: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥]؛ أي: شديدٍ.

ثمَّ؛ قالَ الزَّجَّاجُ: (ما) في ﴿بِئْسَمَا﴾ ليس بصلةٍ؛ لأنَّ الصِّلةَ تُوضِّحُ وتُخصِّصُ، والقصدُ في (بئسَ) أن يليَها اسمٌ منكورٌ أو اسمُ جنسٍ، فقولُك: «بئسَما تزويجٌ ولا مهرٌ»، معناه: بئسَ شيئًا تزويجٌ ولا مهرٌ[١].

وقالَ أبو عليٍّ: يجوزُ أن تكونَ (ما) صلةً، فتكونُ فاعلةَ (بئسَ)؛ أي: بئسَ الشّيءُ اشترَوا به أنفُسَهم[٢]، وعلى الأوَّلِ (ما) نصبٌ؛ أي: بئسَ شيئًا اشترَوا به أنفُسَهم.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: باعُوا به أنفُسَهم؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ رهينةٌ بما اكتسَبَتْ[٣]، فمَن لـم يفُكَّ نفسَه منَ الرَّهنِ فكأنَّه لـم يرُدَّ نفسَه إلى نفسِه، فسبيلُه لو أرادَ أن يرُدَّها إلى نفسِه أن يشتريَها بأن يفُكَّها ويُؤدِّيَ فداءَها، يُقالُ: «اشترَى فلانٌ نفسَه»؛ أي: فَداها منَ النّارِ بالإيمانِ بالله تعالى كما تشتَري الأسيرَ فتَفديه.

ومعنى الآيةِ: ذمَّهم بأنَّهم اشترَوا أنفُسَهم منَ الله بالكفرِ، وإنَّما كانَ ينبَغي أن يشتَروها بالإيمانِ، ولـمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قالَ عليه السَّلامُ: «يا بني عبدِ منافٍ، اشتَروا أنفُسَكم منَ الله؛ لا أملكُ لكم منَ الله شيئًا، سلُوني من مالي ما شئتُم»[٤].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ١٧٢)، و«البسيط» (٣/ ١٤٥).

(٢) انظر: «البسيط» (٣/ ١٤٦).

(٣) في (أ): «كسبت».

(٤) رواه البخاري (٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي الخبرِ: «النَّاسُ غاديانِ، بائعٌ نفسَه فمُوبِقُها، ومُشترٍ نفسَه فمُعتِقُها»[(١)].

وقيلَ: «اشتروا» هاهُنا بمعنى باعوا، فإنَّ شرَيْتُ واشترَيْتُ يصلُحانِ للبيعِ وللشِّراءِ جميعًا، وكذلك بِعْتُ يصلُحُ للمعنيَينِ، تقولُ: «بِعْتُ الثَّوبَ»؛ أي: أخرَجْتُه من يدي، و«بِعتُه» أي: اشترَيتُه، فالبيعُ والشِّراءُ يرجعانِ إلى المُعاوَضةِ، وكلُّ واحدٍ منَ البائعِ والمُشترِي يُخرِجُ شيئًا ويستفيدُ شيئًا؛ أي: بئسَ ما اعتاضُوا من كفرِهم؛ لأنَّهم رضُوا بالنّارِ عِوَضًا من ثوابِ[(٢)] الله.

ثمَّ قيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: بئسَ ما باعُوا أن يكفُروا؛ أي: بئسَ شيئًا باعُوا به أنفُسَهم الكفرُ، أو: بئس الشَّيءُ باعوا به أنفسَهم الكفرُ، وإذا قُلتَ: «نِعْمَ الرَّجلُ زيدٌ»، فـ«زيدٌ» رفعٌ عندَ سيبويهِ والخليلِ؛ لأنَّه ابتداءٌ مُؤخَّرٌ؛ أي: «زيدٌ نعمَ الرَّجلُ»، أو هو خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: «نِعمَ الرَّجلُ»، فقيلَ: مَن تعني؟ فتقولُ: «زيدٌ»، أو «هو زيدٌ»[(٣)].

وعند الكسائيِّ: «بئسَ الرَّجلُ» كالشَّيءِ الواحدِ يرتفعُ به «زيدٌ»، كأنَّك قُلتَ: «فسدَ زيدٌ»، فزيدٌ رفعٌ لأنَّه فاعلٌ[(٤)].

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالقرآنِ ﴿بَغۡيًا﴾؛ أي: ظُلمًا، يُقالُ: بغَتِ السَّماءُ: إذا جاوزَ مطرُها الحدَّ، وبغَى الجرحُ؛ أي: كثُرَت المِدَّةُ فيه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٤٤١)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١١٣٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥١٤)، من حديث جابر رضي الله عنه. ورجاله رجال الصحيح كما في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٤٧).

(٢) في (أ): «من نور».

(٣) انظر: «الكتاب» (٣/ ١٤٤)، و«البسيط» (٣/ ١٤٤).

(٤) وكذا إذا قلت: «نعم الرجل زيد» معناه: صلح زيد. انظر: «البسيط» (٣/ ١٤٥).

وقيلَ: البغيُ: الحسدُ، و: «مَنْ بُغِيَ عليه لينصُرَنَّه الله»؛ أي: مَن حُسِدَ.

وقيلَ: البغيُ: الطَّلَبُ، والبغِيُّ: التي تطلُبُ الزِّنا.

أي: هؤلاءِ كفروا بمحمَّدٍ بغيًا وحسدًا، لا شكًّا وشُبهةً، وقولُه: ﴿بَغۡيًا﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: بغَوا بغيًا، وما قبلَه منَ الكلامِ يدلُّ عليه، كقولِه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١]، ثمَّ قالَ: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١] لأنَّه في معناه.

وقيلَ: انتصَبَ على نزعِ الخافضِ؛ أي: بئسما اشتَروا به أنفُسَهم بالبغيِ.

وقيلَ: انتصَبَ لأنَّه مفعولٌ به.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حسَدًا إنزالَ الله.

وقيلَ: معناه: أن يكفُروا بما أنزلَ الله لأنْ يُنزِّلَ الله؛ أي: كفروا لهذه العِلّةِ، فهو مفعولٌ له، ويجوزُ أن تقولَ[1]: هو في محلِّ النَّصبِ بنزعِ الخافضِ؛ أي: بأن يُنزِّلَ الله.

﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بيَّنَ أنَّ إنزالَ القرآنِ فضلٌ منَ الله، ولا يجبُ عليه شيءٌ، ثمَّ قالَ: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: ليس ثَمَّ وجوبُ عقلٍ، بل يَفعلُ ما يُريدُ.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾؛ أي: رجَعُوا به، وعنى بالغَضَبِ على الغَضَبِ: تتابُعَ الغضبِ، تقولُ: «لك عندي إحسانٌ على إحسانٍ»؛ أي: إحسانٌ مُتتابعٌ.

وقيلَ: الغضبُ الأوَّلُ: تضييعُهم التَّوراةَ وما سبقَ من آثامِهم، والثّاني: كُفرُهم بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ.

---

(١) في (أ): «يقال».

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فمِنَ[1] الإهانةِ قولُه: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

و: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

ومنَ الإهانةِ: سَحبُهم في النَّارِ على وجوهِهم.

ومنها: ما حلَّ بهم في الدُّنيا منَ القتلِ والسَّبْيِ والجلاءِ عن الوطنِ.

وإضافةُ الإهانةِ إلى العذابِ توسُّعٌ؛ فإنَّ المُهينَ هو اللهُ تعالى، وفي الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ عذابَ المُؤمنِ تأديبٌ ولا إهانةَ فيه.

***

(٩١) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (إذا) وقتٌ لقولِهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾.

﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالقرآنِ.

﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: بالتَّوراةِ.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ كأنَّه تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، وابتدأَ الربُّ بالإخبارِ عنهم فقالَ: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ من قولِ اليهودِ؛ أي: نُؤمنُ بما أُنزِلَ علينا ونكفرُ بما وراءَه، وهو

---

(١) في (أ): «من».

انتقالٌ إلى الغيبةِ، كما تقولُ: «استحلَفْتُ زيدًا لَأقومَنَّ» و«لَيقُومَنَّ» و«لَتقُومَنَّ»، فمَن قالَ: «لأقومَنَّ»؛ أي: قُلتُ له: قُلْ: لأقُومَنَّ، ومَن قالَ بالتّاءِ أخرَجَه على المُخاطبةِ، ومَن قالَ بالياءِ أخرجَه على لفظِ «زيدٍ»؛ لأنَّه غائبٌ.

﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أي: بما بعدَه؛ أي: بما بعدَ ما أُنزِلَ عليهم منَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ.

وقيلَ: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ أي: بما سواه.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: وما نزَلَ بعد كتابِ موسى هو الحقُّ المُصدِّقُ لِـما أُنزِلَ عليهم، فقد كفَرُوا إذن بما يُصدِّقُ ما معَهم، فكأنَّهم كفروا بما معهم أيضًا.

وقيلَ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ تخصيصًا له وتفضيلًا.

وقيلَ: ترجعُ الكنايةُ إلى محمَّدٍ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لمَّا جرَى ذكرُ الإنزالِ فهو يتضمَّنُ ذكرَ المُنزَلِ عليه.

﴿مُصَدِّقًا﴾ نصبٌ على الحالِ، تقولُ: «هو زيدٌ حقًا» و«هو زيدٌ معروفًا».

﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنْ صدَقْتُم في أنَّكم تُؤمِنُونَ بما أُنزِلَ عليكم فلِمَ تقتُلونَ الأنبياءَ؟ وفي أيِّ كتابٍ يجوزُ قتلُ الأنبياءِ؟ والخطابُ لِـمَن في عصرِ النَّبيِّ ﷺ، والمُرادُ أسلافُهم؛ لأنَّ هؤلاءِ تولَّوا أسلافَهم واعتَقَدوا ما فعلوه صوابًا.

﴿تَقْتُلُونَ﴾ لفظُه لفظُ المُستقبلِ والمُرادُ الماضي، بدليلِ أنَّه قالَ: ﴿مِن قَبْلُ﴾.

وقيلَ: أي: فلِمَ كانَ أسلافُهم يقتُلونَ الأنبياءَ من قبلُ؟

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا شرطٌ، والجوابُ مُتقدِّمٌ؛ أي: إنْ كنتُم مُؤمنين فلِمَ تقتُلونَ أنبياءَ الله، وليسَ سبيلُ المؤمنِ أن يقتُلَ الأنبياءَ؟

* * *

(٩٢) ـ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: فلم تُبالُوا بها، واللّامُ في ﴿لقد﴾ لامُ القسمِ.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمُعجِزاتِ والآياتِ التِّسعِ، وهي: العَصا واليدُ وفلقُ البحرِ والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ ورفعُ الطُّورِ وإحياءُ الميِّتِ ببعضِ البقرةِ.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: اتَّخذتُموه معبودًا.

﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعدِ خُروجِه إلى الجبلِ.

وقيلَ: من بعدِ مجيئِه بالبيِّناتِ.

﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: لأنفُسِكم إذ وضعتُم العبادةَ في غيرِ موضعِها، أو باخِسونَ حظَّكم منَ التَّوراةِ.

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ هو الميثاقُ الثَّاني حين أتاهم بالتَّوراةِ، والأوَّلُ وقتَ الذَّرِّ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾؛ أي: الجبلَ؛ أي: وحينَ فعَلْنا هذا ﴿و﴾ قُلنا: ﴿اسمَعُوا قالوا سَمِعْنا وعَصَيْنا﴾.

﴿وَاسْمَعُوا﴾؛ أي: ما فيه منَ الأحكامِ.

وقيلَ: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾؛ أي: أطيعُوا واستجيبُوا، فيُعبَّرُ عن الطَّاعةِ بالسَّمعِ لأنَّ سببَ الإجابةِ والطَّاعةِ السَّمعُ، وفي الكلامِ إضمارٌ؛ أي: وقلنا: خُذوا ما آتيناكُم بقوَّةٍ؛ أي: بجِدٍّ.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ لمَّا أرادَ بقولِه: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾: ميثاقَ أسلافِكم، حَسُنَ ردُّ الخبرِ إلى المُعايَنةِ حتَّى قالَ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ أي: سمِعْنا ما فيه، وعصَينا ما أُمِرْنا به.

وقيلَ: سمِعْنا الآنَ، وعصَيْنا قبلَ هذا.

وقيلَ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ فلما كُشِفَ عنهم الجبلُ قالوا: عَصَينا.

وقيلَ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ولولا مخافةُ الجبلِ لعَصَينا.

وعلى الجملةِ قالوا بألسنتِهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ وأضمَرُوا بقلوبِهم العصيانَ، ويُنسَبُ ذلك منهم إلى القولِ توسُّعًا.

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ الإشرابُ: السَّقْيُ، يُقالُ: «فلانٌ مُشرَبٌ حُمرةً»؛ أي: خالطَ لونَه حُمرةٌ، ويُقالُ: «فيه شُرْبةٌ منَ الحُمرةِ».

أي: سُقُوا حُبَّ العجلِ واختلَطَ ذلك بقُلوبِهم ورسخَ فيها كإشرابِ اللَّونِ؛ لشِدَّةِ المُلازمةِ، وأضافَ الإشرابَ إليهم ثمَّ بيَّنَ محلَّ ذلك الحُبِّ وهو القلبُ، كما يُقالُ: «ضُربُوا، على رُؤوسِهم»، فيُضافُ الضَّربُ إليهم، ثمَّ يُبيَّنُ محلُّ الضَّربِ.

﴿ٱلْعِجْلَ﴾، أي: حُبَّ العجلِ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَ القريةِ، وتقولُ: ما زلتَ اليومَ في قلبي؛ أي: ما زالَ ذِكرُكَ في قلبي.

وفي الآثارِ: أنَّ موسى أحرَقَ العجلَ وذرَّى رمادَه في البحرِ.

وقيلَ: برَدَه بالمباردِ ثمَّ ألقاه في البحرِ، فلم يشربْ من مائِه أحدٌ إلا بقيَتْ محبّةُ العجلِ في قلبِه، فدخلَ العجلُ في قلوبِهم بأنْ شربُوه مع الماءِ(١).

والأوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّه لا يُقالُ في الماءِ: «أُشرِبَ منه»، وإنَّما يُقالُ في حبِّ الشَّيءِ.

وقد رُويَ أنَّه لـمَّا سُحِقَ العجلُ وذُرِّيَ في الماءِ ما شربَه أحدٌ إلا جُنَّ(٢). والله أعلَمُ بالصواب(٣).

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: باعتقادِهم التَّشبيهَ؛ لأنَّهم طلبُوا ما يُدرِكُه الوهمُ والتَّصوُّرُ.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾؛ أي: بئسَ الإيمانُ إيمانٌ يأمرُ بالكفرِ، وهذا تكذيبٌ لهم في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، والإيمانُ لا يأمرُ، ولكنَّه كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والمعنى: مَن كانَ مُؤمنًا لـم يفعَلْ هكذا.

وإنَّما أعادَ ذكرَ العجلِ ورفعِ الجبلِ ـ وقد مضى ذكرُهما ـ لأنَّ ما مضى كانَ في موضعِ تعديدِ النِّعمِ عليهم، وهاهنا ذكرُ عنادِهم لأنبيائِهم.

وأيضًا قصدَ بالأوَّلِ الإخبارَ عن حالِـهم وبالثَّاني الاحتجاجَ.

---

(١) انظر ما رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٦٤) عن السدي. وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٦) عن علي وسعيد بن جبير.

(٢) هذه الرواية ذكرها القرطبي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٦) ونسبها للمصنف، لكن فيه: «إلا جَبُنَ»، وعلى هذا فالمراد بها ما رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) عن ابن جريج قال: «لمَّا سُحِلَ فأُلقي في اليمِّ استقبَلوا جِرْيَةَ الماءِ، فشربوا حَتى مَلَئوا بطونَهم، فأَوْرَث ذلك مَن فَعلَه منهم جُبْنًا».

(٣) «بالصواب» من (أ).

وقيلَ: كان بقيَ منهم طائفةٌ لـم يتوبُوا من عبادةِ العجلِ ولـم يمتَثِلوا ما أُمروا به منَ التَّوبةِ، فهم الذين بقيَ حبُّ العجلِ في قلوبِهم، وهم الذينَ قالَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

* * *

(٩٤) - ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بيَّنَ أنَّ قومًا منهم مع أفعالِـهم القبيحةِ ادَّعَوا أنَّ الآخرةَ لهم، وأنَّهم لا يُعذَّبونَ؛ أي: إنْ كانَ كما قلتُم فتمَنَّوا الموتَ؛ فإنَّ مَن وثقَ بحُسنِ عاقبتِه تمنَّى الموتَ، وكانت الجنَّةُ آثَرَ عندَه منَ الدُّنيا، والمعنى: إنْ كانت لكم نعمةُ الدَّارِ الآخرةِ، فحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه.

﴿خَالِصَةً﴾ هي فاعلةٌ منَ الخلوصِ، وانتصبَ لأنَّه خبرُ (كانَ).

وقيلَ: إنَّها مصدرٌ كالعاقبةِ والكافيةِ؛ أي: خلَصَتْ خالصةً، فهي نصبٌ على المصدرِ، ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾؛ أي: فاطلُبوا الموتَ واشتَهُوه.

* * *

(٩٥) - ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ في الخبرِ في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾: «لا يقولُـها أحدٌ إلّا غصَّ بريقِه فماتَ مكانَه»[1]، وقال: «لو تمنَّوا الموتَ لغصَّ كلُّ

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقالتكم صادقين فقولوا: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي في يده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه» فأبوا أن يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ =

إنسانٍ بريقِه وما بقيَ على وجهِ الأرضِ يهوديٌّ إلّا ماتَ»[١]، والتَّمنِّي: التَّشهِّي.

قـال ابنُ عبَّـاسٍ: أي: فادعُـوا بالموتِ على أكـذَبِ القائلَينِ فـي قولِكم: نحنُ أبنـاءُ الله وأحِبَّـاؤُه، ولنا الدّارُ الآخـرةُ خالصةً[٢].

فهذا مُعجزةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه أخبرَ وكانَ كما أخبرَ، وكانَ هذا التَّمنِّي إليهم فلم يتمَنَّوا، وذلك لأحدِ أمرَين: إمَّا علمُوا صدقَه وأنَّهم لو تمنَّوه لـماتُوا، وإمَّا لـم يعلَمُوا ذلك، ولكن صرَفَ الله دواعيَهم عن هذا التَّمنِّي، وهو أمرٌ خارقٌ للعادةِ.

وقيلَ: ليس هاهُنا تقديرُ معجزةٍ، ولكنَّه أخبرَ عن ميلِهم إلى الدُّنيا وحبِّهم للحياةِ لسوءِ ما قدَّموا من أعمالِـهم، فكيف يُصَدَّقونَ في قولِـهم: لنا الدارُ الآخرةُ خالصةً.

وقيلَ لابنِ جُرَيجٍ: أكانوا يموتونَ لو تمنَّوا الموتَ؟ فقال: لا[٣]. فلعلَّه لـم يبلُغْه الخبرُ الذي قدَّمْنا، أو كانَ له توقُّفٌ فيه.

وقالَ نافعٌ: قال يهوديٌّ لابنِ عمرَ: في كتابِكم: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وها أنا ذا أتمنَّى الموتَ فما لي لا أموتُ؟ فدخلَ ابنُ عمرَ بيتَه واشتملَ على السَّيفِ وخرَجَ،

= ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، يرويه عنه محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح، وتسمى سلسلة الكذب.
لكن رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٧) عن ابن عباس موقوفاً بلفظ: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه»، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير عند تفسير الآية.
وروى النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا».

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) عن ابن عباس وقتادة وأبي العالية.

(٣) لم أجده هكذا، لكن روى الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٧٣) عن ابن جريج قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكانت اليهود أشد فراراً من الموت، ولم يكونوا ليتمنوه أبداً.

ففرَّ اليهوديُّ حينَ رآه، فقالَ ابنُ عمرَ: أما والله لو أدركتُه لضربْتُ عنُقَه[١]. وبانَ بهذا أنَّه لو تمنَّاه لَمَا فرَّ.

وأيضًا توهَّمَ هذا اليهوديُّ أنَّ هذا لليهودِ في كلِّ وقتٍ، وإنَّما هذه الآيةُ لأولئك الذين كانوا يُعانِدونَ بعدَ أن عرفُوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ كما عرفُوا أبناءَهم، ولو قالَ النَّبيُّ: آيةُ صدقي أيُّها الحاضِرونَ أنَّ أحدًا منكم لا يقدرُ على تحريكِ يدِه في هذا المجلسِ، فلم يُحرِّكوا؛ لا تبطلُ آيتُه بأن يتمكَّنَ مَن بعدَهم من تحريكِ يدِه.

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ذكرَ اليدَ تأكيدًا؛ لأنَّ أكثرَ الجناياتِ باليدِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: يعلمُ عِنادَهم وكذبَهم، ويعلمُ الحجَّةَ عليهم كما بيَّنَ، وفيه معنى المُجازاةِ؛ أي: يُجازيهم، وإلا فالله عليمٌ بالظَّالمينَ وغيرِ الظَّالمينَ[٢].

* * *

(٩٦) ـ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ بيَّنَ أنَّهم لا يُريدونَ الموتَ؛ يعني: مَن عانَدَ منهم وكتَمَ أمرَ محمَّدٍ ﷺ عمدًا وحسدًا، فهذا الذي يعلمُ في نفسِه عنادَه لا يتمنَّى الموتَ؛ لعلمِه بأنَّه يُعذَّبُ في النَّارِ.

واللَّامُ والنُّونُ للتَّأكيدِ، وفيهما معنى القسَمِ؛ أي: والله لتجِدَنَّهم، فاللَّامُ جوابُ القسَمِ، والوجودُ بمعنى العلمِ، تقولُ: «وجدتُ فلانًا أفقهَ النّاسِ»، وإنْ كنتَ لم ترَه.

---

(١) لم أجده.

(٢) بعدها في (أ): «والله أعلم».

والمؤمـنُ أيضًـا لا يتمنَّـى الموتَ، ولكـن لخـوفِ تقصيرِه في حقـوقِ الله، لا لقولِـه: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولِـه: إنَّ الـدَّارَ الآخـرةَ لنا.

والعشرةُ الذين بُشِّروا بالجنَّةِ ما كانوا يكرهونَ الموتَ إلّا كراهيةَ الطَّبعِ، وكم في المسلمينَ ممَّن يتسارعُ إلى الجهادِ ويحرصُ على الشَّهادةِ.

والحِرصُ: شدَّةُ الطَّلبِ، وحَرَصَ القصَّارُ الثَّوبَ؛ أي: ألحَّ في الدَّقِّ، ومنه: الحارِصةُ، وهي شجَّةٌ تشُقُّ الجلدَ قليلًا كما يخرقُ القَصَّارُ الثَّوبَ عندَ الدَّقِّ.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ أي: وأحرَصَ منَ المُشركينَ والمجوسِ؛ أي: أحرَصَ من سائرِ النّاسِ وأحرَصَ منَ المُشركينَ، فعُطِفَ المعنى على اللَّفظِ، ومثلُه: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ أي: هل رأيتَ كالذي حاجَّ إبراهيمَ، أو كالذي مَرَّ على قريةٍ.

وقيلَ: ليس يُريدُ: أحرصَ منَ النَّاسِ، بل يُريدُ: لتَجِدَنَّهم أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ ومنَ المُشركينَ، والذينَ أشركوا دخَلُوا في جملةِ النَّاسِ، ولكِنْ أُفرِدُوا بالذِّكرِ لشِدّةِ حرصِهم على الحياةِ، وهو كقولِك: هو أسخَى النّاسِ ومن حاتمٍ، فتُفرِدُه بالذِّكرِ لشُهرتِه بالسَّخاءِ، فلذلك المجوسُ أحرَصُ النّاسِ على الحياةِ؛ إذ يقولُ بعضُهم لبعضٍ: عِشْ ألفَ سنةٍ[1].

وفرقٌ بين أن تقولَ: «أحرصَ منَ النّاسِ»، وبينَ أن تقولَ: «أحرَصَ النّاسِ»؛ فإنَّ قولَكَ: «أحرَصَ النّاسِ» يقتَضي تفضيلَه في الحِرْصِ على النّاسِ، الحِراصِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٦٠٢) (تحقيق محمد عوامة)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٠١ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٧٨ و٢٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «زه هزار سال»، ومعناه كما ذكر الأزهري في «تهذيب اللغة» (٥/ ١٨٩): عش سالماً ألف سنة.

منهم وغيرِ الحِراصِ، وقولَك: «أحرصَ منَ النّاسِ» يقتَضي أن يكونَ النّاسُ كلُّهم حِراصًا، ثمَّ يزيدُ حرصُه على حرصِهم.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا صفةُ ﴿الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ ومنَ الذينَ أشرَكُوا الذين يوَدُّ أحدُهم.

وقيلَ: هو حالٌ؛ أي: ومنَ الذينَ أشركوا وادِّين؛ أي: جمعوا إلى الشِّركِ أن يوَدُّوا طولَ الحياةِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا وصفًا لليهودِ، وعابدُ الوثَنِ لا يُقِرُّ بالحشرِ والجنّةِ والنّارِ، فلا يرجو حياةً بعدَ الموتِ، فيُحِبُّ طولَ الحياةِ في الدُّنيا، والإشراكُ عبادةُ غيرِ الله، ثمَّ سُمِّيَ كلُّ كافرٍ بالله مُشركًا؛ لعظيمِ ذنبِه، كأنَّه يُساوي المُشركَ الذي يعبدُ غيرَ الله.

وفي الآيةِ قولٌ آخرُ: وهو أنَّ الكلامَ في اليهودِ انقطعَ عند قولِه: ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ﴾، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾؛ أي: ومنهم مَن يودُّ أحدُهم، فأُضمِرَ الموصولُ بـ«يودُّ»، والمقصودُ توبيخُ اليهودِ؛ أي: هؤلاء الذين لهم كتابٌ ضاهَؤوا المشركينَ في تمنِّي طولِ العمرِ مع اعترافِهم بالقيامةِ. **ولكنَّ القولَ الأوَّلَ أحسنُ**؛ لأنَّ حذفَ الموصولِ مع بقاءِ الصِّلةِ مُستَبعدٌ.

والمُشركونَ في هذه الآيةِ: عبدةُ الأوثانِ؛ فإنَّهم المُنكِرون للبعثِ.

وقيلَ: يدخلُ فيه المجوسُ أيضًا؛ لقولِهم: بيزدان وأَهرمَن[1].

---

(١) حيث قالوا: إن الله - تعالى - وإبليس أخوان، فالله - تعالى - خلق الناس والدواب والأنعام وكلَّ خيرٍ، ويعبرون عن الله بيزدان، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب وكل شر، ويعبرون عن إبليس بأهرمن. انظر: «جامع البيان» للإيجي (١/ ٥٦٣).

«يوَدُّ» من: وَدَّ يودُّ وُدًّا وَوَدًّا ووِدًّا، ووِدادًا ووَدادًا، ووِدادةً وَوَدادةً.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ﴾ يُقالُ: عمَّرَه الله[1]؛ أي: أطالَ عمرَه، وأصلُه منَ العمارةِ التي هي ضدُّ الخرابِ، والعمرُ اسمٌ للمُدَّةِ التي يُعمَّرُ فيها البدنُ بالحياةِ.

﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ سُمِّيَ الألفُ ألفًا لأنَّه تأليفُ العشراتِ والمئاتِ في عقدٍ، والألفُ مذكَّرٌ، وإنْ أُنِّثَ على الجمعِ فهو سائغٌ.

والسَّنةُ: مدَّةُ اثنَي عشرَ شهرًا، وخُصَّ الألفُ بالذِّكرِ لأنَّه نهايةُ ما كانت تدعو به المجوسُ لملوكِها.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: وما أحدُهم بمُزَحْزِحِه منَ العذابِ تعميرُه؛ كقولِك: ما عبدُ الله بضاربِه أبوه، أو: ما تعميرُه ألفَ سنةٍ بمُزحزِحِه.

قولُه: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ تكريرٌ لذكرِ التَّعميرِ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿هُوَ﴾ كنايةً عن الشَّأنِ؛ أي: وما الشَّأنُ بمُزَحزِحِه منَ العذابِ أن يُعمَّرَ.

﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾؛ أي: بمُبعِدِه، يُقالُ: زَحَّه وزَحْزَحَه فتَزَحْزَحَ، والمعنى: ما يُزَحْزِحُه تعميرُه.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتَّاءِ[2].

* * *

---

(١) بعدها في (أ): «ألف سنة».

(٢) قرأ بالتاء يعقوب من العشرة، والباقون بالياء. انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٩).

(٩٧) - ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قولُه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ ثمَّ أخبرَ عن شيءٍ آخرَ من جهلِ اليهودِ؛ وهو أنَّهم قالوا: إنَّ جبريلَ يُعادينا، وهو صاحبُكَ يا محمَّدُ، فلهذا لا نُؤمِنُ بك.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: سببُ نُزولِه أنَّهم قالوا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: أخبِرْنا مَن الذي يأتيكَ منَ الملائكةِ؟ فقالَ: جبريلُ، فقالوا: ذاك الذي ينزلُ بالحربِ، وهو عدوُّنا، ولو قلتَ: ميكائيلُ الذي ينزلُ بالقطرِ والرَّحمةِ تابَعْناكَ[1].

وقالَ عمرُ: كنتُ آتي أرضًا لي بأعلى المدينةِ ومـمَرِّي على اليهودِ، فكنتُ أسمعُ قراءتَهم التَّوراةَ، وأعجبُ من مُوافقةِ التَّوراةِ القرآنَ، فمرَّ بنا رسولُ الله ﷺ يومًا، فقالوا: هذا صاحبُكَ، فقُلتُ: أنشُدكُم بالله وما أُنزِلَ عليكم أتعلَمُونَ أنَّه رسولُ الله؟ فسكَتُوا، ثمَّ قالوا: نعم، ولكنَّ صاحبَه منَ الملائكةِ جبريلُ، وهو صاحبُ كلِّ عذابٍ، فلو كانَ بدلَه ميكائيلُ لآمنّا به، فقلتُ: فإنِّي أشهَدُ أنَّ مَن كانَ عدوًّا لهذا فهو عدوُّ الآخرِ، ومَن كانَ عدوًّا لهما كانَ عدوًّا لله، ثمَّ أتيتُ النَّبيَّ عليه السَّلامُ فقالَ: يا بنَ الخطّابِ، ألا أُقرِئُكَ آياتٍ أُنزِلَتْ عليَّ، فقرأ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فقلتُ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما جئتُ إلَّا لأُخبرَكَ بقولِ

---

(١) في (أ): «بايعناك». والحديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٠٢٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده حسن.

وقد نقل الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٨٣) إجماع أهل العلم بالتأويل جميعًا على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم، ثم اختلفوا - كما قال - في السبب الذي من أجله قالوا ذلك.

اليهودِ، فإذا اللَّطيفُ الخبيرُ قد سبقَني بالخبرِ، قالَ عمرُ: فلقد رأيتُني أشدَّ في دينِ الله منَ الحجرِ[١].

و﴿جَبْرَئيل﴾ اسمٌ أعجميٌّ، وكذلك ميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ، وأهلُ الحجازِ يقولونَ: ﴿جِبريل﴾ بكسرِ الجيمِ من غيرِ همزٍ، على وزنِ: قِنْديل وبِرْطيل، وعليه قراءةُ أهلِ المدينةِ والبصرةِ، ويقولون: ميكالَ.

وقال قومٌ: ﴿جَبْرئيل﴾ مثل: جَبْرَعيل، و﴿ميكائيل﴾؛ مثل: ميكاعيل، وهو قراءةُ أهلِ الكوفةِ، وهو على وزنِ عَنْدَليب.

وقالَ قومٌ: ﴿جَبْرِئِل﴾ مثل: جَبْرعِل، على وزنِ: جَحْمَرِشٍ.

وقرأ الحسنُ: ﴿جَبْرِيل﴾ بفتحِ الجيمِ من غيرِ همزٍ، **وليس له نظيرٌ في العربيّةِ**.

وبنو أسدٍ تقولُ: (جِبْرين) بالنُّونِ.

وقالَ قومٌ: (جَبْرايِل)، و(مِيْكايِل) فيزيدون ألفًا.

وقرأ بعضُهم: (جَبرئَلّ) بفتحِ الجيمِ وبالهمزِ وتركِ المدِّ وتشديدِ اللّامِ[٢].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨١)، من طريق الشعبي عن عمر رضي الله عنه به. قال السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٣٣): صحيح الإسناد، ولكن الشعبي لم يدرك عمر.

(٢) وهذه القراءات أربع منها في المشهورات: ﴿جَبْرَئِيل﴾ كسَلْسَبيل قراءَةُ حمزة والكسائي، و﴿جَبْرِيلَ﴾ بكَسرِ الراءِ وحذفِ الهمزةِ قراءَةُ ابن كثيرٍ، و﴿جَبْرَئِل﴾ كجَحْمَرِش قراءَة عاصمٍ برواية أبي بكر، و﴿جِبْرِيل﴾ كقِندِيْل قرأه الباقون.

انظر: «السبعة» (ص: ١٦٦)، و«التيسير» (ص: ٧٥)، و«النشر» (٢/ ٢١٩).

وباقيها في الشواذ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ١٥)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١/ ٩٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٨٣)، و«تفسير =

ثـمَّ قيـلَ: «جبـر» و«ميـكا» بمعنـى «عبد»، و«إيـل» هـو الله، وهو مثـلُ قولكَ: عبـدُ الرَّحمـنِ، وعبـدُ الله، وهذا فـي لغـةِ العِبرانيَّةِ.

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: مَن كانَ عدوًّا له فَلْيَخْنَقْ، أو فليمُتْ غيظًا؛ فإنَّ جبريلَ نزَّلَ القرآنَ على قلبِكَ، ولم يجرِ للقرآنِ ذِكرٌ ولكنَّه صحَّ ذلك لأنَّه كانَ المرادُ معلومًا.

وقيلَ: فإنَّ الله نزَّلَ جبريلَ على قلبِكَ يا محمَّدُ. **والأوَّلُ أحسَنُ**؛ لقولِه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حـالٌ للكتـابِ أو لجبريـلَ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: مـنَ الكتـبِ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو ردٌّ على اليهودِ؛ إذ قالوا: إنَّه ينزلُ بالعذابِ.

و﴿هُدًى﴾ يجوزُ أن يكونَ عامًّا؛ أي: هـو سبـبُ هـدايةِ الكلِّ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويحتملُ أن يكونَ الهدى خاصًّا للمُؤمنينَ أيضًا كالبُشرَى.

* * *

= القرطبي» (٢/ ٢٦٢)، و«البحر المحيط» (٢/ ٣٤٥)، و«روح المعاني» (٢/ ٣٣١). وفي الكلمة لغات أخر، أوصلها أبو حيان إلى ثلاثة عشر.

وفي ﴿ميكائيل﴾ ثلاث في المشهورات: ﴿ميكائل﴾ قراءة نافع وأبي جعفر، وقنبل بخلف عنه، و﴿ميكال﴾ أبو عمرو وحفص ويعقوب، و﴿ميكائيل﴾ باقي العشرة والوجه الثاني لقنبل. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٦ ـ ١٦٧)، و«التيسير» (ص: ٧٥)، و«النشر» (٢/ ٢١٩).

وانظر ما فيها من قراءات شاذة في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٥)، و«المحتسب» (١/ ٩٧)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٨٤)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٢٦٤)، و«البحر المحيط» (٢/ ٣٤٨)، و«روح المعاني» (٢/ ٣٣٧).

(٩٨) ـ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ العَدُوُّ «فَعُولٌ» منَ العداوةِ، بمعنى: «فاعل»؛ أي: مَن كانَ مُعاديًا، والعَداوةُ للشَّيءِ: طلَبُ الإضرارِ به.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يعني: محمَّدًا وعيسى.

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أفردَهما بالذِّكرِ بعد أن دخَلا في اسمِ الملائكةِ تشريفًا؛ كقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٢٩ والنساء: ١٢٦ و١٣١ و١٣٢ والنجم: ٣١]، ثمَّ قالَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨][1]؛ فإنَّ الله لم يقُلْ: «فإنَّه»؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُرادَ: فإنَّ جبريلَ عدوٌّ له، وأيضًا لو قالَ: «فإنَّه» كانَ سائغًا.

وقيلَ: الواوُ في ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ بمعنى «أو»؛ لأنَّ عدوَّ أحدِهم عدوُّ الكلِّ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لم يقُلْ: «فهم أعداءٌ له»، بل تولَّى تلك العداوةَ بنفسِه، وقالَ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ليُنبِّهَ على أنَّهم كافرونَ بهذه العداوةِ.

* * *

(١) كذا نقل المصنف عن الواحدي في «البسيط» (٣/ ١٧٨)، ولا يظهر الشاهد في هذا الاستدلال لأن الآتيين كل منهما في سورة، وقد استدل الواحدي أيضاً بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] وهي تفي بالمراد، وقد اكتفى بها القرطبي في «تفسيره» (٢/ ٢٦٢)، وهو ممن ينقل عن المؤلف وعن الواحدي.

(٩٩) - ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ قالَ ابنُ صُوريا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: ما جئتَنا بشيءٍ نعرفُه، وما نَرى بيِّنةً، فنزلَتْ هذه الآيةُ[١].

والبيِّنةُ: المُعجِزةُ، وأصلُها: إبانةُ أحدِ الشَّيئَينِ عن الآخرِ ليزولَ الالتباسُ.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾؛ أي: الخارجونَ عن أديانِهم، واليهودُ خرَجُوا عن شريعةِ موسى لـمَّا جحَدُوا أمرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

* * *

(١٠٠) - ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾؛ أي: أنَّهم كفروا بنقضِ العهدِ كما كفروا لـمَّا جحَدُوا الآياتِ، والواوُ للعطفِ، ودخلَ عليها ألفُ الاستفهامِ لأنَّ لها صدرَ الكلامِ، وهي الأصلُ في الاستفهامِ، وتقولُ: «وهل زيدٌ عاقلٌ؟» ولا يجوزُ: «وأَزَيدٌ عاقلٌ»؛ لأنَّ الألفَ أقوى في الاستفهامِ.

(كلما) ظرفٌ، والعاملُ فيه ﴿نَّبَذَهُۥ﴾، لا ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿عَـٰهَدُوا۟﴾ مُتمِّمٌ لـ(ما)، إما[٢] صلةً وإمَّا صفةً.

نزلَتْ في اليهودِ لـمَّا عاهدَ بعضُهم بعضًا وقالوا: لَئِنْ بُعِثَ محمَّدٌ لنُؤمِنَنَّ به، فلما بُعِثَ نقَضُوا العهدَ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٣).

(٢) في (ف): «ما»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في «البسيط» للواحدي (٣/ ١٨١).

وقيلَ: عنى العهودَ التي كانت بينَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ وبينَ قُريظةَ والنَّضيرِ؛ إذ نقَضُوها يومَ الخندقِ[١].

وقيلَ: سألوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ عن أشياءَ مِرارًا، وكانوا يقولونَ كلَّ مرةٍ: لَئِنْ أجبتَ لَنُؤمِنَنَّ لك، فيُجيبُهم ويُبيِّنُ لهم محلَّ الإشكالِ، وكانوا ينقُضونَ العهدَ ولا يُؤمنُونَ[٢].

﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: طرَحَه واستخَفَّ به، ومنه: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]، ومنه: جلَسَ نَبْذةً ونُبْذةً، ومنه: الصَّبيُّ المنبوذُ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فمنهم مَن كفرَ بنقضِ العهدِ، ومنهم مَن كفرَ بجَحْدِ الحقِّ.

وقيلَ: يعني: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لأنَّه ليس ذلك مقصورًا على فريقٍ، بل أكثرُهم ينقُضونَ العهدَ ويترُكونَ الميثاقَ الأوَّلَ وقتَ الذَّرِّ، والميثاقَ الذي أُخِذَ عليهم وقتَ خُروجِ موسى، ووقتَ رفعِ الطُّورِ فوقَهم، وإنَّما قالَ: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّه أسلمَ منهم شِرذِمةٌ، كعبدِ الله بنِ سلامٍ وأصحابِه[٣].

* * *

(١٠١) ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جاءَهم محمَّد وهو ﴿مُصَدِّقٌ

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٣/ ٤٦٩)، و«البسيط» (٣/ ١٨١)، عن عطاء. وذكرا الذي قبله دون نسبة.

(٢) لم أجده.

(٣) بعدها في (أ): «والله أعلم».

﴿لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أي: أوتوا علمَ الكتابِ، وعنَى المُعانِدين، ولهذا قالَ في آخرِ هذه الآيةِ: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقيلَ: كرَّرَ فقالَ: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ للبيانِ والتَّأكيدِ.

﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ أي: القُرآنَ. وقيل: التَّوراةَ. أي: لم يعمَلُوا به.

قال سُفيانُ بنُ عُيينةَ: أدرَجُوه في الحريرِ والدِّيباجِ، وحلَّوه بالذَّهبِ والفِضَّةِ، ولم يُحِلُّوا حلالَه ولم يُحرِّمُوا حرامَه، فهذا نبذُهم الكتابَ[١].

﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أمرَ محمَّدٍ في كتابِهم، وقيلَ: كأنَّهم جُهَّالٌ ليسوا من أهلِ الكتابِ.

❊ ❊ ❊

(١٠٢) - ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أخبرَ عن هذه الطَّائفةِ الذين نبذُوا الكتابَ بأنَّهم اتَّبعُوا السِّحرَ أيضًا.

قالَ السُّدِّيُّ: عارضَتِ اليهودُ محمَّدًا بالتَّوراةِ، فاتَّفقَتِ التَّوراةُ والقرآنُ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٧١)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ١٨٢).

فنبَـذوا التَّـوراةَ وأخَـذُوا بكتـابِ آصف وسـحرِ هـاروتَ ومـاروتَ(١).

وقالَ محمَّدُ بنُ إسحاقَ: لـمَّا ذكرَ رسولُ الله ﷺ سُليمانَ في المُرسَلين قالَ بعضُ أحبارِهم: يزعُمُ محمَّدٌ أنَّ ابنَ داودَ كانَ نبيًّا، واللهِ ما كانَ إلّا ساحرًا، فأنزلَ الله أنَّ سليمانَ ما كفرَ، ولكنَّ الشَّياطينَ ألقَتْ إلى بني آدمَ أنَّ ما فعلَه سليمانُ من ركوبِ الرِّيحِ واستِسْخارِ الطَّيرِ والشَّياطينِ كانَ سِحْرًا(٢).

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: كانَ الشَّياطينُ يستَرِقُونَ السَّمعَ منَ السَّماءِ فتجيءُ أحدَهُم بكلمةِ حقٍّ وتكذبُ معَها سبعينَ كذبةً، فتَشربُها قلوبُ النّاسِ، فأخذَ سليمانُ ما كانَ معَهم ودفنَه تحتَ الكرسيِّ، فلمَّا ماتَ دلَّـهم عليه شيطانٌ، وقالوا: هذا سحرٌ، فأنزَلَ الله عذرَ سليمانَ في هذه الآيةِ(٣).

وقال الكلبيُّ: كتبتِ الشَّياطينُ السِّحرَ والنِّيْرَنْجِيَّاتِ(٤) على لسانِ آصفَ، وفيه: هذا ما علَّمَ آصفُ بنُ بَرْخِيا سليمانَ، ودَفَنُوه تحتَ مُصلَّاه وقتَ تنحيتِه(٥)، فلمَّا ماتَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن إسحاق (١/ ٥٤٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣١٦)، وفيهما: «فأنزل اللهُ في ذلك من قولهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: باتِّباعهم السِّحرَ وعملِهم به ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾».

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٠٧ ـ تفسير)، والعجلي في «تاريخ الثقات» (ص: ٢٦٤)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٥٠) وصححه، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣١).

(٤) النيرنجات أو النيرنجيات: تشبيه وتلبيس كالسحر، وليس به. انظر: «تاج العروس» للزبيدي مادة: (ن ر ج).

(٥) في (ف): «محبته». والمثبت من (أ)، وهو الموافق لعبارة الواحدي في «أسباب النزول»: «حين نزع الله ملكه»، ولهذا قصة طويلة رواها النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أطلَعُوا بني آدمَ عليه حتَّى قال قومٌ: إنَّما كانَ ضبطُ سليمانَ ملكَه بالسِّحرِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، واشتغلَ النّاسُ في ذلك الوقتِ بالسِّحرِ، وأضافَ قومٌ منَ اليهودِ السِّحرَ إلى سليمانَ وإلى الملكَينِ، فبرَّأ الله بهذه الآيةِ سليمانَ عن ذلك(١).

﴿تَتۡلُواْ﴾؛ أي: تقرأُ وتتَّبعُ، وفيه إضمارٌ؛ أي: اتَّبعُوا ما كانت تتلُو.

وقيلَ: هو مستقبلٌ والمُرادُ به الماضي؛ أي: ما تلَتْ، كقولِه: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤] أي: حتَّى قالَ، وقولُه: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩١]؛ أي: فلِمَ قتلتُم؟ بدليلِ قولِه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: ٩١].

﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ أي: على عهدِ مُلكِ سليمانَ، أو: في زمنِ مُلكِ سليمانَ.

وقيلَ: أي: اتَّبعُوا ما تقوَّلَتْه الشَّياطينُ على مُلكِ سليمانَ.

وقيلَ: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «في»؛ أي: في مُلكِ سليمانَ.

وقيلَ: ما تلَتِ الشَّياطينُ في ذهابِ مُلكِ سليمانَ، و«في» بمعنى «على»، كقولِه: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: عليها، وإذا جازَ أن يكونَ «في» بمعنَى «على»، جازَ «على» بمعنَى «في» وقد كانَ السِّحرُ قبلَ سليمانَ، ولكنْ لـمَّا أضافُوه إلى سليمانَ، وزعمُوا أنَّه كان يتَعاطاه إمَّا طعنًا فيه، أو اقتداءً به في السِّحرِ، برَّأه الله من ذلك.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾؛ أي: لـم يكُنْ ساحرًا كافرًا يعملُ بالسِّحرِ، فإنَّ منَ السِّحرِ ما يكونُ كُفرًا، ولا يجوزُ العملُ به.

وقيلَ: أي: وما سترَ سليمانُ تلك الكتُبَ، ولكنَّ الشَّياطينَ دفنَتْها، والكَفْرُ: السَّترُ والتَّغطيةُ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ قُرِئَ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بالتَّشديدِ فينتصبُ الاسمُ بعدَه، وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[1] فيرتفعُ، والمعنى: ولكنِ الشَّياطينُ كفَرُوا باللهِ.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ أي: كتَبُوا للنّاسِ السِّحرَ وزيَّنُوه لـهم بأنْ أضافُوه إلى سليمانَ والملكَينِ، فهذا من فعلِ الشَّياطينِ.

ويجوزُ أن يكونَ هذا التَّعليمُ منَ اليهودِ الذين اتَّبعُوا ما تلَتِ الشَّياطينُ.

والسِّحرُ: التَّمويهُ بالحيَلِ والتَّخاييلِ، وسحرتُ الصَّبيَّ؛ أي: خدَعْتُه، وأصلُه: الخفاءُ، ومنه: السِّحْرُ، للغِذاءِ، والسُّحرُ للرِّئةِ، والسَّحَرُ باللَّيلِ.

ويُقالُ: ما سحَرَكَ عن كذا؟ أي: ما صرَفَكَ؟

ثمَّ؛ منَ السِّحرِ ما يكونُ بخِفّةِ اليدِ كالشَّعوذةِ، والشَّعْوَذِيُّ: البريدُ؛ لخِفَّةِ سيرِه.

ومنَ السِّحرِ ما يكونُ بالقولِ كالتَّضريبِ والسِّعايةِ بين النّاسِ بالنَّميمةِ حتَّى يَتوهَّمَ السّامعُ أنَّه حقٌّ.

ومنَ السِّحرِ ما يكونُ كفرًا من فاعلِه، مثلَ ما يدَّعونَ من تغييرِ صورِ النّاسِ، وإخراجِهم أنفُسَهم في هيئةِ بهيمةٍ، وقطعِ مسافةِ شهرٍ في ليلةٍ، والطَّيرانِ في الهواءِ، فكلُّ مَن فعَلَ هذا ليُوهِمَ النّاسَ أنَّه مُحِقٌّ فيه فذلك كفرٌ منه.

قالَ القفَّالُ: ومَن صدَّقَهم فهو كافرٌ، وهذا مذهبُ المُعتزلةِ في إنكارِ السِّحرِ والكراماتِ، وعندَ أهلِ الحقِّ يجوزُ أن يظهرَ على أيدي الأولياءِ ما يجوزُ أن يظهرَ على أيدي الأنبياءِ، ويجوزُ أن يظهرَ منَ السّاحرِ خرقُ العاداتِ.

والفرقُ بين هذه الأشياءِ وبين المُعجزاتِ يُستَقصَى في أصولِ الدِّياناتِ،

---

(١) بالتخفيف ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٧ ـ ١٦٨)، و«التيسير» (ص: ٧٥).

فالكفرُ مِنَ السِّحرِ أن يعتقِدَ السَّاحرُ القُدرةَ لنفسِه، وهو السِّحرُ الذي عدَّه رسولُ الله ﷺ مِنَ المُوبقاتِ؛ إذ قالَ: «اجتَنِبُوا السَّبعَ المُوبقاتِ: الشِّركَ بالله، والسِّحرَ، وقتلَ النَّفسِ التي حرَّمَ الله إلا بالحقِّ، وأكلَ الرِّبا، وأكلَ مالِ اليتيمِ، والتَّولِّيَ يومَ الزَّحفِ، والزِّنا»[(١)].

وأيضًا إذا تعاطى بالسِّحرِ شيئًا لا يحِلُّ وهو مستحِلٌّ له فهو أيضًا كفرٌ، وأمَّا ما يتعلَّقُ بخِفَّةِ اليدِ فقد قالَ قومٌ: إنَّه معصيةٌ، وقالَ قومٌ: مكروهٌ، ويظهرُ أن يُقالَ: مُباحٌ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ قيلَ: (ما) للنَّفيِ؛ أي: لم ينزلْ عليهما سحرٌ، وعلى هذا فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ولكنَّ الشَّياطينَ كفروا، يُعلِّمونَ النَّاسَ السِّحرَ ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما أنزلَ الله على الملكَينِ من سحرٍ، ولا كفرَ سليمانُ، وعنَى بالملَكَين جبريلَ وميكائيلَ؛ فإنَّ اليهودَ قالُوا: أنزلَ الله السِّحرَ على لسانِ جبريلَ وميكائيلَ على سليمانَ، وهذا قولُ مَن لا يقدحُ منهم في سليمانَ واعترفَ بنبوَّتِه، و(هارُوتُ وماروتُ) على هذا اسمُ رجلَينِ كانا يُعلِّمانِ النَّاسَ السِّحرَ، هذا قولُ ابنِ جريرٍ[(٢)]، وعلى هذا لا بدَّ من إضمارٍ؛ أي: وهاروتُ وماروتُ ما يُعلِّمانِ من أحدٍ السِّحرَ حتَّى يقولا كذا.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيهما بدل «والزنا»: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٣١). و﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾، ذكر هذا القرطبي ثم قال: هذا أَوْلى ما حُملت عليه الآيةُ مِن التأويل، وأصحُّ ما قيل فيها ولا يُلتفتُ إلى سواه، فالسحرُ مِن استخراج الشياطين لِلَطافة جوهرهم، ودِقَّة أفهامهم. انظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

وهذا القولُ بعيدٌ؛ لأنَّه لـم يقُلْ أحدٌ: إنَّ السِّحرَ أُنزِلَ على الملكَين حتَّى يُبنَى عليه فيُقالَ: ما أُنزِلَ عليهما سحرٌ، فإنْ ثبتَ أنَّ اليهودَ ادَّعَتْ هذا فحينَئذٍ يستقيمُ ما ذكرَه ابنُ جريرٍ.

وقالَ المُعظَمُ: (ما) بمعنى (الذي) ومحلُّه النَّصبُ؛ أي: يُعلِّمونَ النّاسَ السِّحرَ ويُعلِّمونَهم ما أُنزِلَ على الملكَينِ ببابلَ.

وقيلَ: واتَّبَعوا ما تتلو الشَّياطينُ، وما أُنزِلَ على الملَكَينِ؛ أي: عُلِّما وأُلـهِما من علمِ التَّفرقةِ.

وقيلَ: واتَّبعوا ما تقوَّلَتِ الشَّياطينُ على ملكِ سليمانَ، وعلى ما[1] أُنزِلَ على الملكَينِ؛ فإنَّه لـم يأمُرْ سليمانُ ولا الملَكانِ بالسِّحرِ.

ثمَّ قيلَ: الذي أُلـهِمَ الملكانِ رُقْيَةٌ وليس بسحرٍ، وقد وردتِ الرُّخصةُ في الرُّقيةِ، وفي الخبرِ: «لا بأسَ بالرُّقى ما لـم يكُنْ شركٌ»[2].

وقيلَ: الذي أُنزِلَ على الملَكَين الاسمُ الذي صعدَتْ به الزُّهَرةُ، فعلِمَتْه الشَّياطينُ، فهي تُعلِّمُه أولياءَها، فالسّاحرُ يتكلَّمُ به فيطيرُ بين السَّماءِ والأرضِ ويمشي على الماءِ، ذكرَه القُتَيبِيُّ[3].

ومَن أنكرَ السِّحرَ قال: الذي أُنزِلَ على الملكَين هو كيفيَّةُ الوجوهِ التي يُتوَصَّلُ بها إلى الاحتيالِ على الجُهَّالِ ليُعرِّفا[4] النّاسَ أنَّه لا حقيقةَ للسِّحرِ بل هو تـمويهٌ،

---

(١) في (أ): «سليمان وما».

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، وعنده: «ما لم يكن فيه شرك».

(٣) انظر: «تأويل مختلف الحديث» (ص: ١٨٤).

(٤) في (أ): «ليعرف».

وهؤلاءِ يقولونَ: إنَّما أنزلَ الله الملَكَين في وقتٍ شاعَ السِّحرُ فيه ليُبيِّنا[(١)] للنّاسِ أنَّه لا حقيقةَ للسِّحرِ.

وما يذكرُه النَّاسُ من أنَّ الملَكَين ارتكَبا الفاحشةَ مـمَّا لا يجوزُ عندَ هؤلاءِ، وإلى هذا ميلُ القفَّالِ كما تقدَّمَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: أمَّا السِّحرُ فممَّا عُلِّمَتِ الشَّياطينُ، وأمَّا الفُرقةُ بين المرءِ وزوجِه فممّا عُلِّمَ الملَكانِ[(٢)].

وقيلَ: عُلِّمَ الملَكانِ السِّحرَ، وللسِّحرِ حقيقةٌ، وفي الخبرِ: «السِّحرُ حقٌّ»[(٣)]؛ أي: كائنٌ، فكأنَّ الشَّياطينَ يُعلِّمونَ النّاسَ السِّحرَ، والذي أُنزِلَ على الملَكَينِ وقُذِفَ في قُلوبِهما من علمِ التَّفرقةِ، وعلى هذا مُعظَمُ المُفسِّرينَ، ثمَّ هؤلاءِ ذكروا وجهَين:

أحدُهما: أنَّ الملَكَين كانا لا يتعمَّدانِ تعليمَ السِّحرِ، بل كانا يصِفانِه ويُطنِبانِ في بُطلانِه، وهو كما لو سُئِلَ إنسانٌ عن الزِّنا فيُبيِّنُه ويُبيِّنُ أنَّه حرامٌ، فالتَّعليمُ في قولِه: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ بمعنى الإعلامِ، وقد يُقالُ: «علَّمَ» بمعنى «أعلَمَ»، و«تعلَّمَ» بمعنى «علِمَ»، والإعلامُ بكيفيَّةِ السِّحرِ لا يكونُ معصيةً مع التَّحذيرِ منَ الوقوعِ فيه، وكذلك تعلُّمُ السِّحرِ لتُفرِّقَ بين المُعجزاتِ وبين المخاريقِ ولتعرِفَه لتجتَنِبَه؛ لا يكونُ معصيةً.

والوجـهُ الثّانـي: أنَّ الله امتحَـنَ النّـاسَ بالملَكَيـن فـي ذلـك الوقـتِ، ولله أن يمتحِـنَ عبـادَه بمـا شـاءَ، كما امتحَـنَ بنهرِ طالـوتَ، ولهذا يقـولُ الملَـكَانِ: ﴿إِنَّمَا

---

(١) في (أ): «ليبين».

(٢) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٠١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٨) بلفظ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ قال: التفريق بين المرء وزوجه.

(٣) لم أجده.

﴿نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: محنةٌ منَ الله نُخبِرُك أنَّ عملَ السِّحرِ كفرٌ، فإنْ أطعتَنا نجوتَ، وإنْ عصَيتَنا هلكتَ.

ثمَّ كيفيَّةُ تعليمِ الملَكَين: أن يُعلِّما هذا الطَّالبَ شيئًا من الأسماءِ والأذكارِ أو الحركاتِ إذا فعلَه أفادَ التَّفريقَ بينَ المرءِ وزوجِه وغيرَ ذلك، فيكونُ خلقُ تلك الآثارِ من فعلِ الله، ولكن عقيبَ تلك الأذكارِ أو الحركاتِ منَ السَّاحرِ.

وقُرِئَ: (على الملِكَيْن) بكسرِ اللّامِ[1]، وكانا ملِكَين جمعَ الله لهما الإسلامَ والمُلكَ، فعَصَيا وتعلَّما السِّحرَ وعلَّماه النّاسَ فعاقَبَهما الله.

قالَ الحسنُ: كانا عِلْجَينِ ببابلَ[2].

وقُرِئَ: ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بفتحِ اللَّامِ[3]، فعلى هذا قيلَ: هما ملَكانِ أنزَلَهما الله في زمانِ غلبةِ السِّحرِ ليُحذِّرَ النَّاسَ العملَ بالسِّحرِ.

وقيلَ: ملَكانِ أُنزِلا ليحكُما بينَ النَّاسِ، ففُتِنا بزُهرةَ، وكانت تُشبِهُ زُهرةَ السَّماءِ لحُسنِها.

وقيلَ: أُنزِلَتْ إليهما منَ السَّماءِ في صورةِ امرأةٍ من أهلِ فارسَ، ثمَّ صعدَتْ إلى السَّماءِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦) عن الحسن بن علي وابن عباس رضي الله عنهم، و«المحتسب» (١/ ١٠٠) عن الحسن وابن عباس والضحاك بن مزاحم وعبد الرحمن بن أَبزى.

(٢) ذكره عن الحسن الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٨١)، والسمعاني في «تفسيره» (١/ ١١٦)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٩) عن ثابت قال: كان الضحاكُ يقرؤها: (المَلِكَيْن) قال: هما علجان مِن أهل بابلَ.

(٣) وهي القراءة المتواترة التي اتفق عليها العشرة.

وقيلَ: كانت من بناتِ آدمَ فتعلَّمَتْ منهما اسمَ الله الأعظمَ، فصعِدَتْ إلى السَّماءِ بذلك الاسمِ، فمُسِخَتْ نجمًا، وكانَ ابنُ عمرَ إذا رآها يقولُ: لا مرحبًا بها ولا أهلًا، إنَّما فتَنَتْ ملَكَينِ[(١)]، وهذا قولُ عليٍّ أيضًا[(٢)].

وقالَ ابنُ عبّاسٍ وابنُ مسعودٍ: لـمَّا كثُرَ الفسادُ من أولادِ آدمَ عيَّرتهم الملائكةُ، فقالَ الله: أما إنَّكم لو كنتُم مكانَهم لعملتُم مثلَ أعمالِـهم، فقالوا: سُبحانَك ما كانَ ينبَغي لنا ذلك، قال: فاختاروا ملَكَين من خيارِكم، فاختارُوا هاروتَ وماروتَ، فأنزلَـهما الله إلى الأرضِ وركَّبَ فيهما الشَّهوةَ، فما مرَّ بهما شهرٌ حتَّى فُتِنا بامرأةٍ اختصَمَتْ إليهما، وراوَداها عن نفسِها فأَبَتْ إلّا أن يدخُلا في دينِها، ويشرَبا الخمرَ، ويقتُلا النَّفسَ التي حرَّمَ الله، فأجاباها وشرِبا الخمرَ وألَمَّا بها، ورآهما رجلٌ فقتَلاه، وكشفَ الله للملائكةِ عن أحوالِـهما حتَّى نظرُوا إليهما وهما على تلك الحالةِ، ففزِعُوا، ومن ذلك الوقتِ ليس لهم شأنٌ إلّا وهم يستغفِرون لمَن في الأرضِ.

ولمَّا عَلِمَ الملَكانِ أنَّهما افتُتِنا جاءا إلى سليمانَ في روايةٍ، إلى إدريسَ في

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٠٦) عن مجاهد قَالَ: كنت مَعَ ابْن عمر فِي سفر فَقَالَ لي: ارمق الْكَوْكَب فَإِذا طلعت أيقظني فَلَمَّا طلعت أيقظته فَاسْتَوَى جَالِسا فَجعل ينظر إِلَيْهَا ويسبها سباً شَدِيدًا فَقلت: يَرْحَمك الله أَبَا عبد الرَّحْمَن نجم سَاطِع مُطِيع مَاله تسبه؟ فَقَالَ: أما أَن هَذِه كَانَت بغيًّا فِي بني إِسْرَائِيل فلقي الْملكَانِ مِنْهَا مَا لقيا. وهكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٨٩). وانظر التعليق الآتي.

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤٨٨)، وابن مردويه كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، من طريق جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي قال: كان النبي ﷺ إذا رأى سُهيلًا قال: «لعن الله سُهيلًا إنَّه كان عشَّارًا باليمن، ولعن الله الزهرة فإنَّها فتنت ملكين» لفظ الثعلبي، وليس في رواية ابن السني وابن مردويه ذكر سهيل. وعلى أي حال فقد قال ابن كثير: لا يصح، وهو منكر جدًّا.

روايةٍ، إلى بعضِ العلماءِ في روايةٍ، وقالا: رأينا لكَ ثَمَّ جاهًا فتشفَّعْ لنا، فخيَّرهما الله بين عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، فاختارا عذابَ الدُّنيا فعُذِّبا[1].

---

(١) هذا السياق مجموع من أخبار رويت في هذه القصة، فمنها:

ما رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٤١) من طريق قتادة عن أبي شعبة العدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وما رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢١)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٤٢) من طريق علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

وما رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٠٥ ـ تفسير) من طريق خصيف عن مجاهد عن رجل عن أبيه.

وما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٨٩) (١٠٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٥٥)، من طريق الرَّبيع بن أنسٍ عن قيس بن عبَّاد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وهذا رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٤٥) عن الربيع قوله.

وما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٠) (١٠٠٧) من طريق مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً. وروي عنه مرفوعاً، رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٨٦) وقال: لا يصح.

وكل هذه موقوفات أو مرسلات، ومع ذلك فلا يخلو كل منها من مقال:

فالأول قال الشيخ أحمد شاكر: أبو شعبة العدوي هذا الذي يروي هنا عن ابن عباس: لم أعرف من هو؟ ولا وجدت له ذكراً في شيء من المراجع. والراجح عندي أن اسمه محرف عن شيء لا أعرفه.

والثاني سنده ضعيف لضعف علي بن زيد.

والثالث سنده ضعيف لضعف خصيف من قبل حفظه، وجهالة الرجل من قريش الذي حدثهم بالحديث.

والرابع قال عنه ابن كثير: «هذا أقرب ما روي في شأن الزهرة». ولعله معلول بمرسل الربيع.

أما خبر ابن عمر فقد ورد ما يثبت أنه أخذه من كعب الأحبار، وهو ما رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢١٤)، وابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (٣٦٥٧)، =

قيلَ: عُلِّقا بشُعورِهما في جُبٍّ منَ النّارِ إلى يومِ القيامةِ.

ومثلُ هذا لا يُنكِرُه العقلُ؛ إذ في قدرةِ الله كلُّ موهومٍ، فأمَّا وقوعُ هذا الجائزِ فلا يُدرَكُ إلا بالسَّمعِ، وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] محمولٌ على الأغلبِ، أو على المُرسَلين منهم.

وقيلَ: تفسيرُ الصَّحابيِّ سنَّةٌ؛ أي: إذا نقلَ شيئًا من هذه الأشياءِ، فلا يُظَنُّ بهم التَّقوُّلُ، بل علِموه بتوقيفٍ، فإذا نُقِلَتْ هذه الأشياءُ منَ الصَّحابةِ وجوَّزَها العقلُ فليس إلّا القبولُ(١).

﴿بِبَابِلَ﴾ هي اسمُ أرضٍ.

قيلَ: سُمِّيت به لأنَّ الله لمَّا أرادَ أن يُخالفَ بين ألسنةِ بني آدمَ بعثَ ريحًا فحشرَتْهم منَ الآفاقِ إلى بابلَ، فبَلْبَلَ الله بها ألسنتَهم، ثمَّ فرَّقَتْهم تلك الرِّيحُ في البلادِ، والبلبلةُ: التَّفريقُ.

= وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢٤)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٠) (١٠٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٨)، من طريق سالم عن ابن عمر عن كعب قال: لمَّا رأتِ الملائكةُ بني آدمَ وما يُذنبونَ، قالوا: يا ربّ يُذنبونَ؟ قال: لو كنتُم مثلهم فعلتُم كما يفعلونَ، فاختاروا منكم ملَكينِ، قال: فاختاروا هاروتَ وماروتَ، فقال لهما تبارك وتعالى: إن بَيْني وبَيْن النَّاس رسولًا، فليس بيني وبينكم أحدٌ، لا تُشْرِكا بي شيئًا ولا تسرِقا ولا تزنيا، قال: عبد الله: قال كعبٌ: فما استكمَلا ذلك اليوم حتى وقعا فيما حُرِّم عليهما.

فهذا ـ والله أعلم ـ يدل على أن القصة كلها مأخوذة من الإسرائيليات، وقد أبطل الإمام ابن حزم ما جاء في هذه القصة، وردَّ على مَن ادعى شربَ هاروت وماروت الخمر وارتكابهما الزنا والقتل في كتابه «الفصل» (٣/ ١٤٥)، و(٤/ ٢٥).

(١) هذا إذا لم يثبت النقل عن أهل الكتاب، وقد ثبت ذلك في القصة السابقة من خبر سالم عن ابن عمر.

ثمَّ قيلَ: إنَّها بابلُ دنباوند[1].

وقيلَ: بابلُ العراقِ.

وقُرِئَ: (ببابلِ هاروتَ) بالكسرِ على الإضافةِ.

وقُرِئَ ﴿بِبَابِلَ﴾ بالفتحِ[2]، كقولك: «ما جاءَني من أحدٍ»؛ أي: على الملَكين هاروتَ وماروتَ المُختصَّينِ ببابلَ.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زيادةٌ[3]، كقولكَ: «ما جاءني من أحد»، والواحِدُ والأحَدُ والوَحَدُ بمعنًى.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ لم يقُلْ: فتنتانِ؛ لأنَّه مصدرٌ، فلا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، والفتنةُ منَ الاختبارِ، من فتَنْتُ الذَّهبَ والفِضّةَ؛ أي: أدخلتُهما النّارَ لأعرِفَ جَودتَهما، وفتنَتِ الشَّمسُ الحجرَ؛ أي: سوَّدَتْه، ومنه: الفَتينُ، للحجارةِ السُّودِ التي كأنَّها أُحرِقَتْ بالنّارِ؛ أي: نحنُ فتنةٌ لكم وامتحانٌ.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: يقولانَ: إنَّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُرْ، فيأبَونَ فيتعلَّمونَ منهما.

ثـمَّ؛ قيـلَ: ﴿مِنْهُمَا﴾؛ أي: مـنَ الملَكَيـنِ، وقيلَ: مـنَ الكفرِ والسِّـحرِ، ولفظُ «أحَـد» قـد يقـعُ علـى الجمعِ كما يقـعُ علـى الواحـدِ والاثنَيـنِ، تقولُ: «مـا مررتُ بأحـدٍ يتكلَّمونَ».

---

(١) في (أ): «نهاوند». ودنباوند ودباوند ـ وفي لغة: دماوند ـ: جبل قرب الري وكورة. انظر: «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ٤٦٢).

(٢) هي قراءة الجمهور.

(٣) في (أ): «زائدة».

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾؛ أي: النُّشَرَ والرُّقَى التي يحصُلُ بها التَّفريقُ، أو يتعلَّمونَ التَّمويهَ والاحتيالَ المُفرِّقَ بينَ الزَّوجَينِ، وسَقْيَ الأدويةِ التي تُفتِّرُ الشَّهوةَ حتَّى تصيرَ سببًا للتفرُّقِ، أو يتعلَّمونَ الارتدادَ والكفرَ؛ فإنَّه سببُ الفرقةِ.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ﴾ ﴿هُم﴾ إشارةٌ إلى السَّحرةِ، وقيلَ: إلى اليهودِ المُتعلِّمينَ للسِّحرِ.

وقيلَ: إلى الشَّياطينِ.

﴿بِهِۦ﴾؛ أي: بالسِّحرِ، أو بالتَّفريقِ ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: أحدًا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بإرادتِه وقَضائِه، وقيلَ: بعلمِه.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ أي: ما يضرُّهم في الآخرةِ، وإن أخَذُوا به نفعًا قليلًا منَ الدُّنيا.

وقيلَ: يضرُّهم في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ ضررَ السِّحرِ والتَّفريقِ يعودُ على السّاحرِ في الدُّنيا؛ لأنَّه يُؤدَّبُ ويُزجَرُ عن السِّحرِ ويلحقُه الشُّؤمُ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾؛ أي: اليهودُ والشَّياطينُ وكلُّ مَن عملَ بالسِّحرِ، واللَّامُ لامُ القَسَمِ.

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ اللَّامُ للتَّأكيدِ؛ أي: لَمَن اختارَ السِّحرَ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾؛ أي: من نصيبٍ وافرٍ منَ الخيرِ.

قولُه: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: بئسَ الشَّيءُ باعوا به حظَّ أنفُسِهم، أو بئسَ شيئًا باعوا به حظَّ أنفُسِهم.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ وقد قالَ في الآيةِ الأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ ووجهُ

الجمعِ: أَنَّهم علِمُوا أنَّ مَـن عملَ بالسِّحرِ لا خلاقَ له في الآخرةِ، ثمَّ أقدَمُوا على السِّحرِ، فوصفَهم بأَنَّهم لا يعلمون؛ أي: لـم ينتَفِعُوا بعلمِهم كما قالَ: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة: ١٨]؛ أي: لـم ينتَفِعُوا بأسماعِهم وأبصارِهم وألسنتِهم.

وقيلَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾ أرادَ الشَّياطينَ والذين يُعلِّمونَ النّاسَ السِّحرَ. وقولُه: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أرادَ المُتعلِّمينَ، فالمُعلِّمونَ ارتكَبُوا الخطيئةَ عالمينَ، والمُتعلِّمون أَتَوا ما أَتَوه جاهلينَ.

وقيلَ: ولقد علِمُوا بما وجدوه في التَّوراةِ أنَّ الاشتغالَ بالسِّحرِ لا يجوزُ، فاشتغَلُوا به طمَعًا في شيءٍ نَزْرٍ منَ الدُّنيا، ولَبئسَ ما رضُوا به عِوَضًا من أنفُسِهم في الآخرةِ لو كانوا يعلمون أنَّ ما قدَّروه من نعيمِ الدُّنيا لا يتمُّ لهم، بل يفنَى سريعًا.

وقيلَ: أشارَ إلى فريقَينِ منَ اليهودِ: فريقٍ علِموا أنَّ السِّحرَ مُجتَنَبٌ ولكنْ عانَدُوا، وفريقٍ هم المُقلِّدةُ لـم يعلَمُوا أنَّهم يبيعونَ أنفُسَهم بالكفرِ والسِّحرِ، فلا نصيبَ لهم في الآخرةِ.

وقيلَ: ولقد علِمُوا أنَّ مَن اشتغَلَ بالسِّحرِ لا نصيبَ له من ثوابِ الآخرةِ، وبئسَ ما فعَلُوا لو كانوا يعلمونَ ما ينالُـهم منَ العقابِ.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ وما أُنزِلَ عليه ﴿وَاتَّقَوْا ﴾ الكفرَ والسِّحرَ ﴿لَمَثُوبَةٌ ﴾: اللّامُ جوابُ «لو»؛ أي: لأُثيبوا، وهذا عند البصريِّينَ، ولا يجوزُ: «لو أتاني زيدٌ لعَمْرٌو خيرٌ منه»؛ لأنَّه ليس فيه معنى الفعلِ.

وقالَ بعضُ الكوفيِّين: شُبِّهت «لو» بـ«لَئِنْ» فأُجيبَتْ بجوابِها؛ أي: لَئِنْ آمنُوا لَمثوبةٌ خيرٌ لهم، وعلى هذا يجوزُ: «لو أتاني زيدٌ لعَمرٌو خيرٌ منه».

ويُقالُ: أثابَه إِثابةً ومَثابةً ومَثوبةً ومَثْوَبَةً بفتحِ الواوِ كالمَشْوْرَةِ والمَشْوَرَة، والاسمُ: الثَّوابُ، وهو ما رجعَ إليك من عائدةٍ، وهو الجزاءُ.

ومنه: التَّثويبُ في الأذانِ لترجيعِ الصَّوتِ.

ومنه: الثَّوبُ؛ لأنَّه ثابَ لباسًا بعدَ أن كانَ غَزْلًا وقُطنًا.

والمَثوبةُ خيرٌ علِموا أو لـم يعلَمُوا، فمعنى قولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾: ولكنَّهم لا يعلمونَ أنَّ المثوبةَ خيرٌ لهم.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ هذا ذكرُ شيءٍ آخرَ من جَهالاتِ اليهودِ، والمقصودُ نهيُ المسلمينَ عن مثلِ ذلك.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: كانَ المسلمون يقولونَ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: «راعِنا سمعَكَ»، وكانَ هذا بلسانِ اليهودِ سبًّا قبيحًا، فاغتَنَمُوا.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: كانَ المسلمون يقولونَ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: «راعِنا سمعَكَ»، وكانَ هذا بلسانِ اليهودِ سبًّا قبيحًا، فاغتَنَمُوا هذه اللَّفظةَ، فكانوا يُخاطِبونَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بها ويضحكونَ فيما بينَهم، فسمِعَها سعدُ بنُ معاذٍ وكان يعرفُ لغتَهم، فقال لليهودِ: عليكم لعنةُ الله، لَئِنْ سمعتُها من رجلٍ منكم يقولُـها للنَّبيِّ عليه السَّلامُ

لأضرِبَنَّ عنُقَه، فقالوا: أوَلَسْتُم تقولونَها؟ فنزلَتْ هذه الآيةُ، ونُهوا عنها[١].

وقيلَ: كان رجلٌ منَ اليهودِ يُقالُ له: رفاعةُ بنُ زيدٍ يحضرُ النَّبيَّ عليه السَّلامُ، فيقولُ: راعِني سمعَكَ واسمَعْ غيرَ مُسمَعٍ، فظنَّ المسلمونَ أنَّه كلمةُ تعظيمٍ، كقولك: اسمَعْ غيرَ صاغرٍ، وتفضَّلْ غيرَ مأمورٍ، فكان المسلمون يقولون بها أيضاً، فنُهوا عن ذلك في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ...﴾ الآية[٢].

والجملةُ: أنَّ المسلمين كانوا يقولون: «راعِنا» منَ المُراعاةِ التي هي المُكافأةُ، أو من «أَرْعِني[٣] سمعَكَ»؛ أي: اجعَلْ سمعَكَ راعياً لِـما أقولُه، واحفَظْ عليَّ ما أقولُ منَ الرِّعايةِ.

واليهودُ حمَلُوا «راعِنا» على معنى الرُّعونةِ، كما تقول: سُحْقاً وبُعْداً؛ أي: خيبةً لك وقُبحاً.

والرُّعونةُ: لزومُ فُضولِ الكلامِ، يُقالُ: رجلٌ أرعَنُ، وامرأةٌ رَعْناءُ، وعَيشٌ أرعَنُ، إذا كانَ له فضولٌ من نواحيه، ومنه: الرَّعْنُ، لأنفِ الجبلِ، فاستعمَلُوا «فاعلاً» من «رَعنَ»[٤]، لا «فاعِلْنَا» من المُراعاةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٥١٠) دون نسبة، والواحدي في «الوسيط» (١/ ١٨٦) من طريق الكلبي عن ابن عباس. ورواه أبو نعيم في «الدلائل» من رواية محمد بن مروان السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والسدي هذا الصغير متروك، وكذا شيخه. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٧٧)، وابن المنذر في «تفسيره» (٢/ ٧٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ١٩٨)، عن السدي.

(٣) في (أ): «راعني»، وهما سواء بمعنى: استمع لمقالي، كما في «بصائر ذوي التمييز» للفيروزأبادي (٣/ ٨٩).

(٤) مثلثة العين، كما في «القاموس» (مادة: رعن).

وقيلَ: ﴿رَٰعِنَا﴾ مِن أَرْعِنا سمعَك، أو مِنَ المُراعاةِ، وكانَ هذا خطاباً يجري بين الأَكْفاءِ، فأُمِرُوا بتوقيرِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، كما قالَ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، وقالَ: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢].

وقولُه: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾؛ أي: أمهِلْنا وانتظِرْنا حتَّى نستوفيَ كلامَنا، وهذا النَّهيُ اختصَّ بذلك الوقتِ لإجماعِ الأمَّةِ على جوازِ المُخاطَبةِ الآنَ بهذه اللَّفظةِ، فتقولُ: راعِني وراعِ كلامي.

وقيلَ: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾؛ أي: انظُرْ إلينا، فحُذِفَ الصِّفةُ[1].

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾؛ أي: أطيعُوا واترُكوا هذه الكلمةَ.

وقيلَ: فرِّغوا أسماعَكم لِمَا يذكرُه النَّبيُّ عليه السَّلامُ؛ لئلَّا يلحقَه كدٌّ في إفهامِكم.

وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ: (لا تقولوا راعُونا)[2]، وكانوا يستقبِحُونَه في العِبرانيّةِ،

---

(١) قوله: «فحذف الصفة» كذا في النسختين، وفي «البسيط» للواحدي (٢/ ٢١٧): «فحذف حرف الصفة»، والمراد به حرف الجر حيث قال في «الوسيط» (١/ ١٨٧): «فحذف حرف الجر»، وفي «تفسير الثعلبي» (٣/ ٥١٣): «فحذف حرف التعدية»، وفي «تفسير أبي السعود» (١/ ١٤١): «بالحذف والإيصال». والمعنى في الكل واحد. وحروف الصفات: هي حروف الجر، وسميت بذلك لأنها تحدث في الاسم صفة حادثة، كقولك: «جلست في الدار» دلت على أن الدار وعاء للجلوس، وقيل: سميت بذلك، لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات، ويسميها الكوفيون أيضًا: حروف الإضافة، لأنها تضيف الاسم إلى الفعل؛ أي: توصله إليه وتربطه به. انظر: «همع الهوامع» (٢/ ٤١٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢/ ٣٧٧)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦). قال الفراء: وذلك أنها كلمة باليهودية شتم. وانظر التعليق الآتي.

والكلمةُ مثلُ «عاشوراء وتاسوعاء»، فـ(راعُونا) عندَهم منَ الرُّعونةِ، فكأنَّ المسلمينَ كانوا يقولون: (راعِنا) فغيَّر اليهودُ وقالوا: راعُونا، فنسبُوه إلى الرُّعونةِ[١].

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ ومنهم هؤلاءِ اليهودُ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قولُه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ثمَّ بيَّنَ مُعاداتِهم للمُسلمينَ، نزلَتْ في قولِـهم لمَّا دعاهم المسلمون إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ: ودِدْنا لو كان ذلك خيراً مـمَّا نحنُ عليه حتَّى نُؤمِنَ؛ أي: ما يودُّ اليهودُ والمشركون أن يكونَ لكم خيرٌ[٢].

﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ صلةٌ؛ أي: لا يحبُّونَ أن ينزلَ عليكم القرآنُ.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ الاختصاصُ: الانفرادُ بالشَّيءِ، يُقالُ: خصَّه واختَصَّه بمعنًى، ومنه: «الخَصاصُ» للفُرَجِ؛ لأنَّه انفردَ كلُّ بعضٍ عن الآخرِ، والخَصاصةُ: الفقرُ؛ لأنَّها خللٌ في الحالِ.

---

(١) يعني هي في المعنى مثل قراءة من قرأ: (راعناً) بالتنوين، وهو الحسن كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦)، فهم كانوا يظهرون أنهم يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير يظهرون بذلك إكباره وأنهم يطلبون المراعاة وهم يريدون في الباطن فاعولاً من الرعونة. انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١٨٩).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٢٩)، وعن مقاتل ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٨١)، وعزاه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤) للمفسرين.

﴿بِرَحۡمَتِهِۦ﴾؛ أي: بالنُّبوَّةِ، أو بالقرآنِ، والآيةُ متَّصلةٌ بما قبلَها؛ أي: إنَّ اليهودَ يُعادونكم ويترُكون توقيرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ فيقولون: «راعِناً»، أو مُتَّصلةٌ بما بعدَها؛ فإنَّهم يُنكرون نسخَ القبلةِ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (ذو): اسمٌ ناقصٌ، ومعناه الصَّاحبُ، ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ لأنَّ ذلك الفضلَ فوقَ استحقاقِ العبدِ، بل لا استحقاقَ لأحدٍ عليه.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ لمَّا حسَدُوا المسلمينَ في التَّوجُّه إلى الكعبةِ وطعَنُوا في الإسلامِ بذلك، وقالوا: إنَّ محمَّداً يأمرُ أصحابَه بشيءٍ ثمَّ ينهاهُم فما كانَ هذا القرآنُ إلا من جهتِه، ولهذا يُناقِضُ بعضُه بعضاً، فأنزَلَ الله ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النحل: ١٠١]، وأنزلَ ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾[1].

والنَّسخُ: إبطالُ الشَّيءِ وإقامةُ غيرِه مُقامَه، ومنه: نسختِ الشَّمسُ الظلَّ، ومنه: «تناسخُ الدُّهورِ» لمُضيِّ زمانٍ ومجيءِ زمانٍ، ويُقالُ: نسختُ الكتابَ؛ أي: كتبتُ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٥) دون راو ولا سند، ونسبه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤) للمفسرين، وقال ابن حجر في «العجاب» (١/ ٣٤٨): تبع فيه الثعلبي فإنه أورده هكذا، وتبعهما الزمخشري فلخصه، فذكر أنهم طعنوا في النسخ، وكذلك القرطبي وزاد أنهم أنكروا شأن القبلة وغيره المنسوخ. ووجدت في المنقول عن السلف ما أخرجه عبد بن حميد عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله ﷺ يقرأ الآية من السورة ثم ترفع فينسيها الله تعالى نبيه، فقال الله تعالى يقص على نبيه: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ الآية.

منه نُسخةً، فهو بمعنى التَّحويلِ، وقد يُطلَقُ النَّسخُ بمعنى إبطالِ الشَّيءِ إلى غيرِ بدلٍ، يُقالُ: نسختِ الرِّياحُ الآثارَ؛ أي: أزالَتْها.

وقرأ ابنُ عامرٍ: «ما نُنسِخ» بضمِّ النُّونِ وكسرِ السِّينِ منَ الإنساخِ[1]، **وهو بعيدٌ؛** لأنَّه لـم يرِدْ في اللُّغةِ «أنسَخَ» بمعنى: نسَخَ[2].

﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ من آياتِ القرآنِ، والآيةُ: الكلامُ المجموعُ، يُقالُ: خرَجَ القومُ بآيتِهم؛ أي: بجماعتِهم.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾؛ أي: نُذهِبْ ذكرَها عن قلوبِ المسلمين.

قال أبو أمامةَ: كانَ مع رجلٍ سورةٌ فقامَ يقرؤُها منَ اللَّيلِ فلم يقدِرْ عليها[3]، وقامَ آخرُ فلم يقدِرْ عليها، فأصبَحُوا فأتَوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ، فقالَ: يا رسولَ الله، قمتُ البارحةَ لأقرأَ سورةَ كذا فلم أقدِرْ عليها، وقال الآخرُ مثلَ ذلك، وقال ثالثٌ مثل ذلك، فقال عليه السَّلامُ: «إنَّها[4] نُسِخَتِ البارحةَ»[5]؛ أي: رُفِعَتْ منَ القلوبِ.

---

(١) وقرأ باقي السبعة: ﴿مَا نَنسَخْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٨)، و«التيسير» (ص: ٧٦). واستبعاد المصنف لها فيما يأتي مردود بأنها قراءة متواترة، فهي حجة أقوى من أي لغة.

(٢) كذا قال، واستبعاد المصنف لها مردود بأنها قراءة متواترة، فهي حجة على ورود ما نفاه في اللغة.

(٣) في (ف): «على قراءتها»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في المصادر.

(٤) في (ف): «إنما»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في المصادر.

(٥) حديث صحيح رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١٧) من طريق الليث (هو ابن سعد)، عن عُقَيل ويونس، عن ابن شهاب قال: أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف في مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا... الحديث، وفي آخره: وزاد عقيل في حديثه قال: وابن المسيب جالس لا ينكر ذلك.

ومن طريق أبي عبيد: رواه المحاسبي في «فهم القرآن» (ص: ٤٠٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١١).

=

ومثلُ هذا جائزٌ في زمانِ النُّبوّةِ؛ لأنَّه زمانُ خرقِ العادةِ، وإنَّما يجوزُ خرقُ العادةِ في زمانِ النُّبوّةِ، أو في زمانٍ يُنذَرُ فيه بابتعاثِ نبيٍّ كقصَّةِ الفيلِ، وكالذي وُجِدَ لمريمَ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقُرِئَ: ﴿أو نَنْسَأها﴾ بفتحِ النُّونِ والسِّينِ(١)، منَ النَّسيءِ، وهو التَّأخيرُ، ومنه: إذا تناضَلْتُم فانتَسِئُوا عن البيوتِ(٢)؛ أي: تباعَدوا، وأنسأتُ الدَّينَ إنساءً؛ أي: أخَّرْتُ قضاءَهُ.

= ورواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠٣٤) من طريق عبد الله بن وهب عن يونس به. ثم قال: وأصحابُ الحديث يُدخلون هذا في المُسنَد؛ لأنَّ أبا أُمامةَ ممَّن وُلد في عهد النبيِّ ﷺ، ويقولُ أهلُه: إنَّ رسول الله ﷺ كان سمَّاه أَسعدَ باسم أبي أمامةَ: أسعد بن زُرارةَ، وقد روى هذا الحديث شُعيبُ بن أبي حمزةَ، عن الزُّهريِّ فأدخل بَيْنَ رسول الله ﷺ وبين أبي أمامةَ رَهْطًا من الأنصار من أصحاب النبيِّ ﷺ.

ثم رواه (٢٠٣٥) من طريق شُعَيْب بن أبي حمزةَ، عن الزهريِّ قال: حدثني أبو أُمامةَ بن سَهْل بن حُنَيْفٍ، أنَّ رَهْطًا من الأنصار من أصحاب النبيِّ ﷺ أَخبروه: أنه قام رجلٌ منهم في جوف اللَّيل... الحديث. وهكذا رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣٠٠١)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧١٣٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٥٧)، وهكذا أورده الذهبي في «السير» (٢/ ٣٥٤) ثم قال: نسخ هذه السورة ومحوها من صدورهم من براهين النبوة، والحديث صحيح.

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو، وباقي السبعة: ﴿نُنسِهَا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٨)، و«التيسير» (ص: ٧٦).

(٢) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٢٨ - ٢٢٩). وذكره أبو عبيد الهروي في «الغريبين» (مادة: نسأ) عن عمر رضي الله عنه بلفظ: «ارموا فإن الرمي عدةٌ، فإذا رميتم فانتسوا عن البيوت» قال الهروي: هكذا روي، والصواب: «انتسئوا» بالهمز. قلت: وهكذا ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١٣/ ٥٨)، والزمخشري في «الفائق» (٣/ ٤٢٦): «فانتسئوا». ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٣) بلفظ: «فانتموا»، وفي رواية: «فانتشوا» هكذا وقع بالشين ولعله محرف عن السين.

ثمَّ لا يُريدُ تأخيرَ التَّنزيلِ؛ إذ ليس يقولُ: ما لـم نُنزله نأتِ بخيرٍ منه، بل أرادَ به النَّسخَ، فيكونُ تكريراً، وهو كقولِه: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٠]، والماءُ أيضاً مـمَّا رزقَهم الله.

ويجوزُ أن يُقالَ: ما ننسخْ حكماً أو نرفَعْ تلاوةً، أو على العكسِ.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾؛ أي: أصلحَ للعبادِ وأنفعَ، أو أكثرَ أجراً، لا أنَّ آيةً خيرٌ من آيةٍ؛ لأنَّ كلامَ الله كلَّه خيرٌ.

﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾؛ أي: فـي النَّفعِ والأجرِ. ورُبَّ شيءٍ يُنسَخُ بلا بدلٍ ففي ضمنِه الثُّبوتُ على الفرائضِ الأُخَر.

وقيلَ: أي: نأتِكم منها بخيرٍ؛ أي: بنفعٍ وأجرٍ لا أنَّه يأتيهم بآيةٍ أفضلَ منها؛ لأنَّ كلامَ الله لا يتفاضلُ، ومثلُه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]؛ أي: فله منها خيرٌ؛ أي: نفعٌ وأجرٌ، لا الخيرُ الذي هو بمعنى الأفضلِ.

وقالَ مجاهدٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: ما ننسخْ من آيةٍ نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها، أو نترُكها وننسَاها كما أنزلناها فلا نُبدِّلُـها(١).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ منَ النّاسخِ والمنسوخِ وغيرِهما.

* * *

---

(١) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠١)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، بلفظ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قال: ما نبدّل من آية ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: نتركها لا نبدّلها. وذكر أبو عبيد أن ابن عباس أراد بالنسيان الترك. ولم أجده من طريق مجاهد، كما لم أجد ذكر التقديم والتأخير.

(١٠٧) ـ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

قولُه: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ استفهامٌ بمعنَى التَّقريرِ؛ أي: ليس يخفَى عليك هذا يا محمّدُ.

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ للجميعِ؛ أي: لا ينبَغي أن يخفَى عليكم هذا، والمُلْكُ يرجعُ إلى معنى القدرةِ؛ أي: إذ قد عَلِمْتُم أنَّه مالكُ السَّماوات والأرضِ فله أن ينقُلَكم عن التَّوجُّه إلى جهةٍ غيرِها.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾؛ أي: سِوى الله، تقولُ: ما لَكَ دوني مَفْزعٌ؛ أي: سوايَ. والوليُّ فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، يُقالُ: هو والي الأمرِ ووليُّه؛ أي: القائمُ به.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

قولُه: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ ﴾ خاطبَ اليهودَ في اقتراحاتِهم؛ أي: أتُريدونَ أن تقتَرِحُوا المُعجزاتِ كما فعلَ أسلافُكم مع موسى؟

أو خاطبَ المُشركين؛ أي: أتقتَرِحُونَ الآياتِ كما فعلَ بنو إسرائيلَ مع موسى؟

أو خاطبَ المسلمينَ؛ إذ كانوا يسألون عن أمورٍ لا خيرَ فيها، أو كانوا يسألونَ أن تكونَ كفَّاراتُ ذنوبِهم مثلَ كفَّاراتِ بني إسرائيلَ، كما سنذكرُ في سببِ النُّزولِ إن شاءَ الله.

وسببُ النُّزولِ: أنَّ قومًا منَ اليهودِ قالوا: لن نُؤمنَ لك حتَّى تفعلَ كذا وكذا،

واقتَرحوا أشياءَ، ونظيرُه: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الآية [النساء: ١٥٣].

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في عبدِ الله بنِ أبي أميَّةَ المخزوميِّ ورهطٍ من قُريشٍ، قالوا: يا محمَّدُ اجعَلْ لنا الصَّفا ذهبًا، ووسِّعْ لنا أرضَ مكّةَ، وفجِّرِ الأنهارَ خلالَها تفجيراً، نُؤمِنْ لك[1].

وقيلَ: قالَ عبدُ الله بنُ أبي أميَّةَ: ائتِني بكتابٍ منَ السَّماءِ فيه: من ربِّ العالمين إلى ابنِ أبي أميّةَ، اعلم أنِّي قد أرسلتُ محمَّدًا إلى النّاسِ[2].

وقيلَ: كانَ لبعضِ العربِ شجرةٌ يعبُدونها، فسألوا النَّبيَّ عليه السَّلامُ أن يتَّخِذَ لهم مثلَ تلك الشَّجرةِ[3].

وقيلَ: قال قومٌ منَ المسلمينَ: سلِ الله أن يُحوِّلَ لنا الصَّفا ذهبًا، فقال عليه السَّلامُ: «هو لكم كالمائدةِ لبني إسرائيلَ»[4]؛ أي: مَن كفرَ بعد ذلك حلَّ به العقابُ في الحالِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٤)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكنه سمى السائلين: رافع بن حريملة ووهب بن زيد، وروى نحوه أيضًا الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤١٠) عن مجاهد، دون تسمية السائل.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥)، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٩٩) عن محمد بن إسحاق الأنباري.

(٣) رواه الترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) روي هذا الحديث عن مجاهد مرسلًا كما في «تفسير مجاهد» (ص: ٢١١)، وكذا رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤١٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٣)، وعندهم جميعاً: سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً... الحديث. ففي قول المصنف: «قال قومٌ منَ المسلمينَ» نظرٌ.

وقيلَ: سألوا أشياءَ بعد قيامِ البراهينِ وظهورِ الآياتِ، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

ثمَّ؛ على هذا قيلَ: هو كقولِ مَن قالَ: أحِجَّتُنا لعامِنا أم للأبدِ[1]؟ وكقولِهم في المجلس المشهورِ: أخبِرْنا عن والدِ فلانٍ، وعن كذا وكذا، وكانَ في ذلك ما

(١) رواه مسلم (١٣٣٧) من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «أيها الناس، فرض الله عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال: «لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٩) من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: خطبنا رسول اللَّه ﷺ فقال: «يا أيها الناس، كتب عليكم الحج»، فقام محصن الأسدي فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أمَا إني لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ثم ترَكتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكتُّ عنكم، فإنما هلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ الآية [المائدة: ١٠١]، ثم أعقبه من طريق آخر عن الحسين بن واقد، وفيه: فقام عكاشة بن محصن الأسدي.

وأخرج الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨) من طريق أبي إسحاق الهجري عن ابن عياض عن أبي هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب عليكم الحج» فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: «من السائل؟» فقيل: فلان، فقال: «والذي نفسي بيده لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما أطقتُموه، ولو تركتموه لكفرتم»، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾.

وأخرج الطبري أيضاً في «تفسيره» (٩/ ١٩ ـ ٢٠) من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر عن أبي أمامة أنه سمعه يقول: قام رسول الله ﷺ في الناس وقال: «كتب عليكم الحج» فقام رجل من الأعراب...، فذكر الحديث، وفيه: فقال: «ويحك! ماذا يُؤْمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلتُ: نعم، لوجبت، ولو وجبت لكفرتم».

يسوؤُهم، وفيه نزلَ أيضًا: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١][(١)]، وقال عليه السَّلامُ: «ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قبلَكم بكثرةِ اختلافِهم على أنبيائِهم»[(٢)]، وفي الخبرِ: «شدَّدَ بنو إسرائيلَ على أنفسِهم فشدَّدَ الله عليهم»[(٣)].

فالمعنى: لا تتعمَّقُوا في الوقائعِ بالبحثِ؛ فإنَّه سبيلُ قومٍ سألوا فأصبَحُوا بها كافرينَ.

وقيلَ: قال رجلٌ: يا رسولَ الله؛ لو كانَتْ كفَّاراتُنا ككفَّاراتِ بني إسرائيلَ، فقال عليه السَّلامُ «اللَّهمَّ لا نبغيها، اللَّهمَّ لا نبغيها، ما أعطاكُم الله خيرٌ مما أعطى بني[(٤)] إسرائيلَ، كانوا إذا أصابَ أحدُهم الخطيئةَ وجدَها مكتوبةً على بابِه، وكفَّاراتُه إنْ كفرَ

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٢) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: كان قومٌ يَسألون رسولَ الله ﷺ استهزاءً، فيقولُ الرجلُ: مَن أبي؟ ويقولُ الرجلُ تضلُّ ناقتُه: أين ناقتي؟ فأَنزل اللهُ فيهم هذه الآيةَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] حتى فَرغ من الآية كلِّها.

وروى نحوه البخاري (٦٣٦٢)، ومسلم (٢٣٥٩)، من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظ البخاري: سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه المسألة، فغضب فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم» فجعلت أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي، فإذا رجل كان إذا لاحى الرجال يدعى لغير أبيه، فقال: يا رسول الله من أبي؟ قال: «حذافة»، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، نعوذ بالله من الفتن، فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صورت لي الجنّة والنار، حتى رأيتهما وراء الحائط» وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾».

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتقدم قريباً.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، وله شاهد رواه البزار (٢١٨٨ ـ كشف) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وفي سنده عباد بن منصور، وفيه ضعف، وقال ابن كثير: حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة.

(٤) في (أ): «بنو».

بها كانت له خزيًا في الدُّنيا، فإنْ لـم يكفُرْ بها كانت له خزيًا في الآخرةِ، فقد أعطاكُم الله خيرًا ممّا أعطاهم فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ الآيـة [النساء: ١١٠]، والصَّلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ كفّاراتٌ لِـما بينَهُنَّ»(١).

وقال: «مَن همَّ بحسنةٍ فلم يعمَلْها كانت له حسنةً، وإن عمِلَها كانت له عشرةً، ولا يَهْلِكُ على الله إلّا هالكٌ»(٢).

فكأنَّهم طلَبُوا أن تكونَ توبتُهم في القتلِ، فقالَ الله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٦]، فهذا إذن متَّصلٌ بقولِه: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾، ولا تسألوا كما سألتِ اليهودُ.

ثمَّ قولُه: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ مردودٌ على الألِفِ فـي قولِه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾؛ لأنَّ المُرادَ ثَمَّ الجميعُ؛ أي: ألـم تعلَمُوا كذا أم تُريدونَ.

وقيلَ: يرجعُ إلى قولِه: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾؛ أي: فهل تأخُذونَ بهذا أم تُريدونَ أن تسألوا؟

ويجـوزُ أن يُقـالَ: ﴿أَمْ﴾ منقطـعٌ مـمَّا قبلَـه، فهو اسـتفهامٌ مبتدأٌ، مثـلَ قولِه: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٣]، جـاءت ﴿أَمْ﴾ وليس قبلَها اسـتفهامٌ، فهي اسـتفهامٌ مُبتدأ؛ أي: بل أتقولـونَ افتـراه، ولكـن لا بـدَّ من كلامٍ سـابقٍ، فـ«أم» اسـتفهامٌ متوسِّـطٌ على هذا القـولِ، وهو قـولُ الفرَّاءِ.

قال: وإنَّما يجوزُ أن تكونَ «أم» بمعنى «بل» إذا سبقَها استفهامٌ لا يصلُح فيه

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٠٣)، عن أبي العالية.

(٢) رواه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

«أيُّ»؛ لأنَّ قولَك: أخرَجَ زيدٌ أم عمرٌو؟ معناه: أَيُّهما خرجَ؟ فقولُك: «هل لك قبلَنا حقٌّ أم أنتَ رجلٌ ظالِـمٌ؟» معناه: بل أنتَ رجلٌ ظالـمٌ[1].

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: مَن تعنَّتَ الرَّسولَ بالاقتراحاتِ بعد ظهورِ المُعجزةِ فقد استبدلَ كفرًا بإيمانٍ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: قَصْدَه ووسطَه، والضَّلالُ: الذَّهابُ عن الاستقامةِ.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾؛ أي: إنَّ اليهودَ يحتالون في ردِّكم عن دينِ الإسلامِ بكلِّ وجهٍ.

نزلَتْ في قومٍ منَ اليهودِ قالوا بعد وقعةِ أُحُدٍ للمسلمين: لو كنتُمْ على الحقِّ ما هُزِمْتُم فارجِعُوا عن الإسلامِ[2].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٧١)، و«البسيط» (٣/ ٢٣٧).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٥) عن ابن عباس، وقال ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٣٥٤): هذا لعله من تفسير الكلبي، والذي ذكره ابن إسحاق في «المغازي» عن ابن عباس قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود للعرب حسدًا إذ خصهم الله تعالى برسوله، وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله تعالى فيهما هذه الآية، ثم ذكر قولًا آخر. وما نقله عن ابن إسحاق ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ٥٤٨)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤١٩) من طريق ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس...، فذكره. =

وقيلَ: أي: لا تغترُّوا باليهودِ في قولِهم: راعِنا، ولا تسألوا محمَّدًا كما كانت اليهودُ تسألُ موسى؛ فإنَّ ذلك يُخرِجُكم عن الإسلامِ، وتمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿كُفَّارًا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿حَسَدًا﴾؛ أي: يفعلون هذا للحسدِ، فهو مفعولٌ له.

وقيلَ: هو نصبٌ على المصدرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ يدلُّ على: يحسُدونكم.

﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾؛ أي: يفعلون هذا حسدًا لكم، وهذا الحسدُ من عندِ أنفُسِهم لا من عندِ الله؛ إذ لم يأمُرْهم به.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: هم يُعانِدُونَ.

وقيلَ: قولُه ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ تأكيدٌ؛ لأنَّ حسدَ الإنسانِ لا يكونُ من غيرِ نفسِه.

وقيلَ: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾؛ أي: في مذهبِهم وحكمِهم، كما تقولُ: هذا عند الشّافعيِّ حلالٌ؛ أي: في حُكمِه.

وقيلَ: المعنى: ودَّ الذين كفروا من عندِ أنفُسِهم لو يردُّونكم حسدًا منهم لكم.

وقيلَ: أي: حسَدا يجِدُونَه من أنفسِهم.

وأصلُ الحسدِ في اللُّغةِ: القَشْرُ، ومنه: «الحسدَلُ» للقُرادِ؛ لأنَّه يَقْشِرُ الجلدَ فيَمَصُّ الدَّمَ، ومنه: «المَحْسَدةُ» للمسحاةِ، فالحسدُ يقشرُ القلبَ.

وقيلَ: الحسدُ: تمنِّي زوالِ نعمةِ المحسودِ فيه، وإنْ لم يطمَعْ في نيلِ تلك النِّعمةِ.

﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ الصَّفحُ: الإعراضُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: هو منسوخٌ بآيةِ القتالِ[1].

= ومحمد بن أبي محمد مجهول.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٢٤).

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾؛ أي: بأمرِه بالقتالِ.

وقيلَ: بإجلاءِ النَّضيرِ، وقيلَ: قُريظةَ، وفتحِ خيبرَ وفدَكَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ أي: يقدرُ على إهلاكِهم الآنَ، ولكن لكلِّ أجلٍ كتابٌ.

وقيلَ: هو أمرٌ بحسنِ الخلقِ، كما قالَ: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠]، وليس منسوخًا.

* * *

(١١٠) - ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أعرِضوا عنهم واشتغِلوا بما أُمِرْتُم به منَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾؛ أي: منَ الأعمالِ الصّالحةِ ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يُثيبُكم عليه ولا ينساه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ أي: يُدرِكُه ولا يعزُبُ عنه شيءٌ.

* * *

(١١١) - ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ ثمَّ أخبرَ عن دَعاويهم بلا بُرهانٍ؛ أي: قالتِ اليهودُ: لن يدخُلَ الجنّةَ غيرُ اليهودِ، وقالتِ النَّصارى: لن يدخُلَ الجنّةَ غيرُ النَّصارى، ونظيرُه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن

فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، فجمَعَ في اللَّفظِ وإنْ كان في المعنى تفريقٌ، ولهذا قالَ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

وقيلَ: جمعَ بينَ الفريقَين لاجتماعِهما على الإيمانِ بالتَّوراةِ، فالنَّصرانيُّ يعترِفُ بالتَّوراةِ، فلا جرَمَ يقولُ: لن يدخُلَ الجنّةَ إلا اليهودُ والنَّصارَى.

وقيلَ: جمعَ بينَهما لاجتماعِهما على عداوةِ الإسلامِ وإنْ كانَ بينَهما تفريقٌ.

﴿هُودًا﴾؛ أي: يهوداً، فحذفَ الياءَ الزّائدةَ.

وقيلَ: «هودٌ» جمعُ «هائدٍ»، مثلَ: حائلٍ وحُولٍ، وبازِلٍ وبُزْلٍ، والهائدُ: المائلُ إلى التَّوبةِ.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾؛ أي: دَعاويهم، وليس لهم برهانٌ.

وقيلَ: التَّمنِّي: الاختلاقُ والافتراءُ، وقد مضى هذا في قولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قيلَ: الهاءُ في ﴿هَاتُوا۟﴾ منَ المُهاتاةِ، فهي أصليّةٌ.

وقيلَ: هي بدلٌ منَ الألفِ في «آتوا» غيرَ أنَّهم أماتوا كلَّ شيءٍ من فعلِها غيرَ الأمرِ، تقولُ: «هاتِ هاتِيا هاتُوا».

البرهانُ: الحجّةُ، والنُّونُ فيه ليست أصليَّةً، وقولُهم: «برهَنَ على كذا» مُولَّدٌ، وأَبْرَهَ الرَّجلُ؛ أي: غلبَ[1] النّاسَ وأتى بالعجائبِ، ولم يقُلْ: «براهينكم»؛ لأنَّ البرهانَ الواحدَ إذا قامَ لواحدٍ منهم فقد قامَ لهم جميعًا.

وفي الآيةِ دليلٌ على المنعِ منَ التَّقليدِ[2].

(١) بعدها في (أ): «على».

(٢) بعدها في (أ): «والله تعالى أعلم».

(١١٢) - ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ ﴿ بَلَىٰ ﴾ ردٌّ لأمرٍ وإيجابٌ لغيرِه، ردَّ الله عليهم قولَـهم أَنَّهم في الجنّةِ، وأخبرَ أنَّ أهلَ الجنّةِ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾.

وقيلَ: فيه إضـمارٌ، كأنَّه قيلَ: ما يدخلُ الجنَّةَ أحدٌ منهم، فقيلَ: بلى مَن أسلَمَ وجهَه لله.

ثمَّ قيلَ: الوجهُ صِلةٌ؛ أي: مَن انقادَ لله تعالى.

وقيـلَ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾؛ أي: أسـلَمَ نفسَـه وجميـعَ بدنِـه لأمـرِ الله، وقولُـه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؛ أي: إلّا هـو، وذكـرَ الوجـهَ لأنَّـه إذا خضعَ الوجـهُ لله خضـعَ جميعُ البدنِ؛ لأنَّه أشـرفُ الأعضـاءِ، وأيضًا أثرُ الخضـوعِ إنَّما يَبينُ فـي الوجهِ، قـالَ الله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [طه: ١١١].

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ هو كقولكَ: «جاءَني وهو راكبٌ»؛ أي: راكبًا، فهو في معنى[١] الحالِ؛ أي: وهو في خُضوعِه محسِنٌ لأعمالِه.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؛ أي: مؤمنٌ موحِّدٌ مُصدِّقٌ[٢].

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ ﴾ أي: ثوابُه.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ذكر بلفظِ الجمعِ، وفـي الابتداءِ قـال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾؛ لأنَّ «مَن» صلحَ للواحدِ والجمعِ.

***

(١) في (أ): «فهو بمعنى».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٤٨).

(١١٣) ـ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بيَّنَ السَّببَ الذي لأجلِه قالتِ اليهودُ: الجنّةُ لنا، وقالتِ النَّصارى: الجنّةُ لنا.

قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في وفدِ نجرانَ، قدِمُوا على النَّبيِّ ﷺ فتنازَعُوا مع يهودِ المدينةِ، وارتفَعَتْ أصواتُهم[1].

فكان سفيانُ الثَّوريُّ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: صدقَ اليهودُ، وصدقَ النَّصارَى.

﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: على حقٍّ وصوابٍ، وكلُّ ما لا منفعةَ فيه فهو كالمعدومِ كما بيَّنَّا في قولِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [المائدة: ٦٨]؛ أي: على دينٍ حقٍّ.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: منذُ دانَتْ باليهوديّةِ التي هي تكذيبُ عيسى؛ أي: اليهودُ على ضلالتِهم لإنكارِهم النَّسخَ، وإنكارِهم عيسى وبعضِ الأنبياء، ومَن كفَرَ بنبيٍّ فقد كفرَ بالجميعِ.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: وهم يُؤمنون جميعًا بالتَّوراةِ، وهذا تعجيبٌ منهم، وفيه بيانُ أنَّ الإنكارَ من غيرِ برهانٍ لا وَقْعَ له.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أرادَ أُمّةَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ.

وقيلَ: أرادَ مُشركي العربِ، ولهذا قال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ليس لهم كتابٌ، فكلُّ حزبٍ يرى أنّه على الحقِّ، وليس معهم برهانٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: يُريهم مَن يدخلُ الجنَّةَ عيانًا، ومَن يدخلُ النارَ، فأمَّا حكمُ الدِّينِ من حيثُ البرهانُ فقد بيَّنَ الله الحجَّةَ في الابتداءِ.

***

(١١٤) - ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ قيلَ: نزلَتْ في النَّصارى؛ لأنَّهم غزَوا بني إسرائيلَ مع بعضِ ملوكِهم(١).

وقيلَ: مع بُخْتَنَصَّرَ من المجوسِ، فقتَلُوا وسبَوا وحرَّقوا التَّوراةَ وقذَفُوا في بيتِ المقدسِ العَذِرةَ وخرَّبوه(٢).

وأراد بالمساجِدِ: بيتَ المقدسِ ومحاريبَه؛ أي: أنتم أيُّها النَّصارى تدَّعون أنَّكم

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٦) عن ابن عباس من رواية الكلبي، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٨٦) عن الكلبي.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٠٩) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٤٣) عن قتادة والسدي.

قال الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٧٥) متعقّبًا: «ما روي في خبر قتادة يشبه أن يكون غلطًا من راويه؛ لأنه لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الأولين أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهرٍ طويلٍ، والنصارى إنّما كانوا بعد المسيح وإليه ينتمون، فكيف يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس، والنصارى إنما استفاض دينهم في الشام والروم في أيام قسطنطين الملك، وكان قبل الإسلام بمئتي سنة وكسور... ومع ذلك فإن النصارى تعتقد من تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود، فكيف أعانوا على تخريبه مع اعتقادهم فيه؟».

من أهلِ الجنّةِ، وكيف تصحُّ منكم هذه الدَّعوى وقد خرَّبتُم بيت المقدسِ ومنعتُم المُصلِّين مـنَ الصَّلاةِ فيه؟ وكان هذا التَّخريبُ بقي إلى زمنِ عمرَ بـن الخطّابِ رضي الله عنه.

ثمَّ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾؛ أي: حكمَ الله في النَّصارى أن لا يدخُلوا بيتَ المقدسِ إلّا خائفينَ من أن يُفطَنَ لهم فيُؤخَذُوا ويُقتَلُوا[1] أو يُسبَوا، فلم يدخُلْ بيت المقدسِ بعدَما عُمِرَ في الإسلامِ نصرانيٌّ إلّا خائفًا بعد أن كانَ مُتعَبَّدَهم[2].

ومعنى الآيةِ: التَّعجيبُ من فعلِ النَّصارى ببيتِ المقدسِ مع تعظيمِهم له، وإنَّما فعلوا ما فعلوا عداوةً لليهودِ.

وقيلَ: نزلتِ الآيةُ فـي المُشركينَ إذ منَعُوا المسلمينَ عن المسجدِ الحرامِ، ومَن منعَ المسلمين عن الإسلامِ فقد منعَ ذكرَ الله في المساجدِ وسعى في خرابِها، ونظمُ الكلامِ أنَّه قال: مَن أظلمُ من هؤلاءِ المشركين الذين يزعمونَ - اقتداءً باليهودِ والنَّصارَى - أنَّ المسلمين ليسوا على شيءٍ، والمسلمون يُصلُّونَ لله فيمنعُهم المشركونَ عن الصَّلاةِ والطَّوافِ، ويسعَونَ في خرابِ المساجدِ، فمَن أظلَمُ ممَّن يبلغُ هذا المبلغَ ثمَّ يقولُ: ليس المسلمون على شيءٍ؟! فقولُه: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وعدٌ منَ الله للمسلمين؛ أي: سأفتحُ لكم مكّةَ حتَّى لا يدخلَها مشركٌ إلا خائفًا أن يُقتَلَ، وقد أنجزَ الله هذا الوعدَ.

---

(١) في (أ): «أو يقتلوا».

(٢) كذا فسر المؤلف هذه الآية فقصر المساجد على المسجد الأقصى، وحصر الذين يدخلون خائفين بالنصارى، والأولى هو التعميم.

وقيلَ: هو خبرٌ ومقصودُه الأمرُ؛ أي: جاهِدُوهم واستأصِلُوهم حتَّى لا يدخلَ أحدٌ منهم المسجدَ الحرامَ إلَّا خائفًا، كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فإنَّه نهيٌ ورَدَ بلفظِ الخبرِ.

وقيلَ: أي: حكمَ الله فيهم أن لا يدخُلوا المسجدَ إلَّا خائفين، حتَّى لو دخلوا المسجدَ الحرامَ خافُوا القتلَ والسَّبيَ، وإنْ دخلوا غيرَه من المساجدِ خافوا الإخراجَ والطَّردَ؛ إذ ليس لهم دخولُ المساجدِ إلَّا بإذنٍ منَ المسلمين.

وقيلَ: نزلتِ الآيةُ في جميعِ الكفَّارِ؛ فإنَّهم قاتَلُوا المسلمين، فكأنَّهم منَعُوا المسلمينَ عن الصَّلاةِ، وهو منعُ المساجدِ من ذكرِ الله فيها، وسعيٌ في تخريبِها، وكلُّ موضعٍ يُمكِنُ أن يُعبَدَ اللهُ فيه ويُسجَدَ له يجوزُ أن يُسمَّى مسجدًا، وفي الخبرِ: «جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً»[1].

والسَّعيُ: الإسراعُ في المشيِ، قال الله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠].

قولُه: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيلَ: القتلُ للحربيِّ، والجزيةُ للذِّمِّي، ومنَ الخزيِ لهم في الدُّنيا: فتحُ مُدنِهم واستئصالُهم وقهرُهم ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

❊❊❊

(١١٥) ـ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في النَّجاشيِّ لـمَّا تُوفِّي وأخبرَ جبريلُ النَّبيَّ عليهما السَّلامُ وأمرَه بالصَّلاةِ عليه، فصَفَّ رسولُ الله أصحابَه وتقدَّمَ فصلَّى عليه، فقال أصحابُ رسولِ الله في أنفُسِهم: كيف نُصلِّي على رجلٍ ماتَ وهو

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، مسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنهما.

يُصلِّي لغيرِ قِبلتِنا؟ وكانَ النَّجاشيُّ يُصلِّي إلى بيتِ المقدسِ حتَّى ماتَ، وقد صُرِفَتِ القِبلةُ إلى الكعبةِ، فنزلَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، ونزَلَ في النَّجاشيِّ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩][(١)].

وبيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ الجهاتِ لله، فمَن صلَّى إلى جهةٍ أُمِرَ بها ولـم يبلُغْه نسخُ ذلك الأمرِ فله الثَّوابُ، فكان هذا عُذرًا للنَّجاشيِّ وأصحابِه، وعُذرًا للصَّحابةِ حيثُ صلَّوا عليه، وقد اتَّصلَ هذا بما قبلَه من ذكرِ النَّصارَى.

وقيلَ: نزلتِ الآيةُ في تحويلِ القِبلةِ لـمَّا عيَّرتِ اليهودُ المسلمين في تركِ بيتِ المقدسِ؛ أي: أينَما تُولُّوا وجوهَكم بأمرِ الله ففيه الثَّوابُ.

ووجهُ النَّظمِ: أنَّ اليهودَ فعلُوا ما فعلُوا وأنكروا أمرَ القبلةِ، فبيَّنَ الله أنَّ له أن يتعبَّدَ عبادَه بما شاءَ، فإنْ شاءَ أمرَهم بالتَّوجُّه إلى بيتِ المقدسِ، وإنْ شاءَ أمرَهم بالتَّوجُّه إلى الكعبةِ.

وأيضًا قال أهلُ الكتابِ: الجنَّةُ خالصةٌ لنا، ثمَّ استقبلتِ اليهودُ القدسَ ظنًّا منهم أنَّ الله صَعِدَ إلى السَّماءِ منَ الصَّخرةِ، واستقبلتِ النَّصارى المشرقَ لولادةِ مريمَ من جهتِه وعيسى عندَهم إلهٌ، فكِلا الفريقَين اعتقَدَ في مولاه الحلولَ في الأماكنِ، فقال الرَّبُّ: كيف تخلُصُ لهم الجنَّةُ وقد منَعُوا المسلمينَ منَ الصَّلاةِ وهم جاهلُونَ بأنَّ الله لا يحويه مكانٌ؟ وأنَّ على العبدِ أن يتوجَّهَ حيثُ أمرَه الله، وهذا كقولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] إلى قولِه ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وفي روايةٍ عن ابنِ عبّاسٍ: أنَّها نزلَتْ في نفرٍ من أصحابِ رسولِ الله خرجُوا في

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨) من رواية عطاء عن ابن عباس، وإسناده واهٍ، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٥٥) عن قتادة.

سفرٍ فأصابَهم ضبابٌ، فتحَرَّوا القبلةَ وصلَّوا إلى أنحاء مُختلفةٍ، فلما ذهبَ الضَّبابُ استبانَ لهم أنَّهم لـم يُصيبوا، فلمَّا قدِمُوا سألوا رسولَ الله عن ذلك فنزلَتِ الآيةُ، وعُذِرُوا إذ صلَّوا بالاجتهادِ(١).

وقالَ ابنُ عمرَ: نزلَتْ في المُسافرِ يتنَفَّلُ حيثُ ما توجَّهَتْ به راحلتُه(٢).

ووجهُ النَّظمِ: أنَّه لـما ذمَّ مَن منعَ المسلمينَ منَ الصَّلاةِ بيَّنَ أنَّه لـم يسُدَّ على المسافرِ بابَ النَّفلِ، ووسَّعَ فيه الأمرَ كيلا ينسَدَّ أمرُ الصَّلاةِ، ولعلَّ اليهودَ استبدَعُوا صلاةَ المسافرِ فبيَّنَ لهم أنَّ المدارَ على إذنِ الشّارعِ.

وقال قومٌ: قولُه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ منسوخٌ بقولِه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ أيضًا(٣)، فكأنَّه كان يجوزُ في الابتداءِ أن يُصلِّيَ المرءُ كيف شاءَ، ثمَّ نُسِخَ ذلك.

---

(١) ذكره عن ابن عباس السمرقندي في «تفسيره» (١/ ٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٤٦)، ورواه ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ كما ذكر ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وهذا الإسناد ضعيف جدًّا كما تقدم غير مرة.

ورواه بنحوه سعيد بن منصور في «سننه» (٢١٠ ـ تفسير) عن عطاء مرسلاً، ووصله الدارقطني في «سننه» (١٠٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٢٤٣) من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، وقال البيهقي: لم نعلم لهذا الحديث سندًا قويًّا.

ورواه الترمذي (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٢٠) من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان أبي الربيع عن عاصم بن عبيد الله، وأشعث يُضعَّف في الحديث.

(٢) رواه مسلم (٧٠٠/ ٣٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢١٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٦٠)، وصححه.

وقيلَ: لمَّا سعى النَّصارى في تخريبِ بيتِ المقدسِ، ومنعَ المُشرِكون المسلمين منَ المسجدِ الحرامِ والصَّلاةِ في المساجدِ، قال: للهِ المشرق والمغرب فصلُّوا حيثُما كنتُم من أرضِه؛ فإنَّ الصَّلاةَ صحيحةٌ أينَما كانت إذا توجَّهتُم إلى الجهةِ التي أُمِرتُم بها.

وقيلَ: معنى الآيةِ: لله المشرقُ والمغربُ فأينَما تُولُّوا وجوهَكم هاربين منِّي وخارجين من سُلطاني فثَمَّ وجهُ الله؛ أي: لا يُمكِنُكم الخروجُ عن ملكي، فهؤلاءِ الذين مَنَعُوا منَ الصَّلاةِ في المساجدِ لا يخرُجونَ من ملكي وستلحقُهم عُقوبَتي.

وقيلَ: أي: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فدُعاؤُكم مُستجابٌ؛ أي: إنْ مُنِعتُم عنِ الصَّلاةِ لم تُمنَعُوا منَ الدُّعاءِ.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾؛ أي: تُولُّوا وُجوهَكم، فحُذِفَ المفعولُ؛ أي: تجعلوا وُجوهَكم تليه ﴿فَثَمَّ﴾؛ أي: هناكَ ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وقيلَ: الوجهُ صِلةٌ؛ أي: فثَمَّ اللهُ، كقولِه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾؛ أي: فثَمَّ الله يعلَمُ ويرى، ومثلُه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]؛ أي: لله، وكذلك: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]؛ أي: ربُّكَ.

وقيلَ: أي: فثَمَّ قِبلةُ الله، فالوجهُ والجِهةُ بمعنًى، كالوعدِ والعِدةِ، والوصلِ والصِّلةِ؛ أي: فثَمَّ الجهةُ التي تُعُبِّدتُم بالتَّوجُّه إليها، وإضافةُ الجهةِ إلى الله للتَّخصيصِ، نحوَ: بيتِ الله.

وقيلَ: أي: فثَمَّ تجِدونَ الوجاهةَ منَ الله، فالوجهُ للعبدِ وأُضيفَ إلى الله إكرامًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ أي: مقامَه من ربِّه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾؛ أي: مُفْضِلٌ على العبادِ، محتمِلٌ لكثرةِ سُؤالِـهم، يُقالُ: فلانٌ يسَعُ ما يُسأَلُ؛ أي: لا يبخلُ.

وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾ بمعنى: أنَّه يُوسِّعُ على عبادِه في دينِهم، ولا يُكلِّفُهم ما ليس في وُسعِهم، ولهذا رخَّصَ لهم في التَّوجُّهِ في السَّفرِ إلى صَوْبِ طريقِهم.

وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾ بمعنى أنَّه يسعُ[1] علمُه كلَّ شيءٍ، كما قالَ: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ أي: غنيٌّ عن أعمالِ العبادِ وإنْ كانَ يُثيبُ العبدَ على الإخلاصِ، وقولُه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧] بمعنى: ليُنفِقِ الغنيُّ ممَّا أعطاه الله.

* * *

(١١٦) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ هذا مُتَّصلٌ بذكرِ اليهودِ والنَّصارى؛ فإنَّ اليهودَ قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والنَّصارى قالوا: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والمُشركينَ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فأخبرَ الرَّبُّ أنَّهم قالوا كذا.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزيهًا له ﴿بَل لَّهُۥ﴾ (بل) لنفي الأوَّلِ وإثباتِ الثَّاني؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، بل له ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلْكًا وخَلْقًا، وعيسى وعزيرٌ والملائكةُ من خلقِه فلا يُشبِهونَه؛ إذ الصُّنعُ لا يُشبهُ الصَّانعَ، ولو أشبهَه فلِمَ كانَ هذا صانعًا وذاك مصنوعًا؟

---

(١) في (أ): «وسع».

وأيضًا: فما يحويه مكانٌ من سماءٍ أو أرضٍ كيفَ يَصْلُحُ لأَنْ يُعبدَ؟ ونظيرُ هذا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٨٩] إلى قولِه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقيلَ: أي: إنَّما يتَّخِذُ الولدَ للتَّكثُّرِ به والحاجةِ إليه، وإذا كانَ الله مالكَ السَّماواتِ والأرضِ فما حاجتُه إلى الولدِ؟

وقيلَ: وجهُ النَّظمِ: ومَن أظلَمُ ممَّن منعَ مساجدَ الله وممَّن قالوا اتَّخذَ الله ولدًا؟

﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ القُنوتُ: القيامُ؛ وفي الخبرِ: أنَّه سُئِلَ عليه السَّلامُ: أيُّ الصَّلاةِ أفضلُ؟ قالَ: «طولُ القُنوتِ»[1]؛ أي: القيامِ، ثمَّ شاعَ استعمالُه في الدُّعاءِ في حالةِ القيامِ، ومنه قنوتُ الصَّلاةِ، ثمَّ كلُّ مَن قامَ بشغلٍ يُقالُ له: قانتٌ.

ثمَّ قيلَ: هذا عامٌّ، والمُرادُ: أهلُ الطّاعةِ.

وقيلَ: يرجعُ إلى عُزَيرٍ والمسيحِ والملائكةِ، كقولِه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقيلَ: الآيةُ على التَّعميمِ؛ أي: كلٌّ له قانتونَ في القيامةِ، أو ظلالُ الكفّارِ تسجدُ لله وتُطيعُه؛ لقولِه: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، أو كلُّ[2] مخلوقٍ فآثارُ الفِطرةِ ظاهرةٌ عليه، فهو قانتٌ لله.

وقيلَ: أطاعَه الكلُّ في التَّكوينِ؛ إذ قالَ: ﴿كُن﴾ فكانَ.

وقيلَ: القُنوتُ هو الإمساكُ عن الكلامِ في الصَّلاةِ؛ لخبرِ زيدِ بنِ أرقمَ قالَ: كنَّا

---

(١) رواه مسلم (٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «وكل».

نتكلَّمُ في الصَّلاةِ حتَّى نزلَتْ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فسكَتْنا[١].

* * *

(١١٧) ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قولُه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مُبدِعُها لا على مثالٍ سبقَ، كالسَّميعِ بمعنى المُسمعِ، والوَجيعِ بمعنى المُوجعِ.

والبدعةُ: كلُّ مُحدَثٍ، وسِقَاءٌ بديعٌ؛ أي: جديدٌ.

وقال الأزهريُّ: هو من بدَعَ، فـ﴿بَدِيعُ﴾ فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، كقديرٍ بمعنى قادرٍ، وبدَعَ بمعنَى أبدَعَ[٢].

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾؛ أي: قدَّرَه وخلقَه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: يُكوِّنُه، أي: لا يَلحقُه نَصَبٌ في شيءٍ، أي: مَن كان هكذا لا يحتاجُ إلى الولدِ.

وقيلَ: يقولُ لِـمَا يخلقُه: «كُنْ» فيكونُ.

وفيه دليلٌ على قِدَمِ كلامِه؛ إذ لو كان مخلوقًا لكانَ مقولًا له: «كُنْ»، حتَّى يتسلسلَ.

ثمَّ؛ لا يحدثُ عند الخلقِ لله قولٌ، ولكنَّ قولَه القديمَ يتعلَّقُ بكلِّ مخلوقٍ عندَ حُدوثِه، وخطابُ المعدومِ سائغٌ بتقديرِ الوجودِ.

واللَّامُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ لامُ أَجْلٍ؛ أي: فإنَّما يقولُ لأَجْـلِ إرادتِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كقولِه: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]؛ أي: من أجلِه، وقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]؛ أي: من أجلِ حبِّ المالِ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ١٤٣).

(١١٨) - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ تحكُّمَهم واقتراحَهم بعدَ ما بانَ لهم صدقُ الرَّسولِ لمُعجزةٍ مّا، قيلَ: نزلَتْ في المُشركين ولهذا وصفَهم بأنَّهم لا يعلَمون، ولأهلِ الكتابِ علمٌ على الجملةِ.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: اليهودُ والنَّصارى، فقالتِ اليهودُ لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقالتِ النَّصارى للمسيحِ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في اليهودِ، قالوا: لن نُؤمِنَ لك حتَّى يُكلِّمَنا الله بأنَّك رسولُه أو تأتينا بمثلِ آياتِ موسى(١).

وقيلَ: نزلَتْ في النَّصارَى.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: هلّا.

وقيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾؛ أي: كفَّارُ الأممِ السّابقةِ، أو مَن سبقَ أهلَ عصرِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ منَ اليهودِ.

﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: أشبهَ بعضُها بعضاً في الكفرِ، ونظيرُه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: المُعجزاتِ التي خصَّ الله بها محمَّدًا عليه السَّلامُ، ومنها القرآنُ، يعني: قد بيَّنّاها للمسلمين ولعلماءِ اليهودِ،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢١٥)، وفيهما أن قائل ذلك هو رافع بن حريملة.

ولكنَّهم عانَدُوا، وبيَّنَ أنَّ أولئك رأَوا الآياتِ فعانَدوا وأصَرُّوا على الكفرِ، فهؤلاءِ المُقترِحون أيضًا لو أُجيبُوا لـم يُؤمِنُوا، وكلُّ ما يقترِحُونَه فهو تعلُّلٌ منهم.

***

(١١٩) ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ أي: عليك التَّبليغُ ولا تُؤاخَذُ بكُفرِ الكفرةِ.

والحقُّ: نقيضُ الباطلِ، فهو الشَّيءُ الموجودُ الصِّدقُ، يُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ يحِقُّ حَقًّا؛ أي: وجَبَ وُجوبًا، فهو مصدرٌ، ثمَّ يُطلَقُ بمعنى فاعلٍ، مثلُ: بَرٍّ وطَبٍّ، وحقٌّ عليَّ أنْ أفعلَ كذا، وحُقَّ، وإنِّي لمحقوقٌ أن أفعَلَ كذا، وحقَقْتُ الأمرَ وأحقَقْتُه؛ أي: كنتُ على يقينٍ منه.

وقيلَ: يُقالُ: حُقَّ لك أن تفعلَ كذا، بالضَّمِّ، وحَقَّ عليكَ، بالفتح.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالقرآنِ، كقولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥](١).

وقيلَ: أي: بالإسلامِ، كقولِه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: مع الحقِّ، كقولِه: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦١]، فهو في موضعِ النَّصبِ بالحالِ.

وقيلَ: هو قَسَمٌ؛ أي: باللهِ لقد أرسلناكَ بشيرًا ونذيرًا، فالحقُّ هو اسمُ الله تعالى.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٦٥)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٧٦)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ١٤٢).

والبشيرُ: فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ، من بشَرَ يبشُرُ؛ أي: بشَّرَ.

والنَّذيرُ: المُنذِرُ، ولا يُستعمَلُ منه الثُّلاثيُّ، ولعلَّه كانَ فأُميتَ، ويُقالُ: أنذَرتُه فنَذِرَ؛ أي: أعلَمْتُه فعلِمَ وتحذَّرَ.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: لا تُسأَلُ عنهم: لِمَ لم يهتَدُوا؟ وفيه إضمارٌ؛ أي: لستَ تُسأَلُ عن جُرمِهم، فهذا كلامٌ مُستَأنَفٌ.

وقيلَ: أي: أرسلناكَ بشيرًا ونذيرًا وغيرَ مسؤولٍ عن أصحابِ الجحيمِ، فمحلُّ قولِه: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ النَّصبُ على الحالِ، ونظيرُه: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: ٤٦] بعدَ قولِه: ﴿وَجِيهًا﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسببُ النُّزولِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ تمنَّى أن يُجابَ إلى مُقترَحاتِهم ليُؤمِنُوا، فقيلَ له هذا.

وقرأ نافعٌ وقومٌ: ﴿ولا تَسألْ﴾ على النَّهي(١)؛ أي: بلِّغِ الرِّسالةِ ولا تسألْه عن أحدٍ ممَّن كذَّبَك: هل لك أن تشفعَ فيهم؟ فلم تنفَعْهم شفاعةٌ.

ولو قالَ: «فلا تُسأَلُ» بالفاءِ لحسُنَ أيضاً.

وقال ابنُ عبّاسٍ على هذا: سأَلَ رسولُ الله جبريلَ عليهما السَّلامُ عن قبرِ أبيه وقبرِ أمِّه فدلَّه عليهما، فذهبَ إلى القبرَين ودعا لهما، وتمنَّى أن يعرفَ حالَهما في الآخرةِ، فنزلَ: ﴿ولا تَسْأَلْ عن أصحابِ الجَحِيم﴾(٢)، قيلَ: فما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٦٩)، و«التيسير» (ص: ٧٦)، عن نافع.

(٢) ذكره عن ابن عباس بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٨١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٦٥) من رواية عطاء عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية. وهكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩). وقال ابن حجر في =

ذكرَهما رسولُ الله بعدَ هذه الآيةِ حتَّى توفَّاه الله[1].

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: وفيه نزلَ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني: عليًّا ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣][2].

وقيلَ: ﴿ولا تَسْأَلْ﴾ على النَّهيِ تعظيمٌ للأمرِ وتعجيبٌ؛ أي: ولا تسألْ عن بلائِهم، كما تقولُ: «لا تسألْ عمَّا فيه فلانٌ منَ البلاءِ؛ فإنَّه أعظَمُ من أن يوصَفَ».

و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: النّارُ المُتلظِّيةِ، يقالُ: جَحَمَتِ النّارُ تَجْحَمُ، من بابِ منَعَ يمنَعُ، فهي جاحِمةٌ وجَحيمٌ.

* * *

= «العجاب» (١/ ٣٦٩): نسبه الثعلبي لرواية عطاء عن ابن عباس وهي من تفسير عبد الغني بن سعيد الواهي، وقد أخرجه الطبري من مرسل محمد بن كعب القرظي وعليه اقتصر الماوردي وابن ظفر وغيرهما، واستبعد الفخر الرازي صحة هذا السبب قال: لأنه ﷺ يعلم حال من مات كافراً، انتهى. قلت: رواه عن كعب ابن وهب في «الجامع» (٢٣٣ ـ تفسير)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٦)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٨١)، بمثل رواية عطاء عن ابن عباس، وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف كما قال الحافظ في «العجاب»، وقال السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٧١): هذا مُرْسل ضعيف الإسناد.

(١) قطعة من من مرسل محمد بن كعب القرظي، انظر التعليق السابق.

(٢) ذكره عن ابن عباس بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٢٨٢)، ورواه بنحوه دون ذكر علي رضي الله عنه الطبري (١٢/ ٢٣) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، إلى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أن رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأمّه فنهاه الله عن ذلك، فقال: «وإن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، إلى ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣]، وسنده مسلسل بالضعفاء.

(١٢٠) - ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قولُه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾؛ أي: ليس غرضُهم بما يقترحونَ منَ الآياتِ أن يُؤمِنُوا بك، بل لو أتيتَهم بكلِّ ما يَسألونَ لـم يرضَوا عنك، وإنَّما يُرضيهم تركُ ما أنتَ عليه منَ الإسلامِ.

وقيلَ: وجهُ النَّظمِ أنَّهم طمِعُوا في هُدنةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ واستمالتِه ليستجِرُّوه إلى أديانِهم، فذكرَ الرَّبُّ هذا أيضًا ضمًّا إلى ما سبقَ من مخازيهم؛ أي: لا يُرضي اليهودَ إلا التَّهوُّدُ، ولا يُرضي النَّصارى إلّا التَّنصُّرُ، ورضاءُ هؤلاءِ يُسخِطُ هؤلاءِ، والجمعُ مُتَناقِضٌ، فلا تشتغِلْ بطلبِ رِضاهم فإنَّه مـمَّا لا يُتصَوَّرُ، واشتغِلْ بالتَّبليغِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في القِبلةِ؛ فإنَّ كلَّ فريقٍ أحبَّ أن تتوجَّه إلى قبلتِهم حتَّى يُتَّبعَ[١].

قال الخليلُ: النّاصِبُ «أن»، ولكنَّها لا تَظهرُ مع «حتَّى»، وذلك لأنَّ «حتَّى» خافضةٌ للاسمِ، كقولِه: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥]، وما يعملُ في الاسمِ لا يعملُ في الفعلِ ألبتّةَ، وما يخفضُ اسمًا لا ينصبُ شيئًا.

﴿مِلَّتَهُمْ﴾؛ أي: دينَهم، وسُمِّيَ الدِّينُ بها لأنَّه يُملَى؛ أي: يُملى على المدعوِّ إليه، وأمَلَّ وأملَى بمعنًى.

وقيلَ: المِلَّةُ «فِعلة» من: مَلَّه يَمُلُّه؛ أي: ألقاه في الرَّمادِ الحارِّ، سُمِّيَ الدِّينُ بها لِـمَا فيه منَ المشاقِّ وتركِ هوى النَّفسِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٦٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠).

وقيلَ: المِلَّةُ: الطَّريقةُ والسُّنَّةُ، ومنه: المَلَّةُ؛ لأنَّها تُؤثِّرُ في مكانِها كما يُؤثِّرُ السُّلوكُ في الطَّريقِ، فأصلُ الكلمةِ التَّأثيرُ.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: عرِّفْ هؤلاءِ الذين يَدْعُونَك إلى دينِهم ليرضَوا عنك أنَّ الذي يهتَدي به الإنسانُ: ما أَمرَ الله به، لا ما يُرضيكم منَ الأديانِ التي نُسِخَتْ، فاتَّبِعُوا ما أقولُه لكم يَبِنْ لكم صِدْقي.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ وكانَ لكلِّ فريقٍ هوًى فجمَعَ وقالَ: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾.

﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: منَ البيانِ بأنَّ دينَ الله هو الإسلامُ؛ أي: إن اتبعتَهم في تركِ استقبالِ الكعبةِ أو في الهدنةِ والمُمايلةِ فما لك منَ الله من وليٍّ ولا نصيرٍ.

ثمَّ؛ قيلَ: الخِطابُ للنَّبيِّ والمُرادُ به الأمَّةُ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان معصوماً عن اتِّباعِهم.

وقيلَ: الخطابُ له ولغيرِه.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾؛ أي: مَن يتولَّاكَ فيدفعُ عنك العقوبةَ.

ثمَّ؛ قيلَ: آيسَه في هذه الآيةِ عن أن يُؤمِنَ جميعُهم، بل قد يُؤمنُ منهم آحادٌ.

وقيلَ: عنى رُؤساءَهم المُعانِدين.

* * *

(١٢١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلَتْ في

أصحابِ السَّفينةِ الذين قدِمُوا من أرضِ الحبشةِ مع جعفرِ بنِ أبي طالبٍ، فكانوا أربعينَ رجلاً من الحبشةِ وأهلِ الشّامِ[1].

وقيلَ: نزلَتْ فيمَن آمنَ منَ اليهودِ.

وقيلَ: في جميعِ مَن آمنَ بمحمَّدٍ عليه السَّلامُ من الصَّحابةِ.

﴿يَتْلُونَهُۥ﴾ قال ابنُ مسعودٍ: يُحِلُّونَ حلالَه ويُحرِّمُونَ حرامَه، ويقرؤونَه كما أُنزِلَ من غير تحريفٍ[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمَّدٍ، أو بالكتابِ، أو بالعلمِ المذكورِ في قولِه: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: مَن أوتيَ الكتابَ فلم يُؤمِنْ بك فلأنَّه لم يَتْلُه حقَّ تلاوتِه.

وقيلَ: أي: مَن انتفعَ بالكتابِ فهو الذي يكونُ ممَّن أوتيَ الكتابَ، فأمَّا مَن لم ينتفِعْ فكأنَّه لم يُؤتَ الكتابَ.

* * *

(١٢٢ - ١٢٣) - ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كرَّرَ نسبتَهم إلى يعقوبَ تنبيهًا على تأكُّدِ[3] حقِّ

---

(١) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٦٩)، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٠) عن ابن عباس من رواية ابن عطاء والكلبي. ولا يحتج بهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٨٩).

(٣) في (أ): «تأكيد».

الشُّكرِ عليهم، ثمَّ اتَّصلَ كلَّ مرَّةٍ بوقتٍ يقتَضي وَعْظاً وتذكيرًا[1].

قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ قدَّمَ ذكرَ النِّعمةِ على التَّحذيرِ ليكونَ أدعى إلى الطَّاعةِ.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ هذا عامٌّ تخصَّصَ بقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقيلَ: أي: لا تنفَعُها شفاعةٌ إذا حقَّ العذابُ.

وقيلَ: آيسَ اليهودَ بهذا لأنَّهم زعمُوا أنَّ آباءَهم منَ الأنبياءِ يشفَعُون لهم.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ لمَّا جرى ذكرُ الكعبةِ والقِبلةِ اتَّصلَ ذلك بذكرِ إبراهيمَ وأنَّه الذي بنى البيتَ، فكان من حقِّ اليهودِ ـ وهم من نسلِ إبراهيمَ ـ أنْ لا يرغَبُوا عن دينِه.

والابتلاءُ: الامتحانُ، ويرجعُ ذلك إلى إعلامِ الله عبادَه وملائكتَه، لا إلى استعلامِه ليَعلمَ بنفسِه.

وقيلَ: ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ أي: تعبَّدَه بكلماتٍ، فسمَّى التَّعبُّدَ ابتلاءً.

﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾؛ أي: بكلماتٍ كلَّمَه الله بهنَّ، وهي أوامرُه ونواهيه.

وقيلَ: بكلماتٍ أمرَ الله تعالى إبراهيمَ بأن يُكلِّمَ بها قومَه؛ أي: يُبلِّغَهم إيَّاها.

وفي التَّفاسيرِ: تلك الكلماتُ عشرُ خصالٍ، خمسٌ في الرَّأسِ: المضمضةُ،

---

(١) بعدها في (أ): «والله أعلم».

والاستنشاقُ، والسِّواكُ، والفَرْقُ، وقصُّ الشّاربِ، وخمسٌ في الجسدِ: تقليمُ الأظفارِ، وحَلقُ العانةِ، والختانُ، والاستنجاءُ، ونتفُ الرُّفْغَين، ذكرَه ابنُ عبّاسٍ[1].

وفي روايةٍ: هذه الكلماتُ ثلاثونَ سهمًا، عشرٌ منها في «الأحزابِ»، وعشرٌ في «براءة»، وعشرٌ في «المؤمنينَ» و﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾، فوفَّى إبراهيمُ عليه السَّلامُ بهنَّ، فقالَ الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧][2].

وفي روايةٍ: الكلماتُ: المناسكُ.

وقيلَ: هي أن ابتَلاه بذبحِ الولدِ، والنّارِ، والكوكبِ والشَّمسِ والقمرِ، والهجرةِ من وطنِه، والختانِ.

وقيلَ: التَّوحيدُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصَّومُ، والضِّيافةُ، وقَسْمُ الغنائمِ.

وقيلَ: هي[3] قولُه: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقولُه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾، و﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، ولهذا قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾، ولم يقُلْ: «وتكون».

الكلماتُ بمعنَى: المُتكلَّمِ به، كما يُذكَرُ الصَّيدُ بمعنى المَصِيدِ، والنَّسخُ بمعنى المنسوخِ.

ويجوزُ أن تُذكرَ الكلماتُ بمعنى الشَّرائعِ، كقولِه: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، فالكلماتُ: الشَّرائعُ؛ لأنَّ القولَ دخلَ في قولِه: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٦)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢١٩). وعندهم: «ونتف الإبط»، والرفغين: الإبطين. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٧٦) وقد ذكر الخبر دون نسبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٤٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٢٠).

(٣) بعدها في (أ): «في».

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾؛ أي: إبراهيمُ، وقيلَ: أتـمَّهُنَّ الله لـه، وأوجبَهُـنَّ عليـه، ووفَّقـه للقيـامِ بهـنَّ.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ لـمَّا ابتلاه بالكلماتِ فوفَّى بهنَّ شكرَ له ذلك فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

ويحتمِلُ أنَّه أرادَ: ابتَلاه الله وقالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾.

والإمامُ: مَن يُقتَدَى به، منَ الأَمِّ وهو القصدُ، فمَن ائتَمَّ به قومٌ فقد قصَدُوا سلوكَ طريقِه.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: واجعَلْ من أولادي أئمَّةً يُقتَدى بهم، والذُّرِّيَّةُ تقعُ على الأولادِ والنِّساءِ وعلى الآباءِ، قالَ الله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]؛ أي: آباءَهم الذين حُـمِلُوا في سفينةِ نوحٍ.

وهي «فُعْلِيَّةٌ» منَ الذَّرِّ، مثلُ «سُرِّيَّةٍ» منَ السِّرِّ، وهو النِّكاحُ، وذلك أنَّ الله أخرجَهم من صُلبِ آدمَ كالذَّرِّ، وأشهدَهُم على أنفُسِهم.

وقيلَ: «فُعْلِيَّةٌ» من ذَرَرْتُ؛ لأنَّ الله ذَرَّهُم في الأرضِ؛ أي: نشرَهُم.

وقيلَ: شبَّهَهم بالذَّرِّ في كثرةِ التَّوالدِ.

وقيلَ: أصلُ الذُّرِّيَّةِ: ذُرُّورَةٌ، على وزنِ فُعْلُولةٍ، فلما كثُرَ التَّضعيفُ أُبدلَ منَ الرّاءِ الأخيرةِ ياءٌ، فقيلَ: ذُرُّويَةٌ، ثمَّ أُدغِمَت الواوُ في الياءِ، فقيلَ: ذُرِّيَّةٍ، وهي منَ الذَّرِّ أيضًا كما تقدَّم.

وقيلَ: أصلُها «ذُرُّوءَةٌ» فتُرِكَ همزُها وأُبدِلَ منَ الهمزةِ ياءٌ، والسَّابقُ ساكنٌ فأُبدِلَ منَ الواوِ ياءٌ، وأُدغِمَت في الياءِ التي بعدَها، وكُسِرَتِ الرَّاءُ لتصِحَّ الياءُ، فهي إذًا من «ذرَأَ الله الخلقَ».

وقيلَ: هي «فُعْلِيَّةٌ» من قولِه: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أعلمَ إبراهيمَ أنَّ في ذُرِّيتِه الظّالمَ، فقال: مَن كان منهم ظالمًا لم ينَلْ عهدي، ولم يصلُحْ لأن يكونَ إمامًا يُقتَدَى به، أو: لا يصلُحُ للرَّحمةِ.

والعهدُ: الأمانُ والرَّحمةُ. وقيلَ: النُّبوّةُ. وقيلَ: الميثاقُ.

والمعنى: لا يصِلُ عهدي إليهم، كقولِه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، ويُقالُ: نالَني خيرُكَ، ونِلتُ خيرَكَ، وفي قراءةِ عبدِ الله: (لا ينالُ عهدي الظالمونَ)[1]؛ لأنَّ ما نالَكَ فقد نِلتَه.

***

(١٢٥) - ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: واذكُروا إذ جعَلْنا، عطفًا على قولِه: ﴿يا بني إسرائيل اذكُروا.. و﴾اذكروا ﴿إذ ابتلَى.. وإذ جعَلْنا البيتَ﴾.

وعنى بالبيتِ: البنيةَ التي هي الكعبةُ، ولهذا ذُكِرَ بالألفِ واللَّامِ.

﴿مَثَابَةً﴾ يُقالُ: ثابَ يثوبُ مَثابًا ومَثابَة وثُؤُوبًا وثَوَبانًا، فالمَثابةُ مصدرٌ وُصِفَ به، ويُرادُ به: الموضعُ الذي يُثابُ إليه، كما يُقالُ: «درهمٌ ضَرْبُ الأميرِ»، والمصدرُ قد يُوصَفُ به، يُقالُ: «رجلٌ عدلٌ رِضًى»؛ أي: مُعدَّلٌ مَرضِيٌّ، والمصدرُ المُؤنَّثُ يكونُ خبرًا عن المُذكَّرِ، تقولُ: «أكلُ الرُّمَّانِ لذَّةٌ»، و«ذِكرُ أخبارِ الصَّالحينَ عِظةٌ».

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦).

وقيلَ: المثابةُ: الموضعُ الذي يُثابُ إليه، وليست الهاءُ للتَّأنيثِ، بل هو كما يُقالُ للمجلسِ: مُقامٌ ومُقامةٌ، فالهاءُ للتَّخصيصِ، كالقُطْنةِ والصُّوفةِ.

وقيلَ: الهاءُ للمُبالغةِ في كثرةِ مَن يثوبُ إليه، كقولك: «رجلٌ علَّامةٌ ونسَّابةٌ».

وقيلَ: ﴿مَثَابَةً﴾؛ أي: يحُجُّونَ فيُثابونَ عليه.

﴿وَأَمْنًا﴾ هذا تأكيدُ الأمرِ باستقبالِ الكعبةِ؛ أي: ليس في بيتِ المقدسِ هذه الفضيلةُ، ولا يحجُّ إليه النّاسُ، ومَن استعاذَ بالحرمِ أمِنَ من أن يُغارَ عليه، وقد أوقعَ الله في قلوبِ العربِ تعظيمَ تلك البقعةِ.

وقيلَ: ﴿وَأَمْنًا﴾؛ أي: الأَوْلى أن يأمَنَ إليه الجاني، فإنْ أُخيفَ بإقامةِ الحدِّ عليه جازَ، فمَن شاءَ أمَّنَ ومَن شاءَ لم يُؤمِّنْ، كما أنَّه جعلَه مثابةً، فمَن شاء ثابَ ومَن شاء لم يثُبْ، ولا شكَّ أنَّ مَن أصابَ جريرةً في الحرمِ يُقامُ عليه الحدُّ وإن كانَ قصدُه لمَّا دخلَ الحرمَ أن يلتجِئَ إليه منَ الحدِّ الذي سيجِبُ.

وقيلَ: ﴿وَأَمْنًا﴾؛ أي: يأمَنُ أن يُبخَسَ الثَّوابَ.

﴿واتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلًّى﴾ قُرِئَ بفتحِ الخاءِ، وهو إخبارٌ عن ولدِ إبراهيمَ؛ أي: جعَلْنا البيتَ مثابةً واتَّخَذوه مُصلًّى، أو: وإذ جعَلْنا البيتَ مثابةً وإذ اتَّخَذوا، أو: وجعَلْناه مثابةً فاتَّخَذوه(١) مُصلًّى.

وقُرِئَ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ على الأمرِ(٢)، قال ابنُ عبَّاسٍ: قال عمرُ: لو صلَّيتَ بنا يا

---

(١) في (أ): «واتخذوه».

(٢) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٦).

رسولَ الله خلفَ المقامِ، فنزلَ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، ففعَلَ رسولُ الله ﷺ ذلك[١].

وقيلَ: جعَلْنا البيتَ مثابةً، وقُلنا: اتَّخِذوا، كقولِه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ﴾ [البقرة: ٦٣]؛ أي: وقُلنا: ﴿خُذُواْ﴾.

ثمَّ؛ قيلَ: مقامُ إبراهيمَ: الحجرُ الذي قام عليه إبراهيمُ، وهو الذي يَعْرِفُه النَّاسُ اليومَ بالمقامِ، ثمَّ قيلَ: هو الحجرُ الذي وضعَتْه زوجةُ إسماعيلَ تحتَ قدَمِ إبراهيمَ حتَّى غسلَتْ رأسَه، فبقيَ أثرُ قدمِه في الحجرِ مُعجزةً له.

وقيلَ: الحجرُ الذي وضعَه إسماعيلُ تحتَ قدَمِ إبراهيمَ في حالِ بناءِ البيتِ لـمَّا ضَعُفَ إبراهيمُ عن رفعِ الحجارةِ.

قال أنسٌ: رأيتُ في المقامِ أثرَ أصابعِه وعقبِه وأخمصِ قدمِه، غيرَ أنَّه أذهبَه مسحُ النّاسِ بأيديهم[٢].

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، كقولك: اتَّخذتُ من فلانٍ صديقًا، فـ﴿مِن﴾ لبيانِ المُتَّخَذِ وتمييزِه من غيرِه.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ والرواية الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٠٣). ورواه الترمذي (٢٩٥٩) من طريق حماد بن سلمةَ، عن حُميدٍ، عن أنس: أن عمر قال: يا رسول الله، لو صلَّينا خلف المقام. فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، قال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيح.
ورواه البخاري (٤٠٢) من طريق هشيم، عن حُميدٍ، عن أنس، عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وافَقتُ ربِّي في ثلاثٍ: فقُلتُ: يا رسول الله، لو اتَّخذْنا من مقام إبراهيم مُصلًّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.. الحديث.

(٢) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٩٨٦)، والواحدي في «الوسيط» (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

وقيلَ: مقامُ إبراهيمَ: البيتُ؛ قال النَّخَعيُّ: الحرَمُ كلُّه مقامُ إبراهيمَ(١).

وقيلَ: المسجدُ مقامُ إبراهيمَ.

وفي روايةٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: التَّعريفُ، والصَّلاةُ بعرفةَ، والصَّلاةُ بالمشعرِ الحرامِ، ورَميُ الجمارِ، والسَّعيُ بينَ الصَّفا والمروةِ: مقامُ إبراهيمَ(٢).

والمقامُ في اللُّغةِ: موضعُ القدمَينِ.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾؛ أي: أوصَينا إليهما وأمرناهُما: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾؛ أي: ابنِياه مُطهَّرًا منَ الشِّركِ والرِّيَبِ، أو: عرِّفا النَّاسَ أنَّه مُطهَّرٌ لهم متى حجُّوه؛ أي: اجعَلاه طاهِرًا عندَهم، وهو كما يُقالُ: الشّافعيُّ يُطهِّرُ كذا والحنفيُّ يُنجِّسُه؛ أي: يحكمُ بذلك.

وقيلَ: أي: لا تدَعا أحدًا من أهلِ الشِّركِ يُزاحمُ الطَّائفين، وطهِّراه من أهلِ الكفرِ.

وقيلَ: كان للكفَّارِ أصنامٌ في مكانِ البيتِ، فلهذا قال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾.

---

(١) ذكره عن النخعي الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٨٩)، ورواه ابن زنجويه في «الأموال» (٢٥٢)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١٥٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٢٦) و(٣/ ٧١١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه ابن زنجويه في «الأموال» (٢٥١)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١٤٥٦)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٢٦) من قول مجاهد.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٥٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٢٦)، من طريق عطاء عن ابن عباس بلفظ: الحج كله مقام إبراهيم، ثم فسر عطاء ذلك في رواية ابن أبي حاتم بما تقدَّم.

وقيلَ: كان مكانُ البيتِ قبلَ أن يُبنَى مزبلةً يُلقَى عليها الفَرْثُ والدَّمُ، وكان ذلك المكانُ يُسمَّى بيتَ الله.

وقيلَ: طهِّرا بيتيَ الذي أمرتُكما ببنائِه(١).

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾؛ أي: نظِّفاه وبخِّراه وخلِّقاه للطَّائفين(٢).

يُقالُ: طافَ يطوفُ ويَطِيفُ طَوْفًا وطَوَافًا وطَوَفانًا، وأطافَ يُطيفُ، بمعنًى واحدٍ.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ عكَفَ على الشَّيءِ؛ أي: أقامَ عليه، يعني بالطَّائفينَ: نُزَّاعَ الآفاقِ، وبالعاكفينَ: أهلَ مكّةَ، وبالرُّكَّعِ السُّجودِ: جميعَ المسلمين.

***

(١٢٦) - ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾؛ أي: واذكروا دعوةَ إبراهيمَ حتَّى لا تُنكِرُوا أن يجعلَ الله هذا البيتَ قبلةً.

والبلدُ: جمعُ بلدةٍ، ويجوزُ أن يكونَ واحداً وجمعُه بلدانٌ وبلادٌ، ويُطلَقُ البلدُ على كلِّ موضعٍ منَ الأرضِ عامرٍ أو غامرٍ، مسكونٍ أو خالٍ، والبلدُ أيضًا: الموضعُ الخالي، والمَفَازةُ، ومنه يُقالُ للموضعِ الخالي منَ الكواكبِ بينَ النَّعائمِ وسعدِ

---

(١) في (أ): «ببنيانه».

(٢) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٠٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٩٧)، الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٠٧)، عن يمان بن رئاب.

الذَّابحِ: بلدةٌ، وللَّذي ليس[1] مقرونَ الحاجبَينِ: أبلَدُ؛ لخلوِّ ذلك المكانِ عن الشَّعرِ، والأصلُ في الكلمةِ: الأثرُ، وفي الغالبِ يُسمَّى الموضعُ المسكونُ البلدَ؛ لأنَّ أثرَ النّاسِ قد بدا فيه بالاستيطانِ.

ومقصودُ إبراهيمَ بهذا الدُّعاءِ: أن يجعلَ الله ذلك الموضعَ مسكونًا.

ويُقالُ: رجلٌ بليدٌ؛ أي: أثرُ الجهلِ فيه بيِّنٌ.

﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: يُؤمَنُ فيه، كقولِك: ليلٌ نائمٌ، وهمٌّ ناصبٌ.

وقيلَ: ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: ذا أمنٍ، كقولكَ: لابِنٌ وتامِرٌ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿ءَامِنًا﴾؛ أي: حرامًا مُحرَّمًا، لا يُصادُ طيرُه، ولا يُقطَعُ شجرُه، ولا يُخْتَلَى خَلَاهُ، ولا يدخلُه أحدٌ إلا بإحرامٍ، ولـم يَحِلَّ لأحدٍ إلا الساعةَ التي حلَّ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ[2].

وقيلَ: أمْنُه: أنْ لا يُتخَطَّفَ النَّاسُ منه، ولا يُجلَونَ عنه كما أُجليَ النَّاسُ عن بيتِ المقدسِ.

وقيلَ: آمنًا ممَّن يزيلُ حجَّ النّاسِ منَ الجبابرةِ عنه، فقد قصدَه أصحابُ الفيلِ

---

(١) في (أ): «وللذي غير».

(٢) رواه بنحوه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وستأتي قطعة منه قريباً. وليس فيه قوله: «ولا يدخله أحد إلا بإحرام»، وهذا رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣٥١٧) عن ابن عباس قال: «لا يدخل أحد مكة بغير إحرام إلا الحطابين العجالين وأهل منافعها».

لكن قد ورد جواز ذلك، ففي البخاري قبل الحديث (١٨٤٤): (بابُ دخول الحرم ومكة بغير إحرامٍ) وفي مسلم قبل الحديث (١٣٥٧): (بابُ جواز دخول مكة بغير إحرامٍ).

لنقلِ الحجِّ إلى بلادِهم فلم يتمَّ لهم ذلك، ولا تخلو الكعبةُ من طائفٍ وحاجٍّ ومُعتمرٍ.

وفي الخبرِ: «اللَّهمَّ إنِّي حرَّمتُ المدينةَ كما حرَّمَ إبراهيمُ مكَّةَ»(١)، فدلَّ هذا على أنَّ هذا الأمنَ حدَثَ في وقتِ إبراهيمَ.

وفي خبرٍ آخرَ: «إنَّ مكَّةَ حرَّمَها الله يومَ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، ولـم تحِلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ بعدي، وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعةً من نهارٍ»(٢)، فلعلَّ ما سألَه إبراهيمُ هو الأمنُ منَ القحطِ والجدوبةِ، أو تجدَّدَ به تحريمُ الصَّيدِ والجلاءِ، فلهذا أُضيفَ إليه التَّحريمُ.

وقولُه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا التَّحريمَ كان قبلَ إبراهيمَ.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الثَّمرةُ: حملُ الشَّجرةِ، فاستجابَ الله دعاءَ إبراهيمَ، فهي الآنَ تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ.

قال ابنُ عبّاسٍ: ذكروا أنَّ الله أمرَ جبريلَ حتَّى اقتلعَ الطّائفَ منَ الشّامِ من موضعِ الأردُنِّ، ثمَّ طافَ بها حولَ الكعبةِ سبعاً، فلذلك سُمِّيت الطّائفَ، ثمَّ أنزلَـها تهامةَ، ومنها تُجبى إلى مكّةَ الثَّمراتُ(٣).

﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ بدلٌ من قولِه: ﴿أَهْلَهُۥ﴾، وهو بدلُ البعضِ منَ الكلِّ، ولـمَّا قالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قالَ إبراهيمُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾.

وقال ابنُ عبّاسٍ: كانت دعوةُ إبراهيمَ يومَئذٍ وأهلُها مؤمنونَ، فما زالوا على

---

(١) رواه مسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٠٧) من رواية عطاء عن ابن عباس، وإسناده واه، وروى معناه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٣٠) عن الزهري ومحمد بن مسلم الطائفي.

إيمانٍ حتَّى غيَّرَ ذلك عمرُو بنُ لحيٍّ الخزاعيُّ، وهو الذي قال رسولُ الله ﷺ: «رأيتُه في جهنَّمَ يجرُّ قُصْبَه في النّارِ»، وكان أوَّلَ مَن غيَّرَ دينَ إبراهيمَ وعبَدَ الأصنامَ، وسيَّبَ السّائبةَ، وبحَرَ البحيرةَ، وحمى الحامي، وقهَرَ أهلَ مكّةَ[1].

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾؛ أي: أرزُقُ الكفرةَ أيضًا مُدَّةً.

قُرِئَ ﴿فأُمتِعُه﴾ بالتَّشديدِ وبالتَّخفيفِ[2].

﴿قَلِيلًا﴾ هو صفةٌ للمصدرِ؛ أي: متاعًا قليلًا، وذلك أنَّه إلى نفادٍ.

وقيلَ: زمانًا قليلًا؛ يعني: مُدَّةَ عمرِ الكافرِ.

وقيلَ: أي: إلى خروجِ محمَّدٍ ﷺ، فإذا بعثْتُه مُنِعَ الكفَّارُ عن مكَّةَ، فالمتاعُ هو المُقامُ في الحرمِ، فكأنَّ إبراهيمَ سألَ أنْ لا يسكُنَ مكّةَ إلا مؤمنٌ، فقالَ الله: يسكنُها الكفّارُ إلى مبعثِ محمَّد عليه السَّلامُ.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: أُلجِئُه في الآخرةِ إلى عذابِ النّارِ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه اختصارٌ؛ أي: بئس المصيرُ النّارُ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣١٣) عن ابن عباس دون سند، وقد وردت الأحاديث بمعناه:
فقد روى ابن أبي عاصم في «الأوائل» (١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٨٠٨)، و«الأوسط» (٢٠١) من طريق ابن أبي ذئب عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس مرفوعاً: «أول من غير دين إبراهيم عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٦): وفيه صالح مولى التوأمة وضعفوه بسبب اختلاطه وابن أبي ذئب سمع منه قبل الاختلاط.
وروى البخاري (٣٥٣٣)، ومسلم (٢٨٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «رأيتُ عمرو بن عامر بن لُحيٍّ الخزاعيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار وكان أولَ مَن سَيَّب السَّوائب».
ورواه البخاري (١٢١٢) أيضاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) بالتخفيف قراءة نافع، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٦).

(١٢٧) - ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾؛ أي: واذكروا ذلك، والقُعودُ: الثَّباتُ، ومنه: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]؛ أي: مثابتَ ومراكزَ، وقعدَتِ المرأةُ عن المحيضِ؛ أي: ثبتَتْ على حالةِ الطُّهرِ، وقعدَتِ الفَسيلةُ؛ أي: ثبتَتْ في الأرضِ، والقواعدُ: أصولُ الأساسِ، الواحدةُ: قاعدةٌ.

ثمَّ؛ قيلَ: إنَّها قواعدُ كانت في مكانِ البيتِ قبلَ إبراهيمَ من وضعِ آدمَ، فعفا ودرَسَ أثرُها حتَّى بيَّنَ الله لإبراهيمَ مكانَها، والرَّفعُ في هذه الآية بمعنى وضعِ البناءِ على تلك القواعدِ.

وقيلَ: هي قواعدُ وضعَها إبراهيمُ، فالرَّفعُ بمعنَى البناءِ.

﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: بيتِ الله ﴿وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ الظَّاهرُ أنَّهما كانا يرفعانِ البيتَ، وسألا اللهَ القبولَ؛ لأنَّهما بَنَيا لا لسُكنَى أنفُسِهما بل لعبادةِ الله.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾؛ أي: يقولانِ: ربَّنا تقبَّلْ منَّا.

وقيلَ: كان إبراهيمُ الباني، وكان إسماعيلُ صغيرًا، ولكنَّه كان يدعو، وعلى هذا فالوقفُ عندَ قولِه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، ثمَّ نبتدئُ: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا﴾؛ أي: يقولُ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدُعائِنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبِنا.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾؛ أي: مُنقادين، وهو سؤالُ البقاءِ على الإيمانِ.

وقيلَ: سؤالُ الزِّيادةِ منَ اليقينِ، كقولِه: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ أي: جماعةً مسلمةً لك، والأُمَّةُ: الجماعةُ، فلم يَخْلُ أولادُ إبراهيمَ ممَّن يُوحِّدُ الله ويعبدُه ولا يُشركُ به شيئًا، ولـم تَزَلِ الرُّسلُ من ذرِّيةِ إبراهيمَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾؛ أي: أمَّةَ محمَّدٍ منَ المُهاجرينَ والأنصارِ والتَّابعينَ بإحسانٍ(١).

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ أي: مواضعَ مناسكِنا، كالمواقيتِ، وموضعِ الوقوفِ والمطافِ، وموضعِ رميِ الجمارِ، فهو من رُؤيةِ العينِ.

وقيلَ: أي: علِّمْنا شرائعَ حجِّنا، ومثلُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥].

والمناسكُ: جمعُ مَنْسَكٍ، وهو المصدرُ؛ أي: أرِنا مواضعَ مناسكِنا، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: المنسَكُ هو الموضعُ، فلا يحتاجُ إلى حذفٍ، والمنسَكُ: المُتعبَّدُ، وكذلك المنسِكُ، ومنه يُقالُ للعابدِ: ناسِكٌ، وللذَّبيحةِ التي يُتقرَّبُ بها إلى الله: نَسيكةٌ، ويُقالُ: نَسَكَ؛ أي: ذَبَحَ، ونَسَكَ؛ أي: عبَدَ.

وقُرِئَ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ و: ﴿مَنْسِكاً﴾(٢) [الحج: ٣٤].

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٢٠) ولعله من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بكسر السين والباقون بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

ثمَّ قيلَ: هما بمعنًى واحدٍ، مثلُ: ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ و﴿مَطْلِعِ الفَجْرِ﴾[1].

والظّاهرُ أنَّه يُريدُ بقولِه: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: مناسكَ الحجِّ، وقيلَ: أي: علِّمْنا كيفَ نعبُدُك، وبمَ نتقرَّبُ إليك؟

وقرأ ابنُ كثيرٍ وقومٌ: ﴿وأَرْنا مناسِكَنا﴾ بسكونِ الرّاءِ[2]، وهو جائزٌ، كما يُقالُ: «فَخْذٌ وعَضْدٌ» في «فَخِذٍ وعَضُدٍ»، وهو كقراءة أبي عمرٍو: ﴿بارِئْكم﴾ و﴿يأمُرْكم﴾ بالجزمِ[3].

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: ارجِعْ بنا إلى أفضلِ دينِكَ وطاعتِكَ، لا أنَّه كانَ لهما ذنبٌ.

وقيلَ: أرادَ: منَ الصَّغائرِ.

وقيلَ: المقصودُ أن يُتأدَّبَ بأدبِهما في الرَّغبةِ في التَّوبةِ.

وقيلَ: رجعَ الدُّعاءُ إليهما وإلى الذُّرِّيةِ؛ أي: أرِهم مناسِكَهم، وتُبْ عليهم.

* * *

(١٢٩) - ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾؛ أي: في ذُرِّيتِنا، أو ترجعُ الكنايةُ إلى الأمّةِ في قولِه ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وذُرِّيةُ إبراهيمَ هم العربُ.

---

(١) قرأ بكسر اللام الكسائي، والباقونَ بفتحها، انظر: «السبعة» (ص: ٦٩٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٠)، و«التيسير» (ص: ٧٦).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ٧٣)، وفيه: أن أبا عَمْرو قرأ باختلاس الحركة في ذلك كله من طريق البغداديين وهو اختيار سيبويه، ومن طريق الرقيين وغيرهم بالإسكان.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أرادَ محمَّدًا عليه السَّلامُ[1]، ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جُملتِهم يعترفون به و[2]يعرفُونَ مولدَه ومنشأه ونسبَه؛ ليكونَ ذلك أقربَ إلى علمِهم بصدقِه، وليكونَ أشفَقَ عليهم من أجنبيٍّ لو أُرسِلَ إليهم، ومقصودُ هذا الدُّعاءِ: أن يكونَ في ولدِ إسماعيلَ أيضًا نبيٌّ.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾؛ أي: القرآنَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الكتبَ المُنزلةَ على سائرِ الأنبياءِ، وذلك لأنَّه[3] إذا علَّمَهم القرآنَ ففيه معاني سائرِ الكتبِ.

وقيلَ: عنَى: الآياتِ الدَّالَّةَ على التَّوحيدِ وصدقِ الرُّسلِ وعلى أحكامِ الشَّرعِ.

وقيلَ: الآياتُ والكتابُ بمعنًى واحدٍ، وأفرَدَهما بالذِّكرِ لأنَّ التَّعليمَ إنَّما يحصلُ بالتَّكريرِ عليه لا بالتِّلاوةِ مرَّةً، وبالتَّعليم[4] يخرجُ عن أن يكونَ أُمِّـيًّا.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيلَ: الحكمةُ نفسُ الكتابِ، فجُمِعَ لاختلافِ اللَّفظَينِ، وقال الشَّافعيُّ: الحكمةُ: سنَّةُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الذي يُقرَنُ بالكتابِ هو السُّنَّةِ، قالَ الله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]؛ أي: السُّنَّةِ.

وقيلَ: الحكمةُ: الفصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهو الحكمُ، فهو مصدرٌ كالجِلسةِ والقِعدةِ، وهو كالخُبْرِ والخِبْرةِ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قيلَ: الزَّكاةُ: الزِّيادةُ؛ أي: تحملُهم على الازديادِ منَ الخيراتِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٢٣) ولعله من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) «يعترفون به و» من (أ).

(٣) في (أ): «أنه».

(٤) في (ف): «وبالتعلم».

وقيلَ: يُصيِّرُهم بما يُعلِّمُهم أزكياءَ عندَ الله.

وقيلَ: يشهدُ لهم يومَ القيامةِ بالعدالةِ إذا شهدوا للأنبياءِ بالتَّبليغِ.

وقيلَ: يُطهِّرُهم منَ الشِّركِ.

وقيلَ: يأخذُ زكاةَ أموالِـهم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: لا يمنعُك أحدٌ ممَّا تُريدُ، و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيعُ الذي لا تنالُه الأيدي، مِن عزَّ يعَزُّ بفتحِ العينِ في المُستقبلِ؛ أي: اشتدَّ، وتعزَّزَ لحمُ النَّاقةِ؛ أي: صلُبَ، والعَزَازُ: الأرضُ الصُّلبةُ.

وقيلَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يُوجَدُ مثلُه، من عزَّ يعِزُّ بكسرِ العينِ في المستقبلِ؛ أي: قَلَّ حتَّى لا يكادُ يوجدُ.

وقيلَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القويُّ الغالبُ، من عزَّه يعُزُّه بضمِّ العينِ؛ أي: غلبَه، ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، ومنه: (مَن عزَّ بزَّ)(١).

وقيلَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: المُعِزُّ، كالسَّميعِ بمعنى: المُسمِعِ.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: المُحكِّمُ لأفعالِكَ، المُصيبُ فيها، العالِـمُ بها وبكلِّ معلومٍ.

* * *

(١٣٠) ـ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ هذا استفهامٌ بمعنى التَّقريرِ والتَّوبيخِ؛ أي:

---

(١) أي: مَن غَلَب سَلَب. انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١١٣)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ١٤٥)، و«جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (٢/ ٢٨٨).

ما يرغبُ، ويُقالُ: «رغِبَ عن الشَّيءِ»؛ أي: ترَكَه، و«رغِبَ فيه»؛ أي: أرادَه، فلمَّا ذكرَ أمرَ إبراهيمَ وما جرَى على يدِه من بناءِ الكعبةِ وشَرْعِ المناسكَ عجَّبَ النَّاسَ ممَّن يَزْهدُ في ملَّتِه منَ المشركينَ واليهودِ والنَّصارى؛ لأنَّ العربَ من أولادِ إبراهيمَ، وكذلك اليهودُ والنَّصارى.

﴿إِلَّا مَن سَفِهَ﴾؛ أي سفِهَ في نفسِه، وحرفُ الجرِّ قد يُحذَفُ كقولِه: ﴿إلا أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ أي: لأولادِكم، وقولِه: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]؛ أي: عليها، ويُقالُ: «ضرَبَ فلانٌ الظَّهرَ والبطنَ»؛ أي: على الظَّهرِ والبطنِ.

وقيلَ: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ بمعنى: جهِلَ نفسَه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: إلَّا مَن خسِرَ نفسَه(١).

وقيلَ: أرادَ: إلا مَن سفِهَ حقَّ نفسِه، فحُذِفَ المُضافُ.

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: اختَرْناه للرِّسالةِ، وهو افتعالٌ منَ الصَّفوةِ، وقُلِبَتِ التّاءُ طاءً لأنَّها أشبهُ بالصّادِ؛ أي: أخذناه صافيًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: ليس في الأرضِ خلقٌ إلا وهو يذكُرُه بالخيرِ(٢).

وقيلَ: اصطفَيناه في الدُّنيا بالنُّبوَّةِ أو الخلَّةِ.

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لا يُثْلَبون، ولم يلحَقْهُم فسادٌ.

وقيلَ: لفي زُمرةِ نوحٍ وآدمَ؛ أي: مع آبائِه في الجنّةِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣٢)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٣٥)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ١٥٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٣٥)، ولعله من رواية عطاء عن ابن عباس.

وقالَ البَجَليُّ: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: اصطفَيناه في الدُّنيا والآخرةِ، وإنَّه لمنَ الصّالحينَ، ومثلُه في النَّحلِ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢][1].

* * *

(١٣١) - ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾؛ أي: اصطَفاه إذ قالَ له ربُّه؛ أي: حينَ قالَ له ربُّه.

والإسلامُ: الانقِيادُ، وقيلَ: الإخلاصُ، وهو منَ السَّلامةِ؛ أي: ليَسلَمْ دِينُكَ منَ الشِّركِ.

ثمَّ قيلَ: قال له بواسطةٍ، أو إسماعًا بلا واسطةٍ: ﴿أَسْلِمْ﴾، فقالَ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾.

وقيلَ: لـم يكُنْ ثَمَّ قولٌ ظاهرٌ، بل كانَ له دلالةٌ كقولِه: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، فجعلَ دلالةَ البرهانِ كلامًا.

ثمَّ قيلَ: قالَ له ذلك حين خرجَ منَ السَّرَبِ فنظرَ إلى النَّجمِ والقمرِ والشَّمسِ، وعلى هذا فالأنبياءُ يجوزُ عليهم قبلَ الوحيِ الشِّركُ والكبائرُ، وإنَّما تجبُ العصمةُ فيما يُؤدِّي إلى التَّبليغِ من وقتِ البعثةِ.

وقيلَ: إنَّما قالَ له هذا بعدَما وفَّى بالكتابِ، وبعد النُّبوَّةِ؛ أي: دُمْ على الإسلامِ، كقولِه لنبيِّنا عليه السَّلامُ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ [النساء: ١٣٦].

وقيلَ: أسلِمْ؛ أي: أسلِمْ نفسَكَ إلى الله، وفوِّضْ أمرَكَ إليه، وتوكَّلْ عليه.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣٥)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٣٦)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ١٥٣).

وقولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾، ولـم يقُلْ: «إذ قُلْنا» من بابِ تلوينِ الخطابِ.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَه بلسانِه، وصدَّقَه بفعلِه.

وقيلَ: لـم يكُنْ ثَمَّ قولٌ، بل استسلمَ بجميعِ جوارحِه لله عزَّ وجلَّ.

* * *

(١٣٢) ـ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ يُقالُ: وصَّى يُوصِّي توصيةً، وأوصَى وَصاةً، وأصلُ الكلمةِ منَ الوصلِ، يُقالُ: وَصَى الشَّيءُ: إذا اتَّصَلَ، ووَصَيْتُ الشَّيءَ؛ أي: وصَلْتُه، فهو لازمٌ وواقعٌ، وسُمِّيت الوصيةُ وصيَّةً لاتِّصالِـها بالميِّتِ وأمرِه.

وقُرِئَ ﴿وَوَصَّىٰ﴾ ﴿وأوصى﴾[1].

﴿بِهَآ﴾؛ أي: بهذه الكلمةِ التي أمرَه الله بأن يقولَها فقالَها، وهي قولُه: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيلَ: ترجعُ الكنايةُ إلى الوصيّةِ؛ لأنَّه ذكرَ (وصَّى) والفعلُ يدلُّ على المصدرِ وعلى الاسمِ منه.

وقيلَ: ترجعُ إلى المِلَّةِ؛ إذ قد جرى ذِكرُها، وهو ﴿مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

وقيـلَ: ترجـعُ الكنايـةُ إلى غيـرِ مذكـورٍ، والمعنى: وصَّـى بالطّاعـةِ، أو بكلمةِ الإخـلاصِ، وهـي: «لا إلـهَ إلا الله»، **ومثـلُ هـذا جائـزٌ** كقولِـه: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا

---

(١) قرأ بالثانية نافع وابن عامر، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ١٧١)، و«التيسير» (ص: ٧٧).

﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]؛ أي: الجنَّة، ولـم يسبِقْ لـها ذِكرٌ، وقالَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

﴿يَٰبَنِيَّ﴾ قيلَ: أرادَ «أن يا بنيَّ»، فحذفَ «أنْ».

قال الفرَّاءُ: الوصيَّةُ قولٌ، وكلُّ كلامٍ يرجعُ إلى القولِ جازَ فيه دخولُ «أنْ» وجازَ إلقاؤُه، كقولِه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء: ١١]، ولـم يقُلْ: «أنْ للذَّكرِ»، ولأنَّ المعنى: قالَ الله: ﴿لِلذَّكَرِ﴾، ومثلُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: ٩]؛ لأنَّ الوعدَ قولٌ[١].

وقُرِئَ: (ويعقوبَ) بالنَّصبِ[٢] عطفًا على ﴿بَنِيهِ﴾، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ يعقوبَ لـم يكُنْ فيما بيـنَ أولادِ إبراهيـمَ لمَّا وصَّاهُم، ولـم يُنقَلْ أنَّ يعقوبَ أدرَكَ جدَّه إبراهيـمَ، وإنَّما وُلِدَ بعدَ موتِ إبراهيـمَ، بل إنَّ يعقوبَ أوصَى بنيه أيضًا كما فعلَ إبراهيمُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ كُسِرَتْ ﴿إِنَّ﴾ لأنَّ الوصيّةَ قولٌ؛ أي: قالَ لهم: إنَّ الله اصطَفَى ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: دينَ الإسلامِ، والألفُ واللَّامُ للعهدِ.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ يُقالُ: ماتَ يموتُ موتاً ومِيتةً ومَماتًا، والمَوْتةُ: المرَّةُ؛ أي: لا يُصادِفَنَّكم الموتُ ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ كقولِك: «لا أرَيَنَّكَ»، فوقعَ حرفُ النَّهيِ على الرُّؤيةِ وأنتَ لـم تنهَ نفسَكَ، بل نهيتَ المُخاطَبَ؛ أي: لا تقرَبَنَّ هذا الموضعَ.

* * *

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٨٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧) عن عمرو بن فائد وطلحة.

(١٣٣) ـ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ هذا مُحاجَّةٌ مع اليهودِ إذ قالوا: إنَّ يعقوبَ أوصَى بنيه يومَ ماتَ باليهوديَّةِ؛ أي: بل أَكُنْتُم؟ كأنَّه تركَ الكلامَ الأوَّلَ واستفهَمَهُم.

وقيلَ: ﴿أَمْ﴾ هاهنا بمعنى: «هل»، وفيه إضمارُ استفهامٍ؛ أي: أبَلَغَكُم ما تقولونَ عن يعقوبَ أم كنتُم شهداءَ حضرتُم وصيَّتَه؟

﴿إِذْ حَضَرَ﴾ نصبٌ؛ أي: وقتَ حضَرَ، والشُّهودُ: الحضورُ.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾؛ أي: لأولادِه، وهم اثنا عشرَ سبطًا.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ الآباءُ: جمعُ الأبِ، يُقالُ: هذا أَبُكَ، وفي التَّثنيةِ: أبانِ، وفي الجمعِ: أبونَ، وهذا أبوكَ، وفي التَّثنيةِ: أبَوانِ، وفي الجمعِ: آباءٌ.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أدخلَه في الآباءِ وكانَ عمَّ يعقوبَ؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي العمَّ أبًا.

وفي الخبرِ أنَّه قالَ للعبَّاسِ: «هذا بقيَّةُ آبائي»(١)، وقالَ عامَ الفتحِ لـمَّا قدَّمَ العبّاسَ ليدعوَ قُريشاً إلى الله قبلَ القتالِ: «رُدُّوا عليَّ أبي، رُدُّوا عليَّ أبي»(٢).

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٢١٢) عن مجاهد مرفوعاً مرسلًا، والطبراني في «الكبير» (١١١٠٧) من حديث ابن عباس، وفي «الأوسط» (٤٢٠٩) من حديث الحسن بن علي، رضي الله عنهم، وفي إسناديهما ضعف.

(٢) قطعة من خبر طويل رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٩٠٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ٣١٢ ـ ٣١٥)، عن عكرمة مرسلاً.

وقُرِئَ: (وإله أبيك)[1]، فيجوزُ أن يكونَ جمعَ الأبِ، ويحتمِلُ أنَّه وحَّدَ الأبَ كراهةَ أن يجعلَ إسماعيلَ من جملةِ الآباءِ، والتَّقديرُ: إلهَ أبيكَ إبراهيمَ، وإلهَ إسماعيلَ وإسحاقَ.

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾؛ أي: في حالِ وحدانيَّتِه، ويجوزُ أن يكونَ نصباً على البدلِ؛ أي: بعد موتِكَ نعبدُ إلـهًا واحدًا، ونحنُ الآنَ في حياتِكَ مسلمونَ له، إيَّاه نعبدُ، وقدَّمَ ذكرَ إسماعيلَ لأنَّه كانَ أسنَّ من إسحاقَ.

* * *

(١٣٤) - ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: لا تُؤاخَذُونَ بأعمالِهم، بل تُؤاخَذُونَ بأنفُسِكُم، و«تلكَ» اسمٌ للمُؤنَّثِ، واللّامُ عمادٌ للتَّاءِ، والكافُ خطابٌ، وكُسِرَتِ التّاءُ من «تِلكَ» علامةً للتَّأنيثِ.

﴿خَلَتْ﴾؛ أي: مضَتْ.

ومعنى الآيةِ: ادَّعَيتُم على يعقوبَ التَّهوُّدَ وقد برَّأه الله منه، ولم يكُنْ لكم فيه حُجَّةٌ، وما كنتُم شهداءَ إذ حضرَه الموتُ، على أنَّ تلكَ الأممَ لو كانت مُخطِئةً كما زعمتُم فما عليكم منهم، وإنَّما تُؤاخَذُونَ بأعمالِكم، ولا يجوزُ لكم التَّقليدُ.

* * *

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧) عن يحيى بن يعمر.

(١٣٥) ـ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾؛ أي: دعَتِ اليهودُ إلى دينِهم، والنَّصارى إلى دينِهم ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ: ﴿بَلْ﴾ نتَّبعُ دينَ إبراهيمَ؛ فإنَّكم مُقِرُّونَ بنُبوَّتِه، فالواجبُ اتِّباعُ مَن اتُّفِقَ عليه. نزلَتْ في يهودِ المدينةِ ونصارى نجرانَ إذ اختَصَمُوا بين يدَي رسولِ الله.

﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: بل نتَّبعُ ملّةَ إبراهيمَ، فالفعلُ مُضمَرٌ.

وقيلَ: هو عطفٌ على المعنى؛ لأنَّ قولَه: ﴿كُونُوا هُودًا﴾: اتَّبِعُوا اليهودَ، فقالَ الله: ﴿بَلْ﴾ اتَّبِعوا ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقالَ الزَّجَّاجُ: أي: بل نكونُ أهلَ ملَّةِ إبراهيمَ، فحُذِفَ الأهلُ، كقولِه: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][(١)].

﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: في حالِ حنيفيَّتِه، وقال الكوفيونَ: انتصبَ على القطعِ؛ أي: ملَّةَ إبراهيمَ الحنيفَ، فقُطعَ عنه الألف واللّام.

والحنيفُ: العادلُ من دينٍ إلى دينٍ، وكانوا في الجاهليَّةِ يُسمُّونَ مَن اخْتَتَنَ وحجَّ البيتَ حنيفاً، والأحنفُ: المائلُ القدَمِ.

وقيلَ: الحنيفُ: المُستقيم.

والقولانِ مُتقاربانِ؛ لأنَّ الميلَ منَ الباطلِ استقامةٌ على الحقِّ.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وأنتم معاشرَ اليهودِ والنَّصارى مُشركون؛ لأنَّ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢١٣).

النَّصارى مُثلِّثةٌ، واليهودَ مُشبِّهةٌ، وفيهم مَن يقولُ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ كما قالتِ النَّصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

* * *

(١٣٦) - ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ أي: القرآن.

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾؛ أي: وَلَدِ إسحاقَ، وهي بمنزلةِ القبائلِ في ولدِ إسماعيلَ، فولدُ كلِّ واحدٍ من أولادِ يعقوبَ سِبْطٌ، وولدُ كلِّ واحدٍ من أولادِ إسماعيلَ قبيلةٌ، والقبيلةُ: الجماعةُ، والسِّبْطُ مُشتَقٌّ منَ السَّبَطِ، وهو ضربٌ منَ الشَّجرِ تعتلِفُه الإبلُ، فكأنَّه جعلَ إسحاقَ بمنزلةِ شجرةٍ، والأولادَ بمنزلةِ الأغصانِ، وكانَ في الأسباطِ أنبياءُ، ولهذا قالَ: (وما أنزل إليهم)[1].

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: لا نكفرُ ببعضٍ ونُؤمنُ ببعضٍ، و﴿بَيْنَ﴾ تقتَضي اثنَين ولكنَّ لفظَ ﴿أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يقعُ على الاثنَين والجمعِ، تقولُ: «ما عندي أحدٌ يتكلَّمون»، فلهذا جاز دخولُ ﴿بَيْنَ﴾ عليه، كما تقولُ: «لا نُفرِّقُ بين قومٍ منهم».

وقيلَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: لا نقولُ: إنَّهم مُتفرِّقون في أصولِ الدِّياناتِ، بل هم مُجتمعونَ على الأصولِ.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مُنقادُونَ.

* * *

(١) يريد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾.

(١٣٧) ـ ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قولُه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ أي: آمَنُوا بمثلِ إيمانِكم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ والباءُ للتَّأكيدِ كقولِه: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥].

وقيلَ: أي: فإنْ آمَنُوا بكتابِكم كما آمنتُم أنتم بكتابِهم، فالمُرادُ بالمثْلِ: الكتابُ.

وقيلَ: (مِثْل) صلةٌ؛ أي: فإنْ آمَنُوا بما آمنتُم به.

﴿فِى شِقَاقٍ﴾؛ أي: في عداوةٍ وشِقٍّ غيرِ شِقِّ المسلمين. وسُمِّيتِ العداوةُ شقاقًا لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ المُتعادِيَيْنِ يأتي بما يَشُقُّ على صاحبِه، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا كما كفَى المسلمين أمرَ اليهودِ بالقتلِ والسَّبيِ والجلاءِ، والجزيةِ في نصارى نجرانَ.

***

(١٣٨) ـ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا نكونُ هوداً ولا نصارى، بل نتَّبعُ ملَّةَ إبراهيمَ صبغةَ الله، فهي نصبٌ على البدلِ من: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

وقالَ أبو عُبيدٍ: على الإغراءِ؛ أي: الزَمُوا واتَّبِعُوا صبغةَ الله[1].

والصِّبغُ في اللُّغةِ: ما تُلوَّنُ به الثِّيابُ، والصَّبغُ المصدرُ، وما يُؤتَدَمُ به منَ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٦٢)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ١٥٣).

الأطعمةِ يُسمَّى صِبْغاً وصِباغاً، ويُقالُ: اصطبَغَ بكذا؛ لأنَّه مزجُ شيءٍ بشيءٍ ولونٍ بلونٍ، والدِّينُ يُسمَّى صِبغةً لأنَّ المُتديِّنَ يلزمُه كما يلزمُ الصّبغُ الثَّوبَ[1]، وأيضاً يظهرُ أثرُ الدِّينِ على المُتديِّنِ كما قالَ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩]، ويُقالُ: فلانٌ يصبُغُ فلانًا في الشِّراءِ؛ أي: يغمِسُه فيه ويُلزِمُه إيّاه.

وفي الآيةِ قولانِ: قال ابنُ عبّاسٍ: إنَّ النَّصارى إذا وُلِدَ لأحدِهم مولودٌ يصبغونَه ويغمِسونَه في ماءٍ لهم بعد سبعةِ أيّامٍ يُقالُ له: المعبوديُّ ـ وقيلَ: المعمُوديُّ بالميم ـ ويُسمُّونَ يحيى في كتُبِهم: الصَّابغَ والمَعمَدانيَّ، ويعتقدونَ أنَّ ذلك يُطهِّرُهم، وأنَّه كالختانِ[2].

فمعنى الآيةِ: قولوا لهؤلاءِ: إنَّ ملَّةَ إبراهيمَ هي الإسلامُ لا الغمسُ في هذا الماءِ، ولا مُجرَّدُ الختانِ الذي تعتقدُ اليهودُ أنَّ مَن أتى به فقد تحقَّقَ في اليهوديّةِ، فقولُه: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: خِلقةَ الله، من صبغتُ الثَّوبَ، والله ابتدأ الخلقَ على الإسلامِ إذ أخذَ ميثاقَهم وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذا كقولِه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وفي الخبرِ: «كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفطرةِ»[3]؛ أي: على ذلك الإقرارِ الأوَّلِ.

والفطرةُ: ابتداءُ الخلقةِ، ثمَّ يُهوِّدُ اليهودُ أولادَهم، ويُمَجِّسُ المجوسُ أولادَهم، فصِبغةُ الله ترجعُ إلى إقرارِ ﴿ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١١٢]، أو إلى ما أُمِرَ الخلقُ به من نفيِ الشِّركِ ولُزومِ الإسلامِ والتَّوحيدِ.

والقولُ الثّاني: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الختانُ؛ أي: الختانُ الذي هو من ملَّةِ إبراهيمَ بدلٌ

---

(١) في (أ): «الثوب الصبغ».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٥٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤١).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عمّا فعلتُموه من صبغِ الأولادِ بالماءِ، وسُمِّيَ الختانُ صبغةً لأنَّه يجري مَجرى صبغِ النَّصارى أولادَهم كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، أو لأنَّه يُصبَغُ الولدُ بالدَّمِ.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾ هـذا يرجـعُ إلـى مـا ذكرنـا مـن فطـرةِ الله، أو ديـنِ الله، أو التَّطهيـرِ بالختـانِ.

* * *

(١٣٩) - ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾.

قولُه: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ ثمَّ ذكرَ نوعًا آخرَ من مُحاجَّتِهم، وهو أنَّهم قالوا: دينُنا أقدَمُ ونحنُ أبناءُ الله وأحبَّاؤُه، فقالَ: أتُجادِلُونَنا في الله وهو ربُّنا وربُّكم وخالقُنا وخالقُكم وهو غنيٌّ عنا وعنكم، فأيُّ مزيَّةٍ لكم علينا؟!

وأمَّا من حيثُ العملُ فلنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم، فنحنُ المُخلِصون له، فأمَّا اليهودُ ففيهم مَن عبدَ العجلَ، والنَّصارى عبَدُوا المسيحَ، وغيَّرَ الفريقانِ مضمونَ كتُبِهم في البشارةِ بمحمَّدٍ ﷺ، فمَن لـم يُغيِّرْ وأخلَصَ كان أولى بالحقِّ ممَّن غيَّرَ وأشركَ.

والمُحاجَّةُ: مُفاعَلةٌ منَ الحُجَّةِ.

﴿فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: في دينِ الله.

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ الإخلاصُ: التَّنقيةُ منَ الشَّوائبِ؛ أي: لـم تُشَبْ عبادتُه بالشِّركِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: ونحنُ له مُخلصون، وأنتم غيرُ مُخلصين، فحُذِفَ اكتفاءً بما سبقَ كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

وقيلَ: مُحاجَّتُهم أنَّهم قالوا: لسنا منَ العربِ الذين عبَدُوا الأصنامَ، فقيلَ لهم

قولوا: وما علينا من عبادةِ قومِ الصَّنَمَ ونحنُ مُخلِصون لله، وهذا كما أنَّه لا عيبَ لكم في أنْ عبدَ آباؤكم العجلَ.

* * *

(١٤٠) ـ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ ذكرَ نوعًا آخرَ من مُحاجَّتِهم؛ أي: أتُحاجُّونَنا بدينِ الله؟ فنحنُ المُخلِصون، أم تُحاجُّونَنا بالأنبياءِ؟ فنحنُ المُتَّبِعون لهم.

والمقصودُ منَ الاستفهامِ: التَّوبيخُ؛ أي: أم تقولونَ: إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ كانوا هودًا أو نصارى؟ وليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّهم كانوا قبلَ التَّهوُّدِ والتَّنَصُّرِ، وما كانوا إلّا مُسلمين على الدِّينِ الذي نحنُ عليه، وهكذا أخبرَنا الله، فأنتم أعلَمُ بأديانِهم أم الله؟

وهذا على قولِ مَن قرأ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتَّاءِ، وقُرِئَ: ﴿يَقُولُون﴾ بالياءِ[١]؛ أي: بل أيقولون: إنَّ الأنبياءَ من قبلِ نزولِ التَّوراةِ والإنجيلِ كانوا هودًا أو نصارى؟ فهذا باطلٌ؛ إذ لـم يَثبُتْ اسمُ اليهودِ والنَّصارى قبلَ الكتابَين، فهذا استفهامٌ مُنقطِعٌ عمَّا قبلَه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ الله أشهَدَهم في التَّوراةِ والإنجيلِ أنَّه باعِثٌ فيهم محمَّدَ بنَ عبدِ الله، من ذُرِّيةِ إبراهيمَ، وأخذَ مواثيقَهم على ذلك أن يُبيِّنوه للنّاسِ، فكتَمُوا الشَّهادةَ[٢].

---

(١) بالتاء قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص، والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ٧٧).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٦٦)، ولعله من رواية عطاء عنه.

وقيلَ: أخذَ عليهم أن يُبيِّنوا للنّاسِ أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ كانوا حُنَفاءَ مسلمينَ، فكتَمُوا وقالوا: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقيلَ: هذا من قولِ المسلمين؛ أي: مَن أظلَمُ منَّا إن تبِعناكُم على قولِكُم بعد أن عرَفْنا بإعلامِ الله إيَّانا كذِبكُم؟

وقال القفَّالُ: أي: ولا أحدَ أظلَمُ منَ الله إنْ كتَمَ الشَّهادةَ على هؤلاءِ الأنبياءِ، وجحَدَ كونَهم منَ اليهودِ والنَّصارى إنْ كانَ الأمرُ على ما تزعُمونَ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديدٌ للكفَّارِ وتسليةٌ للمُؤمنينَ.

* * *

(١٤١) ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: دَعُوا الاحتجاجَ بهم وانظُروا لأنفُسِكم.

وقيلَ: أي: أولئك مع نُبوَّتِهم لم ينفَعْهم إلّا ما كسَبُوا، فما الظَّنُّ بكم؟

وكرَّرَ هذا لأنَّ الحِجَاجَ إذا اختلفَتْ مواطنُه حسُنَ تكريرُه للتَّذكيرِ به.

ويجوزُ أن تكونَ الأولى خطابًا لأهلِ الكتابِ، والثّانيةُ خطاباً للمسلمين.

* * *

(١٤٢) ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لـمَّا أنكروا أمرَ تحويلِ القِبلةِ نزلَتْ هذه الآيةُ.

و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: يهودُ المدينةِ ومُشرِكو مكَّةَ والمُنافقون، فقال المُشركون: قد اشتاقَ محمَّدٌ إلى وطنِه وإلى[1] مولدِه، وعن قريبٍ يرجعُ إلى دينِكم. وقالت

(١) «وطنه وإلى» ليس في (ف).

اليهودُ: قد التبسَ عليه أمرُه وتحيَّرَ. وقال المُنافقون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾، واستهزَؤُوا بالمسلمين.

والسَّفيهُ: الخفيفُ العقلِ.

و﴿سَيَقُولُ﴾ وإنْ كانَ للمُستقبلِ فهو كالرَّجلِ يفعلُ شيئًا فيقدحُ فيه أعداؤُه فيقولُ: أنا أعلَمُ أنَّهم سيقدَحُونَ عليَّ فيما فعلتُ.

وقيلَ: أي: سيدومُ السُّفهاءُ على هذا القولِ.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾؛ أي: صرَفَهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾؛ أي: وجْهَتِهم، منَ المُقابلةِ بمعنى المُواجهةِ، تقولُ: «ما له قِبلةٌ ولا دِبرةٌ» إذا لم يهتدِ لجهةِ أمرِه.

والكنايةُ في ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾ ترجعُ إلى المسلمين؛ يعني: بيتَ المقدِسِ.

وقيلَ: أي: عن قبلةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ؛ فإنَّ قبلتَهم بزعمِ اليهودِ كانت بيتَ المقدسِ.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فله أن يأمرَ بالتَّوجُّهِ إلى أيِّ جهةٍ شاءَ.

وقيلَ: أرادَ بالمشرقِ الكعبةَ؛ لأنَّ المُصلِّيَ بالمدينةِ إذا توجَّه إلى الكعبةِ فهو مُتوجِّهٌ إلى المشرقِ، وأرادَ بالمغربِ القدسَ؛ لأنَّ مَن كان بالمدينةِ إذا توجَّه إلى القدسِ فقد توجَّهَ إلى المغربِ.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الصِّراطُ الذي يأمرُ به في كلِّ وقتٍ، ولـمَّا قدِمَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ المدينةَ صلَّى إلى بيتِ المقدسِ ستَّةَ عشرَ شهرًا.

وقيلَ: ثلاثةَ عشرَ شهرًا.

وقيلَ: عشَرةَ أشهرٍ.

وقيلَ: تسعةَ أشهرٍ.

ثمَّ؛ قال قومٌ: كان مُخيَّرًا بينَه وبين الكعبةِ، فاختارَ القدسَ طمَعًا في إيمانِ اليهودِ واستمالتِهم، فقالوا: لولا أنَّ دينَنا الحقُّ لَمَا استَقْبلَ قبلتَنا، فوُجِّهَ إلى الكعبةِ.

وقال المُعْظَمُ: وجَبَ عليه استقبالُ القدسِ أوَّلًا ثمَّ نُسِخَ.

وصُرِفَتِ القبلةُ يومَ الإثنينِ مُنتَصَفَ رجَبٍ في الظُّهرِ، وفُرِضَ صومُ رمضانَ في شعبانَ من تلك السّنةِ.

* * *

(١٤٣) ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾؛ أي: كما اختَرْنا الأنبياءَ الذين سبقَ ذكرُهم كذلك جعلناكُم أمَّةً وسطًا، أو: كما هديناكَ إلى الكعبةِ كذلك جعلناكم، أو: كما أنَّ الكعبةَ وسطُ الأرضِ كذلك جعلناكُم أمّةً وسطًا.

والوسطُ إذا أُريدَ به الاسمُ حُرِّكتِ السِّينُ، تقولُ: ضربتُ وسَطَه، وإنْ أُريدَ به الظَّرفُ فهو ساكنُ السِّينِ، تقولُ: صلَّيْتُ وَسْطَ القومِ.

وقيلَ: وَسْطٌ ووَسَطٌ بمعنًى واحدٍ.

ورَوَى الخُدْريُّ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ في قولِه: ﴿أُمَّةً وَسَطًا ﴾: «أي: عدلًا»(١)،

---

(١) رواه البخاري (٧٣٤٩).

فالوسطُ: الخِيارُ العدلُ، ومنه: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ [القلم: ٢٨]؛ أي: خيرُهم وأعدَلُهم، ووسطُ الوادي: خيرُ موضعٍ فيه وأكثرُه كلأً وماءً.

ولـمَّا كان الوسطُ مُجانبًا للغُلوِّ والتَّقصيرِ كان محمودًا؛ أي: هذه الأمَّةُ لـم تَغْلُ غُلوَّ النَّصارى في أنبيائِهم، ولا قصَّروا تقصيرَ اليهودِ في أنبيائِهم، فالوسطُ يجوزُ أن يكونَ اسمًا يُوصَفُ به.

ويجوزُ أن يكونَ جمعَ «واسطٍ» كالخدمِ والخادمِ، والواسطُ: الذي يَسِطُ الشَّيءَ؛ أي: يتوسَّطُ، ويُقالُ: فلانٌ واسطةُ قومِه؛ أي: من أعيانِهم، كواسطةِ القِلادةِ.

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: على جميعِ الأممِ، قال ابنُ عبَّاسٍ: إذا جمعَ اللهُ الخلقَ يومَ القيامةِ أُتِـيَ بالنَّاسِ أمَّةً بعد أمَّةٍ، ويُؤتى بأمَّةِ نوحٍ، فيسألُهم عمَّا أُرسلَ إليهم، فيُنكِرون أنَّ نوحًا بلَّغَهم ما أُرسِلَ به، فيقولُ اللهُ لنوحٍ: هل لك شهيدٌ في التَّبليغِ، فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيشهدونَ لنوحٍ أنَّه بلَّغَ وكذَّبه القومُ، فتقولُ أمَّةُ نوحٍ: هؤلاءِ بعدَنا يا رب، فكيف يشهدون علينا؟ فيقولون: ربَّنا أرسلتَ إلينا رسولًا فآمنَّا به وصدَّقناه، وكان فيما أَنزلْتَ عليه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ثمَّ يُؤتَى بأمَّةٍ أمَّةٍ فيشهدون عليهم[(١)].

وقيل: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: على كفَّارِ أمَّتِكم.

و﴿شُهَدَآءَ﴾ لا ينصرفُ لأنَّ فيه ألفَ التَّأنيثِ، وألفُ التَّأنيثِ يُبْنَى معها الاسمُ[(٢)].

وقيلَ: هذا إشارةٌ إلى إجماعِ المسلمينَ؛ أي: يشهدُ كلُّ فريقٍ منكم على مَن

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥) من رواية عطاء عن ابن عباس، وإسناده واه، لكن رواه بنحوه البخاري (٧٣٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر: «البسيط» (٣/ ٣٧٥).

يُحدِثُ بعدَه بالشَّرائعِ، فإجماعُ أهلِ كلِّ عصرٍ حجَّةٌ، ذكرَه القفَّالُ من مذهبِه أنَّ الإجماعَ من خصائصِ هذه الأمّةِ، وما كان دليلًا في الأديانِ الأُخرِ.

ومعنى الآية: كما فضَّلناكُم بهذه القبلةِ فضَّلناكم بأنْ جعَلْنا قولَكم حجَّةً، أو كما علَّمتكُم الحِجاجَ في القبلةِ حتَّى قلتُم: ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، كذلك جعَلْنا قولَكم حجّةً إلى قيامِ السّاعةِ، فأنتم القائمون بديني تذُبُّونَ عنه بالحُججِ، وفيه الفضلُ العظيمُ.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: يشهدُ لكم وعليكم عندَ الله.

وقيلَ: يُؤدِّي إليكم ما أمرَه الله به.

وقيلَ: عليكم؛ أي: لكم، كقولِه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾؛ أي: للنُّصُبِ.

وقيلَ: على صدقِكم، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ يعني: بيتَ المقدسِ؛ أي: لمَّا كنتَ بمكّةَ أمرناك بالتَّوجُّهِ إلى القدسِ ليَبينَ المسلمُ منَ الكافرِ، فإنَّ العربَ كان لا يُعجِبُهم الصَّلاةُ إلى القدسِ.

وفيه إضمارٌ؛ أي: وما جعَلْنا القبلةَ التي كنتَ عليها قبلةً إلّا لهذا، ويُقالُ: ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: نصَبْنا وشرَعْنا، كقولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي: ما شَرَعَها ولا جعَلَها دينًا.

وقيلَ: أي: وما جعَلْنا تحويلَ القبلةِ منَ القدسِ إلى الكعبةِ إلّا امتحانًا للمؤمنين، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: أرادَ بالقبلةِ الكعبةَ؛ أي: ما جعَلْنا القبلةَ التي أنتَ عليها، فقولُه: ﴿كُنتَ﴾؛

أي: أنتَ؛ أي: ما جعَلْنا هذه القبلةَ قبلةً، فحُذِفَ المفعولُ الثّاني، أو: ما نصَبْنا وما شرَعْنا هذه القبلةَ.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنَعلَمَ المتَّبعَ مُتَّبِعًا والمُخالفَ مُخالفًا، وقبلَ ذلك كان يعلمُ أنَّه سيكونُ من قومٍ اتِّباعٌ ومن قومٍ خِلافٌ، فلمَّا وقعَ ذلك عَلِمَ الوجودَ، وهذا كما أنَّه قبلَ خلقِ العالَـمِ علِمَ أنَّه سيكونُ، والآنَ هو عالـمٌ بأنَّه كان، ويرجعُ التَّغيُّرُ إلى المعلومِ لا إلى علمِ الرَّبِّ تعالى.

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنَرى؛ لأنَّ الرُّؤيةَ لا تتعلَّقُ إلا بالموجودِ، وهذا يرجعُ إلى ما تقدَّمَ.

وقيلَ: إلا ليتميَّزَ هؤلاءِ من هؤلاءِ بانكشافِ ما في قلوبِهم منَ النِّفاقِ والإخلاصِ، فسُمِّيَ التَّميُّزُ علمًا لأنَّه من فوائدِ العلمِ، كما أنَّ الكتابَ يُسمَّى علمًا فيُقالُ: هذا علمُ فلانٍ؛ أي: الكتابُ الذي فيه بيانُ علمِه، وقد كانوا في علمِ الله مُتميِّزينَ، والمعنى: ليتميَّزَ لكم فتعلمونَ المؤمنَ منَ المُنافقِ.

وقيلَ: أضافَ العلمَ إلى الله وأرادَ المُخاطَبين، كمَن يقولُ ـ وهو عالـمٌ بمقدارِ دراهمَ ـ لغيرِه: تزِنُ هذه الدَّراهمُ حتَّى يَعْلَمَ(١) مقدارَها؛ أي: حتَّى تعلمَ أنتَ مقدارَها.

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: ليعلمَ أولياؤُنا، وقد يُضافُ ما يكونُ منَ الأتباعِ إلى

---

(١) قوله: «يَعْلَمَ» كذا وقعت في النسختين بالياء وبهذا الضبط، ولعلها بالنون أقرب، فقد جاء في «البسيط» (٣/ ٣٧٩) المثال على النحو التالي: وحكى ابن الأنباري عن الفراء أنه قال: يجوز أن يكون الله جل اسمه أضاف العلم إليه وهو للمخاطبين في المعنى، كما يجتمع جاهل وعاقل، فيقول الجاهل: «الحطب يحرق النار» ويقول العاقل: «النار تحرق الحطب، وسنجمع بينهما لنعلم أيهما يحرق صاحبه» ومعناه: لتعلم أنت، فينسب إلى نفسه فعلَ غيره، كذلك معنى الآية: إلا لتعلموا أنتم، ومثله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد: ٣١] على هذا التأويل.

المتبوعِ فيُقالُ: رحمَ رسولُ الله ماعِزًا، أو: ضربَ الأميرُ فلانًا، ومثلُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ رفقٌ في الخطابِ واستمالةٌ، كقولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيلَ: العلمُ يُذكَرُ لمعنى الثَّوابِ والعقابِ، تقولُ: لأعلَمَنَّ لك ما صنَعْتَ، ولأعرِفَنَّ ما فعَلْتَ، ولهذا كثُرَ ورودُ لفظِ العلمِ بمعنى المُجازاةِ، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥]؛ أي: يُجازيهم، وهذا إنَّما يحسُنُ في هذه الآيةِ لو قالَ: إلّا لنعلمَ مَن يتَّبعُ الرَّسولَ أو ينقلبُ على عقبَيه.

وقيلَ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنُعاملَكم مُعاملةَ المُختبِرِ.

﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: يُطيعُه ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾؛ أي: يرتَدُّ ويكفُرُ؛ فإنَّ الكافرَ أبداً مُنقلبٌ على عقبَيه مُدبِرٌ، يُقالُ: انقَلَبَ على عقبَيه؛ أي: انصرَفَ من حيثُ أقبلَ؛ لأنَّ عقبَ الإنسانِ يكونُ وراءَه.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «لقد»، واللامُ في قولِه: ﴿لَكَبِيرَةً﴾ تأكيدٌ؛ أي: ولقد كانت كبيرةً.

وقيلَ: ﴿إِنْ﴾ بمعنى الجحدِ، واللّامُ بمعنى «إلا»؛ أي: وما كانت إلا كبيرةً شاقّةً.

والتّاءُ في قولِه: ﴿كَانَتْ﴾ ترجعُ إلى القبلةِ، وقيلَ: إلى التَّوليةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَّىٰهُمْ﴾ يدلُّ على التَّوليةِ.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلّا على مَن علِمَ أنَّ للهِ أن يتعبَّدَ عبادَه بما أرادَ، والكبيرُ بمعنى: العظيمِ والمُستكبِرِ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ سببُ نزولِه: أنَّ بعضَ المسلمينَ قالوا: ما حالُ إخوانِنا الذين ماتُوا وكانُوا يُصلُّون إلى بيتِ المقدسِ[1]؟ وكانَ هذا مـمَّا وسوَسَ به المنافقون واليهودُ إلى المسلمين؛ أي: لا يُضيعُ الله تصديقَكم بأنَّ القبلةَ بيتُ المقدسِ في الابتداءِ بل يُثيبُكم عليه.

وقيلَ: أرادَ بالإيمانِ الصَّلاةَ؛ لأنَّ الصَّلاةَ عملٌ من أعمالِ الإيمانِ، والآيةُ عامَّةٌ؛ أي: لا يُضيعُ ما فعلَه العبدُ على وَفْقِ أمرِه.

وقيلَ: أي: وما كانَ الله ليُضيعَ صلاتَكم حتَّى يهديَكم للقبلةِ؛ أي: إذا علمَ أنَّ استقبالَ الكعبةِ أرفقُ بكم وأوفَقُ لكم فإنَّه لا يُضيعُ صلاتَكم، بل يأمرُكم بالأصلحِ، وفعلُه تعالى إن لـم يَتَعبَّدْ بالصَّلاحِ وجوبًا فليس يخلو عن الصَّلاحِ وجودًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لهذا لا يُضيعُ ثوابَ أعمالِكم، والرَّأفةُ من رأفَ به يَرْأَفُ ورَؤُفَ يرؤُفُ، ثمَّ قُرِئَ: ﴿رَؤُوفٌ﴾ على وزنِ «فَعول»، و﴿رَؤُفٌ﴾ على وزنِ «فَعُل»[2].

والرَّأفةُ أخصُّ مـنَ الرَّحمةِ، وتُشيرُ الرَّأفةُ إلى دفعِ المكروهِ، وقالَ الله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢]؛ أي: لتدفَعوا الحدَّ.

* * *

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٦٩١)، وأبو داود (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٩٦٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وبنحوه في «البخاري» (٤٤٨٦) من حديث البراء رضي الله عنهما.

(٢) قـرأ بهـا حمزة والكسـائي وأبو عمـر وأبو بكـر، والباقون بالأولـى. انظر: «السـبعة» (ص: ١٧١)، و«التيسير» (ص: ٧٧).

(١٤٤) ـ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قولُه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ قال البراءُ: صلَّينا مع رسولِ الله ﷺ بعد قُدومِه المدينةَ ستَّةَ عشرَ شهرًا نحوَ بيتِ المقدسِ، ثمَّ علِمَ الله هوى نبيِّه، فنزلَ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)].

وقيلَ: كان يقِفُ بمكَّةَ بحيثُ يكونُ مُستقبلَ الكعبةِ وبيتَ المقدسِ، فلمَّا قدمَ المدينةَ لـم يُمكِنْه ذلك، فبقيَ زمانًا يستقبلُ القدسَ[(٢)].

ثمَّ قيلَ: وجبَ عليه ذلك.

وقيلَ: كان مُخيَّرًا، فرأى استقبالَ القدسِ استمالةً لليهودِ، فلمَّا لـم يميلُوا إليه قال لجبريلَ: وَدِدْتُ أن يصرفَني الله عن قبلةِ اليهودِ، فقال جبريلُ: إنَّما أنا عبدٌ مثلُك، وأنتَ كريمٌ على ربِّك، فاسأَلْ ربَّك، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يُديمُ النَّظرَ إلى السَّماءِ، فأنزلَ الله هذه الآيةَ[(٣)].

---

(١) رواه بهذا اللفظ السراج في «مسنده» (٥١٥)، والدارقطني في «سننه» (١٢٧٠)، ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٣ ـ ٤٤)، ورواه بنحوه البخاري (٣٩٩)، ومسلم (٥٢٥).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٤٣)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٩٩١)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٦٦)، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُصلِّي وهو بمكة نحو بيت المَقدس والكعبةُ بَيْن يديه، وبعد ما هاجر إلى المدينة ستةَ عشرَ شهرًا، ثم صُرف إلى الكعبة. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٢): رجاله رجال الصحيح.

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ١٤٤)، وأورده الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٣) من رواية الكلبي عن ابن عباس، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٣٤٣) إلى أبي داود في «ناسخه» عن أبي العالية.

وعلى الجملةِ شرَّفَه بأن حوَّلَ القبلةَ لأجلِه.

وقيلَ: نزلَتِ الآيةُ ورسولُ الله في مسجدِ بني سَلِمةَ، وقد صلَّى بأصحابِه ركعتَين منَ الظُّهرِ، فتحوَّلَ في الصَّلاةِ نحوَ الكعبةِ، وحُوِّلَ الرِّجالُ مكانَ النِّساءِ، والنِّساءُ مكانَ الرِّجالِ، وذلك مسجدُ القبلتَينِ(١).

وقيلَ: إنَّما كانَ ينظرُ بعينِه في السَّماءِ ينتظرُ نزولَ الوحيِ فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾(٢)، كما قالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، وعنى العينَ.

وأيضًا من ضرورةِ تقليبِ العينِ في السَّماءِ تقليبُ الوجهِ.

﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: في النَّظرِ إلى السَّماءِ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾؛ أي: نأمرُكَ بأن تستقبِلَها بوجهِكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾؛ أي: تنقادُ لها وتهواها.

وقيلَ: ترضى عاقبتَها، وتعرفُ بها المُخلِصَ منَ المُنافقِ.

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» كما ذكر الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٢)، ولم أجده في مطبوع «المغازي». وقال السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٣/ ١٨٦) ط دار اللباب: هذا تحريف للحديث، فإن قصة بني سلمة لم يكن فيها النبي ﷺ إماماً، ولا هو الذي تحول في الصلاة.

(٢) روى ابن إسحاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾. انظر: «الدر المنثور» (١/ ٣٤٢).

وروى الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٤٨ و٢٥٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: اجعَلْ وجهَكَ مـمَّا يلي المسجدَ، وفيه إضمارٌ؛ أي: في صلاتِكَ.

والشَّطرُ: النَّحوُ، وفلانٌ شاطرٌ؛ أي: آخِذٌ في نحوِ غيرِ الاستواءِ.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: المُحرَّمِ، وأصلُه: المنعُ، وقد مُنِعَ في تلك البقعةِ أشياءُ لـم تُمنَعْ في غيرِها.

ثمَّ قيلَ: المسجدُ الحرامُ عينُ الكعبةِ.

وقيلَ: جميعُ المسجدِ؛ لأنَّ نفسَ البيتِ يصعُبُ إدراكُه لصِغَرِه.

وقيلَ: هو الحرمُ كلُّه، ولهذا اختلفَ الفقهاءُ في أنَّ الواجبَ استقبالُ عينِ الكعبةِ أم جهةِ الكعبةِ؟

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: منَ الأرضِ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾؛ أي: في الصَّلاةِ.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ نزلَ لأنَّ اليهودَ قالوا: إنَّما ابتَدَعَ محمَّدٌ هذا من تلقاءِ نفسِه، فقالَ الله: إنَّهم ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، ولكنَّهم مُعانِدونَ.

﴿أَنَّهُ﴾ ترجعُ الكنايةُ إلى المسجدِ، وأنَّه قبلةُ إبراهيمَ.

وقيلَ: إلى التَّوليةِ؛ لأنَّ في الكلامِ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، والفعلُ يدُلُّ على المصدرِ، والتَّوليةُ وإن كانَتْ في لفظِ المُؤنَّثِ فهي مصدرٌ.

وقيلَ: لَيعلمونَ أنَّ شطرَه الذي حوَّلَـهم إليه هو الحقُّ من ربِّهم.

وقيلَ: لَيعلمونَ أنَّك حقٌّ.

وقيلَ: لَيعلمونَ لو نظَروا.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يُجازيهم.

* * *

(١٤٥) ـ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ثمَّ بيَّنَ أنَّهم لا يتَّبعونَه بأجمعِهم، وأنَّه لا سبيلَ له إلى اتِّباعِهم، فالوجهُ أن يُعرِضَ عنهم، ويشتغلَ بما أمرَه الله به.

و(لئن) تُستعملُ في المستقبلِ، وجوابُها يقعُ بالمُستقبلِ، و(لو) تُستعملُ بالماضي وجوابُها بالماضي، تقولُ: «لَئِنْ قُمْتَ لأقومَنَّ»، و«لو قُمْتَ قُمْتُ»، ثمَّ قد تُستعمَلُ (لو) بمعنى (لَئِنْ)، و(لَئِنْ) بمعنى (لو).

ثمَّ قيلَ: أرادَ به المُعاندين؛ أي: إن أتيتَهم بكلِّ آيةٍ سألوها، أو أُعطِيَتِ الأنبياءَ قبلَك، لـم يُؤمِنُوا.

وقيلَ: أرادَ أنَّهم بأجمعِهم لا يُؤمنون ـ بلى قد يُؤمِنُ الآحادُ منهم ـ وإذا كان كذلك فمَطاعِنُهم لا تنقطعُ عنك فلا تشتغِلْ بهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ بيَّنَ أنَّه لا يَنسَخُ التَّوجُّهَ إلى الكعبةِ.

وقيلَ: لا يُتصوَّرُ منك الجمعُ بين قبلةِ اليهودِ وقبلةِ النَّصارى.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾؛ أي: إنَّهم وإنْ تظاهروا عليك مُختلفون في أنفسِهم.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الخطابُ له، والمرادُ الأمّةُ.

وقيلَ: لَئن اتَّبعتَ أهواءَهم في المُداراةِ والتَّساهلِ معهم طمعًا في إيمانِهم؛ إنَّك لمن الظّالمين بعدَما عرَّفناك أنَّهم لا يتَّبعونَك، ونظيرُه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

(١٤٦) - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ قال عبدُ الله بنُ سلامٍ: لأنا كنتُ أشدَّ معرفةً برسولِ الله منِّي بابني، فقال عمرُ: وكيفَ؟ قال: لأنِّي أشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله حقًّا يقينًا، وأنا لا أشهدُ بذلك على ابني؛ لأنِّي لا أدري ما أحدثَتِ النِّساءُ، فقال عمرُ: وفَّقَك الله يا ابنَ سلامٍ(١).

﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: محمَّدًا، وقد سبقَ ذكرُه، وهو من بابِ تلوينِ الخطابِ.

وقيلَ: أي: يعرفونَ أمرَ القبلةِ التي نقلتُكَ إليها.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ فلا يشكُّونَ في أنَّه الحقُّ في وقتِه.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يكتُمونَ النَّبيَّ وصِفَتَه في التَّوراةِ(٢).

وقيلَ: أمرَ القبلةِ.

يعني بالفريقِ: علماءَهم المُعاندين.

* * *

(١٤٧) - ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: هذا الحقُّ من ربِّك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٢) من طريق محمد بن مروان السدي، عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومحمد بن مروان والكلبي متروكان، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) في (أ) زيادة: «والإنجيل».

الخطابُ لـه والمُـرادُ الأمّـةُ، ويجـوزُ أن يكـونَ عامًّـا؛ فـإنَّ معـارفَ الأنبيـاءِ اليومَ نظريَّـةٌ أيضًا.

وقيلَ: أي: فلا تشُكَّنَّ أنَّ هؤلاءِ مُعاندونَ.

***

(١٤٨) - ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ الوجهةُ والجهةُ والوجهُ بمعنًى، والمُرادُ: القبلةُ؛ أي: إنَّهم لا يتَّبعونَ قبلتَكَ وأنتَ لا تتَّبعُ قبلتَهم، فلكلٍّ وجهةٌ إمَّا بحقٍّ وإمَّا بهوًى ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيُّها المسلمونَ أمرَ الله؛ فإنَّ مرجعَكم إلى الله.

وقيلَ: أي: لكلِّ قومٍ منكم معاشرَ المسلمينَ وجهةٌ وناحيةٌ تُؤدِّيه إلى الكعبةِ، فمَن كان وراءَ بيتِ المقدسِ يستقبلُ بيت المقدسَ وإن كانَ قصدُه استقبالَ الكعبةِ، ومَن كان من جانبٍ آخرَ يستقبلُ الكعبةَ منه ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: فتوجَّهوا إلى الكعبةِ وأعرِضُوا عن قولِ الكفَّارِ؛ فإنَّ الله يُجازيهم يومَ القيامةِ.

وقيلَ: ليس هذا في أمرِ القبلةِ، بل هو عامٌّ؛ أي: مَن أرادَ وجهَ الله قبِلَ الله منه، ومَن أرادَ غيرَه فالله يُجازيه.

وقـال سـعيدُ بـنُ جُبيرٍ: أي: لـكلِّ واحـدٍ طريقةٌ هو مجبـولٌ عليهـا[١]؛ كقولِه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسـراء: ٨٤] ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: اقـصُـدوا بأعمالِكم وجـهَ الله.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٠٥)، ووقع في مطبوعه: «هو مجبور عليها».

وقولُه: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ ﴾؛ أي: لكلِّ واحدٍ وجهةٌ، أو لكلِّ أهلِ دينٍ، ولو قال: «هم مُوَلُّوها» جازَ.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾؛ أي: الله مُولِّيها إيَّاه؛ أي: آمرُه بها؛ فإنَّ الله أمرَ اليهودَ بما أمرَ به، ثمَّ نسخَ، وهم لـم يُجوِّزوا النَّسخَ، وقد تكونُ توليةُ الله إيّاه بإرادتِه[1] ذلك.

وقيلَ: ﴿هُوَ﴾ ضميرٌ لـ(كلّ)؛ أي: لكلِّ واحدٍ وجهةٌ هو مُستقبِلُها، كما قالَ: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿هو مُوَلَّاها﴾[2]؛ أي: كلٌّ وُلِّيَ جهةً، وما وُلِّيْتَه فقد ولَّاكَ، وما استقبَلْتَه فقد استقبَلَك.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ قيلَ: أرادَ: إلى الخيراتِ، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ.

وقيلَ: لا حاجةَ إلى الحذفِ؛ فإنَّه يُقالُ: استبقْنا موضعَ كذا؛ أي: قصَدْناه مُتسابقين، قال الله: ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ [يوسف: ٢٥].

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ ﴾ هذا جزاءٌ، ولهذا جزمَ الفعلَين، فقالَ: ﴿تَكُونُوا يَأْتِ ﴾، فإنْ كانَ في الجوابِ فاءٌ رفعْتَ الجوابَ، كقولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾؛ أي: مَن سبقَ في علمِ الله أنَّه يُصلِّي إلى الكعبةِ، فأينما كانوا من شرقِ البلادِ وغربِها وفي أصلابِ الآباءِ وأرحامِ الأمَّهاتِ يجمعُهم الله على التَّوجُّهِ إلى هذه القبلةِ.

وقيلَ: ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾؛ أي: يحشرُكم للجزاءِ يومَ القيامةِ.

---

(١) في (أ): «إرادته».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٧١)، و«التيسير» (ص: ٧٧).

وقيلَ: يقبضُ أرواحَكم، ومرجعُكم إلى الله، وفي تذكيرِهم هذا منعٌ منَ العنادِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ منَ البعثِ والجزاءِ.

* * *

(١٤٩) ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أكَّدَ أمرَ الاستقبالِ؛ أي: من حيثُ خرجتَ منَ البلادِ فحوِّلْ وجهَكَ في الصَّلاةِ إلى الكعبةِ، فهو واجبٌ إلَّا فيما استثناه الشَّارعُ منَ النافلةِ على الرَّاحلةِ، ومن صلاةِ شدَّةِ الخوفِ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ﴾ ترجعُ الهاءُ إلى ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾، أو إلى التَّوجُّهِ المدلولِ عليه بقولِه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾.

* * *

(١٥٠) ـ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ فائدةُ التَّكرارِ مرارًا التَّأكيدُ.

وقيلَ: أرادَ بالأوَّلِ(١): وَلِّ وجهَكَ شطرَ الكعبةِ إذا صلَّيتَ في مسجدِكَ، ثمَّ قالَ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] معاشرَ المسلمينَ في سائرِ المساجدِ(٢) بالمدينةِ

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٢) بعدها في (أ): «وغيرها».

أو غيرها[1] ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وكذلك إنْ كنتُم خارجَ المسجدِ، ثمَّ قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [البقرة: ١٤٩] يعني: وجوبَ الاستقبالِ في الأسفارِ، ثمَّ قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [البقرة: ١٥٠] إلى قولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وكان هذا أمراً بالتَّوجُّهِ إلى الكعبةِ في جميعِ المواضعِ من جميعِ نواحي الأرضِ.

قال القفَّالُ: يحتمِلُ أنَّه كرَّرَ لمعانٍ، فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ الكعبةِ لأنِّي أكرمتُكم بقبلةِ إبراهيمَ، قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لأنِّي أكرمتُ صاحبَ كلِّ مِلَّةٍ بقِبلةٍ، وخصَصْتُكَ بأشرفِ الجهاتِ، ثمَّ قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ فاستقبِلِ القبلةَ، فقد قطعتُ شُبهةَ خُصومِك، وهذا كما تقولُ: الزَمْ مُجالسةَ العلماءِ فإنَّك تكسبُ[2] بهم جاهًا، والزَمْ مُجالستَهم فإنَّك تستفيدُ بهم نفعًا في دينِك، والزَمْ مُجالستَهم فإنَّك تستجلِبُ بهم مودَّاتِ النّاسِ، وهذا كالتَّكرارِ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ لأنَّه ذكرَ نِعماً وقرَّرَهم عند ذكرِ كلِّ نوعٍ منها.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الحجَّةُ: «فُعْلةٌ» منَ الحجِّ، وهو القصدُ؛ لأنَّها مقصودةٌ للمُخاصمِ، ومنه: المَحَجَّةُ؛ لأنَّها تُقصَدُ بالسُّلوكِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ قال قومٌ: يجري الاستثناءُ على الظَّاهرِ فـ(النَّاسُ) هم الكفّارُ، وكان حجَّتُهم قولَ اليهودِ: إنَّ محمَّدًا يُخالفُنا في دينِنا ويتَّبِعُنا في قبلتِنا، وما درَى قبلتَه حتَّى هدَيناه نحنُ، فلمَّا صُرِفَتِ القبلةُ إلى الكعبةِ زالَ هذا التَّمويهُ، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم المُشركون؛ فإنَّهم قالوا: قد تحيَّرَ محمَّدٌ في دينِه ورجعَ إلى قبلتِنا، وقد اشتاقَ إلى بلدِ آبائِه ويوشكُ أن يرجعَ إلينا، فهؤلاءِ قد بقيَ لهم

---

(١) «أو غيرها» ليست في (ف).

(٢) في (أ): «تكتسب».

هذا التَّمويهُ وهذه الخصومةُ، والحجَّةُ تُذكرُ بمعنى الخصومةِ كقولِه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]؛ أي: لا خُصومةَ.

وقيلَ: الحجَّةُ بمعنى الاحتجاجِ؛ أي: لئلَّا يُحتَجَّ عليكم، إلا الذين ظلمُوا، ومعلومٌ أنَّ الظّالـمَ لا حجّةَ له.

وقيلَ: (النّاسُ) في هذه الآيةِ هم اليهودُ، وحجَّةُ اليهودِ: أنَّهم عرفُوا أنَّ النَّبيَّ المبعوثَ في آخرِ الزَّمانِ قبلتُه الكعبةُ، فلمَّا رأوا محمَّدًا يُصلِّي إلى الصَّخرةِ احتَجُّوا بذلك، فلمَّا حُوِّلتِ القبلةُ لـم يبقَ لليهودِ حجّةٌ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: الذين كتَمُوا ما عرَفُوا من أنَّه تحوَّلَ إلى الكعبةِ.

وقيلَ: أرادَ بـ(النّاسِ): جميعَ النّاسِ، وحجَّتُهم: أنَّه لو كانَ نبيًّا لكانت له قبلةٌ مُفردةٌ، فلما حُوِّلتِ القِبلةُ بطلَتْ مُحاجَّتُهم وخُصومتُهم، إلا أنَّ الظَّالمين يتعنَّتون ويقولون: إنَّما رجعَ إلى الكعبةِ لأنَّها قبلةُ آبائِه فهو يعملُ برأيِه، إلا مَن ظلمَ باحتجاجِه فيما قد وَضَحَ له، كما يُقالُ: ما لك عليَّ حُجَّةٌ إلّا أن تظلمَني، وسُمِّيَ الظُّلمُ حجَّةً لأنَّ المُحتَجَّ به قد سمَّاه حُجَّةً وإن كانت داحضةً.

وموضعُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خفضٌ على البدلِ منَ (الناس)، ويجوزُ أن يكونَ نصبًا استثناءً.

وقال قومٌ: ليس هذا الاستثناءُ على ظاهرِه، ثمَّ قيلَ: هو استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ أي: لكنَّ الذين ظلمُوا يحاجُّونكم بالباطلِ.

وقال أبو عبيدةَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواوِ؛ أي: لئلَّا يكونَ للنّاسِ وللَّذين ظلموا عليكم حجَّةٌ[1]، كقولِ القائلِ:

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٦٠).

لَعَمْــــرُ أبيـــك إلّا الفرقـــدانِ[1]

أي: والفرقدانِ.

وقال قُطربٌ: الاستثناءُ هاهُنا منَ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لئلَّا يكونَ للنَّاسِ عليكم حجَّةٌ إلَّا الذين ظلمُوا منهم؛ فإنَّ عليهم الحجَّةَ.

وهذا بعيدٌ؛ لأنَّ المُكنَّى المخفوضَ لا يُنْسَقُ عليه[2] إلا بإعادةِ الخافضِ.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾؛ أي: لا تخشَوا الذين ظلموا في التَّوجُّهِ إلى الكعبةِ؛ فإنَّهم لن يضُرُّوكم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ إنْ خالفتُموني.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾، والمعنى: أُتِمُّ عليكم نعمَتي بهدايتِكم إلى قبلةِ إبراهيمَ، أو في الدُّنيا والآخرةِ بالنَّصرِ اليومَ والرَّحمةِ غدًا.

وقال عليٌّ: تمامُ النِّعمةِ الموتُ على الإسلامِ[3].

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: هدَيتُكم لأتِمَّ نعمَتي عليكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هو كقولِك: «أعطيتُك وأكرمتُك وأرجو رُشدَكَ»، فتذكرُ الواوَ، ولا فرقَ بينَه وبينَ أن تقولَ: «أعطيتُك وأكرمتُكَ أرجو رُشدَكَ».

وقيلَ: ﴿لِئَلَّا﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ... لِئَلَّا﴾.

---

(١) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب كما في «جمهرة أشعار العرب» (ص: ١٤)، و«الكتاب» (٢/ ٣٣٤)، و«مجاز القرآن» (١/ ١٣١)، و«البيان والتبيين» (١/ ١٩٤)، وعزاه الخليل في «الجمل» (ص ١٧٧) إلى الأعشى، والآمدي في «المؤتلف والمختلف» (ص: ١١٦) لحضرمي بن عامر.

(٢) أي: لا يعطف عليه، وليس هذا القول بمتفق عليه بين العلماء. انظر ما سيأتي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامِ﴾ [آل عمران: ٦].

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٠٦).

وقيلَ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ... لِئَلَّا﴾.

وقيلَ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ... لِئَلَّا﴾.

وقرأ ابنُ مجاهدٍ: (إلى الَّذين ظَلموا منهم) خفيفةً[١] بمعنى «مع».

***

(١٥١) - ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾؛ أي: لأُتمَّ نعمَتي عليكم ببيانِ الأحكامِ وإيجابِ المعرفةِ كما أرسَلْنا إليكم رسولًا، أو: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ... فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، فقولُه: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بمنزلةِ جزاءٍ له جوابانِ، مُقدَّمٌ ومُؤَخَّرٌ، ومثلُه: «إذا أتاكَ زيدٌ فأتِه تُرضِه».

﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾؛ أي: محمَّدًا، وقد عرفتُم صِدقَه وأمانتَه.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: القرآنَ ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾؛ أي: يُنمِّيكم؛ فإنَّكم إذا جُمِعتُم على الحقِّ ترافَدْتُم وتواصَلْتُم.

وقيلَ: يدعوكُم إلى ما إذا عملتُم به كنتُم أزكياءَ.

وقيلَ: يأمرُكم بالزَّكاةِ ويُصلحُكم بها.

وقيلَ: يَنسبُكم إلى أنَّكم أزكياءُ بشهادتِه لكم ليَعْرفَكم النَّاسُ به.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الفرائضَ المذكورةَ في الكتابِ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: الشَّرائعَ التي تَثْبُتُ بالسُّنَّةِ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ من أقاصيصِ الأممِ، والإخبارِ عمَّا سيكونُ، والاحتجاجِ على مُخالفي الملَّةِ.

---

(١) رواها أبو بكر ابن مجاهد عن بعضهم. انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٠٤).

(١٥٢) ـ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

قولُه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ الذِّكرُ: التَّنبُّه، والذَّكَرُ أنبهُ منَ الأُنثى، والذِّكرُ: حضورُ المعنى النَّفسَ.

ثمَّ يكونُ الذِّكرُ بالقلبِ، ويكونُ بالقولِ، وقد يُستعمَلُ من غيرِ سبقِ نسيانٍ، فالذِّكرُ باللِّسانِ أن يُسبِّحَ الله ويحمدَه ويقرأ كتابَه، وبالقلبِ أن يعرفَ أوامرَه ونواهيَه حتَّى لا يُخالفَه، ويكونَ ذكرُه له بالقلبِ رقيبًا عليه.

وأمَّا ذكرُ الله للعبدِ: فمدحُه وثناؤُه، وهذا قديمٌ فلا يكونُ مشروطًا بشيءٍ، والذي يقعُ مشروطًا هو الذِّكرُ بالإنعامِ والمغفرةِ(١).

وقيلَ: اذكروني بالدُّعاءِ أذكُرْكم بالإجابةِ.

وقيلَ: اذكروني بطاعتي أذكُرْكم بمغفرَتي.

وفي الخبرِ: «مَن أطاعَ الله فقد ذكرَ الله وإنْ قلَّتْ صلاتُه وصيامُه وتلاوتُه القرآنَ، ومَن عصى الله فقد نسيَ الله وإنْ كثُرَت صلاتُه وصيامُه وتلاوتُه القرآنَ»(٢).

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يُقالُ: شكرتُه وشكرتُ له، ونصحتُه ونصحتُ له، في أحرفٍ سماعيَّةٍ لا قياسيَّةٍ؛ أي: واشكروا نعمَتي ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾؛ أي: لا تكفُروا نعمَتي، والكفرُ: سترُ النِّعمةِ لا سترُ المُنعمِ، وإنَّما حُذِفَ الياءُ، ولـم يقُل: «ولا تكفروني»

---

(١) في (ف): «والمعرفة».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٥٤) من حديث واقد مولى رسول الله ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك.

ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٧٠)، وعنه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٠ ـ تفسير)، عن خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ مرسلاً.

لرأسِ الآيةِ، ويجوزُ حذفُ الياء مع النُّونِ إذا كانَ ما قبلَ الياءِ مكسورًا(١).

***

(١٥٣) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ لـمَّا تـمَّمَ النِّعمةَ بإكمالِ الشَّرائعِ أمرَ بالصَّبرِ على أداءِ الفرائضِ، والصَّبرِ عن المُخالفةِ.

وقيلَ: بالصَّبرِ على أذى المُخالفين، وبالصَّلاةِ التي هي مَفْزَعُ العبادِ فيما ينوبُهم إلى ربِّهم يسألونَه كشفَ ما نابَهم.

وقيلَ: (الصَّلاةِ)؛ أي: بالدُّعاءِ.

وقيلَ: المرادُ: الصَّبرُ في الجهادِ، والاستعانةُ فيه بالصَّلاةِ، وكان عليه السَّلامُ يَفْزَعُ في الجهادِ إلى الصَّلاةِ، ولهذا عقَّبَ هذه الآيةَ بقولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾، وقد مضى معنى الاستعانةِ بالصَّبرِ والصَّلاةِ في قولِه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: بالإحسانِ إليهم.

***

(١) قال الفراء: وليست تتهيَّب العرب حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسورًا، من ذلك ﴿أَكْرَمَنِ﴾ ﴿أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] و﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، ومن غير النون ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، و﴿ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، يكتفى من الياء بكسر ما قبلها، ومن الواو بضمة ما قبلها، مثل: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، و﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]. انظر: «البسيط» (٣/ ٤٢١).

(١٥٤) ـ ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: لا تقولوا: هم أمواتٌ، نزلَتْ في قتلى بدرٍ منَ المسلمين، وكانوا أربعةَ عشرَ رجلًا، ثمانيةً منَ الأنصارِ، وستَّةً منَ المُهاجرين، وكان المُشركون يقولون: إنَّ أصحابَ محمَّدٍ يقتُلون أنفسَهم ويخسَرون حياتَهم، فقالَ الله: هم أحياءٌ[١]، فقولُه: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾؛ أي: بل هم أحياءٌ.

وفي الخبرِ: «أرواحُ الشُّهداءِ في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ تسرحُ في ثمارِ الجنّةِ، وتشربُ من أنهارِها، وتأوي باللَّيلِ إلى قناديلَ من نورٍ مُعلَّقةٍ بالعرشِ»[٢]، فالشُّهداءُ يُرزَقون في البرزخِ قبلَ البعثِ، ويُنعَّمون بالمآكلِ والمشاربِ التي وُعِدَها غيرُهم بعد البعثِ، وأمَّا غيرُ الشُّهداءِ فيُفتَحُ لهم بابٌ إلى الجنّةِ يتنسَّمون منها رَوحَها.

وقيلَ: أي: لا تقولوا: هم أمواتٌ، بل سيحيَونَ في الحشرِ فيُثابونَ، وهذا كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ أي: سيكونُونَ فيها.

وقيلَ: لا تقولوا: هم أمواتٌ، بل فارَقُوا الدُّنيا على هدًى ونورٍ من ربِّهم، كقولِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهم أحياءٌ في الذِّكرِ.

والأصحُّ الأوَّلُ، وأنَّهم أحياءٌ على الحقيقةِ؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وكانوا يعلَمونَ أنَّهم أحياءٌ بالذِّكرِ، وأنَّهم سيحيَونَ يومَ الحشرِ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهذا في الحياةِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢١٩)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٢٣).

(٢) رواه أبو داود (٢٥٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده صحيح كما قال القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠٦).

وفي البرزخِ، قال مجاهدٌ: يُرزَقونَ ثمرَ الجنَّةِ ويجِدونَ ريحَها وليسوا فيها[1]، والمخلوقُ المتَّصِفُ بالحياةِ لا بدَّ من أن يكونَ حجمًا وإنْ كانَ لطيفًا، فيجوزُ عليه التَّلذُّذُ بالمآكلِ والمشاربِ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أنَّهم أحياءٌ بالحسِّ وإن اعتقدتُموه بإخبارِ الرَّبِّ تعالى.

وقيلَ: لا تشعرون ما هم فيه منَ النَّعيمِ والكرامةِ.

* * *

(١٥٥) - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ أي: لَنمتَحِنَنَّكم لنعلمَ المُجاهدَ مُجاهدًا والصّابرَ صابرًا.

وقيلَ: ذلك كان يعلمُ أنَّه سيُجاهِدُ وسيصبِرُ، وقد سبقَ ذكرُ هذا في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والنُّونُ للتَّأكيدِ، واللّامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ.

﴿بِشَيْءٍ﴾ ولم يقُلْ: «بأشياءَ» لمكانِ ﴿مِّنَ﴾؛ أي: بشيءٍ منَ الخوفِ وشيءٍ منَ الجوعِ، وهو كقولِه: «أعطِني شيئًا منَ الدَّراهمِ ومنَ الطَّعامِ»، ولو قالَ: «بأشياء» لجازَ.

﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾؛ أي: خوفِ الأعداءِ.

وقال الشّافعيُّ رضيَ الله عنه: هو خوفُ الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الجهاد» (٥٩)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٩٩)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٢١٧).

﴿وَٱلۡجُوعِ﴾؛ أي: بالقحطِ والفقرِ، وهو كالذي[1] كان بالمسلمين في ابتداءِ الإسلامِ.

وقال الشَّافعيُّ رضي الله عنه: هو الجوعُ في شهرِ رمضانَ.

﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾؛ أي: بسببِ الاشتغالِ بقتالِ الكفَّارِ.

وقال الشّافعيُّ رضي الله عنه: يعني: الزَّكواتِ[2] المفروضةَ.

﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾؛ أي: بالقتلِ في الجهادِ والموتِ والأمراضِ.

﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يعني: نُقصانَها في زمنِ الجدوبةِ.

قال الشَّافعيُّ رضي الله عنه: أي موتُ الأولادِ[3]، وولدُ الرَّجلِ ثمرةُ قلبِه، كما في الخبرِ[4].

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: بالثَّوابِ على الصَّبرِ.

* * *

---

(١) في (أ): «وهو الذي».

(٢) في (أ): «هي الزكاة».

(٣) انظر: «تفسير الشافعي» (١/ ٢٤٢)، و«أحكام القرآن» للشافعي (١/ ٣٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٥)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٢٦).

(٤) رواه الترمذي (١٠٢١) وحسنه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا مات ولدُ العبدِ قال الله تعالى للملائكة: قبضْتُم ولدَ عبدي؟ فيقولون: نَعم، فيقول: قبضْتُم ثمرةَ فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حَمِدَك واستَرجَعَ، فيقول الله تعالى: ابْنوا لعَبْدي بيتاً في الجنَّة وسمُّوه بيت الحمد».

(١٥٦) - ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ قيلَ: بشِّرِ الصَّابرينَ الذين صفتُهم هذا.

وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

ويُقالُ: أصابَه إصابةً ومُصابةً ومُصابًا، والمُصيبةُ: النَّكبةُ، وتُستعملُ في الشَّرِّ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ أي: مُلْكًا وخَلْقًا ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ هو إقرارٌ بالبعثِ، ومعنى الرُّجوعِ إليه: أنَّه لا حكمَ في القيامةِ لأحدٍ، وفي الخبرِ: «الصَّبرُ عند الصَّدمةِ الأولى»(١)، فذلك الصَّبرُ هو الذي وُعِدَ عليه الأجرُ.

وقيلَ: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ في الحالِ؛ أي: نرجعُ إلى حكمِه ونصبرُ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّه منه وإليه نرغبُ في إزالةِ البلاءِ.

* * *

(١٥٧) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ الصَّلواتُ منَ اللهِ: الرَّحمةُ، فقولُه: ﴿صَلَوَٰتٞ﴾؛ أي: مغفرةٌ بعد مغفرةٍ، ورحمةٌ بعد رحمةٍ، ومنه: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ أي: ادعُ لهم.

﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أعادَ الرَّحمةَ لإشباعِ المعنى، ومثلُه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾؛ أي: إلى الحقِّ والصَّوابِ، وقيلَ: إلى التَّرجيعِ. وقيلَ: إلى الجنَّةِ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وكان عمرُ يقولُ إذا قرأ هذه الآيَةَ: نِعْمَ العِدْلانِ، ونعمتِ العِلَاوةُ[1].

* * *

(١٥٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ هذا مُتَّصِلٌ بما سبقَ من ذكرِ البيتِ وتعظيمِه، وإشارةٌ إلى المناسكِ.

وقيلَ: لمَّا قالَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ وصلَ هذا بأنَّه قد ابتلى إسماعيلَ وهاجرَ أيضاً، حتَّى سعَتْ هاجرُ بين الجبلَين في طلبِ الماءِ لإسماعيلَ؛ أي: لا تعجَبُوا منَ الابتلاءِ فعاقبتُه الثَّوابُ والذِّكرُ الجميلُ.

و﴿ٱلصَّفَا﴾: جمعُ صفاةٍ، وهي الحجارةُ.

وقيلَ: الصَّفا واحدٌ، وجمعُه: صُفِيٌّ وأصفاءٌ، مثل: رَجاءٍ وأرجاءٍ، واشتقاقُ الصَّفا من صَفا يصفُو؛ أي: خلُصَ منَ التُّرابِ والطِّينِ.

و﴿المَرْوَةَ﴾: واحدةُ المَرْوِ، وهي حجارةٌ بيضٌ برَّاقةٌ تكونُ فيها النَّارُ.

والصَّفا والمروةُ هاهُنا: الجبلانِ في الحرمِ، ولذلك أخرجَهما بلفظِ التَّعريفِ.

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الواحدةُ شعيرةٌ، والشَّعائرُ: المُتعبَّداتُ التي أشعرَها الله؛ أي: جعلَها أعلامًا لنا منَ الموقفِ والمَسعَى والمنحرِ، والشِّعارُ: العلامةُ، ويُقالُ: أشعرَ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٠٦٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧١٢٦)، وعلَّقه البخاري قبل حديث (١٣٠٢).

والعِدلُ: نصف الحِملِ على أحد شقّي الدابة، والحملُ عِدلان في جهتيها، والعِلاوةُ: ما جُعل بينَ العِدلين. انظر: «مشارق الأنوار» للقاضي عياض (٢/ ٦٩) (مادة: عدل).

الهَدْيَ؛ أي: أعلَمَه بغَرْزِ حديدةٍ في سنامِه، من قولك: شعرتُ؛ أي: علمتُ.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾ الحجُّ: القصدُ، وقيلَ: زيارةُ شيءٍ تُعظِّمُه.

وقيلَ: إطالةُ الاختلافِ إلى الشَّيءِ.

وقيلَ: الحلقُ، يقالُ: أُحجُجْ شَجَّتَكَ؛ أي: اقطَعِ الشَّعرَ من نواحي الشَّجَّةِ لتُعالَجَ، فمعنى ﴿حَجَّ﴾؛ أي: حلَقَ، وقد يُذكَرُ الحلقُ بمعنى الحجِّ أيضاً، قال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؛ أي: حُجَّاجًا وعُمَّارًا، ويُقالُ: حَجٌّ وحِجٌّ، وحَجَجْتُ حَجَّةً وحِجَّةً، كما تقولُ: مررتُ به مَرَّةً.

﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾؛ أي: قصَدَ، وقيلَ: زارَ.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا إثمَ، وأصلُه منَ الجُنوحِ، وهو الميلُ، ومنه: «الجوانحُ» للأضلاعِ لاعوجاجِها، فمعنى (لا جُناحَ عليه)؛ أي: لا ميلَ إلى مأثمٍ، ومنه: جَناحُ الطَّيرِ؛ لأنَّه يميلُ في أحدِ شِقَّيه.

وقيلَ: (لا جُناحَ عليه)؛ أي: لا ميلَ لأحدٍ عليه بمُطالبةِ شيءٍ منَ الأشياءِ.

﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان على الصَّفا صنمٌ يقالُ له: «إسافٌ»، وعلى المروةِ صنمٌ يُقالُ له: «نائلةُ»، وكان المشركون يمسحونَهما في الطَّوافِ بينَهما، فلما كُسِرت الأصنامُ كرِهَ المسلمونَ السَّعيَ بينَ الجبلَينِ لمكانِ الصَّنمَينِ في القديمِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ لرفعِ الحرجِ[1].

---

(١) ذكره هكذا الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٤٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٦)، من رواية عمرو بن حبشي عن ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٧١٥) من طريق جابر الجعفي عن عمرو بن حبشي عن ابن عباس مختصراً. وإسناده ضعيف من أجل جابر الجعفي. وروى معناه =

ثمَّ أوجَبَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ الطَّوافَ بينَهما والسَّعيَ فقال: «يا أيها النَّاسُ كُتِبَ عليكم السَّعيُ فاسعَوا»(١).

وقال أنسٌ: كنَّا نكرهُ السَّعيَ بينَ الصَّفا والمروةِ؛ لأنَّهما كانا من مشاعرِ قُريشٍ في الجاهليّةِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(٢).

وقال السُّدِّيُّ: كان في الجاهليَّةِ تعزِفُ الشَّياطينُ باللَّيلِ بينَ الصَّفا والمروةِ، وكانت بينَهما أصنامٌ، فكرِهَ المسلمونَ الطَّوافَ بينَهما(٣).

فمَن لم يَرَ السَّعيَ رُكنًا، يقولُ: السَّعيُ مندوبٌ إليه.

ويحتمِلُ أن يكونَ معنى ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: أنْ لا يطوَّفَ بهما، كقولِه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: أنْ لا تضِلُّوا.

ومَن أوجَبَ السَّعيَ يقولُ: في الآية رفعُ الحرجِ، وثبتَ الوجوبُ بالخبر.

= سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٤ ـ تفسير)، والفاكهي في «أخبار مكة» (١٤٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٧١٤)، عن الشعبي، وصحح الحافظ في «الفتح» (٣/ ٥٠٠) سنده إلى الشعبي.

(١) رواه الإمام الشافعي في «الأم» (٢/ ٢٣١)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٧٣٦٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٧٦٤)، من حديث حبيبة بنت أبي تجراة رضي الله عنها.

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٣٩٤٥)، والطبري في «تفسيره» (٢/ ٧١٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٩٤١)، من طريق يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن عاصم بن سليمان الأحول عن أنس. ورواه بنحوه البخاري (١٦٤٨) و(٤٤٩٦)، ومسلم (١٢٧٨)، من طرق عن عاصم عن أنس بنحوه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٧١٦)، وابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٧)، من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس.

وقيلَ: إنَّ هاجرَ سعَتْ لطلبِ الماءِ بسببِ إسماعيلَ فصارَ ذلك شرعًا في هذه الأمَّةِ.

﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ أي: يتطوَّف، فأُدغِمَت التَّاءُ في الطَّاءِ كقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؛ أي: المُتَدَثِّر.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: (مَنْ) للجزاءِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ كقولِك: «إنْ أتيتَني أتيتُكَ».

وقيلَ: بمعنى «الذي» فهو ابتداءٌ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ خبرُ الابتداءِ، ثمَّ فيه معنى الجزاءِ.

وقُرِئَ: ﴿ومَن يطَّوَّعْ﴾ بالياءِ وجزمِ العينِ[1]؛ أي: يتطوَّعْ، فأُدغِمَت التَّاءُ في الطَّاءِ؛ لأنَّ الاستقبالَ أليَقُ بمعنى الشَّرطِ والجزاءِ، ومعناه عندَنا: مَن زادَ في السَّعي بعد أداءِ الواجبِ منه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

وقيلَ: أرادَ العُمرةَ جريًا على أنَّ العمرةَ غيرُ واجبةٍ.

وقال الحسنُ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾؛ أي: مَن أتى بشيءٍ منَ النَّوافلِ[2] فإنَّ الله يشكرُه، وشكرُ الله للعبدِ: إثابتُه[3] على الطَّاعةِ.

***

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢)، و«التيسير» (ص: ٧٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٥٥)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٤٣)، بلفظ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يعني به الدين كلّه؛ أي: فعَل غير المفترض عليه من طواف وصلاة وزكاة ونوع من أنواع الطاعات.

(٣) في (أ): «إقامته».

(١٥٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: اصبِرُوا على ديني وإظهارِ حُجَّتي؛ فإنَّ الذين يكتُمونَ ما أنزلتُه منَ البيِّناتِ والهدى فهم[1] الملعونون.

ثمَّ قيلَ: نزلَتْ في اليهودِ، كتَمُوا أمرَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ وأمرَ الرَّجمِ وغيرَهما.

وقيلَ: هو في جميعِ أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: يُريدُ مَن كتَمَ الحقَّ من هذه الأمَّةِ، والأَولى الحملُ على التَّعميمِ.

قال أبو هريرةَ: إنَّ النَّاسَ يقولون: أكثَرَ أبو هريرةَ، واللهِ لولا آيتانِ من كتابِ الله ما حدَّثتُ حديثًا، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

والبيِّنةُ: اسمٌ لِمَا أبانَ عن الشَّيءِ وأوضحَه، ومنه قيل للشُّهودِ: بيِّنةٌ؛ لأنَّهم يُبيِّنون صحَّةَ الدَّعوى.

و﴿ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أدلَّةُ الدِّينِ ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ هو البيانُ الذي مَن تمسَّكَ به اهتدى.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: من بعد البيانِ الشَّافي في كتُبِهم، والكنايةُ في ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾ ترجعُ إلى ما أنزلَ منَ البيِّناتِ والهدى.

وقولُه: ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني: التَّوراة.

وقيلَ: جميعُ الكتبِ المُنزَّلةِ، والكتابُ اسمُ جنسٍ.

---

(١) في (أ): «فهم الطائفة».

(٢) رواه البخاري (١١٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يتبرَّأُ منهم ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾؛ أي: يتبرَّأُ منهم كلُّ مؤمِنٍ من ملَكٍ وجنِّيٍّ وإنسيٍّ ونبيٍّ وصالحٍ.

وقال ابنُ مسعودٍ: ما تلاعَنَ اثنانِ من المسلمين إلّا رجعَتْ تلك اللَّعنةُ على اليهودِ والنَّصارى الذين كتَمُوا أمرَ محمَّدٍ ﷺ وصفتَه(١).

وقال ابنُ عبَّاسٍ: اللَّاعِنون هاهُنا: كلُّ شيءٍ إلّا الجنَّ والإنسَ(٢).

ولـم يقُلْ: اللَّاعنات؛ لأنَّه وصفَها صفةَ مَن يَعْقِلُ، فجمَعَها جمعَ مَن يعقلُ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١].

وقيلَ: اللَّاعنون: البهائمُ عندَ احتباسِ المطرِ يقولون: أُصِبْنا بذنوبِ بني آدمَ.

وفي الأخبارِ: «إذا وُضِعَ الكافرُ في قبرِه قالَ الملَكُ: مَن نبيُّكَ؟ وما دينُكَ؟ فيقولُ: لا أدري، فيقولُ الملَكُ: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ثمَّ يضربُه بمِرْزَبَّةٍ معه ضربةً يسمعُها الخلقُ غيرَ الثَّقلَين، فلا يسمعُه أحدٌ إلّا لعنَه، فذلك قولُه: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾»(٣).

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٩٥)، والزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٢٣٥)، والسمرقندي في «تفسيره» (١/١٠٨)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٤٦)، وروى معناه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٩٢) من طريق السدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن مسعود. ومحمد بن مروان متروك متهم بالوضع، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٩٥)، والزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٢٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٥٧)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٤٦)، ولم أجده مسنداً.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) عن الضحاك. ومن قوله: «ثم يضربه بمرزبة...» رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٧٣٧) من طريق جويبر عن الضحاك، وجويبر متروك.

وهكذا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٦٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، ويشهد للحديث كله لكن دون ذكر الآية حديث أنس رضي الله عنه =

وأصلُ اللَّعنِ في اللُّغةِ: الطَّردُ.

وقيلَ: اللَّعنُ: الدُّعاءُ بالإبعادِ منَ الثَّوابِ والرَّحمةِ، فمعنى لَعْنِ الله لهم أن يقولَ: عليهم لعنَتي، كما قالَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

❊ ❊ ❊

(١٦٠) - ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ استثنى مَن ندِمَ على ما كانَ منه ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾؛ أي: السَّريرةَ.

وقيلَ: أصلَحُوا أحوالَ أنفسِهم بصالحِ الأعمالِ وبالإخلاصِ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أقبَلُ توبتَهم.

❊ ❊ ❊

(١٦١) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ أخبرَ أنَّ مَن ماتَ على الكفرِ فعليه لعنةُ الله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

قيلَ: أرادَ: يومَ القيامةِ؛ فإنَّ أهلَ دينِه إنَّما يلعنُونَه في الآخرةِ.

وقيلَ: أرادَ بـ(النّاسِ أجمعين): المُؤمنينَ، كأنَّه لا اعتدادَ بغيرِهم.

وقيلَ: لا يتلاعَنُ اثنانِ فيقولُ أحدُهما: لعَنَ اللهُ الظَّالـمَ[1] إلّا وجبَتْ تلك اللَّعنةُ على الكافرِ؛ لأنَّه ظالـمٌ، وكلُّ أحدٍ من الخلقِ يَلعنُه.

وقيلَ: لَعْنُ المؤمنينَ لهم باللِّسانِ، ولَعْنُ الكافرِ بالدّلالةِ من حيثُ الخلقةُ؛ فإنَّ شواهدَ الفطرةِ تنطقُ منه بأنَّ له صانعًا، وأنَّه يستوجِبُ اللَّعنَ إذا جحَدَ ذلك الصّانعَ.

= عند البخاري (١٣٣٨).

(١) في (أ): «الظالمين».

(١٦٢) - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الخلودُ: اللُّزومُ والدَّوامُ، ومنه: «أخلَدَ إلى كذا»؛ أي: سكنَ إليه ولزِمَه.

﴿فِيهَا﴾؛ أي: في اللَّعنةِ، أو: في النَّارِ، وإنْ لم يجرِ لها ذكرٌ؛ لأنَّ هذا المعنى كثُرَ في القرآنِ فصحَّتِ الكنايةُ من غيرِ ذكرِ المُكنيِّ عنه، كقولِه: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]؛ أي: على ظهرِ الأرضِ، وقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾؛ أي: أنزَلْنا القرآنَ.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يُمهَلون غدًا ليعتذِروا، فهو من: نظَرْتُه؛ أي: انتظَرْتُه وأمهَلْتُه، ويجوزُ أن يكونَ: أنظَرْتُه؛ أي: أمهَلْتُه.

* * *

(١٦٣) - ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لـمَّا حذَّرَ كتمانَ الحقِّ بيَّنَ أنَّ أوَّلَ ما يجبُ إظهارُه ولا يجوزُ كتمانُه: أمرُ التَّوحيدِ، ووصلَ ذلك بذكرِ البرهانِ وعلَّمَ طريقَ النَّظرِ، وهو الفِكرُ في عجائبِ الصُّنعِ؛ لتعلمَ أنَّه لا بُدَّ له من فاعلٍ لا يُشبِهُه شيءٌ؛ أي: الذي فطرَكُم لا من شيءٍ هو الإلهُ الواحدُ فاعبُدوه دونَ غيرِه.

والوحدةُ: الانفرادُ، يُقالُ: وَحَدَ الشَّيءُ يحِدُ حِدةً فهو واحدٌ، وجمعُه: وُحدانٌ، ووحُدَ يَوْحُدَ وَحادةً ووُحْدةً[١] فهو وحيدٌ.

ويقالُ: «إنَّ الله واحدٌ» بمعنى: أنَّه لا نظيرَ له، كما يُقالُ: فلانٌ واحدُ دهرِه،

---

(١) «وُحدة» بالضم كما في «التاج» (مادة: وحد).

وبمعنى: أَنَّه لا شريكَ له، وبمعنى: أَنَّه لا جزءَ لذاتِه ولا بعضَ، وليس بمُؤلَّفٍ؛ لأنَّ المُؤلَّفَ يُسمَّى واحدًا مجازًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: قال كفّارُ قريشٍ: يا محمَّدُ انسُبْ لنا ربَّكَ، فأنزَلَ الله سورةَ الإخلاصِ، وهذه الآيةَ[1].

قال: وكان للمشركينَ ثلاثُ مئةٍ وستُّونَ صنمًا، فبيَّنَ الله أنَّه واحدٌ[2].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٢)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٥١)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بلفظ «.. صِفْ وانْسُبْ لنا ربَّك.. ». والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.
وقد روي الخبر في نزول سورة الإخلاص فقط، رواه الترمذي (٣٣٦٤) من طريق أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العاليَة، عن أبيِّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُب لنا ربَّك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.
ثم رواه الترمذي من طريق أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيع، عن أبي العالية: أن النبيَّ ﷺ ذَكَر آلهتهم فقالوا: انسُب لنا ربَّك...، الحديث. قال الترمذي: هذا أصح. قلت: وكلاهما ضعيف لضعف أبي جعفر الرازي.
وفي الباب عن جابر قال: قال المشركون: انسب لنا ربك...، الحديث، رواه الطبري (٢٤/ ٧٢٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٦٨٧)، وإسناده ضعيف أيضاً لضعف مجالد بن سعيد.
وروى نحوه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٠٨) عن جابر، وفيه أن السائل أعرابي. وفيه مجالد بن سعيد أيضاً.
ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٢٩) عن قتادة، وروي أيضاً عن مجاهد كما في «تفسيره» (ص: ٧٦٠).
وروى ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٥٢) من طريق أبي خلف (عبد الله بن عيسى) الخزاز ثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن بن عباس: أن اليهود قالوا: يا محمد صف لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال ابن عدي: وعبد الله بن عيسى مضطرب الحديث وأحاديثه إفرادات كلها.
(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٦٢)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٥١)، من طريق جويبر =

وقيلَ: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: وإلهكم الرَّحمنُ الرَّحيمُ إلهٌ واحدٌ.

* * *

(١٦٤) - ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال عطاءٌ: لمَّا نزلَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال كفَّارُ قريشٍ: كيف يَسَعُ النّاسَ إلهٌ واحدٌ؟ فنزلَ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ[1].

فكأنَّهم طلبُوا آيةً تُبيِّنُ دليلَ التَّوحيدِ، وأنَّ هذا العالَـمَ والبناءَ العجيبَ لا بدَّ له من بانٍ، فصانعُ العالَـمِ ينبَغي أن ينفردَ؛ إذ لو تعدَّدَ لَما جرَى أمرُ العالَـمِ على النِّظامِ، ولأدَّى إلى التَّمانُعِ. **وهذا منشأُ كلِّ دليلٍ في أصولِ العقائدِ، وهو التَّوصُّلُ بالنَّظرِ في أفعالِه إلى معرفةِ جلالِه.**

و(خَلقُ السَّماواتِ والأرضِ) هو السَّماواتُ والأرضُ، فلا فرقَ بين الخلقِ والمخلوقِ، وقولُه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٥١]؛ أي: ما أشهدتُهم السَّماواتِ والأرضَ وأنفسَهم إذ خلقتُها، ولو كان للشَّيءِ خلقٌ هو غيرُه لوجبَ أن يكونَ لذلك الخلقِ خلقٌ إلى ما لا يتَناهى.

ومَن قال: «الخلقُ ما يحدثُ في ذاتِه، والمخلوقُ ما يحدُثُ مُباينًا لذاتِه»؛

= عن الضحاك عن ابن عباس، وزادا: وأنزل تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وجويبر متروك.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٢٣).

فقد جعلَه مأوى الحوادثِ، ومَن قَبِلَ الحوادثَ لـم يَخْلُ عنها، وما لا يخلُو عن الحوادثِ فهو حادثٌ.

وهذه الآياتُ التي يُستدَلُّ فيها في جسمِ السَّماواتِ والأرضِ لا في الخلقِ الذي يقومُ عند المُبتدعةِ[1] بذاتِ الرَّبِّ تعالى عن ذلك.

ويُقالُ: هذا خلقُ الله؛ أي: مخلوقٌ[2] له، و: هذا الدِّرهمُ ضَرْبُ الأميرِ؛ أي: مَضروبُه.

وجمعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأَنَّها أجناسٌ مختلفةٌ، كلُّ سماءٍ من جنسٍ آخرَ، ووحَّدَ الأرضَ لأَنَّها كلَّها ترابٌ.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يخلفُ هذا ذاك فيتعاقَبانِ، ومنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ أي: يجيءُ هذا بعد ذاك.

وقيلَ: أرادَ: اختلافَهما في النُّورِ والظُّلمةِ والطُّولِ والقِصَرِ.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى﴾ هو واحدٌ وجمعٌ، ويُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، وأصلُه منَ الدَّورانِ، فكلُّ مُستديرٍ فلكٌ، وفلَّكَتِ الجاريةُ؛ أي: استدارَ ثديُها، ومنه: فَلْكةُ المِغْزَلِ، وسُمِّيت السَّفينةُ فُلكًا لأَنَّها تدورُ بالماءِ أسهلَ دورٍ، ووجهُ الآيةِ في الفُلكِ: تسخيرُ الله إيّاها حتَّى تجريَ على وجهِ الماءِ، ووقوفُها فوقَ الماءِ مع ثقلِها.

﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: الذي ينفعُهم؛ فإنَّه تُكتَسبُ الأرباحُ بركوبِ البحرِ، ويَنتفعُ مَن يُحمَلُ إليه المتاعُ أيضًا.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ يعني: المطرَ ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يُبوستِها، فسمَّاها موتًا مجازًا.

﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾؛ أي: نشرَ وفرَّقَ، ومنه قولُه: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

---

(١) في (أ): «المتنازعة».

(٢) في (ف): «مخلوقون».

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الدّابّةُ: كلُّ ما يَدبُّ على الأرضِ.

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ أي: وتصريفِه، والتَّصريفُ: القلبُ، ومنه: الصَّرفُ. والصَّريفُ: اللَّبَنُ الذي انصرفَتِ الرّغوةُ عنه وسكنَتْ، أو لأنَّه يُنصرَفُ به عن الضَّرعِ، فالرِّياحُ تُصرَّفُ قبولًا ودَبورًا وشَمالًا وجَنوبًا.

وقيلَ: معنى تصريفِها؛ يعني: رحمةً وعذابًا، أو حارَّةً وباردةً، وليِّنةً وعاصِفةً.

والرِّياحُ: جمعُ الرِّيحِ، سُمِّيت به لأنَّها تأتي بالرَّوحِ في الغالبِ، وأصلُ الرِّيحِ: رُوحٌ، ولهذا قيلَ في جمعِ القلَّةِ: أرواحٌ، فقُلبتِ الواوُ ياءً لسكونِها وانكسارِ ما قبلَها، يُقالُ: رِحْتُ الرِّيحَ أَرَاحُها، وأرَحْتُها أُرِيحُها؛ أي: وجَدْتُها.

وفي الخبرِ: «مَن استُرعِيَ رعيَّةً فلم يُحِطْهُم بنصيحةٍ لـم يَرُحْ رائحةَ الجنّةِ، وإنَّ ريحَها لتُوجَدُ من مسيرةِ مائةِ عامٍ»(١)، ثمَّ رُوِيَ: «لم يُرِحْ» من أراحَ يُريحُ، ورُوِيَ: «لـم يَرَحْ» بفتحِ الرَّاءِ، ورُوِيَ «لـم يَرِحْ» مَن راحَ يُريحُ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣١٥) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه بلفظ: «مَن استُرعِيَ رَعِيَّةً فلم يُحِطْهُم بنصيحةٍ لم يَجدْ ريحَ الجنة، وريحُها يُوجدُ مِن مسيرة مئة عامٍ».
وهو عند البخاري (٧١٥٠) بلفظ: «ما من عبدٍ استرعاه الله رَعِيَّةً فلمْ يَحُطْها بنصيحةٍ إلَّا لَم يَجِدْ رائحةَ الجنة».
فليس فيه هذا الحديث محل الشاهد، لكن ذلك ورد في غيره، ومنه:
ما رواه البخاري (٣٢٦٦) من حديث عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، بلفظ: «مَن قَتَل مُعاهَدًا لم يَرِحْ رائحةَ الجنة، وإنَّ ريحها تُوجَدُ من مسيرة أربعين عامًا».
وما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣١٥) بسند صحيح من حديث عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، بلفظ: «مَن ادَّعى إلى غير أبيه لم يَرَحْ رائحة الجنَّة، وإنَّ ريحها لَيُوجَدُ من قَدْر سبعين عامًا، أو مسيرةِ سبعين عامًا».

وقُرِئَ: ﴿وتصريفِ الرِّيحِ﴾ وقُرِئَ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾(١).

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ سُمِّيَ السَّحابُ سحابًا لانسِحابِه في الهواءِ، والمُسخَّرُ: المُذلَّلُ.

***

(١٦٥) ـ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾؛ أي: اتَّخذَ قومٌ أندادًا وآلهةً مع علمِهم بأنَّ أحدًا لا يقدرُ على هذه العجائبِ والآياتِ غيرُ الله، وهذا تعجيبٌ منهم، وكان المُشركون قسمَين:

قومٌ يعتَرفون بالصَّانعِ، فعجَّبَ من عبادتِهم الأصنامَ وهي لا تضرُّ ولا تنفعُ.

وقومٌ لا يُقِرُّونَ بالصَّانعِ، فعجَّبَ من قلَّةِ تأمُّلِهم في دلالاتِ الوحدانيَّةِ حتَّى عبَدُوا الأصنامَ.

﴿أَندَادًا﴾ أرادَ: الأصنامَ، وهي أندادٌ بعضُها لبعضٍ وأمثالٌ، أو اعتَقَدوها أمثالًا لله في ظنِّهم.

وقيلَ: الأندادُ: الأضدادُ، وهم النُّظراءُ من وجهٍ؛ لأنَّه يقعُ بينَهم التَّنادُّ والتَّنافرُ؛ أي: يظنُّونَ أنَّ الصَّنمَ نظيرٌ لله في استحقاقِ العبادةِ، ويُقالُ: فلانٌ ضِدُّ فلانٍ؛ أي: يُقابلُه في أعمالِه، ويدَّعي أنَّه مثلُه.

---

(١) بالأولى حمزة والكسائي، والباقون بالثانية. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢ ـ ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

وقيلَ: أي: يتَّخِذونَ من دونِ الله أَكْفَاءً منَ الرِّجالِ يُطيعونَهم في معصيةِ الله، فهم أندادٌ بعضُهم لبعضٍ، أو هم أمثالٌ لهؤلاءِ المُطيعين، وهذا كقولِه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وأهلُ الكتابِ عوَّلوا على قولِ رُؤسائِهم، والمُشركون اتَّبعوا قادتَهم.

وقيلَ: عنى بالأندادِ: الشَّياطينَ والجنَّ.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يُقالُ: أحببتُ الشَّيءَ أُحبُّه، فأنا مُحِبٌّ، وهو محبوبٌ، ومثلُه: أحزَنتُه فهو محزونٌ، وأجَنَّه الله فهو مجنونٌ، وقد جاء: أحببتُه فهو مُحَبٌّ، ولكنَّه شاذٌّ، ويُقالُ: أحَبَّ البعيرُ إحبابًا فهو مُحِبٌّ، وهو أن يُصيبَه داءٌ أو كسرٌ فلم يبرَحْ[1] مكانَه حتَّى يبرأَ أو يموتَ، والإحبابُ: البروكُ، فالمُحِبُّ يلزَمُ محبوبَه.

﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كحُبِّ المُؤمنينَ اللهَ، فأُضيفَ المصدرُ إلى المحبوبِ، تقولُ: أكلتُ طعامي كأكلِ طعامِكَ؛ أي: كأكلِكَ طعامَكَ.

وقيلَ: أي: يُحبُّونَ الأندادَ كحُبِّهم لله؛ أي: يُسَوُّونَ بين هذه الأصنامِ وبينَ الله في المحبّةِ والتَّعظيمِ، وهذا في حقِّ مَن كانَ يعترفُ منهم بالصَّانعِ ويقولُ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣]، ووجهُ التَّعجيبِ: أنَّهم أحبُّوا ما لا يضرُّ ولا ينفعُ.

وقيلَ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كالحبِّ الذي لا يستحِقُّه إلا الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: أثبتُ وأدومُ؛ لأنَّ المُشركين كانوا يعبُدون شيئًا، فإذا رأوا شيئاً أحسنَ منه تركُوا الأوَّلَ وعبَدُوا الثّاني.

وأيضًا: الكافرُ يُعرِضُ عن معبودِه وقتَ البلاءِ، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

---

(١) بعدها في (أ): «من».

وأيضًا: المؤمنُ يُوحِّدُ ربَّه، والكافرُ يعبدُ مع الصَّنمِ أصنامًا.

وأيضًا: المُؤمنُ يحبُّ على بصيرةٍ ودليلٍ، والكافرُ يعبدُ الصَّنمَ تشبيهًا من غيرِ اعتقادٍ مُستنِدٍ إلى دليلٍ.

وأيضًا: المؤمنُ يعبدُ مَن يرجوه ويخشاه، والكافرُ يعبدُ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ.

وأيضًا: الكافرُ يرى معبودَه، والمُؤمنُ يُحبُّ الله على الغيبِ، فهو أشدُّ حبًّا.

وقيلَ: الكافرُ يعبدُ في الفقرِ صنمًا من خشبٍ، وفي الغِنى من حديدٍ أو فضَّةٍ أو ذهبٍ، والمؤمنُ يعبُدُ معبودًا واحدًا في جميعِ الأحوالِ.

وأيضًا: هم غدًا يتبرَّؤونَ من معبُودِهم، والمؤمنُ لا يرتدُّ أبدًا.

وأيضًا: هم عبَدُوا ما نحتوه بأيديهم، فمتى يتحقَّقُ التَّعظيمُ مع هذا؟!

وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: يأمرُ الله يومَ القيامةِ مَن أحرقَ نفسَه في الدُّنيا على رؤيةِ الأصنامِ أن يدخُلوا جهنَّمَ مع أصنامِهم فيأبَونَ لعلمِهم أنَّ عذابَ جهنَّمَ على الدَّوامِ، ثمَّ يقولُ للمُؤمنين بين أيدي الكفَّارِ: إن كنتُم أحبابي فادخُلوا النَّارَ، فيقتحمُ المُؤمنون النَّارَ، ويُنادي مُنادٍ من تحتِ العرشِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]، ومحبَّةُ العبدِ لله: طاعتُه له.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ جوابُه محذوفٌ؛ أي: لَرأوا أمرًا فظيعًا، ومثلُه كثيرٌ، كقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وحذفُ جوابِ «لو» في مثلِ هذه المواضعِ أبلَغُ؛ لأنَّ السَّامعَ يذهبُ إلى كلِّ ضربٍ منَ الوعيدِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٧١).

قُرِئَ: ﴿ولو تَرَى﴾ بالتاء[١].

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بالفتحِ فيهما، وقُرِئَ: و﴿لو يَرَى﴾ بالياءِ ﴿إنَّ القُوَّةَ لله.. وإنَّ الله﴾ بالكسرِ فيهما[٢]؛ أي: لو رأوا العذابَ لَرأوا أمرًا عظيمًا، ثمَّ ابتدأ ﴿إنَّ القوّةَ﴾.

أو: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ لَقالوا: ﴿إنَّ القُوَّةَ لله جميعًا﴾.

وقُرِئَ: ﴿ولو تَرَى﴾ بالتَّاءِ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بفتحِ الألفِ فيهما[٣].

وقُرِئَ: ﴿ولو تَرَى﴾ بالتَّاءِ ﴿إنَّ القُوَّةَ لله.. وإنَّ الله﴾ بالكسرِ فيهما[٤].

والقُوَّةُ: القدرةُ؛ أي: الاقتدارُ ذلك اليومَ لله، وتزولُ الدَّعاوى، فالأصنامُ[٥] لا تشفعُ ولا تُغني عنهم شيئًا.

﴿جَمِيعًا﴾ نصبٌ على الحالِ؛ أي: في حالِ اجتماعِها.

وقُرِئَ: ﴿إذ يُرَوْن العذابَ﴾ بالضَّمِّ[٦]، كقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، و﴿إِذْ﴾ بمعنى «إذا» هاهنا.

***

---

(١) هي قراءة ابن عامر ونافع ويعقوب. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨)، و«النشر» (٢/ ٢٢٤).

(٢) قرأ بها أبو جعفر ويعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٤).

(٣) هي قراءة ابن عامر ونافع. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٤) هي قراءة يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٤).

(٥) في (ف): «والأصنام».

(٦) هي قراءة ابن عامر. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(١٦٦) - ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

قولُه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟﴾؛ أي: أنَّ الله شديدُ العقاب إذ تبرَّأ الذينَ، أو: إذ يرونَ العذابَ إذ تبرَّأ الذينَ، وذلك يومَ القيامةِ.

و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ هم المتبوعونَ يتبرَّؤونَ منَ الأتباعِ.

وقيلَ: تتبرَّأُ الأصنامُ من عبَدتِها، ويكونُ ذلك بتقديرِ خلقِ الحياةِ في الأصنامِ.

وقيلَ: يُحمَلُ ذلك على المجازِ؛ أي: لو كانتِ الأصنامُ تنطقُ لتبرَّأتْ.

ويُقالُ: تبرُّؤُها أنَّها لا تنفعُ عبَدَتَها.

وقولُه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ لفظُه لفظُ الماضي والمعنى الاستقبالُ؛ أي: إذ يتبرَّأ، كما قالَ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾ [المائدة: ١١٦]؛ أي: وإذ يقولُ، فجُعِلَ ما يقعُ يومَ القيامةِ كالواقعِ تقريبًا لكونِه.

﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: رأوا النّارَ قبلَ أن يدخُلوها، ويحتملُ رأوها وقاسَوا عذابَها ودخلُوها.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قيل: عنهم الأسبابُ، كقولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ أي: عنه؛ أي: انقطعَ عنهم أسبابُ الدُّنيا، أو انقطعَ عنهم كلُّ ما أمَّلوه.

وقيلَ: تقطَّعَتْ بهم؛ أي: قطَّعَتْهم وفرَّقَتْهم الأسبابُ، فلم يتواصَلُوا في الآخرةِ، والسَّببُ: الحبلُ الذي يُتوَصَّلُ به إلى صُعودٍ أو نُزولٍ، وصارَ اسمًا لكلِّ شيءٍ يُتوصَّلُ به إلى حاجةٍ، وسُمِّيَ الطَّريقُ سببًا، قالَ الله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، وأسبابُ السماوات: أبوابُها؛ لأنَّ الوصولَ إلى السَّماءِ بدُخولِـها.

وقيلَ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾؛ أي: صارَتْ مُخالَّتُهم عداوةً.

وقيلَ: بطلَتِ الأعمالُ التي كانوا يظُنُّونَ أن يصِلُوا بها إلى ثوابِ الله.

وقيلَ: انقطَعَتِ الأرحامُ التي كانوا يتعاطَفُونَ بها.

* * *

(١٦٧) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾؛ أي: رجعةً إلى الدُّنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ نصبٌ لأنَّه جوابُ التَّمنِّي بالفاء.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: كتبرُّؤِ بعضِهم من بعضٍ ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: كُفرَهم وأعمالَـهم القبيحةَ، وكذلك ما ظنُّوه حسنةً؛ إذ لا ثوابَ لهم عليها.

﴿حَسَرَٰتٍ﴾؛ أي: سببَ النَّدامةِ، والحسرةُ: شِدَّةُ النَّدمِ، حتَّى يبقى النَّادمُ كالحسيرِ منَ الدَّوابِّ، يُقالُ منه: حسَرَ يحسَرُ، مثل: منَعَ يمنَعُ، حسْرةً وحَسَراً؛ أي: اشتَدَّ ندمُه، وأصلُ الحسرِ: الكشفُ، فالحسرةُ: انكشافُ حالِ النَّدامةِ، والحسيرُ: المُعيِي؛ لأنَّه انكشفَ حالُه بطولِ التَّعبِ.

* * *

(١٦٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمَّا أخبرَ عنهم بأنَّهم يتَّخِذون الأندادَ، ويتبرَّأُ بعضُهم غدًا من بعضٍ؛ ذكرَ من أفعالِـهم أيضًا أنَّهم يُحرِّمونَ بعضَ الأشياءِ ويُحلِّلونَ البعضَ على حسبِ أهوائِهم.

نزلَتْ في ثقيفٍ وخُزاعةَ وعامرِ بنِ صَعْصَعةَ، حرَّموا على أنفُسِهم أشياءَ منَ الحرثِ والأنعامِ، وحرَّموا البحيرةَ والسَّائبةَ والوصيلةَ والحامي[1].

وقيلَ: نزلَتْ في المؤمنين[2].

﴿حَلَٰلًا﴾ نصبٌ على الحالِ من ﴿ما في الأَرْضِ﴾، أو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ، يُقالُ: حلَّ الشَّيءُ يحِلُّ حلالًا وحِلًّا، وحَلَّ من إحرامِه، وأحلَّ من إحرامِه، وأصلُ الكلمةِ: الحَلُّ الذي هو نقيضُ العقدِ، فالحلالُ سُمِّي حلالًا لانحلالِ عُقدةِ الحظرِ عنه، ومنه: حلَّ بمكانِ كذا، وحلَّ الدَّينُ، والحُلَّةُ: الرِّداءُ؛ لأنَّها تُحلُّ عنِ الطَّيِّ للُّبسِ.

﴿طَيِّبًا﴾ قيلَ: طاهرًا.

وقيلَ: حلالًا، قال الله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]؛ أي: الحرامُ والحلالُ.

وقيلَ: ﴿طَيِّبًا﴾؛ أي: مُستلذًّا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أرادَ به الغنائمَ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قيل: الخَطوةُ والخُطوةُ بمعنًى واحدٍ، فهي مصدرٌ؛ أي: لا تَقْفُوا[3] أثرَ الشَّيطانِ وعملَه؛ فإنَّ ما لم يَرِدْ به الشَّرعُ فهو منسوبٌ إلى الشَّيطانِ على لسانِ الشَّرعِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح، وفي «البسيط» (٣/ ٤٨٢) من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وهو نفسه طريق الكلبي. وذكره دون نسبة مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ١٥٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٠).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٨٣) بلفظ: قد غَنَّمْتُكم مال أعدائكم. ولعله من طريق عطاء عن ابن عباس.

(٣) في (أ): «لا تتبعوا».

وقال الفرَّاءُ: خَطَوتُ خَطوةً بالفتحِ، والـخُطوةُ بالضَّمِّ: ما بينَ القدمَينِ.

والمعنى: لا تتَّبِعوا سبيلَ الشَّيطانِ.

قُرِئَ: ﴿خُطُوَاتِ﴾ بضمِّ الطَّاءِ وبإسكانِها.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: أظهرَ عداوتَه لـمَّا لـم يسجُدْ لآدمَ.

وقيلَ: ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: ظاهرٌ، و(أبانَ) لازمٌ وواقعٌ[1].

* * *

(١٦٩) - ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾ يُقالُ: ساءَ الشَّيءُ يسوءُ فـهو سيِّئٌ؛ أي: قَبُحَ، والسُّوءُ الاسمُ، وهو كلُّ ما يسوءُ.

و(الفحشاء): ما قَبُحَ منَ الفعلِ والقولِ، فهي اسمُ الفاحشةِ[2].

قال ابنُ عبَّاسٍ: السُّوءُ: عصيانُ الله، والفحشاءُ: البخلُ.

وقيلَ: السُّوءُ: ما لا حدَّ فيه منَ الذُّنوبِ، والفحشاءُ: ما فيه حدٌّ[3].

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ما لـم ينزِلْ به كتابٌ من تحريمِ الحرثِ والأنعامِ.

---

(١) أي: لازم ومتعدٍّ. انظر: «البسيط» (٣/ ٤٨٧). والمتعدي ينعت بالواقع. انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٢٠٩) و(٢/ ٢٣٦) و(٦/ ١٠٥)، و«البسيط» (٣/ ٣٤٠) و(١٢/ ٣٠٠). وقال عبد القاهر الجرجاني في «المفتاح في الصرف» (ص: ٥٦): المتعدِّي: ما جاوز الفاعل - كنَصَرْتُه وضَربْتُه - ويُسمَّى واقعاً ومجاوزاً، واللازم: ما يلزم الفاعل فلم يتجاوزه - نحو: قامَ وقعدَ - ويسمى غير واقعٍ ومطاوعاً.

(٢) انظر: «البسيط» (٣/ ٤٨٤).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٨٧) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(١٧٠) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ﴿لَهُمُ﴾ يرجعُ إلى ﴿مَن﴾ في قولِه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ يعني: كفَّارَ قريشٍ[1].

وقيلَ: نزلَتْ في الذين حرَّمُوا على الذين أنفسِهم منَ الحرثِ والأنعامِ، فيرجعُ قولُه: ﴿لَهُمُ﴾ إلى ﴿النَّاسُ﴾ في قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾.

وقيلَ: نزلَتْ في اليهودِ، قال لهم النَّبيُّ عليه السَّلامُ: «آمِنُوا بي»، قالوا: نتَّبعُ ما ألفَينا عليه آباءَنا[2]، فالكنايةُ في ﴿لَهُمُ﴾ على هذا عن غيرِ مذكورٍ.

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾؛ أي: أيتَّبِعُونَهم وإن كانوا جُهَّالًا؟ فتُرِكَ جوابُ (لو) لأنَّه معروفٌ.

﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أرادَ: شيئًا من أمرِ الدِّينِ.

وقيلَ: لا يعقِلونَ حقًّا وصوابًا، كقولِك لصاحبِك: «ما قلتَ شيئًا»؛ أي: ما قُلتَ صوابًا.

وقيلَ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لم يستعمِلوا عقولَهم فيما يُجدي عليهم خيرًا، وهو كقولِه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨].

* * *

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٨)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٤٨٩) من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٨١)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٧١) - ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إضمارٌ؛ أي: مثَلُكَ يـا محمَّدُ ومثَلُ الكفَّارِ كمثلِ الرّاعي مع البهائمِ، فحُذِفَ أحدُ المثَلَين اكتفاءً بالثّاني، كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

أو يُقـالُ: مثَـلُ واعـظِ الذين كفـرُوا كمثَـلِ الرّاعي، كقولِـه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَها.

وقيلَ: ومثَلُ الذين كفروا فـي قلَّةِ فهمِهم عن الله ورسولِه كمثَلِ المنعوقِ به منَ البهائمِ، فالمعنى إذًا للمنعوقِ به، وخرج الكلامُ على النَّاعقِ، وهذا جائزٌ، يُقالُ: اعرِضِ الحوضَ على النّاقةِ؛ أي: النَّاقةَ على الحوضِ.

وقـال قـومٌ: لا حاجـةَ إلـى الإضمـارِ، والمعنى: مثَـلُ الكفَّـارِ في قلَّـةِ عقلِهم كمثَـلِ الرُّعـاةِ يُكلِّمـونَ البَهْـمَ، أو: مثَـلُ الذيـن كفـروا فـي دُعائِهم الأصنـامَ كمثَلِ الـذي يصيـحُ في جوفِ الجبـالِ فلا يَسـمعُ إلا الصَّـدَى، فقولُـه: ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ يرجعُ إلـى النَّاعقِ.

وقيلَ: أي: عبادتُهم لِمَا لا ينفعُ ولا يَضرُّ كصوتِ مَن يَنعِقُ بأغنامِه وهي بعيدةٌ عنه لا تسمعُ صوتَه، وإن سمعَتْ لـم تفهَمْ.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾؛ أي: هم كالصُّمِّ والبُكمِ والعُمْيِ؛ لعدمِ الانتفاعِ بالأسماعِ والأبصارِ والألسنةِ.

***

(١٧٢) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ هذا تأكيدٌ للأمرِ الأوَّلِ، وخصَّ المؤمنين هاهنا بالذِّكرِ تفضيلًا، وهذا أمرُ إباحةٍ؛ أي: لا تأخُذوا بتحكُّماتِ الكفَّارِ، فإنَّ الحلالَ ما أحلَّه الله، والحرامَ ما حرَّمَه الله.

والمُرادُ بالأكلِ: الانتفاعُ من جميعِ الوجوهِ كقولِه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقيلَ: هو الأكلُ المُعتادُ.

﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ الطَّيِّبُ: الحلالُ، وقيلَ: المُستلَذُّ المُستطابُ.

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ على نعمِه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ قيل: ﴿إِن﴾ بمعنى: «إذ».

وقيلَ: هو شرطٌ؛ أي: شرطُ العابدِ لله أن يشكُرَ نعمَه.

***

(١٧٣) ـ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ قال الزَّجَّاجُ: ﴿إِنَّمَا﴾ إذا جُعِلَتْ كلمةً واحدةً كانت إثباتًا لِـمَا يُذكَرُ بعدَها ونفيًا لِـمَا سواه، فقولُه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ ﴾؛ أي: ما حرَّمَ عليكم إلا هذا؛ لأنَّ «إنَّ» للتَّوكيدِ في الإثباتِ، و«ما» للنَّفيِ، فإذا قلتَ: «إنَّما أنا بشرٌ» فمعناه: ما أنا إلا بشرٌ.

و﴿ٱلْمَيْتَةَ ﴾: ما فارقَتْه الرُّوحُ من غيرِ ذكاةٍ مـمَّا يُذبَحُ، وما ليس بمأكولٍ

فذكاتُه كموتِه فيكونُ حرامًا، وهذا عامٌّ دخلَه التَّخصيصُ بقولِه عليه السَّلامُ: «أُحِلَّتْ لنا ميتتانِ»(١).

﴿وَٱلدَّمَ﴾ هذا أيضًا عامٌّ خصَّصَه قولُه: «ودمان»(٢)، وكان في الكفَّارِ مَن يأكلُ الميتةَ وهم المجوسُ، وكان في المُشركين مَن يأكلُ الدَّمَ، فكانوا يجعلونَه في المباعرِ ويشوونَه ويأكلُونه، فحرَّمَ الله الدَّمَ.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ خُصَّ اللَّحمُ بالذِّكرِ لأنَّه المقصودُ، وإلا فهو بجميعِ أجزائِه حرامٌ.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذُكِرَ عليه اسمُ غيرِ الله، والإهلالُ: رفعُ الصَّوتِ، يُقالُ: أهلَّ بكذا؛ أي: رفعَ صوتَه.

والتَّحريمُ لا ينحصرُ فيما ذُكِرَ في هذه الآيةِ؛ إذ ليس المقصودُ عدَّ كلِّ المُحرَّماتِ، بل سيقَت الآيةُ لبيانِ إحلالِ ما كانوا يُحرِّمونَه منَ الأنعامِ، وتحريمِ ما كانوا يستحِلُّونَه منَ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ وما ذُبِحَ للنُّصُبِ، ويدُلُّ على هذا إجماعُ الأمَّةِ على تحريمِ أشياءَ ليست في هذه الآيةِ، ولا في قولِه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ الآيةَ [الأنعام: ١٤٥] منَ القاذوراتِ والخبائثِ، فالآيةُ ردٌّ على الكفَّارِ فيما تحكَّمُوا به من غيرِ شرعٍ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥٧٢٣)، وابن ماجه (٣٣١٤)، والدارقطني في «سننه» (٤٧٣٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وصحح الدارقطني وقفه، إلا أن له حكم الرفع كما قال البيهقي. انظر: «العلل» للدارقطني (١١/ ٦٧)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١/ ٢٥٤).

(٢) قطعة من الحديث السابق.

قُرِئَ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ و(إنَّما حُرِّمَ)[1].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ قُرِئَ برفعِ النُّونِ للإتباعِ، وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ[2]؛ لأنَّ الأصلَ الحركةُ بالكسرِ لالتقاءِ السّاكنَين.

وفيه إضمارٌ؛ أي: فمَن اضطُرَّ إلى شيءٍ مـمَّا ذكَرْنا أنَّه حرامٌ؛ أي: أُحوِجَ، فهو افتُعِلَ منَ الضَّرورةِ.

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: لا باغيًا ولا عاديًا، فهو له حلالٌ، والبغيُ: الفسادُ وتجاوُزُ الحدِّ، والعَدْوُ والتَّعدِّي: تجاوُزُ الحدِّ، يُقالُ: عدا عليه عَدْوًا وعُدوانًا وعداءً وعدُوًّا؛ أي: ظلَمَه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: على المسلمين ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: غيرَ قاطعٍ للطَّريقِ ولا مُشاقٍّ للأمَّةِ، فبيَّنَ بهذا أنَّ العاصيَ بسفرِه لا يحلُّ له أكلُ الميتةِ عند الضَّرورةِ، فلْيتُبْ ثمَّ لْيأكُلْ[3].

---

(١) القراءة الأولى هي المشهورة، والثانية من الشواذ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٨) عن ابن أبي الزناد، و«المحرر الوجيز» عن أبي عبد الرحمن السلمي، و«البحر المحيط» (٣/ ٢٢٢) عن أبي جعفر.

(٢) بالكسر قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٤)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٣) انظر: «البسيط» (٣/ ٥٠٣)، وفيه: قول ابن عباس في رواية عطاء: غير باغ على المسلمين، ولا عاد عليهم، وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والكلبي قالوا: غير قاطع للطريق، ولا مفارق للأئمة، مُشاقٍّ للأمة. وعلى هذا التأويل: كل من عصى بسفره لم يحل له أكل الميتة عند الضرورة؛ لأنه باغ عاد، وهو مذهب الشافعي رحمه الله، قال: إن الإباحة إعانة له على فساده وظلمه، ولكن يتوب ولا يستبيح.

وقيلَ: البغيُ والعدوانُ يرجعانِ إلى الآكلِ؛ أي: غيرَ آكلِهما تلذُّذًا؛ أي: لا يتجاوزُ قَدْرَ الحاجةِ.

ثمَّ قيلَ: البغيُ والعدوانُ بمعنًى واحدٍ، فكرَّرَ اللَّفظَ تأكيدًا.

وقيلَ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: يأكلُ وهو مُضطرٌّ، فلا ينبَغي أن يأكلَ وهو غيرُ مُضطرٍّ، وينبَغي أن لا يتعدَّى إذا اضطُرَّ فيُجاوِزَ قَدْرَ الحاجةِ إلى الشِّبَعِ.

وقيلَ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غيرَ مُجاوزٍ لِمَا يَحِلُّ له منه ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: غيرَ مُقصِّرٍ عمَّا أحلَّ الله له.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يغفرُ المعاصيَ، وأَوْلى أن لا يُؤاخِذَ بما رخَّصَ فيه، ومِن رحمتِه أنَّه رخَّصَ.

***

(١٧٤) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ثمَّ ذكرَ أهلَ الكتابِ، فإنَّ المشركين كانوا يسألونَهم عن النَّبيِّ ﷺ، وكانوا يكتُمونَ أمرَه ويُغيِّرونَ نعتَه[1]، فـ﴿الْكِتَابِ﴾ هاهنا: هو الموضعُ الذي جرَى فيه ذكرُ محمَّدٍ عليه السَّلامُ.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾؛ أي: بالكتمانِ، فإنَّ الفعلَ يدلُّ على المصدرِ، أو يشترون بما أنزلَ الله، أو بالمكتومِ مما أنزلَ الله.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣١٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٩) من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وهذا الاشتراءُ: ما أخذوه منَ الأتباعِ بسببِ الرِّئاسةِ، وكلُّ ذلك قليلٌ لأنَّه لا بقاء له، والثَّمنُ في اللغة: العِوَضُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ أي: ما يأخُذونَ منَ الحطامِ ليأكلوه إنَّما هو نارٌ في بطونِهم؛ أي: يُعاقَبونَ عليه غدًا بالنَّارِ، وفي الخبرِ: «الذي يشربُ في آنيةِ الفِضَّةِ فكأنَّما يُجرجِرُ في جوفِه نارَ جهنَّمَ»(١)؛ أي: عاقِبَتُه النَّارُ، وذكرُ البطنِ تأكيدٌ كقولك: «رأيتُ فلانًا بعيني».

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: كلامًا يسُرُّهم، بل يُهدِّدُهم ويُناقِشُهم.

وقيلَ: أي: يغضَبُ عليهم؛ لأنَّ تركَ التَّكلُّمِ علامةُ الغضبِ.

وقيلَ: أي: لا يُرسِلُ الملائكةَ إليهم بالتَّحيَّةِ، وهو كقولِه: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: ٧٧]؛ أي: نظرَ رحمةٍ.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾؛ أي: لا يُطهِّرُهم منَ الذُّنوبِ، ولا يُثْني عليهم بالخيرِ، ولا ينسبُهم إلى الطَّهارةِ، ولا يُخبِرُ عبادَه بأنَّهم أزكياءُ.

***

(١) رواه البخاري (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٠٦٥)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها. يُرْوى برفعِ الراء من «النَّار»، فتكون الجرجرةُ بمعنى: صوت الماء في الجَوف، فهي لازمةٌ لأنه صوتُ وقوعِ الماءِ فيه، ويرويه بعضُهم بالنصب على أنه مفعولُ الجرجرة، وهي متعدِّيةٌ، فعلى هذا معناه: يُحرِّكُ في جوفه، أو يُسِيغُ أو يُدخلُ في جوفه نارَ جهنَّم يَشربه؛ مُبالغةً في الوَعيد. انظر: «مجمع الغرائب» لعبد الغافر الفارسي (مادة: جرر).

(١٧٥ - ١٧٦) - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾؛ أي: حصَلُوا على الضَّلالةِ بدلَ الهدى، وعلى العذابِ بدلَ المغفرةِ.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قيل: هو استفهامٌ للتَّوبيخِ؛ أي: أيُّ شيءٍ صبَّرهم على النّارِ حتَّى تركوا الهدى واتَّبعوا الضَّلالَ؟ ويُقالُ: «صبَّره وأصْبَرَه» بمعنًى.

وقيلَ: هذا تعجيبٌ كقولِك: «ما أحسنَ زيدًا!» فالمعنى: فما أصبرَهم على عملٍ يُؤدِّيهم إلى النّارِ! أو: ما أجرأَهم على النّارِ! أو: ما أطولَ مُكثِهم غدًا في النّارِ!

وقيلَ: هو على وجهِ الاستخفافِ، كما تقولُ لمَن تعرِفُ ضعفَه وتستخِفُّ منه: «ما أقواكَ على هذا الأمرِ!».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى قولِه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أو إلى الوعيدِ في قولِه: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؛ أي: ذلك العقابُ لهم بأنَّ الله نزَّلَ الكتابَ بالحق فكتَمُوه، أو فاختلَفُوا فيه وآمنُوا بالبعضِ دونَ البعضِ.

والمُرادُ بالكتابِ: القرآنُ، وقيلَ: التَّوراةُ، وقيلَ: جميعُ الكتُبِ.

وقيلَ: أي: فِعلُهم هذا لأنَّ الله نزَّلَ الكتابَ بالحقِّ في شأنِهم إذ قالَ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾؛ أي: القرآنِ، فقال بعضُهم: سِحرٌ، وقال بعضُهم: كَهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلين.

وقيلَ: ﴿فِي الْكِتَابِ﴾؛ أي: في جميعِ الكتبِ، فآمَنُوا بالبعضِ دونَ البعضِ.

﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: فيما بينَهم خلافٌ شديدٌ، أو هم في عداوةٍ شديدةٍ لك يا محمَّدُ.

***

(١٧٧) ـ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بيَّنَ أنَّهم مع تحريفِهم الكتابَ وكتمانِ أمرِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ يدَّعونَ البرَّ والقيامَ بالدِّينِ لصَلاتِهم إلى بيتِ المقدسِ أو المشرقِ؛ أي: ليس البرُّ في ذلك.

وقيلَ: نزلَتْ في المؤمنين؛ فإنَّ الرَّجلَ في ابتداءِ الإسلامِ كان إذا أتى بشهادةِ الحقِّ وصلَّى إلى أيِّ ناحيةٍ كانت ثمَّ ماتَ على ذلك قُضِيَ له بالجنَّةِ، فلمَّا هاجرَ النَّبيُّ عليه السَّلامُ ونزلتِ الفرائضُ بيَّنَ الله أنَّه ليس البرُّ أن يُصلِّيَ المرءُ فقط، بل البرُّ أنواعٌ[١].

قُرِئَ: ﴿ليس البرُّ﴾ بالرَّفعِ، فـ﴿البرُّ﴾ اسمُ ﴿لَّيْسَ﴾، وقُرِئَ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾[٢] بالفتح فاسمُ ﴿لَّيْسَ﴾: ﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾.

---

(١) روى معناه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٧٦) عن قتادة.

(٢) هي قراءة حمزة وحفص، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٥)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

﴿لكن ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ قال أبو عبيدةَ: أي: ولكنَّ البارَّ مَن آمنَ[١]، والفاعلُ قد يُسمَّى بالمصدرِ، قال الله: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]؛ أي: غائرًا، وقال: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]؛ أي: للمُتَّقي، وتقولُ: رجلٌ صومٌ وفِطرٌ؛ أي: صائمٌ ومُفْطِرٌ.

قال الزَّجَّاجُ: ولكن ذا البِرِّ[٢]، كقولِه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]؛ أي: ذَوُو درجاتٍ.

وقال الفرَّاءُ: ولكنَّ البِرَّ برُّ مَن آمنَ، فحُذِفَ المُضافُ، كقولِه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ أي: أهلَ القريةِ، وقولِه: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]؛ أي: حُبَّ العجلِ، ويُقالُ: الجودُ حاتمٌ، والشِّعرُ زُهيرٌ؛ أي: جُودُ حاتمٍ وشِعرُ زُهيرٍ[٣].

ومثلُ هذه الآيةِ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ﴾ [التوبة: ١٩]؛ أي: أجعلتُم سقايةَ الحاجِّ كإيمانِ مَن آمنَ.

والبِرُّ: اسمٌ جامعٌ لجميعِ الطّاعاتِ.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني به: جنسَ الكتبِ.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: على حبِّ المالِ.

وقيلَ: على حبِّه للمالِ، فالكنايةُ ترجعُ إلى ﴿مَنْ﴾ في قولِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٦٥)، و«البسيط» (٣/ ٥١٥) والكلام منه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٤٦)، و«البسيط» (٣/ ٥١٦).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٦٣ و١٠٤)، و«البسيط» (٣/ ٥١٦ ـ ٥١٧). وأجازه الزجاج أيضاً. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٤٦).

وقيلَ: ترجعُ إلى الإيتاءِ؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على المصدرِ، وهو كقولِ الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٠]؛ أي: البُخلَ خيرًا لهم.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: ذَوي قرابتِه صلةً لأرحامِهم، وفي الخبرِ: «أفضلُ الصَّدقةِ جهدُ المُقِلِّ على ذي الرَّحمِ الكاشحِ»(١).

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: هم الذين لا آباءَ لهم، وقد يقعُ لفظُ اليتيمِ على الصَّغيرِ، وعلى البالغِ، قال الله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وإنَّما يُؤتَون بعد البلوغِ.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: هم المُحتاجُونَ الذين هم في موضعِ رحمةٍ.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المُجتازُ في السَّفرِ المباحِ وليس معه ما يُبلِّغُه، وسُمِّيَ ابنَ السَّبيلِ للُزومِه إيَّاه، كما يُقالُ لطيرِ الماءِ: ابنُ الماءِ.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ يعني: المُحتاجين الذين يسألون، ومَن حملَ الآيةَ على غيرِ الزَّكاةِ دخلَ فيه المسلمُ والكافرُ.

---

(١) حديث مجموع من حديثين صحيحين:

الأول: رواه الإمام أحمد في «المسند» (٨٧٠٢)، وأبو داود (١٦٧٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٤٤) و(٢٤٥١)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٣٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٥٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله! أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل وابدأ بمن تعول».

والثاني: رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٣٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (١٤٧٥)، من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «أفضل الصدقة على ذي الرحمن الكاشح». وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٣٢٠) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾؛ أي: وآتى المالَ في عتقِ الرِّقابِ، فيدخلُ فيه المُكاتَبُ يُعينُه على أداءِ الكتابةِ، وأن يشتريَ عبدًا فيُعتِقَه، وفداءُ الأسيرِ.

ومَن حملَ الآيةَ على الزَّكاةِ فالذي يُصرَفُ منَ الزَّكاةِ إلى الرِّقابِ ما هو إعانةُ المُكاتَبِ عندَ الشّافعيِّ رضي الله عنه.

والرِّقابُ: جمعُ رقبةٍ، وهي مُؤخَّرُ أصلِ العُنُقِ، وهي منَ المُراقبةِ؛ لأنَّ مكانَها منَ البدَنِ مكانُ الرَّقيبِ المُشرفِ على القومِ.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ أرادَ: الوفاءَ بالأيمانِ والنُّذورِ والوُعودِ والعُهودِ.

وقيلَ: أرادَ ما أخذَ الله منَ العهودِ على عبادِه على ألسنةِ الرُّسلِ.

وقال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ لأنَّه عطفٌ على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: ولكنَّ البّارَّ ـ أو: ذا البرِّ ـ مَن آمنَ والمُوفونَ.

وقيلَ: هو رفعٌ على المدحِ على أنَّه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ؛ أي: وهم المُوفونَ.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قال الفرَّاءُ: انتصبَ على المدحِ، وهو اختيارُ أبي عليٍّ[١]، فهو من تعدادِ أوصافِ مَن آمنَ، والعربُ قد تنصِبُ بالمدحِ والذَّمِّ وإن كان الاسمُ رفعًا، كأنَّهم ينوونَ إخراجَ المنصوبِ لمدحٍ مجدَّدٍ غيرِ مُتْبَعٍ لأوَّلِ الكلامِ، فإذا أرادوا التَّنبيهَ على شيءٍ بالتَّعظيمِ خالَفُوا بإعرابِه حتَّى يكونَ أوقعَ في القلبِ، فإذا قال المُخبِرُ: «قامَ زيدٌ»، فقد يقولُ السَّامعُ: «هو والله العاقلُ الظَّريفُ»، وقد يقولُ: «ذكرتَ واللهِ العاقلَ الظَّريفَ»، وعلى هذا يجوزُ «مررتُ بزيدٍ العاقلُ» و«بزيدٍ العاقلَ»، قال الله تعالى: ﴿وامرأتُه حمَّالةُ الحطَبِ﴾ و﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[٢].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٠٨)، و«البسيط» (٣/ ٥٢٦) والكلام منه.

(٢) قرأ بالنصب عاصم، والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ٧٠٠) و«التيسير» (ص: ٢٢٥).

وعند الخليلِ معناه: «مررتُ بزيدٍ أعني العاقلَ»، فيُنصَبُ بإضمارِ «أعني»، **وفيه نظرٌ**؛ لأنَّه لا يُقالُ: «قامَ زيدٌ أخاك» على تقدير: «أعني أخاك»[1].

وقال القفَّالُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ... وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ولكنَّ الصّابرينَ عطفًا على قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾، ثمَّ قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾.

وقال الكسائيُّ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ أي: وآتى المالَ ذَوي القُربى والصّابرينَ.

وهذا بعيدٌ؛ إذ لا يجوزُ الفصلُ بين الصِّلةِ والموصولِ بالمعطوفِ على الموصولِ، وقولُه: ﴿المُوفون﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، فلا يجوزُ أن تقولَ: «مررتُ بالضّاربينِ وقومٍ زيدًا»، بل يجبُ أن يقولَ: «مررتُ بالضّاربينَ زيدًا وقومٍ».

والصّابرون في البأساءِ والضَّرّاءِ: هم أهلُ الزَّمانةِ والفقرِ، وقد مضى ذِكرُهم في قولِه: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾.

و﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: الفقرُ، مِنَ البُؤسِ ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرضُ والبلاءُ في البدنِ، وهما اسمانِ على «فَعلاءَ»، ولا «أفعلَ» لهما، وهما مُتقارِبان في المعنى من: صبرَ على البلاءِ.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ أي: في الجهادِ والقتالِ في سبيلِ الله إعلاءً لكلمةِ الله، والبأسُ: الشِّدَّةُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ أي: مَن قام بهذه الخصالِ فهم الصَّادقون في ادِّعاءِ البرِّ.

---

(١) انظر: «البسيط» (٣/ ٥٢٧)، ونقل الرد المذكور عن الفراء.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين اتَّقَوا عقابَ الله، فتركُوا مُخالفتَه.

قُرِئَ: ﴿ولكِنِ البرُّ﴾ بالتَّخفيفِ، وقُرِئَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ بالتَّشديدِ[1].

***

(١٧٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ كانت العربُ ترى لبعضِهم فضلًا على بعضٍ، فكانَ يقولُ القائلُ: نقتلُ بالواحدِ منَّا اثنَين من بني فلانٍ، وكانت اليهودُ من قُريظةَ والنَّضيرِ تسلُكُ مسلَكَ العربِ في ذلك، فيرَونَ دِيةَ النَّضيريِّ ضعفَ ديةِ القُرَظيِّ، وربَّما كانوا يطلبونَ قتلَ جمعٍ بواحدٍ[2]، فبيَّنَ الله تعالى أنَّه ليس البرُّ كلُّ البرِّ في أمرِ القبلةِ، بل يجبُ المُحافظةُ على ما أُمروا به فيما يتعلَّقُ بالقصاصِ أيضًا، ولأنَّ صنيعَ اليهودِ في بابِ القصاصِ ممّا حرَّفوه من أحكامِ التَّوراةِ فغيَّروا بذلك.

وقال الشَّعبيُّ: نزلَتْ الآيةُ في حيَّينِ منَ العربِ كان بينَهما قتالٌ، وكان لأحدِ

---

(١) بالتخفيف قرأ نافع وابن عامر، والباقون بالتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٧)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

(٢) ذكر نحوه مختصراً الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥٤) عن مقاتل ابن حيان، وروي نحو هذا في نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢] رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٧٩٧٠) عن ابن عباس. وفي نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠] رواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٢).

الحيَّينِ طَولٌ علـى الآخرِ، فقالوا: نقتلُ بالعبدِ منَّا الحرَّ منكم، وبالمرأةِ الرَّجلَ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

﴿كُتِبَ﴾؛ أي: فُرِضَ، ومَن أرادَ إحكامَ الشَّيءِ كتبَه لئلَّا ينساه، فقيلَ في كلِّ واجبٍ: كُتِبَ.

وقيـلَ: أي: ما كتبَه الله في اللَّـوحِ المحفوظِ، ومثلُه قولُه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]؛ أي: قَضَى، وقولُـه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣]، وقولُه: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

والمقصودُ منَ الآيةِ: أنَّ الحرَّ مِثْلٌ للحُرِّ، فلا يُقتَلُ اثنانِ من قبيلةٍ بقتلِ واحدٍ منَ القبيلةِ الأُخرى، ثمَّ يجبُ القِصاصُ على العبدِ إذا قتلَ حرًّا، وعلى المرأةِ إذا قتلَتْ رجلًا، أو على الجمعِ إذا قتلُوا واحدًا، بأدلَّةٍ ثبتَتْ في الشَّرعِ.

وقد يَمتنِعُ القِصاصُ لاختلافِ دينٍ، أو للأُبوَّةِ؛ لأدلَّةٍ ثبتَتْ فيها.

والقِصاصُ: المُساواةُ، وقَصَّ أثرَه؛ أي: تبِعَه، والقِصاصُ بمعنى المُقاصَّةِ، يُقالُ: قاصَصْتُ قصاصًا، وأقصَصْتُه إقصاصًا؛ أي: أقَدْتُه من أخيه، وقصَصْتُ عليه الحديثَ قصَصًا وقصًّا.

وقيلَ: القَصُّ: القَطْعُ، فالقِصاصُ: أن يُجرحَ الجاني مثلَ ما جرَحَ.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾؛ أي: الحرُّ يقتَصُّ بالحرِّ، فحُذِفَ لدلالةِ ذكرِ القصاصِ عليه.

والحرُّ مشتقٌّ منَ الحَرِّ الذي هو نقيضُ البردِ؛ لأنَّ الـحُرَّ له من حرارةِ الحمِيَّةِ ومنَ الأَنَفةِ ما يبعثُه على المكرمةِ، بخلافِ العبدِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٩٥ ـ ٩٦) عن الشعبي وقتادة. ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٣) عن قتادة. وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤) عن سعيد بن جبير.

ثـمَّ؛ قـال الفـرَّاءُ: هـذه الآيـةُ منسـوخةٌ بقولِـه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥][1]، فـكأنَّ [عنـده] هذه الآيـةَ دلَّتْ على أنَّ الذَّكـرَ يُقتَلُ بالذَّكرِ ولا يُقتَـلُ بالأُنثـى، فلمَّـا لـم يُعمَلْ به وعُمِـلَ بقولِـه: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ كانت هذه الآيـةُ منسـوخةً؛ لأنَّ حكـمَ الآيـةِ ثابتٌ، ولـم تدلَّ علـى أنَّ الذَّكـرَ لا يُقتَـلُ بالأُنثى.

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ العفوُ: تركُ الواجبِ.

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾؛ أي: من دمِ أخيه، فحُذِفَ المُضافُ لدلالةِ الحالِ عليه، وأرادَ بالأخِ: المقتولَ، يعني: أخوَّةَ الإسلامِ، وهذا يدلُّ على أنَّ القاتلَ لـم يخرُجْ عن الإيمانِ بالقتلِ.

﴿شَىْءٌ﴾ يدلُّ على أنَّ بعضَ الأولياءِ إذا عفا سقطَ القِصاصُ، والكنايةُ في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ وقولِه: ﴿أَخِيهِ﴾ ترجعُ إلى (مَن)، وهو القاتلُ.

وقيلَ: العفوُ: قَبولُ الدِّيةِ في قتلِ العمدِ، وليس هذا العفوُ من وليِّ الدَّمِ، بل هو عفوٌ منَ الله، وذلك لأنَّه لـم يكُنْ لبني إسرائيلَ أخذُ الدِّيةِ، فأثبتَه الله لهذه الأمَّةِ عفوًا منه وفضلًا إذا اختارَ وليُّ الدَّمِ ذلك في العمدِ؛ أي: فمَن عفا اللهُ له بقبولِ الدِّيةِ بدلَ أخيه المقتولِ، وهو كما تقولُ: «عوَّضْتُ له من حقِّه ثوبًا»؛ أي: أعطَيتُه بدلَ حقِّه ثوبًا، فقولُه: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ بمعنى البدلِ.

وفي هذا بُعدٌ وإن ذكرَه الأزهريُّ[2]؛ لأنَّ العفوَ لو كان منَ الله لتعيَّنتِ الدِّيةُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٠٩)، و«البسيط» (٣/ ٥٣٣)، والكلام وما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، و«البسيط» (٣/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦)، والكلام منه، وقال الأزهري بعد أن ذكر هذا الوجه ـ ونقل ذلك عنه الواحدي ـ: وما علمت أحداً أوضح من معنى هذه الآية مَا أوضَحْتُه، فتدبَّرْه واقْبَلْه بشكرٍ إذا بان لك صوابه.

وسقطَ القِصاصُ أصلاً، فعلى الأوَّلِ المعنى: أنَّ وليَّ الدَّمِ إذا عفا عن القاتلِ وتَرَكَ القِصاصَ فعلى القاتلِ الدِّيةُ، فليأخُذِ الوليُّ ما ثبتَ له منَ الدِّيةِ بالمعروفِ، وليُؤدِّ القاتلُ ما آلَ إليه الأمرُ بإحسانٍ.

وقولُه: ﴿شَيْءٌ﴾ يرجعُ إلى القِصاصِ.

وقيلَ: أرادَ بالشَّيءِ: بعضَ القِصاصِ، فلهذا نُكِّرَ؛ أي: وليُّ الدَّمِ إذا عفا عن بعضِ الدَّمِ سقطَ القِصاصُ بالكلِّيَّةِ، ونبَّهَ بهذا على أنَّه لو عفا عن جميعِ الدَّمِ فأولى أن يسقُطَ القِصاصُ، ولو نصَّ على العفوِ عن القِصاصِ لتخيَّلَ مُتخيِّلٌ أنَّ العفوَ عن بعضِ الدَّمِ لا يُسقِطُ القصاصَ، فذكرَ الشَّيءَ ونكَّرَه، وهو كقولِه: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]، فنبَّه على أنَّها لو طابَتْ عن الجميعِ نفسًا حلَّ أكلُه.

وقيلَ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ يرجعُ إلى الوليِّ؛ أي: إذا تيسَّرَ للوليِّ من جهةِ القاتلِ عِوَضٌ وهو الدِّيةُ فليقبَلْ، فهو تحريضٌ على العفوِ عن القِصاصِ.

وقيلَ: أرادَ: مَن عُفِيَ له عن دمِ القتيلِ شيءٌ؛ أي: عفا بعضُ الأولياءِ، فهذا الذي لـم يعفُ ينبَغي أن يتَّبعَ المعروفَ ولا يطلُبَ إلا الدِّيَةَ.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: فعليه اتِّباعٌ بالمعروفِ، والمعروفُ: ما يُعرِّفُه الشَّرعُ ويَرِدُ به.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى العافي، والأداءُ من قولِكَ: «أدَّيتُ المالَ إليه بإحسانٍ»؛ أي: من غيرِ مُماطلةٍ وتأخيرٍ عن الوقتِ الشَّرعيِّ.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: إثباتُ الدِّيةِ تخفيفٌ، قال قتادةُ: لـم تحِلَّ الدِّيةُ لأحدٍ غيرِ هذه الأمَّةِ(١).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١١٣).

وقيلَ: شرعُ النَّصارى الدِّيةُ لا القِصاصُ، وقد يُريدُ المرءُ التَّشفِّي لا الدِّيةَ، فالتَّخييرُ بينَ القَوَدِ والدِّيةِ تخفيفٌ ورحمةٌ.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ فقَتَلَ غيرَ القاتلِ وزادَ في العددِ، أو: فمَن اعتَدَى فقتلَ بعد أخذِ الدِّيةِ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* * *

(١٧٩) - ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾؛ أي: إذا اقتُصَّ منَ القاتلِ ارتدَعَ النّاسُ منَ القتلِ، والقِصاصُ: سببُ حياةِ الخلقِ، ولهذا قيلَ: «القتلُ أكفُّ للقتلِ».

وقال السُّدِّيُّ: كانوا يقتُلون بالواحدِ عشرةً أو مئةً ممَّن لم يُباشِرْ ذلك القتلَ، فلمَّا أُمِروا برعايةِ المُماثلةِ كان ذلك حياةَ أقوامٍ[1].

قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾؛ أي: فرَحٌ[2]، فإنَّ وليَّ الثَّأرِ إذا اقتصَّ تشفَّى وطابَتْ نفسُه، وقد يتمنَّى الإنسانُ موتَ نفسِه منَ الحزنِ الذي ينزلُ به، وفي امتناعِ الاقتصاصِ عليه، فإذا اقتصَّ وزالَ سببُ تمنِّي الموتِ كان فيه حياةٌ.

وقيلَ: معناه: ما يذهبُ إليه العربُ من أنَّ قتلَ القاتلِ إحياءٌ للمقتولِ، وكانوا يقولون: أحيا فلانٌ أباه؛ أي: قتَلَ قاتلَه، ففي القِصاصِ إذن حياةٌ على معنى: أنَّه قتَلَ قاتلَه.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٧١)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٥٤٢). وروى عنه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٢٣) قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يقول: بقاءٌ، لا يُقتلُ إلَّا القاتلُ بجنايته.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٥٤٢)، وما سيأتي هو كلامه في شرح كلام ابن عباس.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (أولو) واحدُها: «ذو»، فهو جمعٌ ليس له من لفظِه واحدٌ، كالنَّفَرِ والقومِ والرَّهْطِ.

و﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: جمعُ لُبٍّ، وهو خالصُ الشَّيءِ، ومنه سُمِّيَ العقلُ لُبًّا؛ لأنَّه أشرفُ خصالِ المرءِ، وأصلُ[1] الكلمةِ منَ اللُّزومِ، يُقالُ: ألَبَّ بالمكانِ؛ أي: لزِمَه لزومَ لُبِّ الشَّيءِ له، ويُقالُ: لَبِبْتُ تَلَبُّ من بابِ «حمِدَ يحمَدُ»، قالت صفيَّةُ: «أضرِبُه كي يَلَبَّ ويقودَ الجيشَ ذا الجَلَبِ»[2]، وحُكِيَ: «لَبُبْتَ لَبابةً»، مثل: عظُمَ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لتتَّقوا[3] القِصاصَ فتمتَنِعوا عنِ القتلِ، أو: لتتَّقُوا القتلَ حذَراً منَ القِصاصِ، أو: لتتَّقوا الله باجتنابِ معاصيه.

* * *

(١٨٠) ـ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ أي: كُتِبَ عليكم القِصاصُ، وكُتِبَتْ عليكم الوصيّةُ، فلمَّا طالَ الكلامُ أسقَطَ الواوَ.

وقيلَ: لـمَّا ذكَرَ أنَّ لوليِّ الدَّمِ أن يقتَصَّ، فهذا الذي أشرَفَ على أن يُقتَصَّ منه رأى أسبابَ الموتِ، فكأنَّ الموتَ حضرَه، فهذا أوانُ الوصيَّةِ.

ويجوزُ ألّا تتعلَّقَ آيةٌ بآيةٍ، بعد أن كانَ كلُّ شيءٍ من القرآنِ مُقيَّدًا حكمُه، ولا

---

(١) في (أ): «ويقال أصل».

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٠١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٣٤٨). وانظر شرحه في «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ١٥٧)، و«الغريبين» لأبي عبيد (مادة: جلب).

(٣) في (أ): «لتتقوا ذلك».

يبعُدُ أنَّه كان في كلِّ حكمٍ من هذه الأحكامِ شرعٌ لليهودِ، فبيَّنَ الله الأحكامَ للمسلمين تنبيهًا على أنَّ ما خالفَ هذا الذي ذُكِرَ صارَ منسوخًا، أو كانَ من تحريفِ اليهودِ.

﴿كُتِبَ﴾ أي: فُرِضَ.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أي: أعلامُ الموتِ وأسبابُه، وكانت الوصيّةُ إذ ذاك واجبةً، وإنَّما قال: ﴿كُتِبَ﴾ ولم يقُلْ: «كُتِبَتْ» لأنَّه أرادَ بالوصيّةِ: الإيصاءَ.

وقيلَ: لأنَّه تخلَّلَ فاصلٌ، فكان الفاصلُ كالعِوَضِ من تاءِ التَّأنيثِ، تقولُ العربُ: «حضرَ القاضيَ امرأةٌ».

وقيلَ: أي: كُتِبَ عليكم الوصيّةُ حتَّى يقولَ كلُّ إنسانٍ: إذا حضَرَني الموتُ فمالي في وجهِ كذا وكذا، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: كُتِبَ عليكم الوصيّةُ إنْ تركَ أحدُكم خيرًا للوالدين والأقربين إذا حضَرَه الموتُ، فقولُه: ﴿حَضَرَ﴾ محمولٌ على حقيقةِ الحضورِ، ولا يحضرُه الموتُ إلّا وهو ميِّتٌ.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ يُريدُ: المالَ، كقولِه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

ثمَّ؛ قيلَ: هو فيما قلَّ أو كثُرَ منَ المالِ.

وقيلَ: أرادَ بالخيرِ: المالَ الكثيرَ، وكانت الوصيّةُ تجبُ على مَن كان مالُه كثيرًا، ودخلَ عليٌّ على مولًى له في مرضِه وله سبعُ مئةِ درهمٍ، فقال: ألا أُوصي؟ فقال: إنَّما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وليس لكِ مالٌ كثيرٌ(١).

ومُعظَمُ العلماءِ على نسخِ هذه الآيةِ، وكانَ أهلُ الجاهليّةِ يوصُونَ بمالِهم

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٣٥١)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٩٣).

للأباعدِ رياءً وسُمعةً، ويترُكونَ العِيالَ فقراءَ، فأمرَ الله بالوصيّةِ للأقاربِ، ثمَّ نُسِخَت بآيةِ المواريثِ وامتنعتِ الوصيّةُ للورثةِ[١].

ثمَّ؛ قال قومٌ: إنَّما نُسِخَت الوصيَّةُ للوارثِ، فأمَّا الأقاربُ الذين لا يرِثُونَ كالوالدَين مع اختلافِ الدِّينِ أو الرِّقِّ فلم تُنسَخ الوصيّةُ لهم، بل تجبُ الوصيّةُ لهم، وهذا مذهبُ الحسنِ وطاوسٍ وجماعةٍ[٢].

والصَّحيحُ: أنَّ حكمَ الآيةِ منسوخٌ بالكلِّيةِ، ولا[٣] تجبُ الوصيّةُ لأحدٍ، ولكن للمرءِ أن يُوصيَ لـمَن أرادَ إلّا للوارثِ.

واختلفُوا في الأقربين؛ فقيلَ: هم الأولادُ.

وقيلَ: مَن عدا الولدَ منَ الأقاربِ، فأمَّا الأولادُ فإنَّهم لـم يدخُلوا في الآيةِ، فكان المالُ للولدِ، والوصيَّةُ للوالدَين والأقربين.

وقيلَ: الأقربُونَ جميعُ القراباتِ مَن يرِثُ ومَن لا يرِثُ.

وقيلَ: هم مَن لا يرِثُ دونَ مَن يرِثُ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما ورَدَ به الشَّرعُ وحسُنَ في عُرفِ أهلِ الشَّرعِ.

﴿حَقًّا﴾؛ أي: حقَّ ذلك حقًّا ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتَّقونَ عقابَ الله.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٧٤٧) عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان المالُ للولد، وكانت الوصيةُ للوالدين، فنَسخ اللهُ مِن ذلك ما أَحَبَّ، فجَعَل للذَّكرِ مِثْلَ حظِّ الأُنْثَيَيْن، وجَعَل للأبوين لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسَ، وجَعَل للمرأة الثُّمُنَ والرُّبُع، وللزوج الشَّطرَ والربعَ.

(٢) انظر: «البسيط» (٣/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨). وروى قول الحسن وطاوس: الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٢٥و١٢٧).

(٣) في (أ): «إذ لا تجب».

(١٨١) ـ ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ الكنايةُ ترجعُ إلى الإيصاءِ؛ لأنَّ الوصيّةَ في معنى الإيصاءِ، وهو كقولِه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: وعظٌ.

وقيلَ: ترجعُ إلى الفرضِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كُتِبَ﴾؛ أي: فُرِضَ؛ أي: مَن غيَّرَ الوصيَّةَ منَ الأوصياءِ والأولياءِ بعدَما سمعَه منَ الميِّتِ، أو بعد الذي سمعَه من تغليظِ الإثمِ في التَّبديلِ.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾: إثمُ التَّبديلِ على المُبدِّلِ لا على الميِّتِ.

وقيلَ: أي: هذا الموصِي إذا غيَّرَ وتركَ الوصيَّةَ أو لم يَجْرِ على ما رُسِمَ له في الشَّرعِ؛ فعليه الإثمُ.

***

(١٨٢) ـ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾؛ أي: مَن خشيَ.

وقيلَ: علِمَ؛ والخوفُ والخشيةُ يُذكرانِ بمعنى العلمِ؛ لأنَّ في المخافةِ والخشيةِ شيئًا منَ العلمِ؛ فإنَّ مَن قال: «أخافُ أن يقعَ كذا»، فكأنَّه يقولُ: أعلَمُ، وإنَّما يخافُ لنوعٍ منَ العلمِ، قال الله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠]؛ أي: علِمْنا.

قُرِئَ: ﴿مِن مُّوصٍ﴾ بالتَّخفيفِ، و: ﴿مُوَصٍّ﴾ بالتَّشديدِ[١].

---

(١) بالتشديد حمزة والكسائي، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٦)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

﴿جَنَفًا﴾؛ أي: مَيلًا، يُقالُ: جنِفَ يجنَفُ جَنَفًا، مثلُ: حمِدَ يحمَدُ؛ أي: مالَ، ومنه: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣].

وقيلَ: الجنَفُ: الخطأُ من غيرِ تعمُّدٍ، والإثمُ: العمدُ.

وقيلَ: مَن حضرَ مريضًا وهو يوصي، فخافَ أو علمَ أنَّه يُخطِئُ في وصيَّتِه، أو يتعمَّدُ جَورًا فيُوصي لابنِ ابنِه والغرضُ أن ينصرفَ المالُ إلى ابنِه، أو يُوصي لزوجِ ابنتِه لينصرفَ المالُ إلى ابنتِه، أو أوصى لبعيدٍ وحرَمَ القريبَ، فلا حرجَ على الذي علمَ ذلك أن يُصلحَ بين ذلك المريضِ وبينَ ورثتِه بأن يأمرَه بالعدلِ.

وقيلَ: مَن علِمَ أنَّ الميتَ حافَ في وصيَّتِه أو أخطأَ فلا حرجَ عليه في أن يُغيِّره ويُصلحَ بعد موتِه بينَ ورثتِه وبينَ المُوصَى لهم، وهذا الذي يطلبُ الإصلاحَ والي المسلمين، أو الوليُّ، أو الوصيُّ.

وقيلَ: أي: فمَن خافَ من المُوصينَ الجنَفَ والميلَ فلم يقسِمْ مالَه بين الوالدَين والأقربينَ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: لا حرجَ في تركِ تفضيلِ الوصيّةِ.

والجملةُ: أنَّه نهى عن التَّبديلِ إلا إذا خافَ المُوصي خطأً أو عمدًا، فحينَئذٍ يحقُّ التَّبديلُ.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين المُوصَى لهم والورثةِ، أو بينَ المُوصي والمُوصَى لهم والورثةِ، أو بينَ الورثةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يسترُ الإثمَ ﴿رَّحِيمٌ﴾: لا يجعلُ على عبادِه في الشَّرعِ حرجًا.

* * *

(١٨٣) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ ذكرَ ما كُتِبَ على المُكلَّفين منَ القِصاصِ والوصيّةِ والصِّيامِ، والصَّومُ: الإمساكُ عن الشَّيءِ والتَّوقُّفُ، ويُقالُ: الصَّمتُ صومٌ؛ لأنَّه إمساكٌ عن الكلامِ، قال الله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦]، وصامَتِ الدَّابَّةُ على آرِيِّها[١]؛ أي: قامَتْ فلم تعتلِفْ، وصامَ النَّهارُ؛ أي: اعتدَلَ، وصامَتِ الشَّمسُ؛ أي: حيثُ تستَوي في مُنتصفِ النَّهارِ.

والصَّومُ في الشرع: الإمساكُ عن المُفطِّراتِ مع اقترانِ النِّيةِ به.

والمُرادُ بهذا الصَّومِ: صومُ شهرِ رمضانَ، وكان يجبُ في الابتداء صومُ يومِ عاشوراءَ وثلاثةِ أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ، فنُسِخَ بصومِ رمضانَ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: أرادَ بهذا صيامَ ثلاثةِ أيّامٍ من كلِّ شهرٍ[٢]، وهكذا بقولِه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فُرِضَ عليكم الصَّومُ كما فُرِضَ على الأممِ السّابقةِ، وهو تشبيهٌ في أصلِ وجوبِ الصَّومِ لا في الوقتِ والكيفيّةِ.

وفيه تهوينُ الأمرِ على العبدِ؛ أي: لك أسوةٌ بمَن تقدَّمَ.

وقيلَ: التَّشبيهُ يرجعُ إلى وقتِ الصَّومِ وقَدْرِ الصَّومِ؛ فإنَّ الله كتبَ على قومِ موسى وعيسى صومَ رمضانَ، فغيَّروا وزاد أحبارُهم عليهم عشرةَ أيّامٍ، ثمَّ مرِضَ

---

(١) الآرِيُّ: محبس الدابة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٠٤)، وإسناده ضعيف جدًّا.

بعضُ أحبارِهم فنذَرَ إنْ شفاه الله أن يزيدَ في صومِهم عشرةَ أيّامٍ ففعَلَ، فصومُ النَّصارى خمسونَ يومًا[(١)].

وقيلَ: أخذوا بالوثيقةِ فصاموا قبلَ الثَّلاثين يومًا وبعدَها يومًا، ولم يزالوا يزيدون حتَّى بلغَ صومُهم خمسين يومًا، ولهذا كُرِهَ الآنَ صومُ يومِ الشَّكِّ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لتَّتقوا الأكلَ والشُّربَ والوقاعَ في زمانِ الصَّومِ، أو: لتتَّقوا المعاصيَ، و(لعلَّ) يرجعُ إلى العبدِ؛ أي: كونوا على رجاءٍ من[(٢)] حصولِ التَّقوى.

* * *

(١٨٤) ـ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ أي: كُتِبَ عليكم الصِّيامُ في أيّامٍ[(٣)]، فهو نصبٌ على الظَّرفِ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٤٠٧)، و«البسيط» (٣/ ٥٥٧)، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٥٤) عن السدي. وروي نحوه مرفوعاً، رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٨٩)، من طريق الحسن عن دغفل بن حنظلة عن النبي ﷺ، لكن قال البخاري: لا يعرف سماع الحسن من دغفل، ولا يعرف لدغفل إدراك النبي ﷺ. ورواه الطبراني في «الكبير» (٤٢٠٣)، ومن طريقه المزي في «تهذيب الكمال» (٨/ ٤٨٦) ـ ترجمة دغفل ـ من طريق الحسن عن دغفل قوله.

(٢) «من» ليس في (أ).

(٣) بعدها في (أ): «معدودات».

وقيلَ: هو خبرُ ما لـم يُسمَّ فاعلُه، مثلَ: «ضُرِبَ زيدٌ سوطًا»(١).

والأيامُ المعدوداتُ: شهرُ رمضانَ، وخفَّفَ على العبدِ فبيَّنَ أنَّه لـم يُوجِبْ صيامَ الدَّهرِ، بل هو صومُ أيامٍ يسيرةٍ.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾؛ أي: مَـن كان مريضًـا أو مسـافرًا فأفطـرَ فلْيَقْضِ، فـلا بدَّ من هذا الإضمـارِ؛ لأنَّ القضاءَ إنَّما يجـبُ بالإفطارِ، ومثلُه: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ [البقـرة: ١٩٦]، والسَّـفرُ مـنَ الكشـفِ؛ لأنَّـه يكشـفُ من أحـوالِ المُسـافرِ وأخلاقِه.

وقيلَ: سافرَ؛ أي: برزَ إلى الفضاءِ، ويُقالُ للمِكْنَسِ: المِسْفَرة، والسَّفيرُ: الدَّاخلُ بين اثنَين للصُّلحِ؛ لأنَّه يكشفُ المكروهَ المتَّصِلَ بهما، والسِّفْرُ: الكتابُ؛ لأنَّه يكشفُ عن المعاني، ومنه: إسفارُ الصُّبحِ.

﴿فَعِدَّةٌ﴾؛ أي: فعليه عِدَّةٌ، كقولِه: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، والمعنى: فعليه صيامُ عدَّةٍ، فحُذِفَ المُضافُ، العِدَّةُ «فِعْلةٌ» منَ العدِّ، وهي بمعنى المعدودةِ، كالطَّحينِ بمعنى المطحونِ، تقولُ: أسمعُ جَعْجَعةً ولا أرى طِحْنًا، ومنه: عِدَّةُ المرأةِ.

---

(١) وهذا مذهب الفراء والأخفش، قال الفراء: وقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ نصبت على أن كل ما لم تُسمِّ فاعلَه إذا كان فيها اسمان أحدهما غير صاحبه رفعت واحداً ونصبت الآخر؛ كما تقول: «أُعطيَ عبدُ الله المالَ»، وتقول: ضُرب عَبْد الله راكباً ومظلوماً وماشياً وراكباً. ولا تبالِ أكان المنصوب معرفة أو نكرة.

فهو على هذا مفعول به على السعة كما ذكر أبو حيان، وعدَّ هذا المذهب خطأ، وكذا ما قبله من النصب على الظرفية، واختار أن يكون انتصاب ﴿أَيَّامًا﴾ على إضمار فعل يدل عليه ما قبله، وتقديره: صوموا أياماً معدودات. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١١٢)، وللأخفش (١/ ١٦٩)، و«البحر المحيط» (٣/ ٣٣٠)، و«ارتشاف الضرب» له (٣/ ١٤٠١).

﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: ﴿أُخَرَ﴾: جمعُ أُخْرَى، وأُخْرَى: تأنيثُ آخَرَ، و«آخرُ» على وزنِ «أفعل»، ثمَّ يُقالُ: «زيدٌ أفضلُ من عمرٍو»، فيُستعملُ بابُ «أفعل» مع «مِن» أو مع الألفِ واللَّامِ، كقولك: «زيدٌ الأفضَلُ»، فأسقطوا من «أُخَر» و«آخَرَ» «مِن» والألفَ واللَّامَ اكتفاءً بدلالةِ اللَّفظِ عليه، فصارَ معدولًا عن القياسِ ـ بمعنى أنَّه خرجَ من تعريفٍ إلى تنكيرٍ ـ فمُنِعَ الصَّرفَ لأنَّه اجتمعَ فيه في حالَ التَّنكيرِ العدلُ والصِّفةُ؛ فإنَّه مـمَّا يُوصَفُ به، فإنَّ «أُخَر» صفةُ الأيامِ هاهُنا.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: الصَّومَ، وقيلَ: الإطعامَ.

يُقالُ: طاقَ يَطُوقُ طَوْقًا، وأطاقَ يُطيقُ إطاقةً وطاقةً، مثلَ: طاعَ يطوعُ طَوعًا، وأطاعَ يُطيعُ إطاعةً وطاعةً.

﴿فِدۡيَةٌ﴾؛ أي: جزاءٌ وبدلٌ ﴿طَعَامُ مِسۡكِينٍ﴾ قُرِئَ بإضافةِ الفديةِ إلى الطَّعامِ[1]؛ أي: وعلى الذين يُطيقونَ الصَّومَ فأفطَروا فديةُ طعامٍ؛ أي: فديةٌ من طعامٍ، كقولك: «ثوبُ خَزٍّ»؛ أي: من خَزٍّ، وعلى هذه القراءةِ قالوا: ﴿مساكين﴾[2]؛ لأنَّ الذين يُطيقونَ الصَّومَ جماعةٌ، فيلزمُ كلَّ واحدٍ طعامُ مسكينٍ.

وقُـرِئَ: ﴿فِدۡيَةٌ﴾ بالتَّنويـنِ ﴿طَعَامُ مِسۡكِينٍ﴾[3] فمـا بعـدَ الفديـةِ تفسـيرٌ للفديـةِ، ووحَّـدَ المسـكينَ لأنَّ لـكلِّ يـومٍ إطعـامَ مسـكينٍ واحـدٍ، ومثلُـه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ [النور: ٤]، أي: كلَّ واحـدٍ منهم ثمانيـنَ جلدةً.

---

(١) قرأ بها نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٦)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

(٢) انظر المصدرين السابقين، وقرأ بها أيضاً هشام عن ابن عامر.

(٣) وهي قراءة باقي السبعة. انظر المصدرين السابقين.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِيْن﴾ على الجمعِ(١).

ثمَّ قيلَ: كان مَن أصبحَ صائمًا مُطيقًا للصَّومِ فله أن يُفطِرَ ويتصدَّقَ، فنُسِخَ بقولِه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

وقيلَ: كان يجوزُ أن لا ينويَ الصَّومَ، بل يتصدَّقُ، فنُسِخَ، فليس في الآيةِ إذنْ بيانُ حكمِ مَن يقتدرُ على الصَّومِ بجهدٍ كالشَّيخِ الهرمِ والحاملِ والمُرضعِ؛ لأنَّ هؤلاءِ لا يُطيقونه؛ لأنَّ المُطيقَ المُطلَقَ مَن لا يلحقُه مشقَّةٌ، ولهذا قالَ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وقرأ ابنُ عبَّاسٍ: (وعلى الذين يُطَوَّقُونَه)(٢).

وقُرِئَ: (يطَّوَّقُونَه)(٣)؛ أي: يتطَوَّقونَ؛ أي: يُجعلُ ذلك طوقًا في أعناقِهم؛ أي: على مَن لا يستطيعُ الصَّومَ إلا بجهدٍ ومشقَّةٍ.

ويحتملُ: وعلى الذين يُطَوَّقونَ؛ أي: يُحمَّلون حكمَ الصَّومِ لا عينَ الصَّومِ - كالشَّيخِ الهرِمِ - فعليهم فديةٌ، فالآيةُ إذن غيرُ منسوخةٍ.

والفِديةُ: مُدٌّ لكلِّ يومٍ يتصدَّقُ به على مسكينٍ.

وقال قومٌ منَ السَّلفِ: هي مُدَّانِ، نصفُ صاعٍ.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾؛ أي: مَن زادَ في الصَّدقةِ على مُدٍّ واحدٍ.

وقيلَ: أرادَ: مَن صامَ مع الفديةِ فهو خيرٌ له.

---

(١) وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام كما تقدم. انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: «المحتسب» (١/ ١١٨)، ورواها عن ابن عباس رضي الله عنهما البخاري (٤٥٠٥).

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ١١٨) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: مـنَ الإفطـارِ والفديـةِ، وإنَّمـا كان هـذا قبـلَ النَّسخِ.

وقيلَ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ في السَّفرِ والمرضِ فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وقيـلَ: أي: كُتِـبَ عليكم الصِّيـامُ، وأن تصومُـوا خيرٌ لكم؛ إذ لو لـم تصومُوا لعُوقِبتُم.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إذا كنتُم.

وقيلَ: أي: إن فكَّرتُم وتأمَّلتُم علمتُم ذلك.

* * *

(١٨٥) ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ﴾ قيلَ: يرجعُ إلى قولِه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾؛ أي: هي شهرُ رمضانَ، فهو خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ.

وقيلَ: أي: كُتِبَ عليكم شهرُ رمضانَ.

وقيـلَ: ﴿شَهْرُ﴾ مُبتـدأ، و﴿ٱلَّذِىٓ﴾ مـع صلتِـه خبـرُه، كقولك: «زيـدٌ الذي في الدّارِ».

والشَّهرُ: منَ الشُّهرةِ، يُقالُ: شهَرَه شَهرًا؛ أي: أظهرَه.

(رمضانُ) لا ينصرفُ للتَّعريفِ وزيادةِ الألفِ والنُّونِ، مثل: سَعْدان وعُثمان.

وهو منَ الرَّمَضِ، وهو حرُّ الحجارةِ من شدَّةِ حرِّ الشَّمسِ، ومنه: الرَّمْضاءُ، ورَمِضَ يَرْمَضُ؛ أي: مشى على الرَّمضاءِ، فكأنَّ وقتَ التَّسميةِ وافقَ هذا الوقتَ، وهو وقتُ شدّةِ الحرِّ.

وقيلَ: هو منَ الرَّمضاءِ، وهو منَ السَّحابِ والمطرِ: ما كانَ في آخرِ القَيظِ؛ لأنَّه يُدرِكُ سُخونةَ الشَّمسِ.

وقال أبو عمرٍو: سُمِّي به لأنَّ وقتَ وجوبِ الصَّومِ وافقَ شدّةَ الحرِّ.

وهذا يُوجبُ أن يُقالُ: حدَثَ هذا الاسمُ لهذا الشَّهرِ في الإسلامِ، **وهو بعيدٌ**.

وقيلَ: هو من رمَضْتُ النَّصلَ أرمُضُه رَمْضًا؛ أي: دقَقْتُه بين حجرَين ليرقَّ، ومنه: نصلٌ رميضٌ ومرموضٌ، وسُمِّيَ الشَّهرُ به لأنَّهم كانوا يرمُضُونَ أسلحتَهم في رمضانَ ليُحارِبُوا في شوّالٍ قبلَ دخولِ الأشهرِ الحرُمِ.

وفي الخبرِ: «سُمِّي شعبانَ لأنَّه يتشعَّبُ فيه خيرٌ كثيرٌ لرمضانَ، وسُمِّي رمضانَ لأنَّه يرمضُ الذُّنوبَ»[١]؛ أي: يحرِقُها، منَ الإرماضِ، وهو الإحراقُ.

وفي خبرٍ: «لا تقولوا رمضانَ، بل انسُبوه كما نسَبَه الله في القرآنِ فقالَ: شهرُ رمضانَ»[٢]، ....

(١) رواه القزويني في «التدوين في أخبار قزوين» (٢/ ٢٤٢)، وذكره الديلمي في «الفردوس» (٢٣٣٩)، والقاري في «الفوائد المجموعة» (ص: ٩١)، جميعهم من حديث أنس، وقال القاري: في إسناده زياد بن ميمون كذاب.

(٢) رُوي نحوه عن أبي هريرة وابن عمر وعائشة وأنس رضي الله عنهم:
فرواه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٤٤١) من حديث أنس رضي الله عنه.
ورواه ابن عدي في «الكامل» (٨/ ٣١٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٧٩٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
=

وفي روايةٍ: «فإنَّ رمضانَ اسمٌ من أسماءِ الله الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ»[1].

ذكرَ هذا من فضيلةِ الشَّهرِ لتشتدَّ رغبةُ العبدِ في الصَّومِ.

ثمَّ قيلَ: كان ابتداءُ نزولِ القرآنِ في هذا الشَّهرِ؛ كما تقولُ: «أوحيَ إلى محمَّدٍ عليه السَّلامُ بحِراءَ»؛ أي: ابتداءُ الوحيِ كانَ ثَمَّ.

وقيل: أُنزِلَ جميعُ القرآنِ منَ اللَّوحِ ليلةَ القدرِ، فوُضِعَ في سماءِ الدُّنيا في بيتِ العِزَّةِ، ثمَّ نزلَ به جبريلُ نجمًا نجمًا عشرينَ سنةً[2].

وقيلَ: أي: أنزلَ في فضلِه القرآنُ، كقولِك: «أُنزِلَ في الصِّدِّيقِ كذا»؛ أي: في فضلِه.

وقيلَ: أُنزِلَ في إيجابِ صومِه القرآنُ، كما تقولُ: «أَنزلَ الله في الزَّكاةِ كذا»؛ أي: في فرضِ الزَّكاةِ.

= ورواه تمام في «فوائده» (٢٤١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه ابن النجار كما في «اللآلئ المصنوعة» للسيوطي (٢/ ٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لكن لا يُفرَح بهذه الروايات؛ فكلها ضعيفة، وقد قال الإمام النووي في «المجموع» (٦/ ٢٤٧): ويقال: «رمضان» و«شهر رمضان»، هذا هو الصحيح الذي ذهب إليه البخاري والمحققون... وقولهم: «إنه من أسماء الله تعالى» ليس بصحيح، ولم يصحَّ فيه شيء، وأسماء الله تعالى توقيفية لا تُطلق إلا بدليل صحيح، ولو ثبت أنه اسم لم يلزم منه كراهة، وقد ثبتَت أحاديث كثيرة في «الصحيحين» في تسميته «رمضان» من غير «شهر» في كلام رسول الله ﷺ.

(١) هو لفظ حديث أبي هريرة وعائشة. انظر التعليق السابق.

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٩٣٥)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢٨٧٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه سعيد بن منصور في «سننه» (٧٩ ـ التفسير)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٦٤٣) عن سعيد بن جبير.

وقيلَ: نزلَ في كلِّ ليلةِ قَدْرٍ ما عَلِمَ الله أنه يُنزِلُه[١] في طولِ السَّنةِ.

والقرآنُ: اسمٌ لكلامِ الله، وهو بمعنى المقروءِ، كالمشروبِ يُسمَّى شرابًا، والمكتوبِ يُسمَّى كتابًا، وعلى هذا هو مصدرُ قرأ يقرأ قراءةً وقُرآنًا بالهمزِ، ومثلُه من المصادرِ: الرُّجحانُ والنُّقصانُ والغُفرانُ.

وإذا قيلَ: «القرآنُ قديمٌ» عُنِيَ به المقروءُ الذي هو قائمٌ بذاتِ الله تعالى.

وقد يُذكَرُ القرآنُ بمعنى القراءةِ، والقراءةُ فعلٌ.

وإذا قيلَ: «القرآنُ مُعجزةٌ» عُنِيَ به القراءةُ، فإنَّ المُعجِزَ فعلٌ خارِقٌ للعادةِ.

وأصلُ الكلمةِ منَ الجمعِ، يُقالُ: ما قرأَتْ هذه النّاقةُ سلًا قطُّ؛ أي: ما اشتملَتْ رحمُها على ولدٍ.

وسُمِّيَ القرآنُ به لأنَّه يجمعُ السُّورَ والآياتِ، ومنه: أقراءُ المرأةِ.

وقيلَ: سُمِّي قرآنًا لأنَّ القارئَ يُلقيه من فيه، و«ما قرأَتْ سلًا قطُّ»؛ أي: ما رمَتْ به.

وقال قومٌ: هو قُرانٌ من غيرِ همزٍ، وعلى هذا يجوزُ أن يكونَ من «قرأ» بالهمزِ، فلُيِّنَت الهمزةُ، ونُقِلَ حركتُها إلى السّاكنِ قبلَها.

وقيلَ: هو اسمٌ لكتابِ الله مثلَ التَّوراةِ والإنجيلِ، وليس بمُشتقٍّ.

وقيلَ: اشتقاقُه من قرنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ، ومنه: «القِرانُ» للجمعِ بين الحجِّ والعمرةِ.

وقيلَ: هو منَ القرائنِ؛ لأنَّ الآياتِ يُصدِّقُ بعضُها بعضًا، فهي قرائنُ.

---

(١) في (أ): «أنه ثم ينزله»، وفي (ف): «أن ينزله».

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: بيانًا لهم وإرشادًا.

وقيلَ: هو في معنى الحالِ؛ أي: هاديًا للنّاسِ.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾: هي جمعُ بيِّنةٍ، من بانَ الشَّيءُ يَبِينُ؛ أي: وَضَحَ.

﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾؛ أي: مِنَ الحلالِ والحرامِ والأحكامِ، فقولُه: ﴿هُدًى﴾ يرجعُ إلى أصلِ الإيمانِ، وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يرجعُ إلى فروعِ الشَّرعِ.

وقيلَ: أي: وبيِّناتٍ وشواهدَ مِنَ الكتبِ المُتقدِّمةِ التي هي هُدًى وفرقانٌ بينَ الحقِّ والباطلِ والحلالِ والحرامِ، وقد سمَّى الله الكتبَ المُتقدِّمةَ التي هي التَّوراةُ والإنجيلُ هُدًى، فقالَ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: مِنَ الرَّشادِ إلى مرضاةِ الله ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾؛ أي: فرَّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ وبيَّن ما يحتاجُونَ إليه(١).

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾؛ أي: مَن حضرَ، وفيه إضمارٌ؛ أي: مَن شهدَ الشَّهرَ عاقلًا بالغًا مُقيمًا صحيحًا ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾.

أو يُقالُ: هو عامٌّ فتخصَّصَ بقولِه: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾؛ أي: فأفطرَ فعليه عدَّةٌ ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ثمَّ؛ قال الحسنُ: هو المرضُ الذي يجوزُ تركُ القيامِ في الصَّلاةِ لأجلِه(٢).

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٣/ ٥٨١) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٠٢).

وعند الشَّافعيِّ: هذا المريضُ هو الذي يلحقُه بالصَّومِ مشقَّةٌ غيرُ محتملةٍ[1]، مثلَ أن تشتدَّ حُمَّاه، أو يشتدَّ وجعُ عينِه، وعبَّرَ عنه بأنَّه المرضُ الذي لو صامَ معَه نالَه منَ المشقَّةِ ما ينالُ المُسافرَ بالصَّومِ؛ لأنَّ المرضَ قرينُ السَّفرِ.

وأمَّا السَّفرُ: فهو السَّفرُ الذي يجوزُ فيه القصرُ، وهو مرحلتانِ ستَّةَ عشرَ فرسخًا.

وعند أبي حنيفةَ: مسيرةُ ثلاثةِ أيَّامٍ ولياليها.

ومَن أجهدَه الصَّومُ في السَّفرِ كُرِهَ له الصَّومُ في السَّفرِ، فإن لـم يُجهِدْه فالأولى أن يصومَ، ومذهبُ داودَ أنَّ الفِطرَ عزيمةٌ في السَّفرِ.

وأعادَ قولَه: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ لأنَّ الأوَّلَ للتَّخييرِ بينَ الصَّومِ والفديةِ في حقِّ الكلِّ، ثمَّ نُسِخَ، وهذا تخييرُ المريضِ والمُسافرِ.

ثمَّ؛ إن أفطرَ فالواجبُ القضاءُ لا الفِديةُ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾؛ أي: في تجويزِ الإفطارِ بالمرضِ والسَّفرِ.

وقيلَ: يُريدُ بكم الخيرَ فيما يأمُركم به، وقد سمَّى الله أعمالَ الخيرِ: «اليُسرَى»، فقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، واليسرُ من السُّهولةِ، ومنه: «اليسارُ» للغِنى، وسُمِّيتِ اليدُ اليُسرى بها للتَّفاؤُلِ، أو لأنَّه يتسهَّلُ الأمورُ بمُعاونتِها لليُمنَى.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾؛ أي: يُريدُ خلافَ العُسرِ، فهو بمعنى قولِه: يُريدُ بكم اليُسرَ، فكرَّرَ تأكيدًا، وإذا كانت إرادتُه واحدةً فحقُّها الإثباتُ، ولا يجري فيها النَّفيُ إلا بالمعنى الذي ذكَرْنا.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ الواوُ للعطفِ على معنى الكلامِ؛ أي: فعليكُم قضاءُ ما

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٠٢) عن الربيع عن الشافعي.

أفطرتُم بالمرضِ والسَّفرِ، فإكمالُ العِدَّةِ يرجعُ إلى القضاءِ؛ أي: حكَمَ الله به ليُسهِّلَ عليكم، ولتُكمِلُوا العِدَّةَ إذا أقمتُم.

وقيلَ: أي: يُريدُ الله بكم اليُسرَ ليُسعِدَكم، ولتُكمِلُوا العِدَّةَ.

وقيلَ: أي: ولتكمِلوا العِدَّةَ شَرَعَ لكم الرُّخصةَ، ونظيرُه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]؛ أي: وليكونَ منَ المُوقنين أرَيناه ذلك.

وقيلَ: أرادَ بإكمالِ العِدَّةِ الأداءَ.

واللَّامُ في: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ مكسورةٌ؛ لأنَّها لامُ «كي» لا لامُ الأمرِ.

ثمَّ؛ قُرِئَ: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟﴾ بالتَّخفيفِ كقولِه: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقُرِئَ بالتَّشديدِ(١)، مثلَ: وَصَّى وأوصَى.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: لتُعظِّمُوه على ما أرشدَكُم إليه منَ الشَّرائعِ.

وقيلَ: أرادَ به التَّكبيرَ ليلةَ الفطرِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: حقٌّ على المسلمين إذا رُئِيَ هلالُ شوَّالٍ أن يُكبِّروا(٢).

* * *

(١٨٦) ـ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾؛ أي: إذا سألوك عن المعبودِ فأخبِرْهم أنَّه

---

(١) هي قراءة شعبة عن عاصم، والباقون بالتخفيف. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٦)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٢٢).

قريبٌ يُثيبُ على الطَّاعةِ ويُجيبُ الدَّاعي، ويَعلمُ ما يفعلُه العبدُ من صومٍ وصلاةٍ.

وقيلَ: وجبَ عليهم في الابتداءِ تركُ الأكلِ بعد النَّومِ، فأكلَ بعضُهم وندِمَ، فنزلت الآيةُ في قبولِ التَّوبةِ، ونَسْخِ ذلك الحُكمِ(١).

وقيلَ: قال بعضُهم: أقريبٌ ربُّنا فنُناجيَه أم بعيدٌ فنُناديَه؟ فنزلت الآيةُ(٢).

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ أي: فقُلْ لهم: إنِّي قريبٌ، ففيه إضمارٌ، والمُرادُ: قُربُ العلمِ.

وقيلَ: قريبٌ من أوليائي بالإفضالِ والنِّعمةِ.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾؛ أي: أقبلُ عبادةَ مَن عبَدني، فالدُّعاءُ بمعنى العبادةِ، والإجابةُ بمعنى القبولِ.

وقيلَ: ﴿أُجِيبُ﴾؛ أي: أُثيبُ الثَّوابَ لـمَن دَعاني إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرةِ.

وقيلَ: ﴿أُجِيبُ﴾ إمَّا بتحقيقِ مقصودِه وإمَّا بالرَّدِّ، ولا يَبعُدُ إضمارُ المُشبَّه فيه، كقولِه: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾؛ أي: وأنا أدعو العبدَ إلى العبادةِ فليستجِبْ لي، واستجابَ وأجابَ بمعنًى، وإجابةُ العبدِ لله: طاعتُه.

﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾: هذا تأكيدٌ لمعنى الاستجابةِ، والمُرادُ: المُداومةُ على الإيمانِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾؛ أي: يهتَدون، والرَّشيدُ: المُهتَدي لمصالحِ دينِه ودُنياه،

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٠)، والقرطبي في «تفسيره» (٣/ ١٧٧)، ولم أجده عند المتقدمين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٤)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٣٦)، من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه. وفي سنده ضعف كما قال الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٤٣٤)، وأخرج نحوه الطبري عقبه عن الحسن مرسلاً.

يُقالُ: رَشِدَ يَرْشَدُ، مثلُ: حَمِدَ يَحْمَدُ، ورَشَدَ يَرْشُدُ، مثلُ: نصَرَ ينصُرُ؛ أي: أصابَ الرُّشدَ، وهو نقيضُ الغَيِّ.

* * *

(١٨٧) ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

قولُه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان يَحْرُمُ على الصَّائمِ إذا صلَّى العشاءَ في ليلةِ الصِّيامِ النِّساءُ والطَّعامُ إلى مثلِها منَ القابلةِ، ثمَّ إنَّ ناسًا أصابوا منَ الطَّعامِ والنِّساءِ بعد العشاءِ، منهم عمرُ، فشكَوا إلى رسولِ الله ﷺ فنزلت الآيةُ(١).

وقيلَ: كان يحرمُ عليهم الطَّعامُ والنِّساءُ بعد أن يناموا، فأتى قيسُ بنُ صِرْمةَ الأنصاريُّ أهلَه وهو صائمٌ عندَ الإفطارِ، فانطلقَت امرأتُه تطلبُ طعامًا فغلبَته عينُه ونامَ، فلمّا انتصفَ النَّهارُ من غدٍ غُشِيَ عليه، وأتى عمرُ امرأتَه وقد نامَتْ فذكرَ ذلك للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، فنزلت هذه الآيةُ وفرحَ المسلمون بها(٢).

---

(١) رواه بنحوه أبو داود (٢٣١٣) دون ذكر عمر رضي الله عنه.

ورواه بنحوه أيضاً مع عمر رضي الله عنه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٧٩٥) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وله شواهد تنظر في حاشية «المسند»، وروي في معناه آثار تنظر في «تفسير الطبري» (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤١).

(٢) رواه البخاري (١٩١٥) دون ذكر عمر رضي الله عنه. وروى البخاري (٤٥٠٨) أيضاً عن البراء رضي الله عنه: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلَّه، وكان رجال يخونون =

﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾؛ أي: ليالي الصيامِ ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾: الرَّفَثُ: قولُ الفُحشِ، يُقالُ: رفَثَ وأرفَثَ؛ أي: تكلَّمَ بالقبيحِ، وكنَى به عن الجماعِ.

وقيلَ: أي: أُحِلَّ لكم الإفضاءُ إلى نسائِكم.

وقيلَ: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى «مع»؛ أي: مع نسائِكم.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾: سُمِّيَ كلُّ واحدٍ منَ الزَّوجَين لباسًا لصاحبِه لانضمامِ الجسدِ إلى الجسدِ.

وقال الرَّبيعُ: أي: هُنَّ فراشٌ لكم، وأنتم لحافٌ لهنَّ[1].

وقيلَ: يسترُ كلُّ واحدٍ منكما صاحبَه عند الوِقاعِ عن أبصارِ النّاسِ.

وقيلَ: أي: يُخالِطْنكم وتُخالطونَهنَّ.

وقيلَ: يسترُ كلُّ واحدٍ منكما صاحبَه عما لا يحلُّ، كما في الخبرِ: «مَن تزوَّجَ فقد أحرَزَ ثلُثَي دينِه»[2].

= أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٦٠٠)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٦)، بلفظ: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن.

(٢) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٣/ ٦٠١)، ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ١٧٤) من طريق خالد بن إسماعيل، عن عبيد الله بن عمر، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إذا تزوج أحدكم عج شيطانه: يا ويله عصم ابن آدم مني بثلثي دينه».

وهكذا رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٠٤١)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢٨٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٤٣)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٠٠٤)، جميعهم من طريق خالد بن إسماعيل، عن عبيد الله بن عمر، عن صالح مولى التوأمة، عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا، وفيه: «... عصم مني دينه». =

واللِّباسُ يجري مَجرى المصدرِ؛ أي: هُنَّ مُلابِساتٌ لكم، والفِعالُ من مصادرِ «فاعلَ».

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: يُقالُ: «خانَ واختانَ» بمعنًى؛ أي: تخونُونَ أنفسَكم بالمُباشرةِ في ليالي الصَّومِ، ومَن عصى الله فقد خانَ نفسَه إذ جلَبَ إليها العقابَ.

ثمَّ قيلَ: أي: علِمَ الله وقوعَ هذا منكم فتابَ عليكم بعد ما وقعَ.

وقيلَ: علمَ الله أنَّه سيقعُ هذا لو دامَ هذا الحكمُ فرفعَه عنكم، وسمَّاه توبةً وعفوًا كقولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: خفَّفَ عنكم.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾: هو أمرُ إباحةٍ، وسُمِّيَ الوِقاعُ مُباشرةً لتلاصُقِ البشرتَين فيه.

﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: قيل: أرادَ الولدَ، وفيه إشارةٌ إلى كراهةِ العزلِ وتحريمِ الإتيانِ في غيرِ المَأْتى.

وقيل: اطلُبوا الرُّخصةَ التي كُتبَتْ لكم.

وقيلَ: وابتَغُوا ليلةَ القدرِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: ما كتبَ الله لنا هو القرآنُ؛ أي: فابتَغُوا أمرَ القرآنِ[1].

= وعلى كل فإسناده ضعيف جدًّا، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١١٨): خالد بن إسماعيل المخزومي متروك.

وكذلك أعله ابن الجوزي بخالد بن إسماعيل ونقل عن ابن عدي أنه قال: يضع الحديث.

(١) كذا نسب المصنف هذا القول لابن عباس، والصواب أن المروي عن ابن عباس هو القول الذي تقدمه، فقد روى الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٧)، من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلةُ القدر. =

وقيلَ: أي: ابتَغُوا ما أحلَّ الله لكم منَ الإماءِ والزَّوجاتِ، و﴿كَتَبَ﴾؛ أي: حكَمَ وقضَى، وكتَبَ في اللَّوحِ المحفوظِ وألقاه إليكم الآنَ.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ أمرُ إباحةٍ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ قال سهلُ بنُ سعدٍ: لـمَّا نزلَ هذا كان الرَّجلُ يربطُ في رجلَيه خيطَين أسودَ وأبيضَ، ولا يزالُ يأكلُ ويشربُ حتَّى يتبيَّنَ لونَهما، فأنزلَ الله ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعُلِمَ أنَّه يعني اللَّيلَ والنَّهارَ[١].

وقال عليه السَّلامُ لعديِّ بنِ حاتمٍ: «إنَّما ذلك بياضُ النَّهارِ من سوادِ اللَّيلِ»[٢].

وإنَّما سُمِّيا خيطَين لالتفافِ الضَّوءِ بالظَّلامِ.

وقال الزَّجَّاجُ: الخيطُ الأسودُ: الفجرُ الكاذِبُ، والأبيضُ: الصّادقُ، سُمِّيا بذلك لامتدادِهما كالخيطَين[٣].

والفجرُ مصدرُ: فجَرْتُ الماءَ أفجُرُه فَجْرًا، وأصلُه: الشقُّ، ومنه: فَجْرُ السِّكْرِ.

= قلت: ولعل نسبته لابن عباس وهم من المصنف سببه سياق الواحدي في «البسيط» (٣/ ٦٠٤) حيث نقل عن ابن عباس رواية أبي الجوزاء: يعني: ليلةَ القدر، ثم أتبعه بقوله: وقال أبو إسحاق: الصحيح عندي أن ما كتب الله لنا هو القرآن، أي: اتبعوا القرآن فيما أبيح لكم فيه وأمرتم به.

وأبو إسحاق هو الزجاج، وكلامه في «معاني القرآن» (١/ ٢٥٦).

ثم؛ لعل الأنسب بهذا القول قراءة: (فاتبعوا)، وقد نسبت هذه القراءة للحسن ومعاوية بن قرة كما «المحرر الوجيز» (١/ ٢٥٨)، و«البحر» (٣/ ٣٨٤)، وجوزها ابن عباس لكنه رجح قراءة الجمهور، روى ذلك عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٠)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٤٧). ولعل في قول الزجاج: «.. أي: اتبعوا القرآن.. » إشارة لهذا.

(١) رواه البخاري (١٩١٧)، ومسلم (١٠٩١).

(٢) رواه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٥٧)، و«البسيط» (٣/ ٦٠٦).

﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: من جهةِ طُلوعِ الفجرِ.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾: واللَّيلُ لا يدخلُ في مدَّةِ الصَّومِ، وقولُه: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦] يدخلُ المِرفقُ فيه؛ لأنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى «مع»، و﴿إِلَى﴾ هاهُنا للتَّحديدِ.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾: بيَّنَ أنَّ الجماعَ يُفسِدُ الاعتكافَ، فأمَّا المُباشرةُ من غيرِ جماعٍ فإنْ قُصِدَ بها التَّلذُّذُ فهي مكروهةٌ، وإنْ لم يُقصَدْ لم تُكرَه.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه الأحكامُ حدودُ الله؛ أي: مَنَعَ من مُخالفتِها، والحدُّ: المنعُ، ومنه: الحِدادُ والحديدُ.

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾؛ أي: لا تُجاوِزُوها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: كما بيَّنَ هذه الحدودَ بيَّنَ جميعَ الأحكامِ لتتَّقوا مجاوزتَها.

***

(١٨٨) ـ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ثمَّ ذكرَ أمرًا شاعَ في اليهودِ، وهو أخذُ حُكَّامِهم الرِّشا ليُغيِّروا الأحكامَ.

وقيلَ: نزلت الآيةُ في عَبدانَ بنِ أَشْوَعَ الحضرَميِّ، ادَّعى مالًا على امرِئِ القيسِ الكنديِّ، واختَصما إلى النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فأنكرَ امرُؤُ القيسِ، فنزلت هذه الآيةُ، فحكَّمَ عبدانُ في أرضِه ولـم يُخاصِمْه[1].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ١٦٥)، و«تفسير أبي الليث» (١/ ١٢٦)، و«تفسير الثعلبي» =

فمَن أخذَ مالَ غيرِه لا على وجهِ إذنِ الشَّرعِ له فيه فهو أكلُ مالٍ بالباطلِ.

ومنَ الأكلِ بالباطلِ: أن يقضيَ لك القاضي بمالٍ وأنت تعلمُ أنَّك مُبطِلٌ، فالحرامُ لا يصيرُ حلالًا بقضاءِ القاضي؛ لأنَّه إنَّما يقضي بالظَّاهرِ، وهذا إجماعٌ في الأموالِ، وإنْ كانَ عند أبي حنيفةَ قضاؤُه ينفذُ باطنًا في الفروجِ، وإذا كان قضاءُ القاضي لا يُغيِّرُ حكمَ الباطنِ في الأموالِ فهو في الفروجِ والدِّماءِ **أولى**.

وقولُه: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟﴾؛ أي: لا يأكُلْ بعضُكم مالَ بعضٍ، ومثلُه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

والباطلُ: الذَّاهبُ المُزايِلُ، يقالُ: بطَلَ يبطُلُ بُطولًا وبُطلانًا، وجمعُ الباطلِ: بَواطِلُ، والأباطيلُ: جمعُ أُبطولةٍ، وتبطَّلَ؛ أي: تعطَّلَ واتَّبعَ اللَّهوَ.

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾؛ أي: لا تجمَعُوا بينَ أكلِ المالِ بالباطلِ وبين الإدلاءِ إلى الحكامِ، وهو كقولِه: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، وهو من قبيلِ قولِك: «لا تأكُلِ السَّمكَ وتشربَ اللَّبنَ»، والإدلاءُ: إرسالُ الدَّلوِ، وكلُّ ما يُتوصَّلُ به إلى الشَّيءِ إدلاءٌ، ويُقالُ: أدلى بحُجَّتِه؛ أي: توصَّلَ بها، والمُرادُ:

= (٢/ ٨٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٥٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢٣٣). ولم يذكر له أحد سنداً، لكن عزاه الثعلبي لابن حيان وابن السائب، وتابعه تلميذه الواحدي في عزوها لمقاتل بن حيان، فتعقبه الحافظ في «العجاب» بقوله: كذا رأيت فيه: (ابن حيان) وقد وجدته في «تفسير مقاتل بن سليمان».

وروى القصة دون ذكر سبب النزول الإمام أحمد في «المسند» (١٧٧١٦) بإسناد صحيح من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه. وأصلها في «صحيح مسلم» (١٣٩) من حديث وائل بن حجر رضي الله عنه.

وتُدلوا بالحجَّةِ واللَّجاجِ إلى الحكَّامِ لتتركوا[1] ما علِمْتمُوه في الباطنِ.

وقيلَ: أي: لا تُصانِعُوا بأموالِكم الحكَّامَ ليقضُوا لكم على ما تُريدون، والهاءُ في قولِه: ﴿بِهَآ﴾ ترجعُ إلى الأموالِ، وعلى الأوَّلِ إلى الحجَّةِ، ولـم يجرِ لها ذكرٌ.

﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا﴾؛ أي: طائفةً من أموالِ النّاسِ ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: باليمينِ الفاجرةِ، وقيلَ: بالباطلِ ورِشوةِ الحاكمِ ليقضيَ لكم.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمونَ أنَّكم مُبطِلونَ.

* * *

(١٨٩) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾: وهذا أيضًا ممَّا سألَ اليهودُ واعترَضُوا به على النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فقال معاذٌ: يا رسولَ الله، إنَّ اليهودَ تغشانا ويُكثِرونَ مسألتَنا عن الأهلّةِ، فما بالُ الهلالِ يبدو دقيقًا ثمَّ يزيدُ حتَّى يستويَ ويستديرَ، ثمَّ ينتقِصُ حتَّى يعودَ كما كان؟ فنزلَتْ هذه الآيةُ[2].

---

(١) في (أ): «لتأكلوا».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ١٦٥)، و«تفسير أبي الليث السمرقندي» (١/ ١٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٧)، و«النكت والعيون» (١/ ٢٤٩)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٥٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٢١١)، وعزاه السمرقندي والواحدي للكلبي، ورواه ابن عساكر في «تاريخه» (١/ ٢٥) من طريق محمَّد بن مروان السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس، وهذا السند قال عنه المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٢٣٢): واهٍ. وضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٩٠)، وقال الحافظ في «العجاب» (١/ ٤٥٥): قد توارد من لا يد لهم في صناعة الحديث على الجزم بأن هذا كان سبب =

والأهلَّـةُ: جمـعُ هلالٍ، وهـو غُرَّةُ القمـرِ حين يراه النَّـاسُ، ويُطلَقُ لفـظُ الهلالِ للَيلتَيـنِ، ثمَّ يكـونُ قمرًا.

وقيل: يُطلَقُ الهلالُ لليلتَينِ من آخرِ الشَّهرِ وليلتَينِ من أوَّلِه، وما بين ذلك قمرٌ.

ويُسمَّى هلالًا لأنَّه حين يبدو يَهِلُّ النَّاسُ بذكرِ الله، ويُقالُ: أُهِلَّ الهلالُ واستُهِلَّ، وأهلَلْنا الهلالَ واستَهْلَلْنا، واستَهَلَّ الهلالُ أيضًا بالرَّفعِ.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾: بيَّنَ وجهَ الحكمةِ في زيادةِ القمرِ ونُقصانِه، وهو زوالُ الإشكالِ في الآجالِ في المُعاملاتِ والحجِّ والعِدَدِ ووقتِ الصَّومِ والفطرِ ومدَّةِ الحملِ والإجاراتِ، ونظيرُه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ [يونس: ٥]، إلى قولِه تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وإحصاءُ الأهلَّةِ أيسرُ من إحصاءِ الأيَّامِ، وأفردَ الحجَّ بالذِّكرِ لأنَّه مـمَّا يُحتاجُ فيه إلى معرفةِ الوقتِ، والإحرامُ بالحجِّ يتقيَّدُ بوقتٍ معلومٍ في الشَّرعِ، ولا يجوزُ النَّسيءُ، بخلافِ ما رأتْه العربُ، وقد سبقَ ذكرُ الحجِّ، وانجرَّ الكلامُ إلى ذكرِ أحكامِ الحجِّ، ونَسْخِ ما كانوا يرَونَه من دخولِ البيوتِ حالةَ الإحرامِ من ظُهورِها.

والمواقيتُ: جمعُ الميقاتِ، وهو الوقتُ.

وقيل: الميقاتُ: مُنتَهى الوقتِ، ومواقيتُ الحجِّ: مقاديرُ ينتَهي إليها.

و﴿مَوَاقِيتُ﴾ لا تنصرفُ؛ لأنَّها غايةُ الجموعِ، فصارَ كأنَّ الجمعَ يُكرَّرُ فيها.

وصُرِفَتْ (قوارير) في قوله: ﴿قَوَارِيرَا﴾ لأنَّها وقعَتْ في رأسِ آيةٍ، فنُوِّنت كما تُنوَّنُ القوافي، فليس هو تنوينَ الصَّرفِ الذي يدلُّ على تمكُّنِ الاسمِ.

= النزول مع وهاء السند فيه، ولا شعور عندهم بذلك، بل كاد يكون مقطوعاً به لكثرة من ينقله من المفسرين وغيرهم.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾: اتَّصلَ هذا بذكرِ مواقيتِ الحجِّ لأنَّه من أحكامِ الحجِّ أيضًا.

وقيلَ: اتَّفَقَ وقوعُ القِصَّتَين في وقتٍ واحدٍ؛ السُّؤالُ عن الأهلَّةِ وعن دُخولِ البيوتِ من ظُهورِها، فنزلَتْ الآيةُ فيهما معًا.

وكانت الأنصارُ إذا حجُّوا وعادُوا لا يدخلونَ من أبوابِ بيوتِهم، بل يدخُلون من ظُهورِها، فدخلَ رجلٌ من قِبَلِ البابِ فعُيِّرَ بذلك، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

وقيلَ: كانت قُريشٌ تدخُلُ من الأبوابِ في الإحرامِ، وغيرُهم كانوا يدخُلون في الإحرامِ ويخرُجونَ من ظهرِ البيتِ حتَّى يتحلَّلوا منَ الإحرامِ، وكانوا يرَون ذلك برًّا، فبينا رسولُ الله ﷺ في بستانٍ إذ خرجَ من بابِه خرجَ معه قُطبةُ بنُ عامرٍ الأنصاريُّ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّ قُطبةَ رجلٌ فاجرٌ، وإنَّه خرجَ معك منَ البابِ، فقال عليه السَّلامُ: «ما حمَلَكَ على ما صنَعْتَ؟» قال: رأيتُكَ فعَلْتَه ففعَلْتُ كما فعَلْتَ، فقال: «إنِّي أَحْـمَسُ»، فقالَ: فديني دينُك، فأنزلَ الله هذه الآيةَ[2].

والحُمْسُ: قريشٌ وكِنانةُ وخُزاعةُ وثَقيفٌ وجُشَمُ وبنو عامرِ بنِ صَعْصَعةَ وبنو نصرِ بنِ معاويةَ؛ سُمُّوا حُمْسًا لتشدُّدِهم في دينِهم.

ثمَّ الغرضُ: أنَّهم اعتقَدوا شيئًا منَ النُّسكِ لـم يرِدْ بها شرعٌ، فرُدَّ عليهم فيها، وبيَّنَ الرَّبُّ أنَّ البرَّ في امتثالِ أمرِه.

---

(١) رواه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦) من حديث البراء رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٢٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٧٧٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٥٤)، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ٦٢١): «أخرجه ابن خزيمة والحاكم... وهذا الإسناد وإن كان على شرط مسلم لكن اختُلِفَ في وصله على الأعمش عن أبي سفيان؛ فرواه عبدُ بن حميد عنه، فلم يذكر جابرًا».

وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: كقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقد مضى التَّصرُّفُ فيه.

﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾: أمرَهم بتركِ سنَّةِ الجاهليَّةِ، وقال أبو عبيدةَ: أي: ليس البرُّ بأن تطلُبوا الخيرَ من غيرِ أهلِه، فاطلُبوا الخيرَ من وجهِه وأْتُوا الأمرَ من بابِه[١].

وفي الخبرِ: «ألا فأجمِلُوا في الطَّلبِ»[٢]، ووجهُ النَّظمِ: أنَّه دعاهُم إلى امتثالِ أمرِ الله.

وقيلَ: أراد: ليس البرُّ أن تأتيَ بالشَّيءِ لا على وجهٍ، بل البرُّ كلُّ البرِّ أن[٣] تأتيَ بالفعلِ على ما شُرِعَ، فالحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ، والنَّسيءُ باطلٌ، فمَن استعملَ النَّسيءَ كان كمَن أتى الشَّيءَ من غيرِ وجهِه.

وقال الحسَنُ: كانوا يتطيَّرون، فمَن سافرَ ولـم يُحصِّلْ حاجتَه كان يأتي بيتَه من وراءِ ظهرِه، فقيلَ لهم: ليس في التَّطيُّرِ برٌّ، بل البرُّ أن تتَّقيَ الله وتتوكَّلَ عليه.

وفي الخبرِ: «لا عَدْوَى ولا طِيَرةَ»[٤].

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٦٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٢١٤٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه بلفظ: «أَجْمِلُوا في طلب الدنيا، فإنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له».

وروى ابن ماجه أيضاً (٢١٤٤) من حديث جابر رضي الله عنهما مرفوعاً: «أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطَّلب، فإنَّ نفسًا لن تموتَ حتى تَستَوفيَ رزقَها وإنْ أَبطأَ عنها، فاتَّقوا اللهَ وأَجمِلوا في الطَّلب، خذوا ما حَلَّ ودَعُوا ما حَرُمَ».

(٣) في (أ): «لا على وجه البر بل البر أن».

(٤) قطعة من حديث رواه البخاري (٥٧٠٧)، ومسلم (٢٢٢٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال: «مَن ردَّه عن سفرٍ تطيُّرٌ فقد أشركَ»[1].

وكان عليه السَّلامُ يحبُّ الفألَ ويكرَهُ الطِّيرةَ[2]، وقد ذمَّ الله المتطيِّرين فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧].

وقيل: معنى الآيةِ: المنعُ من إتيانِ النِّساءِ في غيرِ المأتَى.

قُرِئَ ﴿الْبُيُوتَ﴾ بضمِّ الباءِ، وقُرِئَ بكسرِ الباءِ لقُربِها من الياءِ[3].

* * *

(١٩٠) ـ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: لـمَّا صُدَّ عليه السَّلامُ عن البيتِ عامَ الحديبيةِ وصالَحوه على أن يرجعَ من قابلٍ فيُحِلُّوا له مكّةَ ثلاثةَ أيامٍ تجهَّزَ لعُمرةِ القضاءِ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٠٤٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٢)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أرجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك» قالوا: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٥): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وله شاهد رواه ابن وهب في «جامعه» (٦٥٦) عن فضالة بن عبيد الأنصاري مرفوعاً: «من ردته الطيرة فقد قارف الشرك»، وإسناده حسن. وله شواهد أخرى لا يفرح بها تنظر في حواشي «المسند».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣٩٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٨٣٩٣)، وابن ماجه (٣٥٣٦)، من حديث أبي هريرة.

(٣) قرأ أبو عمرٍو ووَرْشٌ وحَفصٌ بضمِّ الباءِ والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ١٦٨)، و«التيسير» (ص: ٧٩).

وخافَ المسلمونَ غدرَ الكفّارِ، وكرهوا القتالَ في الحرمِ في الشَّهرِ الحرامِ، فنزلت هذه الآيةُ[1]؛ أي: يَحِلُّ لكم القتالُ إن قاتلَكُم الكفَّارُ، فالآيةُ متَّصلةٌ بما سبقَ من ذكرِ الحجِّ وإتيانِ البيوتِ من ظُهورِها.

وهذا أوَّلُ ما نزلَ في القتالِ، وكان عليه السَّلامُ يُقاتلُ مَن قاتلَه ويكُفُّ عمَّن كفَّ عنه حتَّى نزلَ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فنسخَتْ هذه الآيةَ.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا تبدَؤُوهُم بالقتالِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الآيةُ مُحكمةٌ لم تُنسَخْ، وقولُه: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا تقتُلوا النِّساءَ والصِّبيانَ، وقولُه: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في طاعتِه[2].

* * *

(١٩١) ـ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يُقالُ: ثقِفَ يثقَفُ ثَقَفًا؛ أي: حيثُ وجدتُموهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ أي: مكّةَ ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾؛ أي: شركُهم باللهِ أعظمُ من قتلِكُم إيَّاهُم في الحَرَمِ والأشهرِ الحُرُمِ والإحرامِ، وسُمِّيَ الكفرُ فتنةً لأنَّ الفتنةَ الاختبارُ، فالكفرُ يُؤدِّي إلى الفتنةِ والعرضِ على نارِ جهنَّمَ، والفتنةُ من قولك: فتنتُ الذَّهبَ على النّارِ.

وقيلَ: يعني: لا ترجِعُوا إلى الكفرِ؛ فإنَّه أشدُّ منَ القتلِ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٤)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ٦٢٣)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) روى معناه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٢٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٢٥).

وقيلَ: عذابُ الكفَّارِ لمَن ظفِرُوا به من المسلمين أشدُّ منَ القتالِ.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾: قال مُقاتلٌ: نسخَ هذا قولَه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١ والنساء: ٩١]، ثمَّ نسخَ هذا قولَه: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فيجوزُ الابتداءُ بالقتالِ في الحرمِ، **فالصَّحيحُ** أنَّ هذه الآيةَ محكمةٌ، ولا يجوزُ ابتداءُ القتلِ في الحرمِ.

وقُرِئَ: ﴿ولا تَقْتُلوهُمْ عندَ المَسْجِدِ الحَرامِ حتَّى يَقْتُلوكُم فيه فَإِنْ قَتَلُوكُم﴾ بغيرِ ألفٍ(١)، وهو كقولِك: «قتَلْنا بني فلانٍ»؛ أي: بعضَهم.

* * *

(١٩٢) ـ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾؛ أي: عن قتالِكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لرحمتِه وفضلِه انتَهوا عنكم.

* * *

(١٩٣) ـ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شِركٌ، فالوثَنيُّ المُشركُ لا تُقبَلُ منه الجزيةُ.

وقيلَ: كانت فتنتُهم ضربَهم المسلمين وتعذيبَهم لهم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الطّاعةُ، فلا يُعبَدُ دونَه شيءٌ.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾؛ أي: عنِ الكفرِ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الذين وضَعُوا

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٩)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

العبادةَ غيرَ موضعِها، وسُمِّيَ جزاءُ العدوانِ عُدوانًا كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [الشورى: ٤٠].

* * *

(١٩٤) - ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ أي: مَن قاتلَ في الشَّهرِ الحرامِ قُوتِلَ فيه.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ أي: لا تستسلِمُوا للعدوِّ بسببِ الشَّهرِ الحرامِ والحرمِ.

وقيلَ: صُدَّ النَّبيُّ عليه السَّلامُ عامَ الحديبيةِ في ذي القعدةِ ثمَّ دخلَها من قابلٍ في ذي القعدةِ[1]، فقالَ الله: هذا بذاك، فالشَّهرُ الحرامُ بالشَّهرِ الحرامِ.

والحرُماتُ: جمعُ حُرمةٍ، والحرمةُ: ما مُنِعْتَ من انتهاكِه، والقِصاصُ: المُساواةُ؛ أي: اقتصَصْتُ لكم منهم إذ صدُّوكم سنةَ ستٍّ فقضَيتُم العمرةَ على رَغمِهم سنةَ سبعٍ.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾: سُمِّيَ جزاءُ الظُّلمِ ظلمًا كما تقولُ: «ظلَمَني وظلَمتُه»، ومثلُه: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقيلَ: هو منَ العَدْوِ والشَّدِّ؛ أي: مَن شدَّ عليكم في الشَّهرِ الحرامِ فشُدُّوا عليه.

* * *

(١٩٥) - ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هذا أيضًا من قصَّةِ الحديبيةِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٠)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٠٦)، عن قتادة.

قال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا أرادَ رسولُ الله ﷺ عمرةَ القضاءِ قال قومٌ: نحنُ في شدّةٍ، فكيف نخرجُ؟ فأمرَ رسولُ الله ﷺ بالصَّدقةِ ولو بشقِّ تمرةٍ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

وقال أبو أيُّوبَ ـ وقد رأى رجلًا حملَ على صفِّ الكفّارِ، فقال المسلمون: ألقى بيدِه إلى التَّهلُكةِ ـ: إنَّكم تُؤَوِّلونَ هذه الآيةَ لا على وجهِها، وإنَّما نزلَتْ في الأنصارِ؛ فإنَّا لمَّا أعزَّ الله دينَه قال بعضُنا لبعضٍ: إنَّ أموالَنا ضاعَتْ، فلو أقَمْنا فيها وأصلَحْنا ما ضاعَ، فقالَ الله: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولا تُهلِكوا أنفُسَكم؛ أي: بالإقامةِ التي أرَدْنا فأُمِرْنا بالغزوِ(٢).

وقيلَ: بلغَ المسلمونَ في عمرةِ القضاءِ ألفَينِ، وحملَ رسولُ الله السِّلاحَ، وقادَ مئةَ فرسٍ عليها محمَّدُ بنُ مسلمةَ، وقدَّمَ السِّلاحَ واستعمَلَ عليه بشيرَ بنَ سعدٍ، فقيلَ: يا رسولَ الله، قد شرَطُوا علينا ألّا ندخلَ عليهم بسلاحٍ إلّا بسلاحِ المُسافرِ، السُّيوفُ في القربِ، فقال: إنّا لا ندخُلُها عليهم الحرمَ، ولكنْ تكونُ قريبًا منَّا إنْ كانَ هناك هيجٌ(٣).

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الجهادِ والطّاعةِ.

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ يُقالُ: هلَكَ يَهلِكُ ـ من بابِ ضرَبَ يضرِبُ ـ هلاكًا وهُلْكًا وهَلَكًا وتَهْلُكةً؛ أي: لا تأخُذوا فيما يُهلكُكُم.

وأرادَ بالأيدي: الأنفُسَ، فعبَّرَ عن الكلِّ بالبعضِ، كقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾

---

(١) رواه أبو إسحاق الفزاري في «السير» (٣١٩) عن الكلبي، ورواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٧٣١ ـ ٧٣٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٧٣٣) فقال: حدثني معاذُ بن محمد، عن عاصم بن عمرَ، قال: حَمَل رسولُ اللهِ ﷺ السلاح... فذكره.

[الحج: ١٠]، والباءُ زائدةٌ؛ أي: لا تُلقوا أيديَكم، ونظيرُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، فالباءُ زائدةٌ، ويُقالُ: ألقى بيدِه؛ أي: استسلَمَ.

وقيلَ: أرادَ: لا تُلقوا أنفُسَكم بأيديكم إلى التَّهلُكةِ.

ومعنى الآيةِ: لا تُمسِكوا عن الإنفاقِ وإعدادِ آلةِ الجهادِ فتهلِكُوا بعصيانِ الله، ويتقوَّى عدوُّكم عليكم.

وقيلَ للبراءِ بنِ عازبٍ في هذه الآية: أهو الرَّجلُ يحملُ على الكتيبةِ وهم ألفٌ بالسَّيفِ؟ فقالَ: لا، ولكنَّه الرَّجلُ الذي يُصيبُ الذَّنبَ فيُلقي بيدَيه ويقولُ: لا توبةَ لي، فييأَسُ منَ الله[1]. فالهلاكُ: اليأسُ منَ الله.

وقيلَ: هو أن يقتحمَ الحربَ في موضعٍ لا يرجو نكايةً في العدوِّ، والآثارُ تدلُّ على أنَّ هذا الاقتحامَ جائزٌ، وقد قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أرأيتَ إنْ قُتِلْتُ صابرًا مُحتَسبًا؟ قال: «فلَكَ الجنَّةُ»، فانغَمَسَ في العدوِّ حتَّى قُتِلَ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٠٨٩) وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٩٤) واللفظ له. وصحح إسناده الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٨٥).

(٢) ذكره الشافعي في «الأم» (٤/ ٢٥٦)، ولم أجده مسنداً بهذا اللفظ، لكن يشهد له حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ يومَ أُحُدٍ: أرأيتَ إن قُتلتُ فأين أنا؟ قال: «في الجنَّة» فألقَى تمَراتٍ في يده، ثمَّ قاتل حتى قُتل» رواه البخاري (٤٠٤٦)، ومسلم (١٨٩٩). وشاهد آخر من حديث أنس رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٤٦٣) وقال: صحيح على شرط مسلم.
وفي الباب عن جابر بن عبد الله: أنَّ رجلًا أتَى النَّبيَّ ﷺ فقال: أرأيتَ إنْ جاهدْتُ بنفسي ومالي، فقُتلتُ صابرًا مُحتسِبًا، مُقبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ، أأَدخلُ الجنة؟ قال: «نعم»، فأعاد ذلك مرَّتين أو ثلاثًا، قال: «نعم، إنْ لمْ تَمُت وعليك دَينٌ، ليس عندك وفاؤه». رواه أحمد في «المسند» (١٤٤٩٠)، ونحوه عن أبي قتادةَ عند مسلم (١٨٨٥).

والوجهُ أن يُقالَ: إنْ علِمَ أنَّ له نكايةً في العدوِّ فله التَّقحُّمُ، وإنْ علِمَ أنَّه لا يحصُلُ منه نكايةٌ في العدوِّ وأنَّه يُقتَلُ فليس له الاستقبالُ[1].

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾؛ أي: في الإنفاقِ في الطّاعةِ، وأحسِنُوا الظَّنَّ باللهِ في إخلافِه عليكم، وفي قبولِ توبتِكم.

***

(١٩٦) ـ ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾: ثمَّ اتَّصلَ ذكرُ الحجِّ بإتمامِهما وحُكمِ مَن صدَّه العدوُّ، وهو مُتَّصلٌ بما جرى على الحديبيةِ.

ثمَّ؛ مَن أوجبَ العمرةَ، قال: إتمامُهما: أداؤُهما، كقولِه: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ أي: أتى بهنَّ، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ أي: ائتُوا بالصّيامِ، ومَن لـم يُوجِب العمرةَ قالَ: أرادَ إتمامَهما بعد الشُّروعِ فيهما، فإنَّ مَن أحرمَ بنُسُكٍ وجبَ عليه المُضيُّ فيه.

وقيلَ: هو أمرٌ بهما، فيكونُ أمرًا بالحجِّ وجوبًا، وبالعمرةِ ندبًا، وفي الخبرِ: إتمامُهما أن تُحرِمَ بهما من دُوَيرةِ أهلِكَ[2].

---

(١) في (أ): «الاستقلال».

(٢) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٥١)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٣٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٣)، عن علي رضي الله عنه.

وقال عمرُ: إتمامُهما أن تُفرِدَ كلَّ واحدٍ منهما من غيرِ تمتُّعٍ وقِرانٍ[١].

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾: يعني بالعدوِّ يحولُ بين المُحرمِ وبين مكَّةَ، وعند الحنفيّةِ يدخلُ فيه كلُّ مانعٍ من عدوٍّ أو مرضٍ.

وادَّعتِ الشّافعيّةُ أنَّ الإحصارَ يُستعملُ في العدوِّ، فأمّا المرضُ فيُستعملُ فيه الحصرُ، **والصَّحيحُ** أنَّهما يُستعملانِ فيهما.

وأصلُ الكلمةِ منَ الحبسِ، ومنه: الحَصِرُ للَّذي يحبِسُ نَفْسَه من البَوحِ بسرِّه، والحصيرُ: الملِكُ؛ لأنَّه كالمحبوسِ وراءَ الحجابِ، والحصيرُ: الذي يُجلَسُ عليه لانضمامِ بعضِ طاقاتِ البَرْدِيِّ إلى بعضٍ، كحبسِ الشَّيءِ مع غيرِه.

ثمَّ؛ وإنْ صلَحَ لفظُ ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ للعدوِّ والمرضِ فالمقصودُ عندَنا العدوُّ؛ لقولِه: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، ولـم يقُلْ: «برِئتُم»، وقولِه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فذكرَ حكمَ المرضِ بعد هذا، ويدلُّ عليه أيضًا سببُ النُّزولِ، فإنَّ الآيةَ نزلَتْ في منعِ المُشركينَ رسولَ الله بالحديبيةِ[٢]، فالمُحصَرُ بالعدوِّ يتحلَّلُ، ثمَّ إن كانَ في فرضٍ فالفرضُ باقٍ في ذمَّتِه، وإنْ كان في نفلٍ فلا قضاءَ عليه، وإنَّما يتحلَّلُ إذا نحرَ هَدْيًا، فإنْ لـم يجدْ ففي قولٍ: لا يتحلَّلُ، وفي قولٍ: يتحلَّلُ للضَّرورةِ ثمَّ يأتي بالهدْيِ إذا وجدَه.

وأمَّـا المريـضُ فـلا يتحلَّـلُ، بـل يتَداوى بمـا لا بـدَّ منه، ثـمَّ يفتَدي إنْ مسَّـتِ الحاجـةُ إليه.

---

(١) رواه بألفاظ مقاربة أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٣٤٢) و(٣٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣٣٤).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ١٧١)، وفيه: اتفق علماء الإسلام على أن الآية نزلت سنة ست في عمرة الحديبية حين صد المشركون رسول الله ﷺ عن مكة.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: فإنْ أُحصِرْتُم دونَ تـمامِ الحجِّ والعمرةِ فما استيسرَ؛ أي: فيجبُ عليكم ما استيسرَ.

﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾؛ أي: تيسَّرَ، مثل: استَعْظَمَ؛ أي: تَعظَّمَ[1]، والهدْيُ: جمعُ هَدْيَةٍ، مثل الجدْيِ جمعُ جَدْيَةٍ، وبنو تميمٍ يقولون: (هَدِيٌّ) بالتَّشديدِ[2].

والهديُ: ما يُهدَى إلى بيتِ الله كالهديَّةِ تُهديها إلى غيرِك، والمقصودُ هاهنا: بدنةٌ أو بقرةٌ أو شاةٌ، وتتخيَّرُ فيها.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: لا تتحلَّلُوا مـنَ الإحرامِ حتَّى يُنحَرَ الهدْيُ، والمَحِلُّ: الموضعُ الذي يحِلُّ فيه ذبحُه، فالمَحِلُ في حصرِ العدوِّ: موضعُ الحصرِ، ولهذا نحرَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُه هديَهم بالحديبيةِ، وليسَتْ منَ الحرمِ، وعند أبي حنيفةَ محلُّ الهديِ في الإحصارِ الحرمُ.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: قال كعبُ بنُ عُجْرةَ: فِـيَّ نزلَتْ هذه الآيةُ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بي زمنَ الحديبيةِ ولي وفرةٌ من شعرٍ فيها الصِّيبانُ والقَمْلُ، وهي تتناثرُ على وجهي، وأنا أطبخُ قِدْرًا لي، فقال: «أيُؤذيكَ هوامُّ رأسِكَ؟» ـ وفي روايةٍ: «ما علمتُ أنَّ الجهدَ يبلغُ منك هذا» ـ ثمَّ قالَ: «احلِقْ رأسكَ، ثمَّ انسُكْ بدمٍ، أو صُمْ ثلاثةَ أيّامٍ وتصدَّقْ بفَرَقَين على ستّةِ مساكينَ»[3]، والفَرَقُ: ثلاثةُ آصُعٍ،

---

(١) في (ف): «استطعم أي تطعم». والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في «البسيط» (٤/ ١٥) وزاد: واستكبر بمعنى: تكبر.

(٢) وهي قراءة شاذة نسبت للأعرج وجماعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢).

(٣) رواه البخاري (١٨١٥) و(٥٧٠٣)، ومسلم (١٢٠١)، من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه. والرواية المعترضة رواها سعيد بن منصور في «سننه» (٢٨٩ ـ تفسير).

لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ، ونصفُ صاعِ مدَّانِ، وهذه الفِديةُ مخيَّرةٌ، والذَّبحُ يقعُ في الحرمِ وكذلك الإطعامُ.

وفي وجهٍ بعيدٍ يجوزُ أن يقعَ في محلِّ الحلقِ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ لـمَّا أمرَ كعبًا بالفديةِ ما كان في الحرمِ، وأمَّا الصِّيامُ فلْيقَعْ أين كان.

والنُّسُكُ: جمعُ نسيكةٍ، وهي الذَّبيحةُ ينسُكُها العبدُ لله تعالى، وتُجمَعُ أيضًا على نسائِكَ، فالنُّسُكُ: العبادةُ في الأصلِ.

وقيلَ: النُّسُكُ: سبائكُ الفضَّةِ، كلُّ سبيكةٍ منها نسيكةٌ، فكأنَّ العابدَ خلَّصَ نفسَه من دنسِ الآثامِ وسبكَها.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾؛ أي: منَ العدوِّ، أو كان حجٌّ ليس فيه عدوٌّ، فالتَّمتُّعُ جائزٌ.

والتَّمتُّعُ: التَّذلُّلُ، والمتاعُ: ما يُتَمتَّعُ ويُنتفَعُ به، وحبلٌ ماتعٌ؛ أي: طويلٌ، والتَّمتُّعُ في الحجِّ: أن يَقْدمَ مكَّةَ مُحرِمًا بعمرةٍ، فيأتي في أشهرِ الحجِّ بأعمالِ العمرةِ ويتحلَّلُ ويتمتَّعُ بالطِّيبِ واللِّباسِ والنِّساءِ، ثمَّ يُحرِمُ بالحجِّ في ذلك العامِ من مكَّةَ.

﴿بِٱلۡعُمۡرَةِ﴾ أي: بسببِ العمرةِ؛ لأنَّه إنَّما يَتمتَّعُ بمحظوراتِ الإحرامِ لا بنفسِ العمرةِ.

﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ﴾؛ أي: فعليه الهدْيُ.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ﴾؛ أي: قبلَ يومِ النَّحرِ، إنْ شاء مُتتابعةً، وإنْ شاء مُتفرِّقةً، وإنْ صامَ في أيَّامِ التَّشريقِ ففيه تفصيلٌ مذهبيٌّ للفقهاءِ.

﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾؛ أي: فرغتُم من الحجِّ، وقيلَ: إذا رجعتُم إلى الوطنِ.

وقيلَ: أرادَ ما وقعَ للصَّحابةِ في حجَّةِ الوداعِ؛ فإنَّ فيهم مَن كانَ أحرمَ بحجٍّ،

وفيهم مَن كان أحرمَ بعمرةٍ، وكان عليه السَّلامُ أبهمَ إحرامَه، فنزلَ جبريلُ بأنَّ مَن ساقَ هَدْيًا بقيَ على إحرامِه، ومَن لـم يسُقْ فإنْ أبهمَ أو أحرمَ بعمرةٍ يعتمرُ، وإن أحرَمَ بحجٍّ يعتمرُ أيضًا، فشقَّ ذلك عليهم؛ لأنَّهم كانوا يرَونَ العمرةَ في أشهرِ الحجِّ أمرًا مُنكرًا، فقال عليه السَّلامُ تطييبًا لقلوبِهم: «لو كنتُ أعلَمُ الغيبَ لَما سُقْتُ الهدْيَ ـ أي: لأُوافقَكم ـ فتمتَّعُوا»[(١)]، وكان لهم خاصَّةً، أعني: قلبَ الحجِّ إلى العمرةِ، ثمَّ ثبتَ التَّمتُّعُ بعد ذلك، وبقيَتْ خاصيَّةُ قلبِ الحجِّ إلى العمرةِ لأولئك القومِ، ولهذا قال عمرُ وأبو ذرٍّ: ما كان هذا التَّمتُّعُ إلا لنا خاصةً[(٢)].

---

(١) لم أجده هكذا، وانظر حديث جابر رضي الله عنهما عند البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦).

(٢) رواه مسلم (١٢٢٤) عن أبي ذر، وقد روي عن عمر رضي الله عنه معناه وهو النهي عن التمتع بالعمرة إلى الحج، رواه الترمذي (٨٢٣) و(٨٢٤) وصححه، وإليه يشير ما رواه مسلم (١٢٢٦) عن عمران بن حصين.

وقد روي فيه حديث مرفوع لكنه ضعيف، فقد روى أبو داود (١٨٠٨)، والنسائي (٢٨٠٨)، وابن ماجه (٢٩٨٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١١١)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ١٩٤) عن الحارث بن بلال بن الحارث عن أبيه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فسْخُ الحج لنا خاصَّة أو لِمَنْ بَعدَنا؟ قال: «بل لكم خاصة». وإسناده ضعيف لجهالة حال الحارث بن بلال، فقد انفرد ربيعة بن أبي عبد الرحمن ـ وهو المعروف بربيعة الرأي ـ في رواية هذا الحديث عنه فيما ذكر الذهبي في «الميزان»، وقال أحمد: ليس إسناده بالمعروف.

وكان الإمام أحمد يرى أن لِلمُهِلّ بالحج أن يفسخ حجه إن طاف بالبيت وبين الصفا والمروة، وقد سأله ابنه عبد الله عن حديث بلال بن الحارث هذا، فقال: لا أقول به، لا يعرف هذا الرجل. انظر: «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله» (٧٥٨).

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/ ١٩٢): ومما يدل على صحة قول الإمام أحمد، وأن هذا الحديث لا يصح: أن النبي ﷺ أخبر عن تلك المتعة التي أمرهم أن يفسخوا حجَّهم إليها أنها لِأَبَدِ الأبدِ. فكيف يثبت عنه بعد هذا أنها لهم خاصة؟ هذا من أمحل المحال، وكيف يأمرهم بالفسخ، ويقول: =

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يُقالُ: كمَل يكمُلُ، مثلُ: نصَرَ ينصُرُ، وكمُلَ يكمُلُ، مثلُ: عظُمَ يعظُمُ، وكمِلَ يكمَلُ، مثلُ: حمِدَ يحمَدُ، وقولُه: ﴿كَامِلَةٌ﴾ تأكيدٌ، كقولِه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، وقولِه: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: إنَّما يجبُ دمُ التَّمتُّعِ على الغريبِ الذي ليس من حاضري المسجدِ الحرامِ، والمُرادُ: حضورُ المُحرمِ لا الأهلِ، ولكنَّ الغالبَ أنْ يسكُنَ الرَّجلُ حيثُ أهلُه.

وقيلَ: اللَّامُ بمعنى «على»؛ أي: وجوبُ الدَّمِ على مَن لم يكُنْ من أهلِ مكّةَ، كقولِه: «اشتَرطي لهم الولاءَ»[1]؛ أي: عليهم، ثمَّ مَن كان دارُه على مسافةٍ لا تُقصَرُ إليها الصَّلاةُ فهم الحاضِرون.

﴿ٱلْحَرَامِ﴾؛ أي: المُحرَّمِ الممنوعِ.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: فيما فرضَه عليكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: لمَن تهاوَنَ بأمرِه.

= دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة، ثم يثبت أن ذلك مختص بالصحابة دون من بعدهم.
قلت: يشير ابن القيم لما رواه النسائي (٢٨٠٧) عن سراقة بن مالك قال: تمتع رسول الله ﷺ وتمتعنا معه، فقلنا: ألنا خاصة أو لأبد؟ قال: «بل لأبد».
وقد سلك القاضي عياض طريقاً آخر في هذه الأخبار غير ما سلكه ابن القيم موفقاً بينها بأنَّ فَسْخَ الحجِّ إلى العمرة كان مُختصًّا بتلك السَّنة، أما العمرةَ في أشهُر الحجِّ فهي جائزةٌ إلى يوم القيامة، فقال: فقد تبين بمجموع هذه الأحاديث، وتفسير ما فُسِّرَ منها في روايةٍ، وبيانِه لمَا أُجمل في غيرها: أن الخصوص لفسخ الحج في العمرة، وعموم الإباحة فعل العمرة في أشهر الحج. انظر: «إكمال المعلم» (٤/ ٢٦١)، وتابعه النووي في «شرح مسلم» (٨/ ١٦٧).

(١) رواه البخاري (٢١٦٨)، ومسلم (١٥٠٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٩٧) ـ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قولُه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾: لـمَّا ذكرَ الحجَّ والعُمرةَ بيَّنَ اختلافَهما في الوقتِ، فجميعُ السَّنةِ وقتُ الإحرامِ بالعمرةِ ووقتُ العمرةِ، وأمَّا الحجُّ فيقعُ في السَّنةِ مرَّةً، ووقتُ الإحرامِ بالحجِّ أشهرٌ معلوماتٌ، والحجُّ فِعْلٌ فلا يكونُ عينَ الأشهرِ، فالمعنى: أشهرُ الحجِّ أشهرٌ معلوماتٌ، أو: للحجِّ أشهرٌ معلوماتٌ.

وقيلَ: هو كقولِك: «ليلٌ نائمٌ»؛ أي: يقعُ فيه النَّومُ، فجعلَ الأشهرَ الحجَّ لـمَّا كانَ الحجُّ فيها، ونظيرُه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩]؛ لأنَّ الوعدَ في اليومِ.

والآيةُ تدلُّ على أنَّ مَن أحرمَ بالحجِّ قبلَ أشهرِ الحجِّ لـم ينعقِدِ الحجُّ، بلى في وجهٍ ينعقدُ عمرةً، وفي وجهٍ يتحلَّلُ بعملِ عمرةٍ، ولكنْ لا[1] يكونُ عمرةً.

وأشهرُ الحجِّ: شوّالٌ، وذو القَعْدةِ، وتسعٌ من ذي الحِجَّةِ إنْ قلنا: مَن وقفَ ليلةَ النَّحرِ لـم يُدركِ الحجَّ، والمذهبُ أنَّه يُدركُ، فعلى هذا يقولُ: وعشرٌ من ذي الحِجَّةِ؛ أي: عشرُ ليالٍ.

ولـم تُسَمَّ أشهرُ الحجِّ في الكتابِ لأنَّها كانت معلومةً عندَهم.

ولفظُ الأشهرِ قد يقعُ على شهرَين وبعضِ الثّالثِ؛ لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، كقولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يعني: داودَ وسُليمانَ، ومذهبُ البصريِّينَ: أنَّ أقلَّ الجمعِ اثنانِ، ومَن قال: ثلاثةٌ قال: هو كقولِك: «لـم أرَ فلانًا منذ ثلاثةِ أيّامٍ»، فقد يُطلَقُ هذا وإنْ كنتَ في الثّالثِ بعدُ.

---

(١) في (ف): «ولا»، بدل: «ولكن لا».

﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾؛ أي: معلوماتٌ عندَكم، فلا يجوزُ التَّقديمُ والتَّأخيرُ؛ فإنَّ النَّسيءَ زيادةٌ في الكفرِ.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾؛ أي: أوجَبَ، بأنْ أحرَمَ، والفرضُ في اللُّغةِ: الحزُّ والقطعُ، ومنه: فُرْضَةُ القوسِ، ففريضةُ الحجِّ والصَّومِ: لُزومُهما للعبدِ كلُزومِ الحزِّ للقَدَحِ.

وقيلَ: ﴿فَرَضَ﴾؛ أي: أبانَ، وهذا يرجعُ إلى القطعِ؛ لأنَّ مَن قطعَ شيئًا فقد أبانَه عن غيرِه، ففرضُ الإحرامِ بالشُّروعِ فيه، والشُّروعُ فيه بالنِّيَّةِ.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾: هو الجِماعُ.

وقيلَ: التَّعريضُ للنِّساءِ بالجماعِ.

وقيلَ: هو الفُحْشُ في المنطقِ.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: عُنِيَ به: جميعُ المعاصي، والرَّفَثُ والفُسوقُ يحرُمانِ في كلِّ وقتٍ، ولكنَّ تجنُّبَهما في الحجِّ أولى، وهو كقولِه: «إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكم فلا يرفُثْ ولا يفسُقْ»[1].

وقيلَ: الفُسوقُ هاهُنا: الذَّبحُ للأصنامِ، قالَ الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾: هو فِعالٌ[2] منَ الجَدْلِ، وهو الفَتْلُ، ومنه: زمامٌ مجدولٌ، فكلُّ واحدٍ منَ الخصمَينِ يُريدُ أن يَفتِلَ صاحبَه.

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) بعدها في (أ): «من المجادلة وهو».

وقيلَ: هو منَ الـجَدالةِ، وهي وجهُ الأرضِ، فكلُّ خصمٍ يُريدُ أن يُلقيَ صاحبَه بالجَدالةِ.

ثمَّ قيلَ: أي: لا ينبَغي أن يُماريَ صاحبَه فيُغضِبَه حتَّى ينتهيَ إلى السِّبابِ، فأمَّا مُذاكرةُ العلمِ فلا يُنهَى عنها.

وقيلَ: أي: لا مُماراةَ في أشهرِ الحجِّ فلا يجوزُ النَّسيءُ.

وقيلَ: أرادَ ما كان يجري بينَهم إذ يقولُ كلُّ واحدٍ: حَجِّي أتمُّ من حجِّ غيري.

وقيلَ: هو ما كان يقولُ بعضُهم: اليوم، والبعضُ يقولُ: الغد، وبعضُهم يقفُ في المُعَرَّفِ، وبعضُهم في موضعٍ آخرَ؛ أي: زالت أحكامُ الجاهليّةِ فاتَّبِعوا حكمَ الإسلامِ، ولهذا قال عليه السَّلامُ: «خُذُوا عنِّي مناسِكَكُم، لعلِّي لا ألقاكُم بعد عامي هذا»(١).

ثمَّ قُرِئَ: ﴿فلا رفَثٌ ولا فسوقٌ﴾ بالرَّفعِ والتَّنوينِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ، وأجمعوا على الفتحِ في: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾(٢)؛ لأنَّ معنى ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ النَّهيُ؛ أي: لا ترفُثوا ولا تفسُقوا، ومعنى ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ النَّفيُ؛ أي: الحجُّ في أشهرِ الحجِّ في ذي الحِجّةِ بلا مُماراةٍ وجدالٍ، فلمَّا اختلَفا في المعنى خُولِفَ بينهما في اللَّفظِ، **وفيه نظرٌ**؛ إذ قد قيلَ: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ نهيٌ أيضًا؛ أي: لا تُجادِلوا، فلِمَ فُرِّقَ بينهما؟

---

(١) رواه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر رضي الله عنهما بلفظ: «لتأخذو مناسككم، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أَحُجُّ بعدَ حَجَّتي هذه».

(٢) قرأ أبو عمرٍو وابن كثير الأوَّلَينِ بالرفع والآخِرَ بالفتح، وباقي السبعة الثلاثة بالفتح من غير تَنْوين. انظر: «التيسير» (ص: ٨٠). والإجماع الذي حكاه المصنف هو بين السبعة فقد قرأ أبو جعفر من العشرة الثلاثةَ بالرفع والتنوين كما في «النشر» (٢/ ٢١١).

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾؛ أي: يُجازيكم به؛ لأنَّ المُجازاةَ إنَّما تقعُ مِنَ العالمِ بالشَّيءِ الذي يُجازي عليه.

وقيلَ: هو تحريضٌ؛ فإنَّ مَن علِمَ أنَّ الله يعلمُ ما يعملُ كان ذلك أنشطَ له.

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾: قيل نزلَتْ في قومٍ منَ اليمنِ كانوا يحجُّونَ من غيرِ زادٍ ويقولون: نحنُ مُتوكِّلونَ، ثمَّ كانوا يسألونَ النّاسَ ويَغصِبون[1]؛ أي: تزوَّدُوا ما تتبلَّغونَ به فهو خيرٌ من السُّؤالِ ومنَ الظُّلمِ.

وقيلَ: أي: تزوَّدُوا لسفرِ الآخرةِ.

***

(١٩٨) - ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: لمَّا أمرَ بتنزيهِ الحجِّ عن الرَّفثِ والفسوقِ والجدالِ رخَّصَ في التِّجارةِ، نزلَتْ فيمَن سألَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ عن التِّجارةِ في حقِّ مَن يحجُّ[2].

وقيل: كانَ ذو المجازِ وعُكاظٌ متَّجرًا للنّاسِ في الجاهليّةِ، فكرِهَ المسلمون التِّجارةَ في أيّامِ الحجِّ فنزلَتِ الآيةُ[3].

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٥٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وليس فيه «ويغصبون»، وهذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٨)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٢) دون نسبة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٤٣٤)، وأبو داود (١٧٣٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٢٠٥٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وتقديرُها: لا جُناحَ عليكم في أن تبتَغوا فضلَ الله، وابتغاءُ الفضلِ وردَ في القرآنِ بمعنى التِّجارةِ، قال الله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقيلَ: أرادَ ابتغاءَ الثَّوابِ في الآخرةِ.

وقيلَ: كانوا يُسمُّونَ ليلةَ النَّفْرِ ليلةَ الصَّدَرِ، وكانوا لا يَرونَ التَّعريجَ على كسيرٍ ولا ضالَّةٍ، فأحلَّ الله التَّعريجَ(١).

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾: الإفاضةُ: الدَّفعُ؛ أي: تفرَّقتُم من عرفاتٍ، يُقالُ: أفاضَ البعيرُ بجِرَّتِه؛ أي: رمَى بها مُتفرِّقةً، وأفاضَ القومُ في الحديثِ؛ أي: اندَفعُوا فيه، فمعنى أفضْتُم؛ أي: دفعتُم بكثرةٍ، أو دفعَ بعضُكم بعضًا.

﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ بالتَّنوينِ؛ لأنَّها جمعُ «عرَفة»، مثلُ «مُسلماتٍ»، سُمِّيت بها بقعةٌ واحدةٌ كقولِك: ثوبٌ أخلاقٌ، وبرمةٌ أعشارٌ، وأرضٌ سَبَاسِبُ(٢)، فلمَّا سُمِّيت بها البقعةُ الواحدةُ صُرِفَتْ كما كانت مصروفةً قبل أن تُسمَّى بها البقعةُ تركًا منهم لها على أصلِها، فأمَّا ما كان في الأصلِ اسمًا لبقعةٍ ولم يكُنْ جمعًا لواحدٍ معروفٍ فلا ينصرفُ «عاناتُ» و«أذرِعاتُ» لأنَّها ليست بجمعِ «عانةٍ» ولا «أذرعةٍ».

وقرأ أشهبُ العقيليُّ: (من عرفاتَ) بفتحِ التّاءِ بلا تنوينٍ، مثلَ «عانات»(٣).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٠٦ و٥٠٨) عن قتادة والربيع بن أنس.

(٢) البرمة: القدر، و«برمة أعشار»: إذا انكسرت قطعًا، «وثوب أخلاق» يَصِفون به الواحدَ إذا كانت الخُلُوقة فيه كلِّه، وأخلق الثوبُ: إذا بلي. و«أرضٌ سَباسِب»؛ أي: جدبة، انظر: «الصحاح» و«اللسان» (مادة: عشر، خلق، سبب).

(٣) انظر: «البسيط» (٤/ ٤٦).

وسُمِّيت تلك البقعةُ عرفاتٍ لأنَّ آدمَ لـمَّا أُهبِطَ وقعَ بالهندِ، وحوَّاءَ بجُدَّةَ، فاجتَمعا بعد طولِ الطَّلبِ بعرفاتٍ يومَ عرفةَ(١).

وقيلَ: كان جبريلُ يُري إبراهيمَ المناسكَ فيقولُ: عرفتُ، فسُمِّيت البقعةُ عرفاتٍ(٢).

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بالدُّعاءِ والتَّلبيةِ ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: المُزدلفة، ويُسمَّى جمعًا؛ لأنَّه يُجمعُ ثَمَّ بين المغربِ إلى العشاءِ، وسُمِّي مشْعَرًا منَ الشِّعارِ، وهو العلامةُ؛ لأنَّه مَعْلَمُ الحجِّ والصَّلاةِ، والمبيتُ به والدُّعاءُ عندَه من شعائرِ الحجِّ.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: ذِكرًا مثلَ هدايتِه إيَّاكم بحيثُ يكونُ جزاءً لهدايتِه، يُقالُ: ذَكرَه ذِكرًا وذُكرًا، وكرَّرَ الأمرَ بالذِّكرِ تأكيدًا، كقولِك: «ارمِ ارمِ».

وقيلَ: الأوَّلُ أمرٌ بالذِّكرِ عند المشعرِ، والثّاني أمرٌ بالذِّكرِ على حكمِ الإخلاصِ؛ لأنَّه هداهُم.

وقيلَ: أرادَ بالثّاني: استدامةَ الذِّكرِ.

﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ أي: إلى معرفتِه ومعالِـمِ دينِه، أو إلـى مـا كانَ عليه ملّةُ إبراهيمَ منَ المناسكِ، وعرَّفكم ما غيَّرَ المُشركون منه.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبلِ أن هداكُم، أو مـن قبلِ القرآنِ وإنزالِه عليكم.

أي: ما كنتُم من قبلِه إلّا ضالِّين.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٨٣)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٨)، عن الضحاك.

(٢) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥١٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء.

وقيلَ: قد كنتُم من قبلِه منَ الضَّالِّين.

ويجري القولانِ في قولِه: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، وقولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطارق: ٤].

* * *

(١٩٩) - ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ﴾؛ أي: ادفَعُوا بكثرةٍ منَ المُعَرَّفِ مع النَّاسِ.

و﴿حَيۡثُ﴾ مبنيٌّ لأنَّه مُنِعَ من الإضافةِ مع لزومِ معنى الإضافةِ له، فلمَّا لزمَه معنى الإضافةِ إلى الجملةِ صار بمنزلةِ الاسمِ النَّاقصِ الذي يَحتاجُ إلى صلةٍ كـ«الذي» ونحوِه، والاسمُ النّاقصُ بمنزلةِ بعضِ الكلمةِ، وبعضُ الكلمةِ حرفٌ يستحقُّ البناءَ، ثمَّ بُنِيَ على الضَّمِّ لأنَّه بمنزلةِ الغايةِ، مثل «قبلُ وبعدُ» من جهةِ أنه مُنِعَ الإضافةَ مع لزومِ الإضافةِ له، ولو أُعرِبَ لاستحقَّ النَّصبَ والجرَّ قط؛ لأنَّه ظرفٌ، والظَّرفُ يُعرَبُ بالجرِّ والنَّصبِ، فإذا أُعرِبَ بالرَّفعِ لم يكُنْ ظرفًا، فجُعِلَ له حركةٌ لا تكونُ له في حالِ الإعرابِ.

ويجوزُ «حيثَ» لأجلِ الياءِ، مثل «أينَ»، و«حيثِ» بالكسرِ لالتقاءِ السَّاكنَين.

وعُنِيَ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾: العربُ كلُّها غيرَ الحُمْسِ، والخطابُ للحُمْسِ؛ فإنَّهم كانوا لا يقِفون مع النّاسِ بعرفاتٍ، بل كانوا يقِفون بالمُزدلفةِ وهي منَ الحرمِ، ويظنُّونَ ذلك اختصاصًا لأنفسِهم، ويعتقِدون أنَّ الفضلَ للحرمِ لا غيرُ، وهذا أمرٌ باتِّباعِ ما كان من بقايا ملّةِ إبراهيمَ.

وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: فمَن فرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحجِّ، ثمَّ أفيضوا من حيثُ أفاضَ النّاسُ، فإذا أفضْتُم من عرفاتٍ فاذكُروا الله؛ لأنَّه لا يُقالُ: فإذا أفضْتُم فاذكُروا الله ثمَّ أفيضُوا.

وقيلَ: أرادَ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾: إبراهيمَ وإسماعيلَ ومُؤمِني ذُرِّيتِهما.

وقال الضَّحّاكُ: أرادَ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ إبراهيمَ[١]، وهو كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] يعني: نُعَيمَ بنَ مسعودٍ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أبا سفيانَ، ويُطلَقُ هذا على المُقتَدَى به الذي يكونُ لسانَ قومِه، وقد يُقالُ: «خرجَ زيدٌ إلى البصرةِ في السُّفنِ، وإلى الكوفةِ على البِغالِ»، ويُرادُ الواحدُ.

وقيلَ: أرادَ بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في هذه الآيةِ آدمَ، وقرأ ابنُ جُبيرٍ: (من حيثُ أفاضَ النّاسي)؛ أي: آدمُ، وقيلَ: قرأ: (الناسِ) فاكتَفَى بالكسرةِ منَ الياءِ[٢].

وقيلَ: أي: أفيضُوا كما أفاضَ النَّاسُ قبلُ، وما فعلَه الحُمْسُ أمرٌ مُبتَدَعٌ.

وقيلَ: ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواوِ؛ أي: إذا أفضتُم من عرفاتٍ فاذكروا الله وأفيضُوا من عرفاتٍ أبدًا، ولا تعتقِدُوا جوازَ الإفاضةِ من غيرِها، وهذا كقولِه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٦ - ١٧]؛ أي: وكانَ مع هذا منَ الذين آمنُوا، وتقولُ: «قد أعطَيتُك اليومَ كذا، ثمَّ قد أعطَيتُك أمسِ كذا»؛ أي: وأعطَيتُكَ أمسِ[٣].

وقيلَ: الإفاضةُ هاهنا هي الدَّفعُ من مُزدلفةَ إلى مِنًى، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ هم الحُمْسُ؛

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٣٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢)، و«المحتسب» (١/ ١١٩)، و«البسيط» (٤/ ٥٦)، والكلام منه، ورسمها بالياء في «المحتسب»، وبلا ياء في «المختصر».

(٣) بعدها في (أ): «كذا».

فإنَّهم كانوا يُفيضونَ من مُزدلفةَ، فالإفاضةُ الأولى من عرفاتٍ إلى المُزدلفةِ، وهذه من المُزدلفةِ إلى مِنًى، فالحاجُّ يقفُ بعرفاتٍ، ووقتُ الوقوفِ من زوالِ الشَّمسِ يومَ عرفةَ إلى طلوعِ الفجرِ الصّادقِ يومَ النَّحرِ، ولا يُشترَطُ فيه المُكثُ حتَّى لو كان نائمًا أو جاهلًا بأنَّه المُعرَّفُ كفى، ثمَّ يخرجُ الحاجُّ منَ المُعرَّفِ بعد غُروبِ الشَّمسِ، وفي وجوبِ الجمعِ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ في المُعرَّفِ وجهانِ، ثمَّ يخرجونَ إلى المُزدلفةِ، فيجمَعُون المغربَ والعشاءَ ويبيتُونَ هناك.

وفي وجوبِ المبيتِ خلافٌ للأصحابِ، فإنْ قُلنا: يجبُ، فمَن تركَه فعليه دمٌ.

ثمَّ يُغَلِّسُ الحجيجُ بالصُّبحِ، ويقِفُونَ عندَ المشعرِ الحرامِ، وهو آخرُ حدِّ المُزدلفةِ، ويذكُرونَ الله ويدعون إلى قُربِ طُلوعِ الشَّمسِ، ثمَّ يدفَعون قبلَ الطُّلوعِ على مُخالفةِ العربِ؛ فإنَّهم كانوا يدفَعُونَ بعد الطُّلوعِ ويقولونَ: «أشرِقْ ثَبيرُ كيما نُغيرُ»[1]؛ أي: كيما ندفعُ من مُزدلفةَ فندخلُ في غورِ الأرضِ؛ لأنَّهم إذا خرَجُوا منَ المُزدلفةِ صاروا إلى هبوطٍ.

وقيلَ: «كيما نُغير»؛ أي: كيما نقرُبُ منَ التَّحلُّلِ فنتوصَّلُ إلى الإغارةِ.

ثمَّ ينتهونَ إلى وادي مُحسِّرٍ، وهو فاصلٌ بين حدِّ مُزدلفةَ وحدِّ مِنًى.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ممَّا سلَفَ في الجاهليَّةِ من خلافِكم إبراهيمَ في المناسكِ.

وقيلَ: هذا تشريفٌ لذلك الوقتِ الذي هو وقتُ الإفاضةِ، إمَّا منَ عرفاتٍ، أو منَ جمعٍ وهو المُزدلفةُ، فكأنَّه أقربُ إلى إجابةِ الدَّعواتِ.

---

(١) انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣٥٥)، و«الغريبين» (مادة: شرق). وهذه قطعة من خبر رواه البخاري (١٦٨٤)، وابن ماجه (٣٠٢٢)، من حديث عمر رضي الله عنه، وليس عند البخاري: (كيما نغير).

وفي الخبرِ: أنَّه قال عليه السَّلامُ عند الدَّفعِ منَ المشعرِ الحرامِ: «يا أيُّها النّاسُ، إنَّ الله تطوَّلَ عليكم في مقامي هذا فقبِلَ من مُحسِنِكم، ووهَبَ مُسيئَكم لمُحسِنِكم، والتَّبِعاتُ عِوَضُها من عندِه، أفيضُوا على اسمِ الله»، فقالوا: يا رسولَ الله، أفضْتَ بنا أمسِ كئيبًا حزينًا، وأفضْتَ بنا اليومَ فرِحًا مسرورًا، فقال: «إنِّي سألتُ ربِّي بالأمسِ شيئًا لـم يـجُدْ لي به، سألتُه التَّبِعاتِ فأبى عليَّ، فلما كان اليومُ أتاني جبريلُ فقال: إنَّ ربَّك يُقرِئُك السَّلامَ ويقولُ: التَّبِعاتُ ضمنتُ عِوَضَها من عندي»[1].

***

(٢٠٠) - ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

قولُه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾: كانوا إذا اجتمَعُوا بالموسمِ ذكروا أيّامَ آبائِهم في الجاهليّةِ وتفاخَرُوا، فأُمِرُوا بذكرِ الله بدلَ ذكرِهم آباءَهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٣٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٩)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٢٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال ابن الجوزي: تفرد به عبد العزيز بن أبي رواد ولم يتابع عليه، قال ابن حبان: كان يحدث على التوهم والحسبان فبطل الاحتجاج به. وقد رواه عنه اثنان: عبد الرحيم بن هارون قال الدارقطني: متروك الحديث يكذب، والثاني بشار بن بكير وهو مجهول.

قلت: وللحديث شواهد لكن لا يخلو كل منها مقال، وقد بين عللها ابن عِرَاق في «تنزيه الشريعة» (٢/ ١٦٩)، لكن تعقب الحافظ ابن حجر من قال بوضعه في «القول المسدد» (ص: ٣٧) وفي تأليفه المفرد في ذلك سماه «قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج»، ولخص كلامه في الكتابين ابن عِرَاق في «تنزيه الشريعة» (٢/ ١٦٩) فانظره ثمة.

وقيلَ: كانوا يحلفون بآبائِهم، فقيلَ: اذكُروا الله بدلَ ذلك.

﴿قَضَيْتُم﴾؛ أي: أدَّيتُم، قالَ الله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]؛ أي: أُدِّيت الجمعةُ، والمناسكُ: جمعُ «مَنْسَكٍ» بفتحِ السِّينِ، وهو مصدرٌ بمنزلةِ النُّسكِ.

وقيلَ: جمعُ «مَنْسِكٍ» بالكسرِ، وهو موضعُ العبادةِ؛ أي: إذا قضيتُم أعمالَ مناسِكِكم، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا تذكُروا مفاخرَهم، بل اذكروني فأنا المُنعِمُ عليهم وعليكم(١).

وقيل: أرادَ: كذكرِكم آباءَكم وأُمَّهاتِكم، فاكتفَى بذكرِ الآباءِ، كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾؛ أي: وأشدَّ، كما تقولُ: افعَلْ كذا إلى شهرٍ أو أسرعَ؛ أي: وأسرَعَ، وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: ليكُنْ تعظيمُكم لله وذَبُّكم عن دينِه أشدَّ من ذَبِّكم عن آبائِكم إن ذُكِروا بسوءٍ(٢).

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: يعني: المُشركين؛ فإنَّهم كانوا يسألون المالَ والإبلَ والغنمَ والظَّفرَ بالعدوِّ، ولا يطلُبونَ الآخرةَ لأنَّهم لـم يكونُوا مُؤمنينَ بها.

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾؛ أي: من نصيبٍ.

ويجوزُ أن يتناوَلَ هذا الوعيدُ المؤمنَ أيضًا إذا قصَرَ دعواتِه على الدُّنيا، وعلى هذا فـ﴿ما له في الآخرةِ من خلاقٍ﴾؛ أي: كخلاقِ الذي يسألُ اللهَ لآخرتِه.

* * *

---

(١) في (ف): «المنعم عليكم».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٥٥).

(٢٠١) - ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

قولُه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا ﴾: هم المسلمون، يطلُبون خيرَ الدُّنيا والآخرةِ.

وقولُه: ﴿حَسَنَةً﴾: نكرةٌ، فهو محتمِلٌ لكلِّ حسنةٍ منَ الحسناتِ على البدلِ، فحسنةُ الدُّنيا المعرفةُ، وحسنةُ الآخرةِ المغفرةُ.

وقيلَ: حسنةُ الدُّنيا: التَّوفيقُ للطّاعةِ، وحسنةُ الآخرةِ: الجنّةُ.

وقيلَ: حسنةُ الدُّنيا: الزَّوجةُ الصّالحةُ، وحسنةُ الآخرةِ: الحورُ العينُ.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: قيلَ: المرأةُ السُّوءُ.

وقيلَ: لم يُرِدْ حسنةً واحدةً، بل أرادَ آتِنا في الدُّنيا عطيةً حسنةً، فحُذِفَ الاسمُ.

وقيلَ لأنسٍ: ادعُ الله لنا، فقال: اللَّهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النّارِ، قالوا: زِدْنا فأعادَها، قالوا: زِدْنا، قال: ما تُريدونَ؟ قد سألتُ لكم خيرَ الدُّنيا والآخرةِ[١].

والإيتاءُ منَ الأَتْيِ وهو المجيءُ، يُقالُ: أتى؛ أي: جاءَ، وآتى؛ أي: حمَلَ غيرَه على المجيءِ، فالإيتاءُ يُفسَّرُ بالإعطاءِ لهذا.

***

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٣٣٩٧)، وعنه ابن حبان في «صحيحه» (٩٣٨). وزادا: قال أنس: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

(٢٠٢) - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ يرجعُ هذا إلى الفريقِ الثّاني؛ أي: لهم ثوابُ الحجِّ، أو ثوابُ الدُّعاءِ؛ فإنَّ دُعاءَ المُؤمنِ عبادةٌ.

وقيلَ: يرجعُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الفريقَين، فللمُؤمنِ ثوابُ عملِه ودُعائِه، وللكافرِ عقابُ شِرْكِه وقِصَرِ نظرِه على الدُّنيا، وهو كقولِه: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: هذا جامعٌ للخيرِ والشَّرِّ للفريقَين.

وقيلَ: للكافرِ أيضًا نصيبُه مـمَّا يطلُبُ منَ الدُّنيا، قالَ الله: ﴿من كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠].

والسَّريعُ: من سَرُعَ يسرُعُ، مثل: عظُمَ يعظُمُ، سِرَعًا وسُرْعةً فهو سريعٌ.

والحسابُ: مصدرٌ كالمُحاسبةِ، وقد يُسمَّى المحسوبُ حسابًا، والحسابُ: العدُّ، يُقالُ: حسَبَ يحسُبُ حِسابًا وحِسابةً وحِسْبةً وحَسْبًا؛ أي: عدًّا، والحسَبُ: ما عُدَّ من مفاخرِ المرءِ.

وقيلَ: الحسابُ من قولِك: حَسْبُكَ كذا؛ أي: كفاكَ، فيُسمَّى الحسابُ حِسابًا لأنَّه يُعلَمُ به ما فيه كفايةُ المرءِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: هؤلاءِ يُعطَونَ كتبُهم بأيمانِهم، ويقولُ الله: هذه سيِّئاتُكم قد غفرتُها، وهذه حسناتُكم قد أضعفتُها[1].

وقيلَ: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ أي: سريعُ المُجازاةِ للعبادِ على أعمالِـهم.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٦٥).

وقيلَ: أرادَ أنَّه عالـمٌ بما لهم وعليهم، فلا يحتاجُ إلى تذكُّرٍ وتأمُّلٍ.

وقيلَ: أي: لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، فيُحاسبُهم في حالةٍ واحدةٍ، وفي الخبرِ: «إنَّ الله يُحاسبُ في قَدْرِ حلبِ شاةٍ»(١).

وقيل: لا جُحودَ لأحدٍ في الآخرةِ، ولا تطولُ مدَّةُ الحسابِ.

وقيلَ: أي: المُحاسبةُ كائنةٌ، وما هو آتٍ فقريبٌ، فهذا معنى سرعةِ الحسابِ.

* * *

(٢٠٣) ـ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾: ثمَّ بيَّنَ ما يصنعونَ في أيامِ التَّشريقِ بعد الذِّكرِ عندَ المشعرِ الحرامِ، وسمَّى أيامَ التَّشريقِ معدوداتٍ لقلَّتِها، وجمعُ السَّلامةِ للقلَّةِ.

وقـال الزَّجَّاجُ: قد تردُ الألفُ والتّاءُ للكثرةِ كقولِه: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقولِـه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، بلى استعمالُه فـي جمعِ القلَّةِ أكثرُ(٢).

يعني بالذِّكرِ: التَّكبيرَ في أدبارِ الصَّلواتِ، وعند الجمَراتِ؛ فإنَّه يُكبِّرُ مع كلِّ حصاةٍ.

ويومُ النَّحرِ: يومُ التَّكبيرِ أيضًا في أدبارِ الصَّلواتِ، وفي وجهِ يومِ عرفةَ أيضًا يومُ

---

(١) لم أجده.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٧٦).

التَّكبيرِ، والوجهُ الأظهرُ: أنَّه يُبتدَأُ التَّكبيرُ مع الصُّبحِ يومَ عرفةَ ويُختَمُ مع العصرِ يومَ الثالثَ عشرَ، وهو مذهبُ عليٍّ رضي الله عنه[1].

ولـم يذكـرِ الرَّمـيَ هـذه الأيـامَ إذ كان الرَّمـيُ مُعتـادًا لهم، فأمَّـا الذِّكـرُ فكانوا لا يذكـرون الله، بـل كانـوا يذكـرون مفاخـرَ آبائِهـم، وإن ذكـروا الله لـم يذكـروه مُخلِصيـن.

وقيلَ: لمَّا تعرَّضَ للذِّكرِ فكأنَّه ذكرَ الرَّميَ؛ لأنَّه يُستحَبُّ الذِّكرُ مع كلِّ حصاةٍ يرميها، وهذا الذِّكرُ أن يقولَ: «الله أكبرُ» ثلاثَ مرّاتٍ، «لا إلهَ إلا الله والله أكبرُ، الله أكبرُ ولله الحمدُ»، وفي الخبرِ: أنَّه عليه السَّلامُ كان يُكبِّرُ مع كلِّ حصاةٍ[2].

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ أي: من أيَّامِ التَّشريقِ، بأن ينفرَ في اليومِ الثَّاني وهو النَّفرُ الأوَّلُ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تعجيلِه.

﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ عن النَّفرِ الأوَّلِ وبقيَ إلى اليومِ الثّالثِ الذي هو النَّفرُ الثّاني ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، والمعنى: فهو مأجورٌ مبرورٌ، وإنَّما قال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾؛ ليُوافقَ اللَّفظةَ الأولى، كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، والمأجورُ المبرورُ ينتَفي عنه الإثمُ أيضًا، وهذ كقولِكَ: «إنْ تصدَّقتَ جهرًا فحَسَنٌ، وإن تصدَّقتَ سرًّا فحسَنٌ»؛ أي: ليس واحدٌ منهما قبيحًا، وإن كانَ أحدُهما أحسنَ.

وقيلَ: مَن تعجَّلَ فلا إثمَ عليه في استعمالِ الرُّخصةِ، ومَن تأخَّرَ فلا إثمَ عليه في تركِ استعمالِ الرُّخصةِ.

---

(١) رواه البخاري (١٧٥٠)، ومسلم (١٢٩٦)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنهما، وهو حديث الحج الطويل.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٦٣١)، وابن المنذر في «الأوسط» (٤/ ٣٠٠) (٢٢٠١).

وقيلَ: أي: تنتفي الآثامُ السَّابقةُ عمَّن حجَّ، كما قال عليه السَّلامُ: «مَن حجَّ هذا البيتَ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ خرجَ من ذنوبِه كيومِ ولدَته أمُّه»[1].

وقيلَ: عنى نفيَ الإثمِ عن المُتعجِّلِ، فذكرَ المُتعجِّلَ والمُتأخِّرَ كما قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والجُناحُ على الزَّوجِ لأنَّه أخذَ ما أعطى بعدَما قال الله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومثلُه: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] والنَّاسي أحدُهما.

ثمَّ قيلَ: الأمرُ بالذِّكرِ للحجيجِ؛ لأنَّ المُتعجِّلَ والمُتأخِّرَ يصِحَّانِ في حقِّهم.

وقيلَ: الأمرُ بالذِّكرِ عامٌّ في هذه الأيَّامِ لجميعِ المسلمين، وهذا كما أنَّ قولَه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ فهذا عامٌّ، ثمَّ قال: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ﴾ [العنكبوت: ٨]، فكانَ هذا خاصًّا في الأبوَينِ المُشركَين.

وإنَّما يجوزُ النَّفرُ الأوَّلُ قبلَ غُروبِ الشَّمسِ، فلو غربَتْ فقد تعبَّدَ هناك.

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: مغفرةُ الذُّنوبِ لمَن اتَّقى تضييعَ ما حدَّه الله.

وقيلَ: لمَن اتَّقى الله.

***

(٢٠٤) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: لمَّا ذكرَ الكفَّارَ الذين قُصِرَتْ همَّتُهم على الدُّنيا وقالوا: آتِنا في الدُّنيا حسنةً، والمُؤمنين الذين سألوا

---

(١) رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خيـرَ الدّارَيـن، ذكـرَ المُنافقين؛ لأنَّهم أظهَـرُوا الإيمانَ وأسـرُّوا الكفرَ.

نزلَتْ في الأخنَسِ بنِ شَرِيقٍ، واسمُه أُبَـيٌّ، وسُمِّي الأخنسَ لأنَّه خنسَ يومَ بدرٍ بثلاثِ مئة رجلٍ من بني زُهرةَ عن قتالِ رسولِ الله ﷺ، وكان رجلًا حُلوَ القولِ والمنظرِ، وكان يُعجَبُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بكلامِه، ويُظهِرُ الإسلامَ ويُخبِرُ أنَّه يُحبُّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ، ويحلفُ على ذلك، ثمَّ خرجَ مرّةً من عندِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، فمرَّ بزرعٍ لقومٍ وبحُمُرٍ، فأحرَقَ الزَّرعَ وعقَرَ الحُمُرَ(١).

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك أنَّه كان يُعجَبُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ بكلامِه وهو كاذبٌ، فما كان له ثوابٌ في الآخرةِ على ذلك.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾؛ أي: شديدُ الخصومة(٢)؛ أي: كان يصرفُ الكلامَ كما يُريدُ على طريقِ التَّغييرِ، وهو كقولِه: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وقيل: قال يومَ بدرٍ لبني زُهرةَ: ارجِعوا عن قتالِ محمَّدٍ؛ فإنَّه ابنُ أُختِكم، فإنْ يكُ كاذبًا كفاكُموه ذُؤْبانُ العربِ، وإنْ يكُ صادقًا كنتُم أسعدَ النّاسِ به، قالوا: نِعْمَ الرَّأيُ رأيتَ(٣).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٧٢) عن السدي. وذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٧٤) عن ابن عباس من رواية عطاء. وذكره أيضاً عن الكلبي ومقاتل.

(٢) «أي شديد الخصومة» من (أ).

(٣) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٤٤) قال: حدَّثني عبد الملك بنُ جعفرٍ، عن أُم بكر بنت المِسْور، عن أبيها..، فذكره. ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٢٢) عن السدي. وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٠)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ٧٤).

أي: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ويستشهِدُ الله.

وقيلَ: أي: يَحلِفُ باللهِ أنَّه صادقٌ في الإيمانِ بك، وهو كاذبٌ فيما يُظهِرُ.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ الأَلَدُّ: الشَّديدُ الخصومةِ، وهو من لَدِيدَي العُنُقِ، وهما صَفْحَتاه؛ أي: من أيِّ وجهٍ أخذَ في الخصومةِ غلَبَ، يُقالُ: لَدِدْتَ يا رجلُ فأنتَ تلَدُّ لَدَدًا ولَدادةً بفتحِ اللّامِ في المُستقبلِ، ويُقالُ أيضًا: لَدَدْتُه أَلُدُّه من بابِ نصَرَ ينصُرُ؛ أي: غلَبتُه.

والخِصامُ مصدرٌ كالمُخاصمةِ، والخصومةُ: التَّعمُّقُ في البحثِ عن الشَّيءِ، ويُقالُ لزوايا الأوعيةِ: خُصومٌ، واحدُها: خَصمٌ.

وقيلَ: الخِصامُ هاهُنا: جمعُ الخَصْمِ، مثلَ: صِعابٍ وصَعْبٍ، وضِخامٍ وضَخْمٍ.

* * *

(٢٠٥) - ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إذا رجعَ عن المدينةِ، يعني: الأخنَسَ بنَ شَريقٍ، أو أرادَ: إذا رجعَ عن بدرٍ ببني زُهرةَ، وكان مَمَرُّه على ثقيفٍ، فبيَّتَهم ليلًا وأحرَقَ زرعَهم وأهلَكَ مواشيَهم.

وقيلَ: ﴿تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: ولِيَ شُغلًا وصارُوا إليه؛ أي: إذا قدرَ على قومٍ جارَ وغدَرَ ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مشَى بسُرعةٍ، وهذه عبارةٌ عن إيقاعِ الفتنةِ والتَّضريبِ بين النّاسِ.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾؛ أي: في الأرضِ بالتَّخريبِ وإتلافِ الزُّروعِ والبهائمِ.

وقيلَ: هذا السَّعيُ: تنفيرُه في السِّرِّ عن الإسلامِ.

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾؛ أي: الزَّرعَ ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾؛ أي: نسلَ الدَّوابِّ.

وقيلَ: الحرثُ والنِّساءُ والنَّسلُ: الأولادُ، وهذا لأنَّ النِّفاقَ يُؤدِّي إلى تفريقِ الكلمةِ ووقوعِ القتالِ، وفيه هلاكُ الخلقِ، والحرثُ: الشَّقُّ، ومنه المِحراثُ لِـمَا تُشَقُّ به الأرضُ، والنَّسلُ: ما خرجَ من كلِّ أُنثى من ولدٍ، وأصلُه: الخروجُ والسُّقوطُ، ومنه: نسَلَ الشَّعرُ نُسُولًا، والمُستقبَلُ: يَنسِلُ، من بابِ: ضَرَبَ يضرِبُ، ومنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وقرأ أبو عمرٍو وقومٌ: (ليُفسِدَ فيها ويَهلَكُ الحرثُ والنَّسلُ) بفتحِ الياءِ واللَّامِ ورفعِ الكافِ[1]، **وهذا غريبٌ**؛ لأنَّه يُقالُ: هلَكَ يهلِكُ، مثل: ضرَبِ يضرِبُ، ولـم يشتَهِرْ «يهلَكُ» بفتحِ اللَّامِ، فلعلَّه روايةٌ عن العربِ، ولا بدَّ من اعتقادِ ذلك؛ لأنَّ القراءاتِ المشهورةَ ثبتَتْ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ بنقلٍ مُتواترٍ[2].

* * *

(٢٠٦) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾؛ أي: لـمَّا قال له النَّبيُّ عليه السَّلامُ سرًّا وجهرًا دعَتْه الأنَفةُ والكِبرُ إلى النِّفاقِ.

---

(١) انظر: «المحتسب في شواذ القراءات» (١/ ١٢١) عن الحسن وابن أبي إسحاق وابن محيصن. والمشهور عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٢) كذا قال، والقراءة المذكورة ليست من المتواتر، بل هي خلاف المشهور عن أبي عمرو كما ذكرنا.

والعِزَّةُ: القوَّةُ والغلَبةُ، قال قتادةُ: أي: إذا قيلَ له: «مهلًا» ازدادَ إقدامًا على المعصيةِ(١)، والمعنى: حملَته العِزَّةُ على الإثمِ.

ثمَّ قيلَ: أي: يغترُّ بما يُؤثِمُه.

وقيلَ: أي: أخذَتْه العزَّةُ بما يُؤثِمُه؛ أي: ارتكبَ الكفرَ للعزَّةِ وحميَّةِ الجاهليّةِ، ونظيرُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢].

وقيلَ: الباءُ في ﴿بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ بمعنى اللَّامِ؛ أي: أخذَتْه العِزَّةُ والحمِيَّةُ عن قبولِ الوعظِ للإثمِ الذي في قلبِه، وهو النِّفاقُ؛ كما تقولُ: «فعلتُ هذا بسببِك» و«لسببِك».

﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾؛ أي: كافيه الجحيمُ جزاءً له وعذابًا، وجهنَّمُ: اسمُ النّارِ في الآخرةِ، وهو أعجميٌّ لا ينصرفُ للعُجمةِ والتَّعريفِ.

وقيلَ: هو اسمٌ عربيٌّ، من قولِك: رَكِيَّةٌ جِهِنَّامٌ؛ أي: بعيدةُ القعرِ، وعلى هذا لا ينصرفُ للتَّعريفِ والتَّأنيثِ.

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾: هي جمعُ المهدِ، وهو الموضعُ المُهيَّأُ للنَّومِ، ومنه: مهدُ الصَّبيِّ، وسُمِّيَ جهنَّمُ مهادًا لأنَّها مُستقَرُّ الكفّارِ.

وقيلَ: لأنَّها بدلٌ لهم منَ المهادِ، كقولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] على جهةِ البدلِ، ونظيرُه من الكلامِ: «عتابُك السَّيفُ» و«تحيَّتُك الضَّربُ».

***

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٧٩).

(٢٠٧) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾: ذكرَ صنيعَ المُنافقين، ثمَّ ذكرَ صنيعَ المؤمنين.

نزلَتْ في صُهَيبٍ فإنَّه أقبلَ مُهاجرًا إلى رسولِ الله، فاتَّبعَه نفرٌ من مُشركي قُريشٍ، فنزلَ عن راحلتِه، ونثَلَ كنانتَه، وأخذَ قوسَه، وقال: لقد علمتُم أنِّي من أرماكُم، وايمُ الله لا تصِلونَ إليَّ حتَّى أرميَ بما في كنانَتي، ثمَّ أضرِبَ بسيفي ما بقيَ في يديَّ منه شيءٌ، ثمَّ افعلُوا ما شئتُم، فقالوا: دُلَّنا على مالِكَ بمكَّةَ ونُخلِّي عنك، وعاهَدوه على ذلك ففعَلَ، فقالَ رسولُ الله لما أخبرَه به: «ربِحَ البيعُ أبا يحيَى»، وأنزلَ الله هذه الآيةَ(١).

وقيلَ: إنَّهم أخذُوا صُهَيبًا وعذَّبوه، فقال لهم: إنِّي شيخٌ كبيرٌ لا يضرُّكم أمِنكُم كنتُ أم من غيرِكم، فهل لكم أن تأخُذوا مالي وتذَروني؟ ففعلُوا ذلك، وكان اشترطَ عليهم راحلةً ونفقةً، فخرجَ إلى المدينةِ، فتلقَّاه أبو بكرٍ وقال: ربحَ بيعُك أبا يحيى، فقال صُهَيبٌ: وبيعُك فلا يخسَرُ، فما ذاك؟ فقال: أنزلَ الله فيك كذا وكذا، وقرأ عليه هذه الآيةَ(٢).

وقيلَ: نزلَت الآيةُ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢٨)، والحارث في «مسنده» (٦٧٩ ـ بغية الباحث)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٤٧٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٥٧٠٦) وصحَّحه، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٥١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٩٢) عن الربيع، وفيه أن المتلقي له هو عمر رضي الله عنه.

وشَرَى منَ الأضدادِ، يُقالُ: شَرَى؛ أي: باعَ، وشَرَى؛ أي: اشتَرَى، وأصلُه: الاستبدالُ، قال الله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ أي: باعوه، وبيعُ النَّفسِ هاهنا: بذلُـها لأوامرِ الله تعالى.

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لابتغاءِ مرضاتِ الله، فهو مفعولٌ له، والمرضاةُ: الرِّضا، يُقالُ: رضيَ يرضى رِضًا ومَرضاةً.

وقيلَ: اشتَرَى صُهَيبٌ نفسَه من مولاه، وقال: خُذْ مالي وسيِّبْنِي، فقد آمنْتُ بالله وحدَه[1]، وعلى هذا فقولُه: ﴿يَشْرِى﴾؛ أي: يشتَري نفسَه من مولاه بمالِه، أو من المُشركين.

***

(٢٠٨) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾: لـمَّا بيَّنَ اختلافَ النّاسِ إلى مؤمنٍ وكافرٍ ومنافقٍ قال: كونُوا على ملَّةٍ واحدةٍ، وأجمِعوا على الإسلامِ.

وقيلَ: خاطبَ المُنافقين؛ أي: آمِنُوا سرًّا كما آمنتُم جهرًا.

وقيلَ: خاطبَ مَن أسلمَ من أهلِ الكتابِ؛ فإنَّهم لمَّا أسلَمُوا عظَّمُوا السَّبْتَ وكرِهُوا لحمَ الإبلِ وألبانَها، وقالوا: إنَّا نقوَى على التزامِ الشَّريعتَينِ، فنُهوا عن ذلك[2].

---

(١) لم أجده.

(٢) روى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٩٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٥٩٩) عن عكرمة.

وقيلَ: هو خطابٌ لمَن يُؤمِنُ من أهلِ الكتابِ؛ أي: يا أيُّها الذين آمنُوا بالشَّرائعِ المُتقدِّمةِ ادخُلوا في الإسلامِ.

وقيلَ: الخطابُ للمؤمنين؛ أي: داوِمُوا على الإسلامِ.

والسِّلمُ: الإسلامُ، وقيلَ: الصُّلحُ والطَّاعةُ.

قُرِئَ بفتحِ السِّينِ وكسرِها[1]، وهما لغتانِ، مثلُ: رِطْلٍ ورَطْلٍ، وبِزْرٍ وبَزْرٌ.

وقيلَ: السِّلْمُ بالكسرِ: الإسلامُ، وهو اسمٌ بمعنَى المصدرِ، والسَّلْمُ بالفتحِ: الصُّلحُ والمُسالمةُ.

﴿كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعًا.

وقيلَ: ادخلُوا في السِّلْمِ كلِّه؛ أي: ظاهرًا وباطنًا، وفي الإيمانِ بجميعِ الأنبياءِ.

والكفُّ: المنعُ، ومنه: كفَّةُ القميصِ؛ لأنَّها تمنعُ الثَّوبَ منَ الانتشارِ، ومنه: كفُّ الإنسانِ؛ لأنَّه يكفُّ بها عن سائرِ البدنِ، ورجلٌ مكفوفٌ؛ أي: مُنِعَ بصرُه عن النَّظرِ، فالجماعةُ تُسمَّى كافَّةً لامتناعِهم عن التَّفرُّقِ.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾؛ أي: تزيينَه في النِّفاقِ والتزامِ بعضِ أحكامِ التَّوراةِ مع الإيمانِ بمحمَّدٍ ﷺ، وفي تركِ الإيمانِ ببعضِ الأنبياءِ، وفي تبديلِ الإسلامِ بعدَ الإيمانِ.

❊ ❊ ❊

(١) قرأ ابن نافع وابن كثير والكسائي بالفتح، والباقون بالكسر. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٠)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

(٢٠٩) - ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾؛ أي: فإنْ تنحَّيتُم عن القصدِ وزلَلْتُم عنه، يُقالُ: زَلَّ يزِلُّ زَلًّا وزُلولًا؛ أي: دحَضتْ قدمُه.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: المُعجِزاتُ وآياتُ القرآنِ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في نقمتِه لا تُعجِزونَه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يأمرُكم به.

* * *

(٢١٠) - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

قولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: هذا وعيدُ مَن لا يدخلُ في السِّلمِ، وهو استفهامٌ أُريدُ به النَّفيُ؛ أي: ما ينتَظرون، والنَّظرُ يُعدَّى بـ«إلى»، ويجوزُ حذفُ الجارِّ، وهذا إذا كان بمعنى الرُّؤيةِ.

وقيلَ: الاستفهامُ هاهُنا بمعنى النَّهيِ؛ أي: لا تنتظِروا إلّا قيامَ السّاعةِ وحضورَ العذابِ، إلّا أن يأتيَهم الله؛ أي: يأتيَهم أمرُ الله، فهو من بابِ حذفِ المُضافِ، وقد يُضافُ الشَّيءُ إلى الله تفخيمًا، فهذا تفخيمٌ لشأنِ العذابِ غدًا، وهذا كقولِه: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]، وإنَّما أتاهُم عقوبتُه على أيدي المؤمنين، وكذلك قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، وقد بيَّنَ هذا في موضعٍ آخرَ فقالَ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقيلَ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الملائكةُ، أو العذابُ بأمرِ الله، كما يُقالُ: رجمَ رسولُ الله ماعِزًا، ورجمَ يهوديَّين، وضربَ الأميرُ فلانًا؛ أي: فُعِلَ ذلك بأمرِه.

وقيلَ: أي: إلّا أن يأتيَهم اللهُ بالعذابِ والحسابِ، فحُذِفَ ما يأتي به تهويلًا عليهم، فإنَّ الوعيدَ إذا لـم يذكَرْ كانَ أبلغَ لذهابِ الفكرِ في كلِّ وجهٍ.

وقولُه: ﴿فِي ظُلَلٖ﴾؛ أي: بظُلَلٍ، والظُّلَلُ: جمعُ ظُلّةٍ، مثلُ: خُلّةٍ وخُلَلٍ، والظُّلَّةُ: ما يُستظَلُّ به منَ الشَّمسِ، ومنه: ﴿عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]؛ أي: السَّحابُ، أرادَ: غيمًا تحتَه سَمومٌ.

والقومُ لـم ينتَظِروا العذابَ ولا السّاعةَ؛ لأنَّهم ما كانوا مُعترِفين بالقيامةِ، ولكنَّ المعنى: أنَّه ليس بين أيديهم إلّا هذا.

ثمَّ؛ قيلَ: شبَّهَ القيامةَ وأهوالَـها بالظُّلَلِ(١) منَ الغمامِ.

وقيل: إنَّ العذابَ يأتي في ظُلَلٍ من الغَمام(٢) ليكونَ أهولَ.

وقال أبو العاليةِ: أي: هل ينظرونَ إلا أن يأتيَهم اللهُ والملائكةُ في ظُلَلٍ منَ الغمامِ، فالمُضافُ إلى الله هو الإتيانُ، فأما المُضافُ إلى الملائكةِ فالإتيانُ في ظُلَلِ الغمامِ.

وقُرِئَ: ﴿والملائكةِ﴾ بالكسرِ(٣)، وقُرِئَ: (ظِلال)(٤) مثلُ: حُلَّةٍ وحِلالٌ.

---

(١) في (ف): «بالظل».

(٢) «وقيل إن العذاب يأتي في ظلل من الغمام» من (أ).

(٣) هي قراءة أبي جعفر من العشرة، وقرأ الباقون بالرفع. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٤) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٠)، و«المحتسب» (١/ ١٢٢).

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: فُرغَ لهم ممَّا كانوا يُوعَدون؛ أي: أعدَّ لهم العذابَ الذي لا مدفعَ له، والمعنى: ويُقضَى الأمرُ حينئذٍ ويُفرَغُ منه، والماضي قد يُوضَعُ موضعَ المُستقبلِ لا سيَّما في أمورِ الآخرةِ كقولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا يدلُّ على قربِ أمرٍ، وهذا الأمرُ هو فصلُ القضاءِ بين الخلقِ، وهو كقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ بفتحِ التّاءِ وكسرِ الجيمِ، وقُرِئ بضمِّ التّاءِ وفتحِ الجيمِ[1]، والمعنى: رجوعُ الأمرِ إليه أنَّه يُجازي على الأعمالِ غدًا.

وقيلَ: قد ملَكَ العبادُ في الدُّنيا أموالًا، وغدًا لا يملكُ أحدٌ شيئًا.

وقيلَ: تنقطعُ الدَّعاوي غدًا، وعلِمَ الكلُّ أنَّ الأمرَ لله.

وقيلَ: أي: الأمورُ إليه راجعةٌ اليومَ وغدًا، كما يُقالُ: «رجعَ عليَّ من فلانٍ مكروهٌ»؛ أي: كان منه إليَّ مكروهٌ.

* * *

(٢١١) - ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قولُه: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أمرَ الكلَّ بالدُّخولِ في السِّلمِ، ثمَّ خصَّ بني إسرائيلَ

---

(١) قرأ بالتأنيث والبناء للفاعل حمزة والكسائي وابن عامر، وبالتأنيث والبناء للمفعول باقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٨١)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

بتذكيرِهم نِعَمَه، وأصلُ «سَلْ»: اسأَلْ، فتُركت الهمزةُ تخفيفًا ونُقِلَتْ حركتُها إلى السِّينِ قبلَها، وسالَ يسالُ لغةٌ، مثلُ: خافَ يخافُ.

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾: استفهامُ تقريعٍ، وليس للتَّعرُّفِ، تقولُ: «سَلْ فُلانًا كم أنعمتُ عليه»، يُريدُ تقريرَ الحجّةِ عليه.

وقيلَ: فيه إضمارٌ؛ أي: سَلْهم كم آتيناهُم من آيةٍ فكفَروا بها، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ﴾؛ أي: هم بدَّلوا وكفَرُوا.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ﴾؛ أي: يُغيِّرْ، وتبديلُ النِّعمةِ منَ الله، ولكنَّه أضافَه إليهم لأنَّه بسببٍ من جهتِهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ أي: شديدُ العقابِ له، فلا بدَّ من إضمارٍ، والعقابُ: عذابٌ يعقُبُ الجُرْمَ.

ثمَّ قيلَ: هذا السُّؤالُ من جميعِ أهلِ الكتابِ.

وقيلَ: من مُؤمني أهلِ الكتابِ، والمعنيُّ بتبديلِ النِّعمِ: أنَّهم لم يشكُروا نعمةَ فلقِ البحرِ، وإنزالِ المنِّ والسَّلوى، وتظليلِ الغمامِ، وغيرِها.

وقيلَ: النِّعمةُ هاهنا: الحُجَجُ والبراهينُ التي بُيِّنَتْ[1] في كتُبِهم في أنَّ محمَّدًا عليه السَّلامُ حقٌّ.

* * *

(١) في (أ): «ثبتت».

(٢١٢) - ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قولُه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيَّنَ السَّببَ الذي لأجلِه بدَّلَ الكفّارُ نعمةَ الله فلم يشكروها، ولم يقُلْ: «زُيِّنَتْ»؛ لأنَّ الحياةَ مصدرٌ، ونظيرُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وقولُه: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقيلَ: تأنيثُ الحياةِ ليس حقيقيًّا؛ لأنَّ الحياةَ بمعنى البقاءِ والعيشِ؛ أي: زُيِّنَ لهم البقاءُ.

وقيلَ: لم يقُلْ: «زُيِّنَتْ»؛ للفصلِ بينَ ﴿زُيِّنَ﴾ وبينَ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والفاصلُ يكفي من تاءِ التَّأنيثِ.

ثمَّ؛ تحتمِلُ: زيَّنَ الله لهم الحياةَ الدُّنيا فخلَقَها شهيَّةً خدَّاعةً، وخلقَ في القلوبِ الميلَ إليها ابتلاءً لهم. وتحتمِلُ: زيَّنَ لهم الشَّيطانُ بالوساوسِ الحياةَ الدُّنيا.

وقيلَ: هو من رُؤسائِهم إذ حَثُّوهم على طلبِ الدُّنيا ولذَّاتِها، وقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩].

وقيلَ: أي: تزيَّنَتْ لهم الدُّنيا، كما تقولُ: أينَ يُذهبُ بك؛ [أي](١): أين تذهَبُ؟ أي: تزيَّنَتْ لهم بزخارِفِها وأموالِها وشهواتِها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يُقالُ: سخِرَ به، وسخِرَ منه، سُخريةً وسُخرِيًّا وسَخَرًا وسُخُرًا، والسُّخريةُ: إيهامُ شيءٍ واستِبطانُ غيرِه.

وقيلَ: أرادَ مُشركي العربِ من أصحابِ الأموالِ، سخِرُوا من فُقراءِ المسلمينَ.

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق.

وقيلَ: عنى رُؤساءَ اليهودِ؛ سخِرُوا من فُقراءِ المسلمين حيثُ أُخرِجوا من ديارِهم وأموالِهم.

وقيلَ: عنى المُنافقين؛ سخِروا منَ المُؤمنين، وقالوا: قد أتعَبُوا أنفُسَهم في لا شيءٍ.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: الذين اتَّقَوا الشِّركَ فوقَ الكفّارِ بالحجَّةِ؛ لزوالِ الشُّكوكِ عن الكفّارِ يومئذٍ.

وقيلَ: فوقَهم في المكانِ والمحلِّ؛ لأنَّ الجنّةَ عاليةٌ، والكافرُ في النّارِ وهي هاويةٌ.

وقيلَ: أي: حالُ المؤمنين غدًا فوقَ حالِ الكفّارِ.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: يرزُقُ مَن يشاءُ غدًا رزقًا رَغدًا لا حدَّ له ولا انقطاعَ.

وقيلَ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: تفضَّلَ عليهم بأكثرَ من طاعتِهم.

وقيلَ: لا يُنقِصُه العطاءُ، والحسابُ إنَّما يكونُ فيما إذا أُعطي منه نقصَ.

وقيلَ: يرزُقُ مَن يشاءُ من غير تبعةٍ في الدُّنيا وحسابٍ في الآخرةِ.

وقيلَ: ليس فوقَه مَن يُحاسبُه، فيفعلُ ما يُريدُ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنَّ أموالَ قُريظةَ والنَّضيرِ تصيرُ إلى المسلمين بلا حسابٍ ولا قتالٍ عن قُربٍ[1].

وقيلَ: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: من حيثُ لا يحتسبُ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ١٠٨) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢١٣) - ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: كانوا مُجتمعينَ على الحقِّ في عهدِ آدمَ، أو في عهدِ نوحٍ في السَّفينةِ، ثمَّ اغترُّوا بالدُّنيا وما تَزيَّنُ لهم منها فاختلَفُوا.

وقيلَ: كانوا مُجتمعينَ في الكفرِ لمَّا بُعِثَ إبراهيمُ وغيرُه منَ النَّبيِّين؛ أي: كان الغالبُ عليهم الكفرَ وإنْ كان فيهم مؤمنون وأنبياءُ.

وعلى الأوَّلِ فيه إضمارٌ؛ أي: كانوا أمَّةً واحدةً فاختلَفُوا فبعَثَ الله النَّبيِّين.

وقيلَ: كانوا مُجتمِعين على غيرِ دينٍ مشروعٍ، فبعَثَ الله النَّبيِّين فشَرَعَ لهم الدِّينَ.

والأمَّةُ: القومُ يجتمعونَ على الشَّيءِ، والمُؤمنون: أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ لاجتماعِهم في الإيمانِ به، وجميعُ أهلِ عصرِه إلى السَّاعةِ أمَّتُه لاجتماعِهم على دعوتِه.

وقيلَ: الأمَّةُ بمعنى الدِّينِ؛ أي: كانوا دِينًا واحدًا.

والأظهرُ أنَّ المُرادَ: كانوا مُجتمِعين على الحقِّ فاختلَفُوا.

وقرأ ابنُ مسعودٍ: (كان الناسُ أمةً واحدةً فاختلَفوا فبعث الله النبيين)[1]، ولو كانوا مُجتمِعين على الكفرِ لكانت تلك الحالةُ أَولى بانبعاثِ الرُّسلِ فيهم.

وقيلَ: هذا إشارةٌ إلى قولِهم: ﴿بَلَىٰ﴾ لمَّا قالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٦٢١). وهذه القراءة محمولة على التفسير؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمعت الأمة عليه، والذي ابن مسعود أحد نقَلته.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لمَّا اختلَفُوا بعد أن كانوا مُجتمِعينَ على الحقِّ.

ومَن قال: كانوا أمَّةً واحدةً في الكفرِ؛ فمعنى قولِه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: أنَّه بعثَهم وأنعمَ على الخلقِ بالنَّبيِّين والكتُبِ ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: الكتُبَ، فهو اسمُ الجنسِ.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدلِ والصِّدقِ، بيَّنَ أنَّ له أن يتعبَّدَ الخلقَ بما يشاءُ.

﴿لِيَحْكُمَ﴾؛ أي: ليحكمَ الكتابُ، فأضافَ الحكمَ إلى الكتابِ تفخيمًا لأمرِ الكتابِ.

وقيلَ: أي: ليحكُمَ الله بينَهم بالحقِّ.

وقيلَ: ليَحكمَ كلُّ نبيٍّ في قومِه بالحقِّ.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾؛ أي: في الكتابِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾؛ أي: اليهودُ والنَّصارى، وهذا الكفرُ كفرُ قومٍ بالإنجيلِ، وكفرُ قومٍ بالتَّوارةِ بغيًا وحسَدًا، وتحريفُهم لكتُبِهم.

وقيلَ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾؛ أي: في محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وهو من جملةِ النَّبيِّينَ، وقد جرَى ذِكرُهم؛ أي: ما اختلَفَ فيه إلّا اليهودُ الذين أوتوا التَّوراةَ حسَدًا وبغيًا، وأنَّ المُشركين وإنْ كفَرُوا فلم يفعَلُوا ذلك حسَدًا ولـم يأتِهم منَ الآياتِ ما أتى اليهودَ.

وأيضًا: اختلافُ المشركينَ استندَ إلى اختلافِ اليهودِ؛ فإنَّهم كانوا يُراجِعُونَهم، ولو أسلمَتِ اليهودُ لَـمَا اختلَفَ على محمَّدٍ عليه السَّلامُ اثنانِ.

وقيلَ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾؛ أي: في الحقِّ، وذلك الحقُّ هو الكتابُ أو محمَّدٌ عليه السلام.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ أي: إلى ما اختلَفُوا فيه، كقولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]؛ أي: إلى ما قالوا، ويُقالُ: هدَيتُه لكذا، أو: إلى كذا؛ أي: فهدَى الله الذين آمنوا إلى معرفةِ ما اختلَفُوا فيه، فحُذِفَ المُضافُ.

وقيلَ: هو منَ المقلوبِ؛ أي: فهدى الله الذين آمنُوا للحقِّ ممَّا اختلَفُوا فيه؛ أي: هداهُم إلى ما وقعَ الخلافُ فيه، وهو الكتابُ أو محمَّدٌ أو الحقُّ، فآمَنُوا به وكفروا اليهود والنَّصارى.

﴿بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: بقضائِه وقدَرِه ومشيئَتِه وعلمِه.

* * *

(٢١٤) ـ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

قولُه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾: بيَّنَ أنَّ المؤمنين في كلِّ عصرٍ امتُحِنُوا فصَبَروا.

نزلَت في المُهاجرين؛ لأنَّهم خرَجُوا بلا مالٍ، وتركوا ديارَهم وأموالَهم وشَمِتَ بهم اليهودُ[١].

وقيلَ: نزلَتْ في حربِ الخندقِ؛ إذ أصابَهم الجهدُ وبلغَتِ القلوبُ الحناجرَ[٢].

والاستفهامُ بـ«أم» لا يكونُ في ابتداءِ الكلامِ، فلا يُقالُ: «أم عندَك خبرٌ» بمعنَى:

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٨٠) عن عطاء، والواحدي في «البسيط» (٤/ ١١٦) من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٣٧) عن السدي وقتادة.

أعندَكَ خبرٌ؟ فقولُه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ يتَّصِلُ بما قبلَه، وهو كقولك: «أنت رجلٌ لا تُنصفُ أم لك سُلطانٌ تُدلي به».

وقيلَ: هو عطفٌ على استفهامٍ محذوفٍ مُقدَّمٍ؛ أي: أعلِمْتُم أنَّ الجنَّةَ حُفَّت بالمكارِه أم حسِبْتُم أن تدخلوا الجنّةَ من غيرِ مكروهٍ؟ وهو كقولِك: «إنَّها لإبلٌ أم شاءٌ؟».

وقد قيلَ: «أم» بمعنى «بل»، ولا بدَّ من استفهامٍ مُتقدِّمٍ في التَّقديرِ.

﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم﴾؛ أي: ولم يأتِكم فـ(ما) صلةٌ، ويجوزُ الوقفُ على (لمَّا) تقولُ: «أقَدِمَ زيدٌ؟» فيقولُ المُخاطَبُ: «لَمَّا»، ولا يقولُ: «لم»، وتقولُ: «لمَّا يأتِني زيدٌ»؛ أي: لم يأتِني بعدُ وأنا أتوقَّعُه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ أي: شَبَهُ الذين مَضَوا منَ النَّبيِّين والمُؤمنين؛ أي: ولمَّا يُصِبْكم مِثْلُ ما أصابَهم فتَصبِروا كما صَبَروا، وفيه إضمارٌ؛ أي: مَثَلُ محنةِ الذين خَلَوا.

﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾؛ أي: الشِّدَّةُ والبأسُ ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾: نقيضُ السَّرَّاءِ.

﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾؛ أي: حُرِّكوا بالبلاءِ، من: زالَ الشَّيءُ عن مكانِه، وزَلْزَلتُه عن مكانِه؛ أي: كرَّرْتُ تحريكَه، ومثلُه: شفَّه وشَفْشَفَه[1]، وكفَّ وكَفْكَفَ، ونظيرُ هذه الآيةِ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، وقولُه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

---

(١) شفه الهمُّ يَشُفُّهُ بالضم شَفًّا: هَزَله، وشفشفه أيضاً. انظر: «الصحاح» (مادة: شفف). ومثَّل له الواحدي في «البسيط» (٤/ ١١٩) بـ«صَرَّ وصَرْصَرَ» و«صَلّ وصلصل».

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ﴾: بالنَّصبِ؛ أي: إلى أن يقولَ، أو: حتَّى قالَ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾.

وقُرِئَ: ﴿حتَّى يقولُ الرَّسولُ﴾ بالرَّفعِ[1]؛ أي: حتَّى قالَ الرَّسولُ[2]، أو: حتَّى إنَّ الرَّسولَ يقولُ: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[3].

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: ﴿أَلَآ﴾ صلةٌ لابتداءِ الكلامِ، وتنبيهٌ للمُخاطبِ، فهذا منهم استِبطاءٌ ودعاءٌ، فقيلَ لهم: نصرُ الله قريبٌ فانتَظِروه، فقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ﴾ من قولِ الله لهم، أو من قولِ الرَّسولِ، أو من قولِ بعضِ المُؤمنين.

وقيلَ: انتهى قصَّتُهم عندَ قولِه: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ قالَ الله لمُحمَّدٍ: اصبِرُوا كما صبرَ هؤلاءِ؛ فإنَّ نصرَ الله قريبٌ.

* * *

(٢١٥) ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ لـمَّا أخبرَ أنَّ الكفَّارَ زُيِّنَ لهم الحياةُ الدُّنيا،

---

(١) هي قراءة نافع من السبعة، وقرأ الباقون بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ١٨١)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

(٢) وهذا كما تقول: «سِرتُ حتى أَدْخُلُ المدينة»، وقد مضى السير والدخول، كأنه بمنزلة قولك: «سِرتُ فأدخلُها» بمنزلة: سرتُ فدَخَلْتُها، وصارت (حتى) هاهنا مما لا يعمل في الفعل شيئًا لأنها تلي الجمل، تقول: سرت حتى إني كالٌّ، وكقوله:

فيا عَجَبًا حتى كُلَيبٌ تَسُبُّني ... كأن أباها نهشلٌ أو مجاشِعُ

فعملُها في الجمل يكون في معناها لا في لفظها، وعلى هذا وجه الآية انظر: «البسيط» (٤/ ١٢٠).

(٣) وهذا على أن يكون السير قد مضى والدخول واقع الآن وقد انقطع السير، تقول: «سرتُ حتى أدخلُها الآن ما أُمْنَع»، كأنك قلتَ: «سرتُ حتى إني أَدْخُلُها الآن ما أمنع» انظر: «البسيط» (٤/ ١٢١).

وأنَّ المؤمنينَ لا بدَّ لهم منَ الصَّبرِ على البأساءِ والضَّرَّاءِ؛ وصلَ به أمرَ إنفاقِ المالِ في الخمرِ والميسرِ، وامتَدَّ الكلامُ إلى مُعاشرةِ اليتامى والنِّساءِ بالجميلِ، ثمَّ اتَّصلَ به أمرُ النِّكاحِ والطَّلاقِ والرَّضاعِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَت الآيةُ في عَمرِو بنِ الجموحِ، وكان شيخًا كبيرًا ذا مالٍ كثيرٍ، قال: يا رسولَ الله، على مَن أُنفِقُ؟ فنزلَتِ الآيةُ[1].

وقيلَ: نزلَتْ في رجلٍ قال: يا رسولَ الله، إنَّ لي دينارًا، فقال: «أَنفِقْه على نفسِكَ»، فقال: إنَّ لي ثانيًا، فقال: «أنفِقْه على أهلِكَ»، فقال: إنَّ معي ثالثًا، فقال: «أنفِقْه على خادِمك»، فقال: إنَّ معي رابعًا، فقال: «أنفِقْه على والدَيك»، فقال: إنَّ معي خامسًا، فقال: «أنفِقْه على قرابتِك»، فقال: إنَّ معي سادسًا، فقال: «أنفِقْه في سبيلِ الله، وهو أخسُّها»[2].

﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: يجوزُ أن يكونَ (ما) مع (ذا) بمنزلةِ اسمٍ واحدٍ؛ أي: أيَّ شيءٍ يُنفِقُونَ؟

وقيلَ: يعني: أيُّ شيءٍ الذي يُنفِقون؟ فـ(ما) رفعٌ بالابتداءِ، و(ذا) خبرُ المبتدأ، وعلى الأوَّلِ: ﴿مَاذَا﴾ في محلِّ النَّصبِ بمعنى: أيَّ شيءٍ يُنفقون؟

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾؛ أي: اصرِفُوه إلى أقاربِكم، وإلى وجهِ كذا وكذا.

---

(١) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ١٤١)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٦٧)، وإسناده ضعيف جدًّا لأنه من رواية الكلبي وهو متروك، عن أبي صالح ولم يدرك ابن عباس، عن ابن عباس. انظر: «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (١/ ٥٣٤).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ١١٩) من رواية عطاء عن ابن عباس، وليست بأصلح من رواية الكلبي عنه.

وكانَ السُّؤالُ عن الإنفاقِ في وجهِ التَّقرُّبِ، فأُجيبوا ببيانِ وجوهِ القرُباتِ، فمنها الإنفاقُ على الأقاربِ صيانةً لوجوهِهم، ومنها: النَّفقةُ على اليتامى؛ إذ لا كاسبَ لهم، وهذا كما يقولُ الرَّجلُ لصاحبِه: «أيَّ الأعمالِ أعملُ؟» فيقولُ له: «ما عمِلتَ من شيءٍ فأرِدْ به وجهَ الله»، فيصحُّ هذا، وإن كانَ وجهُ الكلامِ أن يقولَ: اعمَلْ كذا وكذا.

وعمرُو بنُ الجموحِ سألَ عن الصَّدقةِ إلى مَن يصرِفُها عندَ الموتِ، وكان هذا قبلَ آيةِ المواريثِ، ثمَّ نُسِخَتِ الآيةُ بآيةِ المواريثِ.

وقيلَ: كان هذا فرضًا قبلَ فرضِ الزَّكاةِ، ثمَّ نُسِخَتْ بآيةِ الزَّكاةِ.

وقيلَ: ليس يُريدُ بهذه الصَّدقةَ عند الموتِ ولا فرضًا آخرَ، بل أرادَ الإنفاقَ تطوُّعًا، فليستِ الآيةُ منسوخةً.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ هذا جزمٌ لأنَّه شرطٌ، والجوابُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يُجازي عليه.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من شيءٍ تتقرَّبونَ به إلى الله.

وقيلَ: أراد بالخيرِ: المالَ، كقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]؛ أي: مالًا.

* * *

(٢١٦) - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: بيَّنَ أنَّ ممَّا امتُحِنُوا به وجُعِلَ وُصْلةً إلى الجنَّةِ: الجهادَ، والمُرادُ بالقتالِ: قتالُ الأعداءِ منَ الكفَّارِ، وكان هذا معلومًا لهم بقرائنِ الأحوالِ، ولم يُؤذَنْ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ في القتالِ مدَّةَ إقامتِه بمكَّةَ، فلمَّا

هاجرَ أُذِنَ له في قتالِ مَن يُقاتلُه من المُشركين، ثمَّ أُذِنَ له في قتالِ المُشركين عامَّةً، ثمَّ فرضَ الله الجهادَ.

ثمَّ؛ قيلَ: المُرادُ بهذه الآيةِ أصحابُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ خاصَّةً، فكانَ القتالُ مع النَّبيِّ عليه السَّلامُ فرضَ عينٍ عليهم.

وقيلَ: كان فرضَ عينٍ، ثمَّ صار فرضَ كفايةٍ في وقتِه أيضًا كقولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

وقيلَ: كان الجهادُ أبدًا فرضَ كفايةٍ، غيرَ أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ كان إذا استنفرَهم تعيَّنَ عليهم النَّفيرُ لوجوبِ طاعتِه، والآن أيضًا إذا توطَّأَ الكفَّارُ ديارَ الإسلامِ قهرًا صار الجهادُ فرضَ عينٍ.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: الكُرْهُ ـ بالضَّمِّ ـ: المشقَّةُ، والكَرْهُ ـ بالفتحِ ـ: الإجبارُ، يقالُ: أقامَني على كَرْهٍ؛ أي: أكرَهَني عليه، ولـم تُقرأ هاهُنا بالفتحِ.

وقال قومٌ: الكُرْهُ والكَرْهُ لغتانِ في المشقَّةِ.

وقيلَ: أي: وهو ذو كُرهٍ لكم؛ أي: ذو مشقَّةٍ، والتَّكاليفُ مشاقٌّ، وخُصَّ الجهادُ لأنَّ الإنفاقَ فيه منَ الرُّوح والمشقَّةُ فيه أكثرُ.

قال عكرمةُ في هذه الآيةِ: إنَّهم كرِهُوه ثمَّ أحبُّوه وقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا[1]،

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الواحدي في «البسيط» (٤/ ١٣٣)، وهذا معناه لا لفظه، فقد رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٤٤) من رواية عن عكرمة عن ابن عباس، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٨٢) عن عكرمة، كلاهما بلفظ: نسختها هذه الآية ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهكذا ذكره الثعلبي (شيخ الواحدي) في «تفسيره» (٥/ ٣٩٨)، ثم عقبه بقوله: «يعني: أنهم كرهوه ثم أحبوه، فقالوا: سمعنا وأطعنا»، **فهذا شرح الثعلبي لا لفظ الخبر**. =

وهذا لأنَّ امتثالَ الأمرِ يتضمَّنُ مشقَّةً، ولكنْ إذا عرفتَ الثَّوابَ هانَ في جنبِه مُقاساةُ المشقَّاتِ.

وقيلَ: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: قبلَ أن يُوجَبَ ويُكتَبَ عليكم.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: (عسى) فعلٌ، ولكنْ أُميتَ المستقبلُ منه، يقال: عسَيْتَ وعسَيْتُما وعسَيْتُم، و: «أعسِ بفُلانٍ أن يفعلَ كذا»، مثلَ: أحرِ وأخلِقْ، و: «بالعَسى أن يفعلَ كذا»، مثلُ بالحَرَى، ومعنى (عسى): قرُبَ وكادَ.

و(عسى) تُستعملُ مع (أن) في الغالبِ.

و(عسى) توهُّمٌ وشكٌّ عندَ النّاسِ، ويقينٌ وواجبٌ عند الله، وهو كقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقولِه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ أي: الإنسانُ يميلُ إلى تركِ الجهادِ، وهو شرٌّ لأنَّ العدوَّ يمتدُّ إلى دارِ الإسلامِ أو يتجرأ، وربَّما ارتدَّ أقوامٌ منَ المسلمين، وإذا جاهدتَ امتنعَ العدوُّ، وربَّما أسلمَ إذا رأى جِدَّ المسلمين في القتالِ.

والشَّرُّ: السُّوءُ، من شَرَرْتُ الشيءَ؛ أي: بسَطْتُه، وشَرَرْتُ اللَّحمَ؛ أي: بسَطْتُه ليَجِفَّ، وكذلك أشرَرْتُه، والشَّرَرُ: اللَّهَبُ؛ لانبساطِه، فالشَّرُّ: انبساطُ الضُّرِّ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمُ منَ العواقبِ ما لا تعلمونَ.

* * *

= وقد تعقب الطبري هذا الخبر بقوله: وهذا قول لا معنى له؛ لأن نسخ الأحكام من قبل الله عز وجل لا من قبل العباد، وقوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ خبر من الله عن عباده المؤمنين وأنهم قالوه لا نسخ منه.

(٢١٧) ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

قولُه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾: نزلَتْ في قصَّةِ عبد الله بنِ جحشٍ، وهو ابنُ عمَّةِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، بعثَه في جُمادى الآخرةِ قبلَ قتالِ بدرٍ بشهرَين مع ثمانيةِ رَهْطٍ منَ المُهاجرين، وكتبَ له كتابًا، وقال: «سِرْ على اسمِ الله، ولا تنظُرْ في الكتابِ حتَّى تسيرَ يومَين، فإذا نزلتَ منزلَين فافتحِ الكتابَ واقرأه على أصحابِكَ، ثمَّ امضِ لِمَا أمرتُك، ولا تستكرِهَنَّ أحدًا من أصحابِكَ على السَّيرِ معك»، فسارَ يومَين، ثمَّ نزلَ وفتحَ الكتابَ فإذا فيه: «بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ، أمَّا بعدُ، فسِرْ على بركةِ الله بمَن معَك من أصحابِكَ حتَّى تنزلَ بطنَ نخلةَ، فترصَّدْ بها عيرَ قُريشٍ لعلَّكَ أن تأتيَنا منها بخبرٍ»، فقال عبدُ الله: سمعٌ وطاعةٌ، وقال لأصحابِه: إنَّه نهاني أن أستكرِهَ أحدًا منكم.

فسارَ حتَّى إذا كانَ بمَعْدِنَ فوقَ الفُرعِ أضلَّ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ وعُتبةُ بنُ غزوانَ ـ وكانا ممَّن معه ـ بعيرًا لهما كانا يعتَقِبانِه، فاستأذَنا أن يتخلَّفا في طلبِ بعيرِهما فأذِنَ لهما، ومضَى عبدُ الله ببقيَّةِ أصحابِه، فنزلوا بطنَ نخلةَ بين مكَّةَ والطّائفِ، فمرَّتْ بهم عيرٌ لقُريشٍ تحمِلُ زبيبًا وأدَمًا وتجارةً فيهم: عمرُو بنُ الحضرميِّ، والحكَمُ بنُ كيسانَ، وعثمانُ بنُ عبدِ الله بنِ المغيرةِ ونوفَلُ بنُ عبدِ الله المخزوميَّانِ، فلمَّا رأوا أصحابَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ هابُوهُم.

فقال عبدُ الله بنُ جحشٍ: إنَّ القومَ قد ذُعِروا منكم، فاحْلِقُوا رأسَ عُكاشةَ، فأشرَفَ عليهم، فقالَ: قومٌ عُمَّارٌ لا بأسَ عليكم فأمَّنُوهم.

وكانَ ذلك في آخرِ يومٍ من جمادى الآخرِ، فكانوا يرَونَ أنَّه من جُمادَى، وكان من رجبٍ.

وقيلَ: رُئِيَ هلالُ رجبٍ وهم في القتالِ، وكان النَّبيُّ عليه السَّلامُ إذ ذاك يَجري على ما تعتقِدُه العربُ من تعظيمِ الأشهرِ الحرُمِ وتركِ القتالِ فيها، فرُمِيَ عمرُو بنُ الحضرميِّ بسهمٍ فقُتِلَ، وكان أوَّلَ قتيلٍ منَ المُشركين في الإسلامِ، واستُؤْسِرَ الحكَمُ وعثمانُ، وكانا أوَّلَ أسيرَين في الإسلامِ، وأفلَتَ نوفَلُ، واستاقَ المسلمونَ العِيرَ والأسيرَين، وقدِمُوا المدينةَ.

فقال النّاسُ: قد استحَلَّ محمَّدٌ الشَّهرَ الحرامَ، وسفَكَ فيه الدِّماءَ، وأخذَ فيه الحرائبَ، وهو شهرٌ يُؤمَّنُ فيه الخائفُ، ويَبْذَعِرُّ[1] النّاسُ لمعاشِهم.

وعيَّرَ أهلُ مكَّةَ بذاك مَن كانَ بها من المسلمين، وشمِتَ اليهودُ، وقال رسولُ الله لابنِ جحشٍ: «ما أمرتُكم بالقتالِ في الشَّهرِ الحرامِ»، وأبى أن يأخُذَ منَ العيرِ شيئًا، وعظُمَ ذلك على أصحابِ السَّرِيَّةِ، وسُقِطَ في أيديهم، وقالوا: إنّا قتَلْنا ابنَ الحضرميِّ، ثمَّ أمسَيْنا فرأينا هلالَ رجبٍ، فلا ندري أفي رجبٍ أصبناه أم في جُمادى؟[2] فنزلَتْ هذه الآيةُ، فأخذَ رسولُ الله العيرَ فعزلَ منها الخمُسَ، وكانَ أوَّلَ خمُسٍ في الإسلامِ، وقسَّمَ الباقي بين أصحابِ السَّريّةِ، فكان أوَّلَ غنيمةٍ في الإسلامِ، وبعثَ أهلُ مكّةَ في فداءِ أسيرِهم، فقال رسولُ الله: «حتَّى يَقدَمَ سعدٌ وعُتبةُ، فإنْ لم يَقْدَما قتلناهما بهما»، فلمَّا قدِما أخذَ الفداءَ.

---

(١) أي: ويتفرق.

(٢) في (أ) زيادة: «الآخرة».

فأمَّا الحكَمُ بنُ كيسانَ فأسلَمَ فأقامَ بالمدينةِ، فقُتِلَ يومَ بئرِ معونةَ شهيدًا، وأمَّا عثمانُ بنُ عبدِ الله فرجعَ إلى مكّةَ وماتَ بها كافرًا[1].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٠١ ـ ٦٠٥)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٥٠ ـ ٦٥٣)، وفي «تاريخه» (٢/ ٤١٠ ـ ٤١٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٥٨ ـ ٥٩)، قال: حدثني الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش...، فذكره. قال ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٧٦): وهو مرسل جيد قوي الإسناد، وقد صرح فيه ابن إسحاق بالسماع.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٠٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٦٩) عن المفسرين واللفظ لهما.

قلت: وثمة أمران في هذا الخبر:

الأول: في قسمة الغنيمة في هذه القصة، فهذا ورد ضمن الخبر من رواية بعض آل عبدالله بن جحش: أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمسَ، وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير وقسم سائرها بين أصحابه.

ثم جاء بعد ذلك في آخر الخبر: قال ابن اسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن الله عز وجل قسم الفيء حين أحله فجعل أربعة خامس لمن أفاءه الله وخمساً إلى الله ورسوله، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير.

والثاني: ما جاء في هذا الخبر من أن القصة كانت في آخر يوم من جمادى ملتبساً بأول رجب له شاهد من حديث جندب بن عبد الله رواه أبو يعلى في «مسنده» (١٥٣)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٦٧٠)، وفيه: «فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا ذلك اليوم من رجب أو من جمادى...»، وإسناده حسن كما قال الحافظ في «العجاب في بيان الأسباب» (١/ ٥٣٩).

وآخر من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٥٧)، وفيه: «لقي واقد بنُ عبد الله عمرَو بنَ الحضرميّ في أول ليلة من رجب، وهو يرى أنه من جمادى، فقتله...». =

وأمَّا نوفلٌ فأقحَمَ يومَ الخندقِ فرسَه الخندقَ فوقعَ في الخندقِ مع فرسِه فتحطَّما، وطلبَ المشركون جيفَتَه بالثَّمنِ، فقال عليه السَّلامُ: «خُذوه فإنَّه خبيثُ الجيفةِ، خبيثُ الدِّيةِ»[(١)].

فقولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ أي: يسألُك الكفّارُ تعجُّبًا من هَتْكِ حُرمةِ الشَّهرِ الحرامِ.

وقيلَ: أي: يسألُكَ المُؤمنون: إمَّا أصحابُ السَّريّةِ، أو غيرُهم.

وقيلَ: أرادَ المُشركون بهذا السُّؤالِ أن يعلَمُوا أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ: هل يُجيزُ القتالَ في الأشهرِ الحرُمِ؟ حتَّى لو لم يُجِزْه اغترُّوه وعافَصُوه بالقتالِ، فنزلَتْ: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ أي: إنْ قاتلتُمونا فيه قاتلناكم فيه.

﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ خفضٌ على البدلِ، ويُسمَّى: بدلَ الاشتمالِ، كقولك: «أعجبَني زيدٌ علمُه»، و«سُرِقَ زيدٌ مالُه»، ويُسمَّى بدلَ الاشتمالِ لأنَّ السُّؤالَ اشتملَ على الشَّهرِ وعلى القتالِ؛ فإنَّ سُؤالَهم عن الشَّهرِ إنَّما كانَ لأجلِ القتالِ.

وقيلَ: أي: (يسألُونكَ عن الشَّهرِ الحرامِ وعن قتالٍ فيه)، وهكذا قرأ ابنُ مسعودٍ[(٢)].

= وهذا موافق لرواية الطبري في «التفسير» عن ابن إسحاق، لكن الذي جاء في «السيرة النبوية» و«تاريخ الطبري» و«سنن البيهقي» أن ذلك كان في آخر يوم من رجب ملتبساً مع أول شعبان، ومثله في «البداية والنهاية» (٥/ ٣٨ ـ ٣٩) عن ابن إسحاق.

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٤١٦)، ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٣٠) من حديث ابن عباس دون تسمية القتيل. وفيه الحجاج ـ وهو ابن أرطاة ـ مدلس وقد رواه بالعنعنة.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٤٢٤)،و«البسيط» (٤/ ١٣٨).

ووردت القراءة عن ابن مسعود في «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤١)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٦٤٨)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص: ١٧٤)، و«إعراب القرآن» (١/ ١٠٩)، و«المحرر الوجيز» =

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: يسألُونكَ عن قتالٍ في الشَّهرِ الحرامِ.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾؛ أي: أمرٌ مُستنكَرٌ؛ لأنَّ تحريمَ القتالِ في الشَّهرِ الحرامِ كان ثابتًا يومئذٍ؛ إذ كانَ الابتداءُ من المسلمينَ، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ... أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

ومَن قال: معناه: قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيلِ الله وكفرٌ به، ثمَّ قالَ: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **فهو مُخطِئٌ**؛ لأنَّ القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ ليس كفرًا بإجماعِ الأمَّةِ، إلا أن تقولَ: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ تبتدِئَ: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ... وَإِخْرَاجُ﴾ وإخراجُ أهلِ المسجدِ ﴿أَكْبَرُ﴾.

وقيل: أن يقعَ الصدُّ [مرتفعاً] بالابتداء وخبرُه محذوف؛ أي: قتالٌ فيه كبيرٌ، وصدٌّ عن سبيلِ الله كبيرٌ، وكفرٌ به كبيرٌ، وإخراجُ أهلِ المسجدِ أكبرُ[1]. **وهذا أيضًا غيرُ سديدٍ**؛ لأنَّ إخراجَ أهلِ المسجدِ منه ليس بأكبرَ منَ الكفرِ بالله بالإجماعِ.

والصَّدُّ: الحبسُ، يُقالُ: صُدَّ عن كذا؛ أي: حُبِسَ، وصَدَّه عن كذا؛ أي: حَبَسه.

وعنى به منعَ رسولِ الله منَ البيتِ عامَ الحديبيةِ، أو إحواجَهم النَّبيَّ عليه السَّلامُ إلى الخروجِ من مكَّةَ؛ إذ منعُوه عن عبادةِ الله بمكَّةَ جهارًا، أو عنى مَنْعَ المُسلمينَ من المُهاجرةِ إلى المدينةِ.

وهذا كلُّه إظهارُ عذرِ عبدِ الله بنِ جحشٍ؛ أي: اشتبَهَ عليه الحالُ فظنَّ أنَّه في جمادى الآخرةِ، فليس للمُشركينَ تعييرُهم؛ فإنَّ هذا أمرٌ يتطرَّقُ إليه النَّسخُ والتَّغييرُ، وما ارتكبَه الكفَّارُ منَ الكفرِ لا يُتصَوَّرُ أن يكونَ مأمورًا به قطُّ.

= (١/ ٢٩٠)، لكن وقعت عندهم دون واو؛ أي: (عن قتال فيه).

(١) من قوله: «وقيل: أن يقع الصد...» إلى هنا من (أ). وما بين معكوفتين من «البسيط» (٤/ ١٤٠).

﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾؛ أي: بالله.

وقولُه: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطفٌ على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدٌّ عن سبيلِ الله والمسجدِ الحرامِ(١).

وقيلَ: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ﴾ خفضٌ بواوِ القسمِ.

ولا يجوزُ أن يُقالَ: أرادَ وكفرٌ به وبالمسجدِ الحرامِ؛ لأنَّه لا يُعطَفُ على المُضمَرِ المجرورِ إلا بإعادةِ الجارِّ، تقولُ: «مررتُ به وبزيدٍ»، ولا تقولُ: «مررتُ به وزيدٍ»، وإنْ أُطلِقَ فلا يُعَدُّ فصيحًا، ويُستقصَى هذا في قولِه: ﴿تَسَاءَلون به والأرحامِ﴾ [النساء: ١] عندَ مَن خفضَ(٢).

---

(١) كذا جزم المؤلف بهذا الإعراب، ومثله فعل الواحدي في «البسيط» (٤/ ١٤١)، والزمخشري في «الكشاف» (١/ ٤٨٧)، ونسبه الكرماني في «لباب التفاسير» (١/ ٣٧٩) للجمهور، وقد بين الواحدي والزمخشري وكذا المصنف فيما سيأتي العلة في هذا الجزم بامتناع العطفِ على الضميرِ المجرورِ في ﴿بِهِۦ﴾ إلّا بإعادة الجارِّ، هو قول البصريين كما ذكر الكرماني، وهذا الذي لم يجوزوه هو الذي اختاره أبو حيان، بل وجعله هو المتعيِّن، فقال بعد أن ساق الشواهد الكثيرة على جواز العطف على الضمير المجرور بلا إعادة الجار: وإذا تقرَّر أن العطف بغير إعادة الجار ثابتٌ في كلام العرب في نثرها ونظمها، كان تخريج عطف ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ على الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ أرجحَ، بل هو متعيِّن؛ لأن رصفَ الكلام وفصاحةَ التركيب تقتضي ذلك. انظر: «البحر» (٤/ ١١٤).

وكذا استبعده الكرماني في «غرائب التفسير» (١/ ٢١٢)، لأنه - كما قال - لا يُحال بين صلة المصدر وما يعطف عليها، وقد حيل هاهنا بقوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾.

(٢) وهي قراءة حمزة من السبعة وستأتي في مكانها، ويأتي زيادة تفصيل ثمة في هذه المسألة إن شاء الله.

ومَن قال: «أرادَ: وكفرٌ به وبالمسجدِ الحرامِ» فالكفرُ[1] بالمسجدِ: منعُ النّاسِ منَ الطَّوافِ ومنَ الصَّلاةِ في المسجدِ.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: أهلِ المسجدِ ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ وأكثرُ وِزرًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وجعَلَ المسلمينَ أهلَ المسجدِ الحرامِ؛ لأنَّهم القائمون فيه بما يجبُ منَ الشَّرائعِ، دونَ الكفّارِ الذين غيَّروا ملّةَ إبراهيمَ وعبدوا الأصنامَ.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾؛ أي: الشِّركُ أكبرُ من قتلِ ابنِ الحضرميِّ.

ولـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ كتبَ ابنُ جحشٍ إلى مُسلمي مكَّةَ: إذا عيَّركم المشركون بالقتالِ في الشَّهرِ الحرامِ فعيِّروهم بالكفرِ، وإخراجِ رسولِ الله ﷺ من مكّةَ، ومنعِ المؤمنين عن البيتِ، وذلك لأنَّ رأسَ المعاصي هو الكفرُ[2].

والذَّنبُ لا يكونُ حجّةَ الذَّنبِ، ولكنَّ معنى الكلامِ: إنْ عِبْتُم القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ فعِيْبوا أيضًا ما أنتم عليه منَ الكفرِ ولا تنسَوه.

وقيلَ: أرادَ بالفتنةِ تعذيبَهم المسلمين بأنواعِ العذابِ، كما فعلوا ببلالٍ وصُهَيبٍ وعمَّارٍ.

والفتنةُ: الامتحانُ، من فتنْتُ الذَّهبَ بالنّارِ، وليُعلَمَ أنَّ الانكفافَ عن القتالِ في ابتداءِ الإسلامِ كان عادةً لأهلِ الوقتِ، وما ثبتَ فيه شرعٌ، وسكوتُ النَّبيِّ عليه

---

(١) في (أ): «قال كفر».

(٢) ذكره دون راو ولا سند الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٥)، والواحدي في «البسيط» (٣/ ١٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٢٤٨). ولعلهم أخذوه مما ذكره مقاتل في «تفسيره» (١/ ١٨٧) بلفظ: فكتب عَبْد الله بن جحش إلى مسلمي أَهْل مكة بهذه الآية، وكتب إليهم: إن عيَّروكم فعيِّروهم بما صنعوا.

السَّلامُ ربَّما كانَ لاشتغالِه بتقريرِ أمورٍ أُخرَ منَ الشَّرعِ، وما سكتَ عنه لعُذرٍ لا يُصيِّرُ ما كان عليه الكفَّارُ شرعًا، فإيقاعُ القتلِ في الشَّهرِ الحرامِ كان أمرًا هيِّنًا.

وأقصى ما في البابِ: أنَّه ثبتَ منعٌ شرعيٌّ عن القتالِ في الشَّهرِ الحرامِ، فهو الآنَ منسوخٌ، فتخطي ما يقبلُ النَّسخَ أدخلُ في بابِ العذرِ من التزامِ الكفرِ.

والصَّحيحُ: أنَّ القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ لا يحرمُ الآنَ، قالَ الله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وفيه تشبيثٌ[1] بخلافٍ.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ يعني: مُشركي مكّةَ، يُقالُ: «ما زالَ يفعلُ كذا»، و«لا يزالُ»، وهو فعلٌ ليس له مصدرٌ ولا فاعلٌ ولا مفعولٌ، وهو مثلُ «عسى»؛ إذ لا مصدرَ له ولا مُضارعَ، وكذلك: «ذَرْ» و«هلُمَّ» و«هاكَ» و«هاتِ» و«تعالَ»، فقولُك: «ما زالَ يفعلُ»؛ أي: لـم يترُكه، ولـم يزُلْ عنه، ومثلُه: «ما برِحَ».

﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾؛ أي: إلى أن يرُدُّوكم، أو: ليرُدُّوكم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، وهذا تنبيهٌ على أنَّ المؤمنين لا يرتدُّون بالكُلِّيةِ.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ أظهرَ التَّضعيفَ مع الجزمِ ليكونَ الحرفَ الثانيَ، وهو جائزٌ، والإدغامُ جائزٌ.

﴿فَيَمُتْ﴾ جزمٌ بالعطفِ على ﴿يَرْتَدِدْ﴾ والجوابُ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ أي: بطلَتْ، يُقالُ: «حبِطَ عملُه يحبَطُ حُبوطًا، وأحبَطَه الله إحباطًا»، وأصلُه: الـحَبَطُ، وهو فسادٌ يلحقُ المواشيَ في بطونِها لأكلِ الكلأ حتَّى تنتفِخَ أجوافُها.

واعلَمْ أنَّ مَن ارتدَّ فإن عادَ إلى الإسلامِ لـم يحبَطْ عملُه ولا حجُّه الذي فرغَ منه، بلى إن ماتَ على الرِّدّةِ فحينئذٍ تحبَطُ أعمالُه.

---

(١) في (أ): «تسبيب».

وقيلَ: أرادَ: مَن ارتدَّ التحقَ بالكفَّارِ وأعمالِـهم، فمُكايدةُ المسلمينَ مُحبِطةٌ؛ لأنَّ الله يُعِزُّ دينَه.

﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: في الآخرةِ، والصُّحبةُ تُشيرُ إلى اللُّزوم؛ أي: هم مُخلَّدون في النّارِ.

* * *

(٢١٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ قيلَ: لـمَّا نزلَت الآيةُ وقبضَ رسولُ الله العيرَ وفادى الأسيرَين وفرَّجَ عن أهلِ تلك السَّريّةِ، قالوا: يا نبيَّ الله، أنطمعُ أن تكونَ غزوةً نُثابُ عليها؟ فأنزلَ الله هذه الآيةَ، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[1].

﴿هَاجَرُواْ﴾؛ أي: فارَقُوا أوطانَهم، والهجرُ: ضدُّ الوصلِ، والـهُجرُ: القبيحُ منَ الكلامِ؛ لأنَّه مـمَّا ينبَغي أن يُهجَرَ، والهاجرةُ: اسمٌ للوقتِ الذي يُهجَرُ فيه العملُ.

﴿وَجَٰهَدُواْ﴾؛ أي: قاسَوا المشقَّةَ في قتالِ الأعداءِ، والـجُهْدُ: المشقَّةُ، ومنه: الجَهادُ: الأرضُ الصُّلبةُ.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في نُصرةِ دينِه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ﴾؛ أي: يُؤمِّلون، وغايةُ العبدِ الأملُ؛ إذ لا قطعَ بحُسنِ العاقبةِ.

* * *

(١) قطعة من خبر عروة الطويل في سرية عبد الله بن جحش، وقد تقدم قريباً عند قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

(٢١٩) - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ قال عمرُ ومعاذٌ ونفرٌ منَ الأنصارِ: يا رسولَ الله، أفتِنا في الخمرِ والميسرِ؛ فإنَّها مَذْهَبةٌ للعقلِ، مَسْلبةٌ للمالِ، وكانت الخمرُ حلالًا في الابتداءِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ[١]، وقطعَ الله العبادَ عنهما على التَّدريجِ، وهذه أوَّلُ آيةٍ أُنزلَتْ في الخمرِ.

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ ثمَّ لمَّا مَرَنتِ النُّفوسُ على هذا حُرِّمَ شربُ الخمرِ إذا أرادوا القُربَ منَ الصَّلاةِ، فلمَّا مُرِّنوا عليه نزلَ التَّحريمُ العامُّ وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وهذا استبطاءٌ ووعيدٌ.

وسُمِّيت الخمرُ خمرًا لسترِها العقلَ، واختِمارُها: إدراكُها، ومُخمِّرُها مُتَّخِذُها، وخُمْرَتُها: الخُمارُ[٢]، وفي الخبرِ: «خمِّروا آنيتكُم»[٣]، ومنه: «العَوانُ لا تُعَلَّمُ

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٤٢٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧١)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٢٤٩).

ويشهد له ما رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠) والإمام أحمد في «المسند» (٣٧٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٨٥)، والضياء في «المختارة» (٢٥٦)، من حديث عمر رضي الله عنه، وإسناده صحيح. وسيأتي لفظه قريباً.

(٢) أي: خُمْرتُها: ما غَشِي المخمورَ من الخُمَارِ والسُّكْر في قلبه. انظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ١٦٠).

(٣) رواه البخاري (٣٣١٦)، ومسلم (٢٠١٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الخِمْرةَ»[1] من اختمارِ المرأةِ بخمارِها، ومنه: «خامِري أمَّ عامرٍ»[2]؛ أي: ادخُلي الخَمَرَ واستَتري.

وقيلَ: سُمِّيت الخمرَ لأنَّها تُغطَّى حتَّى تُدرِكَ.

وقيلَ: لأنَّها تُخامِرُ العقلَ وتُخالِطُه، فالأصلُ: السَّترُ.

وعند أبي حنيفةَ: الخمرُ ما اعتُصِرَ منَ الحَبَلَةِ والنَّخلةِ فغَلَى بطبعِه دونَ عملٍ للنَّارِ فيه.

وعند الشّافعيِّ ومالكٍ: الخمرُ كلُّ شرابٍ مُسكرٍ، سواءٌ كان عصيرًا أو نقيعًا، وسواءٌ كان نِيْئًا أو مطبوخًا.

---

(١) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٠٨)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٥٣)، و«الصحاح» (مادة: خمر)، و«جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (٢/ ٣٨)، و«الأمثال» للهاشمي (ص: ٨٩)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٩). قال العسكري: يُضْرب مثلاً للعالِم بالأمر المجرِّب له، والعوان: الثَّيِّب، وقيل: العوان بنت الثَّلاثين، وقد عونت تعويناً، والخِمْرة مثل الجِلْسةِ والقِعدة؛ أي: هي عالمة بالاختمار ولا حاجة بها إلى تعلُّمه.

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١٢٦)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٣٤)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٦٦٩)، و«الصحاح» (مادة: خمر)، و«جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (١/ ٤١٦)، و«الأمثال» للهاشمي (ص: ١٣٥)، و«البسيط» للواحدي (٤/ ١٤٨).

قال أبو عبيد: هي الضبع يشبه بها الأحمق.

وقال ابن قتيبة: يُقَال للضبع اذا دخل عليها الصَّائِد: «خامري أم عَامر، أبشري بجراد عظال وكمر رجال» فتقر وتسكن حَتَّى يَدخل عليها فيربط يديها ورجليها ويكمعها.

وقال العسكري: يضْرب مثلاً للأحمق يجيء بالباطل والكذب الذي لا يخفى بُطلانه على أحد، ومعنى «خامري»: اثبتي فِي خَمَرِك، يَعْنِي: وجارها.

وقال الواحدي: والخَمَرَ: ما واراك من شجرٍ وغيره من وهْدَةٍ وأَكَمَةٍ.

قال الزَّجَّاجُ: إنَّما ذُكِرَ في بابِ القمارِ الميسرُ وهو قمارٌ في الجُزُرِ(١)، ثمَّ حُرِّمَ كلُّ القمارِ، فكذا كلُّ ما عَمِلَ عَمَلَ الخمرِ فهو خمرٌ، ويُقالُ لكلِّ شاربٍ غلبَه بخارُ شربَ المُسكرَ أيَّ مسكرٍ كانَ: مخمورٌ، وبه خُمارٌ(٢).

وفي الخبرِ: «إنَّ منَ التَّمرِ لخمرًا، وإنَّ منَ العنبِ لخمرًا، وإنَّ منَ الزَّبيبِ لخمرًا، وإنَّ منَ الحنطةِ لخمرًا، وإنَّ منَ الشَّعيرِ لخمرًا، وإنَّ منَ الذُّرةِ لخمرًا، وأنا أنهاكم عن كلِّ مُسكرٍ»(٣).

والميسرُ: القمارُ، وقال ابنُ عبّاسٍ: كان الرَّجلُ في الجاهليَّةِ يُخاطِرُ الرَّجلَ على أهلِه ومالِه فأيُّهما قمَرَ صاحبَه ذهبَ بمالِه، فنزلتِ الآيةُ(٤).

وقيلَ: الميسرُ إنَّما كان في الجُزُرِ كما سنذكرُ إن شاءَ الله، وهو «مَفْعِلٌ» من يسَرَ لي هذا الشَّيءُ يَيْسِرُ يَسْرًا ومَيسِرًا، على وزنِ ضرَبَ يضرِبُ، والياسرُ:

(١) جمع الجزور وهو البعير، وكانت العربُ تنحرُ جَزورًا وتجعله أقسامًا يتقامرون عليها، وهو ضربُ القداحِ على أجزاءِ الجزورِ قمارًا، والأقداح عشرةٌ؛ سبعةٌ منها عليها حظوظٌ؛ وثلاثةٌ أغفالٌ لا نصيبَ لها، ومنافعُ الميسرِ: التَّوسعةُ على ذوي الحاجة؛ لأنَّ مَنْ قَمَرَ - أي: غلب في القمار - لم يكن يأكلُ من الجزور، بل كان يفرِّقُه في المحتاجين، ولهذا كانوا يسمُّون مَن لا يَيْسِرُ - أي: لا يأتي بقدحِه للقمار - بَرَمًا، ويذمُّونه ويَهجونَه. انظر: «لباب التفاسير» لتاج القراء الكرماني (١/ ٣٨٢).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٩١)، و«البسيط» للواحدي (٤/ ١٥٠) وعنه نقل المصنف.

(٣) رواه أبو داود (٣٦٧٦)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٤٠٧)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٤) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (٤٥١)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (١/ ٦٠٦)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٨٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٥٤٤)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ١٥٠).

الواجبُ، وقيلَ للقمارِ: ميسِرٌ، وللمُقامرِ: ياسرٌ ويَسَرٌ، ويسَرَ فلانٌ فهو ياسرٌ؛ أي: جاء بقدحِه للقمارِ.

وقيلَ: الميسِرُ منَ اليُسرِ، وهو تسهُّلُ الشَّيءِ، وذلك أنَّهم كانوا يشتَركون في الجزورِ ليسهُلَ أمرُه، وكانوا يقولون: يسِّروا لنا ثمنَ الجزورِ.

قالوا: والميسِرُ اسمٌ للجزورِ نفسِه[1]؛ لأنَّه يُجزَّأُ، ويُقالُ للمُتَقامرينَ على الجزورِ: ياسرون؛ لأنَّهم سببُ قسمةِ الجزورِ، وضربُ القداحِ على أجزاءِ الجزورِ هو القمارُ المُحرَّمُ.

والقداحُ عشرةٌ لسبعةٍ منها حظٌّ: الفَذُّ والتَّوأَمُ والرَّقيبُ والحِلْسُ والنَّافِسُ والمُسبِلُ والمُعلَّى، والأغفالُ التي لا حظَّ لها ثلاثةٌ: المنيحُ والسَّفيحُ والوَغْدُ، ويُسمَّى الرَّقيبُ ضريبًا أيضًا، ويُسمَّى المُسبِلُ: مُصفَّحًا، فللفَذِّ نصيبٌ، وللتَّوأمِ نصيبانِ، وللرَّقيبِ ثلاثةُ أنصباءَ، وللحِلْسِ أربعةُ أنصباءَ، وللنَّافسِ خمسةٌ، وللمُسبِلِ ستَّةٌ، وللمُعلَّى سبعةٌ، وعلى كلِّ قدحٍ علامةٌ تدلُّ على حظِّه، وربَّما تكونُ الأيسارُ سبعةً على عددِ القداحِ، فيأخذُ كلُّ رجلٍ قدحًا، وربَّما كانوا أقلَّ من سبعةٍ فيأخذُ الرَّجلُ القدحَين والثَّلاثةَ، فيكونُ له حظُّ الفائزِ منها، ويكونُ عليه غرمُ الخائبِ، فمَن أخذَ الفذَّ فإنْ فازَ أخذَ حظًّا واحدًا من أجزاءِ الجزورِ، وإنْ خابَ غرِمَ حظًّا واحدًا، ثمَّ هكذا في القداحِ إلى المُعلَّى.

ويشتَرون النَّاقةَ إذا أرادوا أن يَيْسِرُوا بثمنٍ معلومٍ ثمَّ يضربونَ بالقداحِ ليعلَمُوا على مَن يجبُ الثَّمنُ، ثمَّ ينحرونَ النّاقةَ ويقتَسِمُونَها عشرةَ أقسامٍ، إحدَى الورِكَينِ جزءٌ، والآخرُ جزءٌ، والمَلْحاءُ ـ على وزنِ العَضْباءِ ـ جزءٌ، وهي وسطُ الظَّهرِ بين

---

(١) في (أ): «للجزور وحده بنفسه».

الكاهلِ والعجُزِ، والكتِفانِ جزءانِ، ويُقالُ لهما: أبناءُ ملاطٍ، وقيلَ: أبناءُ ملاطِ العضُدُ، والذِّراعُ والكتفانِ جزءانِ، والعضُدُ مع الذِّراعِ أيضًا جُزءانِ، والفخِذانِ جُزءانِ، والرَّقبةُ جزءٌ، والطَّفاطِفُ جزءٌ ـ جمعُ طَفْطَفةٍ بالفتحِ: الخاصِرةُ ـ تُوزَّعُ على الأجزاءِ العشرةِ، فإنْ بقيَ فضلٌ فهو الرِّيمُ، والرِّيمُ اسمٌ للعِلاوةِ فوقَ الحملِ، والرِّيمُ للجازرِ، وقد يُجعَلُ لبائعِ الجزورِ الرأسُ والأطرافُ، وربَّما يتقامَرون على عددٍ منَ الإبلِ، فلصاحبِ الفذِّ بعيرٌ، وللتَّوأمِ بعيرانِ، وهكذا إلى المُعلَّى.

والإفاضةُ: الدَّفعُ بالقِداحِ ليخرجَ منها قِدْحٌ، فإن خرجَ واحدٌ منَ الثَّلاثةِ الأغفالِ ردَّه الذي يأخذُ القدحَ ويستخرجُه، ويُسمَّى الرَّقيبَ، ويقولُ للَّذي في يده القِدَاحُ في سُلْفةٍ ـ تُسمَّى: الرَّبابةَ بفتحِ الرَّاءِ وضمِّها ـ: أعدِ الجلجلةَ والإفاضةَ، فيعيدُ.

وإنْ كانَ الذي خرجَ من الرَّبابةِ الفذَّ أخذَ صاحبُه عُشرًا من أعشارِ الجزورِ، وسلِمَ منَ الغُرمِ واعتزلَ القومَ، وكذلك كلُّ خارجٍ منها إلى المُعلَّى، وإن خرَجَ في الأوَّلِ المُعلَّى أخذ صاحبُه سبعةَ أسهُمٍ واعتزلَ القومَ، ثمَّ تُعادُ الجلجلةُ.

فإنْ خرجَ مثلًا الرَّقيبُ أخذَ ثلاثةَ أسهمٍ واعتزلَ، فإذا خرجَ في الأوَّلِ الفذُّ مثلًا ثمَّ خرجَ التَّوأمُ ثمَّ خرجَ المُعلَّى فلا يبقى من أعشارِ الجزورِ شيءٌ، فيقطعُ الإفاضةَ ويصيرُ ثمنُ الجزورِ على الأربعةِ الذين لم تخرُجْ قداحُهم، وهم أصحابُ الرَّقيبِ والحِلْسِ والنَّافسِ والمُسبلِ.

فإنْ خرَجَ في أوَّلِ الإفاضةِ المُعلَّى ثمَّ خرجَ المُسبِلُ، فحظُّ المُعلَّى سبعةٌ، وللمُسبلِ ستّةٌ، فصاحبُ المُعلَّى يأخذُ سبعةَ أعشارِ الجزورِ، وصاحبُ المُسبلِ يأخذُ ثلاثةَ أعشارٍ، وغرِمَ له القومُ الذين لم تخرُجْ سهامُهم ثلاثةَ أعشارِ الجزورِ مع ثمنِ الجزورِ.

وكانت لهم في الميسرِ عاداتٌ أُخَرُ تقرُبُ مـمَّا ذكَرْنا.

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: إثمَ المُخاصمةِ والمُشاتَـمةِ وقولِ الفُحشِ والزُّورِ، وزوالَ العقلِ، وتعوُّقَ الصَّلاةِ وذكرِ الله، ثمَّ يصيرُ الشّاربُ ضُحْكَةَ العقلاءِ، فيلعبُ ببولِه وعَذِرَتِه ويمسحُ بهما وجهَه.

والقمارُ يُورِثُ العداوةَ؛ لأنَّه أكلُ مالِ الغيرِ بالباطلِ من غيرِ جزاءٍ يُؤخَذُ عليه.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أمَّا في الخمرِ فكانوا يُغالونَ بها إذا جلَبُوها منَ النَّواحي، وكانوا لا يَرونَ المُماكسةَ، فيشتري طالبُ الخمرِ الخمرَ بالثَّمنِ الغالي، ومن منافعِها أنَّها تهضمُ الطَّعامَ، وتُقوِّي الضَّعيفَ، وتُعينُ على الباءةِ، وتُسَخِّي البخيلَ، وتُشَجِّعُ الجبانَ، وتُصَفِّي اللَّونَ، وتَنْفي العِيَّ والحَصَرَ، وتُطيِّبُ النَّفسَ(١).

ومنفعةُ الميسرِ: التَّوسعةُ على المحاويجِ؛ فإنَّ مَن قمَرَ منهم كان لا يأكلُ منَ الجزورِ بل كان يُفرِّقُه في المُحتاجين، وربَّما قمَرَ الواحدُ منهم في مجلسٍ واحدٍ مئةَ بعيرٍ وتفضَّلُ به على المساكينِ.

وقيلَ: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بعد التَّحريمِ، ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ قبلَ التَّحريمِ.

ثمَّ قيلَ: في هذه الآيةِ ذمُّ الخمرِ؛ فأمَّا التَّحريمُ فعُلِمَ بآيةٍ أخرى.

وقال قومٌ: وقعَ التَّحريمُ بهذه الآيةِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ثمَّ قال هاهنا: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾.

ورُوِيَ أنَّ عمرَ قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شافيًا، فنزلَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، فقال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شافيًا، فنزلَ: ﴿لَا تَقْرَبُوا

---

(١) في (أ): «النفوس».

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فقال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شافيًا، فنزلَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾، إلى قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، فقال عمرُ: انتهَينا يا ربِّ[1].

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ: ﴿قُلْ فيهما إثمٌ كثيرٌ﴾ بالثّاءِ، والباقونَ بالباءِ[2]، وأجمعوا على الباءِ في قولِه: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ السُّؤالُ الأوَّلُ كان سؤالًا عن النَّفقةِ: إلى مَن تُصرَفُ؟ ودلَّ عليه الجوابُ، والجوابُ يخرجُ على وَفقِ السُّؤالِ، وهذا السُّؤالُ الثّاني فعن قَدْرِ الإنفاقِ، وهو في شأنِ عمرِو بنِ الجموحِ؛ فإنَّه لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿وما أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ قال: كم أُنفِقُ؟ فنزلَ: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[3].

والعفوُ: ما سهُلَ وتيسَّرَ وفضَلَ ولـم يَشُقَّ على القلبِ إخراجُه.

وقيلَ: العفوُ: الزِّيادةُ، ومنه قولُه: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: ٩٥]؛ أي: زادوا، يعني: الزِّيادةَ على الكفايةِ، وما لا يَشُقُّ إخراجُه، والعفوُ عن الذَّنبِ يرجعُ أيضًا إلى تسهيلِ الأمرِ وتيسيرِه، ويُقالُ: أعطاه كذا عفوًا صفوًا؛ أي: سهُلَ عليه ذلك.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: العفوُ: ما فضَلَ منَ المالِ عن العيالِ[4].

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠) والإمام أحمد في «المسند» (٣٧٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٨٥)، والضياء في «المختارة» (٢٥٦)، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٢)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

(٣) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ١٨٣)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ١٥٥)، و«الوسيط» (١/ ٣٢٤)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ١٨٥) وعزاه لابن عباس. وانظر: «العجاب» لابن حجر (١/ ٥٣٤).

(٤) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٣٦٥ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٨٦)، وابن أبي =

وقال في روايةٍ: ما لا يتبيَّنُ في أموالِكم[1].

وقيلَ: هو الصَّدقةُ عن ظهرِ غنًى.

وقيلَ: كان أربابُ الكسبِ يأخُذونَ من أكسابِهم ما يكفيهم في عامِهم ويُنفِقونَ الباقي، إلى أن فُرِضَتِ الزَّكاةُ فنُسخَتْ هذه الآيةُ.

وقيلَ: هذه الآيةُ في صدقةِ التَّطوُّعِ، فهي محكمةٌ غيرُ منسوخةٍ.

قُرِئَ ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ بالنَّصبِ؛ أي: قل أنفِقُوا العفوَ، وقُرِئَ بالرَّفعِ[2]؛ أي: ما الذي تُنفِقون؟ قل: العفوُ؛ أي: قل: هو العفوُ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ أي: مثلَ الذي بيَّنُ في الإنفاقِ يُبيِّنُ لكم الآياتِ.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ولم يقُلْ: «كذلكم»؛ لأنَّه أرادَ القَبيلَ؛ أي: كذلك أيُّها القبيلُ، ونظيرُه: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، والأصلُ: «ذلكُنَّ» إلّا أنَّ الجماعةَ في معنى القبيلِ.

وقيلَ: أي: كذلك أيُّها النَّبيُّ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: لتتفكَّروا في أمرِ الدُّنيا وأمرِ الآخرةِ؛ إذ الآخرةُ دارُ عيانٍ، ولا حاجةَ إلى الفِكرِ ثَمَّ والاستدلالِ، ومَن تفكَّرَ اليومَ في أمرِ الدُّنيا والآخرةِ زهدَ في الدُّنيا ورغبَ في الآخرةِ.

= حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٩٣)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٨٩)، من طريق مقسم عن ابن عباس.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٨٧ ـ ٦٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٩٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١٨٨)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) قرأ بها أبو عمرو وباقي السبعة بالنصب. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٢)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

وقيلَ: أي: كذلك يُبيِّنُ الله لكم الآياتِ في أمرِ الدُّنيا والآخرةِ لتتفكَّروا، فقولُه: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ من صلةِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾، وعلى الأوَّلِ من صلةِ ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾.

***

(٢٢٠) - ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ عند بعضِ الكوفيِّين، هذا مُفتتَحُ الآيةِ، وإن اتَّصلَ بما تقدَّمَ.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ اقترنَ بذكرِ الأموالِ الأمرُ بحفظِ أموالِ اليتامى عليهم، قال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا نزلَ قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وقولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ عزَلَ مَن كانَ عندَه مالُ يتيمٍ طعامَه من طعامِه، وشرابَه من شرابِه، وجعلَ ما يفضُلُ من طعامِ اليتيمِ يحبسُه له حتَّى يأكلَه أو يفسُدَ، واشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا لرسولِ الله ﷺ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، فقال: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، فخلَطُوا أموالَـهم بأموالِـهم(١).

وكانوا في الابتداءِ يرتفِقُ مَن معَه يتيمٌ بمالِه، وربَّما كان يُزوِّجُ اليتيمةَ من ابنِه لئلَّا يفوتَه المالُ، وفيه نزلَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧].

وقال في الجوابِ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾، فدلَّ هذا على أنَّ السُّؤالَ - وإنْ وردَ مُطلقًا في الكتابِ - كان سؤالًا عن مُخالطتِهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٠٠٠)، وأبو داود (٢٨٧١)، والنسائي (٣٦٦٩)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٦٩٨ - ٦٩٩).

والجملةُ: أنَّهم تبسَّطُوا في أموالِ اليتامى فنُهوا، فتناهَوا في الاحترازِ حتَّى عادَ ضررُه على اليتامى، فأُمِرُوا بالاعتدالِ والاقتصادِ.

وقيلَ: كانت العربُ تتشاءَمُ بمُلابسةِ أموالِ اليتامى ومُؤاكلتِهم، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾؛ أي: استثمارُ أموالِـهم وحفظُها من غيرِ أجرةٍ وعوضٍ خيرٌ، وإن خلطتُم مالَكم بمالِـهم وانتفعتُم بقَدْرِ الأجرةِ فلا بأسَ، فهم إخوانُكم، وهذه المُخالطةُ كخلطِ المثليِّ بالمثليِّ، كالتَّمرِ بالتَّمرِ، وكما لو كان لليتيمِ ناضِحٌ وللقيِّمِ ناضِحٌ، وعسُرَ إفرادُ كلِّ واحدٍ بالعلفِ، وكذلك عسُرَ إفرادُ الطَّبيخِ، فالمُخالطةُ جائزةٌ بشرطِ أن يُعلَمَ أنَّ الذي يذهبُ من مالِ اليتيمِ هو الذي يذهبُ لو أفردَه في المعيشةِ، أو يُعلَمَ أنَّ ما يرجعُ إلى هذا القيِّمِ بأمرِ اليتيمِ بقَدْرِ أجرِ مثلِه.

قال أبو عبيدٍ: أصلُ الشَّاهدِ في الأسفارِ هذه الآيةِ(٢).

وقيلَ: معنى الآيةِ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ﴾: الواجبُ إصلاحُ أموالِـهم، إمَّا بإفرادِ أموالِـهم، وإمَّا بخلطِ أموالِـهم بأموالِكم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٧٠٣ ـ ٧٠٤) عن السدي والضحاك.

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (ص: ٢٤٠)، وفيه: ومخالطة اليتامى: أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ولا يجد بدًّا من خلطه بعياله، فيأخذ من مال اليتيم قدر ما يرى أنه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾.

قال أبو عبيد: وهذا عندي أصل للشاهد الذي تفعله الرفاق في الأسفار، ألا ترى أنهم يتخارجون النفقات بالسوية وقد يتباينون في قلة المطعم وكثرته وليس كل مَن قل طعامه تطيبُ نفسُه بالتفضل على رفيقه، فلما جاء هذا في أموال اليتامى واسعاً كان في غيرهم بحمد الله ونعمته أوسع.

وقيلَ: أرادَ المُخالطةَ بالمُناكَحةِ إذا كان فيها غبطةٌ لليتامَى.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾؛ أي: فهم إخوانُكم، والإخوانُ يتعاضَدونَ ويُصيبُ بعضُهم من مالِ بعضٍ، وقُرِئَ في الشَّواذِّ: (فإخوانَكم) بالنَّصبِ[1]؛ أي: فإخوانَكم تُخالِطون.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾؛ أي: المُفسِدَ لأموالِ الأيتامِ، فاتَّقُوا اللهَ؛ أي: راعُوا أمرَه.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ الإعناتُ: الحملُ على المشقَّةِ، يُقالُ: أعنَتَه؛ أي: شَقَّ عليه، وتعنَّتَه؛ أي: لبَّسَ عليه في سُؤالِه، وعَنِتَ العظمُ المجبورُ؛ أي: انكسرَ بعدَ الجبرِ، وأكَمةٌ عَنوتٌ؛ أي: شاقَّةٌ؛ أي: لو شاء الله لكلَّفكم ما يشقُّ عليكم ولأثَّمَكُم في مُخالطتِهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: لا يمتنعُ عليه شيءٌ ﴿حَكِيمٌ﴾ يتصرَّفُ في ملكِه بما يُريدُ.

* * *

---

(١) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٨) عن أبي مجلز واسمه: لاحق بن حميد. ولم يعرفها الفراء والطبري والزجاج، وإنما أجازوها لغة، فقال الفراء: «ولو نصبته كان صواباً يريد: فإخوانكم تخالطون»، وقال الطبري: «النصب جائز في العربية، فأما في القراءة فإنما منعناه لإجماع القرأة على رفعه...». وقال الزجاج: «والنصب جائز؛ أي: فإخوانكم تخالطون، ولا أعلم أحداً قرأ بها، فلا تقرأَنَّ بها إلا أن تثبت رواية صحيحة». انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤١)، و«تفسير الطبري» (٣/ ٧٠٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٩٤).

(٢٢١) ـ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لـمَّا أذِنَ في مُخالطةِ الأيتامِ، ومنَ المُخالطةِ النِّكاحُ؛ بيَّنَ أنَّ مُناكحةَ المُشركينَ لا تِصحُّ، ووصلَ به أمرَ الحيضِ؛ لأنَّهم كانوا يتناهَونَ في مُجانبةِ الحيضِ، وقد أمرَ الله العبدَ بالقصدِ والعدلِ في الإنفاقِ، وفي مُعاشرةِ اليتامى، ومُعاشرةِ الحيَّضِ.

وقال مُقاتلٌ: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي مَرْثدٍ الغَنَويِّ ـ وقيلَ: في مَرثدِ بنِ أبي مَرثدٍ ـ استأذَنَ رسولَ الله ﷺ في التزوُّجِ بامرأةٍ مسكينةٍ من قُريشٍ كان لها حظٌّ منَ الجمالِ، يُقالُ لها: عَناقُ، وكانت مُشركةً، فنُهِيَ أبو مرثدٍ عن التزوُّجِ بها؛ لأنَّه كان مُسلمًا(١).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٩٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧٣)، عن مقاتل بن حيان. وذكر القصة مع زيادات فيها مقاتل بن سليمان أيضاً في «تفسيره» (١/ ١٩٠)، وفيه: «... فلقيَتْه عناقُ ـ وكان يصيب منها فِي الجاهليَّة ـ فقالت: أبا مَرْثَد، مَا لك فِيَّ حاجة؟ فَقَالَ: إن الله ـ عَزَّ وَجَلّ ـ قَدْ حرم الزنا...» الخبر،، ففي هذه الرواية أنها كانت خليلة له في الجاهلية وفيها أيضاً أنها لما أيست منه أنذرت به كفار مكة، وهذا يخالف ما في رواية ابن حيان من أنها كانت امرأة مسكينة. وأما كون صاحب القصة مرثد بن أبي مرثد فقد أورده الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧٣) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس بنحو رواية مقاتل بن سليمان لكن في تلك أنهم لحقوا به فلم يتركوه، وفي هذه أنهم تمكنوا منه وضربوه ضرباً شديداً ثم تركوه. وعلى كل فالكلبي متروك، وأبو صالح باذام ضعيف يرسل، ولم يسمع من ابن عباس، فالخبر واه، ومقاتل بن سليمان متروك أيضاً وروايته مرسلة، وخبر مقاتل بن حيان مرسل أيضاً، ولم نقف في هذه القصة على خبر متصل صحيح، وكون هذا سبب نزول هذه الآية ليس بصحيح كما ذكر الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨)، وإنما =

وقيلَ: نزلَتْ في عبدِ الله بنِ رواحةَ، كانت له أمةٌ سوداءُ فغضِبَ عليها يومًا ولطمَها، ثمَّ أخبرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بذلك، فقال: «ما هي يا عبدَ الله؟» قال: تصومُ وتُصلِّي وتُحسِنُ الوضوءَ وتشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنَّكَ رسولُ الله، فقال: «يا عبدَ الله، هذه مُؤمنةٌ»، فقال عبدُ الله: والله لأُعتِقَنَّها ولأتزوَّجَنَّها، ففعلَ، فطعنَ عليه ناسٌ من المسلمين وقالوا: نكحَ أمةً، وكانوا يرَونَ أن يُنكحوا إلى المشركين، وكانوا ينكحونَهم رغبةً في أحسابِهم، فنزلَ: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾[1].

والنِّكاحُ: الوَطْءُ، فسُمِّيَ التَّزوُّجُ نكاحًا لأنَّه سببُ الوطءِ، يُقالُ: نكحَ المطرُ الأرضَ؛ أي: اعتمَدَ عليها، ونكحَ النُّعاسُ عينَه.

واستعمالُ لفظِ النِّكاحِ في العقدِ تجوُّزٌ، وهو مـمَّا يُحكَّم فيه عرفُ الشَّرعِ.

وقيلَ: يُطلَقُ في اللُّغةِ لفظُ النِّكاحِ على الوطءِ وعلى العقدِ جميعًا؛ فإذا قيلَ: «نكحَ فلانٌ بنتَ فلانٍ» فُهِمَ منه العقدُ، وإذا قيلَ: «نكحَ فلانٌ زوجتَه» فُهِمَ منه الوطءُ.

وقال الفرَّاءُ: نُكْحُ المرأةِ ـ بضمِّ النُّونِ ـ: بُضْعُها [وهو كنايةٌ عن الفَرْجِ، بُني على بناء القُبُل والدُّبُر]، ويُقالُ: نكَحَها فلانٌ؛ أي: أصابَ بُضْعَها[2].

= الآية التي نزلت فيها هي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] كما في «سنن أبي داود» (٢٠٥١)، و«سنن الترمذي» (٣١٧٧).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٧١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٩٨)، وابن بشكوال في «غوامض الأسماء المبهمة» (٢/ ٧٧١)، عن السدي مرسلاً، ووصله الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٨/ ٩٠)، من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس. وفي جميع هذه المصادر: «... وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ويُنكحوهم... »، ففي لفظ المصنف: «وكانوا ينكحونهم» نظر؛ لمخالفته للمصادر وإيهامه بأنهم كانوا يفعلون ذلك.

(٢) ذكره عن الفراء الواحدي في «البسيط» (٤/ ١٦٥)، وما بين معكوفتين منه.

والمشركُ: كلُّ مَن كفرَ بالنَّبيِّ عليه السَّلامُ وإنْ قالَ: إنَّ اللهَ واحدٌ، قال الله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، ثمَّ قال في آخرِ الآيةِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، فسمَّاهم مُشركين.

ومَن كفرَ بمحمَّدٍ فقد زعمَ أنَّ ما أتى به محمَّدٌ من عندِ غيرِ الله، وهذا إشراكٌ.

والآيةُ في تحريمِ المُشركاتِ في النِّكاحِ، وهي عامَّةٌ، وخصَّصَها قولُه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥].

وقيلَ: الأولى منسوخةٌ بهذه الثّانيةِ.

وقيلَ: أرادَ بالمُشركاتِ هاهنا: مُشركاتِ العربِ، فلا حاجةَ إلى نسخٍ ولا إلى تخصيصٍ، والمُحصَناتُ تتناوَلُ الحرائرَ.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ الأمَةُ هي الرَّقيقةُ، والمصدرُ: الأُمُوَّةُ، وتأمَّيتُ أمةً؛ أي: اتخذتُ أمةً، والجمعُ: «إماءٌ» و«إآمٌ» بالكسرِ، ويُقالُ «آمٌ»، والمُرادُ: ولأمةٌ مُؤمنةٌ خيرٌ من حرَّةٍ مُشركةٍ.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾؛ أي: وإن أعجبتكم المُشركةُ بمالِها وجمالِها.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾؛ أي: لا تُزوِّجُوا المسلمةَ منَ المُشركِ.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾؛ أي: لا ضرورةَ بكم إلى تزويجِ مُسلمةٍ من كافرٍ، والمُرادُ بالعبدِ: المملوكُ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾؛ أي: المُشركون ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ أي: إلى الأعمالِ المُوجبةِ للنّارِ.

ويجوزُ التَّزوُّجُ بالكتابيَّةِ لأنَّها في الغالبِ تكونُ ذِمِّيةً، وتكونُ تحتَ قهرِ الرجالِ مِن[1] المسلمينَ.

---

(١) «الرجال من» من (أ).

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ أي: إلى التَّوحيدِ والتَّوبةِ والأعمالِ المُوجبةِ للجنَّةِ ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ أي: بأمرِه.

وقيلَ: فيه اختصارٌ؛ أي: يدعو إلى الجنَّةِ ولا وصولَ إليها ولا هدايةَ إلا بإذنِه.

وقرأ الحسنُ: (واللهُ يدعو إلى الجنَّةِ والمغفرةُ بإذنِه) برفعِ (المغفرة)[١].

وقُرِئَ: (ولا تُنكِحوا المُشركاتِ) بضمِّ التّاءِ[٢]؛ أي: لا تُزوِّجُوهُنَّ؛ أي: لا ولايةَ مع اختلافِ الدِّينِ.

***

(٢٢٢) - ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ قال أنسٌ: كانت اليهودُ إذا حاضَتْ منهم امرأةٌ أخرَجُوها منَ البيتِ، ولم يُؤاكِلُوها، ولم يُشارِبُوها، ولم يُجالِسوها، وكانت العربُ تأخذُ فيه بفعلِ اليهودِ، وكذلك المجوسُ، فسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن ذلك، فنزلتِ الآيةُ[٣].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٠).

(٢) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٠).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢) عن أنسٍ بلفظ: أنَّ اليهودَ كانوا إذا حاضتِ المرأةُ فيهم لم يؤاكلوها، ولم يُجامعوهُنَّ في البيوت، فسَأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخِرِ الآية، فقال رسولُ الله ﷺ: «اصْنَعوا كلَّ شيءٍ إلَّا النِّكاحَ».

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن القرآن أنزل في =

وكانتِ النَّصارى يُجامِعونَ الـحُيَّضَ، فأمرَ الله بالقصدِ بين هذَين[1].

ثمَّ قيلَ: المحيضُ: الحيضُ، فهو مصدرٌ، يُقالُ: حاضتِ المرأةُ تحيضُ حيضًا ومحاضًا ومحيضًا.

وقيلَ: المحيضُ: موضعُ الحيضِ، وأصلُ الكلمةِ منَ السَّيلانِ، يُقالُ: حاضَ السَّيلُ وفاضَ، وحاضَتِ السَّمُرةُ؛ أي: سالَ فيها لعابُها، ومنه: الحوضُ؛ لأنَّ الماءَ يحيضُ إليه؛ أي: يسيلُ، والعربُ تُدخِلُ الواوَ على الياءِ، والياءَ على الواوِ؛ لأنَّهما من حيِّزٍ واحدٍ، وهو الهواءُ، والمحيضُ والمحاضُ واحدٌ، مثل: المَعيشُ والمَعاشُ، والمَعيبُ والمَعابُ.

﴿قُلۡ هُوَ أَذٗى﴾؛ أي: هو شيءٌ تتأذَّى به المرأةُ وغيرُها؛ أي: برائحةِ دمِ الحيضِ، والأذى كنايةٌ عن القَذَرِ على الجملةِ.

﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾؛ أي: في زمانِ الحيضِ إن حملتَ الحيضَ على المصدرِ، أو: في محلِّ الحيضِ إن حملتَه على الاسمِ، ومقصودُ هذا النَّهيِ: تركُ المُجامعةِ.

وقيلَ: لمَّا نزلَتِ الآيةُ اعتزلَ المسلمونَ مُخالطةَ الـحُيَّضِ، وقدِمَ ناسٌ منَ الأعرابِ وقالوا: يا رسولَ الله، البردُ شديدٌ والثِّيابُ قليلةٌ، فإنْ آثرناهُنَّ بالثِّيابِ هلَكَ سائرُ أهلِ البيتِ، وإن آثَرْنا أهلَ البيتِ هلكَتِ الحُيَّضُ، فقال عليه السَّلامُ: «إنَّما

= شأن الحائض، والمسلمون يخرجونهن من بيوتهن كفعل العجم، ثم استفتوا رسول الله ﷺ في ذلك، فجاء القرآن في ذلك، فقال الله لرسوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٥٥).

أُمِرتُم أن تعتزِلُوا مُجامعتَهُنَّ إذا حِضْنَ، ولـم تُؤمَروا بإخراجِهنَّ منَ البيوتِ كفعلِ الأعاجمِ»(١).

فوَطْءُ الحائضِ حرامٌ، ويحِلُّ الاستمتاعُ بسائرِ بدنِها ما فوقَ السُّرَّةِ ودونَ الرُّكبةِ، وفيما عدا ذلك قولانِ للشّافعيِّ رضيَ الله عنه، وفي الخبرِ: «افْعَلوا كلَّ شيءٍ إلا الجماعَ»(٢).

﴿وَلَا نَقْرَبُوهُنَّ﴾؛ أي: لا تُجامِعُوهُنَّ، من قرِبَ يقرَبُ من بابِ حمِدَ يحمَدُ، يُقالُ: قرِبَها قُربانًا؛ أي: جامَعَها.

﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتَّخفيفِ، يُقالُ: طَهَرت المرأةُ وطَهُرت ـ بفتحِ الهاءِ وضمِّها ـ طُهْرا وطَهارةً، يُريدُ النَّقاءَ، وهو أن ترى القَصَّةَ البيضاءَ.

وقُرِئَ: ﴿حتَّى يَطَّهَّرنَ﴾ بالتشديد(٣)؛ أي: يتَطَهَّرْنَ؛ أي: يغتَسِلْنَ بالماءِ بعد النَّقاءِ منَ الدَّمِ، فأُدغِمَت التّاءُ في الطّاءِ.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾؛ أي: فإذا اغتسَلْنَ فحينَئذٍ يحـلُّ الـوَطْءُ ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾؛ أي: فجامِعُوهُنَّ، وهو أمرُ إباحةٍ، وكنَى بالإتيانِ عن الوَطْءِ.

﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: منَ الوجهِ الذي أذِنَ لكم فيه؛ أي: من غيرِ صومٍ وإحرامٍ واعتكافٍ.

---

(١) قال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ١٨): لم أجده. ولعله يريد: مسنداً، أو بلفظه، وإلا فقد ذكره بهذا اللفظ دون سند مقاتل في «تفسيره» (١/ ١٩١)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٣٠)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ١٧٤).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢) عن أنسٍ رضي الله عنه وقد تقدم قريباً.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٢)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

وقيلَ: في وقتِ الطُّهرِ لا في وقتِ الحيضِ وبقاءِ الغُسلِ عليهنَّ.

وقيلَ: أي: من قِبَلِ الحلالِ دونَ الفُجورِ.

وقيلَ: ﴿مِنْ﴾ بمعنى «في»؛ أي: في حيثُ أمرَكم الله، وهو الفرجُ، ونظيرُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ أي: في الأرضِ، وكذلك قولُه: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي: في يومِ الجمعةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾؛ أي: منَ الذُّنوبِ ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماءِ منَ الأحداثِ والنَّجاساتِ، وقيلَ: يعني: المُتطهِّرينَ منَ الإتيانِ في غيرِ المأتى. وقيلَ: منَ الذُّنوبِ.

* * *

(٢٢٣) ـ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: جاءَ عمرُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، هلَكْتُ، قال: «لِمَ؟» قال: حوَّلتُ رَحْلي البارحةَ، فلم يرُدَّ عليه شيئًا، ونزلَتْ هذه الآيةُ[1].

وهذا محمولٌ على الإتيانِ من خلفِها بعد أن يكونَ الصِّمامُ واحدًا، فأمَّا الإتيانُ من غيرِ المأتى فما كانَ مُباحًا، ولا يُباحُ.

وقيلَ: قالت اليهودُ: نحنُ نأتي النِّساءَ على هيئةِ الاستلقاءِ، وما عدا ذلك فهو دَنَسٌ عند الله، وهو فعلُ البهائمِ، ومنه يكونُ الحوَلُ والخبَلُ، فذُكِرَ ذلك للنَّبيِّ عليه

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٠) وقال: «حسن غريب». قال في «النِّهاية» (مادة: رحل): كَنَّى بِرحله عن زوجته، أرادَ به غِشْيانها في قُبُلها من جهة ظهرها.

السَّلامُ، فنزلَتْ هذه الآيةُ، وأكذَبَهم الله ورخَّصَ في إتيانِهنَّ من خلفٍ، ومن قُدّامٍ، في صِمَامٍ واحدٍ[1].

﴿حَرْثٌ﴾؛ أي: بمنزلةِ المُزْدَرَعِ تحرُثونَه، ففرجُ المرأةِ كالأرضِ، والنُّطفةُ كالبذرِ، والولدُ كالنَّباتِ، والحرثُ بمعنَى المُحترَثِ، وسُمِّيتِ المرأةُ حرثًا لأنَّها من أسبابِ الحرثِ، أو لأنَّها موضعُ الحرثِ، ووحَّدَ الحرثَ لأنَّه مصدرٌ، وهو كما يُقالُ: رجلٌ صَوْمٌ، وقومٌ صَوْمٌ.

وقيلَ: هو كقولِك: «ما هو إلا قيامٌ وقعودٌ»، و: «إنَّما هو إقبالٌ وإدبارٌ».

﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾؛ أي: كيفَ شئتُم بعد أن يكونَ في صِمامٍ واحدٍ، وذِكرُ الحرثِ دليلٌ على أنَّ الإتيانَ في غيرِ المأتَى مُحرَّمٌ.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: قدِّمُوا ما ينفعُكم غدًا، فحُذِفَ المفعولُ، وقد صُرِّحَ به في قولِه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ [المزمل: ٢٠]، ونظيرُ[2] هذه الآيةِ: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]؛ أي: لا تُقدِّمُوا القولَ.

وقيلَ: وقدِّمُوا لأنفسِكُم ابتغاءَ الولدِ والنَّسلِ؛ لأنَّ الولدَ ذخيرةُ الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧٨) عن ابن عباس من رواية الكلبي، والكلبي متروك.
وروى معناه البخاري (٤٥٢٨)، ومسلم (١٤٣٥)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ يهودَ كانت تقولُ: إذا أُتِيَتِ المرأةُ من دُبُرِها في قُبُلها، ثُمَّ حملت، كان ولدُها أحولَ، قال: فأنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.
ورواه النسائي في «الكبرى» (٨٩٢٤) عن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ قيل له: إنَّ اليهودَ تقولُ: إذا جاء الرجل امرأتَه مُجبَّاةً جاء الولدُ أحولَ، فقال: «كذَبَتْ يهودُ» فنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

(٢) في (أ): «ونظيره».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: في مُخالفـةِ أمرِه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾؛ أي: راجِعون إليه.

وقيلَ: مُلاقو جزائه. وقيلَ: مُلاقو ما قدَّمتُم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بجزيلِ الثَّوابِ.

* * *

(٢٢٤) ـ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ أمرَ بالإنفاقِ، وصُحبةِ الأيتامِ والنِّساءِ بجميلِ المُعاشرةِ، ثمَّ قال: لا تمتَنعوا عن شيءٍ منَ المكارمِ تعلُّلا بأنَّا حلَفْنا ألّا نفعلَ كذا.

نزلَتْ في عبدِ الله بنِ رواحةَ، وكان حلَفَ على ألّا يدخُلَ على النُّعمانِ بنِ بشيرٍ، وكان خَتَنَه على أُختِه، وألّا يُكلِّمَه، فكان إذا قيلَ له فيه قال: قد حلفتُ فلا بدَّ من أن أبرَّ في يميني[1].

فبيَّنَ الرَّبُّ أنَّه لا حجَّةَ باليمينِ في تركِ الخيرِ، بل الواجبُ أن يَحْنَثَ ويُكفِّرَ عن يمينِه، كما قال عليه السَّلامُ: «إذا حلَفَ أحدُكم على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (١/ ١٤٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٧٨ـ٧٩)، وفي «البسيط» (٤/ ١٨٥)، عن الكلبي. وعندهم جميعاً: «بشير بن النعمان». وهو الصواب، فإن النعمان بن بشير ولد بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، وكان أوّل مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة كما في «الإصابة» (٦/ ٣٤٦).

فليأتِ الذي هو خيرٌ وليُكفِّرْ عن يمينِه، فإنَّ ذلك كفّارتُه»[١]؛ أي: حنثُه كفَّارةٌ لإثمِه في اليمينِ على تركِ فعلِ الخيرِ.

﴿عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ الاعتِراضُ: المنعُ، والمُعترِضُ بينَ الشَّيئينِ مانعٌ من وُصولِ أحدِهما إلى الآخرِ، وفلانٌ عُرضةٌ دونَ كذا؛ أي: مُعترِضٌ دونَ الوصولِ إليه، واعتُرِضَ على كلامِ فُلانٍ؛ أي: مُنِعَ كلامُه منَ الجريانِ، فالعُرضةُ: ما يُعترَضُ به، كاللُّعبةِ: ما يُلعَبُ به، واللَّهو: ما يُتَلهَّى به، أي: لا تجعلُوا اليمينَ بالله مانعةً منَ البرِّ والتَّقوى.

وقيلَ: العُرْضةُ منَ الشِّدّةِ والقوَّةِ، ولفلانٍ عُرْضةٌ يصرعُ بها النّاسَ؛ أي: قُوَّةٌ، وهذه الدَّابةُ عُرْضةُ السَّفرِ؛ أي: قويَّةٌ على السَّفرِ؛ أي: لا تجعَلُوا اليمينَ بالله قوَّةً لأنفُسِكم في الامتناعِ منَ البرِّ.

وقيلَ: لا تبتَدِرُوا إلى اليمينِ في كلِّ شيءٍ، ولهذا قالت عائشةُ: أي: لا تحلِفُوا بالله ولو بررتُم[٢]. وقال ابنُ عبّاسٍ: أي: لا تحلِفُوا بالله في كلِّ حقٍّ وباطلٍ[٣].

والأيمانُ: جمعُ اليمينِ، وهي القسَمُ، وأصلُها منَ اليُمنِ وهو البركةُ، فاليمينُ: عقدُ الأمرِ مـمَّا يُتبرَّكُ بذكرِه.

﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ قال الزَّجَّاجُ: أي فـي أن تبـرُّوا، فسقـطَ «فـي» ووصلَ معنى الفعلِ، فمحلُّه النَّصبُ؛ أي: لا يمنَعْكم اليمينُ بالله البرَّ والتَّقوى، ويجوزُ أن يُقالَ: محلُّه الخفضُ بالحرفِ الجارِّ، ويجوزُ أن يكونَ محلُّه الرَّفعُ؛ أي: أن تبرُّوا أولى[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢٢)، ومسلم (١٦٥٢)، من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٠).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ١٨٨) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢٩٨ ـ ٣٠٠)، و«البسيط» (٤/ ١٨٨ ـ ١٩٢).

وقيل: معناه: أنْ لا تبرُّوا، فحُذِفَت «لا» كقولِه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي: لئلّا تضِلُّوا، وقولِه: ﴿رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]؛ أي: لئلَّا تميدَ بكم، فهو من صلةِ الأيمانِ؛ أي: لا تحلِفُوا بالله لئلّا تبرُّوا، وحَذفُ «لا» في اليمينِ أحسَنُ، قال الله: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]؛ أي: لا تفتأُ، أي: لا تزالُ تذكرُ، وعلى الأوَّلِ يعني: لا تجعلُوا اسمَ الله مانعًا من أن تبرُّوا، فهو من صلةِ ﴿عُرْضَةً﴾.

وعند البصريِّين معناه: كراهيةَ أن تبَرُّوا، وهذا كلُّه إذا جُعِلت العُرْضةُ منَ المنعِ.

وقال عطاءٌ: أرادَ أن لا تبرُّوا(١)؛ أي: لا تحلِفُوا بالله إلّا أن تكونَ اليمينُ لقصدِ برٍّ وتقوى، فحينَئذٍ لكم أن تحلِفُوا.

والمُرادُ بالاسمِ هاهنا: التَّسميةُ؛ أي: لا تجعَلُوا اسمَ الله عُرضةً.

والأظهرُ أنَّ المقصودَ: لا تستكثِرُوا منَ اليمينِ بالله؛ فإنَّه أهيَبُ في القلوبِ،

---

(١) في (ف): «أراد إلا أن تبروا»، والمثبت من (أ) وهو الموافق لما في «البسيط» (٤/ ١٨٩)، والكلام منه، وزاد الواحدي: وهذا موافق لتفسير الآية عنده، والتقدير: لا تحلفوا بالله إلا أن يكون اليمين لقصد بر أو تقوى أو إصلاح بين الناس، فلكم أن تحلفوا.
وكلام الواحدي يدل على أن ما نقله المصنف هو معنى قول عطاء، وذكره عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ١٩٤) بالمعنى أيضاً فقال: معناها: لا تحلفوا بالله أن لا تبرّوا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وابن جبير... الخ.
قلت: ولعل المراد ما رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦) عن ابن جريج قال، سألت عطاء عن قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾، قال: الإنسان يحلف أن لا يصنع الخير، الأمرَ الحسن، يقول: حلفت! قال الله: افعل الذي هو خيرٌ وكفِّر عن يمينك، ولا تجعل الله عرضةً. ولم أجد عن عطاء في الآية سوى هذه الرواية.

ولهذا قال: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وذمَّ مَن أكثرَ اليمينَ فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، وتَـمدَّحت العربُ بقلّةِ الأيمانِ، ومنه:

قليـلُ الأَلايـا حافِـظٌ ليمينِه[1]

ولهذا قال عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ ورأى قومًا يستحلفونَ عند المقامِ: أعلى دم أم على كثيرٍ منَ المالِ؟ لقد خشيتُ أن يَبْهَأَ النّاسُ بهذا المقامِ[2]. أي: أن تزولَ الهيبةُ منَ الصُّدورِ، فكذا مَن استكثرَ اليمينَ فهو لزوالِ الهيبةِ من قلبِه، وعلى هذا: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾، معناه: أَقِلُّوا الأيمانَ؛ لِـمَا فيه من البرِّ والتَّقوى.

وقيلَ: نزلَتْ في أبي بكرٍ في قصَّةِ مِسطحٍ في قصَّةِ الإفكِ[3].

وقيلَ: حلفَ ألّا يصِلَ ابنه عبدَ الرَّحمنِ حتَّى يُسلمَ، فنزلتِ الآيةُ[4].

***

(٢٢٥) - ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ اللَّغوُ: الكلامُ الذي لا فائدةَ فيه، يُقالُ:

---

(١) صدر بيت لكثيِّر. انظر: «ديوانه» (ص: ٨٥)، و«المقصور والممدود» لأبي علي القالي (ص: ١٥٢)، و«البسيط» للواحدي (٤/ ٢٠٢)، وعجزه:

وإنْ سَـبَقَتْ مِنْـهُ الأَلِيّـةُ بَـرَّتِ

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٧٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٨٤)، وقال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٤/ ٢١١): إسناده منقطع.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٠) عن ابن جريج.

(٤) ذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ١٩٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢٣) عن مقاتل بن حيان. وهكذا نسبه ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ١٩٤) للمقاتلَين.

لَغا يلغُو لغوًا، ولَغَى يلْغَى، ولغِيَ يَلْغَى لَغًا؛ أي: أتى بلَغْوٍ، قالت عائشةُ: هو قولُ الرَّجلِ: لا والله، وبلى والله[1]؛ أي: ما يسبِقُ به اللِّسانُ من غيرِ عقدٍ ولا قصدٍ، ويكونُ كالصِّلةِ للكلامِ، ومثلُه: «كلّا والله»، «لا وايمُ الله»، فلا كفَّارةَ ولا إثْمَ.

وعند الشّافعيِّ: لا مُؤاخذةَ بلغوِ اليمينِ كما ذكَرْنا، فأمَّا ما عدا هذا فإنْ أقسمَ على ماضٍ نفيًا كانَ أو إثباتًا وكذبَ مُتعمِّدًا فهي اليمينُ الغَموسُ التي تغمِسُ صاحبَها في الإثمِ، وتجبُ الكفّارةُ، فإنْ أقسمَ على المستقبلِ فإنْ حنِثَ لزمَتْه الكفّارةُ.

وقال قومٌ: لغوُ اليمينِ: أن يحلِفَ بأبيه، أو أخيه ومَن يعِزُّ عليه.

وقيلَ: هو من تمامِ الآيةِ الأولى؛ أي: ما تحلِفُونَ عليه من الامتناعِ عن صلةِ الرَّحمِ والبرِّ وما أشبههما فإنَّ الله لا يُؤاخِذُكم بالإقامةِ عليه، فاحنَثُوا فيه وكفِّروا، ولكن يُؤاخِذُكم بما تستمِرُّون عليه من قطيعةِ الرَّحمِ أو منَ المعصيةِ، وهذا قولُ مَن يُوجِبُ في يمينِ المعصيةِ الكفّارةَ، وهو مذهبُنا.

وعند الشَّعبيِّ: مَن حلفَ على معصيةٍ فلا يمينَ له ولا كفَّارةَ[2].

وقال ابنُ عبّاسٍ: لغوُ اليمينِ: ما يصدُرُ منَ الرَّجلِ في حالِ الغضبِ من غيرِ عزمٍ[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٦٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ١٤ ـ ١٦) عن عائشة رضي الله عنها بألفاظ متعددة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٩).

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٧٨٢)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤١٠ (٢١٦١).

وقيلَ: لغوُ اليمينِ: أن تحلِفَ وتظُنَّ أنَّك صادقٌ ولـم تكُنْ صادقًا، فلا كفّارةَ ولا إثمَ، قالَه الحسنُ[1].

وعندَنا هذا كالنَّاسي، فلا مُؤاخذةَ في الآخرةِ.

وقال قومٌ: لغوُ اليمينِ: اليمينُ الغموسُ، فهي لا تنعقدُ ولكن يعظُمُ الإثمُ، وهو قولُه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

وقيلَ: لغوُ اليمينِ مثلُ قولِ الرَّجلِ: «إنْ فعلتُ كذا فأعمَى الله بصري»، وكذا كلُّ مَن يدعو على نفسِه فلا مُؤاخذةَ بهذا، بل المُؤاخذةُ بما يكسبُه القلبُ منَ اليمينِ بالله تعالى.

وقيلَ: لغوُ اليمينِ: اليمينُ المُكفَّرةُ؛ أي: لا مُؤاخذةَ بها، فأمَّا إذا لـم تُكفِّرْ فيُؤاخَذُ باليمينِ، واليمينُ لا تُحرِّمُ ولا تُحلِّلُ ولا تُوجِبُ.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ كسبُ القلبِ: قصدُه ونيَّتُه.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لمَن تابَ ممَّن جعلَ الله عُرضةً لأيمانِه.

والحِلْمُ: الأناةُ والسُّكونُ، ومنه: الحُلُمُ لأنَّه يُرَى في حالِ السُّكونِ، ومنه: حَلَمةُ الثَّديِ؛ لأنَّها تُحلِّمُ الصَّبيَّ وتُسكِّنُه، والحَلَمةُ: القُرادُ؛ تشبيهاً بحَلَمةِ الثَّديِ.

فالحليمُ: الذي لا يُعجِّلُ بالعقوبةِ.

***

(٢٢٦) ـ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولُـه: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ هـذا مُتَّصـلٌ بقولِـه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٠ و٢١ و٢٥) و(٨/ ٦١٨).

لِأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، وكانـوا يعتـادونَ الإضرارَ بالمرأةِ إذا لـم يُريدوها، ولـم يُريدوا أن يتـزوَّجَ بهـا غيرُهـم، فكانـوا يحلِفُـونَ علـى الامتناعِ مـن وَطئِهـا أبدًا، فضـربَ الله تعالـى في ذلـك أجـلًا، وبيَّـنَ الحكمَ.

ويُقالُ: آلى يُولي إيلاءً، وتألَّى تألِّيًا، وائتَلى ائتلاءً؛ أي: حلفَ، ومنه: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٢٢]، وفيه اختصارٌ؛ لأنَّه لـم يُذكَرْ يُؤلون على ماذا، ولكنَّ سياقَ الكلامِ يدلُّ على أنَّ المُرادَ الأزواجُ الذين يحلفونَ على الامتناعِ منَ الوطءِ.

﴿تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ﴾؛ أي: يتربَّصونَ عنهُنَّ هذه المُدَّةَ، ولا سبيلَ للمرأةِ إلى المُخاصمةِ.

وقيلَ: ﴿مِن﴾ بمعنى «على»، وحروفُ الصِّفاتِ يقومُ بعضُها مقامَ بعضٍ؛ أي: للَّذين يحلِفون على نسائِهم؛ أي: بتركِ وَطئِهنَّ، فحُذِفَ المُضافُ.

ولفظُ الإيلاءِ وإنْ كان لليمينِ فعُرْفُ الشَّرعِ خصَّصَه باليمينِ في الامتناعِ(١) منَ الوطءِ، وكان يُفهَمُ هذا في عُرفِ الجاهليَّةِ أيضًا، فمَن قال: «آلى فلانٌ من امرأتِه» لـم يُفهَمْ منه أنَّه حلفَ عليها لَتُقدِمنَّ على صلاةٍ أو صيامٍ، بل يُفهَمُ منه أنَّه حلفَ على الامتناعِ من وطئِها، فالمُولي إذن مَن التزمَ بالوقاعِ بعد أربعةِ أشهرٍ أمرًا ما، كالطَّلاقِ أو العتقِ أو كفَّارةِ اليمينِ أو غيرِها، سواءٌ حلَفَ بالله أو لا.

والتَّربُّصُ: الانتظارُ واللَّبثُ، يُقالُ: ما لي على هذا الأمرِ رُبْصةٌ؛ أي: تثبُّتٌ، والمعنى: تربُّصٌ في أربعةِ أشهرٍ، فأضافَ المصدرَ إلى الظَّرفِ.

وإذا مضَتْ هذه المُدّةُ من غيرِ وقاعٍ فعند الشَّافعيِّ لا تبينُ المرأةُ، بل لو لـم تطلُبِ الوِقاعَ والطَّلاقَ فالزَّوجيّةُ باقيةٌ، ولـها أن تُطالبَ مهما أرادَتْ، فإن طالبَتْ:

---

(١) في (ف): «باليمين والامتناع».

فإنْ فاءَ الرَّجلُ سقطَ طلبُها وعليه كفّارةُ يمينٍ، وإنْ لـم يفِءْ ففي قولٍ يُحبَسُ حتَّى يُطلِّقَ، ويُكتَفَى بطلاقٍ رجعيٍّ، وفي قولٍ يُطلِّقُ عليه القاضي زوجتَه طلاقًا رجعيًّا، وإن كانَ الرجلُ غائبًا عنها فالفيئةُ باللِّسانِ.

﴿فَإِن فَآءُو﴾؛ أي: رجَعُوا، من فاءَ يفيءُ فَيئًا وفَيئةً وفُيوءًا، ومنه: «الفَيءُ» للظِّلِّ بالعشيِّ؛ لأنَّه الذي نسخَتْه الشَّمسُ، وفي الجنّةِ ظِلٌّ وليس فيها فيءٌ؛ لأنَّه لا شمسَ فيها، ويُسمَّى ما ردَّه الله تعالى من مالِ المُشركينَ على المسلمينِ فيئًا، كأنَّه كان لهم فرجعَ إليهم.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: لـم يُحرِّمْها على الزَّوجِ لـمَّا آلى عليها ﴿رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لـم يترُكْها مُعلَّقةً، لا أيِّمًا ولا ذاتَ بعلٍ.

***

(٢٢٧) ـ ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ العزمُ: تصميمُ العقدِ على الشَّيءِ، يُقالُ: عزَمَ عليه يعزِمُ عزمًا وعزيمةً وعُزْمانًا، واعتزَمَ اعتزامًا، و«عزمتُ عليكَ لتفعلَنَّ»؛ أي: أقسَمْتُ.

والطَّلاقُ من «طَلَقَتِ المرأةُ تَطْلُقُ» على وزنِ «نصرَ ينصُرُ»، ويجوزُ «طلُقَتْ» بضمِّ اللّامِ مثلُ «عَظُمَ يعظُمُ»، والطَّلاقُ: حلُّ عقدِ النِّكاحِ بما يكونُ حلًّا في الشَّرعِ، وأصلُه: الانطلاقُ، ويُقالُ: عزَمَ كذا، وعزَمَ على كذا، فقولُه: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ﴾ يدلُّ على أنَّها لا تَطْلُقُ بمُضيِّ أربعةِ أشهرٍ ما لـم يقَعْ إنشاءُ تطليقٍ بعد المُدّةِ.

وأيضًا قالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ ولا بدَّ من مسموعٍ، ولا تكفي نيّةُ القلبِ، ويدلُّ عليه: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، والمُرادُ: الإنشاءُ لا النِّيةُ.

(٢٢٨) ـ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ بيَّنَ حكمَ المرأةِ بعد التَّطليقِ، فعليها الاعتدادُ بثلاثةِ أقراءٍ، والآيةُ مخصوصةٌ بقولِه: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وبقولِه: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وبقولِه: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ [الطلاق: ٤].

والتَّربُّصُ: الانتظارُ، وهذا خبرٌ والمُرادُ الأمرُ؛ كقولِه: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهو كقولِك: «حسبُكَ درهمٌ»؛ أي: اكتفِ بدرهمٍ.

وقيلَ: أي: «ليتربَّصنَ» فحُذِفَ اللّامُ.

والقُروءُ: جمعُ قُرْءٍ، وجمعُه القليلُ: «أقرُؤٌ»، والكثيرُ: «أقراءٌ وقروءٌ»، ولفظُ القُرْءِ مُشترَكٌ يُطلَقُ على الحيضِ والطُّهرِ، ففي هذه الآيةِ أراد بالقُرءِ الأطهارَ، ولهذا قال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ أي: لوقتِ عدَّتِهنَّ، وقد بيَّنَ رسولُ الله ﷺ أنَّ وقتَ العِدَّةِ زمانُ الطُّهرِ في حديثِ عبدِ الله بن عمرَ[(١)]، وقولِه ﷺ: «دَعي الصَّلاةَ أيّامَ أقرائِكِ»[(٢)]، أرادَ بالأقراءِ: الحيضَ.

---

(١) وهو أنه طلق امرأته وهي حائض، فقال النبي ﷺ لعمر: «مره فليراجعها فإذا طهرت فليطلق أو ليمسك» فبيَّن أن زمان الطلاق الطهر؛ لتكون المرأة مستقبلة العدة. انظر: «البسيط» للواحدي (٤/ ٢١١). والحديث رواه البخاري (٥٢٥١) و(٥٢٥٨)، ومسلم (١٤٧١).

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارقطني في «سننه» (٨٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. وله روايات كثيرة بغير هذا اللفظ في السنن وغيرها. انظر: «التلخيص الحبير» (١/ ١٧٠).

ثُمَّ؛ قال أبو عبيدٍ وأبو عمرٍو والشّافعيُّ: أصلُ الأقراءِ من دُنوِّ وقتِ الشَّيءِ، يُقالُ: «هذا قارئُ الرِّياحِ» لوقتِ هُبوبِها، والأقراءُ تُطلَقُ على الحيضِ وعلى الأطهارِ؛ لأنَّ الحيضَ يجيءُ في وقتٍ والطُّهرَ في وقتٍ، ويُقالُ: أقرأتِ النُّجومُ؛ أي: طلَعَتْ، وأقرَأَتْ؛ أي: أفَلَتْ[1].

وقال قومٌ: القُرْءُ: الجمعُ، ومنه: «ما قرأَتْ هذه النّاقةُ سلًا قطُّ»؛ أي: ما جمَعَتْ في رحِمِها ولدًا، ومنه قولُهم: قرأ القارئُ؛ أي: جمعَ الحروفَ بعضَها إلى بعضٍ في لفظِه، ففي زمانِ الطُّهرِ يجتمعُ الدَّمُ في الرَّحمِ، وفي زمانِ الحيضِ في المِرْكَنِ.

قال الزَّجَّاجُ: «قرَيْتُ الماءَ في الحوضِ» ـ وإنْ كانَ قد أُلزِمَ الياءَ ـ من الجمعِ أيضًا[2].

ويُقالُ: القردُ يَقْري؛ أي: يجمعُ ما يأكلُ في فيه.

وقيلَ: القُرْءُ: الخروجُ إمَّا من طُهرٍ إلى حيضٍ، أو من حيضٍ إلى طُهرٍ، وعلى هذا قال الشّافعيُّ في قولٍ: القُرءُ الانتقالُ منَ الطُّهرِ إلى الحيضِ.

وقال الأصمعيُّ: القياسُ: ثلاثةُ أقرُؤٍ؛ لأنَّ القُروءَ جمعُ الكثرةِ، ولا يُقالُ: ثلاثةُ فُلوسٍ، وإنَّما يُقالُ: ثلاثةُ أفلُسٍ، ولكنَّه أرادَ: ثلاثةً منَ القُروءِ[3].

وقيلَ: لـمَّا كانت كلُّ مُطلَّقةٍ يلزَمُها هذا دخلَه معنى الكثرةِ، فأتى ببناءِ الكثرةِ لذلك، فالقروءُ كثيرةٌ إلّا أنَّها في القسمةِ ثلاثةٌ ثلاثةٌ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٠٤)، و«الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي» للأزهري (ص: ٢٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، و«البسيط» (٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٠٥)، و«البسيط» (٤/ ٢١٤).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٩/ ٢١٠)، و«البسيط» (٤/ ٢١٥)، ذكراه من رواية أبي حاتم عن الأصمعي، وقوله: «ولكنَّه أراد: ثلاثةً من القُروء» من كلام أبي حاتم.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ لـمَّا دارَ أمرُ العِدَّةِ على الحيضِ والأطهارِ، ولا اطِّلاعَ عليها إلّا من جهةِ النِّساءِ، جعلَ القولَ قولَ المرأةِ إذا ادَّعَتِ انقضاءَ العِدَّةِ في زمانٍ مُمكنٍ، وأكَّدَ الأمرَ عليها حتَّى لا تُخبِرَ إلا بالصِّدقِ، وقولُه: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى الحيضِ. وقيلَ: إلى الولدِ.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: سبيلُ المُؤمنةِ هذا، وهو كقولِه: إنْ كنتَ أخي فلا تظلِمْني.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ البُعولةُ: جمعُ البعلِ، يُقالُ: بُعولٌ وبُعولةٌ، كما يُقالُ في جمعِ الذَّكرِ: ذُكورٌ وذُكورةٌ، وفي جمعِ الفحلِ: فُحولٌ وفُحولةٌ، وهذه الهاء زيادةٌ مُؤكِّدةٌ لتأنيثِ الجماعةِ، ويُعتبَرُ فيها السَّماعُ، فلا يُقالُ في كعبٍ: كُعوبةٌ.

والبُعولةُ أيضًا مصدرُ البعلِ، وبعَلَ الرَّجلُ يبْعَلُ ـ مثلَ: منَعَ يمنَعُ ـ بُعولةً؛ أي: صارَ بعلًا، والمُباعلةُ والبِعالُ: الجِماعُ.

﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾؛ أي: بمُراجعتِهنَّ، فالرَّجلُ مندوبٌ إلى المُراجعةِ، ولكنْ إذا قصدَ الإصلاحَ، وأمَّا[1] قصدُ الإضرارِ وتطويلِ العِدَّةِ فمُحرَّمٌ؛ لقولِه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١]، ثمَّ مَن فعلَ ذلك فالرَّجعةُ صحيحةٌ، وإن ارتكبَ المنهيَّ وظلمَ نفسَه.

﴿بِرَدِّهِنَّ﴾؛ أي: برجعِهنَّ إلى أنفُسِهم ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في التَّربُّصِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، يدلُّ على التَّربُّصِ كما تقولُ: «افعَلْ كذا فإنَّه ينفعُكَ»؛ أي: فإنَّ فعلَه ينفعُك.

---

(١) في (أ): «فأما».

ولفظُ ﴿أَحَقُّ﴾ يُطلَقُ عند تعارُضِ حقَّينِ وترجُّحِ أحدِهما، فالمعنى: حقُّ الزَّوجِ في مدَّةِ التَّربُّصِ أحقُّ من حقِّها في نفسِها؛ فإنَّها إنَّما تملكُ نفسَها بعد انقضاءِ العِدَّةِ.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: لهنَّ من حقوقِ الزَّوجيّةِ ما للرِّجالِ بالمعروفِ؛ أي: بما عرَّفَ الله عبادَه في الشَّرعِ، ولهذا قال ابنُ عبّاسٍ: أنا أتزيَّنُ لامرأتي كما تتزيَّنُ لي[١].

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ يُقالُ: رجلٌ بيِّنُ الرُّجْلةِ؛ أي: القوَّةِ، وهو أرجَلُ الرَّجُلَينِ؛ أي: أقواهُما، وفرَسٌ رَجيلٌ؛ أي: قويٌّ، ومنه: الرِّجلُ؛ لقُوَّتِها على المشيِ، وارتجَلَ الكلامَ؛ أي: قوِيَ عليه، وترَجَّلَ النَّهارُ؛ أي: قوِيَ بضيائِه.

والدَّرجةُ: المنزلةُ، ومَدْرَجةُ الطَّريقِ: قارِعَتُه، والأصلُ فيه الطَّيُّ، يُقالُ: درَجُوا؛ أي: طَوَوا عُمرَهم، ودرَجْتُ الشَّيءَ أدرُجُه، من بابِ نصَرَ ينصُرُ، وأدْرَجْتُه؛ أي: طوَيتُه، ومنه: الدَّرجةُ التي يُرتَقَى عليها.

ثمَّ؛ زيادةُ الرَّجلِ بعقلِه، وبالإنفاقِ، وبالدِّيةِ والميراثِ والجهادِ، وهذا يُشعِرُ بأنَّ قضاءَ حقِّ الزَّوجِ عليها أوجَبُ، ولهذا قال عليه السَّلامُ: «لو أمرتُ أحدًا بالسُّجودِ لغيرِ الله لأمرتُ المرأةَ بالسُّجودِ لزوجِها»[٢].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٩٢٦٣)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ١٢٠).

(٢) رواه الترمذي (١١٥٩) وحسنه، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
ورواه ابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤١٧١)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.
ورواه ابن ماجه (١٨٥٢) من حديث عائشة، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٢) من حديث أنس، رضي الله عنهم جميعاً.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ما أُحِبُّ أن أستنظِفَ جميع حقِّي عليها؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[1]؛ أي: الرَّجلُ أقوى وأقدَرُ وأجدَرُ أن يُراعِيَ حقَّها، وهذا عكسُ ما تقدَّمَ.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾؛ أي: منيعُ السُّلطانِ لا مُعترِضَ عليه.

﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: عالمٌ مُصيبٌ فيما يفعلُ.

* * *

(٢٢٩) ـ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وصَلَ بذكرِ الطَّلاقِ ذِكرَ وقتِ الارتجاعِ.

وسببُ النُّزولِ: ما رَوَى هشامُ بنُ عُروةَ، عن أبيه قال: كان الرَّجلُ إذا طلَّقَ امرأتَه ثمَّ ارتجعَها قبلَ انقضاءِ العدّةِ كان له ذلك وإنْ طلَّقَها ألفَ مرّةٍ، فطلَّقَ رجلٌ امرأتَه، فلمَّا شارَفَت انقضاءَ العدّةِ ارتجعَها، ثمَّ طلَّقَها وقصدَ الإضرارَ بها، قال: والله لا أُؤْوِيكِ ولا أُخلِّيكِ أبدًا، فشكتِ المرأةُ ذلك إلى عائشةَ، فذكَرَتْ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ فأنزلَ الله هذه الآيةَ[2].

وفيها اختصارٌ، والمعنى: الطَّلاقُ الذي يملكُ فيه الرَّجعةَ مرَّتانِ، ولهذا قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهو كقولِه: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤١٧).

(٢) رواه الترمذي (١١٩٢) بإسنادين؛ أحدهما عن عائشة رضي الله عنها، والآخر عن عروة لم يذكر فيه عن عائشة رضي الله عنها، وقال: هذا أصح.

أي: وقتُ الحجِّ، فكذلك قولُه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾؛ أي: عددُ الطَّلاقِ الذي يَستعقِبُ الرَّجعةَ مرَّتانِ.

والمَرّةُ والمَرُّ منَ المُرورِ، يُقالُ: المَرّةُ الأولى والمَرُّ الأوَّلُ.

وقال ابنُ مسعودٍ وعكرمةُ: هذا تعليمٌ لسنَّةِ الطَّلاقِ؛ أي: ليُطلِّقْ في كلِّ قُرءٍ مرّةً من غيرِ جمعِ تطليقتَينِ في قرءٍ، وعند الشّافعيِّ لا يحرُمُ الجمعُ بين الطَّلقاتِ في قُرءٍ، ولا يكونُ ذلك بدعةً، وقد قالَ الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤]؛ أي: يُعطَونَ أجرَين، وليس من ضرورةِ المرَّتَينِ أن يجريَ ذلك في مجلسَين، وقد يقولُ القائلُ: يا فلانُ، يا فلانُ، أقبِلْ، فيُقالُ: قد دَعاه مرَّتَين.

﴿فَإِمْسَاكُۢ﴾ الإمساكُ: خلافُ الإطلاقِ، يُقالُ: فلانٌ ذو مُسْكةٍ ومَساكةٍ ومِساكٌ؛ أي: بخيلٌ؛ أي: فالواجبُ إذا راجَعَها بعد الطَّلقتَينِ إمساكٌ بمعروفٍ؛ أي: فعليه إمساكٌ، وعلى هذا الإمساكُ غيرُ الارتجاعِ، بل يقعُ بعد الارتجاعِ، والارتجاعُ مُضمَرٌ، ويدُلُّ عليه قرينةُ الحالِ.

والتَّسريحُ على هذا هو الطَّلقةُ الثّالثةُ؛ أي: إذا طلَّقَ مرَّتين: فإنْ راجعَ فعليه إمساكٌ بالجميلِ، وإنْ سرَّحَها فليُسرِّحْها بإحسانٍ.

وقيلَ: هذا الإمساكُ هو الارتجاعُ؛ أي: الطَّلاقُ الذي يَستعقِبُ الرَّجعةَ مرَّتانِ، ثمَّ بعدَهما إمَّا أن يُمسِكَها ويرتجِعَها من غيرِ مُضارَّةٍ، وإمَّا أن يدعَها لتسريحِ بالطَّلاقِ المُتقدِّمِ، فالتَّسريحُ على هذا تركُها حتى تنقضيَ عدَّتُها.

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: على حسبِ ما عُرِفَ حُسنًا في الشَّرعِ.

والتَّسريحُ في اللُّغةِ: إرسالُ الشَّيءِ، ومنه: تسريحُ الشَّعرِ لتخليصِ البعضِ منَ البعضِ، وسرَّحَ الماشيةَ؛ أي: أرسلَها، وناقةٌ سُرُحٌ؛ أي: سهلةُ السَّيرِ.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ بيَّنَ أنَّ الرجعةَ تنقطعُ بالطَّلقةِ الثَّالثةِ وبالخُلعِ، وقد قيلَ: قولُه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ فصلٌ مُعترِضٌ بينَ قولِه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ وبينَ قولِه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: بعد التَّطليقةِ الثَّالثةِ.

وأخذُ الفديةِ على الطَّلاقِ جائزٌ، والخلعُ طلاقٌ في الجديدِ، ويقعُ به ما نوى.

﴿مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: منَ المهرِ والنُّحلِ؛ أي: لا يحلُّ استرجاعُ المهرِ إلا في الخلعِ، وإنَّما ربطَ الخلعَ بحالةِ الخوفِ لأنَّ الغالبَ جريانُه عند النِّزاعِ، وهو كقولِه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ [النساء: ١٠١].

ونزلتِ الآيةُ في جميلةَ بنتِ عبدِ الله بنِ أُبيٍّ، وفي زوجِها ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شمَّاس، وكانت تُبغِضُه أشدَّ البُغضِ، وكان يُحبُّها أشدَّ حبٍّ، فأتَتْ رسولَ الله ﷺ وقالت: فرِّقْ بيني وبينَه؛ فإنِّي أُبغِضُه، وقال ثابتٌ: مُرْها يا رسولَ الله فلترُدَّ عليَّ الحديقةَ التي أعطيتُها، فقال لها: «ما تقولين؟» قالت: نعم وأزيدُه، قال: «لا، حديقتَه فقط»، وقال لثابتٍ: «خذ ما أعطيتَها وخلِّ سبيلَها»، فكانَ أوَّلَ خُلعٍ وقعَ في الإسلامِ(١).

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ كانوا يُطوِّلون العِدَّةَ على المرأةِ ويُضارُّونَها لتفتديَ، فبيَّنَ اللهُ أنَّ قصدَ الإضرارِ لا يجوزُ، بلى يجوزُ الاختلاعُ إذا علمَ الرَّجلُ أنَّه لا يتوقَّفُ على حدِّ الشَّرعِ، وعلمَت المرأةُ أنَّها لا تُطيعُه لفرطِ البُغضِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٣٧ ـ ١٣٨). وصححه الشيخ أحمد شاكر في طبعته (٤/ ٥٥٣)، وانظر كلامه عليه ثمة. لكن ليس في لفظ الخبر عند الطبري أن هذا سبب النزول، وكذا رواه البخاري (٥٢٧٣ ـ ٥٢٧٧) مختصراً بعدة روايات ليس فيها: (فنزلت). وقد نبه السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٣/ ٣٩٣) (ط دار اللباب) على ذلك فقال: وليس في شيء من طرق الحديث التصريح بنزول الآية في هذه القصة.

ثمَّ؛ قيل: ﴿أَن يَخَافَآ﴾؛ أي: أن يعلما، والخوفُ قد يكونُ بمعنى العلمِ؛ فإنَّك تقولُ: «خِفْتُ أن يكونَ فلانٌ خرجَ»؛ أي: ظننتُ، ثمَّ الظَّنُّ قد يُذكَرُ بمعنى العلمِ، فكذا الخوفُ الذي هو بمعنى الظَّنِّ.

وقيلَ: هو محمولٌ على الخوفِ الحقيقيِّ، وهو الإشفاقُ من وقوعِ الشَّيءِ المكروهِ، وهو قريبٌ من معنى الظَّنِّ، وقد قال الله من بعدِ هذا: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾.

ثمَّ؛ قيلَ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ؛ أي: لكنْ إنْ كانَ منهنَّ نُشوزٌ فلا جُناحَ عليكم في أخذِ الفداءِ.

والحلالُ ضِدُّ الحرامِ، فالحرامُ: الممنوعُ، والحلالُ: الخارجُ عن المنعِ؛ أي: لا يحلُّ لكم أخذُ مالٍ منها من غيرِ طيبةِ نفسِها بذلك.

وقرأ حمزةُ: ﴿إلا أن يُخافا﴾ بضمِّ الياءِ[1]؛ أي: إلا أن يُخافَ الزَّوجانِ، والمعنى: إلّا أن يُخافا في أن لا يُقيما حدودَ الله؛ فإنَّ «خافَ» يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وإنَّما يُعدَّى إلى الثاني بحرفِ جرٍّ، ثمَّ محلُّ ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ النَّصبُ بنزعِ الخافضِ، أو يُقالُ: هو في محلِّ الخفضِ بالجارِّ المُقدَّرِ.

ومَن قرأ: ﴿يَخَافَآ﴾ بالفتحِ فقولُه: ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ في محلِّ النَّصبِ؛ إذ لا حاجةَ إلى تقديرِ الجارِّ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ هذا من تصريفِ الكلامِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ، كقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، واحتملَ هذا لأنَّه لم يُرِدْ خوفًا يَبِينُ على الخصوصِ، بل أرادَ: مَن هذا شأنُه فهذا حكمُه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٢)، و«التيسير» (ص: ٨٠).

وقيلَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطابٌ لولاةِ الأمرِ والفُقهاءِ القائمين بأمورِ الكافَّةِ.

[كان مِن حقِّ النَّظْمِ أن يكون: «فإن خافا» يعني: الزوجين؛ ليُشاكِلَ قولَه: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾]، وفي قراءةِ حمزةَ: «فإن خِيفا» ليُشاكِلَ قراءتَه ﴿إلا أن يُخافا﴾ بضمِّ الياءِ(١).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحدودُ في الشَّرعِ الموانعُ التي مُنِعَ العبدُ من تعدِّيها.

﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا حرجَ في الافتداءِ، لا عليها فيما بذَلَتْ، ولا عليه فيما أخذَ.

* * *

(٢٣٠) ـ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ يعني الطَّلْقةَ الثّالثةَ، ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾ أي: انقطعَ حقُّ الارتجاعِ، ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ وهو رفعٌ على الغايةِ؛ لأنَّه حُذِفَ من الكلامِ ما يُضافُ إليه «بعد» فرُفعَ على الغايةِ.

---

(١) انظر: «البسيط» (٤/ ٢٣٠)، وما بين معكوفتين منه، ولابد منه؛ لأن إسقاطه يوهم أن حمزة قرأ: (فإن خيفا)، وليس كذلك، بل المراد أنه كان من حق النظم ذلك. ثم عقبه الواحدي بقوله: لا يلزم هذا، لأمرين:
أحدهما: أن يكون انصرف من الغيبة إلى الخطاب كما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] ونظائره كثيرة.
وخاطب في هذه الآية الجماعة بعد ما أخبر عن اثنين؛ لأنّ ضمير الاثنين في ﴿يَخَافَآ﴾ ليس يراد به اثنان مخصوصان، إنما يراد به أن كل من هذا شأنه فهذا حكمه.
والآخرُ: أن قولَه: (فإن خفتم) خطابٌ لولاة الأمر والفقهاء الذين يقومون بأمور الكافة، وقد خاطب الله تعالى في هذه الآية الجميعَ بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ ثم رجع إلى الزوجين فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾، ثم رجع إلى المخاطبين بالجمع بينهم وبين الزوجين في لفظ واحد فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا﴾. وقد اجتزأ المصنف الكلام مما قبله ومما بعده.

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: غيرَ المُطلِّقِ، ثمَّ لا خلافَ أنَّ مُجرَّدَ نكاحِ الثّاني لا يكفي في التَّحليلِ ما لـم يجرِ دخولٌ، ثمَّ تطليقٌ، فكأنَّه أدَّبَ هذا الذي يُطلِّقُ ثلاثًا ليتثبَّتَ في الطَّلاقِ؛ فإنَّه يعظُمُ على المرءِ أن ينكحَ امرأتَه غيرُه، فالنِّكاحُ هو المذكورُ في الآيةِ، ولكنْ ضُمَّ إليه الوَطْءُ بالسُّنّةِ، ولهذا قال عليه السَّلامُ في الخبرِ المعروفِ: «لا، حتَّى تذوقي عُسَيلتَه، ويذوقَ عُسيلتَكِ».

وقيلَ: المعنى حتَّى تُنكَحَ نكاحًا مُحقَّقًا بالوطءِ.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾؛ أي: إنْ طلَّقَها الزَّوجُ الثّاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾؛ أي: على المرأةِ والزَّوجِ الأوَّلِ ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾؛ أي: بنكاحٍ جديدٍ، وسمَّاه تراجُعًا لِـمَا كان بينَهما من قبلُ من الزَّوجيّةِ، فهو تراجعٌ لغويٌّ.

وقيلَ: أرادَ: إنْ طلَّقَها الزَّوجُ فلا بأسَ لو راجعَها في وقتٍ تُتصَوَّرُ الرَّجعةُ، فهذا تراجعٌ شرعيٌّ.

﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾؛ أي: في أن يتراجَعا، فهو في محلِّ الخفضِ للجارِّ المُقدَّرِ، وعند قومٍ في محلِّ النَّصبِ بنزعِ الخافضِ.

﴿إِن ظَنَّآ﴾؛ أي: عَلِما، أو غلَبَ على ظنِّهما، ثمَّ إنْ لـم يغلِبْ ذلك على القلبِ صحَّ النِّكاحُ، وهو كقولِه: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: موانعُ الشَّرعِ ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خصَّهم بالذِّكرِ وإن كان البيانُ لهم ولغيرِهم؛ لأنَّهم الذين ينتَفِعون ببيانِ الآياتِ.

وقيلَ: هو تشريفٌ لهم وتخصيصٌ بالذِّكرِ.

* * *

(٢٣١) ـ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ كرَّرَ بيانَ الارتجاعِ ـ وأنَّه ينبَغي أن يقعَ من غيرِ قصدِ إضرارٍ ـ تأكيدًا للأمرِ.

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: قارَبْنَ انقضاءَ العِدَّةِ، كقولك: «بلغْتُ البلدةَ»؛ أي: قرُبْتُ منها وأشرفتُ عليها، والأجلُ: آخرُ المدَّةِ وعاقبةُ الأمرِ، يُقالُ: أَجَّلتُه تأجيلًا؛ أي: أخَّرتُه.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: على ما عرفتُم من محاسنِ الشَّرعِ وتركِ المُضارّةِ.

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: اترُكوهُنَّ حتَّى تنقضيَ عدَّتُهنَّ، ومنَ التَّسريحِ بالمعروفِ أيضًا: سوقُ تمامِ مهرِها إليها، وإمتاعُها بما تستعينُ به إلى أن تتزوَّجَ زوجًا آخرَ.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾؛ أي: لا تُراجِعُوهنَّ مُضارّةً ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾؛ أي: لتظلِمُوهُنَّ بتطويلِ العِدَّةِ، والاعتداءُ الظُّلمُ.

وقيلَ: اللَّامُ للعاقبةِ؛ أي: إن فعلتُم ذلك كنتُم مُعتَدين، كقولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [القصص: ٨]؛ أي: فكانت العاقبةُ أنَّه كانَ عدوًّا لهم.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ أي: بخَسَ بحقِّ نفسِه منَ الخيرِ، أو حمَّلَ نفسَه ما لا تُطيقُه منَ العذابِ، يُقالُ: «فلانٌ يظلمُ نفسَه»؛ أي: عمِلَ شيئًا ثقيلًا، أو وضعَ نفسَه في غيرِ موضعِها؛ إذ من حقِّه أن يستعملَها في الطَّاعةِ لا المعصيةِ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ قال أبو الدَّرداءِ: كان الرَّجلُ يُطلِّقُ في الجاهليّةِ

ويقـولُ: إنَّمـا طلَّقـتُ وأنـا لاعبٌ، وكذلـك كان ينكـحُ ويُعتِـقُ ويقولُ: كنـتُ لاعبًا، فنزلـت هـذه الآيةُ، فقـال عليه السَّـلامُ: «مَن طلَّقَ أو حـرَّرَ أو نكحَ أو أنكـحَ فزعمَ أنَّه لاعبٌ فهو جِـدٌّ»(١).

وقيلَ: أي: لا تترُكوا أوامرَ الله فتكونُوا مُقصِّرين لاعِبين.

ويدخُلُ في هذه الآيةِ الاستغفارُ منَ الذَّنبِ قولًا مع الإصرارِ فعلًا.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بالإسلامِ وبيانِ الأحكامِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا إشارةٌ إلى الجزاءِ.

***

(٢٣٢) ـ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ بيَّنَ أنَّه ليس للوليِّ منعُ المرأةِ منَ التَّزوُّجِ إذا طلبت التَّزويجَ، قال معقِلُ بنُ يسارٍ: فِـيَّ نزلَتْ هذه الآيةُ، وكنتُ زوَّجْتُ أختًا لي من ابنِ عمٍّ لي، فطلَّقَها طلاقًا رجعيًّا وتركَها حتَّى انقضَتْ عدَّتُها، ثمَّ خطبَها مع الخُطّابِ، فقلتُ: منعتُها النّاسَ وزوَّجتُك إياها، ثمَّ طلَّقتَها

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» ـ ط عوامة ـ (١٨٧١٩)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٨٨) من طريق عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال الهيثمي: «وفيه عمرو بن عبيد، وهو من أعداء الله». وعمرو بن عبيد كان يكذب على الحسن كما في «المجروحين» (٢/ ٧٠)، كما أن الحسن لم يسمعه من أبي الدرداء.

وروري من طرق عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً. رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٢٥).

طلاقًا له رجعةٌ، ثمَّ تركتَها حتَّى انقضَتْ عِدَّتُها، فلمّا خُطِبَتْ إليَّ أتيتَني تخطبُها، والله لا أُزوِّجُك أبدًا، فنزلَت الآيةُ، فكفَّرتُ عن يميني وأنكحتُها إياه[١].

وقال السُّدِّيُّ: نزلت في جابرِ بنِ عبدِ الله، زوَّجَ بنتَ عمٍّ له، فطلَّقَها زوجُها تطليقةً، فانقضَتْ عِدَّتُها فرجعَ يُريدُها، فأبى جابرٌ، فنزلتِ الآيةُ[٢].

﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني هاهنا ببلوغِ الأجلِ: انقضاءَ العِدَّةِ؛ لأنَّ ابتداءَ النّكاحِ إنَّما يُتصوَّرُ بعد انقضاءِ العدّةِ.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العَضْلُ: المنعُ، يُقالُ: عضَلَ فلانٌ أيِّمَه؛ أي: منعَها منَ التَّزوُّجِ، يَعْضُلُها ويَعْضِلُها بالضَّمِّ والكسرِ، وأصلُه في اللُّغةِ منَ الضِّيقِ، وعضَّلَتِ المرأةُ؛ أي: نَشِبَ ولدُها في بطنِها، وعضَّلَتِ الأرضُ بالجيشِ؛ أي: ضاقَتْ بهم، وأعضَلَ الدّاءُ الأطبّاءَ؛ أي: أعياهُم، ومنه: الدّاءُ العُضالُ، وأعضَلَ الأمرُ؛ أي: اشتَدَّ.

﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾؛ أي: الذين كانوا أزواجًا لهنَّ.

وقيل: مَن رضينَ بهم أزواجًا.

﴿أَن يَنكِحْنَ﴾؛ أي: من أن ينكِحْنَ، فهو نصبٌ بنزعِ الخافضِ، أو خفضٌ بتقديرِ الجارِّ.

﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: ينكِحْنَ بالمعروفِ إذا تراضَوا بينَهم، يعني: تراضيَ الأزواجِ والنِّساءِ، فذُكِرَ بلفظِ التَّذكيرِ تغليبًا للمُذكَّرِ، كقولك: «جواريكَ وغِلمانُك خارجونَ».

---

(١) رواه البخاري (٥١٣٠)، وأبو داود (٢٠٨٧)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه. وليس في رواية البخاري: «فكفرت عن يميني».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ١٩١).

وقيلَ: معنى الآيةِ: أيُّها الأزواجُ إذا طلَّقتُم النِّساءَ فانقَضَتْ عدَّتُهنَّ فلا تمنَعُوهنَّ منَ التَّزوُّجِ بالأزواجِ الذين يرضَينَ بهم؛ فإنَّ المُطلِّقَ قد تحمِلُه الغيرةُ وطلبُ المُضارّةِ على تنفيرِ الأزواجِ عنها، فيقولُ: ما طلَّقتُها، أو يقولُ: قد راجعتُها، أو يتهدَّدُ مَن يريدُ التَّزوُّجَ بها.

ودليلُ هذا القولِ: أنَّ أوَّلَ الآيةِ أيضًا خطابٌ للأزواجِ، والقائلُ الأوَّلُ يقولُ: لا يُقالُ للزَّوجِ: لا تعضِلْها عنِ الأزواجِ، ومن جُملتِهم أنتَ أيُّها المُطلِّقُ.

وسُمِّيَ مَن طلَّقَ زوجًا استصحابًا للحالِ؛ أي: كان زوجًا، والآيةُ عامّةٌ؛ أي: لا تمنَعُوهُنَّ أيُّها الأولياءُ منَ التَّزوُّجِ بأزواجِهنَّ القُدماءِ أو غيرِهم.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ لم يقُلْ: «ذلكم» لأنَّ الجماعةَ في معنى القبيلِ، وقال الفرَّاءُ: «ذلك» حرفٌ كثر في الكلامِ حتَّى تُوهِّمَ أنَّ الكافَ منَ الكلمةِ وليست بخطابٍ، فلهذا جاز مُخاطبةُ الرَّجلِ والمرأةِ والاثنين والجماعةِ بالكافِ المنصوبةِ، وقد قال الله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧] فثنَّى، وقال: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] فجمعَ، وقال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ﴾ وإنْ خاطبَ جمعًا[1].

وأنكرَ الزَّجَّاجُ هذا، وقال: لا يجوزُ على الله التَّوهُّمُ حتَّى تختلطَ هذه الكافُ بالكافِ التي تكونُ من الحروفِ[2].

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ هذا التَّوهُّمَ يعودُ إلى أهلِ العُرفِ، فخاطبَهم الله بلُغتِهم، وهذا كقولِهم: تمكَّنَ فلانٌ منَ الشَّيءِ، فظنُّوا أنَّ ميمَ المكانِ أصليّةٌ فبنَوا منه الفعلَ[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤٩)، و«البسيط» (٢/ ٢٤٢) وعنه نقل المصنف.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣١١)، و«البسيط» (٢/ ٢٤٢).

(٣) انظر: «البسيط» (٢/ ٢٤٢).

﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لـمَّا نزلَت الآيةُ قال معقِلُ بنُ يسارٍ: أنا مُؤمنٌ بالله واليومِ الآخرِ، وكفَّرَ عن يمينِه وقال: رغِمَ أنفي لأمرِ الله، وزوَّجَها منه[1].

وإنَّما خصَّ المؤمنين لأنَّهم المُنتَفِعون بفروعِ الدِّينِ، والمُمْتَثِلون لأمرِ الله، وهو كقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: أطهَرُ لقلوبِكم، وخيرٌ لكم؛ لأنَّه إذا كان في نفسِ كلِّ واحدٍ منهما علاقةُ حبٍّ فقد يُفضي ذلك إلى ارتكابِ الحرامِ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾؛ أي: من مصالِحكم ما لا تعلَمونَه.

* * *

(٢٣٣) ـ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ لـمَّا ذكرَ النِّكاحَ والطَّلاقَ ذكرَ الولدَ؛ فإنَّ الزَّوجَين قد يفترَقانِ وثَمَّ ولدٌ، فالآيةُ إذنْ في المُطلَّقاتِ اللّاتي لهنَّ أولادٌ من أزواجِهنَّ؛ أي: هُنَّ أحقُّ بإرضاعِ أولادِهنَّ من الأجنبيّاتِ؛ لأنَّهن أحنَى وأرقُّ، وانتزاعُ الولدِ الصَّغيرِ منَ الأمِّ إضرارٌ به وبها.

وهذا يدلُّ على أنَّ الولدَ وإنْ فُطِمَ فالأمُّ أحقُّ بحضانتِه لفضلِ حُنوِّها وشفقتِها، وإنَّما تكونُ أحقَّ بالحضانةِ إذا لم تتزوَّجْ، فإنْ تزوَّجَتْ فذاك يقطعُها عن الحضانةِ،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣١١)، و«البسيط» (٢/ ٢٣٨).

فغيرُها من نساءِ قراباتِه أحقُّ بحضانتِه، وإذا بلغَ الولدُ ثمانيَ سنين - وهو سنُّ التَّمييزِ - خُيِّرَ بينَ أبوَيه كما وردَ به الخبرُ.

وعلى هذا يُشكِلُ قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾؛ لأنَّ المُطلَّقةَ لا تستحقُّ الكسوةَ إذا لـم تكُنْ رجعيَّةً بل تستحِقُّ الأجرةَ، إلّا أن يحملَ على مكارمِ الأخلاقِ، فيُقالُ: الأَولى ألّا تنقُصَ الأجرةُ مـمَّا يكفيها لقوتِها وكِسوتِها، حتَّى إذا علمَ الولدُ أنَّ هذه الأجرةَ لا تكفيها وليس لها مُتمسَّكٌ آخرُ فلا بدَّ أن يوصِلَ إليها ما يُقيمُ الولدَ، والذي يُقيمُ الولدَ هو الذي يُقيمُها منَ النَّفقةِ والكِسوةِ.

وقيلَ: الآيةُ عامّةٌ في المُطلَّقاتِ اللَّواتي لهنَّ أولادٌ، وفي الزَّوجاتِ.

والأظهرُ أنَّها في الزَّوجاتِ في حالِ بقاءِ النِّكاحِ؛ لأنَّهنَّ المُستَحِقّاتُ للنَّفقةِ والكِسوةِ، والزَّوجةُ تستحِقُّ النَّفقةَ والكِسوةَ أرضعَتْ أو لـم تُرضِعْ، والنَّفقةُ والكِسوةُ في مُقابلةِ التَّمكينِ، فإذا اشتغَلَتْ بالإرضاعِ لـم يكمُلِ التَّمكينُ، فقد يُتوهَّمُ أنَّ النَّفقةَ تسقُطُ، فأزالَ هذا الوهمَ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾؛ أي: الزَّوجِ ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ في حالِ الحضانةِ؛ لأنَّ اشتغالَـها بها من مصالحِ الزَّوجِ، فصارَ كما لو سافرَتْ لحاجةِ الزَّوجِ بإذنِه فإنَّ النَّفقةَ لا تسقُطُ.

﴿يُرْضِعْنَ﴾ خبرٌ معناه الأمرُ، ثمَّ هو أمرُ استحبابٍ إذا كانَ ثَمَّ مُرضِعٌ أخرى، ولو وجبَ الإرضاعُ لَمَا حسُنَ منها طلبُ الأجرةِ.

﴿حَوْلَيْنِ﴾؛ أي: سنتَين، من حالَ الشَّيءُ: إذا انقلبَ، فالحولُ مُنقلبٌ منَ الوقتِ الأوَّلِ إلى الثّاني.

﴿كَامِلَيْنِ﴾ قيَّدَ بالكمالِ لأنَّ القائلَ قد يقولُ: «أقمتُ عند فلانٍ حولَين» وهو يعني: حولًا وبعضَ الآخرِ، قالَ الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وإنَّما يُتعجَّلُ في يومٍ وبعضِ الثّاني.

ثمَّ ليس إرضاعُ الحولَين حتمًا؛ فإنَّه يجوزُ الفِطامُ قبل الحولَين، ولكنَّه تحديدٌ لقطعِ التَّنازعِ بين الزَّوجين في مدّةِ الرَّضاعِ، فلا يجبُ على الزَّوجِ إعطاءُ الأجرةِ لأكثرَ من حولَين، فإنْ أرادَ الأبُ الفطامَ قبل هذه المدَّةِ ولـم ترضَ الأمُّ بذلك لـم يكُنْ له ذلك، والزِّيادةُ على الحولَين أو النُّقصانُ إنَّما يجوزُ عند عدمِ الإضرارِ بالمولودِ وعند رِضا الوالدَين.

والرَّضاعُ الذي يتعلَّقُ به الحرمةُ مـا يقعُ فـي الحولَين، وعند أبي حنيفةَ: مُدّةُ حصولِ التَّحريمِ ثلاثون شهرًا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: إنْ وضعَتْ لتسعةِ أشهرٍ أرضعَتْ أحدًا وعشرينَ شهرًا، وإن وضعَتْ لسبعةِ أشهرٍ أرضعَتْ ثلاثةً وعشرين شهرًا طلبًا لتمامِ ثلاثين شهرًا؛ لقولِه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهذه الآيةُ عندنا نزلت في تعظيمِ قَدْرِ الوالدةِ لمُقاساتِها المشقّاتِ في طولِ هذه المدّةِ فلا تعلُّقَ له بأمرِ الإرضاعِ وأمَدِه.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾؛ أي: لا يُكلَّفُ واحدٌ منهم الزِّيادةَ على الحولَين ولا النُّقصانَ منهما، بل يثبُتُ ذلك باتِّفاقِهما، وقولُه: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ يدُلُّ على أنّهما لو اتَّفقا على النَّقصِ منَ الحولَين جازَ، ويُقالُ: رضِعَ المولودُ يرضَعُ، مثلُ: حَمِدَ يَحْمَدُ، رَضاعةً ورَضَاعًا، بفتحِ الرّاءِ، ورضَعَ يَرْضِعُ، مثلَ: ضرَبَ يضرِبُ، رِضاعةً ورِضاعًا بكسرِ الرّاءِ.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾؛ أي: على الأبِ، ويجوزُ في العربيّةِ: «وعلى المولودِ لهم» كقولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]، لأنَّ المعنى: وعلى مَن وُلِدَ له، و«مَنْ» يُعبَّرُ به عن الواحدِ والجمعِ.

﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ الكِسوةُ والكُسوةُ: اللِّباسُ، وعنى بالرِّزقِ: النَّفقةَ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالمُتعارفِ في عُرفِ الشَّرعِ من غيرِ تفريطٍ ولا إفراطٍ.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ التَّكليفُ: الإلزامُ، منَ الكَلَفِ وهو الأثرُ على الوجهِ منَ السَّوادِ، وتكلَّفَ الأمرَ؛ أي: اجتهدَ أن يتبيَّنَ فيه أثرَه.

والوُسْعُ: ما يُطيقُه المرءُ، وهو من سعةِ الطَّريقِ.

والمُرادُ بالنَّفسِ: الزَّوجُ هاهنا، وقيلَ: المرأةُ.

وقيلَ: يرجعُ إليهما؛ أي: لا تُكلَّفُ المرأةُ الصَّبرَ على التَّقتيرِ في الأجرةِ، ولا يُكلَّفُ الزَّوجُ ما هو إسرافٌ، بل يُراعَى القصدُ.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ قُرِئَ بالنَّصبِ وموضِعُه جزمٌ على النَّهيِ، وأصلُه: «لا تُضَارَرْ» فأُدغِمَت الرّاءُ الأولى في الثّانيةِ، وفُتِحَت الثّانيةُ لالتقاءِ السّاكنَين، وهكذا يُفعَلُ في المُضعَّفِ إذا كان قبلَه فتحٌ أو ألفٌ، تقولُ: «عضَّ يا رجلُ»، و«ضارَّ فُلانًا يا رجلُ»؛ أي: لا يُنزَعُ الولدُ منها إذا رضيَتْ بالإرضاعِ وأَلِفَها الصَّبيُّ، ولا تُلقي هي الولدَ إلى الأبِ إضرارًا به إذا عرَفَها الولدُ، أو لا[1] تُضارَّ والدةٌ فتُكرَهَ على الإرضاعِ إذا قبِلَ من غيرِها؛ إذ ليس يجبُ عليها الإرضاعُ، ولا يُضارَّ الأبُ حتَّى يُلزَمَ أكثرَ من أجرِ المثلِ.

وقيلَ: أصلُه: «لا تُضارِرْ والدةٌ بولدِها» بكسرِ الرّاءِ، فأُدغِمَت فصارَ «لا تُضارَّ»، فتكونُ هي الفاعلةَ بالضِّرارِ، وكذلك يكونُ الوالدُ فاعلًا للضِّرارِ؛ أي: لا تفعلِ الأمُّ الضِّرارَ بالأبِ بسببِ الولدِ فتمتنعَ منَ الإرضاعِ أو تطلُبَ أكثرَ من أجرِ مثلِها، ولا الأبُ بأن ينزعَ الولدَ منها مع رغبتِها في الإرضاعِ.

---

(١) في (أ): «ولا».

ويجوزُ أن يرجعَ الضِّرارُ إلى الصَّبيِّ؛ أي: لا يفعَلْ كلُّ واحدٍ منهما الضَّررَ بالصَّبيِّ بأن لا تُرضِعَه الأمُّ، ولا يُنفِقَ عليه الأبُ، أو ينتزِعَه منَ الأمِّ مع إلفِه لها، فتكونُ الباءُ على هذا زائدةً؛ أي: لا تُضارَّ والدةٌ ولدَها ولا أبٌ ولدَه، فمَن قال: أصلُه: «لا تُضارَرْ» فهو على مذهبِ الفعلِ المجهولِ، ومَن قال: «لا تُضارِرْ» فعلى مذهبِ إظهارِ الفاعلِ.

وقرأ أبو عمرٍو وجماعةٌ: ﴿لا تُضارُّ﴾ برفعِ الرّاءِ[1] على الخبرِ عطفًا على قولِه: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهو خبرٌ، والمُرادُ به الأمرُ.

وفي روايةٍ شاذّةٍ عن الحسنِ: (لا تُضارِّ) بكسرِ الرّاءِ[2] كما يُقالُ: «لا تُرادِّ» بكسرِ الدّالِ.

ومَن قرأ ﴿لا تُضارُّ﴾ بالرَّفعِ يجوزُ أن يُريدَ النَّهيَ، كما تقولُ: «لا تردُّ»[3] بضمِّ الدّالِ في النَّهيِ على قولِ قومٍ.

وقرأ أبو جعفرٍ في روايةٍ: ﴿لا تُضارْ والدةٌ﴾ و: ﴿لا يضارْ كاتب﴾ [البقرة: ٢٨٢] بالتَّخفيفِ والجزمِ[4]، **وهذا بعيدٌ**؛ لأنَّ المثلَين إذا اجتمَعا وهما أصليّانِ لم يجُزْ حذفُ أحدِهما للتَّخفيفِ، فإمَّا الإدغامُ وإمَّا الإظهارُ.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ هو معطوفٌ على قولِه: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ ثمَّ، قيلَ

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة بفتح الراء المشددة. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٣)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٧٠)، و«البحر» (٤/ ٢٩٨).

(٣) في (أ) زيادة: «بالضم أي».

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

المُرادُ: وعلى مَن يرِثُ المولودَ لو ماتَ وقد ماتَ أبوه من قراباتِه ما على الوالدِ من تحمُّلِ مُؤنةِ الرَّضاعِ، وعند هؤلاءِ هذا أصلٌ في وجوبِ النَّفقةِ على الأقاربِ وإنْ لم يكونوا على عمودِ النَّسبِ؛ لأنَّ الإنفاقَ على المُعسرِ كالإنفاقِ على المُرضعةِ؛ لأنَّ ذلك بسببِ الرَّضيعِ.

ثمَّ قيلَ على هذا: أراد بالوارثِ: مَن كان عصبةً منَ الرِّجالِ.

وقال أحمدُ وإسحاقُ: هو وارثُ الصَّبيِّ عَصَبةً كان أو غيرَ عَصَبةٍ، ثمَّ ذلك عليهم على قَدْرِ مواريثِهم.

وقال أبو حنيفةَ: هو مَن كان مَحْرَمًا.

وقال قومٌ: الوارثُ هو المولودُ نفسُه الذي هو وارثُ أبيه إذا تُوفِّيَ، فمُؤنتُه في مالِه إن كان له مالٌ في حياةِ أبيه، وإنْ ماتَ أبوه فمُؤنتُه فيما ورِثَ من أبيه، فإنْ لم يكُنْ له مالٌ أُجبِرَت الأمُّ على الإرضاعِ، ولا تجبُ نفقةُ الشَّخصِ إلّا على مَن كان على عمودِ النَّسبِ، وهذا قولُ الشّافعيِّ ومالكٍ.

وقيلَ: مُؤنةُ الأمِّ والأبِ من مالِ الصَّبيِّ إذا كان له مالٌ، فالمعنى: إذا ماتَ الأبُ فعلى الصَّبيِّ نفقةُ أمِّه، ذكرَه ابنُ جريرٍ.

وقيلَ: أرادَ بالوارثِ: الباقيَ منَ الوالدَين؛ أي: إنْ ماتَ الأبُ فعلى الأمِّ كفايةُ الطِّفلِ إذا لم يكُنْ له مالٌ.

﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أرادَ بهذا المثلِ: النَّفقةَ والكِسوةَ ومُؤنةَ الإرضاعِ.

وقيلَ: تَرْكَ المُضارَّةِ، فأمّا أن يُغرَّمَ الوارثُ النَّفقةَ فلا.

وقيلَ: أرادَ بالمثلِ: النَّفقةَ وتركَ المُضارّةِ جميعًا.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾؛ أي: إنْ أرادَ الوالـدانِ فصالًا؛ أي: فطامًا؛ لأنَّـه يُفصَلُ المولـودُ عـن الاغتـذاءِ بلبـنِ أمِّه إلى غيـرِه منَ الأقـواتِ، ومنه سُـمِّيَ الفصيـلُ؛ لأنَّه مفصـولٌ عـن أمِّه.

﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾؛ أي: قبلَ الحولَين؛ لأنَّ بعد الحولَين لا يجبُ على كلٍّ[1] واحدٍ منهما اتِّباعُ الآخرِ.

﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ التَّشاوُرُ: استخراجُ الرَّأيِ، وكذلك المشورةُ، والمَشورةُ كالمَعونةِ، وشُرْتُ العسلَ؛ أي: استخرَجْتُه، وشُرْتَ الدّابةَ وشَوَّرْتُها؛ أي: أجرَيتُها لاستخراجِ جريِها، والشّوارُ[2] متاعُ البيتِ؛ لأنَّه يَظهرُ[3] للنّاظرِ، وتشوَّرَ فلانٌ وشوَّرتُه؛ أي: ظهرَت عورتُه، والشّارةُ: هيئةُ الرَّجلِ، والإشارةُ: إخراجُ ما في نفسِكَ وإظهارُه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: لا حرَجَ.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾؛ أي: لأولادِكـم، مثل: ﴿كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]؛ أي: كالوا لـهم أو وزَنُوا لهم، ولا يجوزُ: «دعوتُ زيدًا»؛ أي: دعوتُ لزيدٍ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى التَّلبيسِ، فيُعتبرُ في هذا النَّوعِ السَّماعُ.

﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: إذا سلَّمتُم إلى الأمِّ أجرتَها بمقدارِ[4] ما أرضعَتْ، أو سلَّمتُم أجرةَ المُرتضعةِ.

---

(١) «كل» من (أ).

(٢) مثلثة الشين كما في «القاموس» (مادة: شور).

(٣) في (أ): «لأنها تظهر».

(٤) في (أ): «بقدر».

وقيلَ: أي: إذا سَلَّمْتُم إلى الأمِّ المُطلَّقةِ حقَّها من الصَّداقِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿إذا سلمتم ما أَتَيْتُم﴾ بقصرِ الألفِ[1]؛ أي: ما فعلتُموه منَ الإنفاقِ، تقولُ: «أتيتُ جميلًا»؛ أي: فعلتُه.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: سلَّمتُم بالمعروفِ، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بالإيتاءِ.

وقولُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: ما دُمتُم تطلُبونَ الصَّلاحَ في أحوالِكم.

***

(٢٣٤) - ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ لـمَّا ذكرَ عدَّةَ المُطلَّقاتِ، واتَّصلَ بذكرِها ذكرُ الإرضاعِ ذكرَ عدَّةَ الوفاةِ أيضًا لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ عدّةَ الوفاةِ مثلُ عدَّةِ الطَّلاقِ.

﴿وَالَّذِينَ﴾ أي: والرِّجالُ الذين يموتون منكم.

والتَّوفِّي: أخذُ الشَّيءِ وافيًا، تقولُ: «توفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفيتُه»، ويُقالُ: تُوفِّي فلانٌ؛ أي: قُبِضَ، وتَوَفَّى فلانٌ؛ أي: استوفَى أُكلَه وعُمرَه.

﴿مِنكُمْ﴾ خطابٌ للمسلمين، وقيلَ: للمُكلَّفين؛ فإنَّ الكافرَ مُخاطَبٌ بالتَّفاصيلِ بشرطِ تقديمِ الإيمانِ.

﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: يترُكون، يُقالُ: «يَذَرُ» و«ذَرْ»، وأُميتَ باقي التَّصرُّفاتِ، ومثلُه: «يدَعُ» و«دَعْ»، وتقولُ: «ذَرْه تركًا»، كما تقولُ: «اضرِبْه ضرْبًا».

والمعنى: والذين يُتوفَّونَ منكم ولهم زوجاتٌ فالزَّوجاتُ يتربَّصْنَ.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: تقديرُه: الذين يُتوفَّونَ منكم ويذَرونَ أزواجًا يتربَّصْنَ

---

(١) هي قراءة ابن كثير من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٣)، و«التيسير» (ص: ٨١).

بعدَهم، وهو كقولِك: «السَّمنُ منَوانِ بدرهمٍ»؛ أي: منَوانِ منه بدرهمٍ.

والأوَّلُ ذكرَه الزَّجَّاجُ[1]، وحذفُ المبتدأ في كلامِهم كثيرٌ كقولِك: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢]؛ أي: هو، وقال: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: ١٩٦]؛ أي: تقلُّبُهم، فحُذِفَ المُبتدأُ المُضافُ، فكذا فيما نحنُ فيه.

﴿وَعَشۡرٗا﴾ ذُكِرَ بلفظِ التَّأنيثِ، وأرادَ الأيَّامَ، وفيه أقوالٌ:

قيلَ: هو لتغليبِ اللَّيالي على الأيَّامِ إذا اجتمَعَتْ في التّاريخِ؛ لأنَّ ابتداءَ الشَّهرِ باللَّيلِ عند الاستهلالِ، فلمَّا كان أوَّلُ الشَّهرِ اللَّيلةَ تقولُ: «صُمْنا خمسًا منَ الشَّهرِ»، فتُغلِّبُ اللَّياليَ وإنْ كانَ الصَّومُ بالنَّهارِ؛ لأنَّ ليلةَ كلِّ يومٍ قبلَه، بلى يُقالُ: «صُمْنا خمسةَ أيامٍ، وسِرْنا خمسًا بينَ يومٍ وليلةٍ».

وقيلَ: أنَّثَ العشرَ لأنَّه أرادَ اللَّياليَ، وقد تذكرُ العربُ اللَّياليَ وتُريدُ الأيَّامَ كقولِهم: «خرَجْنا لياليَ الفتنةِ»، و«لياليَ إمارةِ الحَجَّاجِ» يُريدون الأيَّامَ بلياليها، وهذا يقرُبُ منَ الأوَّلِ.

وقال المُبرِّدُ: أنَّثَ العشرَ لأنَّه أرادَ المُدَّةَ؛ أي: وعشرَ مُدَدٍ، كلُّ مدَّةٍ فيها يومٌ وليلةٌ، واللَّيلةُ مع يومِها مدَّةٌ معلومةٌ منَ الدَّهرِ.

وجرى الأوزاعيُّ والأصمُّ وجماعةٌ على ظاهرِ الآيةِ فقالوا: عدَّةُ المُتوفَّى عنها زوجُها أربعةُ أشهرٍ وعشرُ ليالٍ، وإنْ لم يمضِ عشرةُ أيَّامٍ بعد أربعةِ أشهرٍ.

وهذا في غيرِ الحاملِ، فأمَّا الحاملُ فقد قال الله في سورةِ الطَّلاقِ: ﴿وَأُوْلَٰتُ

---

(١) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٣١٤) عن البصريين وصوَّبه، وذكر القول الآخر المنسوب للفارسي عن الأخفش.

ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وفي الخبرِ أنَّه عليه السَّلامُ قالَ لسبيعةَ الأسلميَّةِ وقد ماتَ زوجُها وهي حاملٌ: «إذا حلَلْتِ فانكِحي مَن شِئْتِ»، فوضعَتْ لأقلَّ من شهرٍ فتزوَّجَتْ(١).

وعند قومٍ: آيةُ سورةِ الطَّلاقِ نسخَتِ الآيةَ التي نحنُ فيها.

والصَّحيحُ: أنَّ هذا تخصيصٌ وبيانٌ وليس بنسخٍ.

ومعنى هذا التَّربُّصِ: التَّصبُّرُ عن النِّكاحِ، وتركُ الخروجِ عن مسكنِ النِّكاحِ، وذلك بأنْ لا تُفارِقَه ليلًا، والإحدادُ وهو تركُ الزِّينةِ والتَّطيُّبِ.

وهذه الآيةُ نسخَتْ قولَه: ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، وإنْ كانت مكتوبةً في المُصحفِ قبلَ تلك الآيةِ؛ إذ ليس ترتيبُ المصحفِ على ترتيبِ النُّزولِ، بل هذا التَّرتيبُ الآنَ هو التَّرتيبُ الذي أمرَ به جبريلُ في الكتابةِ والتِّلاوةِ، وكان رسولُ الله ﷺ يقولُ عند نزولِ كلِّ آيةٍ: «ضَعُوا هذه الآيةَ في سورةِ كذا، في موضعِ كذا»(٢)، كما كان يأمرُه جبريلُ به.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: انقضَتْ عِدَّدُهنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياءُ والحكّامُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعني: من تركِ الإحدادِ، ومنَ التَّزوُّجِ إذا كان ذلك بالمعروفِ؛ أي: بما أذِنَ فيه الشَّرعُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ للأولياءِ منعَهُنَّ عن التَّبرُّجِ والتَّشوُّفِ للتَّزوُّجِ في زمانِ العدَّةِ، وفيه إشارةٌ إلى الأمرِ بالمعروفِ.

***

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤)، وأبو داود (٢٣٠٦)، والنسائي (٣٥١٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٨٦) من حديث عثمان رضي الله عنه.

(٢٣٥) - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لا وِزْرَ عليكم في التَّعريضِ بالخِطبةِ في عدّةِ الوفاةِ، والتَّعريضُ ضدُّ التَّصريحِ، وهو إفهامُ المعنى بالشَّيءِ المُحتملِ له ولغيرِه، وهو من عرضِ الشَّيءِ وهو جانبُه، كأنَّه يحومُ به على الشَّيءِ ولا يُظهِرُه.

وقيلَ: هو من قولِكَ: عَرَّضْتُ الرَّجلَ؛ أي: أهدَيتُ إليه تُحفةً، وفي الخبرِ: أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ وأبا بكرٍ لقِيا الزُّبيرَ في ركبٍ أقبَلُوا منَ الشَّامِ يُريدونَ مكَّةَ، فعرَّضُوا رسولَ الله وأبا بكرٍ ثيابًا بيضاءَ[(١)]؛ أي: أهدَوها إليهما.

فالمُعرِّضُ بالكلامِ يُوصِلُ إلى صاحبِه كلامًا يفهَمُ معناه.

والتَّعريضُ بالخِطبةِ مثلُ أن يقولَ: إنَّكِ لجميلةٌ، إنَّكِ لصالحةٌ، إنَّكِ لنافِقةٌ، إنِّي فيكِ لراغِبٌ، مَن يرغَبُ عنكِ؟

ولا يجوزُ التَّعريضُ بخِطبةِ الرَّجعيةِ؛ لأنَّها كالزَّوجةِ، وأمّا مَن كانت في عدّةِ البينونةِ؛ فالصَّحيحُ جوازُ التَّعريضِ بخِطبتِها.

والخِطبةُ مصدرٌ بمنزلةِ الـخَطْبِ، كقولِك: إنَّه لحسَنُ القِعْدةِ والجِلْسةِ؛ أي: القُعودِ والجلوسِ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٤٣) عن عروة بن الزبير ضمن خبر الهجرة الطويل.

والخِطبةُ التماسُ النِّكاحِ، وخطَبَ فلانٌ فلانةَ؛ أي: سألَها خَطْبَه إليها في نفسِها؛ أي: حاجتَه، ويُقالُ: ما خَطبُكَ؟ أي: ما حاجتُكَ؟

وقيلَ: الخِطبةُ منَ الخطابِ، وهو الكلامُ؛ لأنَّه لا بدَّ منَ الخطابِ في عقدِ النِّكاحِ، ومنه: خَطَبَ خُطبةً، والخَطْبُ: الأمرُ العظيمُ؛ لأنَّه يحتاجُ فيه إلى خطابٍ كثيرٍ، والخِطِّيبى مصدرٌ كالخِطبةِ.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: أسرَرْتُم وأضمَرْتُم منَ التزوُّجِ بها بعد انقضاءِ عدَّتِها، والإكنانُ: السَّترُ والإخفاءُ، يُقالُ: كنَنْتُه وأكنَنْتُه بمعنًى واحدٍ.

وقيلَ: كنَنْتُه؛ أي: صُنْتُه حتَّى لا تُصيبَه آفةٌ، وإنْ لم يكُنْ مستورًا، ومنه: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]، و«درٌّ مكنونٌ»، وأكنَنْتُه؛ أي: أسرَرْتُه وستَرْتُه.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ أي: إمَّا سرًّا وإمَّا إعلانًا، فرخَّصَ في التَّعريضِ دونَ التَّصريحِ.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ السِّرُّ: النِّكاحُ؛ أي: لم يقُلِ الرَّجلُ لهذه المُعتدَّةِ: تزوَّجيني إذا حللتِ، بل يُعرِّضُ إنْ أرادَ، ولا يأخذُ ميثاقَها وعهدَها أن لا تنكحَ غيرَه.

وقيلَ: السِّرُّ: الزِّنا؛ أي: لا يكونَنَّ منكم مُواعدةٌ على الزِّنا في العِدّةِ، ثمَّ التَّزوُّجُ بعدها.

وقيلَ: السِّرُّ: الجِماعُ؛ أي: لا تصِفُوا أنفُسَكم لهنَّ بكثرةِ الجِماعِ؛ فإنَّ ذِكرَ الجِماعِ مع غيرِ الزَّوجةِ فُحشٌ.

وقيلَ: أي: لا تُسِرُّوا إليهنَّ بالتَّصريحِ بالخِطبةِ.

وقولُه: ﴿وَلَٰكِن﴾ موصولٌ بقولِه: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾؛ أي: لا جُناحَ في التَّعريضِ، ولكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ النِّكاحَ، أو الجِماعَ والزِّنا صريحًا.

وقيلَ: موصولٌ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾؛ أي: فعرِّضُوا بالخِطبةِ ولكنْ لا تُصرِّحُوا.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو التَّعريضُ المأذونُ فيه، و﴿إِلَّآ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ بمعنى «لكِنْ»، كقولِه: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]؛ أي: لكِنْ خطأً.

قولُه: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾؛ أي: على عُقدةِ النِّكاحِ، يُقالُ: عزمَ الشَّيءَ وعزَمَ عليه، ومنَ الأمرِ البيِّنِ أنَّ القرآنَ أفصحُ كلامٍ، فما ورَدَ فيه فلا يُعترَضُ عليه، ولا يُشَكُّ في صحَّتِه وفصاحتِه، وقد قالَ الله: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وقال هاهُنا: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾، والمعنى: ولا تعزِمُوا على عُقدةِ النِّكاحِ في زمانِ العِدَّةِ، فأمَّا إضمارُ إيرادِ العقدِ عليها إذا انقضَتْ عدَّتُها فجائزٌ، والعقدُ: الشَّدُّ والتَّوثيقُ.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾؛ أي: يبلُغَ فرضُ الكتابِ أجلَه؛ يعني: حتَّى تنقضيَ العِدّةُ.

وقيلَ: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: الفرضُ؛ أي: حتَّى يبلُغَ الفرضُ أجلَه، كقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ أي: فُرِضَ، وهذا لأنَّ ما كُتِبَ كان القلبُ به أوثقَ، وكان في النُّفوسِ أثبَتَ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ هذا نهايةُ التَّحذيرِ ﴿فَٱحْذَرُوهُ﴾؛ أي: احذَرُوا الله.

وقيل: احذَروا هذا النَّهيَ الذي سبقَ.

***

(٢٣٦) - ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هذا أيضًا من أحكامِ المُطلَّقاتِ؛ أي: لا حرجَ، وأصلُه: الثِّقلُ، والإثمُ ثِقلٌ، فالمعنى: لا وِزْرَ، يُقالُ: جنحَتِ السَّفينةُ؛ أي: مالَتْ لثِقَلِها؛ أي: لا إثمَ في تطليقِ الزَّوجةِ التي لم يُفرَضْ لها في عقدِ النِّكاحِ مهرٌ ولم يجرِ دخولٌ، فرفعُ الحرجِ ليس في الطَّلاقِ؛ إذ لا حرجَ في الطَّلاقِ قبلَ المسيسِ وبعدَ المسيسِ، بل رفعُ الحرجِ في الطَّلاقِ على غيرِ مهرٍ؛ لأنَّ أمرَ المهرِ في الشَّرعِ مُؤكَّدٌ، فقد يُتوهَّمُ أنَّه لا بدَّ من مهرٍ إمّا مُسمًّى وإمّا مهرُ المثلِ، فرُفِعَ الحرجُ في التَّطليقِ وإنْ لم يكُنْ في النِّكاحِ مهرٌ.

ولعلَّهم سألوا عن هذا الصِّنفِ منَ النِّساءِ فبيَّنَ لهم الحكمَ.

وقيلَ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا سبيلَ للنِّساءِ عليكم إذا طلَّقتُموهُنَّ قبلَ المسيسِ وقبلَ الفرضِ بصَداقٍ ولا نفقة.

وقيلَ: أرادَ إباحةَ الطَّلاقِ أيَّ وقتٍ شاءَ، بخلافِ ما لو أراد الطَّلاقَ بعد المسيسِ؛ فإنَّه يجبُ أن يُطلِّقَ للعدّةِ؛ أي: في زمانِ الطُّهرِ.

وفي الآيةِ بيانُ أنَّ التَّزوُّجَ بغيرِ مهرٍ جائزٌ، وهذا إذا صرَّحَتْ بنفيِ المهرِ، وهي المُفوِّضةُ[1]، وبيانُ أنَّه لا إثمَ في تطليقِ هذه المُفوِّضةِ.

وذكرَ صاحبُ «النَّظمِ»[2]:..

(١) المفوضة بفتح الواو وكسرها، فالكسر على نسبة التفويض للمرأة والكسر على نسبته لوليها. وهي المدخول بها التي لم يسم لها مهر.

(٢) «نظم القرآن» لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني الجماجمي، كان يسكن بجرجان بباب =

أنَّ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ بمعنى «الذي»؛ أي: إنْ طلَّقتُم النِّساءَ اللَّاتي لم تمسُّوهُنَّ.

ونزلَتْ هذه الآيةُ في رجلٍ منَ الأنصارِ تزوَّجَ امرأةً من بني حنيفةَ ولم يُسمِّ لها مهرًا، ثمَّ طلَّقَها قبلَ أن يمسَّها، فلما نزلت الآيةُ قالَ له رسولُ الله ﷺ: «متِّعْها ولو بقَلَنْسُوَتِكَ، أمَا إنَّها لا تُساوي شيئًا، ولكنِّي أحببتُ أن أُحيِيَ السُّنَّةَ»[1].

والمُطلَّقاتُ أربعٌ:

- مُطلَّقةٌ مدخولٌ بها مفروضٌ لها، وقد ذكرَ الله حكمَها قبلَ هذه الآيةِ، وأنَّه لا يُستَردُّ منها شيءٌ منَ المهرِ، وأنَّ عِدَّتَها ثلاثةُ قروءٍ.

- ومُطلَّقةٌ غيرُ مفروضٍ لها ولا مدخولٍ بها، فهذه الآيةُ في شأنِها، ولا مهرَ لها، بل أمرَ الرَّبُّ بإمتاعِها، وبيَّنَ في سورةِ الأحزابِ أنَّ غيرَ المدخولِ بها إذا طُلِّقَتْ فلا عدَّةَ عليها في قولِه: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٩].

= الخندق في سكة تعرف بجماجمو. انظر: «تاريخ جرجان» (ص: ١٨٧)، و«الأنساب» للسمعاني (٢/ ٨٠). قلت: وهذا الكتاب قد نقل منه جمع من أئمة التفسير منهم الثعلبي والواحدي والبغوي والقرطبي وأبو حيان وغيرهم.

(١) ذكره بهذا اللفظ مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٢٠٠) على أنه سبب نزول الآية ولم يذكر له سنداً. وكذا فعل أكثر المفسرين كالثعلبي والواحدي والبغوي والزمخشري وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم، وقال الحافظ في «الكاف الشاف» (ص: ٢١): لم أجده. لكنه عزاه في «العجاب» (١/ ٥٩٦) لمجاهد نقلاً عن ابن ظفر. وابن ظفر هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المكي الصقلي المالكي، له: «ينبوع الحياة» في التفسير، توفي (٥٦٥هـ). انظر: «طبقات المفسرين» للداودي (٢/ ١٦٧).

- ومُطلَّقةٌ مفروضٌ لها غيرُ مدخولٍ بها، ذكرَها بعد هذه الآيةِ إذ قال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

- ومُطلَّقةٌ مدخولٌ بها غيرُ مفروضٍ لها، ذكرَها في قولِه: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤].

وفي الآيةِ التي نحنُ فيها دليلٌ أيضًا على أنَّ المُفوِّضةَ إذا وُطِئَتْ تستحقُّ المهرَ؛ لأنَّه قال: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾، وأيضًا هذه الموطوءةُ لا تنحَطُّ عن الموطوءةِ بالشُّبهةِ ثمَّ إنَّها تستحقُّ المهرَ، فما الظَّنُّ بالموطوءةِ في نكاحٍ صحيحٍ؟ ولا عبرةَ بما يُذكَرُ في الخلافِ من أنَّها لا تستحقُّ المهرَ إذا وُطِئَتْ، وقد أجمعتِ[1] الأئمّةُ على أنَّ لها المُطالبةَ بالفرضِ.

ولو ماتَ الزَّوجُ قبلَ الدُّخولِ ففي قولٍ: لا تستحقُّ المهرَ، كما لو طُلِّقَتْ قبلَ الدُّخولِ، بلى عليها عدَّةُ الوفاةِ، ولها الميراثُ والمتعةُ.

وفي القولِ الثّاني: تستحِقُّ المهرَ بحديثِ بَرْوَعَ بنتِ واشقٍ، وعليها العِدَّةُ، ولها الميراثُ[2].

﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ قُرِئَ منَ الثُّلاثيِّ، وقُرِئَ: ﴿ما لم تُماسُّوهُنَّ﴾ من المُفاعلةِ[3]؛ لأنَّ الوطءَ يتمُّ بهما، وقد يرِدُ في بابِ المُفاعلةِ «فاعَلَ» بمعنى «فعَلَ»، نحو: «طارَقْتُ النَّعلَ»، و«عاقَبْتُ اللِّصَّ».

---

(١) في (أ): «اجتمعت».

(٢) رواه أبو داود (٢١١٤)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٣٣٥٦)، عن عبد الله في رَجُلٍ تزوَّج امرأةً فمات عنها ولم يَدخُلْ بها ولم يَفرِضْ لها الصداقَ، فقال: لها الصَّداقُ كاملاً، وعليها العِدَّة، ولها الميراثُ، فقال مَعقِل بن سِنان: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قضى به في بَرْوَعَ بنتِ واشِقٍ.

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٤)، و«التيسير» (ص: ٨١).

﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؛ أي: تُقدِّروا لهنَّ صَداقًا، ولا بدَّ في هذا الفرضِ من اتِّفاقِهما، ثمَّ يجوزُ الفرضُ وإن جهِلا مهرَ المثلِ.

وقيلَ: إنَّما يجوزُ بعد العلمِ بمهرِ المثلِ.

ثمَّ قيلَ: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا۟﴾ معطوفٌ على محذوفٍ قبلَه؛ أي: ما لـم تمسُّوهُنَّ ممَّن فرضتُم لهنَّ أو لـم تفرِضُوا لهنَّ.

وقيلَ: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواوِ، ما لم تمسُّوهُنَّ ولـم تفرِضُوا كقولِه: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطُوهُنَّ من مالِكم ما يُتمتَّعُ به إلى التَّزوُّجِ أو إلى استمرارِ الأَيْمةِ بهنَّ، وهذا بدلٌ عن المهرِ.

وللشّافعيِّ قولٌ في القديمِ: أنَّ المتعةَ لا تجبُ، وهو مذهبُ مالكٍ، ومذهبُ الفقهاءِ السَّبعةِ، لأنَّه قال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، والإحسانُ تفضُّلٌ، وقال: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

والقولُ الجديدُ للشّافعيِّ: وجوبُ المتعةِ، والمُحسِنُ هو الذي يمتثِلُ أمرَ الله، ووجوبُ الإمتاعِ للمُفوِّضةِ المُطلَّقةِ من غيرِ دخولٍ، فأمَّا المُطلَّقةُ التي لها مُسمًّى قبلَ الدُّخولِ فلا تستحقُّ المتعةَ في ظاهرِ المذهبِ، وتستحقُّ في قولٍ، وأمّا المدخولُ بها إذا طُلِّقت ففي استحقاقِها المتعةَ أيضاً قولانِ.

﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ المُوسعُ: الغنيُّ الذي له سعةٌ من غناه، يُقالُ: أوسَعَ الرَّجلُ؛ أي: كثُرَ مالُه، وأوسعَه كذا؛ أي: وسَّعَه عليه.

﴿قَدَرُهُۥ﴾؛ أي: قدرُ مُكنَتِه وطاقتِه، فحُذِفَ المُضافُ إليه.

وقُرِئَ: ﴿قَدرُه﴾ بسكونِ الدَّالِ وفتحِها[١]، يقالُ: قَدَرَ أمرَه يَقْدرُه قَدْرًا وقَدَرًا، وهذا قَدْرُ هذا وقَدَرُ هذا، والقومُ يختَصِمُونَ في القَدْرِ والقَدَرِ، قال الله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ولو خفّفَ جازَ.

﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ المُقتِرُ: الفقيرُ المُقِلُّ، وأقترَ الرَّجُلُ؛ أي: افتقرَ.

والمُتعةُ غيرُ مُقدَّرةٍ، ثمَّ هي عند بعضِ أصحابِ الشّافعيِّ: أقلُّ ما يُتمَوَّلُ.

وعند بعضِهم: يجتهدُ القاضي فيها على ما يليقُ باليسارِ والإعسارِ الحاصلِ للرَّجلِ.

وقيلَ: ينظرُ إلى حالِـها.

وقيلَ: إلى حالِـهما.

ولا تبلغُ المتعةُ نصفَ مهرِ المثلِ، وهو كما يُحطُّ التَّعزيرُ عن الحدِّ، والرَّضخُ عن السَّهمِ، والحكومةُ عن الدِّيةِ.

وقال ابنُ عبّاسٍ: أعلاها خادمٌ، وأوسطُها ثلاثةُ أثوابٍ: دِرْعٌ وخِـمارٌ وإزارٌ، وأدوَنُها وقايةٌ أو شيءٌ منَ الوَرِقِ[٢].

---

(١) قرأ حفص وابن ذكْوان وحمزة والكسائيُّ: ﴿قدره﴾ فِي الحرفين بفتح الدَّال والباقون بإسكانها. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٤)، و«التيسير» (ص: ٨١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٤٣)، بلفظ: أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة.

وفي رواية للطبري: إن كان موسرًا متعها بخادم أو شبه ذلك، وإن كان معسرًا متَّعها بثلاثة أثواب أو نحو ذلك.

﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾؛ أي: متِّعوهُنَّ متاعًا بالمعروفِ؛ أي: بما عُرِفَ في الشَّرعِ منَ الاقتصادِ.

﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: حقَّ ذلك عليهم حقًّا، يُقالُ: حققْتُ عليه القضاءَ وأحققْتُ؛ أي: أوجَبْتُ.

﴿عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين.

وقيلَ: المُحسنين إلى أنفُسِهم بامتثالِ أمرِ الله.

* * *

(٢٣٧) - ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: إن طلَّقتُم وثَمَّ مهرٌ مُسمًّى أو مفروضٌ بعد العقدِ فينشطرُ المهرُ بالطَّلاقِ قبلَ المسيسِ.

﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾؛ أي: فالواجبُ النِّصفُ منَ المهرِ، أو: فالنِّصفُ للزَّوجِ والنِّصفُ للمرأةِ، والنِّصفُ: الجزءُ من اثنينِ، يُقالُ: نصَفَ الماءُ القَدَحَ؛ أي: بلغَ نصفَه، ونصَفَ الإزارُ السّاقَ، وكلُّ شيءٍ بلغَ نصفَ غيرِه فقد نصَفَه.

﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ يعني: النِّساءَ، ولذلك لم تسقُط النُّونُ مع ﴿أَن﴾؛ لأنَّ جمعَ المُؤنَّثِ في المُضارعِ على حالةٍ واحدةٍ في الرَّفعِ والجرِّ والنَّصبِ، وإنَّما يصِحُّ هذا العفوُ منَ البالغةِ العاقلةِ الرَّشيدةِ.

﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ قيلَ: هو وليُّ المرأةِ، وهو أحدُ القولَين،

وإنَّمـا يعفـو الولـيُّ إذا لـم يجرِ دخـولٌ فيفـوتَ الأمـرُ، وإذا ارتفـعَ النِّـكاحُ، فإنَّه لو بقـيَ فهـي مُعرَّضـةٌ لفـواتِ البُضـعِ، وإنَّمـا يعفـو الولـيُّ إذا كان أبًـا أو جـدًّا، فأمَّـا غيرُهما فلا يعفو.

ويُشترَطُ كونُ الصَّداقِ دَينًا، ولا يهبُ الوليُّ العينَ إلّا في وجهٍ بعيدٍ؛ لأنَّ لفظَ العفوِ لا يُستعمَلُ في الأعيانِ، وإنَّما يعفو إذا كانت صغيرةً عاقلةً بكرًا، فإنْ كانت مجنونةً ففي وجهٍ يعفو، وفي وجهٍ لا يعفو؛ لأنَّه لا يرغبُ فيها أحدٌ، وإنْ كانت ثيِّبًا صغيرةً فليس له إسقاطُ مهرِها في ظاهرِ المذهبِ، ولا يعفو عن مهرِ البكرِ البالغةِ، وفيه قولٌ: أنَّه يعفو؛ لأنَّها مُجبرةٌ.

والقولُ الصَّحيحُ: أنَّ الوليَّ لا يعفو قطُّ، والذي بيدِه عقدةُ النِّكاحِ هو الزَّوجُ، وهذا مذهبُ عليٍّ وجماعةٍ منَ الصَّحابةِ(١).

ومقصودُ الآيةِ: النَّدبُ إلى مكارمِ الأخلاقِ منَ الجانبَين، وعلى هذا فليس للوليِّ الإبراءُ عن مهرِ المرأةِ، والمُرادُ: أو يعفوَ الذي كان بيدِه عقدةُ النِّكاحِ، أو يُقالُ: أرادَ الرَّجلَ؛ فإنَّ عُقدةَ النِّكاحِ بيدِه؛ لأنَّه مهما أرادَ تزوَّجَ، وعفوُها: الإبراءُ، وعفوُه ألَّا يُطالبَها بالنِّصفِ العائدِ إليه إذا كان الصَّداقُ في يدِها، وإذا كان الصَّداقُ باقيًا في يدِها فليقُلْ: وهَبْتُ منكِ النِّصفَ الذي عادَ إليَّ، ولفظُ العفوِ لا يكفي في ظاهرِ المذهبِ.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ هـذا خطابٌ للرِّجـالِ والنِّساءِ، فغُلِّبَ الذُّكورُ، واللّامُ بمعنى «إلى»؛ أي: أقربُ إلى التَّقوى والتَّحرُّزِ من النّارِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٣٢) عن علي وابن عباس وجبير بن مطعم وجمع من التابعين، ورواه عن علي أيضاً: ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٤٥).

وقيلَ: أقربُ إلى اتِّقاءِ كلِّ واحدٍ منهما ظلمَ صاحبِه.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: لا تتركوا التَّفضُّلَ، وهذا عامٌّ في جميعِ المُعاملاتِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه عفوُكم واستقصاؤُكم.

* * *

(٢٣٨ ـ ٢٣٩) ـ ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ لمَّا ذكرَ جُملًا منَ الأحكامِ أمرَ بالمُحافظةِ على الصَّلواتِ المكتوباتِ(١)؛ فإنَّها تُذكِّرُ الوعدَ والوعيدَ، وبذكرِها(٢) يهونُ تحمُّلُ التَّكاليفِ.

و﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾: تأنيثُ الأوسطِ، ووَسَطَ فلانٌ القومَ يسِطُهم؛ أي: صارَ في وسطِهم.

ثمَّ؛ ميلُ الشّافعيِّ إلى أنَّ الصَّلاةَ الوُسطى هي الصُّبحُ؛ لأنَّها بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وهي أَولى الصَّلواتِ بالمُحافظةِ عليها؛ لأنَّ وقتَها يدخلُ والنّاسُ نيامٌ، وفيها الجهرُ كالصَّلواتِ اللَّيليّةِ، ولكنَّها واقعةٌ في النَّهارِ.

وقيلَ: الوُسطى: العصرُ؛ لأنَّها بينَ صلاتَين بالنَّهارِ، وصلاتَين باللَّيلِ، وفي الخبرِ: أنَّه قال عليه السَّلامُ يومَ الأحزابِ: «شغَلُونا عنِ الصَّلاةِ الوُسْطى صلاةِ العصرِ، ملأ الله أجوافَهم وقُبورَهم نارًا»(٣)، وهذا اختيارُ أبي حنيفةَ.

---

(١) «المكتوبات» من (أ).

(٢) في (أ): «وتذكيرهما».

(٣) رواه مسلم (٦٢٧/ ٢٠٥) من حديث علي رضي الله عنه.

وقيلَ: إنَّها الظُّهرُ؛ لأنَّها وسطُ النَّهارِ، وهي الوُسطى من صلَواتِ النَّهارِ.

وقيلَ: إنَّها المغربُ؛ لأنَّ أوَّلَ الصَّلاةِ في الوُجوبِ الظهر، ولهذا سُمِّيت الأولى، فالثَّالثةُ هي الوُسْطى، وهي أيضًا وسطٌ في الطُّولِ والقِصَرِ؛ فإنَّها ثلاثُ ركعاتٍ.

وقيلَ: إنَّها صلاةُ العشاءِ الآخرةِ؛ لأنَّها بينَ صلاتَين لا تُقصَرانِ.

وقيلَ: هي إحدى الصَّلواتِ، ولـم تُعيَّنْ لنا حتَّى نُحافِظَ على الجميعِ.

وأفردَ الصَّلاةَ الوُسْطى بالذِّكرِ وإن دخلَتْ في ذكرِ الصَّلواتِ تشريفًا لها، كقولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

والمُحافظةُ على الشَّيءِ: الجهدُ في ألَّا يفوتَ.

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ قيلَ: القُنوتُ: القيامُ.

وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الصَّلاةِ أفضلُ؟ قال: «طولُ القُنوتِ»(١)؛ أي: القيامِ.

وقيلَ: قومُوا لله طائعينَ.

وقال زيدُ بنُ أرقمَ: كنَّا نتكلَّمُ في الصَّلاةِ حتَّى نزلَ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾، فأُمِرْنا بالسُّكوتِ(٢).

فالقُنوتُ على هذا: الإمساكُ عن الكلامِ في الصَّلاةِ.

قولُه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ لـمَّا أمرَ بالقُنوتِ والإتيانِ بأركانِ الصَّلاةِ بيَّنَ أنَّ في حالِ شِدّةِ الخوفِ تصحُّ الصَّلاةُ كيفَما أمكنَتْ، وأنَّ هذه العبادةَ لا تسقطُ عن العبدِ في حالٍ وإنْ كانتِ الحالةُ حالةَ القتالِ، فإنْ كانَ ثَمَّ خوفٌ مّا ولـم يلتَحِم

---

(١) رواه مسلم (٧٥٦) من حديث جابر رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٤٥٣٤) مسلم (٥٣٩) من حديث جابر رضي الله عنهما.

القتالُ فصلاةُ الخوفِ في الشَّرعِ معلومةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

فأمَّا في شدَّةِ الخوفِ فالصَّلاةُ على حسبِ الإمكانِ، ماشيًا كان المرءُ أو راكبًا، مُستقبِلَ القبلةِ أو غيرَ مُستقبلِها، ولا نُقصانَ في عددِ الرَّكعاتِ، بلى يجوزُ الإيماءُ بالرُّكوعِ والسُّجودِ إن مسَّتِ الحاجةُ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾؛ أي: العدوَّ، فحُذِفَ المفعولُ لدلالةِ الكلامِ عليه.

والرِّجالُ: جمعُ راجِلٍ، مثلُ: تاجرٍ وتِجارٍ، وصاحبٍ وصِحابٍ، والرَّاجلُ: الكائنُ على رجلِه، إمَّا ماشيًا أو واقفًا، يُقالُ: رَجَّالةٌ ورُجَّالةٌ[1] ورُجَّالٌ ورَجْلٌ.

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾: هو جمع راكبٍ، مثلَ فُرسانٍ وفارسٍ.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾؛ أي: زالَ الخوفُ فارجِعوا إلى ما أُمرتُم به من إتمامِ الأركانِ؛ أي: اذكُروا الله بالشُّكرِ على الأمنِ وبيانِ الأحكامِ، ولهذا قال: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، فالكافُ في ﴿كَمَا﴾ بمعنى الشُّكرِ، تقولُ: «افعَلْ بي كذا كما فعلتُ بكَ كذا»؛ أي: مُكافأةً وشكرًا، والصَّلاةُ دعاءٌ، وحالةُ الخوفِ أولى الأحوالِ بالدُّعاءِ، فلهذا لم تسقُطِ الصَّلاةُ بالخوفِ، وكان عليه السَّلامُ إذا حزَبَه أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ[2].

* * *

(١) بعدها في (ف): «ورِجالة».

(٢) رواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى».

(٢٤٠) - ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ بيَّنَّا أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ الاعتدادِ بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ، ونزلَتْ هذه الآيةُ في حَكيمِ بنِ الحارثِ من أهلِ الطّائفِ، وكان هاجرَ إلى المدينةِ ومعه أبواه وامرأتُه وأولادُه، فنزلَتْ هذه الآيةُ، فأعطى رسولُ الله أولادَه ووالدَيه ميراثَه لمَّا ماتَ، ولـم يُعطِ امرأتَه شيئًا، غيرَ أنَّه أمرَهم أن يُنفِقوا عليها من تركةِ زوجِها حولًا[1].

وكان الحُكمُ هكذا[2] في الابتداءِ إنْ لـم تخرُجِ المرأةُ من بيتِ زوجِها، فإنْ خرجَتْ باختيارِها كان يسقُطُ السُّكنَى والنَّفقةُ، ويلزمُ الاعتدادُ بالحولِ، فكانتِ العِدَّةُ حولًا كاملًا بعد الوفاةِ، فنُسِخَ هذا الحكمُ، فالمُعتدَّةُ عن الوفاةِ تعتدُّ بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ، وترِثُ، وفي استحقاقِها السُّكنَى خلافٌ للعلماءِ.

﴿وَصِيَّةً﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ، وخبرُه: ﴿لِّأَزْوَاجِهِم﴾، ومعناه: عليهم وصيةٌ لأزواجِهم، وقُرِئَ: ﴿وَصِيَّةً﴾ بالنَّصبِ[3]؛ أي: فَلْيُوصوا وصيّةً.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٣٢)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ٢٩٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه إسحاق بن راهويه كما في «العجاب» لابن حجر (١/ ٦٠٠)، و«الدر المنثور» (١/ ٧٣٩)، عن مقاتل بن حيان: أن رجلاً من أهل الطَّائف قدم المدينة... فذكره ولم يسم الرجل. وذكره أيضاً مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٢٠٢) لكنه سمى الرجل: حكيم بن الأشرف.

(٢) في (أ): «هذا».

(٣) قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٤)، و«التيسير» (ص: ٨١).

ثمَّ؛ الميِّتُ لا يُوصي، ولكنَّه أرادَ: إذا قرُبوا منَ الوفاةِ فَلْيُوصوا وصيّةً، أو أرادَ: أوصى الله وصيّةً.

﴿مَتَٰعًا﴾ أي: متِّعوهُنَّ متاعًا، أو: جعَلَ الله ذلك لهنَّ متاعًا؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، ويجوزُ أن يكونَ نصبًا على الحالِ، أو بالمصدرِ الذي هو الوصيّةُ، كقولِه: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤ـ ١٥]، والمتاعُ هاهنا: نفقةُ سنتِها.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ نصبٌ؛ لأنَّه صفةُ المتاعِ.

وقيلَ: على الحالِ؛ أي: متِّعوهُنَّ غيرَ مُخرَجاتٍ.

وقيلَ: بنزعِ الخافضِ؛ أي: من غيرِ إخراجٍ.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾؛ أي: باختيارِهنَّ قبلَ الحولِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا حرجَ؛ لأنَّه لا يجبُ عليها المُقامُ في بيتِ زوجِها حولًا.

وقيلَ: أي: لا جُناحَ في قطعِ النَّفقةِ عنهنَّ.

أو: لا جُناحَ عليهنَّ في التَّشوُّفِ للأزواجِ؛ إذ قد انقطعَتْ عنهنَّ مُراقبتُكم أيُّها الورثةُ، ثمَّ عليها أنْ لا تتزوَّجَ قبلَ انقضاءِ العدَّةِ بالحولِ.

أو: لا[1] جُناحَ في تزوُّجِهنَّ بعد انقضاءِ العدَّةِ؛ لأنَّه قال: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾[2]، وهو ما يُوافِقُ الشَّرعَ.

* * *

---

(١) في (أ): «ولا».

(٢) في النسختين: «﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾»، والمثبت هو لفظ الآية هنا.

(٢٤١) ـ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: للمُتوفَّى عنها زوجُها وصيَّةٌ بالنَّفقةِ والسُّكنى متاعًا إلى الحولِ، وللمُطلَّقاتِ أيضًا متاعٌ بالمعروفِ، نزلَتْ في رجلٍ قال: إنْ أحسَنْتُ فعلْتُ، أي: متَّعْتُ، وإنْ لم أُرِدْ لم أفعَلْ، فأوجَبَ الله الإمتاعَ[1].

وقال: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: من يتَّقي الشِّركَ؛ أي: أنَّه واجبٌ على كلِّ مسلمٍ.

وللشّافعيِّ قولٌ في وجوبِ المتعةِ لكلِّ مُطلَّقةٍ؛ لهذه الآيةِ.

وله قولٌ آخرُ: أنَّه لا متعةَ إلّا للَّتي طُلِّقَتْ قبل الدُّخولِ، وليس ثَمَّ مُسمًّى ولا فرضٌ؛ لأنَّ مَن استحقَّتْ شيئًا منَ المهرِ لم نحتَجْ[2] في حقِّها إلى المتعةِ، وقولُ الله تعالى في زوجاتِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٨] محمولٌ على أنَّه تطوُّعٌ منَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ لا وجوبٌ، وقولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] محمولٌ على المُفوَّضةِ إذا طُلِّقَتْ قبل الدُّخولِ، فيكونُ عامًّا خُصِّصَ أو نُسِخَ، وعلى هذا فقولُه: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ محمولٌ على المُفوِّضةِ أيضًا.

وفي قولٍ للشّافعيِّ: المفروضُ لها المهرُ إذا طُلِّقَتْ قبلَ المسيسِ فلا متعةَ لها؛ لأنَّها أخذَتْ نصفَ المهرِ من غيرِ جريانِ وَطْءٍ، والمدخولُ بها إذا طُلِّقَتْ فلها المتعةُ؛ لأنَّ المهرَ يقعُ في مُقابَلةِ الوَطْءِ، فالمتعةُ[3] بسببِ الابتدالِ بالعقدِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤١١) عن ابن زيد، وهكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٣٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٣١١).

(٢) في (أ): «تحتج».

(٣) في (أ): «والمتعة».

وإنَّما أعادَ إيجابَ الإمتاعِ ليُبيِّنَ أنَّ الإمتاعَ لا يختصُّ بالمُحسنين، بل يجبُ على المؤمنين، وليعُمَّ الحكمُ في الإماءِ والصَّغائرِ والكافراتِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾.

ومَن قال: لا تجبُ المتعةُ ـ وهو قولٌ للشّافعيِّ، ومذهبُ مالكٍ ـ فمعنى الآيةِ النَّدبُ لا الإيجابُ.

***

(٢٤٢) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: مثلَ البيانِ الذي سبقَ يُبيِّنُ الله آياتِه، فشبَّه البيانَ في المُستقبلِ بالبيانِ في الماضي.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال الزَّجَّاجُ: العاقلُ مَن يعملُ بما وجَبَ عليه، فمَن لم يعمَلْ فهو جاهلٌ(١).

***

(٢٤٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ سبقَ جُملٌ من أحكامِ المسلمين، ثمَّ ذكرَ السِّيرةَ في الكفَّارِ، وهي القتالُ، وأخبرَ عن أقوامٍ أُمِروا بالجهادِ فامتَنَعوا، فأماتَهم الله ثمَّ أحياهُم، وقد سبقَ ذكرُ القتالِ في هذه السُّورةِ واتَّصلَ بجُملٍ منَ الأحكامِ، وعاد النَّظمُ إلى استتمامِ ذكرِ القتالِ وضربِ الأمثالِ بمَن تقدَّمَ منَ الأممِ.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٢٢).

﴿أَلَمۡ تَـرَ﴾؛ أي: ألم تعلَمْ، فهي رؤيةُ القلبِ؛ أي: ألم ينتَهِ علمُكَ إلى خبرِ هؤلاءِ وهم قومٌ من بني إسرائيلَ وقعَ فيهم الوَباءُ فخرَجُوا هاربين، فنزَلُوا واديًا فأماتَهم الله.

وقيلَ: إنَّهم فرُّوا منَ الجهادِ لـمَّا أمرَهم الله به على لسانِ حِزْقيلَ، فلما فرُّوا من ديارِهم حذرَ الموتِ أماتَهم الله.

ثمَّ؛ قيلَ: كانوا ثلاثةَ آلافٍ، وقيلَ: سبعينَ ألفًا.

والصَّحيحُ: أنَّهم زادوا على عشرةِ ألافٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾، وهو جمعُ الكثرةِ، ولا يُقالُ في «عشرةٍ» فما دُونها: ألوفٌ.

وقولُه: ﴿أَلَمۡ تَـرَ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، والمُرادُ: هو وغيرُه.

﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ قيلَ: أراد العددَ.

وقيلَ: أرادَ: وهم مُتوالِفُون، وهو جمعُ «آلفٍ»، مثلَ: جالسٍ وجُلوسٍ.

﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾؛ أي: كحذرِ الموتِ، فهو نصبٌ لأنَّه مفعولٌ له، أو نصبٌ على المصدرِ؛ أي: حذِرُوا، والحذَرُ: الاتِّقاءُ.

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾؛ أي: أماتَهم، فهو أمرُ تكوينٍ.

ولا يبعُدُ أن يُقالَ: نُودُوا وقيلَ لهم: ﴿مُوتُواْ﴾ ثمَّ أماتَهم الله.

﴿ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: خرجَ نبيُّهم حِزْقيلُ في طلبِهم فوجدَهم بعد ثمانيةِ أيّامٍ موتى وقد أنتَنُوا، فبكى وتضرَّعَ إلى الله، وقال: يا ربِّ، كنتُ في قومٍ يحمَدونَكَ ويُمجِّدونَك، فبقيتُ وحيدًا لا قومَ لي، فقال الله: إنِّي جعلتُ حياتَهم إليكَ، فقال حِزْقيلُ: اِحيَوا، فقاموا كأنَّهم نيامٌ انتبَهوا[1].

---

(١) ذكره عن ابن عباس الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٠٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٥١) عن عطاء ومقاتل والكلبي.

وقيلَ: ذلك السِّبْطُ الذين أُحيوا بعدَما نَتُنُوا، يُشَمُّ منهم الرّائحةُ المُنتِنةُ التي تُخالفُ روائحَ النَّاسِ.

وقيلَ: إنَّما أحياهُم بعد سنينَ، وبعدَما عرِيَتْ عِظامُهم.

وقيلَ: قالوا لنبيِّهم: البلدُ الذي تأمرُنا به فيه الوباءُ، فحذِرُوا فأماتَهم الله.

وقيلَ: هرَبُوا منَ القتالِ قبلَ أن يُبعَثَ إليهم حِزْقيلُ فماتُوا، ثمَّ بعد مدَّةٍ مديدةٍ مرَّ بهم حِزْقيلُ فجعلَ الله إحياءَهم آيةً له[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني: إحياءَه لهؤلاءِ، أو: لَذُو فضلٍ بهذا البيانِ[2] وضربِ الأمثالِ وذكرِ القصصِ.

***

(٢٤٤) ـ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: هو خطابٌ لأولئك القومِ؛ أي: فأحياهُم وقال لهم: قاتِلُوا.

وقيلَ: هو خِطابٌ لهذه الأمّةِ، حتَّى لا يُحتاجَ إلى إضمارٍ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يسمعُ ما يقولُه المُتعلِّلُ إذا دُعِيَ إلى الجهادِ، ويعلمُ ما يُضمِرُه.

***

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤١٦ ـ ٤١٧) عن السدي في خبر طويل.

(٢) في (أ): «بهذا المثال».

(٢٤٥) - ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ لـمَّا أمرَ بالجهادِ حرَّضَ على الإنفاقِ في سبيلِ الله، ويجبُ على المُستقرِضُ ردُّ القرضِ، فبيَّنَ أنَّ مَن أنفقَ في سبيلِ الله لا يضيعُ عندَ الله، بل يرُدُّ الثَّوابَ قطعًا، ثمَّ قرضُ الآدميِّ للواحدِ واحدٌ، وهذا مُضاعفٌ، وأبهمَ قدرَ الجزاءِ، فكأنَّه يقولُ: ثوابُ الله فوقَ ما تجدونَ، وفي الخبرِ: «النَّفقةُ في سبيلِ الله تضعَّفُ بسبعِ مئةٍ»[1]، وقال الله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال هاهُنا: ﴿أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾.

والقَرضُ: اسمٌ لكلِّ ما يُلتَمَسُ عليه الجزاءُ، وأقرضَ فلانٌ فلانًا؛ أي: أعطاه ما يتجازاهُ منه،

وأصلُ الكلمةِ: القطعُ، ومنه: المِقراضُ، وأقرَضْتُه؛ أي: قطَعْتُ له من مالي قطعةً يُجازَى عليها، وانقرَضَ القومُ؛ أي: انقطعَ أثرُهم وهلَكُوا، والقرضُ هاهنا اسمٌ، ولولاه لقالَ: إقراضًا، وأضافَ إلى الله تعالى فقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ تلطُّفًا في الحثِّ على الصَّدقةِ، كقولِه: «استَطْعَمْتُكَ فلم تُطعِمْني».

ثمَّ قيلَ: هذا القرضُ في القتالِ.

وقيلَ: في جميعِ أنواعِ البرِّ.

﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾؛ أي: حلالًا، وقيلَ: طيِّبةً به نفسُه.

وقيلَ: شيئًا له وقعٌ وقَدْرٌ.

---

(١) رواه الترمذي (١٦٢٥) وحسنه من حديث خريم بن فاتك رضي الله عنه.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ وقُرِئَ: ﴿فيُضعِّفَه﴾ بالتَّشديدِ، وهما لغتانِ، ثمَّ قُرِئَ بالنَّصبِ؛ لأنَّ معناه: أيكونُ قرضٌ فيُضاعفَه؟ وقُرِئَ بالرَّفعِ[1] عطفًا على ﴿يُقرِضُ﴾.

والتَّضعيفُ والإضعافُ: الزِّيادةُ على أصلِ الشَّيءِ حتَّى يصيرَ مثلَين أو أكثرَ.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾؛ أي: يُمسِكُ الرِّزقَ عمَّن يشاءُ، ويُوسِّعُ على مَن يشاءُ.

وقيلَ: يقبضُ الصَّدقاتِ ويبسُطُ الجزاءَ عليها.

وقيلَ: يقبضُ القلوبَ حتَّى لا تنشطَ لخيرٍ، ويُنشِطَ البعضَ للخيراتِ.

* * *

(٢٤٦) - ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ذكرَ في التَّحريضِ على القتالِ قصَّةً أُخرى جرَتْ في بني إسرائيلَ.

والملأُ: الأشرافُ منَ النَّاسِ، وهو اسمٌ للجمعِ كالقومِ والرَّهطِ، وأصلُه: منَ المَلْءِ، فهم الذين يُملؤونَ العيونَ هيبةً، أو يملؤونَ المكانَ إذا حضَرُوا.

وقيلَ: سُمُّوا به لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إليه، يقال: مَلُؤَ الرَّجلُ يملُؤُ مَلاءةً فهو مليءٌ، والمَلأُ: الـخُلُقُ أيضًا، ومنه:

---

(١) قرأ ابن كثير: ﴿فيضعِّفُه له﴾ بتشديد العين ورفع الفاء، ومثله ابن عامر لكن بنصب الفاء، وقرأ عاصم: ﴿فيُضاعفَه﴾ بالألف ونصبِ الفاء، ومثله الباقون إلَّا أنَّهم رفعوا الفاء. انظر: «السبعة» (ص: ٦٢٥)، و«التيسير» (ص: ٨١).

فقُلْنـــا أحسِـــني مَـــلأً جُهَينـــا[١]

أي: مُمالأةً ومُؤازَرةً.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: من بعدِ وفاتِه ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾ قيل: هو شمعُونُ. وقيلَ: يوشَعُ. وقيلَ: أَشْمَويلُ.

وكان غلبَ عليهم الأعداءُ فسألوا نبيَّهم ملِكًا تنتَظِمُ به كلمتُهم.

﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنُّونِ، وهو جزمٌ على الجزاءِ.

وفي بعضِ المصاحفِ: (نُقاتِل به في سبيلِ الله)[٢] فيجوزُ على هذا الرَّفعُ والجزمُ، كقولِك: «ابعَثْ إليَّ رجلًا يخدُمُني ويخدُمْني»، فالرَّفعُ على الصِّفةِ؛ أي: رجلًا خادِمًا، وتقولُ: «ابعَثْ إليَّ ثوبًا أخرُجْ إلى السُّوقِ» فيتعيَّنُ الجزمُ؛ إذ الخروجُ لا يُمكِنُ أن يكونَ وصفًا للثَّوبِ، فإنْ زدتَ الهاءَ فقلتَ: «أخرج فيه إلى السُّوقِ» جاز الرَّفعُ والجزمُ.

وفي الشَّواذِّ: (يُقاتل) بالياءِ[٣]، فيجوزُ الرَّفعُ والجزمُ؛ أي: مَلِكًا مُقاتلًا،

---

(١) عجز بيت لعبد الشارق بن عبد العزى الجهني كما في «عيار الشعر» لابن طباطبا (ص: ١٠٢)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (١/ ٣١٩ ـ ٣٢١)، وكذا عزاه ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ٢٦٩) للجهني، وصدره:

تنَـادَوا يَـا لَبُهْثَـةَ إذْ رَأوْنَـا

(٢) لم أجدها.

(٣) نسبت لأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٤٩١)، وقيدها الثعلبي بالجزم. ورويت بالرفع عن الضحاك وابن أبي عبلة. انظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٣٠)، و«البحر» (٤٠٣/٤).

قال الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٥٧): فإن قُرئت بالياء: «يقاتل» جاز رفعُها وجزمها، فأما الجزم =

وقال الله: ﴿أرسله مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤] فيجوزُ الجزمُ على الجوابِ، والرَّفعُ على النَّعتِ.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾؛ أي: قال ذلك النَّبيُّ: لعلَّكم أن تجبُنوا عن القتالِ.

قُرِئَ: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بفتحِ السِّينِ، وقرأ نافعٌ: ﴿عَسِيتُم﴾ بكسرِ السِّينِ[١]، وقُرِئَ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾، ولم يقرأ أحدٌ: «عسِي» بالكسرِ.

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: ﴿أَن﴾ زائدةٌ؛ لأنَّك تقولُ: ما لنا لا نقاتلُ، قالَ الله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

وقال الفرَّاءُ: هو محمولٌ على المعنى، تقولُ: ما لك لا تُصلِّي؟ أي: ما يمنعُك أن تُصلِّيَ، ولهذا قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]، لأنَّه قال أيضًا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

وقال الكسائيُّ: أي: وما لنا في أن لا نُقاتلَ، فأسقطَ «في»[٢].

= فعلى المجازاة بالأمر، وأما الرفع فأن تجعل «يقاتلُ» صلة للمَلِك، كأنك قلت: ابعث لنا الذي يقاتلُ.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٦)، و«التيسير» (ص: ٨١). وقد تكلم على هذه القراءة كثير من العلماء مثل الفراء وأبي عبيد وأبي حاتم السجستاني والطبري والزجاج والنحاس والزمخشري، بعضهم ضعفها وبعضهم جعلها من النادر، وقد ذكر أبو حيان ما فيها من خلاف، ويفهم من كلامه بأنها لغة للعرب ولا ضعف فيها. انظر: «البحر» (٤/ ٤٠٤). وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٢)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢١٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٢٦) و(٥/ ١٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (١/ ١٢١)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ١٣٧)، و«الكشاف» (١/ ٥٥٩).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«البسيط» (٤/ ٣١٧ـ٣١٨) والكلام منه، وللفراء كلام طويل في الرد على الكسائي، لكن من العلماء من ارتضى قولَ الكسائي وصحَّحه كالزجاج، وقال: المعنى: أي شيء لنا في أن لا نقاتل؛ أي: أيُّ غرضٍ لنا في ترك القتال وقد أخرجنا من ديارنا =

و﴿أَن﴾ في محلِّ النَّصبِ على الحالِ[1]؛ أي: وما لنا غيرَ مُقاتلين، كقولِه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

وقال المُبرِّدُ: ﴿ما﴾ هاهنا جحدٌ لا استفهامٌ؛ أي: ليس لنا أن نترُكَ القتالَ[2].

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا﴾ ظاهرُه العمومُ.

وقيلَ: أرادَ به الخصوصَ؛ لأنَّه لـم يُخرَجْ كلُّهم بل أُخرِجَ بعضُهم.

﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾؛ أي: أُفرِدْنا عنهم بالسَّبْيِ والقتلِ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾؛ أي: ادَّعَوا وما وفَوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين عبرُوا النَّهرَ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: يُعاقبُهم.

* * *

(٢٤٧) ـ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ أي: أجابَكم إلى ما سألتُم، وكانَ طالوتُ سقَّاءً، وقيلَ: دبَّاغًا، وقيلَ: مُكارِيًا.

= وأبنائنا، ولكن (في) سقطت مع (أن)، وكثيرًا ما يحذف حرف الجر مع (أن). انظر: «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٢٧)، ونقل كلامه الواحدي، وكذا نقل عن أبي علي الفارسي ترجيح قول الكسائي على قول الفراء، وانظر كلامه ثمة.

(١) أي: على ما تقدم من أقوال. انظر: «البسيط» (٤/ ٣١٩).

(٢) انظر: «البسيط» (٤/ ٣٢٠).

وكان من أدنَى بيوتِ بني إسرائيلَ، فكان من سبطِ بنيامينَ، ولـم يكُنْ من سبطِ النُّبوّةِ ولا من سبطِ المُلْكِ، فلذلك أنكرُوا.

وقيلَ: سُمِّيَ طالوتَ لطولِه، فكان يُحاذي رؤوسَ النّاسِ بمَنْكِبِه، فطالوتُ وجالوتُ مـمَّا لا ينصرفُ.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأنَّا من سبطِ الملوكِ وهو فقيرٌ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: اختصَّه بالملكِ ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

قال ابنُ عبَّاسٍ: كان طالوتُ يومَئذٍ أعلمَ رجلٍ في بني إسرائيلَ وأجملَه وأتمَّه[1].

والبسطةُ: الزِّيادةُ.

وقيلَ: زيادةُ الجسمِ كانت بكثرةِ معاني الخيرِ والشَّجاعةِ.

وقيلَ: زيادةُ العلمِ بأن أُوحيَ إليه، وعلى هذا القولِ كان طالوتُ نبيًّا مِلكًا.

وقيلَ: زادَه بسطةً في العلمِ بالحربِ، وفي الجسمِ بالطُّولِ، فإنَّ زيادةَ الجسمِ مـمَّا يُهيبُ العدوَّ.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسعُ الفضلِ والرِّزقِ والرَّحمةِ.

وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾ بمعنى: يُوسعُ النِّعمةَ على مَن يشاءُ.

وقيلَ: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ أي: ذو سعةٍ، كقولِه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: ذاتِ رِضًا، ويُقالُ: هَمٌّ ناصِبٌ؛ أي: ذو نَصَبٍ.

* * *

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٢٢)، ولم أجده مسنداً.

(٢٤٨) - ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ يحتمِلُ أَنَّهم سألوا آيةً، ويحتمِلُ أَنَّه آتاهم الآيةَ من غيرِ سؤالٍ ليُسكِّنَ قلوبَهم؛ أي: علامةَ تمليكِ الله إيّاه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وكان هذا تابوتًا أنزلَه الله على آدمَ عليه السَّلامُ، فيه صورُ الأنبياءِ من أولادِه، فتوارَثُوه إلى أن وصلَ إلى يعقوبَ عليه السَّلامُ، فكان في بني إسرائيلَ، وكانوا إذا اختلفُوا في شيءٍ تكلَّمَ وحكمَ بينَهم، وإذا حضروا القتالَ قدَّموه بين أيديهم يستفتِحونَ به على عدوِّهم، وكانت الملائكةُ تحملُه فوقَ العسكرِ وهم يُقاتلونَ العدوَّ، وإذا سمِعُوا منَ التَّابوتِ صيحةً استيقَنُوا النُّصرةَ.

فلما عصَوا سلَّطَ الله عليهم العمالقةَ وسلَبُوا التّابوتَ منهم، فلمَّا سألوا نبيَّهم البيِّنةَ على ما قال دعا ربَّه، فنزلَ بالقومِ الذين أخَذُوا التّابوتَ داءٌ بسببِه، وذلك أنَّهم كانوا دفَنُوه في مزبلةٍ يتغوَّطُونَ عليها فابتُلوا بالبواسيرِ - وقيلَ: بالنّاسورِ - وعلموا أنَّ ذلك لاستخفافِهم بالتّابوتِ، فوضَعُوه على ثورَينِ، فأقبلَ الثَّورانِ يسيرانِ، ووكَّلَ الله بهما أربعةً منَ الملائكةِ يسوقُونَهما حتَّى أَتَوا به منزلَ طالوتَ[١].

وقولُه: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ أي: أن يأتيَكم الله به، وهو كما يُقالُ: ربحتُ الدَّراهمَ وخسِرْتُ التِّجارةَ، وحملُ الملائكةِ للتَّابوتِ سَوقُهم[٢] الثَّورَين.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٢٤) نقلاً عن أصحاب الأخبار، ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٦٢) عن وهب بن منبه.

(٢) في (أ): «التابوت بسوقهم».

وقيلَ: حملتِ الملائكةُ التَّابوتَ من غيرِ ثَورَين.

وقيلَ: سارَ التّابوتُ بإذنِ الله من غيرِ حاملٍ، وهم ينظُرونَ إليه والملائكةُ تحفظُه، فهذا حملُهم إيَّاه.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: هو سببُ سكونِ قلوبِكم فيما اختلفتُم فيه من أمرِ طالوتَ، ونظيرُه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ أي: أنزَلَ عليه ما سكَّنَ قلبَه.

وقيلَ: أرادَ: أنَّ التَّابوتَ كانَ سببَ سكونِ قلوبِهم، فأينما كانوا سكنُوا إليه، ولم يفِرُّوا عن التّابوتِ إذا كان معَهم في الحربِ.

وقيلَ: كانتِ السَّكينةُ شيئًا في التّابوتِ، له رأسٌ كرأسِ الهرَّةِ من زَبرجَدٍ وياقوتٍ، ولها جناحانِ.

وقال وَهْبٌ: السَّكينةُ روحٌ منَ الله تتكلَّمُ، فكانوا إذا اختلَفُوا في أمرٍ نطقَتْ ببيانِ ما يُريدونَ، وإذا صاحَتْ في الحربِ كان الظَّفَرُ لهم[1].

وهي «فَعيلةٌ» منَ السُّكونِ، وهي مصدرٌ وقعَ موقعَ الاسمِ، نحو: الهزيمةِ والقَضِيّةِ والبقِيّةِ.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ البقيَّةُ مصدرٌ وقعَ موقعَ الاسمِ كما ذكرنا في السَّكينةِ، ويُقالُ للباقي: «بقِيّةٌ»، والجمعُ: «بقايا».

والبقيَّةُ في التَّابوتِ على ما قيلَ: لوحانِ منَ التَّوراةِ، ورُضاضُ الألواحِ التي

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٦٩). وليس فيه عندهم: «وإذا صاحَتْ في الحربِ كان الظَّفَرُ لهم».

تكسَّرَتْ لمَّا ألقى موسى الألواحَ، وقفيزٌ منَ المنِّ الذي كان ينزلُ عليهم، ونَعْلا موسى وعصاه، وعمامةُ هارونَ وعصاه، وطَسْتٌ من ذهبٍ، قيلَ: هو الذي كان يُغسَلُ فيه ثوبُ الأنبياءِ وبُردُ آدمَ.

وقيلَ: هذه البقيَّةُ: بقيَّةٌ منَ العلمِ وعلاماتِ الأنبياءِ.

وقيلَ: هي التَّوراةُ أو شيءٌ منَ الصُّحفِ، أُضيفَ ذلك إلى موسى وإلى هارونَ لأنَّ القرونَ بعدَهما تداولَتِ التَّابوتَ، وتوارثَه أتباعُ موسى، فالآلُ هم الأتباعُ هاهنا، وهو كقولِه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وعلى الجملةِ: كانَ في التّابوتِ آثارٌ كآثارِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ منَ البُردةِ والقضيبِ.

وقيلَ: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾: نفسُهما، وفي الخبرِ: «لقد أُوتيَ هذا من مزاميرِ آلِ داودَ»[1] يعني: داودَ نفسَه، وآلُ الرَّجلِ في اللُّغةِ: شخصُه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ﴾؛ أي: في رُجوعِ التَّابوتِ إليكم علامةٌ أنَّ الله ملَّكَ طالوتَ.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: إنَّهم كفروا بتكذيبِهم نبيَّهم في ملكِ طالوتَ؛ إذ كان ذلك النَّبيُّ مُؤيَّدًا بالمُعجزاتِ، ولهذا لم يصبِرُوا عن الماءِ بعد أن ابتَلاهم الله بالنَّهرِ، فالمعنى: إنْ كنتُم مُؤمنين كما تزعُمونَ.

وقيلَ: ما كفرُوا، ولكنْ تعجَّبُوا من تمليكِ طالوتَ؛ أي: سبيلُ المُؤمنِ أن يعترِفَ بتمليكِ طالوتَ إذا شاهدَ مثلَ هذه الآيةِ، أرادَ: إذا أخبرَه نبيُّه به، ونظيرُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢٤٩) - ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾؛ أي: فأتاهُم التَّابوتُ كما وُعِدُوا، فصدَّقُوا وانقادُوا لطالوتَ، فلا بدَّ من هذا الإضمارِ، والفصلُ: القطعُ، وقولٌ فصلٌ؛ أي: يَقطعُ بين الحقِّ والباطلِ، وفصلَ عنِ المكانِ؛ أي: قطعَه وتجاوزَ عنه، يفصِلُ فصولًا، ومنه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤]، وفاصَلَ الرَّجلُ شريكَه فِصالًا، ويُقالُ للفِطامِ: فِصالٌ.

﴿بِالْجُنُودِ﴾: هي جمعُ الجندِ، قيلَ: كانوا ثمانينَ ألفَ مقاتلٍ.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾؛ أي: قال لهم طالوتُ ذلك، وذلك أنَّهم شكَوا قلَّةَ الماءِ بينَهم وبينَ عدوِّهم، وقالوا: إنَّ المياهَ لا تحملُنا فادعُ الله أن يُجريَ معنا نهرًا، فقال طالوتُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ: هو نهرُ فِلَسْطينَ(١).

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ أي: في قلبِه غشٌّ وكفرٌ، فمَن قال: «كان طالوتُ نبيًّا» قال: «أوحَى الله إليه بذلك»، ومَن قال: «لم يكُنْ نبيًّا» قال: «أخبرَهم نبيُّهم بهذا»، وإنَّما وقعَ هذا الابتلاءُ ليتميَّزَ الصّادقُ منَ الكاذبِ.

والنَّهْرُ والنَّهَرُ لغتانِ، واشتِقاقُه منَ السَّعةِ، ومنه: النَّهارُ، ومنه:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٧٣).

فـأَنْـــهَرَتْ فَتْقَهـــا[١]

وقولُه: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾؛ أي: من ماءِ النَّهرِ ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾؛ أي: من أهلِ ديني، أو: ليس بولِيِّي، كقولِه عليه السَّلامُ: «مَن غشَّنا فليس منا»[٢].

ومعنى الآيةِ: فمَن شربَ منه الرِّيَّ واستكثرَ؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾.

وقيلَ: ابتَلاهُم ليُخلِّفَ مَن يَعصِيهِ ولا يُجاوِزَ بهم النَّهرَ؛ لئلّا يتَزاحموا على المياهِ في الطَّريقِ.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ يُقالُ: طعِمْتُ الشَّيءَ؛ أي: ذُقتُه، وأطعمتُه الماءَ؛ أي: أذَقتُه، ولم يقُلْ: ومَن لم يشرَبْه؛ لأنَّ من عادةِ العربِ إذا كرَّروا شيئًا أن يُكرِّروه بلفظٍ آخرَ، **ولغةُ القرآنِ أفصحُ اللُّغاتِ**، فلا عبرةَ بقَدحِ[٣] مَن يقولُ: لا يُقالُ: طعمتُ الماءَ.

﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ الاغترافُ: الأخذُ منَ الشَّيءِ باليدِ أو بآلةٍ، ومنه: المِغْرفةُ، والغَرْفُ مثلُ الاغتِرافِ.

وقُرِئَ: ﴿غَرْفةً﴾ بفتحِ الغينِ، وهي مصدرٌ، ولـم يقُلْ: اغترافةً؛ لأنَّ معنى الغَرْفِ والاغترافِ واحدٌ.

وقُرِئَ: ﴿غُرْفَةًۢ﴾ بالضَّمِّ[٤]، وهي الشَّيءُ المُغترَفُ؛ أي: إلا مَن اغترفَ ماءً.

---

(١) قطعة من بيت لقيس بن الخطيم يصف طعنة، كما في «ديوانه» (ص: ٨)، وتمام البيت:

مَلَكْـتُ بهـا كَفِّـي فأَنْهَـرْتُ فَتْقَهـا ... يَـرَى قائمٌ مِن دُونِها ما وراءَها

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٢٩٢)، ومسلم (١٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «بقول».

(٤) قرأ بالفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو، والباقون بالضم. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٧)، و«التيسير» (ص: ٨١).

وقيلَ: الاسمُ المُشتقُّ منَ المصدرِ قد يكونُ بمعنى المصدرِ، تقولُ: عجِبْتُ من عطائِكَ المئةَ؛ أي: إعطائِك، ومن دُهْنِكَ لِحْيَتَكَ.

ثمَّ؛ قيلَ: أُبيحَ لهم قَدْرُ الغرفةِ باليدِ مرَّةً.

وقيلَ: أُبيحَ لهم أن يأخُذَ المرءُ الماءَ بيدِه في إناءٍ أو قِرْبةٍ حتَّى يملأَ القِرْبَةَ، فكرعَ المُعظَمُ منهم في الماءِ وألقَوا أنفُسَهم فيه فلم يروُوا، ومَن اقتصرَ على غُرفةٍ رَوِيَ.

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: وقعَ مُعظَمُهم في النَّهرِ، فاسودَّتْ شِفاهُهم وغلبَهم العطشُ، وبقُوا على شطِّ النَّهرِ، وجبُنوا عن لقاءِ العدوِّ، وخلَّفَهم طالوتُ، وعلى هذا فقولُه: ﴿فَلَيْسَ مِنِّى﴾ يعني: فليس مُصاحبي في سفري.

ثمَّ؛ يحتملُ أن يُقالَ: كفروا بالمُخالفةِ، ويحتملُ أن يُقالَ: ما كفَرُوا، ولكنَّهم عصَوا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾؛ أي: الذين أخلَصُوا في إيمانِهم، ويحتمِلُ أن يكونَ الجميعُ عبرُوا معه، غيرَ أنَّه كانَ يُعوِّلُ على مَن أطاعَه، والذين اقتَصرُوا على الغُرفةِ كانوا ثلاثَ مئةٍ وبضعةَ عشرَ رجلًا؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ قال يومَ بدرٍ: «أنتم اليومَ على عدَّةِ أصحابِ طالوتَ حين عبرُوا النَّهرَ»[1]، قال البراءُ بنُ عازبٍ: وكنَّا يومَئذٍ ثلاثَ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلًا[2].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٧)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٩١ و٤٩٤) و(٦/ ١٨)، عن قتادة مرسلاً.

ورواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٨٧٤) عن أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لحي الهوزني، وهو مرسل أيضاً.

(٢) رواه البخاري (٣٩٥٨) عن البراء رضي الله عنه قال: «كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن؛ بضعة =

ويُقالُ: جاوَزْتُ المكانَ مُجاوَزةً وجوازًا، وجُزْتُ الطَّريقَ أَجُوزُه جوازًا ومَجازًا وجُؤُوزًا، وأجَزْتُ بمعنى: جُزْتُ، والمجازُ في الكلامِ: ما جازَ في الاستعمالِ ونفذَ واستمرَّ على وجهِه.

﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ مَن قال: «عبرَ الجميعُ معه وصحِبُوه»، فهذا القولُ صدرَ منَ الذين ضعُفَتْ نيَّاتُهم فأجابَهم المُثبِّتون، ومَن قالَ: «ما عبرَ إلا المُخلِصون» فهم أيضًا كانوا مُختلفين، فقال بعضُهم: كيف نُطيقُ العدوَّ مع كثرتِهم؟ فقال أولو العزمِ منهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾.

والطَّاقةُ: مصدرٌ بمنزلةِ الإطاقةِ، يُقالُ: أَطَقْتُ الشَّيءَ إطاقةً وطاقةً وطَوْقًا، مثلَ: أطَعْتُه إطاعةً وطاعةً وطَوْعًا، وإنَّما قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لِمَا علِمُوا من عِظَمِ أجسامِهم وكثرتِهم، إمَّا بالسَّماعِ أو برؤيةِ العينِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾؛ أي: يعلَمونَ كقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ أي: أيقَنُوا.

ويجوزُ أن يكونَ الظَّنُّ هاهُنا شكًّا لا علمًا؛ أي: قال الذين يتوهَّمونَ أنَّهم يُقتَلون مع طالوتَ فيلقَون الله شهداءَ، فوقوعُ الشَّكِّ في القتلِ، أو: يظنُّون أن يُلاقوا ثوابَ الله؛ إذ ليس يَقطعُ المرءُ بمُوافاتِه على الإيمانِ.

وقد يجوزُ أن يكونَ الظَّنُّ بمعنى الرَّجاءِ.

= عشر وثلاث مئة». وفي قول المصنف ـ متابعاً للواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٣٤) ـ عن البراء: «وكنا يومئذ...» نظر؛ فإن الرواية تفيد أنه لم يكن مع الجيش يومها، وهذا واضح من رواية البخاري (٣٩٥٧)، وفيها عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «حدثني أصحابُ محمدٍ ﷺ مِمَّن شَهِد بدرًا أنهم كانوا عِدَّةَ أصحاب طالوتَ...» الحديث.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مُلاقو ثوابِه، وقيلَ: هو محمولٌ على حقيقةِ اللِّقاءِ.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾؛ أي: جماعةٍ؛ لأنَّ بعضَهم فاءَ إلى بعضٍ فصارُوا فئةً.

وقيلَ: هو من فَأَوْتُ وفَأَيْتُ رأسَه بالعصا، فالفِئَةُ: فرقةٌ من هذا كأنَّها قطعةٌ.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بقضائِه وتقديرِه ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: بالنَّصرِ والثَّوابِ، وهم الصّابرون على طاعتِه وعن محارمِه.

* * *

(٢٥٠) ـ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ أي: لـمَّا رأوا كثرةَ العدوِّ وقلَّةَ عددِ أنفُسِهم تضرَّعُوا إلى الله، فهذا كقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٤٦] إلى قولِه: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وكانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ في القتالِ: «اللَّهمَّ بك أصولُ وأحولُ»(١)، وكان

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٩٢٨)، والبزار في «مسنده» (٢٠٨٩)، والطبراني في «الدعاء» (٦٦٤) من حديث صهيب رضي الله عنه.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٩١) أيضاً من حديث علي رضي الله عنه، وجاء في طبعة الشيخ أحمد شاكر من «المسند» بالرقم نفسه: «أجول» بالمعجمة، لكن الشيخ استدرك الخطأ فيما بعدُ أثناء تخريج الحديث رقم (١٢٩٥) وقال: وثبَّتُّ فيما مضى الجيم، وهو خطأ.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٩٤٠)، والدارمي في «سننه» (٢٦٣٣) وابن أبي شيبة (٢٩٥٠٨)، وابن حبان (٢٠٢٧)، والطبري في «تهذيب الآثار» (١٥٣)، والبيهقي (٩/ ٢٥٧) من حديث صهيب أيضاً بلفظ: «بِكَ أُصاوِلُ وبكَ أُحاوِلُ».

يُصلِّي في غزوةِ بدرٍ ويُلِحُّ في الدُّعاءِ ويستنجِزُ اللهَ وعدَه، حتَّى قالَ له الصِّدِّيقُ: دَعْ مُناشدتَكَ ربَّكَ؛ فإنَّه مُنجِزٌ لك ما وعدَكَ[1]، وكان عليه السَّلامُ يقولُ إذا لقِيَ العدوَّ: «اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من شرورِهم وأجعَلُكَ في نُحورِهم»[2].

﴿بَرَزُواْ﴾؛ أي: ظهَرُوا لهم مُتجرِّدين للقتالِ، ومنه: المُبارزةُ، ومنه: «البَرازُ» للأرضِ الفضاءِ، فالبُروزُ: المصيرُ إلى البَرازِ.

﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا ربَّنا ﴿أَفْرِغْ﴾؛ أي: صُبَّ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يُقالُ: أفرَغْتُ الإناءَ؛ أي: صببْتُ ما فيه، والفراغُ: الخلُوُّ؛ أي: أثبِتِ الصَّبرَ في قلوبِنا وفرِّغْها عن غيرِه.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾؛ أي: بتقويةِ قلوبِنا وباختلافِ كلمةِ الأعداءِ.

* * *

(٢٥١) - ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فأنزلَ الله عليهم النَّصرَ فهزمُوهم، فلا بدَّ من هذا الإضمارِ، والهَزْمُ: الكسرُ، ومنه: سِقاءٌ مُتهَزِّمٌ؛ أي: انثَنى بعضُه على بعضٍ مع الجَفَافِ، ومنه ما قيلَ في زمزمَ: إنَّها هَزْمةُ جبريلَ[3]؛ أي: هزَمَها برجلِه فخرجَ الماءُ، والهزمُ: ما يُكسَرُ من يابسِ الحطبِ.

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (١٥٣٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩١٢٤)، عن مجاهد قوله.

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تيسيرِه ومشيئتُه.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾؛ أي: كان قتلُ جالوتَ ـ وهو رأسُ العمالقةِ ـ على يدِ داودَ.

وقيلَ: رمى داودُ جالوتَ بحجرٍ من مِقلاعِه، فوقعَ بين عينَيه وخرجَ من قفاه وقتلَ مِن ورائِه ثلاثينَ رجلًا، فانهزمَ القومُ وخرَّ جالوتُ قتيلًا.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ أي: جمعَ لداودَ بين ملكِ طالوتَ ونبوَّةِ أَشْمَويلَ، وكان لا يجتمِعُ الملكُ والنُّبوَّةُ لواحدٍ في ذلك الوقتِ.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾: من صنعةِ الدُّروعِ، والتَّقديرِ في السَّردِ، ومنطقِ الطَّيرِ، وكلامِ الحُكْلِ، والزَّبورِ وما أرادَ من أمرِ الدِّينِ.

﴿مِمَّا يَشَآءُ﴾؛ أي: ممَّا قد شاءَ، وقد يُوضَعُ المُستقبلُ موضعَ الماضي.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: لولا دفعُ الله بجنودِ المسلمين لغَلَبَ المُشركونَ فقتَلُوا المُؤمنينَ وخرَّبُوا البلادَ والمساجدَ.

وقيلَ: لولا دفعُ الله بالمُؤمنين والأبرارِ عن الفُجَّارِ والكفَّارِ لهلَكَتِ الأرضُ بمَن فيها، وفي الخبرِ: «يدفعُ الله بمَن يُصلِّي من أمَّتي عمَّن لا يُصلِّي، وبمَن يُزكِّي عمَّن لا يُزكِّي، وبمَن يصومُ عمَّن لا يصومُ، وبمَن يحجُّ عمَّن لا يحجُّ، وبمَن يُجاهِدُ عمَّن لا يُجاهِدُ، ولو اجتمَعُوا على تركِ هذه الأشياءِ ما ناظرَهم الله طرفةَ عينٍ»، ثمَّ تلا: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية[1].

---

(١) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٢) دون راو ولا سند، وذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٨١٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه. ورواه مختصراً ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٤٨٠) عن ابن عباس موقوفًا.

وقيلَ: هذا الدَّفعُ لِـمَا شُرِعَ على ألسنةِ الرُّسلِ منَ الشَّرائعِ، فلولا ذلك لتسالَبَ النّاسُ وتناهَبُوا وهلَكُوا.

وقيلَ: هذا الدَّفعُ هو قتلُ بعضِ الكفَّارِ بعضًا، وفيه اندفاعُ شرِّهم عن المسلمين، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ أُريدَ به البعضُ، كقولِه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، والمعنى: ولولا دفعُ الله بعضَ النّاسِ ببعضٍ.

وقيلَ: جعلَ الجميعَ مدفوعينَ؛ إذ ليس يُشترَطُ العِصمةُ لأكثرِهم، فقيل لكلِّ بعضٍ منهم: «مدفوعٌ» في حالٍ، و«مدفوعٌ به» في حالٍ.

والدَّفعُ: الصَّرفُ عن الشَّيءِ، وقرأ نافعٌ: ﴿ولولا دِفاعُ اللهِ﴾[1]؛ أي: لولا مُدافعةُ الله، وهو كقولِه: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣]، ويشاقُّون الله[2]، و﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وإنْ كانَ يقعُ ذلك منَ الله على أيدي أوليائِه وأنبيائِه مع الكافرين.

وقيلَ: الدِّفاعُ ليس بمعنى المُدافعةِ، بل هو مصدرُ «دفعَ»، يُقالُ: «دَفَعَ دَفْعًا ودِفاعًا» كالكتابِ واللِّقاءِ، قالَ الله: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؛ أي: كتبَ هذا التَّحريمَ عليكم.

﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾؛ أي: لهلَكَ أهلُها، أو: لغلَبت المعاصي وبطلَ الدِّينُ، واستحقَّ أهلُ الأرضِ العذابَ.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّ أعداءَ بني إسرائيلَ لـمَّا غلَبُوا على التَّابوتِ وضَعُوه في بيتِ أصنامِهم تحتَ الصَّنمِ الكبيرِ، فأصبَحُوا وهو فوقَ الصَّنمِ، فأخذوه وشدُّوه إلى رجلَيه، فأصبَحُوا وقد قُطِعَتْ يدُ الصَّنمِ ورجلاه، وأُلقِيَتْ تحتَ التّابوتِ، فوضَعُوا

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٨٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢ و١٥٧).

(٢) كذا في النسختين، ولعله يريد قوله تعالى: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ١٣].

التَّابوتَ في ناحيةٍ من قريتِهم، فأخذَ أهلَ القريةِ وجعٌ في أعناقِهم، فقالت جاريةٌ في بني إسرائيلَ كانت فيما بينهم: لا تزالونَ ترَونَ ما تكرهونَ ما دامَ هذا التَّابوتُ بينكم، فحمَلُوا التّابوتَ على عجَلةٍ مشدودةٍ بثَورَين، فقدمَ الثَّوارنِ به على داودَ[1].

وكان من عودِ شِمْشادٍ[2]، وكان نحوًا من ثلاثةِ أذرُعٍ في ذراعَين.

ولمَّا بعثَ الله طالوتَ ملِكًا قال نبيُّ ذلك الوقتِ: قُلْ لأبي داودَ يَعْرِضْ عليكَ بَنِيهِ، وكان يَعرِضُ وهو يُحاذي رأسَ كلِّ واحدٍ بقرنٍ كما أمرَ به، فلا يخرجُ منه شيءٌ، فقال: هل لك غيرُهم؟ قال: بقيَ لي غلامٌ يرعى الأغنامَ، فاستحضَره فحاذَى رأسَه بالقرنِ فخرجَ منه دهنٌ له رائحةٌ مثلُ المسكِ، وامتلأَ القرنُ، فأوحى الله إليه: هذا الذي يقتُلُ جالوتَ[3].

وقال كعبٌ: لـمَّا قصدَ داودُ أن يحضرَ ذلك النَّبيَّ ناداه في طريقِه حجرٌ: احمِلْني يا داودُ؛ فإنَّك تُدْعى لقتالِ جالوتَ، وإنَّما تقتُلُه بي، فحمَلَه في مِخلاتِه، ثمَّ ناداه حجرٌ آخرُ فحملَه، ثمَّ ناداه حجرٌ ثالثٌ فحملَه، فضُربَ في مخلاتِه واحدًا[4].

وقيلَ: قال نبيُّ ذلك الوقتِ للملكِ: مَن صلُحَتْ عليه هذه الدِّرعُ فهو الذي يلي قتلَ جالوتَ، فاجعَلْ له نصفَ ملكِكَ ونصفَ مالِكَ، فلمَّا حضرَ داودُ وقالَ: «أنا أقتلُ جالوتَ» استصغَرَه طالوتُ؛ لأنَّه كان رَبْعًا في هيئةٍ دونٍ، فأخبرَه بأمرِ الحجرِ

---

(١) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٦٢) عن وهب بن منبه.

(٢) الشمشاد بالدال والذال: شجر السرو، وهي فارسية. انظر: «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي» (٢/ ٣٢٨). وفي «تفسير مقاتل» (١/ ٢٠٦): وكان التابوت من عود الشمشاد التي تتخذ منه الأمشاط.

(٣) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٠٧) عن السدي.

(٤) رواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥١٢) عن ابن جريج.

وقال: إنْ قتلتُ جالوتَ فلي نصفُ ملكِكَ؟ قال: نعم، وأُزوِّجُكَ بنتي، فالبَسْ هذه الدِّرعَ، فلبِسَها فطالَتْ عليه، فانتَفَضَ بها وتقلَّصَتْ ورجعَتْ إلى قَدْرِه، وسارَ طالوتُ بالجنودِ وهم سبعون ألفًا، وابتلاهُم الله بالنَّهرِ.

فلما التَقَى الجمعانِ خرجَ داودُ لجالوتَ فسخِرَ من داودَ، وكان رجلًا من عادٍ ظِلُّه ميلٌ، وعلى رأسِه بيضةٌ فيها ثلاثُ مئةِ رطلٍ، قصدَ أن يأخُذَ داودَ بيدِه استخفافًا به، فوضعَ داودُ الحجرَ في مِقلاعِه ورمى بها، فصادَ ثلاثةً، وأصابَ واحدٌ منها رأسَه، وواحدٌ صدرَه، وواحدٌ خصرَه ونفَذَتْ فيه، وماتَ جالوتُ، فانهزَمَ العسكرُ[1].

وقيلَ: تكسَّرَ الحجرُ في الهواءِ فأصابَ كلَّ واحدٍ فلقةٌ.

وقيلَ: ثلاثونَ ألفًا.

ثمَّ إنَّ طالوتَ ندمَ على ما وعدَ داودَ، وأحسَّ داودُ به فهربَ، وندمَ طالوتُ على ما همَّ به من قتلِ داودَ، واستخبرَ عابدةً من بني إسرائيلَ عن توبتِه فقالَتْ: توبتُكَ أن تُقاتلَ العدوَّ الفُلانيَّ، فذهبَ فقاتلَه فقُتِلَ طالوتُ، فأخذَ داودُ الملكَ، واجتمعَ عليه بنو إسرائيلَ.

وقيلَ: إنَّما قُتل طالوتُ بعد جالوتَ بسبعِ سنين، فصارَ الملكُ لداودَ.

وقيلَ: حسدَ طالوتُ داودَ بعدَما زوَّجَ منه ابنتَه؛ لأنَّ بني إسرائيلَ مالوا إلى داودَ، فعزَمَ على قتلِ داودَ في بعضِ اللَّيالي، وعلِمَتْ بنتُ طالوتَ بذلك، فاتَّخذَتْ زَقًّا وملأتْه خمرًا وطيَّبَتْه بالرَّياحينِ، وحطَّته في هيئةِ النَّائمِ، فقالَ طالوتُ لها: أينَ زوجُكِ؟ فأشارَتْ إلى الزقِّ، فلمّا ضربَه طالوتُ انفجرَ منه الخمرُ، فقال:

---

(١) قطعة من خبر ابن جريج السابق.

لقد طِبْتَ حيًّا وميتًا، وندِمَ وقامَ ينوحُ عليه، فأخبَرَتْه المرأةُ بالحالِ، ففرِحَ وسلَّمَ الملكَ إلى داودَ[1].

وقيلَ: لا، بل ظنَّ أنَّه قتلَ داودَ، وقال للنَّاسِ: إنَّه اغتيلَ واستُطيرَ به، ولمَّا علمَ أنَّه لم يصنَعْ شيئًا ولم يقتُلْه خافَه واتَّخذَ الحُجَّابَ وتحفَّظَ، فلما أمسى أتاه داودُ وألقى اللهُ النَّومَ على الحرَّاسِ، فوضعَ عندَ رأسِه سهمًا وعلى بطنِه سهمًا، فلما انتبَهَ قال: لو شاءَ لجعَلَ هذا في حلقي، فزادَ في الحُجَّابِ، فأتاه داودُ ثانيًا ووضعَ على صدرِه سيفًا، فلمَّا انتبَه طلبَ داودَ فلم يجِدْه، فطلبَه عند المُتعبِّدين في بعضِ الجبالِ فلم يجِدْه، فقتلَهم عن آخرِهم إلَّا واحدًا منهم اتَّخذَه أنيسًا، فلمَّا أمسى قال له: كم مضى منَ اللَّيلِ؟ وهل صاحَ الدِّيكُ؟ فقال: وهل تركتَ ديكًا يصيحُ؟ قال: كيفَ؟ قال: إنَّما يعلمُ قدرَ اللَّيلِ وما مضى وما بقيَ العُبَّادُ القائمونَ باللَّيلِ، فبكى طالوتُ وندِمَ على ما فعلَ، ودُلَّ على امرأةٍ مُتعبِّدةٍ فسألَها عن توبتِه، فدلَّته على قبرِ أَشْمَويلَ ودَعَتْ ثَمَّ وصَلَّتْ، فخرَجَ أَشْمَويلُ من قبرِه بإذنِ الله، وقال: توبتُكَ أن تُقاتلَ العدوَّ وتُقدِّمَ أولادَكَ حتَّى يُقتَلُوا بينَ يدَيكَ، وتُقتَلَ بعدَهم، وعادَ إلى القبرِ، فقال طالوتُ لأولادِه: لو رأيتُموني أُلقَى في النَّارِ هل تفدونَني؟ قالوا: نعم، بما نقدِرُ عليه، فذكَرَ لهم الأمرَ فأطاعُوه، وقُتِلوا جميعًا مع طالوتَ، فقتَلَ داودُ قاتلَهم وورِثَ الملكَ.

وقيلَ: قالَ الله لنبيِّهم: إذا دخلَ عليك رجلٌ فنَشَّ الدُّهنُ الذي في بيتِك في هذا القرنِ؛ فهو مَلِكُ بني إسرائيلَ، فادْهَنَ[2] رأسَه وملِّكْه عليهم، فضَلَّ لطالوتَ حمارٌ، وكانَ دبّاغًا، فدخلَ على النَّبيِّ ليدعُوَ له فنشَّ الدُّهنُ فملَّكَه عليهم[3].

---

(١) ذكر هذه القصة الماوردي في «النكت والعيون» (١/ ٣٢٠) عن الضحاك.

(٢) في النسختين: «فدهن»، والمثبت من المصدر.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٤٤٨) عن وهب مطولًا.

(٢٥٢) - ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذه الأخبارُ آياتُ الله وعلاماتُه، تدلُّ[1] على توحيدِه وصدقِ رُسلِه، وقولُه: ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى: «هذه».

ويجوزُ أن يجريَ على الظّاهرِ فيكونَ إشارةً إلى ما مضى منَ الآياتِ، وما مضى في حكمِ البعيدِ.

﴿نَتْلُوهَا﴾؛ أي: يتلوها جبريلُ عليكَ بأمرِنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصِّدقِ، فليس فيه تحريفٌ ومَينٌ.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين دفعتُ بهم عن النَّاسِ، وقد أعطَيتُك مثلَ هذه الآياتِ، ومنها: إخبارُك عن هذه الغُيوبِ من غيرِ تعلُّمٍ وقراءةِ كتابٍ، ولا يُمكنُ ذلك إلّا بتأييدٍ إلهيٍّ.

* * *

(٢٥٣) - ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ لم يقُلْ: «أولئك» لأنّه أرادَ الجماعةَ؛ أي: تلك الجماعةُ، وهذه تسليةٌ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ؛ أي: إنْ كذَّبَ هؤلاءِ فقد كذَّبَ الرُّسلَ قبلَكَ أقوامٌ.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: لا يجبُ علينا التَّسويةُ بينَهم.

---

(١) في (أ): «وتدل».

وقيلَ: عنى بالتَّفضيلِ: تخصيصَ كلِّ واحدٍ بمُعجزةٍ تليقُ بوقتِه، فمُعجزةُ موسى: قلبُ العصا وفلقُ البحرِ؛ إذ كان الغالبُ على أهلِ عصرِه السِّحرَ، ومُعجزةُ عيسى: إحياءُ الميِّتِ وإبراءُ الأكمَهِ والأبرَصِ؛ لغلبةِ الطِّبِّ في زمانِه، ومُعجزةُ محمَّدٍ عليه السَّلامُ: الفصاحةُ؛ لغلبةِ الفصاحةِ في وقتِه.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: مَن كلَّمَه الله، فحُذِفَ الهاءُ، يعني: موسى.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ قيلَ: هو محمَّدٌ ﷺ؛ فإنَّه أُرسِلَ إلى الكافَّةِ.

وقيلَ: هو إبراهيمُ اتَّخذَه خليلًا، وداودُ جمعَ له بينَ الملكِ والنُّبوَّةِ، وسليمانُ سخَّرَ له الرِّيحِ والطَّيرَ والجنَّ.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من إحياءِ الموتَى وغيرِه ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ أي: قوَّيناه بجبريلَ، أو بالإنجيلِ، أو اسمِ الله الأعظمِ، أو بروحِ عيسى، فوصفَه بالطَّهارةِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾؛ أي: من بعدِ الرُّسلِ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: المُعجِزاتُ ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: مَن صدَّقَ، ومنهم مَن لـم يُؤمِنْ، أو ارتدَّ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ نظيرُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

***

(٢٥٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟﴾ أعادَ ذِكرَ الإنفاقِ حثًّا على الصَّدقةِ.

ثمَّ قيلَ: أرادَ الزَّكاةَ، وقيلَ: النَّفقةَ على الأهلِ والولدِ والخادمِ والجارِ.

﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ أي: وسَّعتُ عليكم فوسِّعوا على الخلقِ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وقيلَ: يومَ الموتِ.

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ أي: لا ينفعُ فيه فديةٌ ولا يُؤخَذُ عِوَضٌ.

وقيلَ: لا تجارةٌ حتَّى يكتسبَ المرءُ ما يفتَدي به.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ هي مصدرُ الخليلِ، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا؛ أي: ليس في ذلك اليومِ خُلَّةٌ تنفعُ ممَّا كان في الدُّنيا، فالأخِلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ عنَى الكافرينَ، وبيَّنَ أنَّ هذه الأشياءَ لا تنفعُهم، ولهذا قالَ:

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: إنَّ الله ليس بظالمٍ في إحلالِ العقابِ بهم، وهم الظّالمون الذين وضَعُوا الشَّيءَ غيرَ موضعِه، وعوَّلوا على شفاعةِ الأصنامِ لهم.

قُرِئَ: ﴿لا بيعَ فيه ولا خُلّةَ﴾ على التَّنزيهِ، وقُرِئَ بالتَّنوينِ والرَّفعِ[1].

* * *

(٢٥٥) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ اتَّصلَ بقولِه: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾.

قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وهو الذي لا إلهَ إلا هو، فليس لأحدٍ

---

(١) قرأ بالفتح ابن كثير وأبو عمرو، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٧ ـ ١٨٨)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

عليه اعتراضٌ فيما يفعَلُ، وقولُك: «لا كريمَ إلّا زيدٌ» أبلَغُ من قولِك: «زيدٌ كريمٌ»، كذلك: «لا إلهَ إلّا الله» أبلَغُ في الاعترافِ بتحقيقِ الهيئةِ.

و﴿ٱلۡحَيُّ﴾: مَن له الحياةُ، بيَّنَ أنَّ المعبودَ يجبُ أن يكونَ حيًّا، وأمَّا الأصنامُ فجماداتٌ، وأصلُ الحيِّ: «حَيِيٌ»، مثلَ: حَذِرٍ وطَمِعٍ، فأُدخِلَتِ الياءُ في الياءِ.

وقيلَ: أصلُه «حَيْوٌ» فاجتمَعَتِ الياءُ والواوُ والأوّلُ ساكنٌ فجُعِلَتا ياءً مُشدَّدةً.

و﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: مُبالغةٌ منَ القائمِ[1]، ووزنُه فَيْعولٌ، وأصلُه: قَيْوُومٌ، فاجتمَعَتِ الياءُ والواوُ والسّابقُ ساكنٌ فجُعِلَتا ياءً مُشدَّدةً.

ويجوزُ في اللُّغةِ: «القَيَّامُ» مثلَ: دَيُّورٌ ودَيَّارٌ، وقرأ عمرُ[2]: (الحيُّ القَيَّامُ)[3].

وقُرِئَ في الشَّواذِّ: (القَيِّمُ)[4].

والقَيُّومُ: القائمُ على الأشياءِ بالحفظِ، فاللهُ تعالى قائمٌ بتدبيرِ أمرِ الخلقِ، كما قال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقالَ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

---

(١) في (أ) وهامش (ف): «القيام»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في «البسيط» (٤/ ٣٤٧) والكلام منه.

(٢) في (أ): «أبو عمرو».

(٣) رويت عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما وإبراهيم، رواها عنهم سعيد بن منصور في «سننه» (٤٨٦) و(٤٨٧) و(٤٨٨) و(٤٨٩). وذكرها عن عمر وابن مسعود: الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٩٠)، والزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٣٧٣).

(٤) رواها الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٧٥) عن علقمة بن قيس، وذكرها دون نسبة الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٣٧٣). وهي كذلك في مصحف عبد الله بن مسعود كما ذكر ابن المنذر في «تفسيره» (١/ ١١٣) عن هارون، والنحاس في «إعراب القرآن» (١/ ١٤٣) عن خارجة.

وقيلَ: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: الدَّائمُ الوجودِ.

وقيلَ: العالِـمُ بالأمورِ، يُقالُ: فلانٌ يقومُ بهذا الكتابِ.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السِّنَةُ: ثِقَلُ النُّعاسِ، يُقالُ: وَسِنَ يوْسَنُ سِنَةً ووَسَنًا، فهو وَسْنانُ ووَسِنٌ، وامرأةٌ وَسْنانةٌ ووَسْنَى.

وقيلَ: السِّنَةُ: ريحٌ تجيءُ من قِبَلِ الرَّأسِ تغشَى العينَ.

والنَّومُ: الغَشْيةُ الثَّقيلةُ التي تهجُمُ على القلبِ.

والمعنى: لا تطرأُ عليه غفلةٌ وسهوٌ وفترةٌ ومَلَالٌ في قيامِه بتدبيرِ الخلقِ.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾؛ أي: لا يشفعُ عندَه أحـدٌ إلا بإذنِه، فهو استفهامٌ بمعنى النَّفيِ، نزلَتْ لـمَّا قال المُشركون: يشفعُ لنا الأصنامُ، وقالت اليهودُ: يشفعُ لنا آباؤُنا الأنبياءُ(١).

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: الأنبياءُ يشفَعون بإذنِه، وكذلك المُؤمنون.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: ما بينَ أيدي هؤلاءِ الذين يرجُو الكفَّارُ شفاعتَهم يومَ القيامةِ، وهم الأصنامُ، أو الملائكةُ، أو الأنبياءُ.

و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: مـا بعـدَ انقضاءِ آجالِـهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كانَ قبلَ أن

---

(١) قولـه: «نزلـت لمـا قـال المشـركون...» فيـه تجـوز؛ فليـس المـراد أن حادثـة وقعـت قـال فيهـا المشـركون واليهـود مـا ذكـر، وإنما المقصـود أن فيها ردًّا علـى كلا الفريقين في قولهـم ذلك. وقد ورد فـي بعـض التفاسـير أن قـول اليهود المذكور هو سـبب نـزول قوله تعالـى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقـرة: ٤٨]. انظـر: «البسـيط» للواحـدي (٢/ ٤٨٩)، و«الوسـيط» لـه (١/ ١٣٤)، و«المحـرر الوجيـز» (١/ ١٣٩)، و«أحـكام القـرآن» لابن الفـرس (١/ ٦٦).

خلقَهم، فما بين أيديهم الآخرةُ، وما خلفَهم الدُّنيا؛ لأنَّهم يُخلِّفونَها وراءَ ظُهورِهم. وقيلَ عكسُ هذا.

وقال ابنُ عبّاسٍ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يُريدُ: منَ السَّماءِ إلى الأرضِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: ما في السَّماواتِ(١).

وقيلَ: ذِكرُ الشّافعِ والمشفوعِ له أفهَمَ(٢) جملةَ الخلقِ، فقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: ما بينَ أيدي الخلقِ؛ أي: يعلَمُ عواقبَ الكلِّ ومبادِيهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾؛ أي: الأنبياءُ أيضًا لا يعرِفُونَ بأنفُسِهم مَن الذي ينبَغي أن يشفَعُوا له؛ إذ لا يُحيطُ أحدٌ منَ الخلقِ بمعلوماتِ الرَّبِّ.

﴿مِّنْ عِلْمِهِ﴾؛ أي: من معلوماتِه، كما يُقالُ: «اللَّهمَّ اغفِرْ لنا(٣) علمَكَ فينا»؛ أي: معلومَكَ. ويُقالُ: «أرَيْتَنا قُدرَتَك فأرِنا مغفِرَتَك»؛ أي: أريتَنا مقدُورَكَ، ويُقالُ: «الله رَجاؤُنا»؛ أي: مَرجُوُّنا.

ونظيرُ هذه الآيةِ في سورةِ الأنبياءِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الكرسيُّ في اللُّغةِ مِن تركُّبِ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ، والكِرْسُ: أبوالُ الدَّوابِّ وأبعارُها يتلَبَّدُ بعضُها فوقَ بعضٍ، وأكرَسَتِ الدّارُ: إذا كثُرَ فيها الكِرْسُ، وتكارَسَ الشَّيءُ: إذا تراكبَ، ومنه: الكُرَّاسةُ؛ لتراكُبِ بعضِ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٢٥٠) من رواية عطاء عن ابن عباس.

(٢) في النسختين: «فهم» ولعل المثبت هو الصواب.

(٣) «لنا» من (أ).

الأوراقِ على البعضِ، وسُمِّيَ الكرسيُّ به لتركُّبِ[١] خشباتِه بعضِها فوقَ بعضٍ.

وقيلَ: الكِرْسُ: أصلُ الشَّيءِ.

وقيلَ: الكِرْسُ: العلمُ، ومنه يُقالُ للصَّحيفةِ: كُرَّاسةٌ؛ لاشتمالِـها على العلمِ، ويُقالُ للعلماءِ: كراسيّ، كما يُقالُ: أوتادُ الأرضِ.

ثمَّ قال المُفسِّرونَ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾؛ أي: ملكُه وسُلطانُه، وذلك لاحتوائِه على ملكِه كاحتواءِ صاحبِ الكرسيِّ عليه، وقد يُقالُ: ثُلَّ عرشُ فلانٍ؛ أي: ذهبَ ملكُه، فيجوزُ أن يُعبَّرَ أيضًا بالكرسيِّ عن الملكِ.

وقيلَ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: قدرتُه التي بها يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ، تقولُ: «اجعَلْ لهذا الحائطِ كرسيًّا»؛ أي: اجعَلْ له ما يُمسِكُه.

وقال ابنُ جريرٍ: الكرسيُّ: الأهلُ[٢]؛ أي: وسعَ عبادُه السَّماواتِ والأرضَ.

وقيلَ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: علمُه.

وقيلَ: هو الكرسيُّ بعينِه، وهو لؤلؤٌ، وما في السَّماواتِ السَّبعِ في جنبِه إلا كدراهمَ سبعةٍ أُلقِيَتْ في ترسٍ على ما وردَ في الأخبارِ[٣]، أنَّ كرسيَّه مُشتملٌ لعِظَمِه[٤]

---

(١) في (أ): «لتراكب».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٠٥)، ولم أجده في «تفسير الطبري»، وذكره الكرماني في «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (١/ ٢٢٥) وجعله من العجائب، لكنه نسبه إلى ابن جرير.

(٣) ذكره بتمامه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٠٥) عن أبي موسى والسدي وغيرهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٣٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢٢٢)، من طريق زيد بن أسلم عن النبي ﷺ دون قوله: «هو الكرسيُّ بعينِه، وهو لؤلؤٌ». وإسناده منقطع.

(٤) في (أ): «لعظمته».

على السَّماواتِ والأرضِ[١]، والكرسيُّ منَ السَّريرِ: موضعُ القدَمَين في العُرفِ، وقد أخبرَ الله عن العرشِ فقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، فإذا جازَ إضافةُ العرشِ إليه جازَ إضافةُ الكرسيِّ إليه أيضًا، وهو كإضافةِ الكعبةِ إليه.

ثمَّ يجوزُ أن يكونَ الكرسيُّ درجةً إلى العرشِ، ويجوزُ أن يكونَ شيئًا فوقَ العرشِ.

ثمَّ معنى هذه الإضافةِ ما يليقُ بجلالِ الرَّبِّ؛ فإنَّه مُنزَّهٌ عن التَّحيُّزِ في مكانٍ.

وقال قومٌ: الكرسيُّ والعرشُ واحدٌ[٢].

وأربابُ الإلحادِ يحملون هذه الأشياءَ على عِظَمِ الملكِ وجلالةِ السُّلطانِ، ويُنكِرونَ وجودَ العرشِ والكرسيِّ، وأهلُ الحقِّ يُجرونَها على الظَّواهرِ؛ إذ في قدرةِ الله مُتَّسعٌ.

فأمَّا ما يستحيلُ في العقلِ وهو تحيُّزُ الصّانعِ واتِّصافُه بالحدِّ والأطرافِ والأعضاءِ فيجبُ فيه التَّأويلُ، ووجوبُ التَّأويلِ فيه في موضعٍ يستحيلُ الإجراءُ على الظّاهرِ لا يلزمُ التأويلُ فيما يجوزُ في العقلِ تقديرُه.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يُثقِلُه، من آدَه يؤُودُه أَوْدًا؛ أي: أثقَلَه وأجهَدَه،

---

(١) لعله يشير إلى ما رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٣٩)، عن الربيع قال: لما نزلت: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله هذا الكرسي وسع السماوات والأرض، فكيف العرش؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وإسناده منقطع.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٣٩) عن الحسن.

وقوَّمْتُ أَوَدَه؛ أي: ثقَّلتُ عليه حتَّى استَوى عِوَجُه، والكنايةُ ترجعُ إلى الله؛ أي: لا يعجزُ عن حفظِ السَّماواتِ والأرضِ، وهو القيُّومُ الذي لا تأخذُه سِنةٌ ولا نومٌ.

وقيلَ: ترجعُ الكنايةُ إلى الكرسيِّ، كأنَّ السَّماواتِ والأرضَ على هذا التَّأويلِ على الكرسيِّ، أو مُعلَّقةٌ منَ الكرسيِّ.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ يعني: علوَّ اقتدارٍ وتقدُّسٍ عن مُشابهةِ الخلقِ.

﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ أي: منزلةً وجلالةً، لا بكثرةِ الأجزاءِ؛ فإنَّه الأحديُّ المُتعالي عن قَبولِ الحدِّ والنِّهايةِ.

* * *

(٢٥٦) - ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لـمَّا بيَّنَ أنَّ الكفَّارَ لا تنفعُهم غدًا شفاعةٌ ولا خُلَّةٌ وفِديةٌ، وأنَّ القائمَ بتقديرِ الخلقِ هو الله؛ بيَّنَ أنَّه أوضحَ الأحكامَ وكلَّ المُعجزاتِ على صدقِ الرُّسلِ، ولـم يُجبِرْ أحدًا على الإسلامِ من غيرِ مُعجزةٍ، بل تبيَّنَ الرُّشدُ منَ الغيِّ فلا إكراهَ في الدِّينِ.

وقيلَ: الإكراهُ بعد إسلامِ العربِ؛ فإنَّه لـم يُقبَلْ منهم إلّا الإسلامُ، فلما أسلَمُوا عن آخرِهم فحينَئذٍ نزلَ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، واليهودُ والنَّصارى والمجوسُ يُقاتَلون حتَّى يُسلِمُوا أو يقبَلُوا الجِزيةَ، فالحربيُّ إذا أُكرِهَ على الإسلامِ صحَّ إسلامُه؛ لأنَّه إكراهٌ بحقٍّ، والذِّميُّ إذا أُكرِهَ فالظَّاهرُ منَ المذهبِ أنَّه لا يُحكَمُ بإسلامِه؛ لأنَّه إكراهٌ بباطلٍ، فعلى القولِ الأوَّلِ أُزيحتِ العِلَلُ ووضحَتِ الحُجَجُ، فلا إكراهَ في الدِّينِ؛ لأنَّه لـم يُكلِّفِ العبدَ ما لا يُطيقُ، وعلى الثَّاني الآيةُ فيمَن سوى العربِ.

وقـال ابنُ مسـعودٍ: كان هـذا قبلَ أن يُؤمـرَ النَّبيُّ عليه السَّـلامُ بالقتـالِ مع أهلِ الكتـابِ، فهـي إذنْ منسـوخةٌ بآيـةِ الجهـادِ إذ قـال: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقيلَ: الإكراهُ هاهُنا: النِّسبةُ إلى الكفرِ، يقال: أكْفَرَه؛ أي: نسَبَه إلى الكفرِ؛ أي: لا تقولوا لمَن دخلَ بعد الحربِ في الإسلامِ: إنَّه أسلَمَ كرهًا، وهو كقولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤].

﴿فِى ٱلدِّينِ﴾؛ أي: في دينِ الله، الألفُ واللَّامُ فيه للعهدِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: نزلَ هذا في الأنصارِ؛ إذ كانت المرأةُ منهم قد تكونُ مِقْلاتاً، فتجعلُ على نفسِها إنْ عاشَ لها ولدٌ أن تُهوِّدَه، فلمَّا أُجلِيَتْ بنو النَّضيرِ كانَ فيهم ناسٌ من أبناءِ الأنصارِ، فقالتِ الأنصارُ: يا رسولَ الله، أبناؤُنا، فنزلَتْ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[1]؛ أي: مَن شاءَ التحَقَ بهم، ومَن شاءَ دخلَ في الإسلامِ.

وقيلَ: أرضعَتْ نسوةٌ منَ اليهودِ أولادًا منَ الأنصارِ، فلما أُجلِيَتِ اليهودُ قال قومٌ: لنَذْهبَنَّ معهم ولنَدينَنَّ بدينِهم، فمنَعَهم أهلُوهم وأرادوا إكراهَهم على الإسلامِ، فنزلَتِ الآيةُ[2].

وقيلَ: نزلَتْ في رجلٍ منَ الأنصارِ كانَ له غلامٌ أسودُ يُقالُ له: صُبَيحٌ، وكان يُكرِهُه على الإسلامِ[3].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٨٢)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٣)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٤٦). قال أبو داودَ: المِقْلاتُ: التي لا يعيشُ لها ولدٌ.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٥)، عن مجاهد.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١١٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٤)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٢٣١)، عن مجاهد.

وقيلَ: نزلَتْ في رجلٍ تنصَّرَ ابنانِ له وخرَجا إلى الشّامِ، فنزلَتِ الآيةُ، فقالَ عليه السَّلامُ: «أبعَدَهُم الله، لَـهُما أوَّلُ مَن كفَرَ»[١]، وكانَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ.

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾؛ أي: وَضَحَ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ واستَبانَ وتبيَّنَ وبَيَّنَ؛ أي: ظهرَ.

والرُّشدُ: إصابةُ الخيرِ، من رشَدَ يرشُدُ رُشْدًا، ورَشِدَ يرشَدُ رَشَدًا.

والغَيُّ: نقيضُ الرُّشدِ، يُقالُ: غَوَى يَغْوِيْ غَيًّا وغَوايةً، من بابِ ضربَ يضرِبُ ضرباً[٢]، ويُقالُ: غَوِيَ يَغْوَى من بابِ حمِدَ يحمَدُ، وليس بمعروفٍ، وإنَّما هو منَ الفصيلِ إذا بَشِمَ منَ اللَّبنِ، والمعنى: قد ظهَرَ الإيمانُ منَ الكفرِ بالحُجَجِ.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هو كلُّ ما عُبِدَ من دونِ الله، والطَّاغوتُ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ، ويُستعملُ للواحدِ وللجمعِ، قالَ الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم﴾ [البقرة: ٢٥٧] فجمَعَ، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، والاشتقاقُ من طَغا، ويقعُ الاسمُ على كلِّ مَن طغَى وأطغَى من رُؤساءِ اليهودِ وغيرِهم ومنَ الأصنامِ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩) عن السدي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٤). وفيه تسمية الرجل: أبو الحصين.

وأخرج الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٤٧) من رواية محمد بن أبي محمد الحرشي عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له: الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً، فقال: يا رسول الله، ألا أستكرههما؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية. وإسناده ضعيف لجهالة الحرشي.

(٢) «ضرباً» ليست في (ف).

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ﴾ وهي ما يُتعلَّقُ به، والجمعُ: عُرًى، من قولك: عَرَوْتُ الرَّجلَ أَعرُوه عَرْوًا؛ أي: أَلمَمْتُ به، وفلانٌ ينقُضُ الإسلامَ عُروةً عُروةً؛ أي: يترُكُ أركانَه، والتَّمسُّكُ بالإيمانِ أمرٌ معقولٌ شُبِّهَ بالتَّمسُّكِ بالحبلِ وهو محسوسٌ.

وقيلَ: العُروةُ: شجرٌ تبقَى على البردِ والجدْبِ، ويتعلَّقُ به الإبلُ إلى وقتِ الخِصْبِ.

و﴿الْوُثْقَى﴾: تأنيثُ الأوثَقِ، كالكُبْرى والصُّغْرى في تأنيثِ الأكبرِ والأصغرِ، وهذه مأخوذة من القوة[1].

وفي التَّفسيرِ: العُروةُ الوُثقَى: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ الفَصْمُ: كسرُ الشَّيءِ من غيرِ إبانةٍ؛ أي: لا انقطاعَ لها؛ أي: بالعُروةِ الوُثقَى التي لا انفِصامَ لها، فاكتَفَى منَ «التي» بصلتِها.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لدُعائِكَ يا محمَّدُ؛ فإنَّه كانَ يسأَلُ اللهَ إيمانَ اليهودِ، عليمٌ بحِرصِكَ واجتهادِكَ، قالَه ابنُ عبّاسٍ[2].

وقيلَ: ﴿سَمِيعٌ﴾ بكلِّ ما يقولُه العبدُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بسرِّه.

وفي الخبرِ: «أعظَمُ سورةٍ في القرآنِ البقرةُ، وأعظمُ آيةٍ فيها آيةُ الكرسيِّ، ولن تستطيعَها البطَلَةُ»[3]؛ أي: السَّحرةُ.

---

(١) «وهذه مأخوذة من القوة» ليست في (ف).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٦٧)، وهذا معنى قوله، وليس هو كما يظهر من عبارة الواحدي حيث قال: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال عطاء عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحب إسلام أهل الكتاب من اليهود الذين حول المدينة، وكان يسأل الله ذلك سرًّا وعلانية، فمعنى قوله: والله سميع، يريد: لدعائك يا محمد، عليم بحرصك واجتهادك. وهكذا ذكره أيضاً الرازي في «تفسيره» (٧/ ١٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ٥٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً دون قوله: «ولن تستطيعها =

وفي خبرٍ آخرَ: «آيةُ الكرسيِّ خمسونَ كلمةً، في كلِّ كلمةٍ خمسونَ بركةً»(١).

وفي الخبرِ: أنَّ جبريلَ قال للنَّبيِّ عليه السَّلامُ: «إنَّ عفريتًا منَ الجنِّ يكيدُك، فإذا أوَيْتَ إلى فراشِكَ فاقرأ آيةَ الكرسيِّ»(٢).

* * *

= البطلة» ونقل عن أبيه قوله: هذا خطأ، إنما هو عن ابن عباس قولَه، ويحيى بن السكن [أحد رجاله] ضعيف الحديث.

قلت: قوله: «أعظَمُ سورةٍ في القرآنِ البقرةُ» مخالف لما رواه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه، وفيه: فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ؟ قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

وقوله: «وأعظمُ آيةٍ فيها آيةُ الكرسيِّ» يشهد له حديث أبي بن كعب عند مسلم (٨١٠).

وقوله: «ولن تستطيعها البطلة» رواه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(١) قطعة من حديث رواه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٧٣ ـ ٧٦) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً. وفيه إسماعيل بن يحيى الشيباني، قال العقيلي: لا يتابع على حديثه، وحكى عن يزيد بن هارون أنه قال: كان كذاباً، وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه. انظر: «التهذيب» (١/ ٣٣٦). وهو يرويه عن عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف أيضاً.

وذكره بنحوه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٤٧١). قال المناوي في «فيض القدير» (٤/ ١٢٣): وفيه محمد بن عبد القدوس عن مجالد بن سعيد، ومحمد قال الذهبي: مجهول، ومجالد قال أحمد: ليس بشيء، وضعفه غيره.

(٢) رواه ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص: ١٨٢)، وابن أبي الدُّنيا في «مكائد الشَّيطان» (٦٧)، والدينوري في «المجالسة» (٢٨٧٠)، عن الحسن مرسلاً.

(٢٥٧) - ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم الذين تـمَسَّكوا بالعُروةِ الوُثقَى؛ أي: يتولَّاهُم بنصرِه، والوليُّ: فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ووَلِيَ فلانٌ كذا يليه ولايةً فهو والٍ ووليٌّ، وأصلُه: الوَلْيُ، وهو القُربُ، يُقالُ: داري تلي دارَ[1] فلانٍ؛ أي: تقرُبُ منها.

وهذه الآيةُ تخصيصٌ للمُؤمنين بالذِّكرِ تشريفًا، وإلَّا فهو يلي كلَّ شيءٍ، ونظيرُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١].

﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: منَ الكفرِ إلى الإيمانِ، فالكفرُ كالظُّلمةِ في المنعِ من إدراكِ الحقِّ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أرادَ: الطَّواغيتَ، وهكذا قرأ الحسَنُ، ولهذا قالَ: ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ أرادَ: الشَّيطانُ بوسوستِه يمنعُهم منَ الإسلامِ.

وقالَ مُقاتلٌ: أرادَ: كعبَ بنَ الأشرفِ، وحُييَّ بنَ أخطبَ، وأحبارَ اليهودِ[2]، منَعُوا أتباعَهم من اتِّباعِ محمَّدٍ عليه السَّلامُ بعدَ أن كانوا مُؤمنين به قبلَ مبعثِه، والمُرادُ بهذا الإخراجِ: المنعُ منَ الإيمانِ، لا أنَّهم كانوا مُؤمنين فأُخرِجُوا منه، وهو كقولِك: «أخرَجَني أبي منَ الميراثِ»؛ أي: منَعَني منه.

وقيلَ: «هو في قومٍ ارتَدُّوا بعد الإيمانِ» حتَّى يتحقَّقَ الإخراجُ.

* * *

---

(١) في (أ): «دارة».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢١٥)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ١٣٤).

(٢٥٨) - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ بيَّنَ أنَّه وليُّ الذين آمَنُوا بإظهارِ الحُجَجِ كما أظهرَ لإبراهيمَ مع نُمروذَ، وحيثُ قالَ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، وكما أزاحَ الشُّبهةَ عن قلبِ عُزَيرٍ.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ أي: ألم ينتهِ علمُك إلى هذا، ﴿حَاجَّ﴾؛ أي: جادَلَ.

وهو نُمروذُ بنُ كنعانَ، والمُحاجَّةُ كالمُناظرةِ، وحاجَجْتُه؛ أي: غالَبْتُه فغلَبْتُه، قال ابنُ عبّاسٍ: دخلَ إبراهيمُ بلدَ نُمروذَ ليمتارَ، فأرسلَ إليه وقال: مَن ربُّك؟ قال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فقال نُمروذُ: أنا أُحيِي وأُميتُ[(١)].

وقيلَ: حبَسَه لـمَّا كسرَ الأصنامَ، ثمَّ أخرجَه فقال: مَن ربُّك؟

﴿فِي رَبِّهِ﴾؛ أي: في ربِّ إبراهيمَ، وقيلَ: أي: في ربِّ نُمروذَ.

﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾؛ أي: لِأَنْ آتاه الله المُلكَ؛ أي: حملَه نظرُ الكفرِ على مُحاجَّةِ إبراهيمَ.

وقيلَ: لأَنْ آتى الله المُلكَ إبراهيمَ[(٢)]؛ أي: مُلكَ الدِّينِ؛ أي: حسَدَه نُمروذُ على النُّبوّةِ، قال الله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا﴾ [النساء: ٥٤]؛ أي: مُلكَ النُّبوّةِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٧٢) من رواية عطاء عن ابن عباس، ورواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٧٢) عن زيد بن أسلم مطولاً.

(٢) في (أ): «لإبراهيم».

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هذا جوابُ سؤالٍ محذوفٍ؛ أي: قال له: مَن ربُّك؟ فقال إبراهيمُ: الذي يُحيي ويُميتُ، فمَوَّه نُمروذُ على العوامِّ، فقتَلَ رجُلًا واستحيَى رجُلًا ممَّن استحقَّ القتلَ في حُكمِه، ولم يَفْهَمْ أنَّ مقصودَ إبراهيمَ اختراعُ الموتِ والحياةِ، فزادَ إبراهيمُ شيئًا آخرَ، ولم يكُن انتقالاً، بل لم يفهمِ الخصمُ الحجَّةَ الأولى، أو لبَّسَ، فاستدلَّ عليه بما لا يتأتَّى معه التَّلبيسُ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ﴾.

ويحتملُ أن نقولَ: كان مبهوتًا في الأولى ومبهوتًا في الثّانيةِ، ﴿فَبُهِتَ﴾ من بهَتَه يبهَتُه بهتًا وبُهتانًا؛ أي: واجهَه بالكذبِ عليه، وتُسمَّى الحيرةُ عند استيفاءِ الحجّةِ بَهتًا؛ لأنَّه كحيرةِ المُواجهةِ بالكذبِ، يُقالُ: بُهِتَ وبَهَتَ وبَهُتَ.

وكانَ هلاكُ نُمروذَ لـمَّا قصدَ المُحاربةَ مع الله بأنْ فتحَ الله عليه بابًا منَ البعوضِ فستَرُوا عينَ الشَّمسِ وأكلوا عسكرَه ولم يترُكوا إلا العظمَ، ودخلَ واحدٌ منهم دماغَه فأكلَه حتَّى صارَ مثلَ الفأرةِ، فكانَ أعزَّ النّاسِ عندَه بعد ذلك مَن يضرِبُ دماغَه بمطرقةٍ عتيدةٍ لذلك، فبقيَ في البلاءِ أربعينَ يومًا. وقيلَ: أربعينَ سنةً. وقيلَ: أربعَ مئةِ سنةٍ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: بُهِتَ وبقيَ حائرًا عن الحجَّةِ لأنَّه ظالمٌ، بيَّنَ أنَّ الهدايةَ والضَّلالَ إلى الله تعالى.

* * *

(٢٥٩) - ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

قولُه: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾؛ أي: رأيتَ كالذي حاجَّ إبراهيمَ، أو كالذي مرَّ، وهذا حملٌ على المعنى، كقولِه:

فلَسْنا بالجبالِ ولا الحديدا[1]

وقيلَ: الكافُ زائدةٌ، وعطفَ (الذي) على ﴿ ٱلَّذِى ﴾؛ أي: ألم ترَ إلى الذي حاجَّ أو الذي مرَّ، فـ﴿ أَوْ ﴾ للتَّخييرِ، كما يُقالُ: جالسِ الحسنَ أو ابنَ سيرينَ.

ويجوزُ أن يُقالَ: ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى الواوِ، وفي هذه القصصِ بيانُ أنَّ الله قادرٌ على إحياءِ الموتى ردًّا على المُشركين.

---

(١) عجز بيت لعقيبة الأسدي كما في «الجمل» للخليل (ص: ١٠١)، و«الكتاب» (١/ ٦٧)، و«سر صناعة الإعراب» لابن جني (١/ ١٤١)، و«شرح أمالي القالي» للبكري (١/ ١٤٩)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ٢٦٠)، وهو كما قال البكري: عقيبة بن هبيرة الأسدي شاعر جاهلي إسلاميّ يخاطب معاوية، وزاد البغدادي: وَفَد على معاوية بن أبي سفيان فدَفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات، فدعاه معاوية فقال له: ما جرَّأك عَليَّ؟! قال: نَصَحْتُك إذْ غشُّوك وصدَقْتُك إذ كذَبوك فقال: ما أَظنك إلَّا صادقاً، فَقضى حوائجه. وصدره:

مُعَاوِي إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ

قال الواحدي في «البسيط» (٤/ ٣٧٩): أراد: فلسنا الجبال والحديد، فحَمَل على المعنى وترك اللفظ.

وقالَ المُبرِّدُ: ألـم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيمَ، ألـم ترَ مَن هو كالذي مرَّ على قريةٍ؟ فأضمرَ في الكلامِ «مَن هو»[١].

وقال الفرَّاءُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: «هل رأيتَ»، أي: هل رأيتَ الذي حاجَّ إبراهيمَ، أو هل رأيتَ كالذي مرَّ على قريةٍ[٢].

والذي مرَّ على القريةِ عُزَيرٌ، وقيلَ: إِرْمياءُ، وهو الخضِرُ.

وقيلَ: رجلٌ كافرٌ شكَّ في البعثِ.

وهذه القريةُ: بيتُ المقدسِ، وقيلَ: القريةُ التي خرجَ منها الألوفُ حذرَ الموتِ.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: خاليةٌ، يُقالُ: خوَتِ الدّارُ خُوِيًّا؛ أي: خلَتْ، ويجوزُ: خَوِيَتْ خَواءً، والخَوَى: خلُوُّ البطنِ منَ الطَّعامِ، وفي الخبرِ: كانَ إذا سجدَ خوِيَ[٣]؛ أي: تركَ خواءً بينَ أعضائِه، ويُقالُ: خَوِيَ البيتُ؛ أي: انهدَمَ، فخلا منَ الأهلِ.

والعروشُ: الأبنيةُ والسُّقوفُ منَ الخشبِ، يُقالُ: عرَشَ الرَّجلُ يعرِشُ ويعرُشُ؛ أي: بنى بناءً من خشبٍ، والمعنى: سقَطَتِ السُّقوفُ ثمَّ تساقطَتِ الجداراتُ عليها.

وقيلَ: على عُروشِها؛ أي: خاليةً عن عُروشِها لتهدُّمِها، كقولِه: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ [المطففين: ٢]؛ أي: عنِ النَّاسِ.

﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ﴾ مَن قال: «كانَ هذا المارُّ كافرًا» فهذا إنكارٌ منه للبعثِ، ومَن قال: «هو عُزَيرٌ»، أو «إِرْمِياءُ»، قال: كانَ هذا تعجُّبًا واستبعادًا من حيثُ العادةُ،

---

(١) ذكره عن المبرد: الكرماني في «لباب التفاسير» (١/ ٤٦٤)، والرازي في «التفسير الكبير» (٧/ ٢٦)، والقرطبي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٧٠).

(٣) رواه مسلم (٤٧٦) من حديث ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها.

أو أرادَ أن يزدادَ يقينًا ويُشاهدَ بالعينِ ما اعتقَدَه بالقلبِ، أو كانَ قبلَ النُّبوّةِ.

﴿أَنَّىٰ﴾؛ أي: من أينَ؟ كقولِه: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ أي: من أينَ يفعلُ اللهُ ذلك؟

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ قيلَ: كانَ معه سلَّةُ تينٍ وزُكْرةٌ[١] فيها عصيرُ عِنَبٍ، وكانَ على حمارٍ فألقَى الله عليه النَّومَ وأعمَى عنه العيونَ، وكان ذلك ضحوةَ النَّهارِ، ولـمَّا مضى سبعونَ سنةً أرسلَ الله ملَكًا إلى ملِكٍ من ملوكِ فارسَ يُقالُ له: يُوشكُ، فقالَ له: إنَّ الله يأمُرُكَ أن تنفرَ من قومِكَ فتعمُرَ بيتَ المقدسِ حتَّى يعودَ أعمرَ ما كان، ففعلَ الملكُ ذلك، وردَّ مَن بقيَ من بني إسرائيلَ إلى بيتِ المقدسِ فعمَروها وأكثَروا، فلما مضَتْ من وقتِ الإماتةِ مئةُ سنةٍ أحيَا الله منه عينَيه، ثمَّ أحيَا جسدَه وهو ينظرُ إلى عظامِه المُتغيِّرةِ وأجزاءِ حمارِه المُتفرِّقةِ وهي تأتلِفُ حتَّى قامَ الحمارُ بإذنِ الله[٢].

وقيلَ: ما نفقَ الحمارُ، بل كان قائمًا عند رأسِه طولَ هذه المُدَّةِ لـم يطعَمْ ولـم يشرَبْ مربوطًا كما ربطَه صاحبُه، فقولُه: ﴿إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾؛ أي: إلى عظامِ هذا الميِّتِ.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾؛ أي: أحياه من موتِه، يُقالُ: بَعَثْتُ النّاقةَ؛ أي: أثَرْتُها من مَناخِها.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾؛ أي: قالَ الله له: كم مكَثْتَ بهذا الموضعِ.

قُرِئَ ﴿لَبِثْتَ﴾ بإظهارِ الثّاءِ والتّاءِ لتبايُنِ المخرَجَينِ، وقُرِئَ بالإدغامِ[٣] لأنَّهما من طرفِ اللِّسانِ فتماثَلا.

---

(١) الزُّكْرَةُ: وعاءٌ من أَدَمٍ يجعلُ فِيهِ شرابٌ أَو خَلٌّ. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٥٥).

(٢) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٥٨٧ ـ ٥٩٣) عن وهب بن منبه.

(٣) قرأ ابن كثير ونافع وعاصم كل ما كان في القرآن من ذلك بإظهار الثَّاء، والباقون بإدغامها. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٨)، و«التيسير» (ص: ٤٤).

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنَّ الله أماتَه ضُحًى، وأحياه بعد مئةِ عامٍ في آخرِ النَّهارِ، فظنَّ أنَّ الشَّمسَ قد غرُبَتْ، فقال: يومًا، ثمَّ رأى بقيّةَ الشَّمسِ فقال: أو بعضَ يومٍ.

وقيلَ: وقعَ له أنَّه ماتَ أمسِ، ثمَّ جوَّزَ أن يكونَ ماتَ في ذلك اليومِ.

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ العامُ: حولٌ يأتي على شتاءٍ وصيفٍ، وأصلُه: العَوْمُ بمعنى السِّباحةِ؛ لأنَّ فيه سبحًا طويلًا وتصرُّفًا مديدًا.

ثمَّ قيلَ: سمعَ هاتفًا منَ السَّماءِ قالَ له هذا.

وقيلَ: خاطبَه جبريلُ.

وقيلَ: سمعَ كلامَ الله تعالى.

وقيلَ: قال له جبريلُ: مَن لـم يُفرِّقْ بينَ ساعةٍ وبينَ مئةِ عامٍ فما له ولِقُدرَتي؟!

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾؛ أي: التِّينِ ﴿وَشَرَابِكَ﴾؛ أي: العصيرِ، وقيلَ: كان لبنًا.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ قُرِئَ بالهاءِ في الوصلِ(١).

ثمَّ قيلَ: أصلُ الكلمةِ منَ السَّنَةِ، والسَّنَةُ من: سَنْوَة، يُقالُ: أسنَتَ القومُ، أي: أصابَتْهُم السَّنةُ، والجمعُ: سنَواتٌ، وسانَيْتُ الرَّجُلَ مُساناةً؛ أي: عامَلتُه سنةً سنةً، والتَّصغيرُ: سُنَيَّةٌ، وعلى هذا فمَن حذفَ الهاءَ قال: إنَّه منَ التَّسنِّي، وهو التَّغيُّرُ.

ووجهُ التَّعجيبِ أنَّه لـم يتغيَّرِ التِّينُ والعصيرُ.

وقيـلَ: أصـلُ سَنةٍ: سـنَنَةٌ، والتَّصغيرُ: سُـنَينةٌ، وعلى هـذا ﴿لم يتَسَـنَّ﴾؛ أي:

---

(١) قـرأ حمـزة والكسـائي بغير هاء فـي الوصل، وباقـي السـبعة بإثباتها فـي الحالين. انظر: «السـبعة» (ص: ١٨٨ ـ ١٨٩)، و«والتيسـير» (ص: ٨٢).

لم يتَسَنَّنْ، بُدِّلت النُّونُ بالياءِ، مثل تظَنَّى وتظَنَّنَ، وتسَرَّرْتُ الجاريةَ وتسرَّيْتُ.

وقيلَ: لا بل هو من قولِك: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر: ٢٦]؛ أي: مُتغيِّرٍ، فبُدِّلت النُّونُ ياءً كما ذكرنا، وقد قيلَ: المسنونُ: المصبوبُ على سُنَّةِ الطَّريقِ، فلم يتَسَنَّنْ؛ أي: لم يتصَبَّبْ، وإنْ أتى عليه مئةُ عامٍ، والسَّنُّ: الصَّبُّ.

وأمَّا مَن أثبتَ الهاءَ في الوصلِ فيقولُ: أصلُ سَنةٍ: سَنَهةٌ، والتَّصغيرُ: سُنَيهةٌ، وأكرَيتُ الدّارَ مُسانَهةً، وذكرَ المُبرِّدُ في الجمعِ: سنَهاتٌ، ويُقالُ: أسنَهْتُ بالمكانِ؛ أي: أقَمْتُ سنةً، كما يُقالُ: أسنَيْتُ، وسَنِهَ الطّعامُ؛ أي: تغيَّرَ، فالتَّسنُّهُ بمعنى التَّغيُّرِ، فمَن وقفَ على الهاءِ فقد وقفَ على لامِ الفعلِ، ومَن وصلَ كانَ بمنزلةِ: لم يَجْبَهْ زيدٌ ولم يَفْقَهْ عمرٌو.

قال الأزهريُّ: أصلُ سَنَة: سَنَهَةٌ، فنَقَصُوا الهاءَ كما نقصُوها في الشَّفةِ[1].

والوجهُ أن يُقرأَ بالهاءِ في الوقفِ والوصلِ.

وقال: لم يتغيَّرْ، ولم يقُلْ: لم يتغيَّرا؛ لأنَّه رجعَ إلى أقربِ اللَّفظَين وهو الشَّرابُ وإنْ كان التِّينُ أيضًا لم يتغيَّرْ.

وقيلَ: اكتفَى بأحدِ الشَّيئينِ عن الثّاني لأنَّه في معنى الثّاني، وقد يُقالُ: إنَّ زيدًا وعمرًا قائمٌ، ويجوزُ: قائمانِ.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ بيَّنَ له أنَّه مكثَ مدَّةً مديدةً تبلَى عظامُ حمارِه.

ومَن قال: «لم يمُتْ حمارُه» قال: «بيَّنَ له ذلك ببِلَى عظامِ نفسِه، وقد شاهدَها وهي تأتلِفُ.

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ٧٩).

وقالتِ المُعتزلةُ: يستحيلُ قيامُ الحياةِ بالعينِ مع تفرُّقِ أجزاءِ الجسمِ وبِلَى العظامِ؛ لأنَّ النّاظرَ بالعينَينِ هو الجسمُ الذي العينانِ بعضٌ من أبعاضِه، ويقولونَ: جمعَ أجزاءَه، ثمَّ أوَّلُ ما نُفِخَ فيه الرُّوحُ بعد ذلك عيناه، ويصيرونَ إلى أنَّ استبعادَ الإعادةِ مستحيلٌ منَ الأنبياءِ، وإنَّما كان هذا من كافرٍ، أو من عُزَيرٍ قبلَ النُّبوّةِ.

ثمَّ جرى ذلك في زمانِ نبيٍّ؛ لأنَّ الآياتِ لا تَظهرُ إلا للأنبياءِ، وإنَّما خاطبَ هذا الذي أُحيِيَ نبيٌّ أو ملكٌ في ذلك الزَّمانِ قال له: كم لبثتَ؟ لأنَّ الملَكَ لا ينزلُ إلا على نبيٍّ، وقد أشارَ القفّالُ إلى هذه الأشياءِ، وهي قواعدُ الاعتزالِ.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ الواوُ زائدةٌ؛ أي: لبثتَ مئةَ عامٍ لنجعلَكَ آيةً للنّاسِ، فانظُرْ إلى طعامِكَ وشرابِكَ.

ويجوزُ عند الكوفيِّين إقحامُ الواوِ.

وقال الفرَّاءُ: أي: ولنجعلَكَ آيةً للنَّاسِ فعَلْنا ذلك، ففي الواوِ نيَّةُ فعلٍ مُضمرٍ بعدَها(١)، ومثلُه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أي: وليكونَ من الموقنين نُريه ملَكوتَ السَّماواتِ.

وكانَ آيةً للنَّاسِ لأنَّه كان دلالةً على البعثِ بعد الموتِ.

وقيلَ: جعلَه آيةً بأن بعثَه شابًّا أسودَ الرَّأسِ واللِّحيةِ، وبنو بنيه شيوخٌ شِيْبٌ.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ قرأ قومٌ بضمِّ النُّونِ وبالزَّاءِ(٢)؛ أي: نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ، وأَنشَزْتُ الشَّيءَ فنشزَ؛ أي: رفَعْتُه فارتفعَ، والنَّشَزُ: ما

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٧٣).

(٢) قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر، والباقون بالراء. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٩)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

ارتفعَ مِنَ الأرضِ، ومنه نُشوزُ المرأةِ: إذا ارتفعَتْ عن حدِّ رِضا الزَّوجِ.

وقيلَ: ﴿نُنشِرُها﴾ بضمِّ النُّونِ وبالرَّاءِ؛ أي: نُحْيِيها، يُقالُ: أنشَرَ الله الميتَ فنشَرَ، ومنه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢].

وقُرِئَ: (نَنْشُرُها) بفتحِ النُّونِ وبالرَّاءِ وضمِّ الشِّينِ[١]، والنَّشْرُ: ضدُّ الطَّيِّ، وبالحياةِ يكونُ الانبساطُ، يُقالُ: نشرَ الميِّتُ ونشَرَه الله، ولكنَّ الأفصحَ: أنشَرَه الله فنشَرَ.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ﴾ على الخبرِ؛ أي: قد علمتُ ما لم أكُنْ عالمًا به من قبلُ، إن قلتُ: هذا المارُّ كان كافرًا، أو: شاهدتُ ما كنتُ معتَقِدًا له، فحصلَ اليقينُ التّامُّ.

وقُرِئَ: ﴿قال اعْلَمْ﴾ على الأمرِ[٢]، أو قال له الله، أو ملَكٌ، أو الهاتفُ: اعلَمْ، أو قال لنفسِه: يا إنسانُ اعلَمْ هذا، وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ: (قيلَ اعلَمْ)[٣].

وذُكِرَ أنَّ عُزَيرًا عادَ إلى قومِه فوجدَ أحفادَه شُيوخًا، فقال: أنا عُزَيرٌ، فلم يُصدِّقوه، فطلَبَ التَّوراةَ، فقيل: إنَّ بُخْتَ نَصَّرَ أحرقَه، فأملى عليهم التَّوراةَ من ظهرِ قلبِه، ثمَّ قال بعضُهم: إنَّ جدِّي دفنَ نسخةً منَ التَّوراةِ في كرمٍ له، فاستخرَجُوها فقابلوه[٤] بما أملى، فكان كما أملاه لم يُخالِفْه بحرفٍ، فعند ذلك قالوا: عُزَيرٌ ابنُ الله[٥].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٣)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٥٠)، عن الحسن.

(٢) قرأ بها حمزة، والباقون بالمضارع. انظر: «السبعة» (ص: ١٨٩)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٣)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٥٠)، عن الحسن.

(٤) في (أ): «فاستخرجوه فقابلوه».

(٥) انظر «تفسير الثعلبي» (٧/ ١٨٤) و(٥/ ٣٢)، و«تفسير البغوي» (١/ ٣٢١) و(٤/ ٣٧)، عن السدي والكلبي.

(٢٦٠) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قيلَ: مرَّ إبراهيمُ على جيفةِ حمارٍ بساحلِ[1] البحرِ، وكان إذا مدَّ البحرُ جاءتِ الحيتانُ ودوابُّ البحرِ فأكلَتْ منها، فما وقعَ منها تبدَّدَ في الماءِ، وإذا جزَرَ البحرُ جاءتِ السِّباعُ فأكلَتْ منها، فما وقعَ منها يصيرُ ترابًا، فإذا ذهبتِ السِّباعُ جاء الطَّيرُ فأكلَ منها، فما سقطَ قطَّعتْه الرِّيحُ في الهواءِ، فتعجَّبَ وقال: يا ربِّ، قد علمتُ لتجمَعَنَّها فأرِني كيف تُحييها لأُعاينَ ذلك[2].

وقيلَ: وسوَسَ إليه إبليسُ حتَّى قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3].

وقيلَ: لمَّا قال نُمروذُ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ ولبَّسَ، قال لإبراهيمَ: هل عايَنْتَ ربَّك يُحيي ويُميتُ؟ فعدَلَ إلى حجَّةٍ أُخرَى لأنَّه لم يُعايِنْ، ثمَّ طلبَ من الله أن يُعاينَ[4].

---

(١) في (أ): «بظاهر ساحل».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٨٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٥ ـ ٨٦) عن الحسن وعطاء والضحاك وابن جريج، ورواه الطبري بنحوه في «تفسيره» (٤/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥) عن قتادة والضحاك وابن جريج.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٢٥) عن ابن زيد.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٩٢ ـ ١٩٣) وقال: هذا معنى ما رواه محمد بن إسحاق، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٦) وعزاه لابن إسحاق، وروى نحوه عن ابن إسحاق: الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٢٦).

وقيلَ: قال نُمروذُ: أرِني هذا الذي ادَّعَيْتَ وإلّا فعلتُ وفعلتُ، فلهذا قال: أرِني كيف تُحيي الموتى ليطمئِنَّ قلبي بمُعاينةِ نُمروذَ لذلك حتَّى يعلمَ أنِّي قد صدقتُ.

وقيلَ: زارَ[1] ملَكُ الموتِ إبراهيمَ وبشَّرَه بأنَّ الله يتَّخِذُه خليلًا، وأنَّ علامةَ ذلك أن يُجيبَ دُعاءَه فيُحييَ الميتَ بسُؤالِه، فطلبَ ذلك ليطمئنَّ قلبُه بحصولِ الخلَّةِ[2].

ثمَّ؛ قال قومٌ: كان ذلك شكًّا من إبراهيمَ، ولكنْ كانَ قبلَ النُّبوَّةِ.

وقيلَ: لم يكُنْ شكًّا، ولكن طلبَ العِيَانَ فيما علمَه نظرًا، وهذا كما نحبُّ أن نرى محمَّدًا ﷺ والجنَّةَ، ونُحِبُّ أن نرى الله مع الإيمانِ بذلك ليصيرَ المعلومُ بالنَّظرِ ضرورةً، قال ابنُ عبّاسٍ: هذه أرجى آيةٍ للمُؤمنين[3]، وفي الخبرِ: «نحنُ أولى بالشَّكِّ من إبراهيمَ»[4].

﴿وَإِذۡ قَالَ﴾ أي: واذكُرْ إذ قالَ.

وقيلَ: أي: ألـم ترَ إلى الذي حاجَّ؟ ألـم ترَ إذ قال إبراهيمُ:

﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ قُرِئَ بكسرِ الرّاءِ وسكونِها.

﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾ الألفُ ألفُ إيجابٍ؛ أي: أنتَ مُؤمنٌ به، والله كان عالـمًا بأنَّه مؤمنٌ، ومثلُه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وكانَ الله عالـمًا بما في يدِه.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ مَن قال: كان هذا شكًّا قال: ليطمَئِنَّ قلبي بالعلمِ، ومَن قال: أرادَ طلبَ العيانِ قال: ليطمئنَّ قلبي بمُعاينةِ ما عرفتُه بالنَّظرِ

---

(١) في (أ): «رأى».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٢٧) عن السدي مطولًا.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٣٢)، والطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والاستدلالِ، أو ليطمئِنَّ قلبي بالخلّةِ، يُقالُ: اطمأنَّ إلى كذا يطمئِنُّ؛ أي: يسكُنُ[١].

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ قال ابنُ عبّاسٍ: أخذَ طاوُوسًا ونَسرًا وغُرابًا وديكًا[٢].

وقيلَ: «حمامةً» بدلَ النَّسرِ[٣].

وقيلَ: «إِوَزَّةً» بدلَ الطَّاوُوسِ[٤].

وقيلَ: إِوَزّةٌ خضراءُ، وغرابٌ أسودُ، وحمامةٌ بيضاءُ، وديكٌ أحمرُ[٥].

وأُمِرَ بذبحِ الجميعِ، وخلطِ لحومِ البعضِ بلُحومِ البعضِ حتَّى تكونَ أعجَبَ.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بضمِّ الصّادِ؛ أي: أَمِلْهُنَّ، من صارَه يَصُورُه؛ أي: أمالَه، والصَّوْرُ: الإمالةُ، والصَّوْرُ: المَيلُ.

ثمَّ قيلَ: فيه محذوفٌ؛ أي: خُذْ أربعةً منَ الطَّيرِ فأَمِلْهُنَّ إليك، ثمَّ قطِّعْهُنَّ واجعَلْ على كلِّ جبلٍ جُزْءًا.

وقال أبو عبيدةَ: صُرْهُنَّ، أي: قطِّعْهُنَّ[٦]. فلا حاجةَ إلى مُضمرٍ على هذا، يُقالُ: صارَ الشَّيءَ يَصُورُه؛ أي: قطَّعَه.

---

(١) في (أ): «أي سكن يسكن».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٣٤) عن ابن إسحاق ومجاهد وابن جريج وابن زيد.

(٤) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥١٠) من طريق الضحاك عن ابن عباس: وَزٌّ ورَأْلٌ وديكٌ وطاووسٌ. وفسِّر الرَّأْلُ في الخبر بـ: فَرْخ النَّعام. وروى ابن أبي حاتم أيضاً (٢/ ٥١١) من طريق حنش عن ابن عباس: الغُرْنوقُ والطَّاووسُ، والدِّيكُ، والحمامةُ. قال ابن أبي حاتم: والغُرْنوقُ: الكُرْكي.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٠٥) عن عطاء الخراساني، وفيه: بطة، بدل: إوزة.

(٦) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٨٠).

وقولُه: ﴿إِلَيْكَ﴾ من صلةِ الأخذِ؛ أي: خُذْ إليكَ أربعةً منَ الطَّيرِ فقطِّعْهُنَّ.

وقيلَ: قطِّعْهُنَّ ليَصِرْنَ إليك، أو: قطِّعْهُنَّ مُوجَّهاتٍ إليك.

وقُرِئَ: ﴿فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بكسرِ الصَّادِ[1]؛ أي: أمِلْهُنَّ، يُقالُ: فلانٌ يصيرُ إلينا[2]؛ أي: يميلُ بنفسِه، ويُميلُ غيرَه إلينا أيضًا، وهذه لغةُ سُليمٍ وهُذَيلٍ فيما ذكرَه الفرَّاءُ[3].

وقيلَ: (صِرْهُنَّ) بكسرِ الصّادِ: قطِّعهُنَّ، من صارَه يَصِيرُه؛ أي: قطَّعَه.

وقيلَ: هو مقلوبُ «صرَى يَصْرِي»؛ أي: قطعَ، وهذا مثلُ عثا يعثُو، وعثا يعثِي، وعاثَ يعِيثُ.

والجملةُ: أنَّ «صارَ يَصُورُ» و«صارَ يَصِيرُ» لغتانِ، ثمَّ هما منَ الإمالةِ أو القطعِ.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ قيلَ: أُمِرَ بذبحِها ونتفِ ريشِها وتفريقِ أجزائِها، وخلطِ البعضِ بالبعضِ، وأن يجعلَها على أربعةِ أجبُلٍ.

وقيلَ: جعلَها على سبعةِ أجبُلٍ، ولم يُرِدْ: على كلِّ جبلٍ في الدُّنيا، بل: على كلِّ جبلٍ بحسبِ الإمكانِ، ويَحتمِلُ أنَّه عيَّنَ له جبالًا.

ثمَّ إنَّ إبراهيمَ لـمَّا فعلَ ذلك أمسكَ رؤوسَ الطَّيرِ عندَه، ثمَّ دعاهُنَّ فجعلَتْ أجزاءُ الطُّيورِ تطيرُ حتَّى اجتمعَ كلُّ جثَّةٍ، ثمَّ أقبلْنَ إلى[4] رؤوسِهنَّ، فكان إبراهيمُ

(١) قرأ بها حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٠)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

(٢) في (أ): «إليك».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٧٤).

(٤) في (أ): «على».

إذا أشارَ إلى واحدٍ منها بغيرِ رأسِه تباعَدَ الطّائرُ، وإذا أشار إليه برأسِه قرُبَ حتّى لقيَ كلُّ طائرٍ رأسَه(١).

﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ نصبٌ على المصدرِ؛ أي: يَسعَينَ سعيًا.

وقيلَ: نصبٌ في موضعِ الحالِ.

وقال الخليلُ: يأتينَك وأنتَ تسعى سعيًا(٢).

وفي الكلامِ ما يدلُّ على أنّها أتَتْ إبراهيمَ سعيًا لا طيرانًا، ولو أتت طيرانًا لظُنَّ أنّه غيرُ مُقطَّعٍ.

﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾؛ أي: لا يمتنعُ عليه ما يُريدُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعلُ.

* * *

(٢٦١) ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عادَ إلى قولِه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا﴾، وقال: هذا الذي يُنفِقُ مالَه تُقبَلُ صدقتُه كمثلِ حبّةٍ أنبتَتْ سبعَ سنابلَ، فاعترضَ بين الآيتَين تقريرُ حُجَجٍ وذكرُ قصصٍ.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في الطّاعةِ والجهادِ، وفيه إضمارٌ؛ أي: مثَلُ صدقاتِ الذين يُنفِقونَ أموالَهم في سبيلِ الله كمثَلِ حبّةٍ، أو: مثَلُ الذين يُنفِقُونَ كمثَلِ زارعٍ

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٠٦) عن مجاهد والضحاك، ورواه دون قوله: «فكان إبراهيم إذا أشار...» الطبري في «تفسيره» (٤/ ٦٤٤ ـ ٦٤٦) عن قتادة والربيع وابن زيد وابن إسحاق وابن جريج والسدي.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢١٨).

حبَّةٍ، فحُذِفَ المُضافُ، ومَن علمَ أنَّه إذا بذرَ أخرجَ له كلُّ حبَّةٍ سبعَ مئةِ حبَّةٍ فلا يُقصِّرُ في السَّعيِ.

﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ يجوزُ إدغامُ التّاءِ في السِّينِ لأنَّهما مهموستانِ، ويجوزُ الإظهارُ لأنَّهما من كلمتَين[1].

ثمَّ؛ قيلَ: نزلَتْ هذه الآيةُ قبلَ آيةِ الزَّكاةِ، ثمَّ نُسِخَتْ بالزَّكاةِ.

ولا حاجةَ إلى دَعوى النَّسخِ؛ لأنَّ الإنفاقَ في سبيلِ الله مندوبٌ إليه في كلِّ وقتٍ.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يزيدُ على سبعِ مئةٍ إلى ما يشاءُ.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾؛ أي: جوادٌ لا ينقصُه ما يتفضَّلُ به ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يُنفِقُ وبما يُنفِقُ.

***

(٢٦٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾؛ أي: الذين يُنفِقُونَ أموالَهم لا يمُنُّونَ ولا يُؤذُونَ كذا وكذا.

وقيلَ: الآيةُ الأولى فيمَن يُنفِقُ على نفسِه، والثّانيةُ فيمَن يُنفِقُ على غيرِه في القتالِ أو[2] يُجهِّزُه ويلتزمُ مُؤنتَه.

قال الكلبيُّ: نزلَتْ في عثمانَ وعبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ، فقد قال عثمانُ في غزوةِ

---

(١) أدغمها أبو عمرو وحمزة والكسائي، وأظهر الباقون. انظر: «النشر» (٢/ ٥).

(٢) في (أ): «بأن».

تبوكَ: عليَّ جهازُ مَن لا جهازَ له، فجهَّزَ المسلمين بألفِ بعيرٍ بأقتابِها وأحلاسِها، وتصدَّقَ ببئرِ رُومةَ وهي رَكِيَّةٌ كانت له على المسلمين(١).

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ: رأيتُ رسولَ الله رافعًا يدَه يدعو لعثمانَ ويقولُ: «يا ربِّ، عثمانُ بنُ عفَّانَ رضيتُ عنه فارضَ عنه»، فما زالَ رافعًا يدَه حتَّى طلعَ الفجرُ(٢).

---

(١) ذكره عن الكلبيِّ الثعلبيُّ في «تفسيره» (٧/ ٢٢٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٧).
وقال الشهاب الخفاجي في «الحاشية على البيضاوي» (٢/ ٣٤١): قيل: إنه لا أصل له في كتب الحديث.
قلت: قد وردت القصة في كتب الحديث لكن دون ذكر النزول، فخبر عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة رواه الترمذي (٣٧٠٠) من حديث عبد الرحمن بن خَبَّابٍ رضي الله عنه، وقال: «حديث غريب». ورواه بنحوه (٣٧٠١) من حديث عبد الرحمن بن سمرة وقال: حديث حسن.
وخبر التصدق ببئر رومة: علقه البخاري (٢٧٧٨)، ورواه الترمذي (٣٦٩٩) من حديث عثمان رضي الله عنه. وقال: حسن صحيح.
والأقتاب: جمع قَتَب، وهو رحل صغير على قدر السَّنام. انظر: «الصحاح» (مادة: (قتب).
والأحلاس: جمع حِلْس، وهو كل شيء وَلِيَ ظهر البعير والدّابّة تحتَ الرحل والقتب والسرج. انظر: «المحكم» (٣/ ١٩٠) (مادة: حلس).

(٢) رواه ابن سمعون في «أماليه» (١/ ١٠٧) (٣٨)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٤٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٥٤). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٧)، وزادا: فأنزل اللهُ تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ.
وقد ورد دعاء النبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه في أكثر من حديث، منها ما رواه البزار في «مسنده» (٢٢٩) عن عائشة رضي الله عنها، وما رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٢٤٩) عن أبي مسعود رضي الله عنه. وقد روى الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٨٣٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ يدعو لفرد إلا لعثمان بن عفان، فإني رأيته ـ يعني: يدعو ـ حتى رأيت ضبعيه».

وأمّا عبدُ الرَّحمنِ فقد جاء إلى النَّبيِّ ﷺ بأربعةِ ألافِ درهمٍ صدقةً، وقال: كان عندي ثمانيةُ ألافِ درهمٍ، أمسكتُ منها أربعةَ آلافِ لنفسي وعيالي، وأقرَضْتُ ربِّي أربعةَ آلافٍ، فقال عليه السَّلامُ: «بارَكَ الله لك فيما أمسَكْتَ وفيما أعطَيْتَ»، ونزلتِ الآيةُ(١).

والمَنُّ يُذكَرُ بمعنى الإنعامِ، ويُذكَرُ بمعنى النَّقصِ، ومنه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]؛ أي: غيرَ منقوصٍ، ومنه: «المنونُ» للموتِ؛ لأنَّها تُنقِصُ الأعدادَ، والمِنَّةُ المذمومةُ من هذا؛ لأنَّها تُكدِّرُ النِّعمةَ وتُنقِصُها وتُنغِّصُها، وهو كمَن يُنفِقُ مالَه في الجهادِ ثمَّ يقولُ: لولا ما أنفقتُ ولولا حضوري لكانَ كذا وكذا.

﴿وَلَا أَذًى﴾ أن يقولَ: ما أشدَّ إلحاحَكَ، وخلَّصَنا الله منك، وأمثالَ هذا.

وقيلَ: لا يمُنُّونَ على الله، ولا يُؤذونَ الفقيرَ، لا باللِّسانِ، ولا بالقُطوبِ، ولا باستخدامِ الفقيرِ.

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: إنفاقُهم في سبيلِ الله.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من نُقصانِ الثَّوابِ، وقيلَ: لا خوفٌ عليهم فيما يستقبِلُون من أمرِهم في الآخرةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلَّفُوا منَ الدُّنيا.

* * *

(١) قطعة من خبر الكلبي، وقد تقدم بأنه لا أصل في كتب الحديث، لكنه ورد بغير هذا السياق، فقصة عبد الرحمن بن عوف مروية في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٩] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٥٨٩ ـ ٥٩٦).

(٢٦٣) ـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: كلامٌ حسَنٌ وردٌّ جميلٌ على السّائلِ، وهو الوعدُ الحسَنُ الذي هو معروفٌ في الشَّرعِ بالحُسْنِ.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: سترٌ لخلَّةِ السّائلِ، أو التَّجاوُزُ منَ السّائلِ إذا لحَّ.

﴿خَيْرٌ﴾ منَ التَّصدُّقِ مع المنِّ والأذَى.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾؛ أي: عن صدقةِ العبادِ، وإنَّما أمرَهم بالصَّدقةِ ليُثيبَهم، يُقالُ: غَنِيَ عن الشَّيءِ يغنَى فهو غانٍ وغنِيٌّ، والغِنَى: نقيضُ الحاجةِ.

﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلُ بالعقوبةِ مَن مَنَّ وآذى بصدقتِه.

* * *

(٢٦٤) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾؛ أي: لا تُحبِطُوا ثوابَ صدقاتِكُم بالمنِّ؛ أي: بالاعتداءِ[1] على الفقيرِ أو المنِّ على الله.

والأذَى: هو أن يُوبِّخَ السّائلَ ويستسخِرَه.

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾؛ أي: كإبطالِ الذي يُنفِقَ ﴿مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ يُقالُ: رأيتُه رياءً ومُراءاةً، مثلُ راعَيْتُه رِعاءً ومُراعاةً، فالرِّياءُ أن تُرائِيَ الخلقَ بعملِكَ.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يتصدَّقُ من غيرِ رجاءِ ثوابٍ أو خوفِ عقابٍ عند منعِ

---

(١) في (أ): «بالاعتداد».

الصَّدقةِ، ثمَّ جعلَ مثَلَ هذا المنافقِ وهو الذي يمُنُّ ويُؤذي كمثلِ صفوانٍ عليه ترابٌ لا يُنبِتُ شيئًا ولا يَقبلُ ماءً، بل الماءُ يُبطِلُ ما عليه.

﴿فَمَثَلُهُۥ﴾؛ أي: مثَلُ هذا المُنافقِ المُرائي.

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ والصَّفوانُ والصَّفواءُ والصَّفاءُ واحدٌ، وهو الحجرُ الأملَسُ.

والوابلُ: المطرُ الشَّديدُ، من وبَلَتِ السَّماءُ تبِلُ وَبْلًا، ويُقالُ: أرضٌ موبولةٌ؛ أي: أصابَها وابِلٌ، والمعنى: لا ثوابَ للمُنافقِ والكافرِ والذي يمُنُّ ويُؤذي، كما لا يحصُلُ النَّباتُ منَ التُّرابِ الذي على الصَّخرِ الأملَسِ الذي يُزيلُه الوابلُ.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: لا يجِدُونَ يومَ القيامةِ ثوابَ شيءٍ ممَّا عمِلُوا في الدُّنيا، يُقالُ: «فلانٌ ما يقدِرُ على درهمٍ»؛ أي: لا يجدُه ولا يملِكُه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا يخلقُ لهم الهدايةَ، أو: لا يهديهم غدًا لطريقِ الجنَّةِ.

شبَّهَ الكافرَ بالصَّفوانِ، وعملَه بالتُّرابِ عليه، والكفرَ بالوابلِ الذي يُزيلُ ذلك التُّرابَ.

وقولُه: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ أشارَ إلى الجنسِ، ولهذا قال: لا يقدِرُون على شيءٍ ممَّا كسَبُوا، و«الذي» مثلُ «مَنْ» يقعُ على الواحدِ والجميعِ.

وقيلَ: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يرجعُ إلى قولِه: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟﴾ وقد رجعَ منَ المُخاطبةِ إلى المُغايبةِ.

* * *

(٢٦٥) ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مثَلُ نفقةِ هؤلاءِ، فحُذِفَ المُضافُ، كقولِه: «يا خيلَ الله اركَبي»[1]؛ أي: يا أصحابَ خيلِ الله.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: يُقِرُّونَ بأنَّ الله يُثيبُ[2] عليها؛ أي: وتثبيتًا من أنفُسِهم لثوابِها، بخلافِ المُنافقِ الذي لا يحتسبُ الثَّوابَ.

وقيلَ: هو بمعنى التَّثبُّتِ؛ أي: يتثبَّتُ فيضعُ الصَّدقةَ في أهلِ الصَّلاحِ، وسُمِّيَ هذا تثبيتًا؛ لأنَّهم ثبَّتُوا أنفسَهم تثبيتًا في طلبِ المُستحِقِّ، أو في طلبِ الإخلاصِ والتَّنقِّي منَ الرِّياءِ، وهذا كما أنَّ مَن صرفَ نفسَه عن شيءٍ فهو مُنصرِفٌ.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ الرَّبوةُ: ما ارتفعَ منَ الأرضِ، وهي أنزَهُ ما يُفرَضُ منَ الجنانِ وأكثرُ المواضعِ نباتًا، ونبتُ المكانِ المُرتفعِ أحسَنُ، ويُقالُ: رَبوةٌ ورُبوةٌ ورِبوةٌ، ورَباوةٌ ورُباوةٌ ورِباوةٌ، ولـم يُسمَّ في الجمعِ إلا الرُّبَى بالضَّمِّ، ورَبا الشَّيءُ يربُو؛ أي: ارتفعَ، ويُقالُ: أصابَه رَبْوٌ؛ أي: نفَسٌ يزيدُ على العادةِ، ومنه: الرِّبا في المالِ؛ لأنَّه ارتفاعٌ في طلبِ الزِّيادةِ.

---

(١) رواه الكلاباذي في «بحر الفوائد» (١/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠١٠٦)، وهناد في «الزهد» (٢٥)، من حديث أنس بن مالك.

ورواه ابن المبارك في «الجهاد» (١٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٦) من حديث أسير بن جابر.

(٢) في النسختين: «يثبت»، والمثبت من «معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٤٧)، و«البسيط» (٤/ ٤١٥).

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾؛ أي: مطرٌ جودٌ ﴿فَـَٔاتَتْ﴾؛ أي: أعطَتْ ﴿أُكُلَهَا﴾ الأُكُلُ: ما يُؤكَلُ، وقولُه: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ [إبراهيم: ٢٥]؛ أي: ثمرتَها، و«إنَّه لذو أُكْلٍ»؛ أي: حظٍّ منَ الدُّنيا، ويُقالُ: «أُكُلٌ» بالضَّمِّ، و«أُكْلٌ» بالتَّخفيفِ، وجمعُها: آكالٌ.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: حملَتْ منَ الرَّيعِ ما يحمِلُ غيرُها في سنتَين.

وقيلَ: حملَتْ في السَّنةِ مرَّتَينِ.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾؛ أي: ندًى يُصيبُه الطَّلُّ، وهو المطرُ اللَّيِّنُ، يُقالُ: طلَّتِ السَّماءُ تَطُلُّ طلًّا فهي طلَّةٌ، وطلَّتِ الأرضُ فهي مطلولةٌ، وروضةٌ طلَّةٌ؛ أي: نديَّةٌ.

وفي الآيةِ إضمارٌ؛ أي: فإنْ يكُنْ لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ؛ لأنَّه ذكرَ هذا فيما مضى، ومثلُه: «قد أعتقْتُ عبدَين، فإنْ لم أعتِقْ اثنَين فواحدٌ بقيمتِهما»؛ أي: «إنْ أكُنْ لم أُعتِقْ..».

والمعنى: إنْ لم يُصِبْها وابلٌ وأصابَها طَلٌّ فتلكَ حالُها في تضعيفِ الثَّمرةِ، وإنْ قلَّتْ هذه الثَّمرةُ فلا يَخيبُ صاحبُ هذه الجنَّةِ إذا أصابَها طَلٌّ، فكذلك المُؤمنُ لا يُحرَمُ ثوابَ صدقتِه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: لا يخفَى عليه الرِّياءُ والإخلاصُ.

* * *

(٢٦٦) - ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

قولُه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ قيلَ: يرجعُ هذا إلى المثَلِ المضروبِ بصفوانٍ عليه ترابٌ.

وقيلَ: هو مثَلٌ لـمَن يشتغلُ بملاذِّ الدُّنيا ويترُكُ طاعةَ الله، فلا يَحْصُلُ في الآخرةِ إلا على الحسرةِ.

وقيلَ: هو مثَلٌ للَّذي يَختمُ عملَه بالفسادِ؛ أي: هل يوَدُّ أحدُكم أن تكونَ له جنَّةٌ فيها نخيلٌ وأعنابٌ، فقولُه: ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ كقولِك: دارٌ من آجُرٍّ وبستانٌ من عِنَبٍ، أي: العِنَبُ فيه كثيرٌ.

﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: سوى النَّخيلِ والأعنابِ.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ عطفٌ بماضٍ على مُستقبلٍ.

قال الفرّاءُ: هو جائزٌ في ﴿يودُّ﴾ لأنَّه يقعُ معها «لو» تارةً و«أنْ» تارةً، فالمعنى: أيودُّ أحدُكم لو كانَتْ له جنَّةٌ وأصابَه الكِبَرُ؛ لأنَّ «لو» و«أنْ» مُضارِعان في المعنى، فيُجابُ أحدُهما بجوابِ الآخرِ، قال الله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٢١] إلى قولِه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ أي: وإنْ أعجبَتْكُم، وقال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ﴾ [الروم: ٥١] فأُجيبَتْ «لَئِنْ» بجوابِ «لو»، وقال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]؛ أي: أن تُدهِنَ[1].

وأشارَ بقولِه: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ إلى عجزِه عن التَّكسُّبِ.

﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾؛ أي: مَعاشُهم من تلك الجنَّةِ، والضَّعفُ قد يكونُ بالزَّمانةِ، وقد يكونُ بالصِّغرِ.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾: هو ريحٌ ترتفعُ وتستَديرُ نحو السَّماءِ كأنَّها عمودٌ، وهي التي تُسمَّى: الزَّوبعةَ؛ أي: كما يتحيَّرُ صاحبُ هذه الواقعةِ يتحيَّرُ المُنافقُ في القيامةِ.

(١) انظر «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٧٥)، و«البسيط» (٤/ ٤٢٠).

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كمثلِ بيانِ هذه الأقاصيصِ وهذه الأمثالِ يُبيِّنُ اللهُ لكم دلالاتِ توحيدِه.

* * *

(٢٦٧) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟﴾ لـمَّا بيَّنَ ثوابَ الإنفاقِ في سبيلِ الله بيَّنَ من أينَ ينبَغي أن يُنفِقَ، قال جابرٌ: لـمَّا أمرَ النَّبيُّ ﷺ بصدقةِ الفطرِ جاء رجلٌ بتمرٍ رديءٍ، فنزلَتْ هذه الآيةُ(١).

وقيلَ: كانتِ الأنصارُ عند الـجُدادِ يأتونَ بأقناءِ الرُّطبِ والتَّمرِ ليأكلَه فقراءُ المُهاجرين، وربَّما كان يحملُ الرَّجلُ قِنوًا من حشَفٍ ويظنُّ أنَّه لا يظهرُ ولا يُعرَفُ صاحبُه، فنزلَ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾(٢)، وهذا في الزَّكاةِ المفروضةِ وفي صدقةِ النَّفلِ.

وقيلَ: ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: منَ الحلالِ.

وقولُه: ﴿كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: حصَّلتُم بالتِّجارةِ والحِرَفِ.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: من خيرِ ما أخرَجْنا لكم، يعني: في العُشرِ.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾؛ أي: ولا تتيمَّمُوا، فحُذِفَ إحدى التّاءَين، والتيمُّمُ: القصدُ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣١٢٢) وصحَّحه. وانظر: «الدر المنثور» (٢/ ٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٧)، وابن ماجه (١٨٢٢)، والطبري (٤/ ٦٩٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٨).

والقراءةُ بتخفيف التّاءِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ولا تَّيمَّموا﴾ مُشدَّدةَ التّاءِ على الإدغامِ في أحدٍ وثلاثينَ حرفًا في القرآنِ، نحو: ﴿ولا تَّفرَّقوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿إنَّ الذين تَّوَفَّاهُم﴾ [النساء: ٩٧](1).

وفي هذه القراءةِ عُسرٌ؛ لأنَّ المُدغمَ يُسكَّنُ، فلا بدَّ من جلبِ همزةِ الوصلِ عند الابتداءِ كما جُلِبَتْ في أمثلةِ الماضي: ﴿ادّارءتم﴾ [البقرة: ٧٢] و﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤]، وهمزةُ الوصلِ لا تدخلُ على المُضارعِ، تقولُ في تترَّسَ: «اتَّرَّسَ» ولا تقولُ في المضارعِ: «اتَّرَّسون» بمعنَى «تتَرَّسونَ»(2).

وأيضًا: إذا قلتَ على الابتداءِ: «تَيمَّمَ فلانٌ» لا يُتصوَّرُ تشديدُ التَّاءِ.

والمُرادُ بالخبيثِ: الرَّديءُ، وقيلَ: الحرامُ.

﴿مِنْهُ﴾؛ أي: منَ المالِ المُكتَسبِ.

وقيلَ: منَ الخبيثِ؛ أي: منَ الخبيثِ تُنفِقُونَ، فيكونُ كلامًا مُبتدأً.

وعلى الأوَّلِ فيه إضمارُ «الذي»؛ أي: لا تيمَّمُوا الخبيثَ منه الذي تُنفِقُونَه ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ إلّا بالإغماضِ، وهو كقولِه: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ أي: الوُثقَى التي لا انفِصامَ لها.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾؛ أي: لستُم تأخُذونَه، فأقامَ الوصفَ مُقامَ الفعلِ كقولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]؛ أي: أم صمَتُّم.

﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾؛ أي: إلّا لإغماضِكُم فيه.

---

(١) هي رواية البزي عن ابن كثير، وقد عدد الداني المواضع المذكورة جميعاً في «التيسير» (ص: ٨٣).

(٢) في (أ): «تترسون بمعنى اترسون».

والإغماضُ: إطباقُ جفنٍ على جفنٍ، وأصلُه: الغُموضُ، وهو الخفاءُ، من غمَضَ الشَّيءُ يغمُضُ، والغَمْضُ: المُطمَئِنُّ منَ الأرضِ، والمعنى: إلَّا أن تتساهَلُوا فيه، فإنَّ مَن رأى ما يكرَهُ أغمضَ لأنْ لا يرى ذلك؛ أي: أنَّكم لا تأخُذونَ هذا الخبيثَ إلّا بمُساهلةٍ، فكيفَ تُعطونَه في الصَّدقةِ؟!

ثمَّ؛ قيلَ: إلا أن تُغمِضُوا بأنفُسِكُم فتتساهلوا في الأخذِ.

وقيلَ: إلّا أن تُغمِضُوا أعينَ المُعاملين فتُدلِّسُوا عليهم، أو تأمُروهم بالإغماضِ والمُساهلةِ، يُقالُ: أغمَضْتُ وغمَضْتُ وغمَّضْتُ عينَ الميِّتِ، وعلى هذا فالمفعولُ محذوفٌ.

والحرامُ لا يجوزُ أخذُه بالإغماضِ، فالخبيثُ إذن هو الرَّديءُ، إلّا أن تقولَ: يجوزُ أن يُرادَ به الحرامُ، والمعنى: لا تأخُذونَه إلّا بأن تُرخِّصُوا لأنفُسِكم، ولا تُبالوا من أيِّ وجهٍ أخذتُم، وقد ذكَرْنا أنَّهم كانوا يأتونَ بأقناءِ التَّمرِ إلى المسجدِ لفقراءِ المُهاجرينَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الآيَةَ في صدقةِ التَّطوُّعِ؛ لأنَّ الصَّدقةَ المفروضةَ تُخرجُ بعد التَّخفيفِ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾؛ أي: عن صدقاتِكم ﴿حَمِيدٌ﴾؛ أي: مُستحِقُّ الحمدِ.

* * *

(٢٦٨) - ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ أي: يُزيِّنُ لكم إخراجَ الخبيثِ ومَنْعَ الصَّدقةِ، ويقولُ: إنْ تصدَّقْتَ افتقَرْتَ، والفَقرُ والفُقرُ لُغتانِ، وهو الضَّعفُ لقلَّةِ المِلكِ، وأصلُه: كسرُ الفَقارِ، ومنه: رجلٌ فقيرٌ وفقِرٌ؛ أي: مكسورُ الفَقارِ.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ هي كلُّ أمرٍ مُفرِطٍ في القُبحِ، والشَّيطانُ يدعو إلى جميعِ المعاصي.

وقال مُقاتلٌ: [١] كلُّ ما في القرآنِ من لفظِ الفحشاءِ فهو الزِّنا إلا في هذه الآيَةَ؛ فإنَّها البُخلُ ومنعُ الزَّكاةِ[٢].

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾؛ أي: يأمرُ بالإنفاقِ ويعِدُكم عليه المغفرةَ للذُّنوبِ.

﴿وَفَضْلًا﴾؛ أي: الإخلافُ عند الإتلافِ للمالِ في الصَّدقاتِ.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾؛ أي: غنيٌّ يُعطي عن سعةٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يَتصدَّقُ، وبما يَتصدَّقُ به.

***

(٢٦٩) ـ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

قولُه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: الصَّوابَ في القولِ والفعلِ.

وقيلَ: الحكمةُ هاهنا: علمُ القرآنِ والفقهُ في الدِّينِ.

وقيلَ: النُّبوَّةُ.

وقيلَ: العِصمةُ التي يَمتنِعُ بها العبدُ عن المعاصي.

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ (مَن) رفعٌ؛ لأنَّه مفعولُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه، و﴿الْحِكْمَةَ﴾ نصبٌ؛ لأنَّها خبرُ ما لم يُسمَّ فاعلُه.

---

(١) في (أ) زيادة: «هو».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٤) عن مقاتل والكلبي.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: ما يتَّعِظُ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: ذَوو العقولِ.

واللُّبُّ: العقلُ؛ لأنَّه أنفَسُ ما في الإنسانِ؛ كلُبِّ الجوزِ ولُبِّ كلِّ شيءٍ.

* * *

(٢٧٠) ـ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم﴾ النَّذرُ: إيجابُ المرءِ الشَّيءَ على نفسِه لله تعالى، يُقالُ: نذَرَ ينذُرُ وينذِرُ، وأصلُه: الخوفُ؛ لأنَّ المرءَ إنَّما ينذرُ عند خوفٍ، فيقولُ: «إنْ شَفَى اللهُ مريضي فعلتُ كذا» فيَنذرُ في مُقابلةِ نعمةٍ يخافُ فوتَها، أو في دفعِ بليّةٍ يخافُ كونَها.

ولو قال: «للهِ عليَّ أن أُعتِقَ» ولم يَرْبِطْه بشيءٍ؛ ففي لُزومِه خلافٌ للعلماءِ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾؛ أي: يُجازي عليه، ومَن علِمَ أنَّ مولاه يعلَمُ عملَه كان أخلصَ في العملِ، ولم يقُلْ: «يعلَمْهما»؛ لأنَّ الكنايةَ ترجعُ إلى الأخيرِ، كقولِه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢].

وقيلَ: الكنايةُ تعودُ إلى (ما) في قولِه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ كما قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ أي: مَن ظلمَ نفسَه فأطاعَ الشَّيطانَ فلا ناصرَ له غدًا يصرِفُ عنه العذابَ.

والظُّلمُ: أن يضعَ المعصيةَ موضعَ الطّاعةِ.

وقيلَ: أن يُنقِصَ حظَّ نفسِه منَ الثَّوابِ.

والأنصارُ: جمعُ النَّصيرِ، مثل: شريفٍ وأشرافٍ، وحبيبٍ وأحبابٍ.

(٢٧١) - ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ قال الكلبيُّ: لـمَّا نزلَ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قيلَ: يا رسولَ الله، صدقةُ السِّرِّ أفضلُ أم صدقةُ العلانيةِ؟ فنزلتِ الآيةُ[١].

﴿تُبْدُوا﴾؛ أي: تُظهِروا، من: أبديتُ الشَّيءَ، والصَّدقةُ تُطلَقُ على الفرضِ والنَّفلِ، وأصلُ الكلمةِ: الكمالُ والصِّحةُ، ومنه: رجلٌ صِدْقُ النَّظرِ، وصدَقُوهم القتالَ، وفلانٌ صادقُ المودَّةِ، ومنه: الصَّداقُ؛ لأنَّ عقدَ النِّكاحِ به يكمُلُ، فالصَّدقةُ سببُ كمالِ المالِ ونمائِه.

﴿فنِعِمَّا هِيَ﴾ بفتحِ النُّونِ وكسرِ العينِ من نَعِمَ يَنْعَمُ مِثْلَ: «يَئِسَ يَيْأَسُ» من باب «حَمِدَ يَحْمَدُ»، وقرئ بفتحِ النونِ وجزمِ العينِ[٢] والتَّشديدِ على الميمِ، وهي قراءةُ نافعٍ وأبي عمرٍو وجماعةٍ[٣]، **وفيها عُسرٌ**؛ لِـمَا فيها منَ الجمعِ بين ساكنَين، الأوَّلُ منهما ليس حرفَ مدٍّ ولِينٍ، كدابَّةٍ وشابَّةٍ، ولعلَّ أبا عمرٍو أخفَى حركةَ العينِ[٤]

---

(١) ذكره عن الكلبيِّ: الواحديُّ في «أسباب النزول» (ص: ٨٩)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٢٤٣)، وأورده الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٦) بلا نسبة.

(٢) «من نعم ينعم مثل يئس ييأس من باب حمد يحمد وقرئ بفتح النون وجزم العين» من (أ).

(٣) قرأ نافع في غير رواية ورش، وأبو عَمْرٍو، وعاصم في رواية أبي بكر والمفضَّلِ: بكسر النُّون وإسكان العين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائيّ: بفتح النُّون وكسر العين، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ونافع في رواية ورش: بكسر النُّون والعين وستأتي. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

(٤) وهكذا ذكر الداني عن قالون وأبي بكر وأبي عَمْرو: كسرَ النُّون وإخفاءَ حركة العين، ثم قال: ويجوز إسكانها، وبذلك ورد النصُّ عنهم، والأول أقيسُ. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

كأخذِه بالإخفاءِ في نحوِ[(١)]: ﴿بَارِئِكُمْ﴾[(٢)]، فظنَّ السّامعُ الإخفاءَ إسكانًا.

وقُرِئَ: (فنِعْما) بكسرِ النُّونِ وجزمِ العينِ وتخفيفِ الميمِ[(٣)]، **وفيه بُعدٌ أيضًا**؛ لأنَّه كلمتانِ «نِعْمَ» و«ما»، فلا يجوزُ حذفُ أحدِ الميمَين.

وقُرِئَ بكسرِ النُّونِ والعينِ وتشديدِ الميمِ[(٤)].

والمعنى: إن تُبدوا الصَّدقاتِ فيكم فنِعمَ شيئًا إبداؤُها، وليس يُريدُ: «فنِعمَ شيئًا الصَّدقاتُ»، وإنْ قال: ﴿هِىَ﴾ ويرجعُ ﴿هِىَ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الإبداءُ والإخفاءُ وبيانُ حكمِهما، فإذَنْ أُقيمَ المُضافُ إليه وهو ﴿ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ مُقامَ المُضافِ وهو الإبداءُ، وحُذِفَ الإبداءُ.

وقولُه: ﴿هِىَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ، تقولُ: «نعمَ رجُلًا زيدٌ».

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ الإخفاءُ: نقيضُ الإظهارِ، والخَفِيَّةُ: الموضعُ الذي يختَفي فيه الأسدُ، يُقالُ: أسودٌ خفِيَّةٌ، والخوافي منَ الرِّيشِ ما دونَ القوادمِ؛ لأنَّه تَخْفَى بها.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾؛ أي: الإخفاءُ خيرٌ لكم؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على المصدرِ، والإخفاءُ خيرٌ لبُعدِه عن الرِّياءِ.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ التَّكفيرُ: التَّغطيةُ، ومنه: رجلٌ مُكفَّرٌ في السِّلاحِ؛ أي: مُغطًّى، ومنه كفَّارةُ اليمينِ.

---

(١) «نحو»: ليس في (أ).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ٧٣)، وفيه: أن أبا عَمْرو قرأ ﴿بارئكم﴾ في الحرفين باختلاس الحركة في ذلك كله من طريق البغداديين وهو اختيار سيبويه ومن طريق الرقيين وغيرهم بالإسكان.

(٣) لم أجدها.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وعاصم في رواية حفص ونافع في رواية ورش. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

قُرِئَ: ﴿ونُكفِّرُ﴾ بضمِّ الرّاءِ؛ أي: ونحنُ نُكفِّرُ.

وقُرِئَ بالجزمِ حملًا على موضعِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ فإنَّ موضعَه جزمٌ؛ أي: وإن تُخفوها يكُنْ أعظمَ للأجرِ، ومثلُه: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٦] قُرِئَ بالجزمِ[١].

ثمَّ قُرِئَ ﴿ونُكفِّر﴾ بالنُّونِ، وقُرِئَ بالياءِ[٢].

وقرأ ابنُ عبّاسٍ بالتّاءِ[٣]؛ أي: الصَّدقاتُ تُكفِّرُ.

﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾ للتَّبعيضِ؛ أي: سيِّئاتٍ من سيِّئاتِكُم، ليكونَ العبدُ على وَجَلٍ ولا يتَّكِلَ.

وقيلَ: ﴿مِّن﴾ بمعنى: من أجلِ؛ أي: نُكفِّرُ عنكم من أجلِ ذُنوبِكم، تقولُ: «ضربتُك من سوءِ خلُقِك»؛ أي: من أجلِ سوءِ خُلقِكَ.

وقيلَ: ﴿مِّن﴾ للتَّوكيدِ؛ أي: يُكفِّر سيِّئاتِكم، كقولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥].

* * *

---

(١) قرأ حمزة والكسائيّ بالياءِ وجزم الرَّاء، وعاصم وأبو عَمْرو بالياءِ ورفع الرَّاء، والباقون بالنُّون ورفع الرَّاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٩٩)، و«التيسير» (ص: ١١٥).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو بكر وأبو عَمْرو بالنُّون ورفع الرَّاء، وحفص وابن عامر بالياء والرَّفع، والباقون بالنُّون والجزم. انظر: «السبعة» (ص: ١٩١)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

(٣) هي عن ابن عباس بالتاء والجزم مع كسر الفاء كما في «إعراب القرآن» للنحاس (١/ ١٣٢). وقرئ بالتاء والرفع مع كسر الفاء حكاه المهدوي عن ابن هرمز كما في «المحرر الوجيز» (١/ ٣٦٦). وذكر النحاس عن عكرمة: (وتكفَّرْ) بالتاء وفتح الفاء والجزم.

(٢٧٢) - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ قيلَ: هذا كلامٌ مُعترِضٌ، وهو متَّصلٌ بقولِه: ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ... لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾؛ أي: مَن كان له لُبٌّ اتَّعظَ، وليس عليكم أيُّها المؤمنونَ أن تهدُوهم.

وقيلَ: ليس مُعترِضًا، بل ذَكَر الصَّدقاتِ، ودلَّ سببُ النُّزولِ على أنَّ صرفَ الصَّدقةِ النَّفلِ إلى الكافرِ يجوزُ في صلةِ رحمٍ واستبقاءِ[1] أسيرٍ فقالَ: يجوزُ هذا الرِّفقُ مع الكافرِ، وليس عليك هدايتُهم.

قيل: إنَّ ناسًا من المُسلمين كانت لهم قرابةٌ وصهرٌ ورضاعٌ في اليهودِ، وكانوا ينفَعونَهم قبلَ الإسلامِ، فلمَّا أسلَمُوا كرِهُوا أن ينفَعُوهم، وحمَلوهم على الإسلامِ إن طمِعُوا في نفعِهم، فنزلتِ الآيةُ[2].

وقيلَ: قال عليه السَّلامُ: «لا تتصدَّقُوا إلّا على أهلِ دينِكم»، فنزلتِ الآيةُ فقال عليه السَّلامُ: «تصدَّقُوا على أهلِ الأديانِ»[3].

---

(١) في (أ): «واستبقاء واستنفاذ».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٣٤)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٩٠)، كلاهما عن الكلبي. وروى النسائي في «الكبرى» (١٠٩٨٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣١٢٨) وصححه، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يَرضخوا لأنسابِهم وهم مشركون فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ حتَّى بَلَغَ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ قَالَ: فرَخَّص لهم.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠٣٩٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٨٩) عن سعيد بن جبير مرسلًا.

ويدلُّ على هذا قولُه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وقولُه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

قيلَ: نزلَتْ في أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ وأمِّها قُتَيلةَ، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لـمَّا اعتمرَ عمرةَ القضاءِ كانت أسماءُ في تلك العمرةِ، فجاءَتْ قُتَيلةُ إليها، وهي أمُّ أسماءَ، وكذلك جاءَتْ جدَّتُها وهما مُشركتانِ وسألتاها شيئًا فقالَتْ: لا أُعطيكما حتَّى أستأمرَ رسولَ الله ﷺ؛ فإنَّكما لستُما على ديني، فنزلَتِ الآيةُ، ورخَّصَ رسولُ الله ﷺ في الصَّدقةِ عليهما[1]، وهذا في صدقةِ النَّفلِ.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: من مالٍ، كقولِه: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]؛ أي: مالًا.

وقيلَ: أي: وما تُنفِقُوا من شيءٍ، تُريدونَ به الخيرَ، يعني: التَّصدُّقَ.

﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: غرضُكم منَ الصَّدقةِ الثَّوابُ، وهو حاصلٌ لكم إذا ابتغَيتُم بالتَّصدُّقِ وجهَ الله، فلا تنظُروا إلى إسلامِ المُتصدَّقِ عليه وكفرِه.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: هو خطابٌ لقومٍ مخصوصينَ علِمَ الله منهم ذلك.

---

(١) ذكره في نزول هذه الآية من سورة البقرة: الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٠)، عن الكلبي.
وروى البخاري (٥٩٧٨) واللفظ له، ومسلم (١٠٠٣) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: آصلها؟ قال: «نعم»، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨].

وقيلَ: خطابٌ للمسلمين؛ أي: لستُمْ تقصِدُونَ بصدقاتِكم إلّا وجهَ الله تعالى، فهذا كافٍ لكم في تحصيلِ الثَّوابِ، والغالبُ منَ المسلمِ هذا القصدُ لا سيَّما في ابتداءِ الإسلامِ في ذلك الوقتِ.

وقيلَ: الواوُ زائدةٌ، والمعنى: ما تُنفِقُوا من خيرٍ لا تُنفِقُونَه إلا ابتغاءَ وجهِ الله فهو لأنفُسِكم، وعلى هذا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ.

وقيلَ: معناه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾؛ أي: لا تكونون مُنفِقين مُستحقِّين لهذا الاسمِ إلّا إذا ابتغَيتُم به وجهَ الله.

وقيلَ: هو نهيٌ عن الإنفاقِ في غيرِ وجهِ الله، وقد يرِدُ النَّهيُ بلفظِ الخبرِ، تقولُ: «لا يفعَلُ فلانٌ كذا»؛ أي: لا يفعلَنَّه.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ الوجهُ بمعنى الوجودِ والنَّفسِ، وقولُك: «فعلتُ هذا لوجهِ زيدٍ» أنبَهُ في الذِّكرِ من قولِكَ: «فعلتُه لزيدٍ»؛ لأنَّ وجهَ الشَّيءِ أشرَفُ ما عليه، وكثُرَ استعمالُ هذا حتَّى يُقالُ: وجهُ الدَّليلِ كذا، ووجهُ الرّائي كذا؛ أي: أشرفُ ما فيه كذا.

وقيلَ: الوجهُ بمعنى الجهةِ؛ أي: إلَّا ابتغاءَ الجهةِ التي تعبَّدَكُم بها.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ أي: يُوفَّر لكم جزاؤُه، وقال: ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّه بمعنى التَّأديةِ؛ أي: يُؤدَّى إليكم في الآخرةِ ثوابُه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا تُنقَصون من ثوابِ أعمالِكم شيئًا.

***

(٢٧٣) ـ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

قولُه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ؛ أي: هذه الصَّدقاتُ للفقراءِ، واستغنى عن ذكرِه بقولِه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وهو كما يُوصَفُ لك رجلٌ فتقولُ: «عاقلٌ لبيب»؛ أي: هو عاقلٌ لبيبٌ، وتكتُبُ على الكيسِ «ألفٌ»؛ أي: فيه ألفٌ.

وقيلَ: اللَّامُ لبيانِ المذكورينَ في قولِه: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، كأنَّه قيلَ: لأيِّ الفقراءِ؟ فقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ ﴾.

ثمَّ قيلَ: أي: إن تُبدوا للنّاسِ الصَّدقاتِ للفُقراءِ، فقولُه هاهُنا: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾[1] يرتفعُ به بيانُ الأحقِّ من جنسِ الفقراءِ.

وقيلَ: معناه: للفقراءِ الذين أُحصِروا حقٌّ في أموالِكم، فحُذِفَ الخبرُ.

وقيلَ: أي: وما تُنفِقُوا من خيرٍ للفقراءِ الذين أُحصِروا يُوفَّ إليكم.

وفيه بُعدٌ؛ لأنَّه لا يُفصلُ بين العاملِ وهو ﴿تُنفِقُواْ﴾ وبين المعمولِ فيه بما ليس منه، كما لا يُقالُ: «كانت زيدًا الحمَّى تأخذُ».

والفقراءُ الذين أُحصِرُوا في سبيلِ الله: فقراءُ المُهاجرين، وكانوا قريبًا من أربعِ مئةِ رجلٍ لم تكُنْ لهم مساكنُ بالمدينةِ ولا عشائرُ، وهم أهلُ الصُّفَّةِ.

والإحصارُ: أن يعرِضَ للرَّجلِ ما يحولُ بينَه وبينَ سفرِه من مرضٍ أو خوفٍ

---

(١) بعدها في (أ): «تكرير».

عدوٍّ أو فقرٍ؛ أي: حصرَهُم طاعةُ الرَّسولِ والاشتغالُ بأحكامِ الإسلامِ عن الخروجِ عن المدينةِ للتِّجارةِ، فلا يتفرَّغونَ من الجهادِ والغزوِ ومُلازمةِ الرَّسولِ إلى طلبِ المعاشِ، أو ليس يُمكِنُهم الخروجُ عن المدينةِ لكثرةِ أعدائِهم منَ الكفَّارِ.

وقيلَ: نزلَتْ في قومٍ أصابَتْهم جراحاتٌ مع رسولِ الله وصاروا زَمْنى وامتنعَ عليهم التَّصرُّفُ، أو حصَرَهم الفقرُ وأقعدَهم عن الجهادِ، فعذَرَهم الله وقال:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ويُقالُ: «ضرَبَ في الأرضِ»؛ أي[1]: سارَ فيها.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾؛ أي: الجاهلُ بحالِهم، وليس هذا الجهلَ المذمومَ. والتَّعفُّفُ: تفَعُّلٌ منَ العِفَّةِ، وهي الكفُّ عن الشَّيءِ؛ أي: مَن رآهم ظنَّهم أغنياءَ؛ لأنَّهم انكفَؤُوا عن السُّؤالِ.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلاماتِهم، وهو كما تقولُ: «إذا نظرتَ إلى فلانٍ رأيتَ وجهًا حسَنًا»؛ أي: مَن نظرَ إليه رأى ذلك، فكذلك قولُه: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: مَن نظرَ إليهم وتأمَّلَهم رأى علاماتِ الفقراءِ والإسلامِ[2] فيهم.

والسِّيما والسِّيماءُ والسِّيمِياءُ: العلامةُ، منَ السِّمةِ، قُلِبَتِ الواوُ إلى موضعِ العينِ، كقولك: «له جاهٌ في النَّاسِ»؛ أي: وجهٌ، و«أرضٌ خامةٌ»؛ أي: وخيمةٌ، واضْمَحَلَّ الشَّيءُ وامْضَحَلَّ.

وقيلَ: السِّيماءُ منَ السُّموِّ؛ لأنَّها علامةٌ رُفِعَتْ للظُّهورِ.

ثمَّ قيلَ: أرادَ بالسِّيماءِ التَّواضُعَ والتَّخشُّعَ.

---

(١) في (أ): «إذا».

(٢) في (أ): «الفقر أو الإسلام»

وقيلَ: آثارَ الفقرِ والضَّعفِ، فالذي لـم يتأمَّلْهم جيِّدًا يظُنُّ أنَّهم أغنياءُ، والذي أنعمَ النَّظرَ فيهم عرفَ حالَـهم.

وقيـلَ: ﴿تَعۡـرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾؛ أي: تعرِفُهـم أنـتَ يـا محمَّدُ بالتَّوسُّـمِ وفراسـةِ القلبِ.

﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾؛ أي: إلحافًا[١] فـي المسألةِ، وفـي الخبرِ: «مَن سألَ وله أربعونَ درهمًا فقد ألْحَفَ»[٢]، وهو مأخوذٌ منَ اللِّحافِ الذي يَشتمِلُ الإنسانَ، فالإلحافُ في المسألةِ: أن يَشتمِلَ على وجوهِ الطَّلبِ في السُّؤالِ.

وقيلَ: هو من ألحفَ الرَّجلُ؛ أي: مشى في لِحْفِ الجبلِ، فالمُلحِفُ الذي استعملَ الخشونةَ في الطَّلبِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: إذا كان عندَه غَداءٌ لـم يسألْ عَشاءً، وإن كانَ عندَه عَشاءٌ لـم يسألْ غَداءً[٣].

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى جوازِ السُّؤالِ من غيرِ إلحافٍ.

وقيلَ: أرادَ: ليس منهم سؤالٌ فيكونَ إلحافًا، فهذا نفيُ السُّؤالِ عنهم أصلًا.

---

(١) في (أ): «إلحاحاً».

(٢) رواه النسائي (٢٥٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بلفظ: «.. فهو الملحف».

ورواه أبو داود (١٦٢٨)، والنسائي (٢٥٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ»، وجاء في رواية أبي داود: زاد هشام (ابن عمار أحد رجاله) في حديثه: وكانت الأوقية على عهدِ رسول الله ﷺ أربعين درهماً.

ورواه أبو داود (١٦٢٧) من حديث رجل من بني أسد.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٥٤) من روية عطاء عن ابن عباس.

وقيلَ: أي: لا يسألونَ النَّاسَ إلحافًا ولا غيرَ إلحافٍ، فاكتَفَى بذكرِ أحدِهما كقولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: الحرَّ والبردَ، فاكتَفَى بذكرِ أحدِهما.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: مالٍ.

وقيل: أي: وما تعمَلُوا من طاعةٍ، فهو إذن إنفاقٌ منَ العملِ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يُجازي عليه، وكرَّرَ هذا المعنى للتَّأكيدِ.

وقيلَ: أي: وما تُنفِقُوا من مالٍ في غيرِ هؤلاءِ المُهاجرين يُوَفَّ إليكم ثوابُكم به[1] أيضًا، فقولُه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ في الابتداءِ في نوعٍ، وهذا في نوعٍ آخرَ، فليس بتكريرٍ.

***

(٢٧٤) - ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلَتْ في علَفِ الخيلِ إذا ارتُبِطتْ للجهاد[2].

ولمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «هم أصحاب الخيل»[3].

---

(١) «به» من (أ).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٤ - ٣٦) عن ابن عباس وأبي ذر وأبي الدرداء وأبي أمامة وعبد الله ابن بشر الغافقي.

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٣٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٦٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٢)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١٨٨)، من حديث عريب المليكي رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧): فيه مجاهيل.

وقيلَ: نزلَتْ فـي عليٍّ رضي الله عنه، كان عندَه أربعةُ دراهمَ لا غيرُ، فتصدَّقَ بدرهمٍ سرًّا، ودرهمٍ علانيةً، ودرهمٍ ليلًا، ودرهمٍ نهارًا[1].

وقيلَ: هذا تأكيدُ ما تقدَّمَ منَ الحثِّ على الصَّدقةِ.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ لا يُقالُ: «زيدٌ فمُنطلقٌ»، وجاز ذلك في «الذي»؛ لأنَّ فيها معنى الشَّرطِ؛ أي: مَن يُنفِقْ منكم فله أجرُه، ونظيرُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، وقولُه: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤]، وتقولُ: «الذي يُكرِمُني فله درهمٌ».

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لهم مع الأجرِ أنْ لا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ ولا حزنٌ.

* * *

(٢٧٥) ـ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قولُه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ لـمَّا ذكرَ الصَّدقةَ ذكرَ ضِدَّها، ولهذا قرنَ بينهما في قولِه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٤٤)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩١)، مـن طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عـن ابن عباس. وعبد الوهاب بن مجاهد متروك، وكذبه الثوري، كما في «التقريب».
وذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٢) عن الكلبي، ومقاتل في «تفسيره» (١/ ٢٢٥)، والكلبي ومقاتل متروكان.

والرِّبا: أخذُ مالٍ بغيرِ مالٍ بإزائِه.

والصَّدقةُ: تبرُّعٌ بالمالِ على حسبِ الشَّرعِ، وقد قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، فالصَّدقةُ تزيدُ المالَ، والرِّبا يُنقِصُ المالَ.

ولـمَّا بيَّنَ أنَّه لا يَقبَلُ الخبيثَ في الصَّدقةِ بَيَّنَ أنَّ ما يُكتَسَبُ بالرِّبا فهو خبيثٌ، وقال: ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لأنَّه قصدَ أقوامًا كانت مآكلُهم منَ الرِّبا.

وقيلَ: أشارَ بالأكلِ إلى جميعِ المُعاملاتِ؛ أي: الذين يُعامِلُون بالرِّبا، وخصَّ الأكلَ بالذِّكرِ لأنَّ الغالبَ أنَّ الآدميَّ يسعى لبطنِه، وهذا كقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]، وقد يقولُ الرَّجلُ لمن أتلَفَ مالَه: أكلتَ مالي.

والرِّبا: الزِّيادةُ كما ذكَرْنا، ومنه: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]؛ أي: زادَتْ، وفي الخبرِ: «مَن أجْبَى فقد أرْبَى»[1]، والإجباءُ: بيعُ الزَّرعِ قبلَ بُدُوِّ صلاحِه، فالرِّبا: الزِّيادةُ على أصلِ المالِ من غيرِ بيعٍ.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾؛ أي: يـومَ القيامةِ مـن قُبورِهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ التَّخبُّـطُ: الضَّـربُ على غيرِ اسـتواءٍ، يُقالُ: خبَطَ البعيـرُ الأرضَ بأخفافِه،

---

(١) هذه قطعة من كتاب النبي ﷺ إلى أهل حضرموت، رواه أبو عبيد في «غريب الحديث» (١/ ٢٦٨) عن سعيد بن عفير، عن ابن لهيعة، عن أشياخه من حضرموت يرفعونه. وعن يحيى بن بكير عن بقيَّةَ يُسنده. وطريق بقية وصله ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٣٣٥)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٥٠)، من حديث الضحاك بن النعمان: أن مسروق بن وائل رضي الله عنه قدم على رسول الله ﷺ العقيق فحسن إسلامه وقال: إني أحب أن تبعث إلى قومي رجالاً يدعونهم إلى الإسلام وأن تكتب إلى قومي كتاباً..، الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٧٥): فيه بقية لكنه مدلس وهو ثقة.

وفلانٌ يَخْبِطُ خَبْطَ عشواءَ؛ أي: يتصرَّفُ في أمرِه لا يهتَدي إليه؛ أي: كالذي يضرِبُه الشَّيطانُ بخَبلٍ أو جنونٍ؛ فإنَّ المصروعَ يضرِبُ بيدَيه ورجلَيه ويتحرَّكُ على غيرِ استواءٍ.

والمسُّ: الجنونُ، يُقالُ: مُسَّ الرَّجلُ فهو ممسوسٌ، وبه مَسٌّ وأَلْسٌ، فكانَ الشَّيطانُ يمسُّ الإنسانَ بيدِه(١) فيُجِنُّه، ويتخبَّطُه بالرِّجلِ فيَخبِلُه، فالتَّخبُّطُ بالرِّجلِ، والمَسُّ باليدِ.

قال القفَّالُ: أي: آكلُ الرِّبا لا يستقيمُ أمرُه غدًا كما أنَّ أهلَ العُرفِ ينسبونَ تخبُّطَ المرءِ إلى الشَّيطانِ فيقولون: مسَّه الشَّيطانُ، فالقيامُ في الآيةِ بمعنى الاستقامةِ، كما قال الله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]؛ أي: صلاحًا وعصمةً.

وهذا إنكارٌ لوجودِ الشَّياطينِ.

وحُكِيَ أنَّ قومًا قالوا: الشَّيطانُ يمسُّ بالأذى والوسوسةِ، ويكونُ عندَهما الصَّرعُ. وهذا هو الحقُّ المُبينُ، وقد قال أيُّوبُ عليه السَّلامُ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

وإذا ورَدَ الخبرُ بشيءٍ من مُجوِّزاتِ العقلِ فليس إلّا القبولُ، ولكن قامَ الدَّليلُ على أنَّ المقدورَ بالقدرةِ الحادثةِ لا يتعدَّى محلَّ القدرةِ، فالشَّيطانُ يُوسوِسُ، ثمَّ الله يخلقُ في العبدِ آثارًا عقيبَ وساوسِ الشَّيطانِ فتُسمَّى خَبْطَ الشَّيطانِ ومَسَّه.

ومَن قال بالتَّولُّدِ فقد قال الجبَّائيُّ منهم في «تفسيرِه»: الذي يُصيبُ المصروعَ بعضُه من فعلِ الله، وبعضُه من فعلِ المصروعِ وليس بفعلِ الشَّيطانِ؛ إذ لو أُعطِيَ القدرةَ على ذلك لَـمَا تركَ أحدًا من صالحي المسلمين، ولأتاهُم بأسبابِ القتلِ من

---

(١) في (أ): «بيديه».

حيثُ لا يشعرون، ولا سبيلَ له إذن إلى النّاسِ إلّا بالوسوسةِ كما قال الله في الإخبارِ عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال: والمصروعُ ضعيفُ الطَّبعِ فإذا غلبَ عليه المِرّةُ السَّوداءُ تفزَّعَ ممَّا يُوسوِسُ إليه الشَّيطانُ، فيضيقُ صدرُه فينالُه الصَّرعُ، ورُبَّ إنسانٍ يستوحشُ في المكانِ الخالي ويَفزعُ حتَّى يُغشَى عليه أو يموتَ، ولهذا يُعزَّى المُصابُ بالجلوسِ معه لئلّا يخلوَ ويستوليَ الشَّيطانُ بكثرةِ الوسوسةِ عليه فيزولَ عقلُه.

قال: وإنَّ الله كشفَ أجسامَ الشَّياطينِ في زمانِ سليمانَ عليه السَّلامُ، فكان النّاسُ يُشاهِدُونَهم، فلمَّا ماتَ سليمانُ رُدُّوا إلى ما كانُوا عليه من رقَّةِ الأجسامِ، فهم كالرِّيحِ، فينسلكونَ في تجاويفِ بدنِ الآدميِّ.

ومن أصحابِ التَّولُّدِ مَن يُثبِتُ هذه الأفاعيلَ للشَّيطانِ على طريقِ التَّوليدِ.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّ آكلَ الرِّبا يُبعَثُ يومَ القيامةِ مجنونًا.

وقيلَ: يُبعَثُ النّاسُ غدًا من قُبورِهم سراعًا إلّا آكلَ الرِّبا؛ فإنَّه يقومُ ويسقطُ ويُثقِلُه ما أكلَ منَ الرِّبا عن الحركةِ.

وفي خبرِ المعراجِ أنَّه: «انتهى إلى رجالٍ، كلُّ رجلٍ منهم بطنُه مثلُ البيتِ الضَّخمِ، يقومُ أحدُهم فيميلُ به بطنُه فيُصرَعُ، فقال جبريلُ: هم الذين أكلُوا الرِّبا».

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾؛ أي: إنَّما نزلَ بهم العذابُ لأنَّهم سوَّوا بينَ البيعِ والرِّبا، وقد فرَّقَ الله بينَهما، وكان مَن عليه دَينٌ مُؤجَّلٌ إذا حلَّ[1] الدَّينُ يزيدُ شيئًا في الدَّينِ إلى أجلٍ آخرَ، وكانوا يقولون: «هذا الرِّبحُ أخيرًا كالرِّبحِ ابتداءً لو

---

(١) في (أ): «إذا أجل».

بعتَ الثَّوبَ الذي قيمتُه عشرةٌ بخمسةَ عشرَ»، واللهُ فرَّقَ بينَ الرِّبحِ في الابتداءِ وبينَ الرِّبحِ في الانتهاءِ، وله أن يحكُمَ بما يُريدُ.

ثمَّ قال العلماءُ: هذه الآيةُ مُجمَلةٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ يقتَضي تحليلَ كلِّ بيعٍ، وقولَه: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يقتَضي تحريمَ كلِّ بيعٍ؛ لأنَّه لا بيعَ إلَّا ويُقصَدُ فيه الزِّيادةُ، فالرُّجوعُ إذنْ إلى بيانِ النَّبيِّ ﷺ.

وقيلَ: البيعُ الذي لا زيادةَ فيه هو بيعُ عشرةٍ بعشرةٍ مع التَّجانُسِ، فهو حلالٌ ليس فيه إجمالٌ، وإنَّما الإجمالُ فيما يتضمَّنُ زيادةً، فبعضُ ما يتضمَّنُ الزِّيادةَ حلالٌ والبعضُ حرامٌ،

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّهم عرَفُوا أنَّ الله حرَّمَ الرِّبا، فعارَضُوا أمرَ الله بقياسِهم، فكان ذلك كفرًا منهم وتكذيبًا للنَّبيِّ عليه السَّلامُ.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: وعظٌ، ولهذا قال: ﴿جَآءَهُۥ﴾، وهذا الوعظُ هو القرآنُ ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾؛ أي: عن أكلِ الرِّبا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾؛ أي: ما مضى من دَينِه قبلَ النَّهيِ.

وقيلَ: أي: ليس عليه ردُّ ما سلفَ، فأمَّا ما لم يُقضَ بعدُ فلا يجوزُ أخذُه، وإنَّما له رأسُ مالِه فقط. **وهذا أحسنُ**؛ لأنَّ ما كانَ قبلَ النَّهيِ ما كان دَينًا.

﴿سَلَفَ﴾؛ أي: مضى، والسُّلوفُ: التَّقدُّمُ، والسَّالفةُ: العنُقُ؛ لتقدُّمِه، والسُّلْفةُ: ما يُقدَّمُ قبلَ الطَّعامِ، وسُلافةُ الخمرِ: صَفوُها؛ لأنَّه أوَّلُ ما يخرجُ من عصيرِها.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنْ شاءَ عصَمَه، وإنْ شاءَ خذَلَه حتَّى يعودَ إلى الرِّبا، أو: إنْ أقدَمَ عليه غيرَ مُستحِلٍّ فأَمْرُه إلى الله إنْ شاءَ عذَّبَه وإنْ شاءَ غفرَ له، وإنَّما الخلودُ لمَن استحلَّ ما حرَّمَه الله.

وقيلَ: أي: رجعَ أمرُه إلى الله، وليس لمَن عاملَه بالرِّبا أن يُؤاخِذَه بما سبقَ.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾؛ أي: إلى استحلالِ الرِّبا.

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنَّهم كفّارٌ.

***

(٢٧٦) - ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

قولُه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ المَحقُ: النَّقصُ، ومنه: المُحاقُ في الهلالِ، يُقالُ: محقَه الله فانمَحَقَ وامتحَقَ، والمعنى: يُذهِبُ الله بركةَ الرِّبا، وفي الخبرِ: «الرِّبا وإن كثُرَ فإنَّ عاقبتَه إلى قُلٍّ»[1].

وقال ابنُ عبّاسٍ: معنى هذا المحقِ: أنَّ الله لا يقبلُ منه صدقةً ولا حجًّا ولا جهادًا[2].

﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ أي: الصَّدقةُ وإنْ أوجبَتْ نُقصانًا في الظّاهرِ فلها بركاتٌ، وفي الخبرِ: «إنَّ الله يُرْبِي الصَّدقاتِ لصاحبِها كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه، حتَّى إنَّ اللُّقمةَ لَتصيرُ مثلَ أُحُدٍ»[3].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هو الذي كفرَ بما جاء به محمَّدٌ ﷺ، ومـمَّا جاء به:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٧٥٤)، وابن ماجه (٢٢٧٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٦٢)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤١٨)، والواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٦٩)، من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٣) رواه بنحوه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تحريمُ الرِّبا، فمَن أربى مُستحِلًّا فهو كافرٌ، فالكافرُ: هو المُصِرُّ على الكفرِ، والأثيمُ: المُصِرُّ على المأثمِ.

***

(٢٧٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن استحلَّ ما حرَّمَ الله كفرَ، وأنَّ مَن خالفَ ذلك آمَنَ وصدَّقَ، فالذين آمنوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ثوابُ طاعتِهم عتيدٌ[1].

***

(٢٧٨) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ بيَّنَ حكمَ ما ترابَوا عليه في الجاهليَّةِ، فما قبَضُوه قبلَ النَّهيِ فلا تعرُّضَ له، وما لم يَقبِضُوه فلا يَحِلُّ قبضُ الرِّبا بل يُكتَفَى برأسِ المالِ، ويجبُ إنظارُ المُعسِرِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلتِ الآيةُ في بني عمرِو بنِ عُمَيرٍ من ثَقيفٍ، وفي بني المُغيرةِ من بني مخزومٍ، وكانت بنو المُغيرةِ يُربُونَ لثقيفٍ، فلمَّا فُتِحَت مكَّةُ وضعَ رسولُ الله ﷺ الرِّبا كلَّه، فأبى بنو عمرِو بنِ عُمَيرٍ أن يترُكوا رِباهُم على بني المُغيرةِ، فنزلتِ الآيةُ[2].

---

(١) أي: حاضرٌ مهيأٌ. انظر: «الصحاح» (مادة: حضر).

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٦٦٨)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٣ ـ ٩٤)، من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس. =

وقيلَ: نزلَتْ في العبَّاسِ وخالدِ بنِ الوليدِ، وكانا شريكَين في الجاهليَّةِ يُسلفانِ في الثِّمارِ، فقالَ عليه السَّلامُ: «ألَا إنَّ كلَّ رِبًا من رِبا الجاهليّةِ موضوعٌ، وأوَّلُ رِبًا أضعُه رِبا العبّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ»، وأنزَلَ الله هذه الآيةَ[١].

وقيلَ: نزلَتْ في العبَّاسِ وعثمانَ، فقالا: سمعًا وطاعةً، واقتَنَعا برأسِ المالِ[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: سبيلُ المُؤمن هذا، والقراءةُ ﴿مَا بَقِىَ﴾ بفتحِ الياءِ، وفي روايةٍ عن ورشٍ: (ما بقيْ) بسكونِ الياءِ[٣]، **وهو بعيدٌ**؛ لأنَّه إنَّما يحسُنُ عندَ الوقفِ[٤].

***

(٢٧٩) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾؛ أي: فإنْ لـم تذَرُوا ما بقيَ منَ الرِّبا، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: فإنْ لـم يفعَلُوا تركَ ما بقيَ منَ الرِّبا ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُقالُ: أذِنَ بالشَّيءِ يأذَنُ

= ورواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٠) عن ابن جريجٍ، وابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٨ـ ٥٤٩) عن مقاتل.

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٣ ـ ٩٤) عن السدي. ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٤٨)، وفيهما: (العباس ورجل من بني المغيرة).
والمرفوع منه قطعة من حديث جابر الطويل في الحج، رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٤٢٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٣) عن عكرمة وعطاء.

(٣) عزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٤) لأبيٍّ رضي الله عنه. وابن جني في «المحتسب» (١/ ١٤١) للحسن.

(٤) في (أ) زيادة: «انتهى».

إذنًا وأذانةً؛ أي: علِمَ به، وآذَنْتُه فأذِنَ، مثلُ: أنذَرْتُه فنَذِرَ؛ أي: أعلَمْتُه فعلِمَ؛ أي: إنْ لـم تدَعُوا الرِّبا ولـم تضَعُوه فاعلَمُوا أنَّكم حربٌ لله ولرسولِه، وأنَّ الله أذِنَ لرسولِه في مُحاربتِكم، وأضافَ إلى الله تأكيدًا، كقولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، أو لأنَّ الرَّسولَ إنَّما يُحارِبُ بإذنِ الله.

وقيلَ: حربُ اللهِ النَّارُ، وحربُ الرَّسولِ القتالُ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: يُستَتابُ مَن عاملَ بالرِّبا، فإنْ تابَ وإلّا ضُرِبَ عنُقُه(١).

ويُقالُ له يومَ القيامةِ: خُذْ سلاحَكَ للحربِ(٢).

وقُرِئَ: ﴿فآذِنُوا﴾(٣)، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: أعلِمُوا مَن لـم ينتَهِ عن ذلك بحربٍ.

﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾؛ أي: عن الرِّبا ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ شَرطَ التَّوبةَ لأنَّهم إنْ أصَرُّوا على الاستحلالِ كفَرُوا وصارَ مالُهم فيئًا للمسلمين، فلا يكونُ لهم رؤوسُ أموالِـهم.

﴿لَا تَظۡلِمُونَ﴾؛ أي: بطلبِ الزِّيادةِ ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ بالنَّقصِ عن رأسِ المال.،

ولـمَّا نزلتِ الآيةُ قال قومٌ من ثقيفٍ: بل نتوبُ إلى الله؛ فإنَّه لا يدانِ(٤) لنا بحربِ الله ورسولِه، وسلَّموا لأمرِ الله(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) هي قراءة حمزة وأبي بكر، وباقي السبعة: ﴿فَأۡذَنُواْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٢)، و«التيسير» (ص: ٨٤).

(٤) في (أ): «لا يد».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٢٢٨)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٤٣٢). وروى أبو يعلى في «مسنده» =

(٢٨٠) - ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ لـمَّا رضُوا بنُو ثقيفٍ من بني المُغيرةِ بأن يرُدُّوا رؤوسَ أموالِـهم شكا بنو المُغيرةِ العُسرةَ، وقالوا: أخِّرونا إلى إدراكِ الثَّمرةِ، فأبَوا، فنزلَتْ هذه الآيةُ[1].

و﴿كَانَ﴾ في هذه الآيةِ بمعنى: وقَعَ وحدَثَ، فلا يَحتاجُ إلى خبرٍ.

والعُسرةُ: الاسمُ منَ الإعسارِ، وأعسرَ الرَّجلُ؛ أي: صارَ إلى حالةِ العُسرةِ، وهي تعذُّرُ وجودِ المالِ.

﴿فَنَظِرَةٌ﴾ خبرٌ مقصودُه الأمرُ؛ أي: أنظِروه، والنَّظِرةُ: التَّأخيرُ، وهي اسمٌ منَ الإنظارِ، والمَيسَرةُ: مَفْعلةٌ منَ اليُسرِ واليسارِ الذي هو ضدُّ العُسرِ، وقُرِئَ: ﴿إلى مَيْسُرة﴾ بضمِّ السِّينِ[2].

وإذا ثبتَ الإعسارُ فلا حبسَ، وتُسمَعُ الشَّهادةُ على الإعسارِ وإنْ كانت شهادةً على النَّفسِ؛ لمسيسِ الحاجةِ إليها، ويُباعُ على المُفلِسِ جميعُ مالِه، فلا يُستبقَى له سوى قوتِ يومٍ ودَسْتِ ثوبٍ يليقُ بحالِه.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: التَّصدُّقُ برأسِ المالِ على المُعسرِ خيرٌ لكم، فحُذِفَ لأنَّه جرَى ذكرُ المُعسِرِ وذِكرُ رأسِ المالِ.

(٢٦٦٨)، ومن طريقه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٣)، خبراً طويلاً من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس تقدم بعضه قريباً، وفيه: «فنزلت هذه الآيةُ والتي بعدها: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فعرَف بنو عَمْرٍو أنْ لا يَدَان لهم بحربٍ من الله ورسوله».

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٩٤) عن الكلبي.

(٢) قرأ بها نافع، وباقي السبعة بفتحها. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٢)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

قُرِئَ: ﴿تصَّدَّقوا﴾ بتشديدِ الصَّادِ، وقُرِئَ: ﴿تَصَدَّقُواْ﴾ بتخفيفِ الصَّادِ(١)؛ أي: تتَصَدَّقُوا.

* * *

(٢٨١) ـ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هذه آخرُ ما نزلَ منَ القرآنِ، ولمَّا نزلتِ الآيةُ قال جبريلُ: ضَعْها على رأسِ ثمانين ومئتَين منَ البقرةِ(٢).

وقيلَ: عاشَ رسولُ الله ﷺ بعدها سبعَ ليالٍ(٣).

---

(١) هي قراءة عاصم، والباقون بالأولى. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٣)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٢) رواه الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٨٣) من طريق الكلبي وهو متروك، عن أبي صالح ولم يسمع من ابن عباس، عن ابن عباس، وروى النسائي في «الكبرى» (١٠٩٩١) و(١٠٩٩٢) من طريق آخر عن ابن عباس: أن آخر آية أنزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وروى البخاري (٤٦٠٥)، ومسلم (١٦١٨) عن البراء بن عازب: آخرُ آيةٍ نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

وروى أحمد في «مسنده» (٢٤٦)، وابن ماجه (٢٢٧٦) وغيرهما عن عمر بن الخطاب أن آخر آية نزلت آية الربا.

وروى أحمد (٢١١١٣)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠١)، وغيرهما عن ابن عباس عن أبي بن كعب أن آخر ما نزل ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وروي غير ذلك، ونقل الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٣٧١) عن البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣٩) أنه جمع بين هذه الروايات فقال: هذا الاختلاف يرجع ـ والله أعلم ـ إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من العلم، أو أراد أن ما ذُكِرَ مِن أواخرِ الآياتِ التي نزلت، والله أعلم.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٤٨٥) عن سعيد بن جبير ومقاتل. والذي في «تفسير مقاتل» =

وقيلَ: تسعَ ليالٍ[١].

وقيلَ: أحدًا وعشرينَ يومًا[٢].

وقيلَ: نزلَتْ بمِنًى، وبينها وبين موتِ رسولِ الله ﷺ أحدٌ وثمانونَ يومًا[٣].

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾؛ أي: اتَّقوا عذابَ يومٍ، فـ﴿يَوْمًا﴾ نصبٌ لأنَّه مفعولٌ به، لا على الظَّرفِ؛ إذ ليس يعني: واتَّقوا في يومٍ.

﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ بضمِّ التّاءِ، كقولِه: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقُرِئَ: ﴿ترجِعون﴾ بفتحِ التّاءِ وكسرِ الجيمِ[٤]، كقولِه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: جزاءَ ما كسبَتْ منَ الأعمالِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يُنقصُ ثوابُ المُطيعِ، ولا يُعامَلُ العاصي إلا بما يستأهلُه، ولا يُتصَوَّرُ منَ الله ظُلمٌ؛ لأنَّه يتصرَّفُ في ملكِه بما[٥] يُريدُ.

* * *

= (١/ ٢٢٨): ثُمّ تُوفّي النَّبيّ ﷺ بعدها بتسع ليال. وكذا رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٥٤) عن سعيد بن جبير.

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٤٨٥).

(٣) رواه الفريابي في «تفسيره» كما في «الإتقان» للسيوطي (١/ ١٠١ ـ ١٠٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣٧)، كلاهما من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: بين نزولها وبين موت النبي ﷺ أحد وثمانون يومًا.

(٤) قرأ بها أبو عمرو، وباقي السبعة بضمها على البناء للمفعول. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٣)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٥) في (أ): «كما».

(٢٨٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ لـمَّا أمر بإنفاقِ الطَّيِّبِ منَ الكسبِ ووصلَ به إحلالَ البيعِ وتحريمَ الرِّبا؛ والبيعُ قد يكونُ بثمنٍ مُؤجَّلٍ؛ وصلَ به وجوهَ الاحتياطِ وذكرَ السَّلَمِ؛ فإنَّ الأرباحَ في الغالبِ في التِّجاراتِ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: لـمَّا حرَّمَ الله الرِّبا أباحَ السَّلَمَ فقال: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾.

والتَّدايُنُ: تَفاعُلٌ منَ الدَّينِ، ويدخلُ فيه كلُّ حقٍّ مُؤجَّلٍ، ولـمَّا كان يَرِدُ التَّدايُنُ بمعنى المُجازاةِ قال: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ ليُبيِّنَ أنَّ المُرادَ التَّداينُ بالمالِ، ويُقالُ: دانَه يَدينُه؛ أي: أقرضَه، ودانَ؛ أي: استقرَضَ، وأدانَ؛ أي: باعَ بثمنٍ مُؤجَّلٍ، وادَّانَ؛ أي: كثُرَ عليه الدَّينُ.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ الأجلُ: الوقتُ المضروبُ لانقضاءِ الأمدِ، وأجلُ الإنسانِ: وقتُ انقراضِ عمرِه، وأجلُ الدَّينِ: محلُّه؛ لانقضاءِ التَّأخيرِ فيه، والأصلُ في الأجلِ التَّأخيرُ، يُقالُ: أجَلَ الشَّيءُ يأجَلُ أُجولًا؛ أي: تأخَّرَ، والآجِلُ: المُتأخِّرُ.

﴿مُسَمًّى﴾ اشترطَ التَّسميةَ في الأجلِ لتخرُجَ المُدَّةُ عن الجهالةِ.

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾؛ أي: أثبِتُوه في كتابٍ يُبيَّنُ فيه قَدْرُ الحقِّ وقَدْرُ الأجل ليُرجَعَ إليه إن وقعَ تنازعٌ، والأمرُ بالكِتْبةِ والإشهادِ نَدْبٌ للاحتياطِ.

وقيلَ: كان فرضًا فنُسِخَ بقولِه: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾؛ أي: ليكتُبْ كتابَ الدَّينِ أمينٌ يكتُبُ ﴿بِالْعَدْلِ﴾: بالحقِّ لا يزيدُ ولا ينقصُ، والمعنى: سَلُوا مَن يكتُبُ لكم، وينبَغي أن يكونَ الكاتبُ فقيهًا عالـمًا باختلافِ العلماءِ، أديبًا مُميِّزًا بين الألفاظِ المُتشابهةِ، وإنْ لـم يكن كذلك فليُعلِمِ المُتعامِلَين ليكونَ ما يكتبُه بإذنِهما وعلمِهما.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾؛ أي: لا يمتَنِعْ منَ الكتابةِ؛ لأنَّه يضيعُ الحقُّ، وهذا كما لا ينبَغي أن يمتنعَ منَ الشَّهادةِ إذا استُشهِدَ، والإباءُ: الامتِناعُ، يُقالُ: أبى يأبى؛ أي: امتنَعَ، وأخذَه إباءٌ: إذا كان يأبَى الطَّعامَ ولا يشتَهيه.

ثـمَّ قيـلَ: وجبَتِ الكتبةُ على الكاتـبِ ثمَّ نُسِـخَتْ بقولِـه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾؛ أي: كما فضَّلَه بالكتابةِ وأفهمَه؛ أي: ليشكرَ الله على ذلك، وهذا كقولِه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ يُقالُ: أملَى وأملَّ، وقد نطقَ القرآنُ باللُّغتين، قال هاهنا ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾، وقال: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، والكاتبُ لا يدري ما لـم يُذكِّره صاحبُ الحقِّ والمُستحَقُّ عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في الامتناعِ منَ الإملاءِ والإقرارِ بما عليه.

﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ أي: لا يُنقِصْ منَ الحقِّ الذي عليه شيئًا، يُقالُ: بخَسَه حقَّه؛ أي: نقَصَه، وفيه بيانُ أنَّ القولَ قولُ المُقِرِّ إلا أنْ تقومَ عليه بيِّنةٌ؛ لأنَّه قال: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ هو المُضيِّعُ لمالِه المُبذِّرُ له في غيرِ وجهِه.

وقال مُجاهدٌ: ﴿سَفِيهًا﴾؛ أي: جاهلًا بالإملاءِ[1].

وقيلَ: طفلًا صغيرًا، والسَّفهُ: الجهلُ.

﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾؛ أي: عاجزًا أحمقَ.

وقيلَ: صغيرًا أو كبيرًا يعجزُ عن القيامِ بمصالحِه من خبَلٍ أو غيرِه.

﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بخرَسٍ أو عِيٍّ أو جُنونٍ أو جهلٍ بما له وعليه.

﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أمرَ الوليَّ بالإملاءِ بالعدلِ كما أمرَ الكاتبَ أن يكتُبَ بالعدلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يتصرَّفُ على الغيرِ، وهذا الوليُّ هو قيِّمُ الصَّبيِّ والمجنونِ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: الوليُّ صاحبُ الدَّينِ؛ لأنَّه أعلَمُ بدينِه، فليُمْلِلْ بالعدلِ والصِّدقِ[2]. **والأوَّلُ أصحُّ**؛ إذ لو قُبلَ قولُ المُدَّعي فلا حاجةَ إذن إلى الكتبةِ والإشهادِ.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾؛ أي: أشهِدوا، وأشهَدَ واستشهَدَ بمعنًى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٨٢).

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٤/ ٤٩٠) عن ابن عباس والربيع ومقاتل، ورواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٨٤) عن الربيع، واستبعده الزجاج في «معاني القرآن» (١/ ٣٦٣) فقال: وهذا بعيد؛ كيف يقبل قول المدعي؟ وما حاجتنا إلى الكتاب والإشهاد والقولُ قوله؟

﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي: من أهلِ ملَّتِكم منَ الأحرارِ البالغين.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾؛ أي: فالذي يُستَشهَدُ رجلٌ وامرأتانِ، أو فلْيَكفِكُم رجلٌ وامرأتانِ.

وقيلَ: فرجلٌ وامرأتانِ يشهدونَ.

والتَّعويلُ على الشَّهادةِ لا على الكتابِ، ولكنَّ الكتابَ يُذكِّرُ الشُّهودَ.

﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾؛ أي: من أهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، وشرطُ الشَّاهِدِ: أن يكونَ حرًّا بالغًا مسلمًا عدلًا عالـمًا بما يشهدُ به، ولا يجُرَّ بشهادتِه إلى نفسِه نفعًا، ولا يدفعَ ضرًّا، ولا يكونَ مُغفَّلًا معروفًا بكثرةِ الغلطِ، ولا بتركِ المروءةِ، ولا يكونَ عدوًّا للمشهودِ عليه.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أي: فرجلٌ وامرأتانِ يشهدون أن تضِلَّ؛ فـ﴿أَن﴾ تتعلَّقُ بفعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه ما قبلَه، ﴿تَضِلَّ﴾: تنسى، كقولِه: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؛ أي: منَ النَّاسين الذي نسُوا وجهَ الأمرِ، يُقالُ: ضلَلْتُ الطَّريقَ أضِلُّه: إذا لـم تدرِ أينَ هو.

﴿إِحْدَاهُمَا﴾ هي تأنيثُ الواحِدِ، ولا تُستَعملُ إلّا مُضافةً إلى غيرِها.

وقيلَ: «إِحَدٌ» في جمعِ «إحدى»، وفلانٌ إحدَى الإِحَدِ، وأحدُ الأحَدِين، وواحدُ الآحادِ، فالألفُ في «إحدى» مثلُ التّاءِ في «كبيرة»، ولهذا قالوا في الجمعِ: «إِحَدٌ» كما يقالُ: «كبيرٌ»، وهي كالكُبرى والكُبَرِ، جعلُوا الألفَ المقصورةَ بمنزلةِ التّاءِ.

والغرضُ منَ امرأتَين: الإذكارُ، ولكنْ سببُه الضَّلالُ والنِّسيانُ، وهو كقولِك: «أعددتُ هذا أن يميلَ الحائطُ فأدعمَه»، وإنَّما أعددتَ للدَّعمِ لا للمَيلِ، فذكرتَ الميلَ لأنَّه سببُ الدَّعمِ.

وقيلَ: ﴿أَن تَضِلَّ﴾؛ أي: مخافةَ أن تضِلَّ. **وفيه نظرٌ؛ لأنَّه** عُطف عليه ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ والخوفُ يصحُّ على الضَّلالِ لا على التَّذكيرِ، وإشهادُ امرأتَين للتَّذكيرِ لا للخوفِ.

وقرأ حمزةُ: ﴿إِنْ تضِلَّ﴾ بكسرِ ﴿أَن﴾ و﴿تَضِلَّ﴾ جزمٌ ففُتِحَ لالتقاءِ السّاكنَين.

ثمَّ قُرِئَ: ﴿فتُذكِّرُ﴾ بالرَّفعِ[1] وهو جوابُ الجزاءِ، وقال سيبويهِ: بعد الفاءِ مُبتدأٌ محذوفٌ؛ أي: فهما تذكِّرُ إحداهما الأُخرَى؛ كقولِه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥]؛ أي: فهو ينتقِمُ الله منه[2]، والذِّكرُ العائدُ إلى المبتدأ المحذوفِ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾.

قُرِئَ: ﴿فتُذَكِّر﴾ بالتَّشديدِ، وقُرِئَ: ﴿فتُذْكِرَ﴾ بالتَّخفيفِ[3]، تقولُ: ذكَّرتُه وأذكَرْتُه.

ثمَّ المفعولُ الثَّاني محذوفٌ؛ أي: تُذكِّرُ إحداهما الأخرى بالشَّهادةِ، وهو التَّذكيرُ منَ النِّسيانِ.

وقال أبو عبيدٍ: أي: تجعَلُها ذَكرًا[4]. **وهذا بعيدٌ؛ لأنَّه** لو شهدَ ألفٌ منَ النِّسوةِ لَما قُمْنَ مقامَ رجلٍ حتَّى يشهدَ معهنَّ رجلٌ، وأيضًا قال: ﴿أَن تَضِلَّ﴾؛ أي: تنسى، فيُعادِلُه الذِّكرُ.

---

(١) وهي أيضاً قراءة حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٤)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٢) انظر: «الكتاب» (٣/ ٩٦)، و«الحجة» للفارسي (٢/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بالتخفيف والنصب ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ باقي السبعة بالتشديد، فحمزة رفع ـ كما تقدم ـ والباقون نصبوا. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٤)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٨٩) عن ابن عيينة، وردَّه من وجوه تنظر ثمة.

ورواه الواحدي في «البسيط» (٤/ ٥٠١) عن أبي عمرو بن العلاء لكن على القراءة بالتخفيف.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ قيلَ: إلى تحمُّلِ الشَّهادةِ، ولا يجوزُ الامتناعُ إذا تعيَّنَ الشّاهدُ، وقيلَ: إلى أداءِ الشَّهادةِ.

وقيلَ: إلى الأمرَين.

وسُمِّيَ الشُّهودُ شُهودًا قبلَ أن يشهدوا كما سُمِّيَ الكاتبُ كاتبًا قبلَ أن يكتُبَ.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ أعادَ ذكرَ الكتابةِ حثًّا عليها للتَّأكيدِ؛ أي: لا تـمَلُّوا أن تكتُبوا، والهاء في: ﴿تَكْتُبُوهُ﴾ ترجعُ إلى الحقِّ.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾؛ أي: إلى أجَلِ الحقِّ.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعدَلُ؛ لأنَّ الكتابَ يُذكِّرُ الشُّهودَ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أبلَغُ في الاستقامةِ، يُقالُ: شيءٌ قيِّمٌ؛ أي: مُستقيمٌ.

وقيلَ: (أقوَمُ)؛ أي: أثبَتُ، ولفُلانٍ حقٌّ قائمٌ؛ أي: ثابتٌ.

﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾؛ أي: أقرَبُ إلى أن لا تشُكُّوا في مبلغِ الحقِّ والأجلِ.

﴿إلَّا أنْ تكونَ تجارةٌ حاضرةٌ﴾؛ أي: إلا أن تقعَ تجارةٌ في هذه الأشياءِ فلا جُناحَ في تركِ هذه الاحتياطاتِ منَ الإشهادِ والكِتْبةِ والرَّهنِ؛ لأنَّ الخوفَ في المُؤجَّلِ أكثرُ منه في البيعِ نقدًا، وهو التِّجارةُ الحاضرةُ.

﴿تُدِيرُونَهَا﴾؛ أي: تجارةٌ حاضرةٌ دائرةٌ بينكم، فمحلُّه الرَّفعُ.

وقُرِئَ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ بالنَّصبِ[1]؛ أي: تكونَ المُدايَنةُ تجارةً، أو: إلَّا أن تكونَ التِّجارةُ تجارةً حاضرةً.

والتِّجارةُ: تقليبُ الأموالِ لطلبِ النَّماءِ، يُقالُ: تَـجَرَ يتْجُرُ فهو تاجرٌ، والمعنى:

---

(١) هي قراءة عاصم والباقون بالرفع. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٤)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

إلّا أن يقعَ ذو تجارةٍ؛ أي: متاعٌ ذو تجارةٍ، أو يُرادُ بالتِّجارةِ المُتَّجَرُ فيه، كما يُقالُ: «هذا الدِّرهمُ ضربُ الأميرِ»؛ أي: مضروبُه، وهذا لأنَّه أرادَ المُعاملةَ على النَّقدِ، ولهذا قال: ﴿تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً﴾، والذي يحضرُ هو الأعيانُ، وقد تجري المُعاملةُ في الذِّمَّةِ ثمَّ يُنفَّذُ في الحالِ ولا يكونُ ثَمَّ أجلٌ.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾؛ أي: لا ينبَغي أن يَطلبَ الكاتبُ أو الشّاهدُ إضرارًا بذي الحقِّ، فيزيدَ أو يُنقِصَ، أو يشهدَ بالباطلِ، أو يمتنعَ من أداءِ الشَّهادةِ أو من تحمُّلِها، وأصلُه: «يُضارِرْ».

وقيلَ: أي: ينبَغي ألّا يَطلبَ الإضرارَ بالكاتبِ والشَّهيدِ فيُعطِّلَ عليهما الوقتَ، فالأصلُ على هذا: «ولا يُضارَرُ».

﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾؛ أي: مَن تعدَّى مراسمَ الشَّرعِ فسقَ.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في مُخالفةِ أمرِه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: شرائعَ دينِه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

* * *

(٢٨٣) ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

قولُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أمرَ بالكِتْبةِ والإشهادِ صيانةً للأموالِ التي هي قِوامُ المعاشِ، ووصلَه إلى الجهادِ والصَّدقاتِ، وبيَّنَ أنَّهم إذا عجَزُوا عن الكتبةِ والإشهادِ فعليهم التَّوثُّقُ بالرَّهنِ، وقال ﴿فلم تَجِدُوا۟ كَاتِبًا﴾ ولـم يذكرِ الشّاهدَ لأنَّ الغالبَ عدمُ

الشّاهِدِ عند عدمِ الكاتبِ، وأيضًا الكتابُ إنَّما ينفعُ إذا جرى إشهادٌ ليتذكَّرَ الشُّهودِ بالكتابِ شهادتَهم.

وحكمُ الرَّهنِ في السَّفرِ والحضرِ سواءٌ، وإنَّما قيَّدَ بالسَّفرِ لأنَّ الإنسانَ في حالِ السَّفرِ وعدمِ الكاتبِ أحوجُ إلى الرَّهنِ، وهو كقولِه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقولِه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿فرُهُنٌ مقبوضةٌ﴾ الرَّهنُ لا يلزمُ إلَّا بالإقباضِ، ومهما جرى في بيعٍ فللرّاهنِ الفسخُ قبلَ القبضِ، ثمَّ للبائعِ فسخُ البيعِ، والمُرتهنُ أبدًا بالخيارِ في فسخِ الرَّهنِ، ومنافعُ الرَّهنِ للرّاهنِ، فإن اشترطَها المُرتَهِنُ صارَ رِبًا.

والسَّفَرُ منَ الكشفِ، فكأنَّ المُسافرَ برزَ إلى الأرضِ الفضاءِ، فالسَّفرُ يُسفِرُ عن وجوهِ المُسافرين، أو عن أخلاقِهم، والسِّفْرُ: الكتابُ؛ لأنَّه يُبيِّنُ الشَّيءَ.

والرَّهْنُ: مصدرُ رَهَنْتُ أرهَنُ، والرُّهُنُ: جمعُ رَهْنٍ؛ فإنَّ المصدرَ قد يُنقَلُ إلى الاسمِ فيُسمَّى به.

ثمَّ؛ يُخفَّفُ الرُّهُنُ فيُقالُ: رُهْنٌ، وهو قراءةُ ابنِ كثيرٍ، كما يُقالُ: رُسْلٌ وكُتْبٌ، وقد يُجمَعُ الرَّهنُ على رِهانٍ، وبه قراءةُ المُعظَمِ(١).

وقيلَ: الرُّهُنُ جمعُ الرِّهانِ، والرِّهانُ جمعُ الرَّهْنِ، كالثُّمُرِ في جمعِ الثِّمارِ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء، وباقي السبعة: ﴿فَرِهَٰنٌ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٤)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

أما القراءة بضم الراء وسكون الهاء فشاذة نسبت لشهر بن حوشب وجماعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥). **وقد أشار المؤلف إلى أنها قراءة ابن كثير، فلعلها في غير المشهور عنه.**

وقيلَ: الرِّهانُ جمعُ الرُّهُنِ، والرُّهُنُ جمعُ الرَّهنِ؛ لأنَّهم قد يجمَعُون فُعُلًا على فِعالٍ.

وأصلُ الكلمةِ: الدَّوامُ، يُقالُ: نعمةٌ راهِنةٌ؛ أي: دائمةٌ، فسُمِّيَ الرَّهنُ به لدوامِه وثباتِه عندَ المُرتهِنِ.

ومعنى ﴿فَرُهُنٌ مقبوضةٌ﴾: فالوثيقةُ رُهُنٌ، أو: فعليه رُهُنٌ، أو الخبرُ محذوفٌ؛ أي: فرُهُنٌ مقبوضةٌ بدلٌ عن الشّاهدَين.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ يُقالُ: أمِنَ فلانٌ فلانًا على الشَّيءِ يأمَنُه أَمْنًا وأَمَنةً وأمانًا فهو آمِنٌ، وذاك مأمونٌ، ويُقالُ: أمِنْتُ الرَّجلَ آمَنُه؛ أي: لم أخَفْه، ومنه قولُه: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٦٤]، والمعنى: إن وثِقَ بعضُكم ببعضٍ ولم يخَفِ الخيانةَ فلا بأسَ بتركِ هذه الوثائقِ، وأَمرَ هذا الذي اعتُمِدَ على أداءِ أمانتِه بأداءِ الأمانةِ فقالَ:

﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ يُقالُ: أمِنْتُه وائتَمَنْتُه فهو مأمونٌ ومُؤتَمَنٌ، والأمانةُ: ما اؤتُمِنَ عليه، فهي مصدرٌ بمعنى الاسمِ المفعولِ، كما تقولُ: هذا قدرةُ الله، وعلمُ الله؛ أي: مَقدورُه ومعلومُه، وهذا شهوةُ فلانٍ؛ أي: ما اشتَهاهُ.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: في الخيانةِ.

﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ مِن كتمانِ الشَّهادةِ: الامتِناعُ عن أدائِها بعد تحمُّلِها.

ومنه: ألّا يكونَ عند صاحبِ الحقِّ علمٌ بأنَّ له شاهدًا وخانَه صاحبُه، فمَن كان له اطِّلاعٌ على ثُبوتِ ذلك الحقِّ فينبَغي ألّا يكتمَ شهادتَه، وفي الخبرِ: «خيرُ الشُّهودِ مَن شهِدَ قبل أن يُستشهَدَ»(١).

(١) رواه مسلم (١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «ألاَ أُخبِرُكم بخير الشهداء: الذي يأتي بشهادته قبل أنْ يُسألَها». =

ومن كتمانِ الشَّهادةِ: تركُ التَّحمُّلِ عند الحاجةِ إلى التَّحمُّلِ.

﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ ذكرَ نوعًا منَ الوعيدِ لم يذكُرْه في سائرِ الكبائرِ، وهو إثمُ القلبِ.

وفي التَّفاسيرِ: أنَّه مسخُ القلبِ، وإذا مسخَ الله قلبًا جعلَه مُنافقًا وطبعَ عليه.

وقيلَ: هو كقولِكَ: فلانٌ خبيثُ الفرجِ، فإضافةُ الإثمِ إلى القلبِ بسببِ أنَّه بقلبِه يعزمُ على الكتمانِ.

وقيلَ: ﴿ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾؛ أي: فاجرٌ قلبُه؛ فإنَّ عمرَ كان يُعلِّمُ أعرابيًّا قولَه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٤]، فكان الرَّجلُ يقولُ: طعامُ اليتيمِ، فقال عمرُ: طعامُ الفاجرِ[1]. فبيَّنَ معنى الإثمِ.

= ويُعارض هذا الحديث حديث عمران بن حصين، وفيه عند البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): «... إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون». قال ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠): اختلف العلماء في ترجيحهم... فأجابوا أجوبة: أحدها: أن المراد بحديث زيد مَن عنده شهادة لإنسان بحق لا يعلم بها صاحبها، فيأتي إليه فيخبره بها، أو يموت صاحبها العالم بها، ويُخلِّف ورثةً، فيأتي الشاهد إليهم، أو إلى مَن يتحدث عنهم، فيُعلمهم بذلك، وهذا أحسن الأجوبة. قلت: وعلى هذا الجواب يدل صنيع المصنف رحمه الله.

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٧/ ١٠٢)، ولم أجده مسنداً عن عمر رضي الله عنه، لكن رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٩٨٦)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٨٤) وصححه، والثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٥٣٩)، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤١٨)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

وروي مثله عن ابن مسعود، رواه ابن وهب في قسم التفسير من «جامعه» (١١٧) و(١١٨)، وأبو يوسف في «الآثار» (٢٢٩)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣١١).

وعن أبي بن كعب رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤١٩).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يُجازي على أداءِ الشَّهادةِ وكتمانِها.

قُرِئَ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالتّاء وبالياءِ.

***

(٢٨٤) ـ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

قولُه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أكَّدَ الوعيدَ على كتمانِ الشَّهادةِ بهذا؛ أي: لله ما في السَّماواتِ والأرضِ خلقًا وملكًا، فلا يخفَى عليه شيءٌ من كتمانِ الشَّهادةِ والخيانةِ في الأمانةِ، ولكلِّ شيءٍ عندَه جزاءٌ.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ قال مجاهدٌ: مِن كتمانِ الشَّهادةِ وإخفائِها(١).

---

(١) لم أجده من قول مجاهد، لكن روي معناه عن مجاهد ومقسم عن ابن عباس:

فرواية مجاهد أخرجها سعيد بن منصور في «سننه» (٤٧٣ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٢٩)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٥٧٢) (٣٠٥٦)، بلفظ: نزلت في الشهادة.

وأما رواية مقسم فأخرجها أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (ص ٢٧٤) (٥٠٢)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٣٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤/ ٣١٥)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٦٣)، بلفظ: نزلت في كتمان الشهادة وإقامتها.

وكلا الطريقين ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد الذي روى هذا الخبر عن مجاهد ومقسم، وقال الطحاوي: فكان هذا التأويل عندنا غير صحيح؛ لأن كتمان الشهادة مما لا يغفر؛ لأنه حق من المشهود له، وفي الآية ما قد منع من ذلك.

قلت: وقد صح عن ابن عباس القول بالنسخ كما سيأتي.

وقال ابنُ مسعودٍ وقومٌ: هذه الآيةُ منسوخةٌ[١]، وقالوا: لـمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ اشتدَّ ذلك على الصَّحابةِ، فجاءَ أبو بكرٍ وعمرُ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ ومُعاذٌ، وقالوا: يا رسولَ الله! هلَكْنا وكُلِّفْنا منَ العملِ ما لا نُطيقُه، إنَّ أحدَنا ليُحدِّثُ نفسَه بما لا يحبُّ أن يثبُتَ في قلبِه، وأنَّ له الدُّنيا، فقالَ عليه السَّلامُ: «أتُريدونَ أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيلَ: سمِعْنا وعصَيْنا؟ قولُوا: سمِعْنا وأطَعْنا»، فمكثوا بذلك حولًا، فأنزلَ الله الفرَجَ والرَّحمةَ بقولِه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فنسخَتْ هذه الآيةُ ما قبلَها، فقال عليه السَّلامُ: «إنَّ الله تجاوَزَ لأمَّتي ما حدَّثوا به أنفُسَهم ما لـم يعمَلُوا أو يتكلَّمُوا به»[٢].

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٤٨٢ ـ تفسير)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود، وسنده ضعيف جدًّا؛ لشدة ضعف جويبر والانقطاع بين الضحاك وابن مسعود. لكن القول بالنسخ قد صح عن جماعة من الصحابة والتابعين، فقد رواه من طرق عن ابن عباس: الشافعيُّ في «السنن المأثورة» (٤٢٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣٧٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٣٠٧٠)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٣٢ ـ ١٣٤)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٢٧٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٦٢٦) و(١٦٢٧)، وأورده ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية، وقال: فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس، قال البخاري (٤٥٤٦): حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة، عن خالد الحذاء، عن مروان الأصفر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ أحسبهُ ابن عمر ـ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها.

قال ابن كثير: وهكذا روي عن علي، وابن مسعود، وكعب الأحبار، والشعبي، والنَّخعي، ومحمد بن كعب القُرظي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها. اهـ. وانظر التعليق الآتي.

(٢) ذكره بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٥٣٧)، فقال: «روت الرواة بألفاظ مختلفة قالوا: لما نزلت هذه الآية جاء أبو بكر... » فذكره. وكلامه يدل على أنه جمعه من أكثر من حديث وهو كذلك، =

ولا شكَّ أنَّه لا مُؤاخذةَ بما يخطرُ بالبالِ منَ الوساوسِ من غيرِ اختيارٍ، والآيةُ فيما يُجريه الإنسانُ على قلبِه باختيارِه، والامتناعُ عنه ليس من تكليفِ ما لا يُطاقُ، فالمعنيُّ بالإخفاءِ فعلُ القلبِ منَ الحبِّ والبُغضِ وكتمانِ الشَّهادةِ، فما عزمَ عليه المرءُ من ذلك ففيه العقوبةُ إلّا أن يغفرَ الله، وما لـم يعزِمْ عليه فلا عقوبةَ كما رَوَينا في الخبرِ.

وفي الخبرِ أيضًا: «إذا همَّ العبدُ بسيِّئةٍ لـم تُكتَبْ عليه إلّا أن يعملَها»[1]، يعني: ما لـم يقعْ عليه عزيمةٌ، فأمَّا إضمارُ الشِّركِ والكفرِ وغيرِه من أعمالِ القلبِ فيُؤاخَذُ به العبدُ، فمَن قال بالنَّسخِ فهو في الخواطرِ التي يُجريها المرءُ على بالِه ولا يَعزمُ فيها على العملِ بها.

= فقد روى نحوه مسلم (١٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن دون تعيين الصحابة الذين تكلموا مع النبي بشأنها، وليس فيه أنهم مكثوا حولاً حتى نزل النسخ، كما أنه لم يرد في آخره: فقال عليه السَّلامُ: «إنَّ الله تجاوَزَ لأمَّتي...» الحديث. وقد نقل ابن حجر في «العجاب» (١/ ٦٥٤) عن الثعلبي سياقه لهذا الحديث ثم قال: وهذا من عيوب كتابه ومن تبعه عليه يجمعون الأقوال عن الثقات وغيرهم ويسوقون القصة مساقاً واحداً على لفظ من يرمى بالكذب أو الضعف الشديد ويكون أصل القصة صحيحاً والنكارة في ألفاظ زائدة كما في هذه القصة من تسمية الذين ذكروا وفي كثير من الألفاظ التي نقلت والسياق في هذه بخصوصها إنما هو لبعضهم.

قلت: وكون النسخ نزل بعد حول: رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٢١١٨) عن أبي قلابة عن موسى بن مسعود..، والباقي كإسناد مسلم. قال الحافظ في «التقريب»: موسى بن مسعود صدوق سيئُ الحفظ وكان يصحف، وحديثه عند البخاري في المتابعات.

أما حديث: «إن الله تجاوز لأمتي...» فرواه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وليس عندهما أن هذه القصة كانت سببًا لوروده.

(١) رواه مسلم (١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال الضَّحَّاكُ وقومٌ: الآيةُ مُحكَمةٌ غيرُ منسوخةٍ[1]، وللقلبِ كسبٌ كما قالَ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فيُجازَى العبدُ على عملِ القلبِ كما يُجازَى على عملِ سائرِ الأعضاءِ.

ثمَّ؛ قال هؤلاءِ: النَّسخُ في الأمرِ والنَّهيِ لا في الخبرِ.

وهذا أمرٌ هيِّنٌ؛ لأنَّ المقصودَ منَ الخبرِ الأمرُ بالتَّصاوُنِ عن إخطارِ كلِّ شيءٍ بالبالِ، فيُتصوَّرُ فيه النَّسخُ.

وقيلَ: الآيةُ مُحكَمةٌ، ولكنَّ التَّعذيبَ في الخواطرِ السَّيِّئةِ بما ينالُ الإنسانُ منَ الآلامِ والمصائبِ والأحزانِ.

وقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، أنُجزَى بكلِّ سوءٍ نعملُه؟ فقال: «ألستَ تمرضُ؟ ألستَ تحزنُ؟ ألستَ يُصيبُك اللَّأْواءُ؟ فذلك ما تُجزَونَ به»[2].

وقيلَ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فتعمَلُوا به ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يُخبِرُكم به لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه يَخفَى عليه[3] شيءٌ، ثمَّ يغفرُ للمُؤمنين إنْ شاءَ ويُعذِّبُ مَن شاءَ، ولهذا قالَ: ﴿يُحَاسِبْكُم﴾، ولم يقُلْ: «يُؤاخِذْكم».

قُرِئَ: ﴿فيغفرْ لمَن يشاءُ ويُعذِّبْ مَن يشاءُ﴾ بالجزمِ إتْباعًا لِمَا قبلَه، وقُرِئَ بالرَّفعِ[4]؛ أي: فهو يغفِرُ، فالمبتدأُ محذوفٌ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٤٠) من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩١٠)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «عنه».

(٤) قرأ عاصم وابن عامر بالرفع وباقي السبعة بالجزم. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٥)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٢٨٥) ـ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

قولُه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ﴾ لـمَّا أخبرَ في هذه السُّورةِ عن جُـمَلٍ من أحكامِ الدِّينِ أخبرَ عن النَّبيِّ عليه السَّلامُ وعن المُؤمنين أنَّهم قابَلُوا جميعَ ما بيَّنَ لهم بالإيمانِ والتَّصديقِ، وهذا إخبارٌ عن المُؤمنين الموجودين في ذلك الوقتِ، وفيه حثٌّ لمَن بعدَهم على أن يفعَلُوا مثلَ فعلِهم، ومعارفُ الأنبياءِ كَسْبيَّةٌ اليومَ، ولا بدَّ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ في ثبوتِ نُبوَّتِه عندَه من مُعجزةٍ، كما لا بدَّ لغيرِه منها.

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ أي: آمَنُوا بأنَّهم صفوةُ الله، لا كما قالتِ اليهودُ: إنَّ جبريلَ عدوٌّ لنا.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ يعني: جميعَ الكتبِ المُنزَّلةِ.

وقُرِئَ: ﴿وكتابِه﴾[1]، والمُرادُ الجنسُ، وقيلَ: أرادَ القرآنَ، ثمَّ الإيمانُ به يتضمَّنُ الإيمانَ بسائرِ الكتبِ.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ قُرِئَ بحركةِ السِّينِ وسكونِها[2]، وإذا جازَ التَّخفيفُ في نحوِ «عُنْقٍ» فالجمعُ أولى به؛ لأنَّه أثقلُ منَ الآحادِ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾؛ أي يقولون: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾، بخلافِ ما فعلَتِ اليهودُ والنَّصارى، آمَنُوا بالبعضِ دونَ البعضِ، وكلُّ ما دلَّ على نُبوَّةِ موسى وعيسى فمِثْلُه دلَّ على نبوّةِ محمَّدٍ ﷺ.

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ١٩٥ ـ ١٩٦)، و«التيسير» (ص: ٨٥).

(٢) بضم السين القراءة المشهورة، وبسكونها نسبت للحسن في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٢٥).

وقُرِئَ: ﴿لا يُفرِّق﴾ بالياء[١]؛ أي: كلُّ مَن آمنَ لا يُفرِّقُ.

و﴿بَيْنَ﴾ يقتضي شيئَين فصاعِدًا، وإنَّما جازَ مع ﴿أَحَدٍ﴾ وهو واحدٌ في اللَّفظِ؛ لأنَّ «أحدًا» يُعبَّرُ به عن الجميعِ كقولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، وتقولُ: «ما يفعلُ هذا أحدٌ»؛ أي: ما يفعلُه النّاسُ، ولهذا جازَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ولا يجوزُ: لا نُفرِّقُ بين رجلٍ منهم.

﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾؛ أي: سمِعْنا قولَ الله وأطَعْنا أمرَه.

﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾؛ أي: نسألُكَ غُفرانَكَ لنا، أو: اغفِرْ غُفرانَكَ، ويُستغنَى بالمصدرِ عن الفعلِ في الدُّعاءِ، نحو: «سَقيًا» و«رَعيًا».

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: نعترفُ بالبعثِ والحسابِ.

* * *

(٢٨٦) ـ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لـمَّا قالوا في قولِه: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾: هذا مـمَّا لا نُطيقُ، قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ونسخَ الأوَّلَ، **وفي هذا نظرٌ**[٢]؛ لِـمَا تقدَّمَ في تلك الآيةِ.

---

(١) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٣٧).

(٢) وفي هذا النظر نظر، فقد صح ذلك عن الصحابة، ومنه ما روي في الصحيحين.

فالوجهُ أن يُقالَ: هذا من تمامِ قولِ المُؤمنين؛ أي: يقولون: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ لا تُكلِّفُ أنتَ نفسًا فوقَ وُسعِها، فخرجَ الكلامُ على المُغايبةِ وفيه معنى المُخاطبةِ؛ أي: نشهدُ أنَّكَ لا تُكلِّفُ، ونظيرُه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، ثمَّ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]؛ أي: إنَّكَ لا تُخلِفُ الميعادَ.

وهذا أقربُ إلى نظمِ الكلامِ من أن يُجعَلَ قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ من قولِ الله على الابتداءِ؛ لأنَّه يُبيِّنُ نظامَ الكلامِ.

والوسعُ: اسمٌ كالوَجدِ والجُهدِ، فهو اسمٌ لِمَا يسعُ الإنسانَ ولا يعسُرُ عليه.

والكلفةُ: الاسمُ ممَّا يُكلَّفُ العبدُ.

ثمَّ المعنى: لا يُكلَّفُ العبدُ ما لا يُطيقُ.

وقيلَ: الوسعُ دونَ الطّاقةِ؛ أي: لم يُكلَّفِ العبدُ إلّا دونَ ما يُطيقُ.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ **الصَّحيحُ**: أنَّه لا فرقَ بين الكسبِ والاكتسابِ.

وقيلَ: الكسبُ أخصُّ؛ لأنَّه يكسبُ لنفسِه، وقد يكتسبُ لنفسِه ولغيرِه، يُقالُ: فلانٌ كاسبُ أهلِه، ولا يُقالُ: مُكتسِبُ أهلِه.

وقيلَ: الكسبُ في الخيرِ، والاكتِسابُ في الشَّرِّ، ثمَّ قد يُستَعملُ أحدُهما مكانَ الآخرِ، غيرَ أنَّ الأكثرَ استعمالُ الاكتسابِ في الشَّرِّ، ومثلُ هذا وَعَدَ وأوعَدَ.

والمعنى: لا نُكلِّفُ نفسًا إلّا وسعَها، فمَن أطاعَ عادَ النَّفعُ إليه، ومَن عصى عادَ الضُّرُّ إليه.

وقيلَ: أي: لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنبِ غيرِه.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾؛ أي: لا تُعاقِبْنا.

ثمَّ قيلَ: معناه: قولوا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾.

وقيلَ: هو خبرٌ؛ أي: يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾.

وذُكِرَ بلفظِ المُفاعلةِ لأنَّ المُسيءَ عرَّضَ نفسَه للعقابِ، فكأنَّه أعانَ على نفسِه مَن يُعاقبُه بذنبِه ويأخذُه به، فشارَكَ في أخذِه.

﴿إِن نَّسِينَآ﴾ هو منَ النِّسيانِ الذي هو ضدُّ الذِّكرِ.

قال الحسنُ: كانوا عالِمينَ بأنَّ النَّاسيَ لا يُؤاخَذُ، ولكنَّهم تُعُبِّدُوا بالدُّعاءِ إظهارًا للعبوديَّةِ فدَعَوا، وهذا كقولِه: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ﴾[1] [الأنبياء: ١١٢]، وإنْ كانَ الله لا يحكمُ إلّا بالحقِّ، وقولِه: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وما وُعِدُوا به على ألسُنِ الرُّسلِ يُؤتَونَه.

وقيلَ: إنَّما دَعَوا لأنَّ النَّاسيَ وإنْ كان معذورًا فقد كان عليه أن يتحفَّظَ ويحترِزَ، وكان عليه السَّلامُ إذا أرادَ أن يتذكَّرَ حاجةً شدَّ على إصبعِه خيطًا، كما رُوِيَ[2]، فلا يُنكَرُ مع هذا الاستغفارُ منَ النِّسيانِ والخطأ.

وقد قيلَ: إنَّ بني إسرائيلَ كانوا إذا نسُوا شيئًا عُجِّلت لهم العقوبةُ، فأمرَ اللهُ

---

(١) قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿قالَ ربِّ﴾ خبراً عن النبي ﷺ أنه قال هذا الدعاء، وقرأ الباقون: ﴿قل﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١ ـ ٤٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٢) رواه بألفاظ مقاربة ابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (٥٨١) و(٥٨٢) و(٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: وهذه الأحاديث المختلفة المعاني أسانيدها جميعاً منكرة، ولا أعلم أنه يصح منها رواية، والله أعلم بذلك.

ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٦٦) من حديث ابن عمر وواثلة بن الأسقع ورافع بن خديج ثم قال: هذه الأحاديث ليس فيها شيء صحيح.

المسلمين أن يسألُوه تركَ مُؤاخَذَتِهم بالنِّسيانِ، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ الله يفعلُ ما يُريدُ، فلو عاقبَ البريءَ كان له ذلك، وكان ابتداءَ إيلامٍ.

وقال قومٌ: هذا النِّسيانُ بمعنى التَّركِ؛ أي: لا تُؤاخِذْنا إن تركْنا شيئًا من أوامرِك؛ كقولِه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ أي: تركُوا طاعةَ الله فتركَ ثوابَهم.

وقيلَ: هو محمولٌ على ما يفعلُه العبدُ باختيارِه، ولكنْ لنوعِ شُبهةٍ وتأويلٍ، ولم يعلَمْ أنَّه معصيةٌ، وسمَّاه نسيانًا لأنَّه لم يعلَمْ أنَّه معصيةٌ، فمَن نسيَ القرآنَ أو الصَّلاةَ لاشتغالِه بأمرِ الدُّنيا فهو مُؤاخَذٌ بهذا النِّسيانِ، ومَن نسيَ القرآنِ لعجزٍ في بِنيتِه وضعفٍ في حفظِه فهو معذورٌ، وأكلُ آدمَ الشَّجرةَ ناسيًا منَ القسمِ الأوَّلِ، وهو أن يكونَ بتأويلٍ، أو كان بمعنى تركِ الأمرِ على التَّعمُّدِ.

﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ يُقالُ: خطِئَ الرَّجلُ يخطَأُ، فهو خاطِئٌ؛ أي: آثمٌ، وأخطأ؛ أي: لم يُصِبِ الصَّوابَ.

وقيلَ: خطِئَ؛ أي: تعمَّدَ الذَّنبَ، وأخطأ ما صنعَه غيرَ عمدٍ، فعلى هذا ﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ كقولِه: ﴿إِن نَّسِينَآ﴾، إن حملْتَه على النِّسيانِ الذي هو ضدُّ الذِّكرِ.

وقال أبو عبيدةَ: خطِئَ وأخطأ بمعنًى[1]، يُريدُ: أو تعمَّدْنا الإثمَ.

والجملةُ أن يُقالَ: أخطأ؛ أي: تعمَّدَ الإثمَ، وأخطأ: إذا سها وغفلَ، فالمعنى هاهنا الإثمُ، ولكنَّه يُستعمَلُ إذا كان ثَمَّ تأويلٌ وشبهةٌ.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» (١/ ٣٧٦). ونقل ذلك عنه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٩٠) ثم تعقبه بقوله: وأما قول أبي عبيدة الذي تبعه فيه البخاري [قبل الحديث (٤٧٠٩)] حيث قال: «خطئت بمعنى أخطئت» ففيه نظر، فإن المعروف عند أهل اللغة أن «خطىء» بمعنى: أثم، و«أخطأ» إذا لم يتعمد أو إذا لم يصب.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾؛ أي: ثِقْلًا وشِدَّةً، ويُسمَّى العهدُ أيضًا[1] إِصْرًا، قال الله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١]؛ أي: عهدي.

ويُقالُ: «ما يأصِرُني عليه آصِرةٌ»؛ أي: ما يَعْطفُني عليه قرابةٌ، فسُمِّيَ الثِّقلُ إصرًا لأَنَّه يَعطِفُ الحاملَ بثقلِه، وسُمِّيَ العهدُ إصرًا لأَنَّه يَعْطفُكَ على المعهودِ معه.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾؛ أي: على اليهودِ؛ لأنَّ الله فرَض عليهم خمسينَ صلاةً، وأمرَهم بأداءِ ربعِ أموالِهم في الزَّكاةِ، وأوجَبَ قطعَ محلِّ النَّجاسةِ منَ الثَّوبِ، وأُمِرُوا بقتلِ أنفُسِهم في التَّوبةِ، وكانَ يُظْهِرُ ذنوبَهم كلَّ بُكرةٍ على أبوابِهم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ الطَّاقةُ: الاسمُ منَ الإطاقةِ، كالجابَةِ منَ الإجابةِ؛ أي: ما لا طاقةَ لنا به منَ العذابِ.

وقيلَ: ما يَثْقُلُ علينا أداؤُه منَ الأعمالِ، تقولُ: لا أُطيقُ النَّظرَ إلى فلانٍ؛ أي: يثقُلُ عليَّ ذلك.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾؛ أي: فيما اقترَفْنا.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: واستُرْ معاصيَنا.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾؛ أي: لا ننالُ عفوَكَ ومغفرتَكَ إلّا برحمتِكَ.

وقولُه فيما قبلُ: ﴿غُفْرَانَكَ﴾؛ أي: نسألُكَ غُفرانَكَ، ثمَّ قال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فلهذا كرَّرَ، أو أرادَ بأحدِهما: في الدُّنيا، وبالثّاني: في الآخرةِ، أو أحدُهما لِمَا مضى منَ الشِّركِ، والثّاني لِما وقعَ في الإسلامِ.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ أي: ناصِرُنا، والمَولى: الذي يلي عليكَ أمرَكَ.

---

(١) بعدها في (أ): «شدة و».

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أظفِرْنا بهم بالسَّيفِ كما أظهَرْتَنا عليهم بالحجّةِ.

قيلَ: لـمَّا أُوتيَ رسولُ الله ﷺ ليلةَ المعراجِ خواتيمَ سورةِ البقرةِ قالتِ الملائكةُ له: إنَّ الله قد أحسنَ عليكَ الثَّناءَ فسَلْه، وعلَّمَه جبريلُ كيفَ يدعو، فقالَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ، وجبريلُ يقولُ في كلِّ فصلٍ: قد فعَلَ الله ذلك(١).

ورَوى أبو سعيدٍ الخدريُّ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «السُّورةُ التي تُذكَرُ فيها البقرةُ فُسطاطُ القرآنِ، فتعلَّمُوها؛ فإنَّ في تعلُّمِها بركةً، وتركُها حسرةٌ، ولن تستطيعَها البَطَلَةُ»، قيلَ: وما البَطَلَةُ؟ قال: «السَّحَرةُ»(٢)(٣).

* * *

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ١٦٦) عن الضحاك والسدي، وروى معناه مسلم (١٢٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٢٤): «ذكره أبو شجاع الديلمي في «الفردوس» من حديث أبي سعيد الخدري، والمسألة في «صحيح مسلم» (٨٠٤) من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال معاوية أحد رواته: بلغني أن البطلة السحرة. وفي الباب عن بريدة عند الثعلبي والبغوي».

(٣) بعدها في (أ): «والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب».